مجلة جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي :

مجلة البحوث والدراسات

دورية أكاديمية دولية نصف سنوية محكمة
العدد (24) ـ السنة (14) ـ رمضان 1438 هـ ـ يونيو (جوان) 2017 م

ج 1

24

من موضوعات هذا العدد:

- التجديد في التفسير: التفسير الفقهي أنموذجا.
- الوقف الهبطي في المصحف المغربي: أسسه المعرفية وأبعاده الدلالية.
- مظاهرُ الصِّدِّيقية في إنجازات الخليفة أبي بكر رضي الله عنه.
- مبدأ الأمن القانوني ومدى تكريسه في القضاء الإداري.
- آلية التصديق الالكتروني كضمانة للتعاملات التجارية بالوسائل الحديثة في التشريع الجزائري.
- الحماية الجزائية لحق النفقة للطفل في القانون الجزائري.
- دور إعادة الهندسة الإدارية في محاربة سلبيات البيروقراطية.
- الإدارة بالأهداف في المؤسسات بين النظرية والممارسة.
- الطاقات المتجددة ودورها في دعم التوجه نحو التسويق الأخضر.
- آليات انتقال أثر السياسة النقدية إلى النشاط الاقتصادي.
- مساهمة القطاع الزراعي في تحقيق التنمية الاقتصادية: ـ إقليم وادي سوف نموذجا ـ
- زيغود يوسف والتخطيط الثوري لمنطقة الشمال القسنطيني -1955 1956.
- مؤتمر الصومام عام 1956 وإشكالية تجسيد قراراته.
- الصحراء الجزائرية: دراسة في الجغرافيا.
- الأطباء والبحث عن المعلومة الطبية بشبكة الإنترنيت: دراسة ميدانية بكلية العلوم الطبية بجامعة الجزائر1.
- دور المعلم في التحكم في عملية التقويم بواسطة مقاربة الكفاءات لمرحلة التعليم المتوسط.
- انفتاح أسلوب الشرط على غير معنى المجازاة في النص القرآني.
- تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها...الواقع والمأمول: المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس أنموذجا.
- المؤكد اللغويُ غير الصناعيِّ في التراث النحويِّ العربيِّ - باب المنصوبات الفضلة نموذجًا-
- توظيف الأسطورة في الإبداع الأدبي: الأصل والرمز والدلالة.
- القوى الخَفيّة ومصادر الإلهام الشعري: قراءة لنفسيّة الشّاعر العربيّ القديم.
- جماليات اللّغة السّينمائيّة.

ISSN 1112 - 4958

مجلة البحوث والدراسات

جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
العدد 24 / 2017
1

صفحة بيضاء

مجلة جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي

مجلة البحوث والدراسات

دورية أكاديمية دولية نصف سنوية محكمة

العدد (24) - السنة (14) - رمضان 1438 هـ - يونيو (جوان) 2017 م (الجزء الأول)

ISSN 1112 – 4958

الرئيس الشرفي
أ. د. عمر فرحاتي

رئيس التحرير
أ. د. إبراهيم رحماني

نائب رئيس التحرير
د. عبد القادر حوبه

هيئة التحرير

أ. د. إسماعيل لعيس
أ. د. أحمد زغب
أ. د. عبد الرحمن تركي
أ. د. محمد رشيد بوغزالة
أ. د. محمد السعيد عقيب
أ. د. عادل محلو
د. المكي دراجي
د. إلياس شاهد

توجه جميع المراسلات باسم السيد:

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات – جامعة الوادي
ص. ب: 789 ولاية الوادي 39000 الجزائر.
فاكس: 22 03 13 032 أو 04 30 22 032
Email : revue-recherches-etudes@univ-eloued.dz
www.univ- eloued.dz

من أعضاء الهيئة العلمية الاستشارية

أ. د. إبراهيم بختي (جامعة ورقلة)
أ. د. أبو بكر بحري (جامعة الطارف)
أ. د. أبو بكر لشهب (جامعة الوادي)
أ. د. أحمد جلايلي (جامعة ورقلة)
أ. د. أحمد بن ناصر (جامعة الجزائر)
أ. د. أحمد عبد الرحمن الملحم (جامعة الكويت)
أ. د. الطاهر سعد الله (جامعة الوادي)
أ. د. القرشي عبد الرحيم البشير (جامعة الشارقة)
أ. د. الكوني علي اعبودة (جامعة الفاتح . ليبيا)
أ. د. الهاشمي لوكيا (جامعة قسنطينة)
أ. د. بديع السيد اللحام (جامعة دمشق . سوريا)
أ. د. بشير بن عيشي (جامعة بسكرة)
أ. د. حسين الدوري (العراق)
أ. د. راسم مسير الشمري (جامعة بابل . العراق)
أ. د. شفيق السامرائي (جامعة لاهاي . هولندا)
أ. د. صالح العلي (جامعة دمشق . سوريا)
أ. د. صالح مفقوده (جامعة بسكرة)
أ. د. صبري مسلم حمادي (جامعة ذمار . اليمن)
أ. د. عاطف إسماعيل أحمد (جامعة عمر المختار . ليبيا)
أ. د. عبد العزيز حاجي (جامعة دمشق . سوريا)
أ. د. عبد القادر دامخي (جامعة باتنة)
أ. د. عبد الله بوخلخال (جامعة الأمير عبد القادر . قسنطينة)
أ. د. علي آجقو (جامعة بسكرة)
أ. د. علي قريشي (جامعة باتنة)
أ. د. علي محي الدين علي القره داغي (جامعة قطر)
أ. د. عمر سعد الله (جامعة الجزائر)
أ. د. كمال عجالي (جامعة باتنة)
أ. د. محمد الغالي (جامعة القاضي عياض . المغرب)
أ. د. محمد الناصر بوغزالة (جامعة الجزائر)
أ. د. محمد بوعمامة (جامعة باتنة)
أ. د. محمد خان (جامعة بسكرة)
أ. د. محمد ملياني (جامعة وهران)
أ. د. محمد يوسف الزعبي (جامعة البحرين)
أ. د. مسعود مزهودي (جامعة باتنة)
أ. د. موسى رحماني (جامعة بسكرة)
أ. د. نصر سلمان (جامعة الأمير عبد القادر . قسنطينة)
أ. د. وهبي محمد مختار (السودان)
أ. د. ياسين محمد الغادي (جامعة الإمارات العربية المتحدة)
أ. د. يلس شاوش بشير (جامعة وهران)

المحتويات
مجلة البحوث والدراسات
العدد (24) ـ السنة (14) ـ رمضان 1438 هـ ـ يونيو (جوان) 2017 م
الجزء الأول

الموضوع	رقم الصفحة
● محور بحوث العلوم الإسلامية ●	09
▣ التجديد في التفسير: التفسير الفقهي أنموذجا. ✍ د/ عيسى بوعكاز (جامعة باتنة 1)	11
▣ الوقف الهبطي في المصحف المغربي: أسسه المعرفية وأبعاده الدلالية ✍ أ/ إدريس ريمي (جامعة الوادي)	33
▣ مظاهرُ الصِّدّيقية في إنجازات الخليفة أبي بكرٍ رضي الله عنه. ✍ د/ حسين شرفه (جامعة باتنة 1)	57
▣ جدلية العلاقة بين العقل والنقل عند عبد الباري الندوي. ✍ أ/ باي أحمد عامر(جامعة الوادي)	91
▣ التقعيد المقاصدي للفتوى. ✍ أ. منير يوسف (جامعة الوادي)	115
● محور بحوث العلوم القانونية والسياسية ●	137
▣ مبدأ الأمن القانوني ومدى تكريسه في القضاء الإداري. ✍ د/ محمد بوكماش ، وخلود كلاش (جامعة خنشلة)	139
▣ آلية التصديق الالكتروني كضمانة للتعاملات التجارية بالوسائل الحديثة في التشريع الجزائري . ✍ د/ دريس كمال فتحي (جامعة الوادي)	159
▣ كفالة اليتيم في التشريع الجزائري. ✍ د/ سعاد زغيشي (جامعة باتنة1)	177
▣ الحماية الجزائية لحق النفقة للطفل في القانون الجزائري. ✍ أ/ مباركة عمامرة (جامعة الوادي)	195

▣ إشراك الجمعيات أحد الوسائل القانونية في حماية البيئة.
✍ أ/ ريمة كرمي (جامعة جيجل) 211
▣ دور إعادة الهندسة الإدارية في محاربة سلبيات البيروقراطية.
✍ د/ الهادي دوش (جامعة الوادي) 225
▣ الإدارة بالأهداف في المؤسسات بين النظرية والممارسة.
✍ د/ مصطفى بلعور (جامعة ورقلة) 239
●محور بحوث العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير● 251
▣ الطاقات المتجددة ودورها في دعم التوجه نحو التسويق الأخضر.
✍ د/ إلياس شاهد ، ود/ عبد النعيم دفرور (جامعة الوادي) 253
▣ آليات انتقال أثر السياسة النقدية إلى النشاط الاقتصادي.
✍ أ/ علي ذهب(جامعة الوادي) 273
▣ مساهمة القطاع الزراعي في تحقيق التنمية الاقتصادية: ـ إقليم وادي سوف نموذجا ـ
✍ أ/ عمار مصطفاوي (جامعة الوادي) 287

ويليه الجزء الثاني

- **ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه، ولا يمثل بالضرورة رأي المجلة.**
- **يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط برتبة الباحث ولا بمكانته العلمية.**

قواعد النشر في المجلة

ترحب المجلة بكل إسهامات الأساتذة والباحثين، ويشترط في البحوث والدراسات المرشحة للنشر بالمجلة ما يأتي:

- المعالجة الموضوعية وفق الأسلوب العلمي الموثق.
- الالتزام بأصول البحث العلمي وقواعده العامة والأعراف الجامعية في التوثيق الدقيق لمواد البحث.
- أن لا يكون البحث منشورا أو مقدّما للنشر في مجلة أخرى.
- أن لا يكون البحث مستلا من رسالة جامعية أو من كتاب سبق نشره.
- يشترط في البحوث ذات الصبغة النقدية التزام الموضوعية، وتجنب العبارات الجارحة.
- أن يتراوح عدد صفحات البحوث من خمسة عشر صفحة إلى خمس وعشرين صفحة من الحجم A4.
- أن يلتزم الباحث بمعايير البحث العلمي وقواعده مع مراعاة التصحيح الدقيق للبحث.
- أن يرقن بحثه بخط «ترادیسیونال أرابيك» صفحات A4 ، وأن يستعمل حجم الخط 16 بالنسبة للمتن، و12 بالنسبة للحاشية وفق صيغة وورد، وأن تكون الحواشي والإحالات آخر البحث وفق ترقيم تسلسلي مع ذكر البيانات الكاملة للمصادر والمراجع المعتمدة.
- يرفق البحث بملخص في حدود مائة كلمة. مع ترجمته إلى إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية.
- يرسل البحث عبر بريد المجلة الإلكتروني، أو يرسل في قرص ممغنط CD مع نسختين ورقيتين عبر العنوان البريدي للمجلة.
- يرفق الباحث خطاباً موقعاً منه يطلب فيه نشر بحثه، متضمنا تصريحا بكون بحثه ليس جزءا من رسالة جامعية أو كتاب منشور أو أرسل للنشر في دورية أخرى.
- يرفق البحث بالسيرة الذاتية للكاتب متضمنة درجته العلمية ووظيفته وعنوانه الكامل (المهني ـ الشخصي) البريدي والإلكتروني ورقم الهاتف.
- تُعرض البحوث على لجنة فحص أولي للنظر في مدى استيفائها لشروط النشر، ثم توجه إلى التحكيم المتخصص بشكل سري.

- لا تلتزم المجلة بالرد على البحوث الواردة غير المرفقة بالوثائق المطلوبة.
- البحوث المنجزة من طلبة الدكتوراه يتم إرسالها عن طريق المشرف مع تصريحه بتصحيح العمل وتزكيته للنشر.
- ترسل المجلة وعدا بالنشر بمجرد وصول التقارير إيجابية. كما ترسل اعتذارا عن النشر إذا كانت التقارير غير إيجابية دون الالتزام بإعادة إرسال الأبحاث إلى أصحابها أو بيان مبررات الامتناع عن النشر.
- تمتلك المجلة حقوق نشر البحوث المقبولة فيها للنشر، ولا يجوز نشرها لدى جهة أخرى إلا بعد الحصول على ترخيص رسمي من المجلة.
- لا يحقّ للباحث طلب عدم نشر بحثه بعد تحكيمه وقبوله للنشر.

صدر العدد الأول من المجلة

في ربيع الأول 1425 هـ **أفريل** 2004م

مجلة البحوث والدراسات

العدد (24) ـ السنة (14) ـ رمضان 1438 هـ ـ يونيو (جوان) 2017 م

محور بحوث العلوم الإسلامية

صفحة بيضاء

التجديد في التفسير
التفسير الفقهي أنموذجا

بقلم
د/ عيسى بوعكاز(*)

ملخص

يبحث هذا المقال في عملية التجديد في التفسير عموما من خلال بيان حقيقته وضوابطه، ويخص بالبحث نوعا من أنواع التفسير وهو التفسير الفقهي؛ لما لهذا النوع من اهتمام بواقع الناس المتجدد بمرور الأزمنة واختلاف الأمكنة.

فالتفسير نتاج عصر المفسر وبيئته، ولكي يساير الواقع لابد له من عملية التجديد، حتى يحقق مقصد مراعاة تغير أحوال الناس واختلاف بيئاتهم، ليجد فيه كل أهل عصر ما يوافق واقعهم المعيش. ويستنبطون منه الأحكام الشرعية لما يستجد لهم من أقضية.

إن التفسير الفقهي مجاله الأحكام العملية؛ أي بالفقه، والفقه موضوعه الحياة، وأمور الحياة متجددة، بتجدد الوقائع والحوادث، وقضايا الناس غير منتهية، بينما النصوص الشرعية منتهية. مما يقتضي الاجتهاد في إيجاد الأحكام الشرعية لما يستجد من أمور حياة الناس. والاجتهاد في هذه القضايا يعتمد على الكتاب والسنة.

إن التفسير الفقهي قد تطور من حيث المنهج. فالتفاسير الفقهية القديمة كانت تعتمد في بيان الأحكام الفقهية على قواعد مذهب من المذاهب الفقهية، مع المقارنة بغيره من المذاهب في بعض المسائل. بينما التفاسير الفقهية الحديثة تعتمد منهج الفقه المقارن في الغالب؛ أي تجمع بين آراء المذاهب، وتبين منهج كل مذهب. مع إيراد بعض القضايا المستجدة، وبيان حكمها الشرعي.

ويبقى التجديد في التفسير عموما والتفسير الفقهي خصوصا مطلبا ملحا لكن بضوابط محددة حتى لا يخرج عن الإطار المرغوب والمقصد المشروع.

الكلمات المفتاحية: التفسير – القرآن– التجديد– الفقه.

(*) أستاذ محاضر "أ" بقسم أصول الدين ـ كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة باتنة1.
Bouakaz1965@gmail.com

مقدمة

القرآن الكريم كتاب هداية و تشريع وحياة للبشرية، والسبيل لبلوغ هدايته واستنباط أحكامه، إنما يتحقق بتفسيره. ولئن كان المسلمون الأوائل يفهمون ما تحمله الآيات من معاني بيسر. فإن امتداد الزمان، و كثرة الاجتهادات في تفسير آي القرآن العظيم، أدى إلى وجود كم هائل من التفاسير. وكل مفسر اجتهد في بيان مراد الله بحسب ما بلغه من علم سابقيه وما عرف في عصره.

فالتفسير نتاج عصر المفسر وبيئته، ولكي يساير الواقع لابد له من عملية التجديد، حتى يحقق مقصد مراعاة تغير أحوال الناس واختلاف بيئاتهم، ليجد فيه كل أهل عصر ما يوافق واقعهم المعيش.

ولعل أهم نوع من أنواع التفسير الذي له ارتباط وثيق بالحياة العملية للناس؛ إنما هو التفسير الفقهي فهو سبيل لبيان مراد الله، فيما يتعلق بالأحكام الشرعية العملية، و من ثم فإن له علاقة بواقع الأمة العملي، و لذلك لا بد من تجديده ليساير تطور الواقع العملي للناس، وفق ما يحقق مصالحهم الدينية و الدنيوية.

والتفسير الفقهي مظهر من المظاهر التي تؤكد صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق في كل زمان و مكان، و من ثم إيجاد الأحكام الشرعية لوقائع الناس المستجدة. وحتى يحقق ذلك فلابد من تجديده في مناهجه و عرضه.

فالبحث يحاول الإجابة عن التساؤلات الآتية :

- ما مفهوم التجديد. وما ضوابط التجديد في التفسير ؟
- و هل يمكن أن يتغير التفسير ويتطور بتغير أحوال الناس و عوائدهم؟
- ما ملامح التجديد في التفسير الفقهي المعاصر؟

إن هذه المقال يحاول الإجابة عن التساؤلات السابقة؛ و لذلك رأيت أن يصاغ عنوانه:

" التجديد في التفسير – التفسير الفقهي أنموذجا– ".

و من خلال الخطة التالية:

أولا: تحديد المفاهيم

ثانيا: حكم التجديد في التفسير الفقهي وضوابطه

ثالثا– مجالات التجديد في التفسير الفقهي

أولا: تحديد المفاهيم

1 – مفهوم التجديد:

أ – التجديد في اللغة: أعاده الشيء إلى سيرته الأولى "جدد الثوب تجديدا: صيره جديدا. وتجدد الشيء تجددا: صار جديدا،قول: جدده فتجدد وأجده أي الثوب وجدده واستجده: صيره، أو لبسه جديدا فتجدد. والجديد نقيض البلى والخلق."[1]

فالتجديد من الجِدّة، والكلمة تدور على إبراز ما لم يكن بارزاً أو إنشاء ما لم يكن منشأً أو من الإيجابية في العمل والاستمرار فيه.

ب – التجديد في الاصطلاح:

يعرف التجديد بأنه: " اجتهاد في فروع الدين المتغيرة، مقيد (محدود) بأصوله الثابتة. "

وليس يعني هذا المصطلح الإتيان بالجديد ضرورة وهذا ما لحظه في كل زمان المؤلفون والمبدعون والفاعلون في الأمة في كل أوقاتها.

عرف العلماء التجديد في الحديث" بإحياء ما أندرس من معالم الدين، وانطمس من أحكام الشريعة وما ذهب من السنن، وخفي من العلوم الظاهرة والباطنة"[2].

وعرف التجديد في التفسير:"هو تجديد الفهم لكتاب الله على ضوء واقع المسلمين المعاصر وفق قواعد أصول التفسير"[3]

2– مفهوم التفسير.

أ – مفهوم التفسير في اللغة: التفسير مصدر من الجذر (ف س ر) ومعناه: الإبانة والتوضيح والكشف، وهو المعنى الذي تثبته المعاجم العربية، و"فسر": الفسر: البيان. وقد فسرت الشيء أفسره بالكسر فسرا. والتفسير مثله. والفسر كالتفسير، جاء في المقاييس لأحمد بن فارس: "فسر" الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه، من ذلك الفسر، يقال: فسرت الشيء وفسرته و الفسر و التفسرة: نظر الطبيب إلى الماء وحكمه فيه" [4]

والمادة بتقاليبها الستة تدل على البيان والكشف والتوضيح، واستخدم القرآن هذه المادة بمعنى البيان والكشف قال تعالى:﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ الفرقان:33. أي بيانا وكشفا .

فالتفسير:" الشرح والبيان وتفسير القرآن: من العلوم الإسلامية. يقصد منه توضيح معاني القرآن الكريم وما انطوت عليه آياته من عقائد وأسرار وحكم وأحكام"[5].

ب – مفهوم التفسير في الاصطلاح:

– تعريف الزركشي(– 794هـ): " التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه"(6)، ثم بين العلوم التي يحتاج إليها فقال:" واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ".(7)

– وأكثر العلماء يعرف التفسير بأنه:"علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"(8).

3– مفهوم التفسير الفقهي:

التفسير الفقهي مركب من جزأين؛ يقتضي بيان مفهومه، تعريف جزأيه: "التفسير" و"الفقه". والتفسير سبق بيان مفهومه في اللغة والاصطلاح، ولذلك سنقتص على بيان مفهوم الفقه:

أ – مفهوم الفقه في اللغة: هو الفهم و العلم، ويأتي بمعنى إدراك الأشياء والعلم بها، جاء في مقاييس اللغة:" فقه الفاء والقاف والهاء أصلٌ واحدٌ صحيح، يدلُّ على إدراكِ الشيء والعِلْمِ به. تقول: فَقِهْتُ الحديث أفْقَهُه، وكلُّ عِلْمٍ بشيء فهو فِقْه، يقولون لا يَفْقَه ولا يَنْقَه؛ ثم اختُصَّ بذلك علمُ الشَّريعة، فقيل لكلّ عالمٍ بالحلال والحرام: فقيه، أفقهتك الشيء، إذا بَيّنْتُه لك"(9). قال صاحب اللسان:" الفِقْهُ العلم بالشيء والفهمُ له وغلبَ على عِلْم الدين لسِيادَتِه وشرفه وفَضْلِه على سائر أَنواع العلم... والفِقْهُ في الأَصل الفَهْم يقال أُوتِيَ فلانٌ فِقْهاً في الدين أَي فَهْماً فيه قال الله عز وجل: ﴿ليَتفَقَّهوا في الدين﴾ أَي ليَكونوا عُلَماء به وفَقَّهَه اللهُ ودعا النبي ﷺ لابن عباس فقال:"اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ." أَي فَهِّمْه تأْويلَه ومعناه"(10).

والفقه أخص من الفهم، قاله ابن القيم:"والفقه أخص من الفهم، لأن الفقه فهم مراد المتكلم من كلامه "وهو قدر زائد على مجرد فهم اللفظ في اللغة، ويتفاوت الناس في الفهم بتفاوت مرتبتهم في الفقه والعلم.

ثم استعمل– الفقه– في عرف الإسلام في نوع من الفهم العميق، وهو فهم الأحكام الشرعية"(11).

فالفقه في اللغة له معان عديدة ؛ فيطلق على الفهم، والفهم الدقيق، والعلم والبيان، وإدراك غرض المتكلم من كلامه وفهم مراده.

ب– مفهوم الفقه في الاصطلاح: وأشهر تعريف للفقه عند المتأخرين هو ما ذكره السبكي

وابنه تاج الدين: "العلم بالأحكام الشرعية المكتسب من أدلتها التفصيلية "[12]

ج- مفهوم التفسير الفقهي:

والتفسير الفقهي يطلق عليه تارة اسم آيات الأحكام، وتارة فقه الكتاب، واختلف العلماء في تحديد مفهومه على أقوال منها:

1- التفسير الفقهي: "هو التفسير الذي يعنى فيه بدراسة آيات الأحكام وبيان كيفية استنباط الأحكام منها".[13]

والمقصود بآيات الأحكام؛ تلك الآيات التي بين الله فيها حكما شرعيا للمخاطبين على سبيل الفرض عليهم، أو التحريم، أو الندب، أو الكراهة، أو الإباحة.أي الآيات التي نصت على الأحكام الفقهية.

2- التفسير الفقهي هو: "التفسير الذي يولي موضوع الأحكام الفقهية عناية خاصة".[14] ففقهاء المفسرين هم الذين صنفوا في هذا الاتجاه بتتبع آيات الأحكام في القرآن الكريم مبينين دلالاتها مستفسرين عما تضمنته من فقه.

3- التفسير الفقهي: " هو تفسير ماله صلة بالأحكام الشرعية العملية في القرآن الكريم "[15].

فالتفسير الفقهي يتحدد مجاله أساسا، بنصوص التشريع في القرآن، وبما ألفه الفقهاء من تفاسير لهذه النصوص، وذلك بقصد الوقوف على ما تحتوي عليه من أحكام، ومعان، ودلالات، واستشراف.

وتتعلق الأحكام الشرعية بما يصدر عن المكلفين من أقوال، وأفعال، وعقود وتصرفات. ويسمى فقه القرآن، ويتضمن نوعين أساسيين من الأحكام:

أ- أحكام العبادات: وتتمثل في أحكام الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والنذر واليمين... ونحو ذلك من العبادات التي يقصد بها تنظيم العلاقة بين الإنسان و ربه عز وجل.

ب- أحكام المعاملات: وتتمثل في أحكام العقود والتصرفات، والعقوبات والجنايات وغيرها ما تستهدفه من مقاصد وغايات يراد بها - في النهاية- أن يكون قصد المكلف في العمل موافقا لقصد الله في التشريع، ونحو ذلك مما يقصد به تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض سواء كانوا أفرادا أم جماعات.

4- مفهوم التجديد في التفسير الفقهي :

إن مفهوم التجديد عموما وفي التفسير الفقهي على الخصوص يمكن حصره في العناصر

التالية:

– إحياء ما غاب عن الناس من مفاهيم فأول مراحل التجديد بعد العلم هو إزالة الغربة عن الدين بمفاهيمه وأحكامه ورسم الصورة الصحيحة الواضحة.

– إحياء ما اندرس من العمل من الكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما وما ترك الناس من سنن ومعالم الدين.

– الرد على أهل الباطل وأهل البدع وما يبث من إشاعات وأباطيل حول الإسلام وأحكامه؛ من خلال تفسير آيات الأحكام.

– إصلاح أوضاع الناس وسلوكهم حسبما يقتضيه هذا الدين.

ثانيا: حكم التجديد في التفسير الفقهي وضوابطه :

1- حكم التجديد في التفسير الفقهي:

إن التجديد سنة إلهية شرعية في هذا الدين، وتتلاءم مع ما هو معلوم من أن الله قد ختم الأنبياء بمحمد ﷺ، فالعلماء الذين يجددون لهذه الأمة دينها هم نواب له ووراث لهديه ﷺ، فهم يحيون ما اندرس من الدين في نفوس الناس. لقوله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا "[16]

وقال المناوي في بيان معنى الحديث:"يجدد لها دينها، أي يبين السنة من البدعة ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم... قالوا: ولا يكون إلا عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة".

فتجديد الدين يعني إعادة نضارته ورونقه وبهائه وإحياء ما اندرس من سننه ومعالمه ونشره بين الناس.[17]

والتجديد المقصود ليس تغييراً في حقائق الدين الثابتة القطعية لتلائم أوضاع الناس وأهوائهم، ولكنه تغيير للمفهومات المترسبة، ورسم للصورة الصحيحة الواضحة، ثم هو بعد ذلك تعديل لأوضاع الناس وسلوكهم حسبما يقتضيه هذا الدين.[18].

والسؤال الذي يطرح هل يمكن أن يتجدد التفسير الفقهي ويتطور؟.

التفسير الفقهي يتعلق بالفقه، والفقه موضوعه الحياة، وأمور الحياة متجددة، بتجدد الوقائع والحوادث؛ وقضايا الناس غير منتهية، بينما النصوص الشرعية منتهية. مما يقتضي الاجتهاد في إيجاد الأحكام الشرعية لما يستجد من أمور حياة الناس. والاجتهاد في هذه القضايا يعتمد على

الكتاب والسنة.

من خلال اعتماد رأي بعض المفسرين، تأويل النص بما يتماشى والمقاصد الشرعية؛ وفي هذا يقول الشهرستاني:" وبالجملة نعلم قطعا ويقينا أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد ونعلم قطعا أيضا أنه لم يرد في كل حادثة نص ولا يتصور ذلك أيضا.

والنصوص إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى. علم قطعا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد." (19).

ويقول ابن العربي في بيان أن المعاني تتجدد بتكرار قراءة نصوص القرآن الكريم ما نصه:" يتلو المحفوظ من القرآن فيجد في كل تلاوته معنى لم يجده في التلاوة الأولى، مع أن الحروف المتلوة هي هي بعينها، وإنما الموطن والحال تجدد ولابد من تجدده ، فإن زمان التلاوة الأولى غير زمان التلاوة الثانية"(20). فإذا كانت إعادة القراءة تكشف معاني جديدة في القرآن الكريم. فإن التدبر والنظر في آيات الأحكام قد يجلي بعض المعاني عند المتأخرين، لم تنكشف للأولين.

ولابد من التنبيه إلى أن ما يتغير من أحكام فقهية ويتطور، هو ما كان دليله ظني الدلالة، وقد تنص الآيات على المبادئ العامة وتترك تفاصيل الفروع لاجتهادات العلماء بحسب ما يحقق مصالحهم – في مجال المعاملات دون العبادات ، أو ما ثبت باجتهاد المفسرين؛ القائم على مراعاة روح النصوص الشرعية، واختلاف أعراف الناس وعوائدهم. و لا شك أن التفسير المتعلق بهذا القسم، قابل للتطور والتغيير بمرور العصور واختلاف الأمصار؛ لأنه خاضع لاجتهاد المفسرين، وأعراف الناس وعاداتهم. و قد سبق الكلام في هذا البحث، حول العرف وتأثيره في تغير الأحكام الشرعية.

أما ما ثبت حكمه بدليل قطعي الدلالة، فلا مجال فيه للتطور والتغيير. فهو ثابت لا يعتريه تبديل ولا تغيير. فلا يتأثر بمرور الزمان، ولا اختلاف المكان.

2- ضوابط التجديد في التفسير الفقهي:

إن أشد ما نحتاج إليه اليوم هو وضع ضوابط للتجديد في الفكر الإسلامي عموما ذلك أن الآراء والأفكار ترد على الأمة الإسلامية من جميع الحضارات وخاصة الحضارة الغربية الحديثة التي هي محل إعجاب الغالبية العظمى من المسلمين، وقد سهل سرعة وصول أفكار الحضارات الأخرى وانتشارها في المجتمعات الإسلامية الثورة المعلوماتية بجميع أشكالها.

والتفسير من العلوم التي تتأثر بهذه الأفكار الوافدة، ولذلك كان لزام على المتصدي لهذا

العلم أن يتوقف عند ضوابط منهجية عامة و خاصة. و يمكن إجمال تلك الضوابط فيما يأتي:

أ- التجديد لا يكون في أصول الشريعة، بل يقتصر على فقه الشريعة وآليات فهمها، ولهذا فإن التجديد ليس تجديداً للدين وخروجاً عنه أو تجاوزاً له، بل هو مجرّد الاستجابة الطبيعية لحاجات التديّن في عصر متجدّد وظروف حادثة.

ب - التجديد لا يطال المسائل القطعية الدلالة، وهي معدودة في الشريعة، يكفر أو يخرج عن الملة منكرها وروداً أو دلالة، وهي تشمل قطعيات العقائد الإسلامية (غير المختلف فيها) كما تشمل أصول الأخلاق والعبادات وأصول المعاملات والفرائض والحدود المنصوص عليها.

وهذه القطعيات هي بمثابة صمام الأمان الذي يحفظ الأمة من الزيغ والهلاك، وهي الثوابت التي تدور حولها بقية المتغيّرات والظنيات، وبالطبع لا مجال للحديث عن الاجتهاد أو التجديد في القطعيات، اللّهم في المقدار المخصّص شرعاً لفهمها لغة وعقلاً وهذا الأمر هو اعتباري تجوّزي محض.

ج – التجديد قد يكون في فروع الشريعة والمتمثلة في المسائل الظنية: التي يكون مدركها ظني الورود أو الدلالة. وهذه المسائل هي الغالبية الساحقة من المسائل الشرعية، ويجوز فيها الخلاف ويقع فيها الاجتهاد بإجماع المسلمين، ومن ضمنها تقع تسعة أعشار المسائل السياسية الشرعية والاجتماعيات التي لا نص فيها، ومثالها: طرق تنظيم البيعة أو الشورى، أو مدّة ولاية الحاكم المسلم وطرق واليات انتخاب أو تعيين أو عزل أعضاء مجالس الشورى وأهل الاختصاص ونحو ذلك كثير.

د- ألا يؤدى التجديد إلى التعارض مع النصوص الشرعية أو الإخلال بها، لأن الأصل هو التمسك بالنصوص الشرعية لقوله تعالى:﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ سورة التغابن: 12. وغير ذلك من الآيات والأحاديث الداعية إلى طاعة الله تعالى ورسوله. فأي تفسير لنص القرآني يتعارض مع النصوص الشرعية القطعية لا اعتبار له، كالفكر الذي يبيح الربا ويرفض الحجاب الشرعي للمرأة وإقامة الحدود الشرعية.

هـ- أن يكون لدى المجدد من العلم الشرعي الحد الكافي، و على الخصوص شروط المفسر، والقواعد العامة للأفتاء. وبعض أهل العلم اشترط أن يكون مجتهداً ويمكن أن يضبط هذا الشرط ويقال: إن كان التجديد كلياً فيجب أن يكون الشخص المجدد مجتهداً مطلقاً وإن كان التجديد جزئياً فيكفي أن يكون المجدد مجتهداً في المسألة والقضية التي سيجدد فيها وهذا أقرب

الأقوال إلى الصواب في مسألة هذا الشرط.

ثالثا ـ مجالات التجديد في التفسير الفقهي :

التجديد في التفسير الفقهي قد يكون على مستوى المناهج، أو على مستوى الموضوعات وهو ما نحاول بيانه في ما يأتي من البحث.

1- التجديد في مناهج التفسير الفقهي:

المفسر يخضع لقواعد وضوابط المنهج المعتمد في عملية التفسير. ولكنه رغم ذلك يتأثر بذاتيته في تحديد اجتهاداته. مما أدى إلى تتعدد مناهج التفسير الفقهي وهو ما ذهب إليه محمد قاسم المنسي عندما قال: "فنحن لا نعتقد أن التفسير الفقهي، كان له منهجان فقط إلا إذا قصرنا المنهج على القواعد والضوابط التي تحكم عملية التفسير، لكن الواقع أن المفسر أو الفقيه لا يستطيع أن يزعم أنه – في اجتهاده وفهمه– غير متأثر بنظرة خاصة أو بميل خاص، يسهم – إلى حد ما – في تشكيل وصياغة مواقفه وآرائه واجتهاداته .

ومن هنا نذهب إلى أن مناهج التفسير تعددت وتنوعت، باختلاف المفسرين زمانا ومكانا، وطريقة وثقافة، وتقديرا لمصالح الناس، وإدراكا لمقاصد الشريعة.

وقد حصرتها الأستاذة وسيلة بلعيد في منهجين حيث قالت:" تتابع التأليف في هذا الموضوع – التفسير الفقهي – على طريقتين : إحداهما: تمحضت لآيات الأحكام، ومن أهم التآليف فيها كتاب أحكام القرآن للجصاص بالنسبة للحنفية، وكتاب أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي من المالكية. والطريقة الثانية: وهي تتناول تفسير القرآن بأكمله، ويمثلها القرطبي (ت631هـ) بكتابه (الجامع لأحكام القرآن) فقد فسر القرآن آية آية حسب ترتيب السور."[21] وهو تقسيم على أساس الشمول لكل آيات القرآن الكريم، أو انتقاء بعضها دون أخرى؛ أي آيات الأحكام.

وهناك من قسم آيات الأحكام على أساس المنهج المتبع في الترتيب وهو ما أورده محقق تفسير فقه القرآن للراوندي فقال:" بدأ هذا الموضوع – تفسير آيات الأحكام – بشكل بسيط في الجمع والعرض، ثم تطور مع تطور باقي العلوم الشرعية حتى أصبح فنا خاصا له معالمه وأصوله، وأصبح التأليف فيه يحتاج إلى خبرة واسعة في الأدب واللغة والتفسير والفقه.

وقد تفنن المؤلفون في ذلك في ترتيب كتبهم ومؤلفاتهم، وأكثر الطرق المتبعة هي طريقان: ترتيب الآيات حسب السور الواردة في القرآن الكريم من سورة البقرة إلى آخره، أو ترتيبها في كتب من الطهارة إلى الديات على غرار الأبواب الفقهية في تصانيف الفقهاء.

الطريقة الأولى أكثر ما تميل إلى المباحث التفسيرية، وأما الثانية فتوجه اهتمامها إلى المسائل الفقهية أكثر من غيرها. ومن الطبيعي أن تختلف قيمة هذه المؤلفات من الوجهات العلمية، ومن بينها كتب هي في القمة من حيث العمق والشمول وسعة آفاق الدراسة." (22)

ومما سبق عرضه من أقوال العلماء والباحثين. يمكن حصر مناهج التفسير الفقهي في أربعة مناهج، بحسب الاستقراء العام للتفاسير الفقهية.وهذه المناهج عرفت منذ القديم، ونجمل الكلام فيها لا فيما يأتي.

أ- مناهج التفسير الفقهي في القديم:

1- المنهج الانتقائي التحليلي.2- المنهج الانتقائي التجميعي.3- المنهج الانتقائي التجميعي الفقهي. 4 - المنهج الشمولي.

1- المنهج الانتقائي التحليلي:

أ- مفهومه: وهو قائم على اختيار الآيات التي فيها حكم فقهي وتحليلها واستنباط ما فيها من أحكام فقهية.ويفسر سورة بسورة مع تحديد عدد آيات الأحكام في كل سورة؛ كأن يقول:" سورة كذا وفيها كذا ". ولا يقوم المفسر بتجميع الآيات ولا يفسر إلا آيات الأحكام.

ب. مثال المنهج الانتقائي التحليلي: يُمثل هذا المنهج أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (ت 543 هـ) في كتابه:"أحكام القرآن". فمنهجه انتقائي يقوم على انتخاب آيات الأحكام من كل سورة دون غيرها، ويأتي على تفسيرها بحسب ترتيبها في السورة. ولا يقوم بتجميع الآيات ذات الموضوع الواحد إلا نادرا – للاستدلال والاستشهاد-، بل يفسر كل آية في موضعها.

فابن العربي كان ينتقي الآيات التي تحوي حكما فقهيا ويقوم بتحليلها، دون أن يجمع الآيات، أو يضعها تحت عنوان فقهي معين، مع المحافظة على ترتيبها في السورة، ولكن يعيد ترقيم الآيات المنتقاة - الآيات الحكمية – حسب ترتيبها في السورة. و مما يدل على انتقائه، أنه يحدد في بداية السورة عدد الآيات التي يفسرها من السورة.

وقد سار على هذا المنهج في مبدئه العام عدد من المفسرين؛ كالكيا الهراسي وغيره.

وانتُقد هذا المنهج من بعض الباحثين بقول أحدهم:" وهذا الاتجاه في التفسير، الذي اتبع أصحابه طريقة تفسير القرآن حسب ترتيب الآيات و السور في المصحف. لأن"الآيات التشريعية" لا تُفسر إلا مجتمعة، وذلك أن بعضها قد أصابه النسخ، وبعضها مفصل للمجمل

منها، وبعضها مقيد لمطلقها"[23].

ورغم هذا الانتقاد لهذا المنهج إلا أنه يبدو الأسهل في البحث عن المعلومات والأحكام الفقهية الواردة في القرآن الكريم، ولكل أصناف الباحثين.

2- المنهج الانتقائي التجميعي "الموضوعي":

أ- مفهومه: وهو قائم على اختيار الآيات التي فيها حكم فقهي، وتجميعها في موضوع فقهي، ثم تحليلها و استنباط ما فيها من أحكام فقهية.ويفسر سورة بسورة مع عدم تحديد عدد آيات الأحكام في كل سورة.

ب- مثال المنهج الانتقائي التجميعي: يُمثل هذا المنهج أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص (ت 370هـ) في كتابه:"أحكام القرآن". فمنهجه تجميعي يقوم على تجميع آيات الأحكام من كل السور تحت موضوع فقهي واحد في الغالب،ثم يأتي على تفسيرها بحسب ترتيبها في السورة. وهكذا يفسر سور القرآن بحسب ترتيبها في المصحف. يقول صفوت مصطفى في بيان منهج الجصاص بعد بيانه للتفسير الموضوعي وعناصره وتطبيقها على تفسير الجصاص:" ونحن إذا اعتبرنا هذه العناصر في تفسير الإمام الجصاص سنجد أنه ضمّنها في مواضع كثيرة من تفسيره "أحكام القرآن"، فهو يجمع – من مختلف السور- الآيات المماثلة في موضوع واحد ، أو مصطلح واحد، وذلك من أجل تكامُل الفهم وتناول الموضوع على ضوء جميع ما ورد فيه ... فعند مروره بالآيات التي يريد تفسيرها يُعنون لها بعناوين تدل على ما فيها من أحكام، فيقول مثلا: "باب فرض الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر "، أو" باب صلاة الخوف"، أو نحو ذلك، وإذا كان للآية المعنون لها نظائر فهو يوردها، ثم يبحث في تلك الآيات ويفسرها تفسيرا موضوعيا مختصرا."[24]

وهذا لا يعني أنه ديدنه في تفسيره؛ بل الغالب فيه.

وهذا المنهج هو الغالب في تفسير الجصاص، كما أثبته صفوت مصطفى خليلوفيتش بقوله: "تناول الإمام الجصاص في تفسيره تناولا أوليا آيات الأحكام مرتبا لها كما جاءت في سورها، مستنبطا ما تضمنته من أحكام ودلالات.

وفي جميع ذلك اهتم الجصاص اهتماما بالغا بتفسير القرآن بالقرآن إذ نجده يحرص كل الحرص على جمع الآيات المماثلة من القرآن الكريم ومقابلة بعضها ببعض، سواء كان ذلك في مجال الفقه والأحكام، أو مجال التفسير العام."[25]

وامتدح هذا المنهج من بعض العلماء والباحثين؛ لأن تفسير آيات الأحكام مجتمعة هو الأحسن؛ فبعضها مفصل للمجمل منها، وبعضها مقيد لمطلق منها، و بعضها ناسخ لبعض منها، أو منسوخ...

وهو ما أشار إليه ابن تيمية في مقدمته جوابا على أحسن طرق التفسير فأجاب:" أن أصح الطرق في ذلك: أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر. "(26)

وأكده صفوت مصطفى حيث قال:" وعلى ضوء ما تقرر لدى العلماء فإن مثل هذا المسلك يُعتبر من أقوم المسالك وأحسنها في تفسير كتاب الله، إذ به يتكامل الفهم ويستبين المقصود من النص القرآني حيث يُنظرُ إلى الموضوع بنظرة شاملة لكل ما ورد فيه، ويُفسّر القرآن بما ورد في القرآن نفسه، وبالتالي يُفهم مراد الله بما جاء عن الله."(27)

3- المنهج الانتقائي التجميعي الفقهي:

أ- مفهومه: وهو قائم على اختيار الآيات التي فيها حكم فقهي وتجميعها تحت موضوع فقهي. ثم تحليلها واستنباط ما فيها من أحكام فقهية. معتمدا على ترتيب الفقهاء في مصنفاتهم ؛ بداية بموضوع الطهارة، وانتهاء بموضوع الديات. و لا يفسر الآيات بحسب ترتيبها في السورة، كما لا يلتزم بترتيب السور؛ وإنما ينتقي الآيات ذات الموضوع الواحد، ضمن الموضوع وتوزع الآيات على عناصر الموضوع.

ولذلك أسميته المنهج الانتقائي التجميعي الفقهي؛ لاعتماده منهج الفقهاء في ترتيب الموضوعات.

ب- مثال المنهج الانتقائي التجميعي الفقهي: يُمثل هذا المنهج ، قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت 573ه) وهو إمامي اثنا عشري، في كتابه:" فقه القرآن ".

ومنهج قطب الدين الراوندي في تفسيره، منهج انتقائي تجميعي فقهي يقوم على تجميع آيات الأحكام من كل السور تحت موضوع -حكم- فقهي واحد مبوب تبويبا فقهيا كترتيب كتب الفقه بداية من كتاب الطهارة - وانتهاء بكتاب الديات. و لا يفسر الآيات بحسب ترتيبها في السورة ، ولا يهتم بترتيب السور. وهو ما أكده محقق فقه القرآن بقوله:" فإنه مع اختصاره النسبي شامل لأطراف الموضوع جامع لما يجب أن يقال غني بما تناوله من الاستدلال. عرض الموضوع على ترتيب الكتب الفقهية حيث بدأه بكتاب الطهارة وختمه بكتاب الديات، مع رعاية المباحث

التفسيرية والفقهية فأشبعها بحثا وتعمقا إذا كانت المسألة تحتاج إلى ذلك."[28]. ويقسم تفسيره إلى كتب، و الكتاب إلى أبواب، ويجعل للباب عنوانا، والباب قد يقسمه إلى فصول.

إن الراوندي يعتمد على منهج، يقوم بانتقاء الآيات التي تحوي حكما فقهيا، ثم يصنفها ضمن الموضوع الفقهي الذي تحمله، مرتبا موضوعاته بحسب ترتيب الفقهاء معتمدا على نظام الكتب، والكتاب يتفرع إلى أبواب، والباب يتفرع بدوره إلى فصول. ثم يأتي على تحليل آيات الباب آية آية، مستنبطا ما فيها من الأحكام الفقهية.

والباحث في هذا النوع من التفاسير يجد صعوبة في الوصول إلى الآية؛ إذ يجب عليه أن يكون ملما ببعض المعلومات الفقهية. وهي تصانيف أقرب إلى الفقه من التفسير.

ويُلاحظ أن هذا المنهج؛ منتشر عند الشيعة وخاصة الإمامية الاثنا عشرية، ولا أثر له عند أهل السنة. وذلك بحسب ما اطلعت عليه من تفاسير فقهية لأهل السنة والشيعة.

4- المنهج الشامل:

أ- مفهومه: وهو قائم على تفسير القرآن بأكمله ، أي آية آية بحسب ترتيبها في المصحف، دون اختيار للآيات التي فيها حكما فقهيا، وتجميعها في موضوع فقهي. فيشرح معاني الألفاظ والتراكيب، شرحا مفصلا بمراعاة قواعد التفسير المعتمدة عند أهل التفسير.ولكن يخص آيات الأحكام باهتمام متميز، أي يغلب عليه الاهتمام بالأحكام الفقهية.

ب- مثال المنهج الشامل: يُمثل هذا المنهج أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي (ت 671هـ) في كتابه:" الجامع لأحكام القرآن". فمنهجه شامل يقوم على تفسير كل آيات القرآن الكريم آية آية بحسب ترتيبها في السور، وبحسب ترتيب السور في المصحف. ويخص آيات الأحكام باهتمام زائد فأضفى على تفسيره، الطابع الفقهي. تقول وسيلة بلعيد في بيان هذا المنهج:" والطريقة الثانية وهي تتناول تفسير القرآن بأكمله، ويمثلها القرطبي (ت631هـ) بكتابه (الجامع لأحكام القرآن) فقد فسر القرآن آية آية حسب ترتيب السور وشرح معاني الألفاظ والتراكيب، بحسب ما تقتضيه علوم اللغة والنحو والبلاغة، وقد غلب على تفسيره طابع الاهتمام بالأحكام الفقهية."[29]. ووصف طاش كبرى زاده منهج القرطبي في اهتمامه الكبير بالأحكام الفقهية فقال:" وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية أصلا، والجواب عن أدلة المخالفين "[30].

ويقوم بالترجيح بين أراء الفقهاء وأصحاب المذاهب، ولذاك صنف العلماء تفسيره ضمن

التفسير الفقهي الشامل لتركيزه الشديد على المسائل الفقهية، تماما كما فعل أصحاب التفاسير الفقهية.

فمنهج القرطبي في تفسيره منهج شمولي يفسر الآيات بحسب ترتيبها في السورة، ولا يقوم بتجميع آيات الموضوع الواحد. كما لا يفرد آيات الأحكام بالتفسير دون غيرها، إلا أنه يفصل في الأحكام الفقهية التي جاءت بها الآية مع ذكر وجوه الاختلاف عند الفقهاء.

وهذا المنهج يمكن أن يكون المنهج المفضل للتفسير الفقهي، لأنه يعرض جميع القضايا بنظرة شمولية، تظهر الترابط بين جميع موضوعات القرآن الكريم ومقاصده الأساسية، وهو ما ذهبت إليه الأستاذة وسيلة بلعيد بقولها: "وهذا الرأي جدير بالعناية لأنه لفت النظر إلى المنهج الشمولي، الذي يتسم به كتاب الله، وأحكامه فالنظر في المسائل العقائدية والتشريعية ينبغي أن يخضع إلى المنهجية الشمولية، التي عرفت عند كثير من علمائنا، وما استطراداتهم وتوسعهم في تحليل المسألة إلا أنهم متفطنون إلى دلالتها الجزئية، فكانوا يستطردون للانتهاء إلى تقديمها في وجهها الكلي."[31].

ومن التفاسير التي نهجت هذا النهج؛ تفسير "أحكام القرآن" لأبن الفرس وهو أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم (– 597هـ). رغم أنه لا يأتي على تفسير كل آيات السورة، فقد يترك بعضها[32].

يمكن التسليم لهذا الرأي من هذه الزاوية. ولكن تخصيص آيات الأحكام بمؤلفات خاصة، هو اتجاه عرف منذ عهد تدوين العلوم، كما أنه يسهل عملية البحث للباحث؛ ويوفر له الجهد والوقت.

ومجمل القول أن مناهج التفسير الفقهي على العموم أربعة: منهج انتقائي تحليلي، ومنهج انتقائي تجميعي، و منهج انتقائي تجميعي فقهي، ومنهج شمولي. إلا أن هذه المناهج تتباين في جزئياتها بحسب كل مفسر وما يتأثر به من مبادئ وقواعد للتفسير، ومن قواعد المذهب وآراء أئمته...وغيرها من العوامل الذاتية والخارجية.

ب– التفسير الفقهي في العصر الحديث ومناهجه:

وهي تلك التفاسير التي ألفت بداية من القرن الرابع عشر الهجري. بعد الركود و التقليد الذي ساد لأكثر من اثني عشر قرنا، فجاء عهد النهضة وكان للعلوم الشرعية حظها من الاهتمام؛ ومنها التفسير عامة؛ و التفسير الفقهي خاصة.

وقد اهتم بعض العلماء بالتفسير الفقهي، من خلال مؤلفاتهم؛ ولكن معظم المؤلفات الحديثة فيه، ظهرت في الوسط الجامعي، بحسب ما تقرره مناهج الجامعات. أي أنها ارتبطت بالمقررات و المناهج الجامعية، فقد كان العديد من مؤسسات التعليم العالي في حاجة إلى هذا النوع من التأليف، حتى يكون مدخلا يسهل على الطلبة التعامل مستقبلا مع مصادر العلم، تبعا لذلك اتجه بعض أساتذة علم التفسير بهذه الجامعات إلى تنقيح محاضراتهم سنة بعد أخرى وإعدادها للطبع فيما بعد"[33]. فظهرت تفاسير حديثة فسرت آيات الأحكام و منها[34]:

1- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، لمحمد صديق حسن خان القنوجي (-1347 ه). وهو أول المؤلفين العصريين في آيات الأحكام.

2- أحكام القرآن، ظفر أحمد التهانوي (- 1394 ه).

3 -الفتوحات الربانية، لمحمد عبد العزيز(-1932م).

4- دراسات في تفسير بعض آيات الأحكام، لكمال جودة أبو المعا طي مصطفى (-1938م).

5- تفسير آيات الأحكام، لمناع خليل القطان (-1952م).

6- تفسير آيات الأحكام، محمد علي للسايس (- 1976م).

7- مفاهيم موجزة حول آيات الأحكام في القرآن الكريم، لمحمد صالح.

8 - روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني .

9- تفسير آيات الأحكام، أحمد محمد سيد أحمد الحصري.

فالتفسير الفقهي وجد منذ بداية الإسلام، و مر بمراحل تطور فيها ونما، وبلغ ذروته في القرن الرابع الهجري، و لم ينقطع التصنيف فيه إلى اليوم.

ج- خصائص التفسير الفقهي في العصر الحديث:

خصائص التفسير الفقهي هي ما يميزه من صفات ينفرد بها غيره؛ سواء من حيث الموضوع، أو الأهداف والغايات، أو من حيث الوسائل، ويمكن حصر خصائص التفسير الفقهي فيما يأتي:

1- التفسير الفقهي؛ يصنف من تفاسير الاختصاص؛ لأنه يعنى بجانب خاص من القرآن الكريم ، وهو الآيات التي جاءت بحكم فقهي. وقد عرف هذا التحول في علم التفسير؛ حيث انتقل علم التفسير من الإحاطة والشمول إلى الاختصاص. وما يدلل على ذلك عناوين المؤلفات التي ظهرت في تلك المرحلة من علم التفسير.

يقول حسن عزوزي :"التفسير الفقهي من بين ما يمكن تسميته بتفاسير الاختصاص وهو

التحول الذي عرفه علم التفسير بالانتقال من الإحاطة والشمول إلى الاختصاص ولقد انعكس ذلك على العناوين التي عرفت بها هذه التفاسير.

وهكذا وجدت كتب معاني القرآن و إعراب القرآن وغريب القرآن وأحكام القرآن... وهي كتب اختص كل واحد منها بجانب من جوانب القرآن في مقابل الكتب الجامعة مثل جامع البيان للطبري ونحوه." (35).

فالتفسير الفقهي ظهر إلى الوجود والتطبيق نتيجة حركة التخصص في العلوم، وخاصة علم التفسير.

2- التفسير الفقهي موضوعه آيات الأحكام، وغايته استنباط الأحكام الفقهية من الآيات القرآنية. سواء في جانب العبادات، أو جانب المعاملات. والتي كان مقصد إنزالها تبليغ حكم فقهي. فالتفسير الفقهي يتناول الآيات التي تتضمن حكما فقهيا، حيث يفسر معنى الآية، مجليا ما تحويه من أحكام فقهية.

3- تباين مناهج المفسرين لآيات الأحكام، فيختلف منهج تفسير الآيات الفقهية بين مفسر وآخر ؛ فمنهم من يفسر الآيات الفقهية، تفسيرا شموليا بحسب ورودها في القرآن الكريم ، محافظا على ترتيبها الآيات في السور، وترتيب السور في القرآن الكريم، وهو المنهج الشمولي. كتفسير القرطبي.

وآخرون ينتقون الآيات الفقهية من السور، ويفسرونها، بحسب موضوعها الفقهي، مع المحافظة على ترتيبها في المصحف؛ وهو المنهج الانتقائي التحليلي. كتفسير أحكام القرآن، لابن العربي.

وقد يكون بمنهج انتقائي تجميعي موضوعي؛ أي بتجميع الآيات وتصنيفها دون المحافظة على ترتيبها في السور، وتبويبها بحسب موضوعها الفقهي. وهو منهج تجميعي موضوعي، كتفسير أحكام القرآن، للجصاص.

ومنهم من نهج، منهجا انتقائيا تجميعيا فقهيا، يقوم على تجميع آيات الأحكام من كل السور تحت موضوع - حكم- فقهي واحد مبوب تبويبا فقهيا كترتيب كتب الفقه بداية من كتاب الطهارة وانتهاء بكتاب الديات. كتفسير " فقه القرآن"لسعيد بن هبة الله الراوندي.

يقول حسن عزوزي مبينا بعضا من مناهج المفسرين لآيات الأحكام:" سار بعض المفسرين والفقهاء على طريقة التبويب الفقهي، وذلك بالسعي إلى ترتيب سور القرآن مبوبة كتبويب الفقه،

وكل باب من الأبواب يعنون بعنوان تندرج فيه المسائل التي يتعرض لها المؤلف في ذلك الباب، ولذلك تأتي ترجمة الباب بصيغة خبرية عامة، أو تكون الصيغة مقررة لحكم ما أو سؤال معين وغير ذلك ، وممن سار على هذا النهج الإمام الجصاص الحنفي في كتابه " أحكام القرآن " .

واهتم بعض المفسرين بترتيب مختلف القضايا المستنبطة من فقه الآيات في مسائل مرتبة ، حيث يعمد المفسر إلى الآية فيذكر ما فيها من كلام حول أسباب النزول والغريب وغير ذلك ، ثم ينتقل إلى ذكر المسائل الفقهية مرتبة ، مضمنًا إياها ما بلغه من اجتهادات واستنباطات العلماء ، ثم ما استنبطه هو نفسه حسب اجتهاده ورأيه ، يقول القرطبي:" واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام بمسائل تسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها ، فضمنت كل آية تتضمن حكمًا أو حكمين فما زاد، مسائل أبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول وتفسير الغريب والحكم ؛ فإن لم تتضمن حكمًا ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل "[36]. "[37].

فهذا التنوع في المناهج من أهم خصائص التفسير الفقهي التي انفرد بها عن باقي أنواع التفسير الأخرى.

4- التفسير الفقهي في العصر الحديث، اصطبغ بصبغة الاعتدال والموضوعية و المقارنة بين المذاهب دون تعصب.

فالدارس لتفسير آيات الحكام في العصر الحديث يلاحظ خلو تفاسير المعاصرين من التعصب للمذاهب الفقهية، فلا يكاد يصادف بين التفاسير المعتبرة كتابا يتعصب لمذهب محدد في الفروع، وسواء رجعنا لمؤلفات أعلام المفسرين المعاصرين الذين خلفوا تفاسير علمية شاملة لجميع سور القرآن وآياته، أو إذا نظرنا إلى إسهامات المفسرين الذين اقتصروا على التأليف في آيات الأحكام فحسب، فإننا نجد نفس التصور لقضية المذهبية الفقهية، فالمفسر المعاصر لم يلتزم بمذهب معين، يتتبع أصوله في استنباط الأحكام أو يجمع فتاواه في النوازل، بل كان هذا المفسر ينظر إلى المذاهب الفقهية السنية جميعا نظرة واحدة، فيقارن بينها، ويوازن بين استنباطاتها"[38].

وهذه النظرة الاعتدالية في التفاسير الفقهية المعاصرة، كانت هي السائدة في تدريس الفقه والتفسير الفقهي في الجامعات و المعاهد. وهو ما أشار إليه الشيخ محمد علي السايس:"... وفي التدريس تساوت المذاهب حرمة وتقديرا في نظر العلماء والطلاب بالأزهر، ولم يعد شيء من ذلك الجفاء الذي كنا نسمع به ممن سبقنا من متأخري الفقهاء "[39].

6- واتسم التصنيف في التفسير الفقهي بعدم الشمول للقرآن الكريم؛ بل لآيات الأحكام،

أي يتناول بعض الموضوعات. دون استعابه لكل موضوعات الفقه كما كان للسابقين.

هذه جملة من خصائص التفسير الفقهي، تميزه وتحدد معالمه، إذا قورن بغيره من أنواع التفسير.

3- التجديد في المنهج:

وعرف التفسير الفقهي تطورا من حيث المنهج. فالتفاسير الفقهية القديمة كانت تعتمد في بيان الأحكام الفقهية على قواعد مذهب من المذاهب الفقهية، مع المقارنة بغيره من المذاهب في بعض المسائل. بينما التفاسير الفقهية الحديثة فتعتمد منهج الفقه المقارن في الغالب؛ أي تجمع بين آراء المذاهب، وتبين منهج كل مذهب. مع إيراد بعض القضايا المستجدة، وبيان حكمها الشرعي.

- تقريب الفقه للناس وتيسيره، وكتابته بأسلوب يناسب العصر، مع استخدام الوسائل المتاحة في هذا العصر وذلك يتم بأمور منها :

أ- استخدام اللغة الميسرة السائدة في هذا العصر.

ب- التخفيف من المسائل التي لا وجود لها في عصرنا كبعض المعاملات التي لا يتعامل بها حالياً، أو يتعامل بها على نطاق ضيق كشركات المفاوضة والعنان، فينبغي التركيز على ما يعايشه الناس في هذا الشأن وغيره كأعمال البنوك وشركات التأمين، ونحو ذلك، وكذلك البعد عن التفصيلات وتفصيلات المسائل التي لا طائل من ورائها .

ج- استخدام معارف العصر في الترجيح، فقد يترجح بعض الأقوال بناء على ذلك، خلافاً لما يذكر في كتب الفقه، فالسفينة التي يتكلم الفقهاء السابقون عن ضمانها غير السفينة الحالية، فتلك تحركها الرياح وهذه يحركها المحرك الآلي .

د- تحويل المقادير الشرعية إلى مقادير معاصرة، فلا يكاد الناس اليوم يعرفون مقدار الدينار والفرسخ والقلة والوسق إلا ببيانها بالمقادير المعاصرة، وهو أمر متاح وقد ألفت فيه مؤلفات عدة.

هـ. الحرص على بيان الحكمة من التشريع فإن لها أثراً على اطمئنان القلب كما في قوله تعالى:﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ العنكبوت:45. مع الاستفادة مما يكتبه المعاصرون كحديثهم عن مضار التدخين، ومضار ولوغ الكلب في الإناء، وأكل لحم الخنزير، مع الحذر من التعليلات القاصرة التي تفتح الباب لذوي الأهواء أو المنكرين كتعليل تحريم الربا باستغلال حاجة الفقير وتعليل الزنا باختلاط الأنساب، مع الإشارة إلى عدم الجزم بالعلة أو الحكمة من

التشريع إذا لم يكن منصوصاً عليها .

و- ربط جزئيات الفقه بمقاصد الشريعة الكلية: فالإسلام كل لا يتجزأ، فمن المناسب جداً أن يتكلم المرء عن نظام العاقلة في الديات ويربط ذلك بنظام النفقات والمواريث حتى يتضح جانب الغنم والغرم ، وكذلك عند الحديث عن نصيب الذكر والأنثى ينبغي أن يذكر بأن المرأة إن كانت زوجاً فنفقتها على زوجها، وإن كانت بنتاً فنفقتها على أبيها إن احتاجت ... إلخ .

ز- الاستفادة مما كتبه المعاصرون من العلماء الثقات في جميع جوانب الفقه وكذلك فتاوى المجامع الفقيه وهيئات كبار العلماء والموسوعات الفقهية ورسائل الماجستير و الدكتوراه.

ح- الاستفادة من الوسائل المعاصرة التي تيسر الشرح من الرسوم والأشكال التي لا محظور فيها كما كان ﷺ يستخدم الخط على الرمل وضرب المثال.

2- مجالات التجديد في الموضوعات:

عرفنا فيما سبق أن التجديد في التفسير الفقهي ممكن، وأن مجالاته من حيث الموضوعات عديدة ويمكن ذكر بعض منها:

- قضايا التشريعات الإسلامية وخصوصا المتعلقة بالأسرة وتعدد الزوجات والطلاق والميراث وحقوق المرأة.
- قضية الاجتهاد ونقض التقليد.
- قضايا السياسة والوطن.
- قضايا العلم والحرية.
- قضايا الاقتصاد الإسلامي.

فهذه موضوعات يكثر دورانها في الكتب وكان لها حضورا بارزا في ثنايا التفسير الفقهي.

الخاتمة

التفسير نتاج عصر المفسر وبيئته، ولكي يساير الواقع لابد له من عملية التجديد، حتى يحقق مقصد مراعاة تغير أحوال الناس واختلاف بيئاتهم، ليجد فيه كل أهل عصر ما يوافق واقعهم المعيش.

والتجديد المقصود ليس تغييراً في حقائق الدين الثابتة القطعية لتلائم أوضاع الناس وأهوائهم، ولكنه تغيير للمفهومات المترسبة، ورسم للصورة الصحيحة الواضحة، ثم هو بعد ذلك تعديل لأوضاع الناس وسلوكهم حسبما يقتضيه هذا الدين.

التفسير الفقهي يتعلق بالفقه، والفقه موضوعه الحياة، وأمور الحياة متجددة، بتجدد الوقائع والحوادث؛ وقضايا الناس غير منتهية، بينما النصوص الشرعية منتهية. مما يقتضي الاجتهاد في إيجاد الأحكام الشرعية لما يستجد من أمور حياة الناس. والاجتهاد في هذه القضايا يعتمد على الكتاب والسنة.

التفسير الفقهي في العصر الحديث، اصطبغ بصبغة الاعتدال والموضوعية والمقارنة بين المذاهب دون تعصب. وهو مظهر من مظاهر الموضوعية و التجديد في التفسير الفقهي في العصر الحديث.

كما عرف التفسير الفقهي تطورا من حيث المنهج. فالتفاسير الفقهية القديمة كانت تعتمد في **بيان الأحكام الفقهية على قواعد مذهب من المذاهب الفقهية، مع المقارنة بغيره من المذاهب في** بعض المسائل.

بينما التفاسير الفقهية الحديثة تعتمد منهج الفقه المقارن في الغالب؛ أي تجمع بين آراء المذاهب، وتبين منهج كل مذهب. مع إيراد بعض القضايا المستجدة، وبيان حكمها الشرعي.

ويبقى التجديد في التفسير عموما والتفسير الفقهي خصوصا مطلب ملح لكن بضوابط محددة حتى لا يخرج عن الإطار المرغوب والمقصد المشروع.

ـ الهوامش:

1- لسان العرب، ج3، ص111 دار صادر، بيروت، لبنان، د ت، ط1،و الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت،ط4، 1407 هـ- 1987 م،ج 2، ص454.

2- فيض القدير، المناوي، مكتبة التجارية الكبرى – مصر،ط1، 1356ه، ج 1، ص282 .

3- مقال، التجديد في التفسير،يحي شطناوي، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد السادس، العدد الثالث والعشرون، 1431 ه- 2010م.

4 – مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، دار الفكر، بيروت، لبنان،د ت ط، مادة " فسر ".

5 – المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية ،مادة "سفر"،المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا، د ت ط.

6 – البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، دار المعرفة، بيروت، د ت ط، ج1،ص14.

7 – المصدر نفسه ،ج1ص14.

8- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط8، 2003م، ج1، ص13.

9 – مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج4، ص442.

10- لسان العرب، ابن منظور، مادة"فقه".

11 – المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، محمد مصطفى شلبي، دار النهضة العربية، د ط،1985م، ص31.

12 – الإبهاج في شرح المنهاج، علي بن الكافي السبكي وولده تاج الدين عبد الوهاب السبكي، دار الكتب العلمية

لبنان،د ت ط، ج1، ص 28.

13- علوم القرآن، نور الدين عتر، مطبعة الصبح ، دمشق – سوريا-،ط6، 1416ه- 1996م، ص103.

14- مناهج المفسرين المعاصرين في آيات الأحكام ،خالد عبد الرحمن الرشيدي، رسالة دكتوراه، دار العلوم، جامعة القاهرة ، 2005م-2006م، ج1، ص 43.

15 - ينظر: مولاي عمر بن حماد، التفسير الفقهي _ النشأة والخصائص، www.tafsir.org.

16- سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة ، رقم: 3740، والحاكم في المستدرك (4،ص522).

17 - فيض القدير،المناوي، ج 1، ص282 .

18- العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، محمد حامد الناصر، ص 355، 356.

19 - الملل والنحل ، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحق: محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة، بيروت ، 1404هـ د ط، ج1، ص197.

20 - التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1981م،ج1، ص 14.

21- التفسير واتجاهاته بإفريقية من النشأة إلى القرن الثامن الهجري، وسيلة بلعيد بن حمدة، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس، ط 1، 1994،ص55-56.

22 - فقه القرآن، سعيد بن هبة الله بن الحسن بن عيسى الرواندي،مكتبة آية الله العظمى النجفي المرعشي، مطبعة الولاية، قم، ط 2،1405هـ ج1، ص15.

23 - دراسات في القرآن، السيد أحمد خليل،ص136، نقلا عن التفسير واتجاهاته بإفريقية من النشأة إلى القرن الثامن الهجري، وسيلة بلعيد بن حمدة، ص56.

24 – أبو بكر الرازي الجصاص ومنهجه في التفسير،صفوت مصطفى خليلوفيتش، دار السلام،القاهرة،ط1، 2001م، ص239 .

25 – أبو بكر الرازي الجصاص ومنهجه في التفسير، صفوت مصطفى خليلوفيتش، ص 231.

26 - مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، شرح محمد بن عمر بن سالم بازمول، دار الإمام أحمد، القاهرة، مصر، ط2006،1م، ص201.

27 - الإمام أبي بكر الرازي الجصاص ومنهجه في التفسير، صفوت مصطفى خليلوفيتش، ص 231.

28 - فقه القرآن، سعيد بن هبة الله بن الحسن بن عيسى الرواندي، ج1، ص15.

29 - التفسير واتجاهاته بإفريقية من النشأة إلى القرن الثامن الهجري، وسيلة بلعيد بن حمدة، ص55و56.

30 - مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده، دار الكتب الحديثة، القاهرة مصر، د ت ط، ج3، ص85.

31 - التفسير واتجاهاته بإفريقية من النشأة إلى القرن الثامن الهجري، وسيلة بلعيد بن حمدة، ص55و56.

32 - أحكام القرآن، لأبي محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم المعروف بابن الفرس، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2006م.

33 - مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، المذهبية الفقهية وأثرها في تفسير آيات الأحكام قديما وحديثا، عبد الرزاق هرماس، العدد 46، السنة 12، 1421 هـ- 2000م، ص125.

34 - ينظر: مناهج المفسرين المعاصرين في آيات الأحكام، خالد عبد الرحمن الرشيدي، رسالة دكتوراه، دار العلوم، جامعة القاهرة،2005م-2006م، ج1. و معجم مصنفات القرآن الكريم، علي شواخ إسحاق، دار الرفاعي، الرياض،ط1، 1983م. ج2. والتفسير والمفسرون في العصر الحديث، عبد القادر محمد صالح دار المعرفة،

بيروت، ط1، 2003م.
35 – ملامح عن الاتجاه الفقهي في التفسير، حسن عزوزي، –(الشبكة الإسلامية)، http://www.islamweb.net.
36 – الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، د ط ، 1423 هـ– 2003 م،ج1، ص3.
37– ملامح عن الاتجاه الفقهي في التفسير، حسن عزوزي، –(الشبكة الإسلامية)، http://www.islamweb.net.
38 – مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، المذهبية الفقهية وأثرها في تفسير آيات الأحكام قديما وحديثا، عبد الرزاق هرماس ، العدد 46، السنة 12، 1421 هـ.2000م، ص115.
39 – تاريخ الفقه الإسلامي، محمد علي السايس، ص149.

Renewal in interpretation: the doctrinal interpretation as a model

Dr. Aissa BOUOUKEZ*

Abstract:

This article studies the process of renewal in the interpretation of Quran "tafsir" –in general-through stating its meanings and standards, emphasizing on a kind of an interpretation: the doctrinal interpretation; which is related to the peoples' real life and interests over times and in different places.

The interpretation of Quran is the product of the era of the interpreter and its environment, and in order to keep its reality, tafsir must have a process of renewal, to go with the changed conditions of people and their different environments, and needs. To derive legal provisions of the emerging acts, in every district.

The field of jurisprudence interpretation is the practical provisions. The theme of jurisprudence is life and its renewed facts and incidents, and issues to the people are limitless, while religious texts are limited. Which requires diligence in finding legal provisions to the emerging issues of peoples' lives. And diligence in these cases must be based on Quran and Sunnah.

Jurisprudential interpretation progressed methodologically. Ancient jurisprudential Tafsirs were dependent on the rules of one of the doctrines of Islamic jurisprudence, with a comparison to the other doctrines in some matters.

While interpretations of modern jurisprudence were –often- based on the approach of comparative jurisprudence; through gathering several views, showing the approach of every doctrine. With the statement of some emerging issues, and their renewal in interpretation in general, and in jurisprudential explanation especially, remains an urgent requirement, but the specific controls so as not to deviate from the desired frame and destination project.

Keywords: interpretation (Tafsir) - Quran - renewal – jurisprudence (Fiqh).

* Faculty of Islamic Sciences - University of Batna1- Algeria

الوقف الهبطي في المصحف المغربي
أسسه المعرفية وأبعاده الدلالية

بقلم
أ/ إدريس ريمي(*)

ملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان جهود العلامة محمد بن أبي جمعة الهبطي في خدمة المصحف المغربي من حيث وضع أوقافه .

ونظرا لأهمية هذه الشخصية، حيث لم أجد مصحفا في شتى بلدان المغرب الإسلامي خلا من تدوين اسمه والاعتماد على وقفه، فقد عرّفت به وهذا لمـّا وجدته مغمورا غير آخذ حقه من التعريف الكامل في كتب التراجم، ثم وضَّحْتُ أهم الأسس المعرفية والأبعاد الدلالية التي اقترنت بهذه الأوقاف .

اعتمد الهبطي في أوقافه على أصول لغوية بيانية، وأسس عقدية فقهية، كما اعتمد في وضع أوقافه على أقوال علماء التفسير، وبنى الكثير من أوقافه على المنهج التعليمي للقرآن الكريم المعروف في المدرسة القرآنية المغربية .

الكلمات المفتاحية: الوقف – ابن أبي جمعة – المصاحف المغربية – الأسس المعرفية .

مقدمة

اعتنى المسلمون بالوقف القرآني منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد تلقُّوْ القرآن من فمه الشريف غضا طريا كما أنزل، وهكذا تعلّموا أحكامه من الحلال والحرام، كما تعلموا إتقان تلاوته وحسن بيان آياته، وانشغلوا بمعرفة قواعد الحفاظ على حسن سبك الآيات ومرعاة فواصلها، ، وذلك عن طريق حسن الوقوف على الآيات ومرعاة معانيها .

(*) أستاذ مساعد "أ" بقسم الحضارة الإسلامية ـ معهد العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي..
rimidris@gmail.com

فقد بدأت الدعوة لعلم الوقف منذ عهد الصحابة، يدل على ذلك قول ابن عمر: « لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا، وَأَحَدُنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَآمِرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، فَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ»[1]

ففي الحديث إشارة واضحة إلى مراعاة سنن العرب في كلامها عند تلاوة أفصح نص عربي وهو القرآن الكريم، فقد عهدت العرب في كلامها الوقف في أشعارها حتى تستبين معاني الكلام[2]

ونظرا لما تميّز به المصحف المغربي من وقف عرف بالوقف الهبطي، هذا الوقف الذي تلقاه المغاربة بالقبول، وأثبتوه في مصاحفهم، والتزموا به منذ قرون في تلاوتهم للقرآن الكريم ، أردت التعريف بأبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي، الذي لم يحض بترجمة وافية في كتب التراجم والتي اقتصرت في غالبها على ذكر اسمه ووفاته دون زيادة ، ثمّ درست هذه الأوقاف وبيّنت أصولها المعرفية وأبعادها الدلالية عن طريق التحليل والتأصيل من كتب التفسير ومصادر الوقف والابتداء .

المبحث الأول: التعريف بأبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي[3]

1ـ اسمه ونسبه وكنيته: هو العلامة محمد بن أبي جمعة، وكنيته أبو عبد الله، أما نسبته التي اشتهر بها فهي الهبطي ويقال الهبطي الصماتي بضم المهملة نسبة إلى صماته قبيلة جبلية بالمغرب الشمالي والهبطي بفتح أوله نسبة بلاد الهبط في الشمال المغربي [4]

2ـ مولده ونشأته وشهرته: لم تسهب كتب التراجم في تفاصيل حياة ابن أبي جمعة الهبطي، ممّا يسبب للباحث عسرا ومشقة في جمع أجزاء الترجمة، فالرجل مع شهرته العالية، ومكانته العلمية الرفيعة، وعمله الجليل الذي قدمه للمصحف الشريف، إذ لم يخل مصحفا مغربي من كتابة اسمه أو الإشارة إلى وقفه، ومع ذلك يقابل بالصمت التام في مصادر سير أعلام المغاربة، فهو مشهور بعمله مغمور في سيرته .[5]

والذي اتضح لي من خلال مصادر ترجمته أن الهبطي ولد في منتصف القرن التاسع الهجري[6] ، بقرية هباطة المنتمية لقبيلة صماته المغربية، فحفظ القرآن الكريم في قريته على طريقة المغاربة في الكتاتيب القرآنية[7]، إذ هي المدرسة الأولية التي يتلقى فيها المغاربة، القرآن الكريم، ومبادئ

علوم اللسان العربي.

نشأ الهبطي وعاش في العصر الوطاسي، وهو عصر ازدهر فيه المغرب الإسلامي فكانت فاس موطن للعلماء والأدباء والفقهاء والمؤرخين فرحل إليها وتتلمذ على علمائها ليكون بعد ذلك من أبرز أعلامها، يقول الدكتور سلمى عمر السيد متحدثا عن الحياة العلمية في العصر الوطاسي "شهدت العلوم الدينية نشاطا ملحوظا، وبرز عدد كبير من العلماء في المجالات كافة، منهم: "أبو عبد الله بن أبي جمعة الهبطي صاحب كتاب الوقف في القرآن الكريم"[8] برع الهبطي في النحو والفقه والفرائض والقراءات، واختار أن تكون مهمته تعليم القرآن الكريم وتلقين روايته وتعليم الناس الوقف الصحيح، وهو بذلك منفذا لقول رسول الله ﷺ: ""بلغوا عنِّي ولو آية "[9] ونظرا لمجهوده المميز في خدمة كتاب الله بقي اسمه في المصحف مرسوما، ووقفه الذي وضعه مع الآيات محفوظا، فكتب الله له القبول واستحسنه المغاربة، وبقي معمولا به إلى يوم الناس هذا .

3 . **شيوخه**: ذكرنا فيما سبق أن عصر الهبطي تميز بوجود طائفة من العلماء المجددين والمبدعين[10]، فقد استفاد من حيوية هذه البيئة العلمية، واحتك بعلماء كان لهم أثر في تنمية معارفه، غير أن كتب التراجم لم تذكر إلا القليل النادر لشيوخه، نذكر منهم أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي المالكي الشهير بزروق المتوفى "سنة 899هـ"[11] ومحمد بن علي الخروبي الكبير الطرابلسي الجزائري المالكي المتوفى سنة 963هـ [12] وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن غازي المكناسي الفاسي المتوفى سنة 919 هـ [13] وعبد الله بن محمد بن ولي الله الغزواني توفي سنة 935 هـ[14]

4. **تلاميذه**: وهم خلق خبير لايمكن أن يحصو عددا إذا اعتبرنا أن من قرأ عليه القرآن فهو من تلاميذه، إلا أنّ من أبرز تلاميذه ممن خصَّ ذكرهم في كتب التراجم أبو عبد الله محمد بن علي بن عدّة الأندلسي المتوفى سنة 975هـ [15] وعبد الواحد بن أحمد الونشريسي الفاسي المتوفى سنة 955[16] ومحمد بن يوسف السنوسي التلمساني المتوفى سنة 895هـ[17]

5 . **مؤلفاته**: على حسب ما قرأته واطلعت عليه في المصادر والمراجع التي عرفت بالعلامة الهبطي أنه لم يكن مهتما بالتأليف، وإنما انشغل بالتعليم وتحفيظ القرآن الكريم، وهو مسلك اتخذه كبار القرآء منذ القرن الأول[18] .

ومما يجدر التنبيه إليه ونحن نتحدث عن مؤلفات الهبطي هو أنه لم يُذكر له من العمل المنجز إلا وقوف القرآن الكريم، فقد اتفق العلماء على اختلاف مذاهبهم على أن الوقف الموجود في المصحف المغربي اليوم هو للهبطي رواية و ووضعا، ولكنهم اختلفوا في ما عرف" بتقييد الهبطي

"وهو الكتاب المنسوب إليه هل هو للهبطي ؟ أم لغيره ؟ ومن خلال الاستقراء يمكن تقسيم آراء المترجمين له إلى أربعة اتجاهات:

الاتجاه الأول:وهم الذين أثبتوا له التأليف ونصوا عليه ونسبوا تقييد وقف القرآن له، ويفهم هذا من خلال عباراتهم كقولهم مؤلف الوقف، أو صاحب وقوف القرآن أو مقيد الوقف أو صاحب التقييد أو نحو ذلك مما يدل على التأليف وإلى هذا ذهب الكتاني في سلوة الأنفاس، والحجوي في الفكر السامي ومحمد مخلوف في شجرة النور الزكية والعلامة المارغني في شرحه على الدرر اللوامع، واختاره من المتأخرين والمحدثين الدكتور مساعد بن سليمان الطيار في دراسته الموسومة وقوف القرآن وأثرها في التفسير، وعليه فهو رأي الأغلبية ممن ترجم له أو كتب في فن الوقف والابتداء.[19]

الاتجاه الثاني: و هم الذين لم يثبتوا له تأليفا أصلا، ويفهم هذا من خلال حديثهم عن الهبطي وترجمتهم له، حيث سكتوا عن عنصر مهم من الترجمة وهو التأليف خاصة وأن الرجل قد عرف بالوقف وشاع اسمه في الأوساط المغربية به، فكلما ذكر الوقف إلا ويكون ملازما للهبطي ومن أبرز هؤلاء أحمد بابا التنبكتي في كتابيه نيل الابتهاج وكفاية المحتاج، و أحمد ابن القاضي المكناسي في درة الحجال.[20]

الاتجاه الثالث: وهم الذين نصوا على أن التقييد الموجود بين أيدي الناس اليوم والمسمى بتقييد وقوف القرآن، إنما هو من عمل تلاميذ الهبطي، الذين تلقوا عنه القرآن ومواضع الوقف، فقد كان يلقنهم الآية ويعلمهم مواضع الأوقاف القرآنية، واستدلوا على هذا بكون النسخ الموجودة متفاوتة من حيث الزيادة والنقصان واختلاف العبارة ونحو ذلك، مما يدل على أن الشيخ كان يملي وكل طالب يكتب حسب استيعابه وطاقته، وإلى هذا أشارت عبارة القادري في نثر المثاني بقوله: "وعنه قُيِّد الوقف"[21].

الاتجاه الرابع: وهو الذي ينص على أن الهبطي أخذ هذه الأوقاف مع شيخه ابن غازي عن الشيخ أبي عبد الله الصغير إذ كان كل من الهبطي وعبد الله ابن غازي قد تتلمذ عليه وكان له تقييد في الوقف فأخذه ابن غازي عن شيخه أبي عبد الله الصغير وأخذه عن ابن غازي الهبطي ثم لقّنه وعلمه للطلبة فباشر تنفيذه وتعليمه حتى عرف به ونسب إليه .[22]

6- **وفاته وثناء العلماء عليه**: بعدما أمضى الهبطي حياته مع القرآن الكريم تعليما وتدريسا التحق بجوار ربه، واتفقت جميع أقوال المترجمين على أنّ وفاته كانت بمدينة فاس سنة ثلاثين

وتسعمائة هجرية 930هـ.

وقد أثنى عنه العلماء ثناء وافرا، وصف بالعلم والورع والتقوى والصلاح، فقال الكتاني معددا مناقبه في سلوة الأنفاس: "الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام، الأستاذ المقرئ الكبير، النحوي الفرضي الشهير، والعلم الواضح...عالم فاس في وقته وكان موصوفا بالخير والفلاح والبركة والصلاح ذا أحوال عجيبة وأسرار غريبة ".[23]

وقال الحجوي " الإمام الفقيه النحوي الفرضي الأستاذ المقرئ".[24]

وقال محمد مخلوف في شجرة النور الزكية "الإمام العالم، المتصوف الزاهد، القدوة المتقي العابد.. "[25].

المبحث الثاني: الوقف الهبطي في المصحف المغربي

اهتم المغاربة منذ زمن بعيد بحفظ القرءان وتجويده وإتقانه، وعنوا عناية خاصة بقراءاته، ومعرفة وجوه رواياته؛ وكان لهم في هذا الميدان شأن عظيم، كما اهتموا برسم المصحف وكتابته، وضبط كلماته ووضع أوقافه، ونبغ فيهم علماء كثر أشير إليهم بالبنان[26]، كونوا مدرسة مغربية في الرسم، والخط، والقراءة والوقف[27]، حتى تميز المصحف المغربي عن غيره من مصاحف المشرق بخطه المغربي، والرسم الخاص بالقراءة المغربية، وهي قراءة نافع المنتشرة عند المغاربة، منذ القرن الثاني للهجرة[28] وكان الوقف الهبطي من أهم خصائصه، تمسك به أهل المغرب حتى أصبح "العنوان البارز المميز للمصحف المغربي[29]، والطابع الشخصي للمدرسة القرآنية المغاربية عموما "[30] فقد انتشر في أقطار المغرب الإسلامي جميعها دون استثناء لا يعرفون بديلا عنه، يقول الأستاذ مصطفى بوعزة أما المغاربة فقد تميزوا بوقف وضعه الإمام أبو عبد الله الهبطي ت930، وعرف بالوقف الهبطي. وانتشر في شمال إفريقيا انتشارا واسعا، من ليبيا إلى بلدان إفريقية عديدة دخلها الإسلام"[31] ونظرة واحدة في أي مصحف مغربي تؤكد هذا المعنى، وذلك من خلال التعريف بالمصحف والكشف عن هوية اصطلاحات ظبطه، وعلامات وقفه، وهاهي أهم نماذج المصاحف المغربي نعرض التزامها بالوقف الهبطي للتوضيح.

1/ **المصحف الجزائري:** لعله من العسير جدا تتبع المسار التاريخي لتحديد زمن نسخ المصحف في الجزائر على وجه الخصوص، وذلك على اعتباره مصحفا يمثل نموذجا لإحدى المصاحف البارزة في المغرب الإسلامي، إلا أنه مما عرف عن الجزائريين بداية من القرن التاسع الهجري اهتمامهم بنسخ الكتب الدينية بمختلف تخصصاتها[32]وعنايتهم أكثر بنسخ المصحف الشريف كإحدى الوسائل التعليمية في المدارس القرآنية والكتاتيب والزوايا التي حفظت تراثا ضخما لهذه

المصاحف والكتب[33]، وبعد اطلاعي على بعض المصاحف الجزائرية القلمية المخطوطة، وجدتها تعتمد على الوقف الهبطي[34]، بل إننا نجد نسخ المصاحف وكتابتها باليد على طريقة المغاربة خطا ووقفا، وإقبال الناس على اقتنائها، وحُبِّ القراءة منها، استمر في المدن والقرى الجزائرية حتى بعد انتشار المصاحف المطبوعة .[35]

وأول مصحف يطبع في الجزائر بكامل أجزائه هو الذي خَطَّهُ محمد شرادي[36]، و المعروف بالمصحف الثعالبي الذي طبع سنة 1912[37]، وقد لقي قبولا عند كافة المغاربة وانتشر في الجزائر، وتونس، وموريطانيا[38] وهذا لما اتصف به من الصبغة المغربية الشاملة بامتياز، من ناحية رسمه وخطه وأوقافه، وقد أعجب القراء المغاربة بحسن أوقافه الهبطية مما جعلهم يثنون عليه يقول المارغني: "وقد تأمّلت في بعض المصاحف القرآنية الثعالبية فوجدت أوقافها هبطية صحيحة بعلامة صه"[39]. و بقي يقرأ به عند الجزائريين إلى سنوات متأخرة خاصة عند الأئمة ومعلمي القرآن الكريم لايرضون عنه بديلا باعتباره المصحف المغاربي الأصيل، وهذا الذي جعل وزارة الشؤون الدينية في الجزائر تُقَرِّرُهُ وتعيد طبعه بعد الاستقلال يقول الأستاذ الهادي لعقاب " ولما كان مصحف المطبعة الثعالبية ـ مصحف روردوسي ـ منتشرا بين الجزائريين قد اعتادوه، يحفظون وقفه، ويرتّلون بمضمونه، وكان الخط المغربي معهودا عندهم، رأت الوزارة الإبقاء عليه وتشجيعَ طبعه[40] "

وقد لاحظت عن المصحف الثعالبي من حيث الوقف الهبطي في طبعاته المتتالية ما يلي:

1/ وردت أوقافه هبطية في جميع طبعاته دون استثناء، وهذا لما هو معروف ومنقول بالرواية عن الهبطي، من طرف حفظة القرآن، الذين حفظوا اللفظ والوقف، ولما وجدناه في المصحف الثعالبي على السواء دون خلاف .

2 / أن لجنة مراجعة المصحف لم تصرح بالتزامها واعتمادها على الوقف الهبطي، -مع كونه موجود في المصحف- إلا في النسخة الثالثة منه، حيث ورد قولهم " كتب هذا المصحف الشريف برواية الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد المصري الملقب بورش عن الإمام نافع بن عبد الرحمن المدني، وأخذ هجاؤه وضبطه من منظومة مورد الظمآن للشيخ محمد بن محمد الشريشي ثم الفاسي المعروف بالخراز، واتبعت في عد آياته طريقة الكوفيين، وفي بيان مكيّه ومدنيّه أشهر المصاحف المطبوعة، وفي وقفه ما وضعه الإمام المقرئ أبو عبد الله محمد الهبطي دفين فاس"[41]. والذي ترجح لي بعد استقراء النسخ ومقابلتها، أن ذلك من قبيل الاستدراك للسقط بسبب السهو الوارد

في الطبعات المتقدمة والله أعلم .

وبقيت المصاحف الجزائرية المعبرة عن المرجعية الحقيقية للإقرا ء في الجزائر، والصادرة عن الهيئة الرسمية تعتمد وقف الهبطي، ولعل من أبرزها المصحف الذي كتبه وصممه الخطاط البارع محمد بن سعيد شريفي[42]، والذي يمثل الجمهورية الجزائرية، حيث طبع بإشراف المجلس الإسلامي الأعلى، وتحت وصاية وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، إذ هي التي أذنت بطبعه لدى المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالرغاية، ووزّع مجانا مرات متعددة على نفقة الدولة، حتى عمّ على المؤسسات الدينية وهي المساجد والمعاهد الإسلامية والزوايا والمدارس القرآنية، كما منح للأفراد والبيوت والمكتبات الخاصة، وجميع طبعاته في الفترة الممتدة [1979 – 2011][43] وقد ورد في هذا المصحف كجزء مهمّ من التعريف به عبارة " وأخذ بيان وقوفه وعلامته مما اختاره الشيخ محمد بن أبي جمعة الهبطي الصماتي "[44] وهكذا نلاحظ أنّ المصحف الجزائري بقي يعتمد الوقف الهبطي، وبقي أهل الجزائر يراعونه في قراءتهم إلى يوم الناس هذا .

2/ مصحف الجماهيرية العربية الليبية:[45]

هو المطبوع بإذن معمر القذافي رئيس الجمهورية، وبإشراف لجنة من العلماء، وقد كُتِبَ برواية قالون عن نافع من طريق أبي نشيط، وهو المصحف الوحيد في ليبيا على –حسب ما تتبعت –، المعبر عن الوجهة الرسمية للدولة خطّه أبو بكر ساسي المغربي وخلص منه 7يونيو1983م ليكتب معمّر القذافي آخر كلمة منه "والنّاس"، وقد انتمى هذا المصحف بدوره إلى الوقوف الهبطية يدل على ذلك ما ورد فيه تحت عنوان وقوف المصحف الشريف "والوقوف التي اختيرت لهذا المصحف الشريف هي الوقوف الهبطية من وضع العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الهبطي السماتي المغربي المولود سنة 850هـ والمتوفى سنة930هـ، وهي معروفة لدى أكثر الحفاظ "[46]

3/ مصحف المغرب الأقصى:

أما مصاحف المغرب الأقصى فيكفيها تأصيلا عبارة الكتاني في سلوة الأنفاس في ترجمة الهبطي " واستقر عمل قراء فاس ومراكش وما والاهما من جميع هذا المغرب الأقصى من زمانه إلى زماننا هذا على اعتماد ما قيد عنه من وقف القرآن العزيز"[47] ومصاحف المغرب الأقصى كلها بجميع طبعاتها تعتمد الوقف الهبطي إلى آخر مصحف وهو المطبوع برعاية الملك محمد السادس المسمى "المصحف المحمدي" فقد ورد في ذكر خصائصه " أما مواضع الوقف فقد اعتمد في بيانها على ما عليه العمل عند المغاربة من الأخذ بالوقف المنسوب إلى الإمام الهبطي (ت 930هـ)

لجريان العمل به منذ قرون "[48]

ونظرا لما تقدّم يمكن لنا القول أن المصحف المغربي التزم بالوقف الهبطي، وبرز فيه كإحدى علامته المميزة بدأت منذ القرن العاشر[49] عندما ظهر، وبقي إلى يومنا هذا .

المبحث الثالث: الأسس المعرفية والأبعاد الدلالية للوقف الهبطي

الذي ينظر في أوقاف الهبطي ويتمعن جيدا في مرامي دلالاتها، يجد أن واضعها رصد لها أبعاد لغوية وتفسيرية وعقدية وأصولية فقهية وأخرى تعليمية، ، فالرجل كان عالما بالقرآن وما يتصل به من علوم، كما أثبت بأوقافه كفاءته العالية في التعليم القرآني على طريقة المغاربة .

والذي لا يحسن الاستقراء ولا يتتبّع مواضع الوقف بحسب معانيها في كتب الوقف والابتداء، ومصادر التفسير القرآني قد تدعوه النظرة السريعة على الحكم أنها غير صحيحة، أو أنها غير موافقة لعلم النحو والعربية[50]، أو أنه انفرد بهذا الوقف أو غير ذلك مما يقتضيه الحكم السريع على الأشياء قبل تصورها تصورا كاملا، ودون مراجعة وتأمّل، يقول بن حنفية العابدين: " ومن رأى بعض أوقافه فقد تدعوه النظرة العجلى إلى الحكم بأنها غير سائغة، فضلا أن تكون تامة أو كافية، حتى إذ تأمل السياق أو رجع إلى الكتب المختصة والتفاسير وقف على الوجه الذي اعتمده في وقفه أو علم بأنه مسبوق في ذلك الوقف لم ينفرد به "[51]

ويمكن تقسيم أوقاف الهبطي من حيث مصادرها وأسسها إلى قسمين:

1/ **اختياراته ممن سبقه**: فقد اختار وقوفا سبقه بها كبار النحاة والقراء و المفسرين، فلما أقرّها واختارها، وكانت غير مشهورة عرف بها ونسبت إليه، فمن خلال تتبعي لمصادر الوقف والتفسير اللغوي، وجدت أوقافا كثيرة عرف بها الهبطي وهي في الأصل أوقاف للإمام نافع[52] المدني القارئ "ت169هـ"[53]، أو الضحاك المفسر"ت سنة 105هـ"[54]، أو اختيار نحوي تبناه بعض النحاة كيعقوب بن إسحاق الحضرمي "ت205هـ"[55]، وهذه أمثلة نوضح بها هذه الاختيارات .

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 96] .اختلف القراء والمفسرون في الوقف الأنسب لمعنى الآية أيوقف على كلمة "حَيَاةٍ" أم على كلمة "أَشْرَكُوا" وهو خلاف مبني على إعراب الآية[56]، فاختار الهبطي الوقف على "حَيَاةٍ"وهو مذهب نافع رحمه الله [57] المبني على تمام المعنى قال ابن جزي: "من الذين أشركوا ابتداء كلام فيوقف على ما قبله، والمعنى: من الذين أشركوا قوم يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ"[58] وهكذا كان لهذا

الوقف وجه في العربية ذُكِرَ عند المفسرين، ومذهب تبناه أحد القراء السبعة الكبار .

ومن اختياراته أيضا الوقف على قليلا في قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: 17] اختلف المفسرون في توجيه هذه الآية إعرابا ومعنى[59] ولعل من أبرز معانيها الواردة عن المفسرين، أنهم كانوا قليلا في عددهم، وهذا إذا وقف على "قليلا" وهو وقف وصفه أبو حيان بالحسن[60] وهو مروي عن الضحاك ومقاتل، قال الواحدي: " واختار قوم الوقف على قوله: قليلًا على معنى: كانوا من الناس قليلًا، وهو قول الضحاك، ومقاتل"[61]

وأرى أن المعنى الذي وقف عنده الهبطي، وإن لم يذهب إليه من المفسرين إلا الضحاك ومقاتل، ومع ذلك يؤيّده السياق المبين لأوصاف المتقين في الآية، الذين وصفوا في مواضع أخرى من القرآن الكريم بالقلة في العدد، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: 24] وهكذا فهو يختار ما يراه مناسبا من أقوال المتقدمين قراء كانوا أو نحاة أو مفسرين .

2/اجتهاداته: وهو قسم كبير من أوقاف ابن أبي جمعة الهبطي، وفي هذا القسم اختار وُقُوفاً خالف فيها المتقدمين، لكنه وقف مُسْتَرْشِداً باللغة العربية، وما قاله المفسرون وعلماء الوقف والابتداء، وكانت لهذه الأوقاف الاجتهادية أسس وأصول عقدية أو تفسيرية أو تعليمية، كما لم تخل أوقافه من الإشارة إلى مذهبه الفقهي، وهو المذهب المالكي المعتمد عند المغاربة .، وفي ما يلي أمثلة نوضح بها أصل هذا الاجتهاد حسب الأسس والأصول المعرفية المتقدمة .

1- ما بني على أساس عقدي: أشارت أوقاف الهبطي إلى معان عقدية تمثل المذهب العقدي الأشعري الذي ينتمي إليه، والمنبثق عن عقيدة أهل السنة والجماعة، ومن أهم خصائص العقد الأشعري نفي ما يدل على ظاهر نصوص الصفات، وذلك بالتأويل وتقديم العقل في تفسيرها[62]، وكان الهبطي من هذه المدرسة العقدية الكلامية، التي انتمى إليها كبار المفسرين كالرازي وأبو حيان وابن عطية، وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم من النحاة وعلماء التفسير الذين لم يتخلصوا من الأثر العقدي في التعامل مع النص القرآني إعرابا أو تفسيرا[63]، وما الوقف في حقيقته إلا مظهرا من مظاهر التفسير. و يمكن التمثيل على هذا المنهج في الوقف الهبطي من خلال دراسة النماذج الآتية:

النموذج الأول: وقفه على لفظ الجلالة في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.[الأنعام:3] من المقرر في علم العربية أن الجار والمجرور هما وعاء الحدث مكانا أو زمانا حيث يتعلقان به لفظا ومعنى قال ابن يعيش في شرح

المفصل: " ليس في الكلام حرف جر إلاّ وهو متعلق بفعل أو ما هو بمعنى الفعل في اللفظ أو التقدير أما اللفظ فقولك: انصرفت عن زيد وذهبت إلى بكر فالحرف الذي هو إلى متعلق بالحرف الذي قبله، وأما تعلقه بالفعل في المعنى فنحو قولك المال لزيد، تقديره: المال حاصل لزيد، وكذلك: زيد في الدار، تقديره: زيد مستقر في الدار أو يستقر في الدار"[64] ويؤخذ من كلامه أن معنى حرف الجر يدل على الظرفية، فهل احتكم المفسرون للمقاييس اللغوية، أم اضطروا إلى التأويل المنبثق عن الفكر العقدي؟

لقد أوّل المفسرون الآية بما يخدم الفكر العقدي حتى بلغت اثنا عشرة قولا [65] أهمها: أن الجار والمجرور متعلقان بصفة محذوفة للفظ الجلالة والتقدير: "هو الله المعبود في السموات وفي الأرض"[66] وإنما ذهبوا إلى هذا التأويل حتى يتماشى معنى النص مع الفكر العقدي عند الأشاعرة الذي يمنع إسناد الظرفية لله تعالى وتخصيصه بمكان معين قال أبو حيان " وَإِنَّمَا ذَهَبَ أَهْلُ الْعِلْمِ إِلَى هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ وَالْخُرُوجِ عَنْ ظَاهِرِ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ لِمَا قَامَ عَلَيْهِ دَلِيلُ الْعَقْلِ مِنِ اسْتِحَالَةِ حُلُولِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَمَاكِنِ وَمُمَاسَّةِ الْإِجْرَامِ وَمُحَاذَاتِهِ لَهَا وَتَحَيُّزِهِ فِي جِهَةٍ"[67]

وهذه كلها معان لابد لها من الوقف على لفظ الجلالة حتى يصح التأويل والتقدير، كما أن وقف الهبطي على لفظ الجلالة أبرز أن الرجل متشبع بالمعاني النحوية العقدية التي ذكرها النحاة الأشاعرة.

النموذج الثاني: ومن الأوقاف المتعلقة بالجانب العقدي، تمييز الصفات الخاصة بالله تعالى عن غيرها بالوقف عندها وعدم إتباعها بغيرها، كوقفه في سورة البقرة على لفظ الغمام في قوله عزّ وجل: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة 110] ففي هذه الآية ورد لفظ الملائكة مرفوعا في قراءة نافع، وهو بذلك يكون معطوفا على لفظ الجلالة، ومن أبرز أحكام العطف في العربية أن يأخذ المعطوف حكم المعطوف عليه معنى وإعرابا، وهذا التوجيه النحوي لا يتفق من ناحية معناه العقدي عند الأشاعرة بالوصل، فكان لابد من الفصل بين إتيان الله وإتيان الملائكة بالوقف، فإتيان الله لا يحمل على حقيقته، فهو مؤول بمعنى آيات الله أو أمر الله، أو عذاب الله وعقابه أو نحو ذلك مما ورد في التفاسير[68]، وأما إتيان الملائكة فيحمل على حقيقته وبعد التأويل يصح العطف لاختلاف المعنى ويكون من باب عطف الجمل، وقد صرح الرازي بذلك في تفسيره قائلا:" أما قوله تعالى: الملائكة فهو عطف على ما سبق، والتقدير: وتأتيهم الملائكة وإتيان الملائكة يمكن أن يحمل على

الحقيقة فوجب حمله عليها، فصار المعنى أن يأتي أمر الله وآياته والملائكة مع ذلك يأتون ليقوموا بما أمروا به من إهانة أو تعذيب أو غيرهما من أحكام يوم القيامة "[69] وهذا التأويل من أجل أن لا تجتمع صفة الخالق مع صفة المخلوقين في معنى الإتيان، ولتجسيد هذه المعاني العقدية أثناء التلاوة قام الهبطي بوضع الوقف[70] في هذه الآية حتى تتميز المعاني السابقة لدى كل من القارئ والسامع. والأوقاف التي أشار فيها الهبطي إلى معان عقدية كثيرة جدا نلاحظها في تخصيصه الوقف على ما يتعلق بالصفات، وتقصير الجمل من أجل توفير معنى الدعاء[71]، والوقف المبني على الاحتراز مما لا يليق بحق الأنبياء والمرسلين[72] عند الوصل، وغير ذلك مما يدرج في باب الاعتقاد.

2 – مابني على أساس تعليمي: أمضى الهبطي شطرا كبيرا من حياته في تعليم القرآن الكريم، وحاول بجميع الأساليب التعليمية والتربوية أن يلقّنه للطلاب[73] غضا طريا كما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم بطريقة يُجمع فيها بين النطق السليم والمعنى الصحيح، ليحقق قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:121]

ومن المعلوم أن من يمارس التعليم في أي مجال يعمل جاهدا من أجل تبسيط مادته العلمية، وتحقيق أكثر فائدة لطلابه، وفي التعليم القرآني عادة ما يواجه المتعلم المبتدئ صعوبة التعامل مع المتشابه اللفظي[74]، فقد ترد الكلمة أو الجملة في سورة، وترد في سورة أخرى تختلف مع الأولى في شيء يسير من تقديم أو تأخير أو حذف أو نحو ذلك، وحتى لا يقع الطالب في الخطأ أثناء مراجعة الآيات وتكرارها وضع الهبطي أوقافا كان الهدف منها حصر المتشابه وتمييزه عن بعضه، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في البقرة وآل عمران ، ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 250–251] ﴿وانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: 147–148] حيث نلاحظ التشابه الكبير بين الموضعين، ولتميزه لم يقف في موضع البقرة على الكافرين وجعل الوقف في موضع آل عمران، وأيضا كلمة فاختلط بين موضعي يونس والكهف في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ [يونس: 24] وقوله:﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ [الكهف: 45] فقد وقف على كلمة اختلط في موضع يونس ولم يقف على التي في الكهف، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت المغاربة مضرب مثل في إتقان الحفظ، حيث إن وقوف الهبطي تعتبر خريطة ذهنية للمتشابه اللفظي في القرآن الكريم .

ومما يدخل ضمن الأساليب التعليمية التي ارتبطت بالوقف الهبطي، المراجعة الجماعية للقرآن الكريم وهو ما يعرف عند معلمي القرآن الكريم بالتكرار الجماعي أو الحزب الراتب، إذ هي من أهم الطرق التعليمية للقرآن الكريم عند المغاربة، لقد ذكرت لنا مصادر التاريخ أن هذا النوع من القراءة ظهر في بداية العصر الموحدي[75].

ومن أبرز ضوابط التلاوة في هذا النوع من القراءة الاعتناء بالوقف حتى لا تختلط المعاني، فعند القراءة الجماعية الخالية من الوقف تختلط آية الرحمة بآية العذاب، كما يختلط الحديث عن المؤمنين بالحديث عن الكافرين، وكلام الله مع كلام غيره ...وغير ذلك، وقد وقع كل هذا في بداية ظهور القراءة الجماعية، فلما لاحظ الإمام ابن أبي جمعة الهبطي عدم احترام المعاني أثناء التلاوة وضع الأوقاف[76]، فكانت بمثابة الضابط الأساسي للقراءة الجماعية .

ولما كانت رواية ورش عن نافع من طريق الأزرق هي الرواية المنتشرة عند المغاربة عموما، وفي المغرب الأقصى والأوسط خصوصا، ومن أبرز سمات هذه الرواية كثرة المد وإشباعه طولا بمقدار ستّ حركات في أغلب المدود[77] وكلها تحتاج من القارئ طول نفس مما جعل الهبطي يكثر من تقطيع الجمل بالوقف ما استطاع لذلك سبيلا، وهذا حتى يأخذ القارئ قسطا من الراحة واستعادة النفس، ثم يبدأ القراءة بعد الوقف بنفس وطاقة جديدة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاسْمَعُوا، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: 108] نلاحظ أنه وقف ثلاث وقفات في هذا الموضع الغرض منها تعليمي وهو مساعدة القارئ لأن يأخذ نفسا جديدا يواصل به قراءته مادام الوقف لا يسبب حرجا، ومثله ما ورد في سورة لقمان عند قوله عز وجل: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: 17-18] وهكذا نجده في مواضع متعددة من القرآن يعتمد منهج تقصير الجمل بالوقف ليمكن القارئ من التلاوة الصحيحة ويجنبه الوقف القبيح، وتتعود الجماعة على القراءة الصحيحة يقفون وقفة واحدة، ويبدءون بداية واحدة حال تكرارهم ومراجعتهم دون مشقة وتعب، كما يكسب الوقف في هذا النوع من التلاوة جمالا وبهاء للقراءة الجماعية.

3- ما بني على أساس التفسير: ومن أهم أصول الوقف الهبطي ما بني على أساس تفسيري للآية، فمن الملاحظ أثناء قراءتنا لتفسير القرآن الكريم نجد للآية الواحدة أقوالا متعددة في تفسيرها، وهذا الخلاف ينشأ عادة بناء على مقتضى العمل بالقاعدة النحوية التي فسرت من

خلالها الآية، أو حديث فسّر الآية صححه مفسر وضعفه مفسر آخر، ونحو ذلك من أسباب الاختلاف في التفسير، إلا أن الغالب في اختلاف المفسرين على حسب ما وجدت مبنيا على اللغة[78]، وذلك كاختلافهم في عود الضمير أو اختلافهم في حمل اللفظ على الحقيقة أو المجاز، أو الإ طلاق أو التقييد أو العموم أو الخصوص أو اختلافهم في إعراب الآية أو غير ذلك من المسائل اللغوية، وقد أثّرت هذه الخلافات التفسيرية على الوقف، فكان الوقف القرآني إحدى الصور العملية المبيّنة لبعض الآراء الخلافية في مصادر التفسير، وقد برز هذا واضحا جليا في أوقاف الهبطي كما نراه في الأمثلة والنماذج التطبيقية الآتية:

النموذج الأول:

قال تعالى: ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾ [آل عمران: 7] وقف الهبطي في هذه الآية على لفظ الجلالة " الله " فدل ذلك على أنه قد أخذ بأحد القولين الوارد في تفسيرها، فقد اختلف المفسرون في بيان معنى هذه الآية بناء على اختلافهم في تعريفهم للمحكم والمتشابه في القرآن الكريم، ويتضح أن أشهر الأقوال فيهما هو أن المحكم ما اتضحت دلالته وفهم المراد منه، وأما المتشابه فهو ما استأثر الله بعلمه، وذلك كحديث القرآن عن الساعة، وخروج المسيح الدجال ودلالة الحروف المقطعة في القرآن الكريم[79]، وقد انقسم المفسرون في فهم الآية إلى مذهبين:

المذهب الأول: وهو من يرى أن تمام الكلام يكون عند لفظ الجلالة "الله " ومعناه أن الله وحده يعلم المتشابه وأن العلماء الراسخون في العلم يقولون ءامنا به وعلى هذا تكون الواو للاستئناف الراسخون مبتدأ خبره"يقولون"[80] وعلى هذا المذهب كبار القراء والفقهاء من الصحابة والتابعيين كما اختاره جمع من المفسرين والنحاة، فكان مذهب أبي ابن كعب ونافع من القراء، ومن المفسرين: ابن عباس وابن مسعود ومن الفقهاء عائشة أم المؤمنين، ومالك بن أنس واختاره الرازي من المتكلمين .ومن النحاة الفراء والأخفش [81]

المذهب الثاني: وهم الذين قالوا أن الواو للعطف وعليه يكون قوله عزّ وجل "الرّاسخون "معطوف على لفظ الجلالة وَهُمْ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ، وَ: يَقُولُونَ، حَالٌ مِنْهُمْ أَيْ: قَائِلِينَ. وَرُوِيَ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَمُجَاهِدٍ، واختاره ابن عطية في تفسيره[82]

وعند تأملي لأصحاب المذهب الأول وجدت الإمام مالك، بن أنس ونافع ابن أبي رؤيم و الفخر الرازي، فقد اجتمع في هذا المذهب رواد مدرسة الهبطي فقها وقراءة وعقيدة، فهو على

مذهب مالك في الفقه، وعلى طريقة نافع في القراءة وعلى منهج الرازي في العقيدة الأشعرية. وعليه فقد اتبعهم في التأصيل لهذا الوقف.

النموذج الثاني:

ويتمثل في قوله تعالى:﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:34] اختلف أهل التفسير في قوله تعالى:﴿ وكذلك يفعلون﴾ هل هو تابع لكلام بلقيس ومن مركبات قولها تأكيدا لما قالته من أمر وحال الملوك أم هو من كلام الله تعالى تصديقا لقولها فعلى المذهب الأول يكون التمام والوقف في يفعلون، وعلى الثاني يكون الوقف عند أذلة حتى نفصل بين قول الله وقول بلقيس .

فقد ذهب ابن عباس إلى أنه من كلام الله فقال: قالت بلقيس: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ ، قال الرب، عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾.[83]

وذهب أبو حيان في البحر المحيط[84] والرازي في مفاتيح الغيب[85] إلى أنه من كلام بلقيس.

وعليه فتمام المعنى يكون في الوقف على "يفعلون" هذا وإن خالف الهبطي بوقفه مفسرين كبار كالرازي وأبو حيان إلا أن اجتهاده في هذا الوقف مبني على أصل تفسيري وهو قول بن عباس[86] ومن هنا يصح لنا القول بأن الهبطي اعتمد على معنى أنه لا حاجة لتأكيد كلامها وقد ذكرت ما أرادت، وإنما يكون تأييد الله لها ليبين لنا القرآن رجاحة عقلها وقوة إدراكها واعترافها بما يفعله الملوك وإن كانت منهم وقد تربت معهم، خاصة إذا وجدنا مثل هذا التعبير في سورة" الأعراف ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾" تم الكلام، فقال فرعون: ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[87] وهذا كله مما يقوي رأي الهبطي في وقفه ويبين لنا سعة نظره، واطلاعه على أقوال المفسرين ومقارنتها ليتمكن بعد من الاختيار الأصوب.

ولو بقينا نتتبع الآيات التي أسس فيه الهبطي وقفه على مصادر التفسير لوجدناها كثيرة قد لا يتسع هذا المقال لحصرها وإنما لابد لها من بحث خاص نؤصل فيه وقف الهبطي على أساس التفسير.

4 – ما بني على أساس فقهي أو قاعدة من أصول المذهب المالكي:

عرفنا فيما سبق أن الهبطي مالكي المذهب، وعليه فهو متشبع بآراء المالكية فقها وأصولا، لقد أشارت أوقافه القرآنية في آيات الأحكام إلى ما تقرر في المذهب المالكي واعتمد، سواء في الفروع الفقهية المستنبطة من الأصول، أو في الآيات التي استدل بها المالكية على قواعدهم ونظرياتهم الفقهية، وفي ما يلي تحليل لبعض الأوقاف الهبطية المتعلقة بهذا الأصل وذلك من خلال النماذج الآتية:

النموذج الأول. قال تعالى:﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور:4-5] تقرر هذه الآية القرآنية حدا من الحدود التي وضعها الله عز وجل وهو حد القذف، وذلك تأمينا لأعراض الناس وحفاظا على شرفهم ويدخل هذا ضمن المقاصد الضرورية في الشريعة الإسلامية [88] وعليه فلا خلاف بين المفسرين للآية من حيث أحكامها أنها تحدد ثلاث عقوبات للقاذف[89] وهي: الجلد وتفسيق القاذف، وإهدار كرامته الإنسانية بعدم قبول الشهادة، واتفق الفقهاء على أن الاستثناء في الآية غير عامل في جلده بإجماع[90] أو بمعنى إذا ثبتت تهمة القذف جُلِدَ القاذف ثمانين جلدة ثم اختلفوا فيما يبقى له من العقوبات بعد حصول توبته، من حيث وصفه بالفسق ورد شهادته وعدم قبولها، فالجمهور ومنهم المالكية غلى أنه إذا تاب زال عنه الفسق وقبلت شهادته، وذهب الحنفية لعدم قبول شهادته، ويرفع عنه الوصف بالفسق

وهذا الاختلاف بين الفقهاء مردّه إلى معنى الاستثناء الوارد في الآية هل يشمل جميع العقوبات المقررة في الجمل المعطوفة قبل الاستثناء أم للأخير[91]، فالشافعية والمالكية يرجعونه إلى الجميع، والأحناف يرجعونه إلى الأخير فقط .

وإذا تأملنا حقيقة وقف الهبطي في الآيات المتقدمة فإننا نجده وضع الوقف على كلمة:"جلدة " ليؤكد مذهب مالك الذي يقول بوجوب حد القاذف وهو رأي الجمهور وعليه الإجماع إلا من شذ من الفقهاء[92] ولم يقف على "أبدا " كما هو مثبت في مصاحف بعض المشارقة[93]، والذي يناسب مذهب الحنفية[94]، وإنما وقف على "غفور رحيم" ليؤكد مذهب مالك في المسألة على أن الاستثناء عامل في قبول شهادته، وانتفاء الفسق بعد التوبة وقد أكد لنا النحاس هذا المعنى بقوله: "ومن قال تقبل شهادته إذا تاب فالتمام عنده "فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[95] وهو قول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ومجاهد وابن عباس ومالك والشافعي وأحمد[96].فأنت تلاحظ في هذه الآية أنه وقف في الموضعين ليبرز القضية الفقهية المقررة في حد القاذف عند المالكية.

النموذج الثاني:

قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: 34] استدل المالكية بهذه الآية على وجوب إتمام النفل بعد الشروع فيه، قال القرطبي: "احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع- صلاة كان أو صوما- بعد التلبس به لا يجوز،

لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه" [97] وعليه فالنهي عن إبطال العمل يفيد من جهة أخرى وعن طريق مفهوم المخالفة الأمر بإتمامه وإكماله،

وعليه يصبح فعل المندوب بعد ابتدائه من قبيل الأوامر المطلوبة من المكلف، كالصلاة والصيام ونحوها مما يجب على المسلم الإتيان بها على أحسن حال، وذلك تنفيذا للأمر وتحقيقا له على حسب ما قرره فقهاء المالكية[98] من أصول وضوابط تتعلق بالفعل المندوب .

وفي الذي تقدم عرفنا ما يستفاد من الآية فقها وأصولا عند المالكية، أما علاقتها بالوقف الهبطي فتتحقق وتتأكد إذا عرفنا أنّ من تمام منهج الهبطي في الأوقاف القرآنية قائم على قاعدة الفصل بين الأمر والنهي[99] حيث كان في القرآن الكريم، ومن أبرز الأمثلة ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:47] وفي قوله: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران:103] وقوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا، وَلَا تُسْرِفُوا﴾[الأعراف:31] ومن خلال ملاحظتنا لهذه المواضع نجده فصل بين الأمر والنهي بالوقف، ولكنه لم يفعل في موضع سورة القتال، فوصل ولا تبطلوا بأطيعوا فكأنه أراد أن يشير إلى ما اعتمده المالكية، استنباطا من الآية، فأصبح النهي الوارد الآية عنده في صورته العملية أمر لابد من الإتيان، به فكأنه قيل على تقدير أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول وأتموا أعمالكم ولا تبطلوها وهو تخريج وتوجيه للوقف لا يُعْرَفْ ابتداء إلا بعد المقارنة بما يشابهه في الذكر الحكيم.

ومن هنا يتبين لنا أن الهبطي من مدرسة مالكية مغاربية لا تفارقه، ويتضح لنا أيضا الربط الدقيق لمعاني أوقافه وإشارتها ومراميها للقضايا الفقهية والأصولية، وهكذا كان شأن العلماء في جميع عباراتهم وأعمالهم المتعددة التي ارتبطت بالنص القرآني تفسيرا وإعرابا ووقفا.

الخاتمة

وبعد هذه الدراسة التي أبرزنا من خلالها شخصية ابن أبي جمعة الهبطي ووضحنا بعض السمات المنهجية والمصادر المعرفية التي اعتمدها في أوقافه، يمكنني أن أذكر أهم النتائج العلمية التي توصلت إليها من خلال هذا البحث وهي:

1ـ استطاع محمد بن أبي جمعة الهبطي بمنهجه المتميز في الوقف أن يُكَوّن مذهبا مستقلا في علم الوقف، به يعرف وإليه ينسب.

2ـ كشف لنا الوقف الهبطي عن هوية مستقلة للمصحف المغاربي، وإبداع معرفي مغربي في علوم القرآن الكريم .أسس الهبطي أحد مظاهره المتميزة والمتمثلة في علامة الوقف لدى المغاربة

3 . لم يعرف المصحف المغربي الرسمي الممثل لهوية دول المغرب الإسلامي بديلا عن الوقف الهبطي منذ وضعه في القرن العاشر إلى يوم الناس هذا ، إذ لا تزال المصاحف المغربية تعتمد في بيان وقوفها مما اختاره الشيخ محمد بن أبي جمعة الهبطي.

4 . مثّلت الأوقاف الهبطية بمجموعها في المصحف المغاربي عملا جليلا ضخما، أبرزت لنا موسوعية الهبطي المعرفية، وأكّدت اطلاعه على علوم شتى لها علاقة بفن الوقف والابتداء كالتفسير والنحو والفقه والعقيدة لتخرج لنا بهذا الشكل المتميز، إذا لا يمكن أن يقوم بهذا العمل **وهو وضع الأوقاف في المصحف. إلا هيئة علمية، ولجان متخصصة ومتكونة من علماء وباحثين** في فن القراءات وعلوم القرآن الكريم، كما هو موجود في وضع أوقاف مصحف المدينة وغيرها **من مصاحف المشارقة.**

5 ـ لم تتعارض الأوقاف الهبطية على ما قررته قواعد العربية، ولم تتعارض أيضا مع ما ذكر من أوقاف في مصادر علم الوقف والابتداء، وكان لأوقاف الهبطي أصل ثابت في أقوال المفسّرين والفقهاء، وهذا يؤكد أصالة معرفية للوقف الهبطي ويبرز لنا دقة ضبطه وحسن اختياره، وينفي **ما قيل عن هذه الأوقاف من ضعف أو شذوذ.**

6 . أعطى الوقف الهبطي أبعاد دلالية ونحوية، وزاد عنها معاني عقدية، وإشارات تفسيرية **عرفنا من خلالها مذهب الهبطي عند اختلاف المفسرين للآية، كما استطاع الهبطي من خلال أوقافه أن يعبر عن المرجعية الفقهية المعتمدة لدى المغاربة المتمثلة في الفقه المالكي.**

ـ الهوامش:

1. الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، حديث رقم:101، كتاب الأيمان، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين، انظر: المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، ط:1، القاهرة، دار الحرمين للطباعة والنشر، 1417هـ 83/1.

2. يدل على ذلك ما نقله الجاحظ في البيان والتبيين في رواية عن بعض بلغاء العرب وهو شبيب بن شيبة بن الأهتم الذي يقول: «الناس موكّلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع، وبمدح صاحبه. وحظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة، أرفع من حظ سائر البيت» انظر: البيان والتبيين، عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، لاط، بيروت، دت 112/1 .

3 – انظر ترجمته في: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، محمد بن أبي جعفر الكتاني، تحقيق الشريف محمد بن حمزة الكتاني، ضمن الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس –4– 2/ 75، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، ط: 1، بيروت دار الكتب العلمية 1424هـ، ص400 ونثر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، تحقيق، محمد حجي وأحمد توفيق، لاط، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1397 هـ 1/ 35، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، ط:2، طرابلس، دار الكاتب، 2000م، ص 586، ودرة

الحجال في أسماء الرجال، أحمد بن محمد ابن القاضي المكناسي، تحقيق د . محمد الأحمدي أبو النور، ط: 1 القاهرة، دار التراث، 1391هـ 1/ 152، وجذوة الاقتباس أحمد بن القاضي المكناسي، لاط، الرباط، دار المنصور للطباعة، 1973م ص 321 والفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي، ط: 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1416هـ 2/ 315 والقراء والقراءات بالمغرب، سعيد اعراب، ط:1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1410هـ ص 176، وقراءة الإمام نافع عند المغاربة، عبد الهادي حميتو، لاط، المملكة المغربية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1424هـ 4/ 187 .وكفاية المحتاج، أحمد بابا التنبكتي تحقيق محمد مطيع، لاط، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1421هـ 2/ 221.

4 – انظر وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوازن الفاسي، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط:1، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1983، 1/ 320.

5 – وهذه عادة المغاربة في التعامل مع أعلامهم على خلاف المشارقة، مما جعل بعض الباحثين المعاصرين المغاربة يتذمرون انظر تاريخ الجزائر الثقافي، بلقاسم سعد الله، ط: 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، 1/ 59 وانظر قراءة نافع عند المغاربة، عبد الهادي حميتو، 4/ 189.

6 – وهذا على حسب ما ذكره سعيد أعراب في كتابه القراء والقراءات بالمغرب ص 176.

7 – حول طريقة المغاربة في التعليم القرآني انظر: المقدمة، ابن خلدون، ط:1، بيروت، دار الفكر، 1401، ص 741، وانظر تاريخ الجزائر الثقافي، بلقاسم سعد الله 1/ 332.

8 – انظر: بنو الوطاس في المغرب، د . سلمى عمر السيد، بحث ضمن منشورات كلية الآداب قسم التاريخ، جامعة الخرطوم ص13.

9 – أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، انظر: البخاري، الجامع الصحيح، تحقيق محب الدين الخطيب وآخرون، ط: 1، القاهرة، المطبعة السلفية، 1400، 2/ 493.

10 – أمثال الفقيه أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب المعيار، والمؤرخ محمد الكراسي الأندلسي، انظر بنو الوطاس في المغرب ص13.

11– انظر: شجرة النور الزكية ص 400، 366، وسلوة الأنفاس 3/ 286، ونيل الابتهاج ص130، وكفاية المحتاج 1/ 126 .

12 – انظر: شجرة النور الزكية ص 400، 411، ومعجم المؤلفين عمر رضا كحالة، ط:1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1414هـ 3/509 وجذوة الاقتباس ص 322.

13 – انظر سلوة الأنفاس 2/ 75، 82، وجذوة الاقتباس ص 320، وقراءة نافع عند المغاربة 4/ 11، 191 ودوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، محمد بن عسكر الشفشاوني، تحقيق محمد حجي، ط: 2 الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة، 1977 م ص 45 وشجرة النور الزكية ص399 .

14 – انظر: شجرة النور الزكية ص400، وطبقات الحضيكي، محمد بن أحمد الحضيكي، تحقيق أحمد بو مزكو، ط:1، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة 1427هـ 2/ 417.

15 – انظر: درة الحجال 2/ 213، وسلوة الأنفاس 3/ 357، وفهرس المنجور، أحمد المنجور تحقيق محمد حجي، لاط، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة، 1976م ص66.

16 – انظر شجرة النور الزكية ص400، 409 و سلوة الأنفاس 2/ 162وفهرس المنجور ص12، و الأعلام، خير

الدين الزركلي ط:15، بيروت، دار العلم للملايين، 2006م، 4/174 وقراءة نافع عند المغاربة 4/ 195.

17 – هذا وإن كان أكبر منه سنا إلا أنه قرأ عليه القرآن كاملا لأجل الوقف، وفي هذا الباب تذكر كتب التراجم أن سيدي محمد بن يوسف السنوسي التلمساني، كان ديدنه البحث ورواية العلوم وأخذها عن الشيوخ، فما سمع بأحد اختص بفن له فيه باع أكثر منه إلا ذهب إليه وقرأ عليه، حتى يأخذ ذلك الفن من عنده وفي زمنه عرف الهبطي بالوقف وتناقله الناس واهتموا به فقرأ عليه فعد تلميذه من باب رواية الآكابر عن الآصاغر. انظر: سلوة الأنفاس، الكتاني 2/ 77 . وانظر: القراء والقراءات بالمغرب ص 184. وانظر في ترجمة السنوسي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص563، والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الشريف التلمساني، لاط، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1226هـ/ 1908م، ص 237 .ودوحة الناشر ص 121، وتعريف الخلف برجال السلف، محمد الحفناوي لاط، الجزائر، مطبعة بيير فونتانة الشرقة، 1906 م 1/ 176 .

18 – فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي عبد الرحمن السلمي، أنه كان يقرأ حديث، النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، ويقول: وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا" مشيرا إلى كونه جالس في مسجد الكوفة يعلّم الناس القرآن وبقي على هذه الحال أكثر من أربعين سنة ليس له من عمل إلا التعليم . انظر صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه حديث رقم: 5027، 3/ 346. وانظر في ترجمة عبد الرحمان السلمي: غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري ط: 1بيروت دار الكتب العلمية، 2006م 1/ 370 .

19 – انظر: سلوة الأنفاس 2/75 والفكر السامي 2/ 315 وشجرة النور الزكية، ص400 و النجوم الطوالع على الدرر اللوامع إبراهيم المارغني، لاط، بيروت، دار الفكر، 1424هـ، ص253 . وقوف القرآن وأثرها في التفسير لاط، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1431 هـ ص 84.

20 – انظر: نيل الابتهاج 586، ودرة الحجال 1/ 152 .

21 – انظر نثر المثاني 1/ 35 والقراء والقراءات بالمغرب ص 183.

22 – وهذا الرأي على ما فيه من وجاهة إلا أنه انفرد به الدكتور عبد الهادي حميتو انظر: قراءة نافع عند المغاربة. 4/ 192

23 – انظر: سلوة الأنفاس، الكتاني، 2/ 76.

24 – انظر: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الحجوي، 2/ 315 .

25 – انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، ص 400.

26 – وهم كثيرون، ومنهم:أبو عمر الداني صاحب المقنع في رسم مصاحف الأمصار و كتاب التيسير في القراءات، ت444هـ، ، وابن بري التازي صاحب الدرر اللوامع، ت730هـ وابن صفار المراكشي ت762هـ وابن غازي المكناسي ت919هـ وكل واحد من هؤلاء يعد مدرسة بمفرده، ثم خلف من بعدهم خلف أثبتو لنا أصالة المغاربة في هذا الفن أمثال إبراهيم المارغني 1349هـ و ابن عاشور صاحب التفسير .

27 – يذكر سعيد أعراب أن استقلالية المغاربة في الرسم والخط والوقف والقراءة بدأت مع العصر الموحّدي، بينما يربط الدكتور حميتو أصول المدرسة القرآنية المغربية بالفتح الإسلامي لهذه الربوع في عهد الصحابة والتابعين . انظر: قراءة نافع عند المغاربة 1/ 31، والقراء والقراءات بالمغرب ص10.

28 – تشير المصادر التاريخية أن الذي أدخل قراءة نافع مع موطأ مالك للمغرب والأندلس هو غازي بن قيس المتوفى سنة 199 هـ، انظر: تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق بشار عواد

معروف، ط:1 بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2003م 4/ 1179 .

29 – هذه الأوقاف لم تكن مختصرة على المصاحف المطبوعة عند المغاربة، بل كانت ميزة للمصاحف المرتلة المسموعة فإنها بدورها تخضع للمراقبة والمراجعة من طرف المتخصصين في القراءات والترتيل، ولابد للمُرتِّل من مرعاة الوقف المبطي، فقد تتبعت مصاحف مرتلة ومسموعة لقراء مغاربة من أبرزها المصحف المرتل للقارئ الجزائري محمد مقاتلي الإبراهيمي المسجل والمراقب من طرف وزارة الشؤون الدينية 1435ه/2013م. فوجدته يراعي الوقف المبطي .

30 – ينظر: قراءة نافع عند المغاربة 4/189، وانظر: القراء والقراءات بالمغرب سعيد أعراب ص177

31 – انظر:، الوقف المبطي اتباع أم ابتداع، مصطفى بوعزة، رسالة المسجد، العدد الأول، السنة التاسعة، محرم 1432/ جانفي 2011، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائر .

32 – انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، بلقاسم سعد الله 1/290.

33 – وقد وجدت مصاحف مخطوطة، وكتب في الفقه والعقيدة بخزانة زواية سيدي سالم العامرة ومنها مصحف كتبه علي بن محمد المعروف سي علي بن رقية وقد أكمله في أوائل سنة 1320هـ انظر الصفحة الأخيرة من المخطوط المذكور الموجود في خزانة المخطوطات زاوية سيدي سالم الوادي .

34 – ومن هذه المصاحف ما وجدته بحوزة الحاج محمد، وشقيقه عبد الله بن موسى، فقد ورثا عن والدهما محمد بن محمد العيد، مصحفا مخطوطا يعود تاريخ كتابته إلى سنة 1233هـ كتبه أحمد بن عيسى، بخط مغربي مبسوط، و وضع فيه علامة الوقف المبطي المشار إليها بـ: ص، في كامل المصحف، على حسب مواضع الأوقاف المبطية المعروفة عند المغاربة .

35 – وهذا يعود إلى اعتقاد فقهي ديني عند الناس عامة، والأئمة وفقهاء ذلك العصر خاصة الذين أفتو بحرمة طبع المصحف، وكذا كتب الشريعة الإسلامية، انظر: تاريخ مطبعة بولاق، أبو الفتوح رضوان، لاط، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1953م، ص12، 13 وتاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، 5/ 396، تاريخ طباعة المصحف في الجزائر، عبد الهادي العقاب بحث مقدم إلى الندوة العالمية المنظمة من طرف مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بعنوان: " طباعة القرآن الكريم ونشره بين الواقع والمأمول " المنعقدة بالمدينة المنورة أيام: 3- 5 صفر 1436هـ الموافق لـ: من 25-27 نوفمبر 214 ص396 .

36 – وهو محمد شرّادي المعروف والملقب بالسفطي، ولد حوالي سنة 1865م، كان قيما بمسجد سيدي رمضان بالعاصمة الجزائرية، اشتغل بالخط والنقش على الجلد وتسفير الكتب، تعامل مع المطبعة الثعالبية وكتب المصحف الشريف ثلاث نسخ متتالية " 1912-1937"، كما كتب متن الآجرومية ومتن الشاطبية وغيرها من الكتب التي طبعت في المطبعة الثعالبية في بداية مسيرتها . انظر ترجمته في: اللوحات الخطية في الفن الإسلامي المركبة بخط الثلث الجلي دراسة فنية في تاريخ الخط العربي سعيد شريفي، ط:1 دمشق، دار بن كثير، 1998 ص309، وتاريخ الجزائر الثقافي سعد الله، 8/ 428 وتاريخ طباعة المصحف في الجزائر، عبد الهادي لعقاب ص651.

37 – انظر: تاريخ طباعة المصحف في الجزائر، عبد الهادي لعقاب ص 555.

38 –انظر: تاريخ طباعة المصحف في موريطانيا، أحمد سالم أحمدو، بحث منشور ضمن أعمال "طباعة القرآن الكريم ونشره بين الواقع والمأمول" مرجع سابق، ص702.

39 – انظر: النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع، إبراهيم المارغني ص253.

40 – انظر: تاريخ طباعة المصحف في الجزائر، عبد الهادي لعقاب، ص:657

41 – انظر الصفحة الأخيرة من المصحف المذكور .

42 – هو محمد بن سعيد شريفي، المولود بالقرارة سنة 1935 م، حصل على الدكتوراه من جامعة الجزائر، زخرف العملة النقدية الجزائرية، والشهادات المعبرة عن الجمهورية الجزائرية، له كتابات منها اللوحات الفنية في الخط الإسلامي انظر ترجمته في تاريخ طباعة المصحف في الجزائر الهادي لعقاي ص: 658 .

43 – انظر تاريخ طباعة المصحف في الجزائر، عبد الهادي لعقاب، ص 660 .

44 – انظر: التعريف بالمصحف الوارد في آخره ص ب .

45 – اعتمدت في وصف المصحف الليبي على الملحق المكتوب في آخره.

46 – انظر: الصفحة ط ضمن صفحات التعريف بالمصحف.

47 – انظر: سلوة الأنفاس، الكتاني 2/ 76.

48 – انظر: تاريخ طباعة القرآن الكريم في المغرب حسن إدريس عزوزي بحث منشور ضمن أعمال "طباعة القرآن الكريم ونشره بين الواقع والمأمول" ص461.

49 – بدأت علامات الوقف الهبطي تظهر في المصحف المغربي مشار إليها بعلامة "صه" ابتداء من التاريخ المذكور وهو يمثل ظهور الوقف الهبطي انظر: خطوط المصاحف عند المشارقة والمغاربة من القرن الرابع إلى القرن العاشر الهجري، محمد بن سعيد شريفي لاط، الجزائر، مطبعة أحمد زبانة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982 م ص.344، وانظر:علامات الوقف في المصاحف المطبوعة، رمضان إبراهيم عبد الكريم موسى، بحث منشور ضمن أعمال "طباعة القرآن الكريم ونشره بين الواقع والمأمول" ص1631 .

50 – هذا كما فعل محمد بن الصديق الغماري فقد ضعف وقف الهبطي وذكر أنه لا يرجع إلى قاعدة في وضع الوقف، وإنما يضع الوقف بحسب ما يظهر له، كما وصفه أنه لا يعرف علم النحو والعربية، بل جعل وقف الهبطي من المنكر الذي يجب تغيره وكلام كبير لا يليق بعالم خدم كتاب الله خدمة جليلة.انظر: منحة الرؤوف المعطي ببيان ضعف وقوف الشيخ الهبطي، عبد الله بن محمد الصديق الغماري، لاط، الدار البيضاء، دار الطباعة الحديثة، دت، ص 4، 6، 11، 20، 24.

51- ينظر:منهجية ابن أبي جمعة الهبطي في أوقاف القرآن الكريم، بن حنفية العابدين، ط:1، الجزائر، دار الإمام مالك، 1427هـ ص87.

52 – انظر ترجمته في: غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، ط: 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2006م 2/ 288.

53 – وقد حقق الدكتور عبد الهادي حميتوا هذه المسألة جيدا، وتتبع أوقاف الهبطي التي انتقدت عليه وقرر أنها أوقاف لنافع قبل أن تكون للهبطي، انظر: قراءة نافع عند المغاربة 4/ 203.

54 – انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام، الذهبي 3/ 63.

55 – ترجمته في بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط:2، لام دار الفكر، 1979م، 2/ 348.

56 – انظر المحرر الوجيز ابن عطية، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1422هـ 1/ 182، والتسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي تحقيق عبد الله الخالدي، ط:1، بيروت، دار الأرقم، 1416هـ 1/

91.و الكشاف، الزمخشري، ط:3 بيروت، دار الكتاب العربي، 1407هـ، 1/ 200 .

57- انظر: المكتفى في الوقف والابتداء، أبو عمرو الداني تحقيق يوسف عبد الرحمان المرعشلي، ط: 2 بيروت، مؤسسة الرسالة، 1407هـ ص169، والقطع والائتناف، أحمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق عبد الرحمان المطرودي، ط:1، المملكة السعودية، دار عالم الكتب، 1413هـ، ص 71 . والوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، ط:1، القاهرة، دار السلام، 1427هـ ص255 .

58 – التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي 1/ 91.

59 – انظر: البحر المحيط أبي حيان، تحقيق صدقي محمد جميل، لاط، بيروت، دار الفكر، 1420هـ 9/ 551 وجامع البيان ابن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، لاط، لام، مؤسسة الرسالة، 1420هـ 22/ 406، وروح المعاني، محمود الآ لوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية ط: 1، بيروت دار الكتب العلمية، 1415هـ 9/ 14 .

60 – انظر: البحر المحيط، أبو حيان، 8/ 134. وقال الداني وقف تام انظر: المكتفى ص 536.

61 – انظر: التفسير الوسيط، أبو الحسن الواحدي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط:1، بيروت، دار الكتب العلمية 1415هـ 4/ 175.

62 – انظر: حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد، تحقيق علي جمعة، ط: 1، القاهرة، دار السلام، 1422هـ ص 156

63 – انظر: الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القرآن الكريم، محمد بن عبد الله بن حمد السيف ط: 1، السعودية، دار التدمرية، 1429هـ 1/ 18 انظر:

64 – انظر: شرح المفصل، موفق الدين ابن يعيش النحوي، لاط، بيروت، عالم الكتب، دت، 8/9.

65 – انظر: الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القرآن الكريم، محمد بن عبد الله بن حمد السيف 2/ 799.

66 – انظر هذا الإعراب في: الكشاف، الزمخشري 2/ 5 وأبو حيان البحر المحيط 4/ 423 .

67 – البحر المحيط في التفسير، أبو حيان 4/ 435.

68 – انظر هذه التأويلات في: المحرر الوجيز، ابن عطية 1/ 283 والكشاف الزمخشري 1/ 253 و التسهيل لمعالم التنزيل، ابن جزي 1/ 117.

69 – انظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ط1:، بيروت، دار الفكر، 1401هـ 5/ 235.

70 – وقد أيده الأشموني من بعده، ونص على جواز الوقف عند الغمام، وحكم عليه بأنه وقف كاف لمن رفع الملائكة ويعرب حينها لفظ الملائكة: فاعل لفعل محذوف تقديره وتأتي الملائكة، انظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، أحمد بن عبد الكريم الأشموني، ط: 2، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1393هـ ص 130

71 – ومثاله: ما ورد في آخر البقرة عند قوله تعالى ﴿ وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا، وَارْحَمْنَا﴾ فإنه وقف على كل جملة لبيان الدعاء مع إمكانية الوصل.

72 – ومثاله الوقف على كذبت من سورة يوسف ثم يبتدئ وهو من الصادقين حتى يؤكد الصدق ليوسف والكذب لامرأة العزيز، وذلك في قوله تعالى ﴿وإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ، وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ووقفه في نفس السورة ﴿همت به، وهم بها ﴾ للتفريق بالذي همت به امرأة العزيز والذي كان من يوسف عليه السلام إذ لم يقع منه همٌّ في السوء قط، قال أبو حيان: " وَالَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ هَمٌّ بِهَا الْبَتَّةَ" انظر: البحر المحيط، أبو حيان 6 / 257 .

73 – سعيد أعراب القراء والقراءات بالمغرب ص177.

74 – لا يزال هذا الأمر من اهتمام معلمي القرآن الكريم حتى هذا العصر يذ لّلون للطالب سبل التعامل مع صور المتشابه اللفظي، ويجمعونها في أبيات كي يسهل حفظها وينتبه إليها، وقد وضع العلامة الشيخ الطاهر التليلي كتابه القيم منظومات في المسائل القرآنية لهذا الغرض الجليل حيث يقول في مقدمته: " أقدم بين يدي القارئ الكريم هذه المنظومة التي تتعلق ببعض علوم القرآن ومسائله التي كثيرا ما تدور بين القراء في مجالسهم وتقع فيها المحاورة بين الطلبة والمذاكرة بين الحفظة مثل عدد بعض الآيات وكيفية رسم بعض الكلمات وبيان بعض الشواذ من المتشابهات مما قد يشكل على الطالب المبتدئ ويغفل عنه القارئ المنتهي " انظر: منظومات في مسائل قرآنية، محمد الطاهر التليلي ط:1، الجزائر، دار الأمة 1994م، ص49 .

75 – انظر: المن بالإمامة، تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عصر الموحدين عبد الملك بن صاحب الصلاة، تح عبد الهادي تازي ط:3، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص54 .

76 – انظر: منهجية ابن أبي جمعة الهبطي في أوقاف القرآن الكريم، بن حنفية العابدين ص85 والقراء والقراءات بالمغرب، سعيد أعراب ص181.

77 – وهي المدّ: اللازم، والمتصل والمنفصل والبدل، والعارض للسكون.وغيرها من المدود المعروفة في رواية ورش انظر:النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع، إبراهيم المارغني ص 37.

78 – انظر: اختلاف المفسرين أسبابه وضوابطه، أحمد محمد الشرقاوي، بحث منشور في المجلة العلمية لكلية أصول الدين، جامعة الأزهر، العدد السابع عشر، سنة 2004 م.

79 – انظر تفصيل الكلام عن المحكم والمتشابه في: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، لاط، بيروت، دار الفكر، 1425هـ 2/ 299 و التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور لاط، تونس، دار سحنون، دت، 2/ 156.

80 – انظر إعراب الآية في: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور 2/ 165 والبحر المحيط، أبو حيان 3/ 28 .

81 – انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق عبد المحسن التركي، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1427هـ 5/ 25 وانظر أبو حيان: البحر المحيط 3/ 28 والمكتفى للداني ص 195.

82 – انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية 1/ 403.

83 – انظر: تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، ط:1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1419هـ 6/ 171.

84 – البحر المحيط، أبو حيان 8 / 236.

85 – انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، 24/ 555 .

86 – وقد اختار قول بن عباس في هذا الوقف، الإمام الداني و العلامة ابن الأنباري. انظر: المكتفى الداني، ص 429 .و إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، أبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنبا ري، تحقيق محي الدين عبد الرحمان رمضان، لاط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1391هـ ص817.

87– انظر القرطبي الجامع لأحكام القرآن 13/ 195 وإيضاح الوقف والابتداء ابن الأنباري، ص817.

88 – انظر: علم المقاصد الشرعية، نور الدين الخادمي، ط: 1، الرياض، مكتبة العبيكان، 1421هـ ص83 .

89 – انظر: القرطبي الجامع لأحكام القرآن 12/ 178، وروائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني ط:3، دمشق، مكتبة الغزالي، بيروت، ومؤسسة مناهل العرفان، 1400هـ 2/ 59.

90 – انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي 12/ 179.

91 – وهي مسألة خلافية عند النحاة وعلماء أصول الفقه، انظر أبو حيان، البحر المحيط 8/ 15 وانظر: شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي، لاط، بيروت، دار الفكر، 1424 هـ ص 194، 195.

92 – ومنهم الشعبي حيث قال: الاستثناء في الآية من الأحكام الثلاثة، فإذا تاب وظهرت توبته لم يحد وقبلت شهادته وزال عنه التفسيق انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 12/ 179.

93 – ومن أبرزها مصحف المدينة النبوية المطبوع بمجمع الملك فهد انظر المصحف سورة النور ص350.

94 – وهؤلاء يكون الوقف بحسب مذهبهم على:" أبدا"، وممن قال به من السلف: شريح، وسعيد بن جبير، والثوري، والنخعي انظر: القطع والإتناف، النحاس، ص463.

95 – انظر: القطع والإتناف، النحاس، ص 463.

96 – انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني 2/ 71 .

97 – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 16/255 .

98 – انظر هذه المسألة الأصولية الفقهية في: أحكام القرآن، أبو بكر محمد ابن العربي، تحقيق محمد البجاوي، لاط، بيروت، دار المعرفة، دت، 4/ 1704، وانظر: الذخيرة، القرافي، تحقيق سعيد أعراب، ط:1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م 2/ 528، و أصول الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي، ط: 2، دمشق، دار الفكر المعاصر، 1418هـ 1/ 80، وروائع البيان تفسير آيات الأحكام محمد علي الصابوني 2/ 468.

99 – انظر: منهجية ابن أبي جمعة المبطي في أوقاف القرآن الكريم بن حنفية العابدين ص 136.

HABTI pause in the copy of the Koran of Maghreb

Dris RIMI*

Abstract :

This research aims to demonstrate the efforts of Mohammed bin Abi Jumaa al-Habti in the service of the copy of the Koran of Maghreb in terms of setting the end. This research deals with this personality on which the copies of the Holy Koran in the Islamic Maghreb depend by clarifying the most important knowledge bases and the semantic dimensions associated with these pauses.

Keywords: pause - Ibn Abi Jumaa - copy of the Koran of Maghreb - Knowledge Basis.

* Institute of Islamic Sciences - University of El-oued - Algeria.

مظاهرُ الصِّدِّيقية في إنجازاتِ الخليفة أبي بكرٍ رضي الله عنه

بقلم
د/ حسين شرفه(*)

ملخص

يتناول هذا البحث جانبا من جوانب التميُّز في شخصية الخليفة أبي بكر رضي الله عنه ممثلا في الصِّدِيقية، وهي الصفة التي فاق بها الصحابة رضي الله عنهم، وحاز بها لقب الصِّدِيق في هذه الأمة، وستحاول هذه الدراسة إبراز حقيقة تلك المنقبة من خلال الإنجازات التي حققها في خلافته.

وإذا كانت خلافة الصِّدِيق رضي الله عنه لم تدم طويلا- إذ لم تزد عن سنتين وثلاثة أشهر- فإنها شهدت أربعة إنجازات كبيرة قلما تكررت في التاريخ، وليس لها من تفسير سوى ما حظي به الخليفة أبوبكر رضي الله عنه من مناقب وفضائل، خاصة صديقيته التي أهلته أن يقود المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ.

فما حقيقة الصِّدِيقية؟ وكيف تجلت مظاهرها في إنجازات الخليفة أبي بكر رضي الله عنه؟

ذلك ما تروم هذه الدراسة بيانه .. وبالله التوفيق والسداد.

الكلمات المفتاحية: أبوبكر الصديق- الخلافة- القيادة- التميّز.

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه .. وبعد:

فإن تاريخ الأمة الإسلامية سِفْرٌ عظيم تمتلئ صفحاته بالأحداث الخالدة والمواقف الشاهدة، دُبِّجَت سطوره الأولى بأطهر سيرة لأعظم مخلوق هو رسول الله ﷺ، فكان - كما وصفه ربه - شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ثم سُطِّرتْ بعده سِيَرٌ أصدق وأطهر

(*) أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية العلوم الإسلامية ـ جامعة باتنة 1.
ch.hacen@hotmail.com

الرجال، وهم صحابته الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، فكان قَرنُهم خير القرون، واختُصَّ منه زمن الخلفاء الراشدين المهديين؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عنهم أجمعين، فكانوا كالنجوم الزاهرة، وأنار فيهم نجم أكثر فكان كالكوكب الدُّري، ذاك هو صديق هذه الأمة رضي الله عنه وأرضاه.

فأبو بكر الصِّديق رضي الله عنه هو خير هذه الأمة وأعظم رجالها بعد نبيها ﷺ، هو أول الرجال إسلاما، وصاحب الهجرة، وثاني اثنين في الغار، وأول خليفة...ومناقبه لا تكاد تحصى، ولعل أفضل تلك المناقب كونه الصِّديق، لقَّبه بذلك رسول الله ﷺ .

وليس المقصود رصد مظاهر الصديقية في أخلاق أبي بكر رضي الله عنه وقد بلغ فيها المرتبة العالية، ولا في أقواله وقد كانت قبساً من مشكاة النبوة، ولا حتى في مجمل أعماله التي فاق فيها كل الصحابة، وإنما سنُخصص حيزا ضيقا جدا من حياته، لا يزيد عن سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام، هي مدة توليه الخلافة، ولكنها بقدر ما كانت قصيرة زمانا، كانت مباركا أعمالا، فقد أنجز فيها الصِّديق أربعة أعمال كبيرة خلدها التاريخ.

فما تلك الأعمال، وما مظاهر الصديقية فيها ؟ ذلك ما تصبو هذه الدراسة الكشف عنه، معتمدة في ذلك على جملة من المصادر والمراجع، أساسها ما صح من نصوص السنة، ثم أقوال علماء الأمة، وما دونته كتب التاريخ الموثوقة، وبعض الدراسات ذات الصلة، متوخية الموضوعية والروح العلمية بعيدا عن التحريف والتزييف.

وقد جاءت هذه الدراسة في مبحثين، أولهما: في بيان حقيقة الصديقية وحظ أبي بكر رضي الله عنه منها، وتناولتها في مطلبين، أما المبحث الثاني: وهو لب الدراسة فتتبعت فيه مظاهر الصديقية في الإنجازات الأربعة في خلافة أبي بكر، وقد خصصت لكل إنجاز مطلباً، وأنهيت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي خلصت إليها.

هذا.. وما كان من توفيق، فمن الله وحده فله الحمد والمنَّة، وما كان من قصور، فهو مني، وحسبي أني بذلت الجهد واستفرغت الوسع.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأول

مفهوم الصِّديقية وحظ أبي بكر رضي الله عنه منها

للوقوف على حقيقة الصِّديقية كمنزلة ربانية حظي بها أبو بكر رضي الله عنه، يحسن بنا تحديد مفهومها، وذلك ببيان معناها اللغوي والاصطلاحي، ثم ذكر ما ثبت من النصوص الدالة على صديقية أبي بكر رضي الله عنه، وهو ما سأتناوله في هذا المبحث من خلال مطلبين.

المطلب الأول: معنى الصِّديقية لغة واصطلاحا

أولا: معنى الصديقية لغة

بالرجوع إلى المعاجم والقواميس اللغوية في مادة:" ص.د.ق" نجدها تذكر جملة من المعاني نوجزها فيما يأتي:[1]

صَدَقَ: الصاد والدال والقاف أصل يدل على قوة في القول وغيره، والصِّدْقُ خلاف الكذب، يقال: صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقاً وصِدْقاً وتَصْدَاقاً، وصَدَّقَهُ وصَدَّقَ به تَصْدِيقاً: اعترف بصِدْقِ قوله، وصَدَقَهُ الحديثَ: أنبأهُ بالصِّدْق، وصَدَقْتُهُ: قلتُ له صِدْقاً، وكذلك من الوعيد إذا أوقعتَ بهم قلتَ: صَدَقْتُهُمْ.

ورجلٌ صَدُوقٌ: أبلغُ من الصَّادِقِ، والمُصَدِّقُ الذي يُصَدِّقُكَ في حديثك، وهذا رجلُ صِدْقٍ: بمعنى نِعْمَ الرجُلِ هُوَ، فإذا نَعَتَّهُ قلتَ: هو الرجُلُ الصَّدْقُ، والصَّدْقُ الكامل في كل شيء.

والصِّدِّيقُ: الدائمُ الصِّدْقِ والمبالغُ فيه، والذي يُصَدِّقُ قولَهُ بالعمل.

والصِّدِّيقُ: المُصَدِّقُ بكل أمر الله عز وجل والنبي ﷺ لا يتخالجه شك في شيء...

هذا أهم ما ذكرته المعاجم والقواميس اللغوية في مادة (ص د ق)، فهي تدور حول معاني: القوة والكمال والمخاللة والمحبة والأمانة والصلابة والاستواء، وهي معانٍ متكاملة تؤول إلى معنى القوة كما أصَّله ابن فارس. ولا يخفى ما فيها من إشارة إلى بعض صفات الصديقية، ولم يكتف أئمة اللغة بذكر المعاني والدلالات اللغوية، بل أعطوا معنىً للصِّدِّيق هو أقرب إلى التعريف الاصطلاحي كما سنعرف بعد حين.

ثانيا: تعريف الصديقية اصطلاحا

حظي لفظ الصِّدْقِ وما يشتق منه باهتمام العلماء فعرَّفوه تعريفات اصطلاحية كثيرة ومختلفة يصعب حصرها، فقد نظرت كل طائفة إليه من جهة اختصاصها، وإذ لا يتسَنى ذكر كل أقوالهم ، فسأقتصر على إيراد نماذج منها.

فقد ذكر أصحاب المعاجم الاصطلاحية تعريفات للصِّدق والصِّدِّيقية، فعرَّفه الراغب

بقوله:" الصِّدْق: مطابقة القول الضمير والمُخبَر عنه معا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن تاما...والصِّدِّيق: من كثر منه الصدق، وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قط، وقيل: بل لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق، وقيل: بل لمن صَدَق بقوله واعتقاده وحقَّق صِدقه بفعله...فالصِّدِّيقُون هم قوم دُوَين الأنبياء في الفضيلة...ويعبر عن كل فعل فاضل ظاهرا أو باطنا بالصِّدق"[2].

وعرفه الكفوي بتعريف قريب مما ذكر الراغب فقال:" الصِّدق بالكسر: هو إخبار عن المخبر به على ما هو به مع العلم بأنه كذلك، والصِّدق التام: هو المطابقة للخارج والاعتقاد معا، فإن انعدم واحد منهما لم يكن صِدقاً تاماً...والصِّدق: هو أن يكون الحكم لشيء على شيء إثباتاً أو نفياً مطابقاً لما في نفس الأمر...والصِّديقية: درجةٌ أعلى من درجات الولاية، وأدنى من درجات النبوة، ولا واسطة بينها وبين النبوة، فمن جاوزها وقع في النبوة بفضل الله في الزمان الأول"[3].

أما الجرجاني والمناوي فقد اكتفيا بنقل أقوال أهل الحقيقة، وعرَّفا لفظ "الصِّدِّيق" تعريفا متشابها، فقال عنه الأول:" الصِّدِّيق: هو الذي لم يدع شيئا مما يظهره باللسان إلا حققه بقلبه وعمله"[4]، وقال الثاني:" الصِّدِّيق: من لم يكذب قط، أو من كثر منه الصِّدْق، أو من صَدَّق قوله اعتقاده، وحقق صِدْقُه فعله، أو الذي لم يدَعْ شيئا مما يظهره باللسان إلا حققه بقلبه وعمله"[5].

فهذه جملة من التعريفات تتفق في معانيها وإن اختلفت ألفاظها، فهي تؤكد على معنى واحد للصِّدق وهو تطابق قول اللسان مع اعتقاد الجنان وتحقيق ذلك بالأعمال، والصِّدِّيق من لازم الصِّدق ولم يكذب قط وحقق صِدْقه بعمله، أما الصِّدِّيقية فهي منزلة فوق الولاية ودون النبوة.

نستنتج من هذا الاستقراء للمعنى الاصطلاحي للفظ الصِّديقية، أن مفهومه ظل محافظا على معناه كمنزلة من منازل الكمال تلي مقام النبوة، وتقتضي ملازمة الصدق في القول والعمل.

فإلى أي حد استطاع أبو بكر رضي الله عنه أن يحقق كل تلك المعاني حتى استحق لقب الصِّديق بلا منازع، هذا ما سنتطرق إليه في المطلب الثاني من هذا المبحث.

المطلب الثاني: حظ أبي بكر رضي الله عنه من الصديقية

سنحاول رصد تلك المنزلة من خلال ما خُصَّ به أبو بكر رضي الله عنه من مناقب وفضائل دون غيره، ثم شهادة الصحابة رضي الله عنهم بتميُّزه ومكانته بينهم، وإجماع الأمة على صِدِّيقيته.

أولا: أخلاق أبي بكر رضي الله عنه ومكانته قبل الإسلام

فقد كان لأبي بكر رضي الله عنه مكانة متميزة بين قومه قبل الإسلام، قال عنها ابن عبد البر: "كان في الجاهلية وجيها رئيسا من رؤساء قريش، وإليه كانت الأشناق في الجاهلية، والأشناق:

الديات، كان إذا حمل شيئا قالت فيه قريش: صَدِّقُوه وأمضوا حمالته، وحمالة من قام معه أبو بكر، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه"[6].

ويحدثنا ابن هشام عن منزلة أبي بكر رضي الله عنه في قريش فيقول:" كان أبو بكر رجلا مَأْلفاً لقومه مُحبباً سهلاً، وكان أنسبَ قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلقٍ ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه، وتجارته وحسن مجالسته"[7].

هذا ما تميز به أبو بكر رضي الله عنه بين قومه قبل الإسلام وجعله محببا إليهم، فقد كان ذا خلق كريم، وعالما بأنساب قريش، وتاجرا ناجحا، وتلك خصال قلَّما اجتمعت في رجل واحد.

وقد ترَفَّع أبو بكر رضي الله عنه عن عادات الجاهلية، فكان كما وصفته ابنته الصِّديقة رضي الله عنها بقولها: "والله ما قال أبو بكر شِعراً قط في جاهلية ولا إسلام، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية"[8].

واشتهر أبو بكر رضي الله عنه بين قومه بأخلاقه، حتى وُصِف بما وَصفتْ به خديجةُ رضي الله عنها رسولَ الله ﷺ حين حدثها بخبر بداية الوحي[9]، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: " لَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِراً قِبَلَ الْحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ – وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ – فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِى قَوْمِى فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِى الأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّى . قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ..."[10].

ثانيا: الأحاديث النبوية الدالة على صديقية أبي بكر رضي الله عنه

كانت تلك أخلاق أبي بكر رضي الله عنه قبل إسلامه، وقد كان لسلامة فطرته ومصاحبة النبي ﷺ قبل بعثته أثر في استجابته للإسلام دون تردد، فكان أول الرجال إسلاما، ففي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِى إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ . وَوَاسَانِى بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِى صَاحِبِى » مَرَّتَيْنِ [11].

وفي رواية ابن إسحاق: "ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كَبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عَكَم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه"[12]، قال البيهقي معلقا: "وهذا لأنه كان يرى دلائل نبوة النبي ﷺ، ويسمع آثاره قبل دعوته، فحين دعاه كان قد سبق فيه تفكره ونظره فأسلم في الحال" [13].

وقد تَبوَّأ أبو بكر رضي الله عنه المقام الأول بين صحابة رسول الله ﷺ، وأضحى صِدِّيق هذه الأمة، شهد له بذلك رسول الله ﷺ كما في الحديث الذي أخرجه البخاري، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ أُحُداً وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ فَقَالَ:« اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ » [14]، وقد لُقِّب بالصِّديق لمبادرته إلى تصديق النبي ﷺ في كل ما جاء به، وأوَّلُ ما اشتهر به لتصديقه له في خبر الإسراء والمعراج، ففي حديث عائشة رضي الله عنها وعن أبيها:" لما أُسرِي بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتدَّ ناسٌ ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعُم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: وتُصدِّقُه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأُصدِّقه فيما هو أبعدُ من ذلك، أُصدِّقه بخبر السماء في غَدوة أو رَوحة، فلذلك سُمِّي أبا بكر الصِّدِّيق "[15].

ومن فضائل أبي بكر رضي الله عنه التي استحق بها لقب الصِّديق سبْقُه إلى الإسلام والنصرة والهجرة والجهاد وغيرها، ويكفي دليلا على ذلك ما ثبت من فضائله ومناقبه، فهو أول الرجال إسلاما، كما في حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه قال:" رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلاَّ خَمْسَةُ أَعْبُدٍ وَامْرَأَتَانِ وَأَبُو بَكْرٍ "[16]، وهو الصاحب في الهجرة، وثاني اثنين في الغار، كما قال الله تبارك وتعالى:﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، وفي الحديث الصحيح عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِى بَكْرٍ رضى الله عنه قَالَ قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِى الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا. فَقَالَ:« مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا »[17]، وفي حديث الهجرة الطويل قال أبو بكر رضي الله عنه:" ... فَارْتَحَلْنَا وَالْقَوْمُ يَطْلُبُونَا ، فَلَمْ يُدْرِكْنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ غَيْرُ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ عَلَى فَرَسٍ لَهُ . فَقُلْتُ هَذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: « لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »[18]، فشرَفُ الصحبة في الهجرة فضيلةُ الفضائل ومنقبةُ المناقب للصِّديق، حتى قال عنها سفيان بن عيينة: «عاتب الله المسلمين جميعا في نبيه ﷺ غير أبي بكر رضي الله عنه وحده فإنه خرج من المعاتبة، ثم قرأ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ..(الآية)﴾»[19].

ومن فضائل أبي بكر رضي الله عنه التي استحق بها مقام الصِّديقية إنفاقه في سبيل الله، أسلم وله أربعون ألفا، أنفقها كلها على رسول الله ﷺ في سبيل الله[20]، فقال عنه ﷺ: « إِنَّ مِنْ أَمَنِّ

النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ، لاَ يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلاَّ سُدَّ، إِلاَّ بَابَ أَبِي بَكْرٍ »[21]، وقال أيضا:"ما نفعني مالٌ قَط، ما نفعني مالُ أبي بكرٍ، فبكى أبو بكر وقال:يا رسول الله! هل أنا ومالي إلا لك، يا رسول الله"[22].

ومن أدلة صديقية أبي بكر رضي الله عنه مسابقته في الخيرات، فقد كان أكثر الصحابة اجتهادا في الطاعات والقربات، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من أصبح منكم اليوم صائما؟ " قال أبو بكر: أنا. قال: "فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ " قال أبو بكر: أنا. قال: "فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟ " قال أبو بكر: أنا. قال: "فمن عاد منكم اليوم مريضا؟" قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: "ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة"[23].

ولو رحنا نتتبع فضائل أبي بكر رضي الله عنه الدالة على صديقيته لطال المقال، ففضائله تكاد لا تحصى، قال عنها النووي:" وكم للصديق من مواقف وأثر؟ ومن يحصي مناقبه ويحيط بفضائله غير الله عزوجل؟ "[24]، وفيما ذكرنا غُنية وبيان للمقصود.

ثالثا: شهادة الصحابة على صديقية أبي بكر رضي الله عنه

لو لم يكن لأبي بكر رضي الله عنه من الفضائل إلا ما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه [25]، والرسول ﷺ في الصحيح من سنته لكفاه، ولكن الله عز وجل زاده تشريفا بأن كتب له القبول في قلوب المؤمنين فأحبوه ووَالَوْه، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم أول من عرف للصِّديق مكانته، ولذلك وردت عنهم آثار كثيرة يُنوِّهون فيها بفضائله، سأكتفي بذكر شهادة رجلين من خيار أصحاب رسول الله ﷺ.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعترف بعجزه عن مسابقة أبي بكر رضي الله عنه في الإنفاق في سبيل الله فيقول:" أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: "ما أبقيت لأهلك"؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال:" يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك"؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: والله لا أسبقه إلى شيء أبدا"[26].

وحين اقترح أبو بكر رضي الله عنه عمرَ أو أبا عبيدةَ لمنصب الخلافة وهم في السقيفة، رد عليه عمر رضي الله عنه:" بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ

عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ "[27]. وقال أيضا: " وَاللَّهِ أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي لاَ يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ "[28].فإذا كانت هذه شهادة الفاروق رضي الله عنه – ومقامه بين الصحابة بالمكان المعلوم – فبقية الصَّحب رضي الله عنهم من باب أولى.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه– الذي ادعى فيه أقوام ما ادعوا، حتى رفعوه إلى مقام العصمة، وجعلوه خصما للصديق– يؤكد سبق أبي بكر رضي الله عنه وفضيلته، فهو من قال كما أخبر عنه ولده محمد بن الحنفية قال: قُلْتُ لأَبِي أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ، قَالَ: مَا أَنَا إِلاَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ "[29]، وأخرج أحمد عن أبي جحيفة عن علي رضي الله عنه أنه قال: "خير هذه الأمة بعد نَبِيِّهَا أبو بكر، وخيرها بعد أبي بكر عمر، ولو شئت سمَّيتُ الثالث "[30]. وكان رضي الله عنه يقول: " لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري " [31].

أما شهادة عموم الصحابة رضي الله عنهم فيكفي فيها ما ذكر ابن عمر رضي الله عنهما، قال:" كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنهم "[32]، وفي رواية: " كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لاَ نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَداً ثُمَّ عُمَرَ ثُمَّ عُثْمَانَ، ثُمَّ نَتْرُكُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ لاَ نُفَاضِلُ بَيْنَهُمْ "[33]، فأبو بكر رضي الله عنه في المقام الأول في تفاضل الصحابة، يصرحون بذلك ورسول الله ﷺ يسمع، فلا ينكره.

هذا هو الصِّدِّيق الأكبر، لازم الصدق في القول والعمل، ولم تقع منه هِنَاة، فأضحى الرجل الثاني في الإسلام، أكرمه الله عز وجل ورفع شأنه فجعله وزيرَ نَبِيِّهِ فكان الصاحب في الهجرة وثاني اثنين في الغار، ونَوَّه الرسول ﷺ بفضْلِه وسَبْقِه وبَذْلِه، فأحبَّه وقرَّبه واختاره ليؤُمَّ الناسَ في الصلاة وهو حيٌّ ﷺ، وعرف الصحابة رضي الله عنهم أن ليس فيهم من تقطع إليه الأعناق مثله، فاختاروه خليفة لهم، وتوافقت الأمة على سمو قدره وعلو منزلته فأجمعت على صدِّيقيته، وتبارى العلماء في مدحه والثناء عليه بما هو أهله. فقال عنه سعيد بن المسيب: " كان أبو بكر من النبي ﷺ مكان الوزير، فكان يشاوره في جميع أموره، وكان ثانيه في الإسلام، وثانيه في الغار، وثانيه في العريش يوم بدر، وثانيه في القبر، ولم يكن رسول الله ﷺ يقدم عليه أحدا "[34].

وقال عنه الشعبي:" خص الله تبارك وتعالى أبا بكر الصديق بأربع خصال لم يخص بها أحدا من الناس: سماه الصديق ولم يسم أحدا الصديق غيره، وهو صاحب الغار مع رسول الله ﷺ، ورفيقه في الهجرة، وأمره رسول الله ﷺ بالصلاة والمسلمون شهود "[35].

وقال عنه أبو نعيم الأصفهاني:" أبو بكر الصديق، السابق إلى التصديق، الملقب بالعتيق، المؤيد من الله بالتوفيق، صاحب النبي ﷺ في الحضر والأسفار، ورفيقه الشفيق في كل الأطوار، وضجيعه بعد الموت في الروضة المحفوفة بالأنوار، المخصوص في الذكر الحكيم بمفخر فاق به كافة الأخيار، وعامة الأبرار، وبقي له شرفه على كرور الأعصار، ولم يَسْمُ إلى ذروته همم أولي الأيد والأبصار"(36).

ولو رحنا نسوق أقوال الصحابة والتابعين حول صِدِّيقية أبي بكر رضي الله عنه لضاق المجال، ولكن حسبنا أن الأمة مجمعة على أنه الصِّديق الأول، لعلو منزلته وكثرة مناقبه وفضائله، ولا عبرة بما يقوله بعض من لا يُعتد به من الطوائف المخالفة.

المبحث الثاني

إنجازات أبي بكر رضي الله عنه ومظاهر الصديقية فيها

بُويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفةً للمسلمين في اليوم الموالي لوفاة النبي ﷺ، وقد كانت كل القرائن تدل أنه المرشح لذلك، ليس بسبب تلك الأحداث والأحاديث التي تشير إشارات يفهمها كل ذي لب إلى أن الخلافة ستؤول إليه فحسب، وإنما بما كان يعرف الصحابة رضي الله عنهم من صِدِّيقيته رضي الله عنه، إذ كانوا بحاجة إلى رجل رحيم يواسيهم في مصابهم بفقد رسول الله، وما ألفوه من رحمته ﷺ، فكان الأجدر بذلك مَنْ وصَفه النبي ﷺ بقوله:" أرحم أمتي بأمتي أبو بكر..."(37)، فكان همزة وصل بين نبوة الرحمة وخلافة الرحمة كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ فيما أخرج الطبراني عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" أَوَّلُ هَذَا الْأَمْرِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ ، ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةً وَرَحْمَةً..."(38)

وقد لاحت علامات الرحمة من الصديق رضي الله عنه قبل تَولِّيه الخلافة؛ حين ثبَّته الله جل وعلا يوم وفاة النبي ﷺ فثبَّتَ به الأمة، وحين قطع الخلاف في السقيفة بما ألهمه الله عز وجل من حجة في القول، فأعاد إلى الصحابة لُحمتهم، ثم حين خطب في الناس بعد بيعته، فأكد على اتباع هدي بني الرحمة ﷺ، خاصة حين ختم كلمته قائلا:" أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"(39)، وفي رواية أنه قال:"أيها الناس: إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني"(40)، فكان العمل بالكتاب والسنة منهجه في الحكم والسياسة، وعنوان صِدِّيقيته.

ومنذ قام رضي الله عنه مقام رسول الله، لم يُخِلَّ بشيء من هديه ﷺ، فوفىَّ بالوعد الذي قطعه على

نفسه، ولم يُحابِ حتى فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها حين أرسلت إليه بعد وفاة أبيها تسأله نصيبها مما ترك رسول الله ﷺ من خيبرَ وفَدَكٍ، وصدقته بالمدينة، فأبى أبو بكر عليها ذلك، وقال:" لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ "(41).

خلافة الصِّدِّيق رضي الله عنه هي الأقصر مدة، إذ لم تزد عن سنتين ومائة يوم(42)، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِى عَلَى قَلِيبٍ عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِى قُحَافَةَ، فَنَزَعَ بِهَا ذَنُوباً أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِى نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ضَعْفَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْباً، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ »(43). فقوله:" فَنَزَعَ بِهَا ذَنُوباً أَوْ ذَنُوبَيْنِ"، إشارة إلى مدة خلافته القصيرة، وليس في قوله:" وَفِى نَزْعِهِ ضَعْفٌ" حَطّ من فضيلة أبي بكر ولا إثباتُ فضيلةٍ لعمر عليه، وإنما إخبار عن مدة ولايتهما وكثرة انتفاع الناس في ولاية عمر لطولها (44)، فأبو بكر رضي الله عنه شُغل بقتال أهل الردة، وحين استخلَفَ عمرَ رضي الله عنه كان قد طهَّر الجزيرة من رجسهم، وهيأ له أسباب استقرار الدولة، ومن ثَمّ التوسع في الفتوحات.

ورغم قصر مدة خلافة الصِّديق رضي الله عنه، فإنها كانت حافلة بإنجازات عظيمة خلَّدها التاريخ، وتجلت فيها مظاهر صِدِّيقيته، فما تلك الإنجازات؟ وما مظاهر الصِّديقية فيها؟ ذلك ما ستحاول المطالب الآتية الإجابة عنه، وبالله التوفيق والسداد.

المطلب الأول: إنفاذ جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما

كان آخر عمل قام به النبي ﷺ قُبيل وفاته تجهيزُ جيش أسامة رضي الله عنه، قال ابن إسحاق:"وبعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام، وأمره أن يُوطِئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعَب مع أسامة المهاجرون الأولون . قال ابن هشام: وهو آخر بعْثٍ بعثه رسول الله ﷺ"(45)، وقد أكد ﷺ على ضرورة إنفاذه، فقال في مرض وفاته:"انفذوا جيش أسامة"(46)، وتحرك الجيش فلما وصل إلى الجرف، عسكر هناك ينتظر أخبار النبي ﷺ الذي اشتد به المرض، ثم لم يلبث أن لحق بالرفيق الأعلى – بأبي هو وأمي – صلوات ربي وسلامه عليه، وتولى الصديق رضي الله عنه الخلافة، فنادى مناديه من الغد من متوفى رسول الله ليُتمِّم بعثَ أسامةَ:" ألا لا يبقين بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلا خرج إلى

عسكره بالجرف"[47].

كان ذلك أول قرار اتخذه خليفة رسول الله، وكيف لا يسارع إلى إكمال مشروع بدأه النبي ﷺ، وهو الذي تعهَّد أمام مبايعيه أن يطيع الله ورسوله؟

والحق أن إنفاذ جيش أسامة كان في ظرف استثنائي وحساس، إذ بدأت بوادر الردة والتمرد تلوح، وقد صورت عائشة رضي الله عنها ذلك بقولها:" لما قُبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة وأُشربت النفاق، والله لقد نزل بِأَبِي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزًى مَطِيرَةٍ في حُشٍّ (بستان) في ليلة مَطِيرَةٍ في أرض مَسْبِعَةٍ (ذات سباع)، فوالله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أَبِي بحظها وغنائها وفضلها"[48]، وعن ابن سعيد قال: " لما فصل أسامة كفرت الأرض وتضرمت، وارتدت من كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشا وثقيفا"[49].

وأمام هذا الوضع المنذر بالخطر، قال بعض الصحابة للصِّديق رضي الله عنه: " أمسكْ أسامةَ وبَعْثَه فإنا نخشى أن تميل علينا العرب إذا سمعوا بوفاة رسول الله ﷺ"[50]. فقد كانت كل المعطيات تؤيد ضرورة الإبقاء على جيش أسامة في المدينة النبوية لحمايتها من الخطر المحدق بها، لذلك بَدَا اقتراح تأجيل خروج الجيش منطقيا وواقعيا، ولكن الصديق رضي الله عنه خالف المتوقع، وأصدر قرارا حاسما بإكمال مشروع بعث جيش أسامة، ولم يلتفت إلى تحذيرات الناس وتخويفهم.

إن الصِّديق رضي الله عنه الذي صمَّم على إنفاذ جيش أسامة، كان ينطلق من عقيدة راسخة، هي وجوب طاعة أمر النبي ﷺ، ولذلك رد على مخالفيه بقوله:" والله لا أحُلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ"[51]، وقال أيضا : " أنا أحبسُ جيشا بعثهم رسول الله ﷺ! لقد اجترأتُ على أمر عظيم، والذي نفسي بيده لَأَنْ تميل عليَّ العرب أحبَّ إليَّ من أن أحبس جيشا بعثهم رسول الله ﷺ، امضِ يا أسامة في جيشك للوجه الذي أُمِرْتَ به، ثم اغْزُ حيث أمرك رسول الله ﷺ من ناحية فلسطين، وعلى أهل مؤتة، فإن الله سيكفي ما تركتَ"[52].

وحين حذره الناس من اكتساح المرتدين للمدينة، لم يضعف ولم يتردد، بل ازداد إصراراً وعزيمةً، ورفع التحدي إلى أقصاه فقال:" لو أن الطير تخطفُنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جَرَتْ بأرجُلِ أمهاتِ المؤمنين لأُجَهزنَّ جيشَ أسامة"[53].

ما سر هذا الإصرار والعزم، إنها الصديقية التي تستمد منطقها من الاتباع الكامل، وكل قضية

عند الصِّديق رضي الله عنه تتسع للاجتهاد إلا قضيةً أبرم اللهُ فيها حكماً، أو أصدر الرسولُ فيها أمراً، لقد أمرَ الرسول ﷺ قُبيل وفاته أن ينفذ بعث أسامة، وليكن ما أمر الرسول به مهما تكن مستحدثات الظروف، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة.!

وحين أدرك مقترحو إرجاء إنفاذ جيش أسامة أن أبا بكر رضي الله عنه ماضٍ في قراره، ويئسوا من تراجعه، قال مَنْ مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:" فإن أبىَ إلا أن نمضي فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يُوَلِّيَ أمرنا رجلا أقدمَ سِنّاً من أسامة"، فقال عمر:" إن الأنصار تطلب رجلا أقدم سنّاً من أسامة"، فوثب أبو بكر – وكان جالسا – وأخذ بلحية عمر، وقال:" ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه"(54).

ومرة أخرى يرفض أبو بكر رضي الله عنه أي مساومة في أمر قضى به رسول الله ﷺ، إن الذي يُعرَض على الصِّديق شبيهٌ بما قال الناس حين طعنوا في إمارة أسامة رضي الله عنه يوم اختير لقيادة الجيش، وإذا كان رد النبي ﷺ يومها أنه خليق بالإمارة، فلا يُنتظر من الصِّديق رضي الله عنه إلا ذلك الرد الذي أسمعه عمرَ ليبلغه للمعترضين، إنها الصديقية التي لا تجترئ على تغيير شيء قضت به النبوة.

ولكي يعطي الصِّديق رضي الله عنه المثل في الانقياد والطاعة لما قضى به الرسول ﷺ فقد خرج حتى أتى جيش أسامة "فأشخصهم وشيَّعهم وهو ماشٍ وأسامة راكبٌ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبنَّ أو لأنزلنَّ! فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب! وما عليَّ أن أُغبِّر قدمي في سبيل الله ساعة"(55)، إنه يتمثل موقف النبي ﷺ مع معاذ بن جبل رضي الله عنه، لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، خَرَجَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوصِيهِ، وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي تَحْتَ رَاحِلَتِهِ (56). ولم يقف الخليفة عند هذا الحد، بل بلغ من تقديره لمن أمَّرَهُ رسول الله ﷺ أن يستأذنه في الإبقاء على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة قائلا:" إن رأيت أن تعيننبي بعمر فافعل! فأذن له"(57).

ولم ينسَ وهو يودِّع الجيش أن يوصيه بآداب الغزو(58)، كما كان يفعل رسول الله ﷺ حين يرسل سرايا الجهاد(59)، ثم التفت إلى أسامة رضي الله عنه فلم يزد على أن قال له:" اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ...ولا تُقصِّرنَّ في شيء من أمر رسول الله ﷺ"(60).

سار أسامة بن زيد رضي الله عنهما بجيشه، فأغار على القبائل التي ظاهرت الروم على جيش المسلمين في غزوة مؤتة، وقضى على كل مقاومة صادفها هناك، وبعد أربعين يوما عاد إلى المدينة

سالماً غانماً، فكان خروجه في ذلك الوقت من أكبر المصالح، فقد تحقق لذلك الجيش ما لم يكن في الحسبان، قهَرَ الروم، فقالوا وقد تزامن خبر إغارة أسامة رضي الله عنه مع نعي رسول الله ﷺ:" ما بَالَى هؤلاء بمَوتِ صاحبِهم أن أغاروا على أرضنا"(61)، وفي رواية:" ما بَالُ هؤلاء يمُوتُ صاحبهُم وأن أغاروا علينا"(62)، ورَدَع كثيرا من أحياء العرب، فكان لا يمر على حي إلا أُرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة،" فعل بسمعته ما لم يفعله بقوته وعدده، فأحجم من المرتدين من أقدم، وتفرق من اجتمع، وهادن المسلمين من أوشك أن ينقلب عليهم، وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال، وقبل أن يصنع السلاح" (63)، فكان كما قال عروة: :" ما رُئي جيشٌ أسلمَ من ذلك الجيش"(64).

ولم أَجِدْ مَنْ نقل إلينا حقيقة تلك الأحداث أفضل من أبي هريرة رضي الله عنه الذي عبَّر عنها بقوله:" والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استُخلِف ما عُبد اللهُ. ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، فقيل له: مَهْ يا أبا هريرة. فقال: إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام، فلما نزل بذي خُشُب قُبِض رسول الله ﷺ، وارتدت العرب حول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا بكر، رُدَّ هؤلاء، تُوَجِّهُ هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فقال: والذي لا إله غيره لو جَرَتِ الكلاب بأرجُل أزواج رسول الله ﷺ ما رددتُ جيشاً وَجَّهَهُ رسول الله ﷺ، ولا حللتُ لواءً عقده رسول الله ﷺ. فوجَّهَ أسامةَ، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعُهُم حتى يلقوا الروم . فلقوا الروم فهزَمُوهم وقتَلوهم، ورجعوا سالمين، فثَبَتُوا على الإسلام"(65).

وبعد.. فهل كان الصديق رضي الله عنه مُجازفاً ومُغامراً لا يحسب حساباً للعواقب، أم كان مُستبداً ومُتعنِّتاً مُعتدّاً برأيه لا يصغي لنصح ناصح، حين أصرَّ على إنفاذ جيش أسامة ؟ أحْسَبُ أن الجواب أضحى جليا بعد أن تحققت تلك النتائج الباهرة، ويبقى السؤال الجوهري، ما الذي كان يسعف أبا بكر رضي الله عنه ويسدده في مواقفه ؟ والجواب: إنها الدرجات العلى من اليقين التي حازها، إنها "الصديقية" !

أما الدرس الذي يتعين على الأمة أن تستوعبه من إنفاذ الصِّديق رضي الله عنه لجيش أسامة فهو: أن الله تعالى قد ربط نصرها وعزها باتباع هدي النبي الكريم ﷺ، فمن أطاعه فله النصر والتمكين، ومن عصاه فله الذل والهوان، فَسِرُّ حياة الأمة في طاعتها لربها جل ثناؤه واقتدائها

بسنة نبيها ﷺ.

المطلب الثاني : قتال المرتدين

المظهر الثاني من مظاهر الصِّديقية في إنجازات أبي بكر رضي الله عنه في خلافته هو قتال المرتدين، وهو من أعظم مناقب الصِّديق، وليس من شأن هذا البحث تفصيل القول في أحداث الردة ولا تتبع أخبارها، وإنما يعنينا إبراز مواقف الصديق رضي الله عنه فيما عزم الله له من قتال المرتدين.

أشرنا آنفا إلى أن بوادر ردة عامة لاحت في الأفق بعد انتشار خبر وفاة رسول الله ﷺ، وإنفاذ أبي بكر رضي الله عنه لجيش أسامة، فقد تفشَّت الردة في قبائل العرب تفشياً ذريعاً قال عنه ابن إسحاق:" ارتدَّت العرب عند وفاة رسول الله ﷺ ما خلا أهل المسجدين، مكة، والمدينة، وارتدَّت أسد وغطفان، وعليهم طُليحة بن خويلد الأسدي الكاهن، وارتدَّت كندةُ ومن يليها، وعليهم الأشعث بن قيس الكندي، وارتدَّت مذحجٌ ومن يليها، وعليهم الأسود بن كعب العنسي الكاهن، وارتدَّت ربيعةُ مع المعرور بن النعمان بن المنذر، وكانت حنيفةُ مقيمةً على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب، وارتدَّت سليم مع الفجاءة، واسمه أنس بن عبد يا ليل، وارتدَّت بنو تميم مع سجاح الكاهنة "(66).

فقد ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب، وانحازت كل قبيلة إلى كاهنها تناصره وهي تعلم أنه كذاب، فكانوا كما قال طلحة النمري لمسيلمة عندما رآه وسمع منه ما عَلِمَ به كذبه:" أشهد أنك كذاب، وأن محمدًا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر" (67)، وقد أغرى بعض الأعراب غياب جيش أسامة فطمعوا في المدينة وهمُّوا بالهجوم عليها، وقَدِمَتْ وفود أخرى تساوم في دين الله، تقِرُّ بالصلاة وتمتنع عن أداء الزكاة، فعزم الله جل وعلا لأبي بكر رضي الله عنه قتال كل هذه الطوائف لردتها، فأما المتنبئون وأتباعهم فقد أعلنوا كفرهم البواح ولم تختلف كلمة الصحابة في قتالهم، وأما الممتنعون عن دفع الزكاة فقد رأى بعض الصحابة – ومنهم عمر بن الخطاب – تأليفهم والرفق بهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم، ليُفرغ لقتال المارقين من الدين ومن نزع ربقة الإسلام من عنقه، لكن الصديق رضي الله عنه رفض ذلك رفضا قاطعا، وصَمَّم على قتالهم حتى يؤدوا زكاة مالهم، وقد دار حوار بين صاحبي رسول الله ﷺ، فحاجَّ الصديقُ الفاروقَ، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ:" لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: كَيْفَ تُقَاتِلُ

النَّاسَ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّى مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ »، فَقَالَ: وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِى عَنَاقاً كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا . قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِى بَكْرٍ رضي الله عنه فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ "(68). وفي رواية مسلم:" والله لو منعوني عقالاً، كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه".

وتأمل تمثُّل أبي بكر رضي الله عنه منهج النبي ﷺ الدال على صِدِّيقيته حين لم يقبل المساومة على شيء مما كان يُعطى لرسول الله ﷺ والمعبر عنه بالعَنَاق، وهو: الأنثى من ولد المعز، أو العِقَال، وهو: الحبل الذي يعقل به البعير، وكلاهما كناية عن الأمر الهين الذي يمكن التغاضي والسكوت عنه، ولكنه عند الصِّديق رضي الله عنه ذو شأن وقيمة ولا يمكن التنازل عنه، إذْ كان يعطى لرسول الله ﷺ.

ومرة أخرى تُسعف الصِّديقية أبا بكر رضي الله عنه ليقف هذا الموقف الرباني الحاسم، فلا يضعف ولا يستكين، والعجيب أن الفاروق رضي الله عنه – وهو الشديد في دين الله – يطالب بمهادنة القوم وتأليف قلوبهم، ولما رأى الصديق رضي الله عنه منه ذلك الضعف انتهره بشدة وعنفه قائلا:" أجبارٌ في الجاهلية وخوارٌ في الإسلام ؟ إنه انقطع الوحي وتمَّ الدين أينقُص وأنا حيٌّ "(69). وسرعان ما أدرك عمر رضي الله عنه أن الصديق رضي الله عنه على حق، وهو ما عبر عنه بقوله:" فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِى بَكْرٍ رضي الله عنه فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ".

انصرفت وفود القبائل المانعة للزكاة من المدينة خائبة بعدما رأت عزم الصديق وحزمه، فأضمرت الشر، فقرأ الصديق في وجوه القوم الغدر، فقال لأصحابه يحذرهم:" إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تُؤتَوْن أم نهارًا! وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم فاستعدّوا وأعدّوا" (70).

وسرعان ما تحقق ما حذر منه الصديق رضي الله عنه، فبدأ التمرد وذرَّ قرنُ الردة، " فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبي ﷺ من كل مكان بانتقاض عامة أو خاصة، وتبسطهم بأنواع الميل على المسلمين، فحاربهم أبو بكر بما كان رسول الله ﷺ حاربهم بالرسل. فردَّ رسلَهم بأمره، وأتْبعَ الرسلَ رسلاً، وانتظر بمصادمتهم قدومَ أسامة؛ وكان أول مَنْ صادم عبس وذبيان،

عاجلوه فقاتلهم قبل رجوع أسامة" (71).

وبعد أربعين يوما أو تزيد قليلا (72) عاد أسامة بن زيد بجيشه ظافرًا، فاستخلفه أبو بكر على المدينة وقال له ولجنده:" أريحوا وأريحوا ظهركم"، ثم خرج في الذين خرجوا إلى ذي القَصَّة والذين كانوا على الأنقاب على ذلك الظهر، فقال له المسلمون:" ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تُعرض نفسك! فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلاً فإن أصيب أمَّرْت آخر فقال:" لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي"(73).

وبعد أن أخذ جيش أسامة قسطاً من الراحة، تهيأ الصِّديق رضي الله عنه للتعبئة العامة، وقرر أن يقود الجيش بنفسه لو لا أن عارضه الصحابة ومنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت:" خرج أَبِي شاهراً سيفه راكباً على راحلته إلى وادي القَصَّة، فجاءه علي بن أبي طالب فأخذ براحلته فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله يوم أُحُدٍ:" لمَّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أُصِبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدا" (74).

رجع أبو بكر وعقد أحد عشر لواء واختار لها قيادات محنكة، وحدد لكل جيش وجهته، وكان من بين القادة خالد بن الوليد الذي عقد له لواءه وهو يقول:" سمعت رسول الله ﷺ يقول: "نِعْمَ عبدُ الله وأخو العشيرة، خالدُ بن الوليد، سيفٌ من سيوف الله سَلَّه على الكافرين والمنافقين"(75). وأرسل مع كل أمير كتابا يدعو فيه القبائل المرتدة أن تفيء إلى الإسلام، وإلا قاتلها (76). قدوته في ذلك رسول الله ﷺ.

واندفعت جيوش الحق لتدك معاقل الردة حيثما وجدت، فصالت وجالت في ربوع الجزيرة تلاحق فلول المرتدين، خاصة تلك التي أغواها المتنبئون كطليحة الأسدي ومسيلمة الكذاب، وبعد معارك ضارية وبطولات نادرة سجلها التاريخ، طهّر الله عز وجل جزيرة العرب من رجس الردة والمرتدين، فعادت إلى رحاب التوحيد وعبادة الله كما تركها رسول الله ﷺ.

ولا يتسع المقام للتفصيل أكثر في هذا الإنجاز العظيم الذي حققه المسلمون تحت قيادة أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه الذي ألهمه الله عز وجل الصواب في قتال المرتدين، فكانت عزمةً من عزمات الصِّديقية التي حفظت للإسلام قوته وللأمة وحدتها، ولو لا فضل الله جل وعلا، ثم ما فتح به على الصِّديق رضي الله عنه من تصميم على قتال المرتدين لكان للإسلام شأن آخر، وقد أكبَرَ الصحابة رضي الله عنهم ذلك الصنيع من خليفة رسول الله فمنحُوه ما يستحق من

التبجيل والتقدير، من ذلك هذا الموقف من عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي حكاه أبو رجاء العطاردي قال:" دخلتُ المدينة فرأيتُ الناس مجتمعين ورأيتُ رجلا يُقَبِّلُ رأس رجل ويقول: أنا فداءٌ لك لولا أنت هلكنا، فقلتُ: من المُقبِّل ومن المُقبَّل، قالوا: ذاك عمر يُقبِّل رأس أبي بكر في قتاله أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين"[77]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:" لقد قُمنا بعد رسول الله ﷺ مقامًا كدنا نهلك فيه لولا أن مَنَّ علينا بأبي بكر؛ أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية". [78]

المطلب الثالث: جمع القرآن الكريم

كان من نتائج حروب الردة أن أظهر الله جل ثناؤه دينه، وأعز حنده من أصحاب رسول الله ﷺ، ومكَّن لهم، فطُهِّرت جزيرة العرب من رجس المرتدين، وأكرم جل ذكره عددا كبيرا من المجاهدين بالشهادة في سبيله، وهو شرف كانوا يتوقون لنيله، وكان في مقدمة أولئك الشهداء الكثير من حفظة كتاب الله تعالى، فقد استحر بهم القتل، خاصة في معركة اليمامة ضد جيش مسيلمة الكذاب [79]، فهَالَ ذلك عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، فأسرع إلى أبي بكر رضي الله عنه يشير عليه بضرورة جمع القرآن الكريم حتى لا يذهب كثير منه بموت أولئك الحُفَّاظ، وقد روى البخاري رحمه الله تعالى قصة جمع القرآن عن زَيْد بْن ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ:" أَرْسَلَ إِلَىَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِى فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ وَإِنِّى أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِنِّى أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ . قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ . فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِى حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِى لِذَلِكَ ، وَرَأَيْتُ فِى ذَلِكَ الَّذِى رَأَى عُمَرُ . قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ، إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لاَ نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْىَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِى نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَىَّ مِمَّا أَمَرَنِى مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِى حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِى لِلَّذِى شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِى خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِىِّ لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرَهُ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ حَتَّى خَاتِمَةِ بَرَاءَةَ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِى بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ

اللَّهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رضي الله عنه" (80).

وجمعُ القرآن الكريم من الإنجازات العظيمة في خلافة الصديق رضي الله عنه، وقد تجلت مظاهر الصِّديقية في هذا الإنجاز في عدة مواقف، منها: تحقيقُ وعدِ اللهِ عز وجل بحفظ كتابه العزيز في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:9]، وقد فَقِه الصحابة رضي الله عنهم وعلى رأسهم الصِّديق أن وعد الله جل ذكره لا يتحقق إلا بعزمات الرجال، فلم يفهموا من الآية الكريمة أن حفظ الله لكتابه يعفيهم من أي جهد، ولكنهم استشعروا مسئوليتهم في ذلك، فسارعوا إلى جمعه خشية أن يذهب أكثره، أما تردد الصِّديق رضي الله عنه في البداية فسببه التحرج أن يكون جمع القرآن بدعة في الدين، فكره أن يحلَّ نفسَه محلَّ من يجاوزُ احتياطَهُ للدين احتياطَ رسولِ الله ﷺ (81)، وهو الذي دأب على اتباع خطوات النبي ﷺ لا يحيد عنها قيد أنمُلة، ولذلك قال لعمر:" كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟"، وما زال عمر يراجعه حتى أقنعه بصواب الفكرة، فانشرح لها صدر الصديق، ثم راح أبو بكر يراجع زيد بن ثابت حتى اقتنع وشرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعا، وفي انشراح الصدور إلهام رباني يكرم الله جل وعلا به صحابة رسول الله رضي الله عنهم إذا اختلفوا في أمر، وهي دليل صدقهم مع الله تعالى.

وكان تكليف زيد بن ثابت رضي الله عنه للقيام بتلك المهمة الشاقة اختيارا موفقا، فقد توفرت فيه جملة من المؤهلات ذكرها الصديق رضي الله عنه، فهو: أحد كتاب الوحي، وشاب قوي العزيمة، وعاقل فطن، وثقة وورع غير متهم في دينه، يضاف إليها أنه كان ممن جمع القرآن حفظًا في صدره في حياة رَسُول اللهِ ﷺ، فَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قُلْتُ لأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يُكْنَى أَبَا زَيْدٍ" (82)، وأنه فيما رُوي كان مِمَّن شهد العرضة الأخيرة للقرآن الكريم(83)، ومع ذلك فقد استشعر ثقل المهمة فقال:" فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِى نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَىَّ مِمَّا أَمَرَنِى مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ". وقد أدى زيد رضي الله عنه تلك المهمة على أكمل وجه وأحسنه، وكان جديرا بثقة الصديق رضي الله عنه.

والحاصل أن جمع القرآن الكريم من أعظم الإنجازات التي تحققت للمسلمين منذ خلافة الصديق رضي الله عنه إلى أن تقوم الساعة، وقد تجلت فيه بعض مظاهر الصديقية حين منحه أبو بكر رضي الله عنه من الاهتمام ما يليق بكتاب الله تعالى، فلم يدخر جهدا في توفير كل أسباب

نجاحه، بدءً بتحفظه حتى انشرحَ صدرُه، مروراً بتكليف أحد أكبر الصحابة عناية بالقرآن الكريم، وانتهاءً بجمعه وفق أدق مناهج التحري والضبط، فكان هذا الكتاب الخالد الذي بين أيدينا، محفوظا من التحريف، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

المطلب الرابع: طلائع فتح العراق والشام

هذا هو الإنجاز الرابع والأخير في خلافة الصديق رضي الله عنه، القصيرة مدة والمباركة أعمالا، وإنما سميتها طلائع الفتح لأنها لم تكتمل إلا في خلافة الفاروق رضي الله عنه، وسأحاول في هذا المقام إبراز مظاهر الصديقية في هذا الإنجاز دون ذكر تفاصيل الأحداث، وبالله التوفيق والسداد.

كان الأصل أن يستمر الفتح الإسلامي من حيث توقفت غزوات النبي ﷺ، لو لا ظهور حركة الردة التي شغلت المسلمين مدة من الزمن، وبذلوا فيها جهودا مضنية، وكلفتهم تضحيات جسيمة، ومع ذلك لم تكن شرا كله، بل كانت في كثير من جوانبها خيرا، فقد كشفت عن معدن الدولة التي أرسى أسسها رسول الله ﷺ، فإذا هي دولة قائمة على سنن جارية، تتعرض – شأن بقية الدول- لهزات قوية وثورات عنيفة، ولكنها تُحَوِّلُ تلك التحديات إلى محفزات فلا تزيدها إلا ثباتاً ورسوخاً، كما أنها كانت تمحيصا لصفوف المؤمنين حتى يتميز الخبيث من الطيب، لأن مهمة الجهاد في سبيل الله التي تنتظر المؤمنين شرف لا يستحقه إلا المخلصون، ودعوة الله لا يحملها إلا المتقون، وأخيرا فإن حروب الردة كانت بمثابة معسكر تدريب تلقى فيه المجاهدون دروسا تطبيقية في فنون القتال، تهيئة لهم للمعارك الحاسمة التي تنتظرهم ضد الأمبراطوريتين الفارسية والرومية.

بعد تطهير الجزيرة من لوثة الردة، تأهب المسلمون للانطلاق بدعوة الله لنشرها في الآفاق، ولم يكن خليفة رسول الله بحاجة إلى رسم خطط ولا تحديد أهداف، فقد كانت خارطة الطريق واضحة، رسم رسول الله ﷺ معالمها، وما على الصديق رضي الله عنه سوى اتباع منهجها.

فالمتأمل لأحداث السيرة النبوية يلحظ اهتمام الرسول ﷺ في أخريات حياته بتوسيع مجال دعوته لتطال مناطق خارج الجزيرة العربية، فكانت كتبه ورسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام، في محرم سنة سبع من الهجرة [84]، ثم كانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة [85]، ثم كانت تبوك في رجب سنة تسع من الهجرة [86]، وهي آخر غزواته ﷺ، وختم رسول الله ﷺ حياته الجهادية بتجهيز جيش أسامة ليخرج إلى البلقاء، وتوفي ﷺ

والجيش يتأهب للخروج، والملاحظ أن كل تلك التحركات كانت إلى بلاد الشام حيث تتواجد دولة الروم.

وكان أكثر ما حفَّزَ أصحاب رسول الله ﷺ للتهيؤ لفتح العراق والشام، ما قرأوا من وعود ربانية صادقة في كتاب الله تعالى باستخلافهم في الأرض والتمكين لدينهم، وما سمعوا من بشائر الفتح حَدَّثهم عنها الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، وقد أيقنوا – وهم أفقه الناس بسنن الله تعالى– أن تلك الوعود والبشائر لا تكتمل إلا باتخاذ الأسباب واستفراغ الجهد، فشمروا على ساعد الجد، فكانت تلك الفتوحات العظيمة التي لم يعرف لها التاريخ مثيلا.

فما أهم ملامح الصِّديقية في فتح العراق والشام؟ ذلك ما سنحاول إبرازه بتتبع حركة الفتح وفق سياقها التاريخي.

أولا: فتح العراق

كان الصِّديق يود أن يبدأ من حيث انتهى رسول الله ﷺ، فيجهز الجيوش لفتح بلاد الشام أولا، لو لا أن المثنىَّ بن حارثة الشيباني قَدِم على أبي بكر وحثه على محاربة الفرس وقال له: ابعثني على قومي ففعل ذلك أبو بكر، فرجع المثنىَّ وشرع في الجهاد بالعراق، ثم إنه بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكر يستمده، فكتب معه أبو بكر إلى المثنى:" أما بعد، فإني قد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق فاستقبله بمن معك من قومك، ثم ساعده ووازره وكانِفْهُ (عَاوِنْهُ) ولا تعصينَّ له أمرًا ولا تخالفنَّ له رأيًا... فما أقام معك فهو الأمير، فإن شَخصَ عنك فأنت على ما كنت عليه" (87)، ثم كتب الصديق إلى سيف الله خالد رضي الله عنهما، وقد فرَغ من تصفية آخر جيوب المرتدين في معركة اليمامة:" أنْ سِرْ إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند، وهي الأَبُلَّة، وتألف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم" (88)، قال ابن كثير: "وأمره بأن يأتي العراق من أعاليها، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم، وأمره أن لا يكره أحدًا على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد على الإسلام وإن كان عاد إليه، وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين" (89).

بإرسال جيش خالد يكون الصديق رضي الله عنه قد دشَّن رسمياً بداية فتح بلاد فارس، وقد وفَّر لها كل أسباب النصر، فبعد التوكل على الله تعالى، والتصْدِيق بوعده بالنصر والتمكين لعباده المؤمنين، واليقين بتحقُّقِ بشائر النبي ﷺ، لم يدخر جهدا في اتخاذ الأسباب، فاختار قائداً محنكاً هو سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي لم تُنكَّس له راية، ومع ذلك يوصيه

ويرشده إلى المنهج الأقوم في التعامل مع الأعداء قبل قتالهم،كما تعلمه من رسول الله ﷺ، وحرصا منه أن تكون حركة الجهاد خالصة لله عز وجل فقد أرشده ألاَّ يُجنِّد إلا من صدقت نيته ورسخ إيمانه، فلا يُكرِهُ أحداً على الخروج معه، ولا يَستعينُ بمن تلوث بالردة، وقد كان موقف الصِّديق مع المرتدين صارما، ولذلك أكد على الاستغناء عن مشاركتهم في الفتوحات، حين كتب إلى خالد بن الوليد وعياض بن غَنْم رضي الله عنهما فقال:" استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزُوَنَّ معكم أحد ارتدَّ حتى أرى رأيي"، قال الطبري معلقا:" فلم يشهدِ الأيامَ مرتدٌ" (90)، يُستثنى من ذلك طليحة الأسدي، فقد ذكر ابن كثير أنه: "راجع الإسلام وذهب إلى مكة معتمرا أيام الصِّديق، واستحيى أن يواجهه مدة حياته، وشهد القتال مع خالد، وكتب الصِّديق إلى خالد:" أن استشره في الحرب ولا تُؤمِّرْه"، يعني معاملته له بنقيض ما كان قصده من الرئاسة في الباطن، وهذا من فقه الصِّديق رضي الله عنه وأرضاه" (91).

فالصِّديق رضي الله عنه يريد للجيش الذي يرفع راية الجهاد أن يكون مخلصا صادقا، ليس فيه من أغواه الشيطان فادَّعى النبوة، أو أغراه الطمع وأعماه التعصب القبلي فاتبع كل ناعق، أو أسَرَهُ حب المال فامتنع عن أداء زكاته، فمثل هؤلاء لا يؤتمنون على دين أو وطن، وهل أُوتِيَتِ الأمةُ إلا مِن قِبَلِ هؤلاء؟

انطلق الجيش الفاتح وهم قلة لا يزيدون بعد اكتمال عددهم عن ثمانية عشر ألف (92) لمقارعة جحافل الامبراطورية الفارسية التي تفوق المسلمين عدَداً وعُدَّةً، ولكن ذلك لم يَفُتَّ في عضدهم ولم يُضعِف عزائمهم، فقد كانوا بإيمانهم بالله جل وعلا, وسُمُو هدفهم أقوى وأشد، ودليل ذلك رسالة التحذير والنذير التي كتبها خالد رضي الله عنه إلى هرمز صاحب ثغر الأبلة يقول فيها:" أما بعد: فأسْلِمْ تسْلَمْ أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرِرْ بالجزية، وإلا فلا تلومَنَّ إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة" (93).

ودارت رحى الحرب بين المسلمين والفرس في خلافة أبي بكر رضي الله عنه في ثلاث عشرة معركة، كان بطلها سيف الله المسلول خالد بن الوليد، يساعده عياض بن غَنْم والمثنى بن حارثة، وقد تم ذلك في وقت قياسي، كان أولها ذات السلاسل في شهر محرم من العام الثاني عشر، وآخرها ذات الفراض في ذي القعدة من العام نفسه(94)، وكان النصر فيها حليف المسلمين، فلم تنكس لهم راية، وساعد على ذلك عدة عوامل أساسها توفيق الله جل وعلا، ثم اختيار قيادات عسكرية ذات حنكة عسكرية، وما كان يزود به الصديق الجيش من وصايا بضرورة الاستعانة

بالله تعالى وتقواه، واجتناب معصيته.

ثانيا: فتح الشام

لما كان فتح العراق أمراً طارئاً، ولم يكن من أولويات أبي بكر رضي الله عنه، فإنه لم يتوغل في الأراضي الفارسية، وإنما اكتفى بإقامة حامية لحراسة ما تمَّ فتحه، ريثما تتهيأ الظروف لاستكمال الفتح النهائي، وسبب ذلك ما ذكرنا من اعطاء الصديق الأولوية لفتح الشام، لأنه استكمال لمشروع بدأه رسول الله ﷺ. فلما عزم أبو بكر رضي الله عنه أن يجهز الجنود إلى الشام، دعا وجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه فقال:" أردت أن أستنفركم إلى الروم بالشام، فمن هلك هلك شهيدًا وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش عاش مدافعا عن الدين، مستوجبًا على الله –عز وجل– ثواب المجاهدين. هذا رأيي الذي رأيتُ، فليُشِرْ عليَّ كل امرئ بمبلغ رأيه"(95)، وتكلم بعض من حضر الاجتماع، واتفقت كلمتهم على بداية غزو الروم، ثم إن أبا بكر رضي الله عنه قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله، وصلى على النبي ﷺ ثم قال:" أيها الناس، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام وأعزكم بالجهاد، وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإنني مُؤَمِّرٌ عليكم أمراء وعاقد لهم عليكم، فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم، ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون"... وأمر أبو بكر بلالاً فنادى في الناس: أن انفروا إلى جهاد عدوكم الروم بالشام (96).

وواضح أن الصديق رضي الله عنه أكثر تحمساً لفتح الشام، فما إن عزم على الشروع فيه حتى جمع كبار الصحابة وشاورهم في الأمر، واستمع إلى آرائهم، وحين اتفقت كلمتهم، خطب في الناس وحظهم على الجهاد في سبيل الله، وكيف لا يتحمس وهو يدرك أنه يستكمل مشروعا بدأه النبي ﷺ؟

وقد اقتضى التخطيط الحربي أن يوزع الصديق رضي الله عنه الجيش بحسب الأقاليم في الشام، فعقد أربعة ألوية، واختار لها أفضل القيادات، فكانت كالآتي:(97)

1- جيش يزيد بن أبي سفيان ووجهه إلى دمشق

2- جيش أبي عبيدة بن الجراح ووجهه إلى حمص

3- جيش عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين

4- جيش شرحبيل بن حسنة ووجهه إلى الأردن.

وتحركت الجيوش إلى بلاد الشام، وقد بلغ عددها مجتمعة واحدا وعشرين ألفا، يضاف إليها

ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل مخصصة للمدد، وسمع الروم بزحف المسلمين، فكتبوا إلى هرقل، فخرج حتى نزل بحمص، فأعد الجنود وعبى العسكر،حتى بلغ من أرسلهم لقتال جيش عمرو تسعين ألفا، وإلى جيش أبي عبيدة في ستين ألف، ومثلها إلى بقية الأماكن، فأدرك القادة المسلمون ألاَّ قِبَلَ لهم بملاقاة كل تلك الجحافل متفرقين، ففزعوا بالكتب والرسل إلى عمرو يسألونه الرأي، فرد عليهم: إن الرأي الاجتماع...فاتَّعَدوا اليرموكَ ليجتمعوا به، وكتب ابن العاص إلى الخليفة يطلعه الخبر، فجاءهم كتابه بمثل رأي عمرو، وفيه:" ان اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله، والله ناصرٌ من نصره، وخاذلٌ من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة من عشرة آلاف إذا أوتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليُصَلِّ كل رجل منكم بأصحابه" (98).

فهذا الصِّديق رضي الله عنه لا يستنكف أن ينزل عند رأي غيره، ويغير خطته الحربية، فسرعان ما تجاوب مع القادة في الميدان، وزودهم بأقوى زاد حين أرشدهم أنهم لن يغلبوا من قلة إذا احترسوا من الذنوب، وإنما ينصر المؤمنون بطاعتهم لربهم ومعصية عدوهم له، فإذا كانوا في المعصية سواء، كانت القوة إلى القوة فغلبت الكثرة، وتأمل ذكر الصلاة في كل مراسلة، إنها سر النصر والتمكين.

ولم يكتفِ الخليفة بتلك التعبئة الروحية، بل زاد عليها بتعبئة مادية حين أرسل إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو بالعراق يستحثه في السير لإمداد جيش المسلمين بالشام، وفي الاستعانة بخالد رويةٌ وحكمةٌ صدِّيقية، فخالد في تقدير الصِّديق "سيف الله الذي سَلَّه اللهُ على الكفار"، كما سمع ذلك من رسول الله ﷺ، لطالما أشار عليه الفاروق بعزله بسبب بعض تجاوزاته التي كان أبو بكر يتغاضى عنها، ويرد على عمر بقوله:" لا أُشِيمُ (أُغمد) سيفاً سله الله على الكفار"(99). ومن أقوى ما قال أبو بكر رضي الله عنه في التنويه بسيف الله خالد رضي الله عنه رده على قائد الروم حين قال:" والله لنُشغِلَنَّ أبا بكر من أن يورد الخيول إلى أرضنا"، فقال الصِّديق:" والله لأُنْسِيَنَّ النصارى وساوس الشيطان بخالد بن الوليد" (100).

وحين قرر الصِّديق أن ينقل خالد بن الوليد بجيشه إلى الشام، وأن يتولى قيادة الجيوش بها، كان يدرك أن الأمر يحتاج إلى قائد يجمع بين قدرة أبي عبيدة ودهاء عمرو وحنكة عكرمة وإقدام يزيد، وأن يكون صاحب قدرة عسكرية فائقة مع قدرة على حسم الأمور وصاحب دهاء وحيلة وإقدام،

وصاحب حنكة ودراية مع دقة في تقدير المواقف، وصاحب تجربة طويلة في المعارك [101].

واجتمع جيش المسلمين باليرموك بعد وصول جيش خالد فارتفع تعدادهم إلى ست وثلاثين ألف، فيهم ألف صحابي، منهم نحو مائة بدري، أما تعداد الروم فقد بلغ أربعين ومائتي ألف [102]، وَالْتَقَى الجمعان، وقد أحكم خالد القائد خطته فوزع الجيش إلى كراديس، وجعل على كل كردوس قائدا بطلا، ونشب القتال، والتحم الناس، وتطارد الفرسان، فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة، فأبلغ خالدا الخبر، فإذا به موت الخليفة أبي بكر رضي الله عنه وعزل خالد وتأمير أبي عبيدة، فأخذ خالد الكتاب وجعله في كنانته، وكتم الخبر وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند، ويحصل ضعف ووهن في تلك الحال،[103]، وتلك رباطة جأش خالد وقوة شخصيته، فلما انجلى غبار المعركة عن نصر مؤزر للمسلمين وهزيمة نكراء للروم، أخبر خالد الناس الخبر. قال ابن كثير:" فما فرحوا بقدر حزنهم على الصديق حين أعلمهم خالد بذلك، ولكن عوضهم بالفاروق رضي الله عنه" [104].

وهكذا ظل الصديق رضي الله عنه يحمل هَمَّ الدعوة إلى الإسلام ونشره حتى الرمق الأخير من حياته، فقد كانت آخر وصيته للفاروق رضي الله عنه بعد أن استخلفه، وقد زاره المثنى بن حارثة الشيباني، فوجده على فراش المرض وقد شارف على الموت، واستقبله أبو بكر واستمع إليه واقتنع برأيه، ثم طلب عمر بن الخطاب فجاءه، فقال له:" اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإن أنا مِتُّ فلا تمسِيَنَّ حتى تندب الناس مع المثَنَّى، ولا تشغلنكم مصيبةٌ وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم، وقد رأيتني متوفَّى رسول الله وما صنعتُ ولم يُصَبِ الخلقُ بمثله، وإن فتح الله على أمراء الشام فاردُدْ أصحابَ خالدٍ إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره وحَدُّه، وهم أهل الضراوة بهم والجراءة عليهم" [105].

وبعد.. فهذا هو الإنجاز الرابع من إنجازات الصِّديق رضي الله عنه رصدتُ فيه التحرك الفتوحي في جبهتي العراق والشام، وحاولتُ إبراز مظاهر الصديقية فيه، فألفيتُ أبا بكر رضي الله عنه ينطلقُ في مشروعه الجهادي من وعود القرآن الكريم، وبشائر النبي ﷺ بالتمكين للإسلام واستخلاف المؤمنين، فكانت تلك عقيدة راسخة لديه، ثم دعمها باتخاذ الأسباب واستفراغ الجهد في الإعداد والتخطيط، واختيار أكفأ القيادات، وتزويدهم بأعز الوصايا وأدق التعليمات، وباجتماع اليقين والأسباب تحققت وعود الله جل ثناؤه، وانتصر المسلمون في معاركهم ضد أقوى امبراطوريتين في ذلك الزمان، فكانت أشبه بالمعجزات، وليس من تفسير

لتلك الظاهرة، سوى أنها قوة الإيمان أو هي مظهر من مظاهر الصِّديقية.

خاتمة

بعد هذه الرحلة الممتعة مع الخليفة الراشدي أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه وأرضاه، والتي حاولت أن أستجلي من خلالها مظاهر الصِّديقية في إنجازاته، أخلص إلى تسجيل أهم النتائج التي انتهتْ إليها هذه الدراسة.

- الصديقية مقام من مقامات الكمال ومنزلة من منازل الربانية، تلي مرتبة النبوة، تقتضي المبالغة في الصدق والتصديق في القول والعمل.

- أبو بكر رضي الله عنه هو الصِّديق الأول في هذه الأمة، لقبه بذلك رسول الله ﷺ، وقد حاز هذا المقام الرباني بما أوتي من مناقب وفضائل فاق بها بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، منها: سبْقُه إلى الإسلام والنصرة والهجرة والإنفاق والجهاد وغيرها، وقد شهد له بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

- تولى أبوبكر رضي الله عنهم الخلافة بعد رسول الله ﷺ، فكان اختياره توفيقا من الله جل وعلا، ثم فقهاً من الصحابة، إذ كانوا بحاجة إلى رجل رحيم يواسيهم في مصابهم بفقد رسول الله، وما ألفوه من رحمته ﷺ، فكانت خلافة رحمة بعد نبوة الرحمة.

- رسم الصِّديق رضي الله عنه منهجه في سياسة الحكم حين خطب في الناس بعد بيعته، فأكد على اتباع هدي بني الرحمة ﷺ، فكان العمل بالكتاب والسنة منهجه في الحكم والسياسة، وعنوان صِدِّيقيته.

- برزت مظاهر الصِّديقية جلية من خلال الأعمال الجليلة التي قام بها خليفة رسول الله في مدة خلافته القصيرة، وقد كانت في جملتها تحديات كبيرة، حَوَّلَها أبوبكر رضي الله عنه بعزيمته وصديقيته إلى إنجازات خلدها التاريخ، بل أضحت من أعظم الحسنات التي أسداها الصديق للأمة، وبقيت آثارها شاهدة على قوة شخصيته وعمق فقهه، وأحقيته بخلافة رسول الله ﷺ في أمته.

- استنتجتُ من تصميم أبي بكر رضي الله عنه على إنفاذ جيش أسامة، أن الخير كل الخير في طاعة أمر النبي ﷺ، فقد أدرك الصِّديق أنه مشروع بدأه رسول الله ﷺ، فلا بد من إكماله مهما كانت الظروف، وقد تحقق لذلك الجيش ما لم يكن في الحسبان، قهَرَ الروم، ورَدَع كثيرا من أحياء العرب، فكان لا يمر على حي إلا أُرعبوا منهم.

- خلصت من حديثي عن الإنجاز الثاني المتعلق بقتال المرتدين، أن حركة الردة كانت تحدٍ

كبير واجهته دولة الإسلام الفتية، حين رمتها قبائل العرب عن قوس واحدة، فكانت خطباً جلَلاً زعزع كثيرا من الصحابة، فمالوا إلى المهادنة، إلا أبا بكر رضي الله عنه؛ فقد ثبَّته الله عز وجل، وألهمه الرشد فأعلن الحرب على المرتدين، فكانت عزمةً من عزمات الصِّديقية التي حفظت للإسلام قوته وللأمة وحدتها. كما كانت حركة الردة ظاهرة صحية، أثبتت أن الدولة التي أرسى النبي ﷺ أسسها، وورثها الصحابة رضي الله عنهم، لم تكن قائمة على الخوارق، بل هي قائمة على سنن جارية، تتعرض للهزات شأن بقية الدول، ولكنها تملك القدرة على تحويلها إلى محفزات، فلا تزيدها إلا قوة وصلابة.

- جمعُ القرآن الكريم من الإنجازات العظيمة التي حققها المسلمون في خلافة الصِّديق رضي الله عنه، فقد دل على فقه الصحابة رضي الله عنهم حين فهموا أن وعدِ اللهِ عز وجل بحفظ كتابه العزيز لا يتحقق إلا بعزماتهم، وقد تجلت مظاهر صديقية أبي بكر رضي الله عنه في هذا الإنجاز الخالد حين هيأ له كل أسباب إنجاحه، فتم بأدق شروط التحري والضبط، على يد أحد أكبر حملة القرآن ورعا وأمانة وحفظا، فكان جمع القرآن الكريم من أعظم عزمات الصِّديق رضي الله عنه وسننه الحسنة.

- ختم الصِّديق خلافته القصيرة والمباركة باستكمال المشروع الدعوي النبوي بتبليغ الرسالة، فكانت طلائع فتح العراق والشام يحدوه فيها وعود الله جل ثناؤه، وبشائر النبي ﷺ باستخلاف المؤمنين والتمكين لدينهم، فنشط لتلك المهمة وأعد لها ما استطاع من قوة، واختار لها أكفأ القيادات العسكرية، وزودها بأنفع الوصايا والتخطيطات الحربية، مستلهما ذلك كله من مشكاة النبوة، فكانت نتائجها بحمد الله مرضية، وهيأت أسباب وظروف الانطلاقة الكبرى في الخلافة العمرية.

وبالله التوفيق والسداد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق: محمد علي بجاوي، دار الجيل بيروت، 1412ه/ 1992م.
2. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، (د.ت).
3. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: رياض عبد الحميد مراد وآخران، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1428ه/ 2007م

4. تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ط:2، 1434ه/ 2013م.

5. تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط:2، 1405ه/ 1985م.

6. تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، محمد يسري هاني، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1418ه.

7. تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط:2، 1969م.

8. تاريخ مدينة دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، دراسة وتحقيق: محب الدين عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1415ه/ 1995م.

9. التعريفات، السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1421ه/ 2000م

10. تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف النووي، صححه وخرَّج أحاديثه: عادل مرشد وعامر غضبان، دار الرسالة العالمية، دمشق، 1430ه/ 2009م.

11. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1410ه/ 1990م.

12. الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الوراق للنشر والتوزيع، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1422ه/ 2002م.

13. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، وثَّق أصوله وخرَّج أحاديثه وعلق عليه: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:2، 1423ه/ 2002م.

14. الرياض النضرة في مناقب العشرة، محب الدين أبي جعفر أحمد بن عبد الله الطبري، دراسة وتحقيق وتعليق: عيسى بن عبد الله الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م.

15. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض،(د.ت).

16. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1419ه/ 1998م.

17. سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، دار الوراق للنشر والتوزيع، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1422ه/ 2001م.

18. سِيَرَ أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417ه/ 1996م .

19. السيرة النبوية، محمد بن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ت).

20. شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف الله ابن بطال، مكتبة الرشد، الرياض،(د.ت).

21. صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط:2، 1419ه/1999م .

22. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط:2، 1421ه/2000م .

23. صفة الصفوة، جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، حققه وعلق عليه: محمود فاخوري، دار المعرفة بيروت، ط:3، 1405ه/ 1985م.

24. الطبقات الكبير، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1421ه/ 2001م.

25. عبقرية الصديق، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، (د.ت).

26. فتوح الشام، محمد بن عبد الله الأزدي، صححه: وليم ناسوليس الأيرلاندي، طبع في كلكتة، الهند، 1854م.

27. فضائل الصحابة، أحمد بن محمد بن حنبل، حققه وخرَّج أحاديثه: وصي الله بن محمد عباس، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط:3، 1426ه.

28. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط:8- 1426ه/2005م.

29. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407ه/ 1987م.

30. كتاب الردة، محمد بن عمر الواقدي، رواية أحمد بن محمد بن أعثم الكوفي، تحقيق: يحي الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1410ه/ 1990م.

31. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق وترتيب: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1423ه/2004م .

32. الكليات، أبو البقاء الكفوي، تحقيق:عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة, بيروت, لبنان، ط:2- 1432ه/ 2011ه .

33. لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت ، لبنان ، (د. ت) .

34. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422ه/ 2001م.

35. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق ودراسة: مركز البحوث وتقنية المعلومات، دار التأصيل، القاهرة، 1435ه/ 2014م.

36. المسند، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1416ه / 1996م .

37. مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي،بيروت، ط:2، 1399ه/ 1979م.

38. معالم السنن مع سنن أبي داود، أبو سليمان الخطابي، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، 1417ه/ 1997م.

39. معجم الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط:3-1429ه/2008م.

40. المعجم الكبير، أبوالقاسم سليمان بن أحمد الطبراني، حققه وخرَّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د.ت).

41. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، دار الكتب العلمية, بيروت، لبنان,1420ه /1999م.

42. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط:4-1425ه/2004م .

43. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق، الدار الشامية ، بيروت، ط:4، 1430ه/ 2009م.

44. المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف النووي، بيت الأفكار الدولية، الأردن – السعودية، (د.ت).

ـ الهوامش:

[1] – ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 2/35-36، معجم الصحاح، الجوهري، ص:584، كتاب العين، الفراهيدي، 2/384-385، لسان العرب، ابن منظور، 10/193- 195، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص:900، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص:510-511.

[2] – مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص:478-479.

[3] – الكليات، الكفوي، ص:467-468.

[4] – التعريفات، الجرجاني، ص: 135.

[5] – التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص:451.

[6] – الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، 3/966.

[7] – السيرة النبوية، ابن هشام،1/267.

[8] – تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 30/334، وينظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص:105.

[9] – ورد ذلك في صحيح البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم:3، ص:1، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم:403،

ص:80.

[10] – أخرجه البخاري، كتاب: الكفالة، باب: جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، رقم:2297، ص:367.

[11] – أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم:"لو كنت متخذا خليلا"،رقم:3661، ص:614.

[12] – السيرة النبوية، ابن هشام، 269/1، وينظر: دلائل النبوة، البيهقي، 164/2، وتاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 44/30.

[13] – دلائل النبوة، البيهقي، 164/2.

[14] – أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم:"لو كنت متخذا خليلا"، رقم:3675، ص:617.

[15] – أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، رقم:4513، 249/5، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم:306، 615/1.

[16] – أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم:"لو كنت متخذا خليلا"، رقم:3660، ص:614.

[17] – أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم:3653، ص:613، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم:6169، ص:1049.

[18] – أخرجه البخاري، الكتاب نفسه، والباب نفسه، رقم:3652، ص:613.

[19] – تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 92/30، وينظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص:127.

[20] – ينظر: الطبقات، ابن سعد، 158/3، والاستيعاب، ابن عبد البر، 966/3.

[21] – أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر، رقم:3654، ص:613، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم:6170، ص:1049–1050.

[22] – أخرجه أحمد: رقم:12،414/7446، وقال محققاه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن ماجة، المقدمة، باب: في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم:94، ص:20–21.

[23] – أخرجه مسلم، ، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم:6182، ص:1051.

[24] – تهذيب الأسماء واللغات، النووي، ص:375.

[25] – لم استدل بنصوص القرآن الكريم على صديقية أبي بكر رضي الله عنه، بسبب اختلاف المفسرين، واكتفيت بالأحاديث النبوية الصريحة في ذلك.

[26] – أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب: في الرخصة في ذلك، رقم:1678، ص:263، والترمذي، كتاب: المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث حسن صحيح، رقم:3684، ص:1013.

[27] – أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه

وسلم:"لو كنت متخذا خليلا"، رقم:3668، ص:616

[28] – أخرجه البخاري، كتاب: الحدود، باب: رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت، رقم:6830، ص:1178.

[29] – أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم:"لو كنت متخذا خليلا"، رقم:3671، ص:616

[30] – أخرجه أحمد في فضائل الصحابة، رقم:45، 1/95–96، وقال محققه: إسناده صحيح.

[31] – المصدر نفسه، رقم:49، 1/98، وقال محققه: إسناده ضعيف، وينظر: الرياض النضرة في مناقب العشرة، محب الدين الطبري، 1/380،

[32] – أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، رقم:3698، ص:622.

[33] – أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: فضل أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم،رقم:3655، ص:613–614

[34] – المستدرك، الحاكم، رقم:4462، 5/227.

[35] – تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، 30/266، وينظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص:141.

[36] – حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني، 1/28.

[37] – أخرجه أحمد، المسند، رقم: 12904، 20/252، وإسناده صحيح، والترمذي، كتاب: المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت... رقم:3800، ص:1083، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة، المقدمة، باب: فضائل زيد بن ثابت، رقم: 154، ص: 28.

[38] – أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم:11138، 11/88، وقال الهيثمي: رجاله ثقات، (مجمع الفوائد: رقم: 8964، 5/246)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم:3270، 7/802.

[39]– السيرة النبوية، ابن هشام، 4/311، الطبقات، ابن سعد، 3/167، تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 3/210، الكامل في التاريخ، ابن الأثير،2/194– 195، البداية والنهاية، ابن كثير،6/4.

[40] – الطبقات، ابن سعد، 3/167.

[41] – أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا نورث ما تركنا فهو صدقة"، رقم:4582، ص:780.

[42] – الطبقات، ابن سعد، 3/185، وتاريخ خليفة بن خياط، ص:122، وسِيَر أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، الذهبي، ص: 16.

[43] – أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم:"لو كنت متخذا خليلا"، رقم:3668، ص:616، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر رضي الله عنه، رقم:6192، ص:1053.

[44] – المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ص: 1464، بتصرف يسير.

[45] – السيرة النبوية، ابن هشام، 4/291.

[46] – الطبقات، ابن سعد، 4/62، تاريخ خليفة بن خياط، ص:100، سِيَر أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، الذهبي، ص:33.

[47] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 3/223، وينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، 4/9.

[48] – البداية والنهاية، ابن كثير، 4/11.

[49] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 3/242.

[50] – سِيَر أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، الذهبي، ص:33.

[51] – البداية والنهاية، ابن كثير،4/10.

[52] – سِيَر أعلام النبلاء (الخلفاء الراشدون)، الذهبي، ص:33

[53] – المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[54] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري،3/226، وينظر:الكامل في التاريخ، ابن الأثير،2/199–200، والبداية والنهاية، ابن كثير، 4/12.

[55] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري،3/226

[56] – أخرجه أحمد، المسند، رقم:22052، 36/376، وإسناده صحيح، وابن حبان، كتاب: الرقائق، باب: الخوف والتقوى، رقم:647، 2/414.

[57] – ينظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 3/226

[58] – المصدر نفسه، 3/226–227، وينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 2/200.

[59] – كما في وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم للجيش المتجه إلى معركة مؤتة، ينظر: صحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، رقم: 4522، ص:768، وأبو داود، كتاب: الجهاد، باب في دعاء المشركين، رقم: 2613، ص:402، والترمذي، كتاب: الديات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ما جاء في النهي عن المثلة، رقم: 1412، ص:433.

[60] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري،3/227، وينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 2/200.

[61] – الطبقات، ابن سعد، 4/62.

[62] – سير أعلام النبلاء، الذهبي، 2/503.

[63] – عبقرية الصديق، العقاد، ص: 109.

[64] – الطبقات، ابن سعد، 4/62.

[65] – البداية والنهاية، ابن كثير، 4/11.

[66] – المصدر نفسه، 4/20.

[67] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 3/286، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 2/220.

[68] – أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: وجوب الزكاة، رقم: 1399و1400، ص:225، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله محمد رسول الله... رقم: 125، ص:32.

[69] – مشكاة المصابيح، الخطيب التبريزي، كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر رضي الله عنه رقم: 6025، 3/1701.

[70] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 3/245.

[71] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 3/243.

[72] – ينظر: المصدر نفسه، 3/227، والكامل في التاريخ، ابن الأثير،2/207.

[73] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 67/4، والبداية والنهاية، ابن كثير، 22/4.

[74] – المصدر نفسه، 23/4.

[75] – أخرجه أحمد، المسند، رقم:43، 216/1، وقال محققه: حديث صحيح بشواهده.

[76] – ينطر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 250/3–251، والبداية والنهاية، ابن كثير، 23/4–24.

[77] – صفة الصفوة، ابن الجوزي، 250/1، والرياض النضرة في مناقب العشرة، محب الدين الطبري، 45/2–46.

[78] – الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 205/2.

[79] – روى خليفة بن خياط في تاريخه، (ص:111)، عن ابن المسيب، قال: "شهداء اليمامة خمسمائة، فيهم خمسون أو ثلاثون من حملة القرآن".

[80] – أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، رقم:4986، ص:894.

[81] – ينظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال، 222/10.

[82] – أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم:5003، ص:897.

[83] – البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 237/1.

[84] – ينظر: الطبقات، ابن سعد، 222/1، والسيرة النبوية، ابن هشام، 254/4.

[85] – ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام، 15/4.

[86] – ينظر المصدر نفسه، 159/4.

[87] – كتاب الردة، الواقدي، ص:221.

[88] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 343/3.

[89] – البداية والنهاية، ابن كثير، 62/4.

[90] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 347/3

[91] – البداية والنهاية، ابن كثير، 27/4.

[92] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري،347/3.

[93] – المصدر نفسه،347/3–348.

[94] – ينظر في تفصيل تلك المعارك: تاريخ الرسل والملوك، الطبري،343/3– 384، و البداية والنهاية، ابن كثير، 63/4–79.

[95] – فتوح الشام، محمد بن عبد الله الأزدي، ص:1.

[96] – المصدر نفسه، ص:3–4 .

[97] – ينظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 3/ 394، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 255/3،والبداية والنهاية، ابن كثير، 84/4.

[98] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري، 3/ 392– 393، الكامل في التاريخ، ابن الأثير،255/2، والبداية والنهاية، ابن كثير، 87/4.

[99] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري ، 391/3، والبداية والنهاية، ابن كثير،31/4،

[100] – البداية والنهاية، ابن كثير، 87/4، وذكر ابن الأثير في الكامل،258/2، أنهم تعداد المسلمين كان أربعين ألفاً.

[101] – تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، محمد يسري هاني، ص:346، بتصرف.

[102] – تاريخ الرسل والملوك، الطبري ، 3/394.

[103] – ينظر: المصدر نفسه، 3/398، البداية والنهاية، ابن كثير، 4/96.

[104]– البداية والنهاية، ابن كثير، 4/97.

[105] – الكامل في التاريخ، ابن الأثير: 2/263.

The aspects of truthfulness of Abu Bakr

Dr. Hocine CHORFA*

Abstract:

This investigation deals with an aspect of excellence in the personality of the Caliph Abu Bakr, may Allah be pleased with him represented in Alsidikiah i.e the most truthful. This latter is the capacity in which he exceeded his companions, God bless them, and he won the title of the most righteous in this nation. This study attempts to highlight the reality of this virtue through the achievements he realized during his succession.

Although the succession of the faithful person lasted no more than two years and three months, it had witnessed four great achievements rarely repeated in history. This has no other explanation other than the qualities and virtues endowed to the Caliph Abu Bakr, may Allah be pleased with him especially his faithfulness, which qualified him to lead the Muslims after the death of the Prophet, peace be upon him.

So, what is the truth behind the truthfulness of Abu Bakr, may Allah be pleased with him? And how its aspects have been manifested in his succession?

Keywords:

Abu Bakr Siddiq - khilafa - Leadership - Excellence.

* Faculty of Islamic Sciences University of Batna 1.

جدلية العلاقة بين العقل والنقل عند عبد الباري الندوي

بقلم
أ/ باي أحمد عامر(*)

ملخص

يهدف هذا المقال إلى معالجة إشكالية العلاقة بين العقل والنقل، التي كانت وما تزال محل تجاذب وخلاف واسع بين المفكرين والفلاسفة، وممّن تناول الموضوع بالدراسة الشيخ عبد الباري الندوي استجابةً لتحديات عصره، بالوقوف بحزمٍ أمام التيارات الوافدة من باب العقلانية والافتتان بالنتائج العلمية العملاقة في القرنين الماضيين، كما عارض الانسياق وراء التيارات الفلسفية المختلفة التي أقحمت العقل في المجال الميتافيزيقي.

ومقالي هذا يسلط الضوء على جهده في تحديد العلاقة بين العقل والنقل، والمجالات المعرفية لكليهما، فقد استطاع الندوي أن يوضح وهم الصراع بين العلم والدين، ويبين طبيعة العلاقة بين المذاهب الفلسفية والكلامية المختلفة والدين، ليخلص في الأخير إلى تحديد طبيعة علاقة العقل بالنقل، والمجال المعرفي لكل منهما.

الكلمات المفتاحية: العقل – النقل – الدين – الفلسفة – العلم – علم الكلام.

مقدمة

كانت العلاقة بين العقل والنقل وما تزال محل تجاذب وخلاف واسع بين المفكرين والفلاسفة، ويزيد من بروز هذا النقاش جملة من المؤثرات المختلفة من حياة الإنسان الحضارية، فكلما استطاع الإنسان أن يحقق قفزات نوعية في المجال العلمي انطلاقاً مما يراه جهودا عقلية، أعلن استقلاله الكلي أو الجزئي عن الدين وكل متعلقاته، باعتبارها عقائد وأفكار تتناقض مع العقل، وظهرت صور للإلحاد القديم المتجدد، تحاول باسم العلم أن تجد مبررات للتمرد عن

(*) أستاذ مساعد "أ" بقسم أصول الدين ـ معهد العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي.
beyahmed711@gmail.com

مسلمات الدين وعن كل ما يقدمه، والموضوع أيضاً محل خلاف حتى بين أتباع الدين أَنفُسِهِم، من حيث الحدود المرسومة لكل من العقل والنقل ومجالاتهما المعرفية، وتراتبية العلاقة، والتأثير المتبادل بينهما.

وممن خاض غمار هذا البحر الشيخ عبد الباري الندوي[1]؛ الذي وقف بحزم أمام التيارات الهدامة للدين، من باب العقلانية والافتتان بالقفزات والنتائج العلمية العملاقة، والتيارات الفلسفية المختلفة، فانطَلَقَ بقدمٍ راسخةٍ في معرفة الفلسفة القديمة والحديثة، وعمقٍ اطلاعه على الجهود الكلامية للعلماء المسلمين[2]، ليحدد طبيعة العلاقة بين العقل والنقل، والمجالات المعرفية لكليهما، وسعى إلى إزالة جوانب من توهم الصراع بينهما.

إن هذا المقال يحاول إبراز رؤيته في تناول هذه المسألة الحساسة، التي كانت وما تزال محل جدل، سيما مع ظهور موجة من الإلحاد الجديد، خاصةً بين صفوف الشباب، فإلى أي مدى وفق الشيخ عبد الباري الندوي في تبيين طبيعة العلاقة بين العقل والنقل؟ وما الحدود التي يرى أنها تضبط كلاً منهما؟

بدايةً نتعرض بإيجاز لمفهوم العقل والنقل كتمهيد نظري، نتناول بعدها جزئيات الموضوع، وما يجيب عن إشكاليته.

أولا. مفهوم العقل والنقل:

العقل في اللغة يأتي بمعان، فهو الحَبسُ، إذ يحبسُ عن ذميم القول والفعل؛ وهو الحِجْرُ والنهي[3]؛ والعقل نقيض الجهل، يقال عقلَ يعقلُ عقلاً، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو أنزجر عما كان يفعله، ورجل عاقل إذا كان حَسَنُ الفهم[4]، وهو المعنى في قوله تعالى:﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[5]، أي أفلا تفقهون وتفهمون قبح ما تأتون من معصيتكم لله تعالى التي تأمرون الناس بخلافها[6]. وقد وردت مادة "عقل" في القرآن الكريم بصيغ واشتقاقات لغوية مختلفة تسعا وأربعين مرةً، جُلها بصيغة المضارع[7]، مما يُبرِزُ ويُؤكِدُ أهمية ومكانة العقل والتعقل في الدين الإسلامي.

أما النقل في اللغة فهو: يدل على تحويل شيءٍ من مكان إلى مكان[8].

أما تعريف العقل في الاصطلاح: فهو "تلك المعلومات الضرورية الفطرية في الإنسان التي تكون أساساً لكل نظرٍ واستدلال"[9]، وقيل:"العقل هو العلم بوجوب الواجبات واستحالة المستحيلات، ومجاري العادات"[10]، وما يصدر عن العقل يسمى العلوم العقلية، وهي ما تقضي

بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع، حيث تنقسم إلى: علوم ضرورية لا يُدرَي من أين وكيف حصل في الوعي، كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين؛ وإلى علوم مكتسبة وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال، وكلاهما يسمى عقلاً[11].

أما النقل في الاصطلاح: فهو "التعاليم الدينية التي مصدرها الله تعالى، ومبلغها إلى الناس النبي المرسلُ"، فالنقل بالنسبة لنا كمسلمين: هو "التعاليم التي جاء بها محمد ﷺ مبلغا إياها عن ربه منضبطة في النص القرآني، ونصوص الحديث النبوي الشريف"[12].

ثانيا. الدين والعلوم العقلية:

يرى الشيخ عبد الباري الندوي[13] أن الدين عبارة عن الاعتقاد بأمور تتعلق بما فوق الفطرة وخالقها، ومَصدَرُهُ الأساسي هو التلقي عن طريق النبوة، أما العقليات فهي محاولة العقل البشري البحث عن الحقائق، ويقسم الندوي العلوم العقلية إلى مجالين؛ العلم والفلسفة، فالعلم مرتبط بالطبيعة وما تعلق بها، أما الفلسفة فمجالها ما وراء الطبيعيات.

الجدير بالتنبيه أن الندوي في دراسته لطبيعة العلاقة بين العقل والنقل، اتبع منهجية قائمة على معيار تقسيم الجهد العقلي، حيث تناول الموضوع ابتداء بعلاقة الدين بالعلم، ثم علاقته بالفلسفة، هذا من الجانب الموضوعي، أما من الجانب الشكلي فَنَجِدُ في أسلوب تدوينه كثيرا ما يُعَبِرُ عن النقل بالدين، والعقل بِصِنفَيّ العلوم العقلية؛ العلم والفلسفة[14].

وانسجاماً مع أسلوبه سنعرض ابتداء علاقة الدين بالعلم، ثم علاقة الدين بالفلسفة، ونتلوها بوجهة نظره حول علم الكلام باعتباره جهداً عقليا في إطار النص، ونخلص إلى ما توصل إليه من تحديد لمجال صلاحية العقل للنظر في أقسام الدين.

ثالثا. علاقة العلم بالدين:

يؤكد الندوي أن تصور وجود صراع بين العلم والدين نابع عن الجهل بحقيقة الدين والعلم، وأن هذه القصة قديمة ومستمرة، فالتقدم الذي أحدثه الإنسان خلال القرنين الماضيين حمل بعض الناس على الاعتقاد أن الدين والإله قد مني بهزيمة فاصلة، وأن العلماء بما قاموا به من فتوحات علمية حيرت الألباب والعقول، قد أزاحوا الخالق جانباً بعد شُكرِهِ على خدماته المؤقتة، فما حصل من تطور علمي رهيب خاصة بعد الحربين العالميتين، جعل الميزان العقلي للناس يختل، وأصبحوا يصدقون كل ما هو صادر عن الغرب، ولو كان قولاً بتجاوز الإله وما يصلنا من تشريعات سماوية، فيكفي في كل مسألة أن تنسبها لأوروبا حتى تصبح رمزاً للحضارة والرقي

والتفكير العلمي الرصين[15].

ويوضح الندوي أن الأسباب التي أدت إلى توهم وجود صراع بين العلم والدين، هي النقاط الآتية:

1- إن المصدر الرئيسي لسوء الفهم حصل بسبب عداء الكنيسة لكثير من رجال العلم الغربيين، وما تعرضوا له من تقتيل وسجن وتعذيب قَادَتهُ محاكم التفتيش الأوروبية[16]، فانتقل تَصَورُ حقيقة الصراع التي كانت بين رجال الدين والعلم، إلى حُكمٍ خاطئ بوجود صراع بين الدين والعلم.

2- إدلاءُ عدد من العلماء والمفكرين والفلاسفة بتصريحات جعلت كثيرا من الناس، وحتى الخاصة منهم يقعون ضحية سوء الفهم والتصور هذا، مفادها أن العداء بين الدين والعلم قائم على أسس متينة، من أمثال: لابلاس، وتندل، وهكسلي، وكمثال على ذلك ما صرح به هكسلي بأن "المادة وقوانين المادة قد أبطلتا عقيدة الخلق ووجود الروح"[17]. وقول هيجل: "إنني أستطيع أن أخلق الإنسان لو توفر لي الماء، والمواد الكيميائية، والوقت"، وما قاله نيتشه في صراحة: "لقد مات الإله، الآن"[18]، هذه التصريحات ومثيلاتها أحدثت لدى الجاهلين بحقيقة العلم، وسَاوسَ حول الدين، وزادت من شكوك المضطربين.

3- الموقف الساذج لبعض أصدقاء الدين من المتكلمين، الذين لم يفكروا بأنه لا صراع حقيقي بين الدين والعلوم العقلية، بل شرعوا في التوفيق بينهما أحياناً، أو الرد على كل ما هو صادرٌ عن الفلسفة والحكمة أحيانا أخرى، انطلاقا من اعتبارهِ واجبا دينيا ضروريا لحماية الدين والذودِ عنه، في حين أن الشعور بالخِّصَامِ بين الدين والعقل كان وليد علم الكلام نفسه، الذي كان سببا في إتلاف الصلاحيات والكفاءات الهائلة للفكر والعقل في مسائل غير حيوية، فكانت جهودهم كالرسم على الماء أو التحليق في الهواء[19]. ورأي الندوي هذا لا يُسَلَمُ به، وسأتناوله بالتفصيل والتدقيق عند عرض نظرته لعلم الكلام.

رابعا. لا صدام بين العلم والدين:

يرى الشيخ عبد الباري الندوي أن الصراع بين العلم والدين لا أساس له، ولفهمٍ دقيق لتَصَوُّرِ مَسأَلَةِ الفَصلِ التام بين الدين والعلم، وضّح الأمر بمثال؛ أن القطار في سيره واردٌ ومألوفٌ أن يصطدم بقطار آخر، لكن من المستحيل أن يصطدم قطار بباخرة، لأن القطار لا يستطيع أن يبحر في الماء، ولا الباخرة تستطيع السير في البر، وهذا تماما ما هو حاصل بين العلم

والدين، فدخول العلم في مجال الدين مستحيل لأن العلم ينتهي حيث يبدأ الدين، فآخر حَدٍ للعلوم يشكل بداية حدود الدين، فالعلم مرتبط في بحوثه واكتشافاته بالطبيعة عن طريق المشاهدة والتجربة.

أما الدين فإن مصدره وقوامه ما فوق الطبيعة، وهي غير قابلة للمشاهدة والتجربة، كالمباحث المتعلقة بالله تعالى، والروح، والبعث والحشر وغيرها.

العلم الطبيعي بحسب الندوي ينطلق من المشاهدة إلى التجربة، ليصل إلى الارتباطات بين الأسباب والمسببات، وإلى معرفة العلاقة بين الظواهر المختلفة، ثم للعِلمِ أن يجد ارتباط هذا القانون بغيره، حتى الوصول إلى قوانين كبرى، تماما كما كانت مشاهدة نيوتن لسقوط التفاحة، قائدة لاكتشاف قانون الجاذبية مثلاً، فالعِلمُ يستطيع أن يجيبنا بكل آثارِ وارتباطات هذا القانون، لكنه لم يجبنا إلى الآن ما هو قانون الجاذبية في حد ذاته؟ وكيف وجد؟ وهل هو أزلي أم مخلوق؟ فالأسئلة من هذا القبيل تحير العلماء وتعجز ألسنتهم عن الإجابة؛ لأنها خارجة عن دائرة البحث، فقد عبر نيوتن عن ذلك بصراحة، بأنه لا يمكن أن تأتي كل هذه الظواهر الطبيعية العظيمة للوجود دون إرادة واجب الوجود، القادر المطلق، المتصف بكل صفات الكمال[20].

ثم يعضد الشيخ عبد الباري الندوي موقفه بجملة من الأقوال لبعض العلماء والفلاسفة التي تؤيد ما ذهب إليه، من أن العلم يستطيع أن يكشف أسرار العلل الثانوية والقريبة، ويشرح ويفسر أحداث العالم شرحا جانبيا، أما الكشف عن العلل الأولى فإنه خارج عن نطاق بحث العلم كليا، فلا يستطيع العلم تعليل وشرح كل شيء، وأعلى ما يصل إليه علم الإنسان، لا يتجاوز في معرضِ التعليل باتجاه بداية الأمور إلا خطواتٍ معدودةٍ، فيكون أي جهد للعلم في خوض غمار إثبات أو إبطال وجود الله جهلا بحقيقة العلم وحُدُودِهِ[21].

ومواصلة لما ذكره يوضح أن علماء الفلك يستطيعون أن يناقشوا قانون الجاذبية والحركة، ويستطيع علماء الرياضيات أن يكشفوا العلائق بين الأعداد والمكان، لكن هل في استطاعتهم أن يفهمونا الحقيقة الأصلية للمكان؟ إنهم لا يعرفون حتى كون هذه الكائنات ذهنية أو خارجية، ويستطيع علماء الأحياء معرفة تركيب الأجسام من العناصر الكيماوية، لكن هل يجيبوننا كيف ولماذا تتولد من تركيب تلك العناصر الحياة والأحاسيس والمشاعر؟

إن الإنسان لا يملك بكل ما حظي من نور العلم والحكمة حسب الندوي أن يزيح ظلماتِ جَهَالَتِهِ بهذه الأمور حتى القدرَ اليسيرَ، وهو يحتاج إلى الدين ليهديه ويرشده بمشعل العقيدة

والإيمان بالغيب في هذه الظُلمةِ الحالكةِ، فَلَمَعَانُ العقل والحكمة لا يقدرُ على تبديد تلك الظلمة الكثيفة[22]، وهو ما يؤكدهُ بشكل جلي الإمام أبو حامد الغزالي في المنقذ من الضلال حين قال: أن لا شيء يثبت أن العقل هو آخر المدارك، وأن ليس فوقه طوراً وإدراكاً آخر، كالنبوة التي تَنفَتِحُ فيها عينٌ يُدرَكُ بها مُدرَكَاتٍ خاصةٍ، والعقل معزولا عن إدراكها كعزلة السمع عن إدراك الألوان، وعزلة البصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات، والله تعالى قَرَّبَ لنا هذا المفهوم، بأن أعطى الناس خاصية من نموذج النبوة في النوم[23]، حيث يحصل أن يُدرِكَ الإنسان في الرؤيا بعض الغيب، فيتحقق الإدراك دون حاسة.

والعلم الحديث من جانب آخر يثبتُ بما لا يدع مجلا للشك عن وجود العديد من طرق الإدراك يملكها الحيوان ولا يملكها الإنسان، مما جعل المسألة تغدوا حقيقة لا مراء فيها.

والخلاصة أن الشيخ عبد الباري الندوي يرى أنه لا مجال لتصادم العلم بالدين، لأن سيرهما في مجالين مختلفين تماما، وإن كان من احتمال لأيٍّ تضاد أو توافقٍ فهو بين الدين والفلسفة لأسباب سنأتي على تفصيلها تاليا.

خامسا. علاقة الفلسفة بالدين:

يرى الشيخ عبد الباري الندوي أن فطرة الإنسان تقوده للبحث والتنقيب، وخاصة عن الأسئلة المحورية في الحياة، كيف بدأ العالم وكيف ينتهي؟ وما حقيقة الوجود؟ ومن نحن؟ ومن أين أتينا؟ وإلى أين المصير؟ وأسئلة كثير أخرى في مجال خارج عن دائرة العلم كليا، هو مجال ما بعد الطبيعة، فتنقلنا تلك الأسئلة من حظيرة العلم إلى الإطار غير المحدود للفلسفة، ومن بديهيات العلوم الطبيعية إلى عالم من الظن والتخمين والإدعاءات غير القطعية[24]، مما يولد اصطداما في بعض المسائل بين الدين والفلسفة، فيتطلب الأمر توضيحا وتصحيحا للعلاقة القائمة بينهما، بإزالة سوء الفهم المؤدي إلى زوال وقوع الصدام بينهما كليا، ولكي يتم الأمر يشير الندوي إلى ضرورة اعتبار المسائل الآتية:

1- يمكن القول أن هدف الدين والفلسفة واحد، لكنهما يختلفان كليا في طريقهما، فالدين قائم على الإيمان والعقيدة، أما الفلسفة فهي قائمة على أساس القياس والاحتجاج العقلي، وكلما سمح للقياس العقلي بالتسرب للدين، فقد الدين قوته وحقيقته وتحول إلى فلسفة.

2- إن الصدام الممكن بين الفلسفة والدين ناتجٌ عن الاعتقاد الخاطئ بأن القياسات الفلسفية أو الدلائل العقلية تستطيع أن تبطل الدين أو تثبته نهائيا، فالفلسفة متناقضة ومتعارضة بحيث لا

يمكنها أن تكون معيارا لحقٍ أو بناءً لحكمٍ، ويبقى الجهد الفلسفي محاولة لإرواء شغف الإنسان بالبحث عن تساؤلات في أرض لا مجال لإعمال العقل فيها.

3- أن تاريخ الفلسفة الطويل الممتد إلى ألفين وخمس مئة سنة، لا نرى فيه من حيث الواقع أنها كانت منافسة للدين أو معاندة له، يقول فرنسيس بيكون: "قليل من الفلسفة يؤدي للإلحاد والتعمق فيها يؤدي للإيمان"" فإذا أمعن العقل النظر، وشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها، فإنه لا يجد بداً من التسليم بالله"[25].

إن بيان العلاقة بين الدين والفلسفة لا يتأتى إجمالاً، نظراً لتعدد المذاهب الفلسفية وتنوع أرائها، وفيما يأتي نعرض تقسيم الندوي لأهم المذاهب الفلسفية، ومناقشته لها، وتوضيح طبيعة العلاقة بينهما.

سادسا. المذاهب الفلسفية وعلاقتها بالدين:

يقسم الندوي المذاهب الفلسفية إلى أربعة مذاهب أساسية، وهي: الثنوية، والتصورية أو المثالية، والمادية، والارتيابية أو اللاأدرية، ويرى أن المذهبين الأولين مؤيدان للدين بشكل مباشر أو غير مباشر، والمذهب الثالث له موقف معاند، أما المذهب الرابع فموقفه حائر بين الأمرين، ولتحرير موقف كل مذهب نلخص ما ذكره الندوي في التفصيل الآتي:

1- المذهب الثنوي:

وهو مذهب يقسم الكون إلى كائنين مختلفين ومتعارضين كليا، وهما الجسم والروح، فالجسم هو المادة الخالية من الحس والحركة، أما الروح فهي مجردة عن الجسم ومصدر للعقل والشعور، وهو مذهب كثير من الفلاسفة المتقدمين كأرسطو، والفلاسفة المتأخرين كديكارت، ومؤدى هذا المذهب حسب الندوي يتفق تماما مع الدين، فالروح هي في الواقع أساس الدين، وكل الأمور الغيبية الأخرى متفرعة عن هذه العقيدة[26].

2- المذهب المثالي:

وهو مذهب يؤكد أن أصل الأصول شيء واحد وهو الروح والعقل والذهن، أي يسمى بالكائنات العاقلة، أما بقية العالم الجسماني فإنما هو امتثالات في العقول الكائنات العاقلة، ولا يناظرها في الخارج أي موضوع[27]، وقال بهذا المذهب أفلاطون عند المتقدمين، واسبينوزا، ولبنيز، وبركلي، وفختي، وهيلج، وبرجسنون من المتأخرين، كما تلتقي أفكار الصوفية ورجال الباطن بهؤلاء التصوريين وإن بدا خلاف الحال والمقال[28]، ويقال في هذا المذهب ما قيل في سابقه من

علاقته بالدين، فالاعتراف بوجود عالم ما وراء الطبيعة، ووجود الروح هو الأساس الذي يبنى عليه وجود الإله تعالى.

3- المذهب المادي:

وهو المذهب الوحيد الذي يمكن أن يحدث نتائج الإلحاد واللادينية، ويرى أنصاره أن أصل الأصول واحد لكنه ليس الروح بل المادة، وأنه لا يتوقف وجودها على وجود شيء سواها [29]، وأن العقل والأحاسيس المختلفة وكل ما يصنف على أنه فعل الروح ليس إلا انعكاسا للمادة[30]، في اجتماع وتركيب وتعامل ذراتها، وهي أزلية غير مخلوقة، قوتها وطاقتها كلتاهما واحدة لا يمكن تجزئتها، فالمادة هي أم الكون التي تتولد من بطنها جميع النتائج، وهي تملك وجودا مستقلا مستغني عن أي وجود خارجي، ونظام العمل المرتبط بالمادة هو الطبيعة وقوانينها[31].

فلا حاجة وكل أجزاء الكون تربطها قوانين طبيعية واضحة، لأي افتراض قديم بأن وراء تلك الظواهر قوة إلهية، فالإنسان كان قد افترض في حالة جهله أن الإله هو الذي يُدِيرُ كل شيء في الكون، لأنه لم يكن لديه من الاكتشافات العلمية ما يبيِّنُ له نظام الأسباب، وأن وراء كل علة معلولا ضرورةً عن طريق التجربة، وأن وراء تلك الظواهر قوانين كبرى هي قانون الطبيعة، فلا ضرورة للإيمان بوجود هذا الإله، ولا ضرورة لهذا الافتراض، قال هكسلي مبرهنا على الكلام السابق: "إذا كانت الوقائع نتيجة لعلل طبيعية، فهي بالطبع ليست نتيجة لعلل ما فوق الطبيعة" وما دامت العلل ما فوق الطبيعة غير موجودة، فلا داعي لنسبة الأشياء إليها، وقال كانط واثقاً: "إيتوني بالمادة وسوف أعلمكم كيف يُخلَقُ الكون منها"[32].

وحين النظر إلى الجانب التاريخي للمذهب المادي، نجد أنه قديم جدا، فقد قال به ديموقراتيس، وتبعه أبيقور وليوكريتس في الماضي، وأحياه برونو وفسندي في القرنين السادس والسابع عشر[33]، وظهر بشكل بارز عند فلاسفة المدرسة الفرنسية من أمثال هولباخ وهلفتيوس[34].

ويرى الندوي أن الماديين يكابرون في أقوالهم، وأنها تحمل في طياتها مغالطات، فهم بقولهم هذا في الحقيقة لا ينفكون عن الغيب مكرهين، بدليل أنه لا يستطيع أي عالم مادي أن يتحرك خطوة دون استخدام مصطلحات كالقوة وقانون الطبيعة والمادة؟ ولكن هل يستطيعون بعقولهم أن يخبرونا ما هي حقيقة المادة والقوة والطاقة؟ وعلى سبيل المثال من أقوالهم رد الظواهر إلى العلة الأقصى، وهي قانون الطبيعة الذي يعتبرونه الكنه الأصيل لحوادث الكون، والواقع أن

هاتين الكلمتين لا تدلان إلا على اسم جمعي لتجارب ومشاهد مختلفة لنوع واحد، وهي تلازم وضرورة حدوث ظواهر معينة عند شروط معينة، لكن هل يدلنا قانون الطبيعة عن سبب الحدوث، وسر اللزوم والوجوب المحاط بالكتمان.

إنها في الحقيقة مصطلحات مختلفة للتعبير عن العلة المجهولة، للحوادث والظواهر المعروفة التي يعجز عن شرح حقيقتها المعنوية أي فيلسوف، فهم يخرون لآلهة يصنعونها بعقولهم، هي الطاقة الجاذبية والطبيعة وقانونها، وهم لا يستطيعون أن يبينوا حقيقتها ومصدرها، تماما كما يجهل أي رجل دين مكان الخالق ووصفه، فكلاهما يعتقد ويؤمن بعلل مجهولة للكون[35].

4- مذهب اللاأدرية:

يرى الندوي أن حقيقة مذهب اللاأدرية قائمة على الاعتراف بعدم العلم، وقد كان في القديم قائماً على الشك المطلق، وتولى إحياءه في العصر الحديث هيوم وكانط وهكسلي وغيرهم، وهو اتجاه يقرر أن التحقيقات العلمية، والتجارب الاستقرائية، والاستدلال العقلي، الذين يُتَوصَّلُ بهم إلى إثبات مسائل العلوم الطبيعية والاكتشافات المختلفة بشكل دقيق؛ نجدها عاجزة عن الوصول إلى حقائق الأشياء، وكل ما تعلق بما وراء الطبيعة إثباتا أو نفيا[36].

يقول اللاأدريون إن الأمور التي تقع خارج الحوادث المحسوسة أو ظواهر الأشياء لا تهمهم نفيا ولا إثباتا، ولا علاقة لهم بها، ويتمسك الندوي بموقفهم هذا ويرى أن هذا التبريء نفسه يعتبر دليلا على اعترافهم بالأعيان والحقائق، فالاعتراف بالظواهر هو تسليم بوجود بواطن، فالظاهر دون باطن مستحيل التصور، ففلسفة اللاأدرية تختلف كليا عن الإلحاد، وإن لم تعبر عن ذلك، لكنها تعترف بوجود قوة كامنة، رغم أنها غير معلومة ومستحيلة العلم، وهي صدى تلك الأحاسيس والعواطف التي تعتبر منبع ومرتكز كل الأديان[37].

وتحليل الندوي لمواقف اللاأدرية والمادية ينم عن فهم عميق للفلسفة، لا يقف عند ظاهر المذهب وتصريحات أعلامه، بقدر ما يُفَكِكُ مآلات رأيهم، ويعرض لها دراسةً ونقداً، فالماديون اختبئوا وراء مصطلحات وقوانين كلية يَرُدُّون إليها ما لا يجدون له تفسيرا، وما لم تتمكن عقولهم من استيعابه، أما اللاأدريون فقد تواروا باختيارهم اللاإجابة سبيلا للإجابة، فكان عدم إجابتهم إجابة بوجود بواطن وأمور خافية عن العقول.

ويخلص الندوي بعد عرضه لمختلف المذاهب الفلسفية، إلى أنه ورغم اعتبارها في هذا العصر أكثر المواهب قبولا، لا تستطيع بحال من الأحوال أن تنافس الدين، وهو ما أكده أبو حامد

الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة من أن الأمور الغيبية مصدرها النبوة، فالعقول البشرية عاجزة عن بلوغها[38]، ومكمن داء الفلاسفة أن أكثر براهينهم في الطبيعيات والإلهيات مبني على تصورهم بقدر ما وجوده وعقلوه، أما ما خرج عن مألوفهم فيقيِّدون استحالته[39].

ولعل الفلاسفة معذورون في شغفهم بالبحث عن الحقائق، لمن غابت عنهم نصوص الوحي، ذلك أن الإنسان بفطرته يحاول معرفة الأسباب والأسرار في الطبيعة وفي ما وراءها، أما في بيئتنا وقد من الله علينا بالهدي البيِّن في تلك المسائل، فإن أي جهود يعبر تعديا للعقول عن مجال تفعيلها وإثمارها، وتبديلا لمقدس بمكدس[40]، فالجهد الإنساني عرضة للخطأ في مجال مقدس متعلق بذات الله وصفاته وبمختلف الغيبيات الأخرى، مما يعد خطورة كبيرة، والحكمة تقتضي التسليم الكامل لنصوص الوحي[41].

وكان للتراث الفلسفي عموماً الأثر الملحوظ في الفكر الإسلامي، فتبني بعض الفلاسفة الإسلاميين المشائين منهج الموائمة والتوفيق بين الفلسفة والدين كأمثال الكندي والفارابي، ومال البعض إلى الدمج الكامل بينهما كابن سينا، ورأى كثير من العلماء أن الجوانب الفلسفية الميتافيزيقية خطر على العقائد الإسلامية فانبروا إليها دفاعا عن الدين بالحجج العقلية فيما سمي بعلم الكلام[42]، فكانت تجربة لها وعليها، وفي ما يلي نتناول موقف الندوي من علم الكلام باعتباره جهدا عقليا، فما الحدود التي يرى أن للعقل فيها دورا تجاه النقل؟

سابعا. الدين وعلم الكلام:

يرى الشيخ عبد الباري الندوي أن الفلاسفة والحكماء لم يلحقوا بالدين الضرر الذي لحقه بسبب من سماهم الأعداء الحقيقيين، وهم أصدقاؤه الجهلاء من المتكلمين المسلمين، إذ يستحق الجزء الأكبر من إرثهم أن يحرق أو يحفظ في المتحف للعبرة والدرس، فلم تضيّع الأمة جهدها ووقتها بمثل ما ضيّعته في تلك الفلسفة الكلامية الضائعة[43].

أثَّر الندوي بموقفه هذا في تصور مجموعة من العلماء، من أبرزهم الشيخ أبو الحسن الندوي باعترافه حين قال: لقد كان التصور الذي اقتبسته من كتاب: الدين والعلوم العقلية؛ للشيخ عبد الباري الندوي دائما ما يرشدني بما إستفدته من تعيين حدود الفلسفة والعقل والنقل والتجربة[44]، وقد سمى الشيخ أبو الحسن الندوي جهود المتكلمين بـ "الفلسفة الدينية"، وهو علمٌ حلل ودقق هذه المسائل الإلهية وقضايا ما بعد الطبيعة عن طريق الأدلة العقلية، وأنها في معرض الرد على الفلاسفة وقعت في تدقيقات وتقعيرات هي سمة أساسية للفلسفة اليونانية، وان اختلفوا في

التتائج والغايات[45].

موقف الشيخ عبد الباري الندوي الشديد مؤسسٌ على ما يراه من خطورة آثار علم الكلام على الدين، ويضرب لذلك مثالا، بأن المؤمن الحق إذا رسخ الإيمان في قلبه وتمكن منه، أثمر ذلك الإيمان واليقين تعظيما وإجلالا للخالق، ورغبة ورهبه تجاهه، قال تعالى:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[46]، فهل يستطيع الإله الذي يُثبَتُ وجوده بمقدمات منطقية، أن يحدث هذا التأثير ؟ وهل تخشع القلوب وتلين وتقشعر خوفا وشوقا وتعظيما، بذكر واجب الوجود الذي يثبته أرسطو وابن سينا والمتكلمون بفلسفتهم وكلامهم؟ وهل يبقى في القلب من سعة لوجل وخشية يحدثها ذكر الله وقراءة القرآن، لمن يطالع كتبهم؟ فإذا كان الحال كذلك، فإنه لا محالة أن من أشد أعداء الدين وأخطرهم هم المتكلمون من المسلمين[47].

ورأي الندوي هذا فيه جانب من التجاوز في حق جهود عظيمة بذلها العلماء في الدفاع عن الدين، فجوهر علم الكلام هو الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين عن العقائد الصحيحة[48]، فما يجوز في معرض العلاج والدفاع قد لا يستسيغه من لا يستحضر السياق التاريخي، والإكراه الواقعي الذي كانوا يعيشونه، في الذود عن حمى الدين بما ورد من شبهات فلسفية قائمة على حجج عقلية، وهذا ما عبر عنه الإمام أبو حامد الغزالي تعبيرً العالمِ والخبيرِ بعلم الكلام، وبشكلٍ دقيقٍ وفي غايةِ الإنصافِ حين تكلم عن تحصيلِهِ لَهُ: " ثم إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصَّلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير واف بمقصودي وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش المبتدعة"[49]، وتبعه ببيان حكمه على علم الكلام في كتابه المنقذ: بأن إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل[50]، فلا يجب أن يخلو كل بلد من قائم بهذا العلم حتى يدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة، مما يتوجب تدريسه للخواص المتدبين لهذا الأمر، لا أن يدرس على العموم كتدريس الفقه والتفسير، فإن علم الكلام كالدواء، أما تدريس الفقه مثل الغذاء، وكُلٌ يؤخذ بقدره[51].

ويرى الشيخ البوطبي في كتابه المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة أن علماء المسلمين قد سلكوا في مقابلة التيارات الفكرية الوافدةِ مسالكَ متعددةً أبرزها؛ استثارة نوازع الفطرة الأصلية في كيان الإنسان ببذل الجهد في إزالة الحواجز والحواجب عن الإيمان المطبوع في النفس الإنسانية،

وسلك بعضهم مسلك تحكيم موازين العقل والمنطق وما اجتمعت عليه العقول مما يدعو القرآن إلى استخدامه لمواجهة الجاحدين، وسلك آخرون مسلك الفلاسفة الإسلاميين باعتماد منهج الفلاسفة في القبول أو المحاجة والرد، ويرى البوطي أنه لا مجال للمفاضلة بين الأساليب في معرض الدفاع عن الدين[52]، وأن المسالك كلها خاضعة لمنهج القرآن في الدعوة إلى الله وتجلية عقائد الإسلام، بشرط أن يستعمل كل منها في المكان المناسب وطبقا للحاجة الداعية، فاستثارة الفطرة حيث تجثم شبهة عقلية أو فلسفية في العقل تثقله عن التحرك سعيا وراء الفطرة، عبث لا يأتي بطائل، واصطناع المعارك العقلية التي لا وجود لها، تنطع وتضييع للوقت، فالأمر يؤخذ بقدره دون تشدق أو تنطع أو تقصير وإهمال[53].

أما ما قصده الندوي من وجهة نظري؛ ينطلق من المحاذير المتعلقة بالآثار الجانبية لعلم الكلام، فهو موافقٌ لما ذكره صاحب الإحياء أيضا، في كون علم الكلام لا يُوصِلُ إلى الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، وإدراك الأسرار التي يُتَرجِمُهَا ظاهر الألفاظِ في العقيدة، فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات، والإقبال بالكلية على الله تعالى[54]، وهو أمر طبيعيٌ جداً ومسلمٌ به من هذه الزاوية، فما يهدف إليه علم الكلام المدافع عن الدين بالحجج العقلية، التي تعتبر جُهداً بشريا قابلا للخطأ، بخلاف ما يهدف إليه المؤمن من ارتقاءٍ في سلم الإيمان والقرب من الله تعالى. فيكون الندوي قد جانب الصواب في حُكمِهِ المطلق، كونه حَاكَمَهُم إلى غير أهدافِهِم، ونَظَرَ إلى ما يعتبر آثاراً سلبيةً لجهودهم مع إغفاله الجانب الإيجابي. ومحقاً في نقده إذا أُعتُبِرَ هذا العلم الحالة الطبيعية التي يتقى بها العلم بالغيبيات.

ثامنا. مجال وحدود علاقة العقل بالدين:

يبين الندوي إن العقل لا يستطيع أن يثبت الدين كما لا يستطيع إبطاله، وهذا لا يشكل عارا وعيبا في الدين، وإنما هو دليل على استقراره وتميزه، فالعقل الإنساني لا يعقل عقدته إذ يتفاوت ويختلف وتتعدد مواقفه ونظرته للأشياء، بحيث يستحيل إجماع العقول والآراء حتى في مسألة بسيطة. فالعقل نفسه دائم التغير، حتى أن جيلا واحدا من العلماء يختلف اختلافا شديدا، بل إن شخصا واحدا يغير آراءه وأفكاره باختلاف الأزمان والأحوال والظروف، فإذا كان الدين يدعي مطابقة هذا المعيار المتزلزل والمتناقض وغير الدائم، فإنه إذا لا يثبت حقيقة دائمة وثابتة، ويصبح الدين ألعوبة من الألاعيب بمثل هذه التطبيقات والتسويات القسرية[55].

ويوضح الندوي موقفه بشكل أدق، حين يقسم الدين إلى مجالين، كل مجال له علاقة خاصة

بالعقل، نتعرض إليهما في الآتي:

1- علاقة العقل بالعقيدة الدينية:

يذهب الندوي إلى أن الإيمان بالله والبعث وغيرها من المسائل في المعتقدات الغيبية، لا يستطيع العقل أن يثبتها أو يبطلها، ولا يملك أدنى سلطة لذلك، فالدين يقوم على الاعتقاد والإيمان الذي ينبع من الأحاسيس والعواطف الطبيعية المختلفة التي يشعر بها الإنسان فمادام في الإنسان الحب والهيبة والحيرة والبؤس والغضب والإجلال والجمال وغيرها من العواطف، أي مادام الإنسان إنسانا فلا سبيل أمامه لتجنب الدين، فالدين قائم على أساس متين يفوق العقل متانة واستقرارا بحكم قواعده ومبادئه[56]، فحقائق الدين مطلقة بذاتها غير خاضعة للتعقيب الإنساني –ودور الإنسان فيها هو الاستجلاء فحسب– وصفة الإطلاق التي يتصف بها النقل مستمدة من العلم الإلهي المطلق بكل الغيوب[57].

وكلام الندوي يعلي من قيمة المشاعر الإنسانية في تلمس التوحيد الذي فُطِرَ عليه الإنسان، والمركوز في أعماقه، وهذا لا يحمل على نفي أي دور للعقل في تلقي الحقائق الإيمانية، وتمييز خير العقائد التي تستحق وتناسب الإنسان[58]، فالعقل مناط التكليف، وهو آلة الاستيعاب والفهم والتنزيل الواقعي، ويرى فريق من العلماء أن أول الواجبات على الإنسان النظر الذي يتم به كمعرفة الله تعالى وتلقي التكليف[59]، إلا أن الندوي أنكر المبالغة والاستغراق في بحث العقل عن الإثبات والدلائل العقلية كمعيار للإثبات في المسائل المتعلقة بما وراء الطبيعة، مما لا مجال للعقل أن يحيط به.

ويدلل الندوي على رأيه، بأن هذا هو السر الذي جعل الكتب الدينية لا تختار الخطاب بالحجج المنطقية، وطريق الاستدلال الفلسفي إلا نادرا، فإنها تركز كليا على الأحاسيس والعواطف التي تتولد منها، بل إنها تؤكد وتحث من حين لآخر على عدم تناول المسائل الإلهية والخوض فيها بالتفكير العقلي، قال تعالى:﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[60]، وحين سَأَلَ الناسُ عن الروح، لفت القرآن الكريم انتباههم بقوله:﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[61]، فذكرهم بمحدودية نَظَرِهم العقلي[62].

فالأسلوب القرآني في الاستدلال عند الندوي يصرف الانتباه لغرس العقيدة الإلهية، مما يصدر عن حيرة للعقل الإنساني، من خلال دعوته للنظر في السموات والأرض، والنفس، وفي

آثار السابقين للاعتبار، فينادي الإنسان من خلال شعوره بعظمة الخلق التي تفوق قدراته فهما واستيعابا؛ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾[63]، وهو نداء يصور ما حصل من ثمار التعظيم والإجلال كثمرة للنظر والتأمل فيما حوله من آيات كونية[64].

وظاهِرُ موقف الندوي هو التأثر الشديد بالواقع الذي كان يعيشه، من ولوع الكثيرين وافتتانهم بالعلم والفلسفة، مما جعله أحيانا يتخذ موقفا مقابلا بالكلية، يبرُزُ فيه أثر رَدّ فعلهِ تجاه تلك النزعة العقلية، فقوله أن الكتب الدينية لا تختار الحجج العقلية إلا نادرا لا يسلم به، فقد ساق القرآن الكريم العديد من الدلائل العقلية، والبراهين المنطقية، وكثيرا ما خاطب الإنسان بالاستفهام الاستنكاري لغفلته عن استعمال عقله، بقوله تعالى :﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[65]، وقوله عز من قائل:﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[66]، وقولهﷻ في سورة يوسف:﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[67]، وقوله أيضا:﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[68]، كما كان العقل محل إشادة وتنويه في القرآن العظيم بصيغ مختلفة ومتكررة، بكلمة:﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ و﴿أُولِي النُّهَى ﴾؛ أي أصحاب العقول[69]، وهي دعوة صريحة لإعمال العقول تدبراً في آيات الأنفس والآفاق، وفي آيات كتاب الله العزيز[70].

كما ينكرُ الندوي على المتكلمين وقوعهم في خداع عقولهم، حين يصرفون جهودهم واهتمامهم، عن مقاصد تلك الآيات، إلى إتباع منهجهم في التناول والدراسة، بتأليف الكتب حول علم الهيئة انطلاقا من قوله تعالى:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[71]، وإلى تحصيل علم النفس انطلاقاً من قوله تعالى:﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[72]، والى دراسة التاريخ والتحقيق في آثاره من قوله:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[73]، والحقيقة أن القرآن لا يعارض تحصيل هذه العلوم وتعلمها وتعليمها، ولكن ليس من وظيفته أن يؤيدهما أو يدافع عنهما، بل الهدف هو خَلقُ الاعتقادِ والإيمانِ الإجمالي بعظمة وغرابة هذه الأمور، لإيقاظ الإنسان من غفلته، ودعوته للإيمان واليقين، والخوف والرجاء، وشعوره بالافتقار والحاجة والرغبة لله رب العالمين، فالدين إذاً يناشد إلى أقصى حد العواطف والعقل العملي[74]، بدلا من اللجوء إلى الاستدلال الميتافيزيقي ومخاطبة العقل النظري[75].

والخلاصة أن الندوي يذهب إلى أن الجانب العقائدي الغيبي، لا قبل للإنسان بالنظر فيه، وهو خارج عن دائرة قدرتهِ المحدودة، وقد عبر عن هذا المعنى بشكل بليغ العالم باسكال بقوله: إن العقل يستطيع بما لديه من أفكار فطرية أولية أن يدرك الحق فيما يتعلق بالمبادئ الأولى، ومنها وجود الله تعالى، أما ما وراء ذلك من أسرار وتفاصيل الوجود والخلق والخالق الغيبية، فنحن عاجزون عن إدراك كنهها، لأن حواسنا لا تدرك غايات الأشياء، فالصوت المرتفع يصم، والنور المفرط يغشي الأبصار، والبعد أو القرب يمنعنا من الرؤية، وعقولنا تعجز وترتبك عند التفكير في الغايات، فعلى الإنسان أن يعيَّ ضآلته بالنسبة للعالم، وما وراءه من عوالم، وعلينا أن نستيقظ و"نعلم إذاً قَدْرَنَا فإننا بعض الشيء، ولسنا كل شيء، ومقام عقلنا في المعقولات، كمقام جسمنا في الامتداد"[76].

حدد الندوي للعقل حدودا دقيقة لا يجب أن يتجاوزها، فهل يعتبر هذا عيبا في العقل وإنقاصا من قيمته وأحكامه؟ يجيبنا ابن خلدون في مقدمته إجابة شافية بأن ذلك ليس بقادح في العقل، فالعقل ميزان صحيح، وأحكامه يقينية لا كذب فيها، لكن لا تطمع بأن تزن به أمور التوحيد، والنبوة، والآخرة، وحقائق الصفات الإلهية وغيرها من الغيبيات، وكل ما وراء طَورِهِ، لأنك حينها تكون كمن يريد أن يزن بميزان الذهب الجبال، فالميزان أحكامه صادقة لكن في حدوده، فالعقل يقف عند حدوده وليس له أن يحيط بالله وصفاته، فإن الإنسان ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه، فتفطن من أن تقدم العقل عن النقل في أمثال هذه القضايا فتقع في الغلط وقصور الفهم[77].

2- علاقة العقل بالجانب العملي في الدين:

يشكل الجانب العملي المتضمن للعبادات والمعاملات والأخلاق جزءا أساسيا من كل الأديان، وهي فرع قائم عن العقيدة، وتَعبِيرٌ عَمَلِيٌ مُتَرجِمٌ لِصِدقِ الخضوع والاستسلام لله رب العالمين، وهو جانب في غاية الأهمية في الدين، فالأخلاق مثلا هي من المقاصد والأهداف الحقيقية للمشرع، لذا وجدنا القرآن لا يفصل بين الإيمان والعمل الصالح، تماما كما أنه لا فصام بين العقيدة والعبادة بمفهومها العام.

والعقل عند الندوي في هذا المجال له صلاحية الترجيح والتفضيل، في كل ما تعلق بمجال الأعمال وأسرار السلوك، ولكنه حتى في هذا المجال لا تعتبر أحكامه نهائية قطعية، فليس بالضرورة أن يستمر كل ما يبدو معارضا للعقل معارض له دائما[78].

وكلام الندوي السابق في غاية الدقة، ويعبر عن فهم محيط بكل متعلقات الاجتهاد البشري، فالعقل يتبوأ منزلة عظيمة في الدور المنوط به، في التنزيل الواقعي للوحي الإلهي المتعالي على الواقع المادي لحياة الإنسان، مما يقتضي فهما واستيعابا للوحي المجرد من جهة، وتكميلا لما تركه من التفاصيل بحسب المتغيرات والمتقلبات، ليجد النقل طريقه للتنفيذ العملي، فالعقل الإنساني وسيلة مبلغة للحق في مجال الكشف والتقدير والمعايرة، إلا أن وصول العقل إلى الحق ليس ضروريا، فهو ليس وسيلة كشف مباشر كما هو حال الدين، بل هو رهين شروط وقيود وحدود في طريق النظر والفكر، حال تتبُّعه لها يصل بالضرورة إلى الحق[79].

ورغم هذا الجهد المحمود للعقل فهو يبقى جهدا منطلقا من معطيات الحس، محدود بحدود المادة والزمان والمكان، مما يجعل محصول العقول – في كل حالها – موصلاً للحق النسبي والخير النسبي، فالمعرفة العقلية في مجال الأشياء لا يتعدى نطاقها حدود الظواهر والآثار، والعقل البشري محكوم بظروف المادة وهو مجال حركته ومنطلق إبداعه، وهذا يبين لنا أنه وإن كان قادرا على تجاوز المادة إلى ما وراءها من حقائق، وقادرا على إصابة الحقيقة في تقدير السلوك الإنساني، إلا أنها قدرةٌ محدودةٌ لا يمكن أن تصيب الحق المطلق[80].

خاتمة

بعد عرضنا لوجهة نظر الشيخ عبد الباري الندوي حول طبيعة العلاقة بين العقل والنقل، نوجز أهم ما توصل إليه، وما أبرز مؤاخذتنا على رأيه، وما هي أهم الفوائد المستفادة من طرحه، فيما يأتي:

1- يرى الندوي أنه على الإنسانية توفير جهدها، من خلال ترشيد قواها، بإعمال العقل في مجال الطبيعيات الواسع، وفي المجال العملي المتعلق بالدين، ببيان أسرار أعمال الشريعة والبحث عنها، وبما يخدم الإنسان في مختلف مناحي حياته، ويحقق ثمار جهده وأهدافه، بعيدا عن عالم الغيب، الذي لا قبل للعقل بالوصول إليه إلا بالوحي.

2- قسم الندوي الجهد العقلي في البحث عن المعارف والحقائق إلى مجالين أساسين هما: العلم والفلسفة، وحدَّد موقفه بناء على هذا التقسيم الدقيق، الشامل لمعياري المنهج والموضوع.

3- أبدع الندوي فيما ذهب إليه من تحييد العلم عن دائرة الخلاف، فقد بين أن فكرة وجود صراع بين الدين والعلم لا أساس لها، ويرى أن الفكرة ذات أصل واقعي، ناتجٌ عن الصراع الذي حدث في أوروبا بين علماء الدين ورجال العلم، والذي ولّدَ فَهماً مَغلوطاً، فالحقيقة أن لكلٍ

من الدين والعلم مجالاً وموضوعاً خاصاً، فلا تداخل أو تعارض بينهما.

4- أن العلاقة بين الدين والفلسفة محتملة الصدام، لأن لكليهما موضوعاً واحداً، ويختلفان في المنهج المتبع والهدف، فالفلسفة تقوم على ملكات وقدرات العقل كوسيلة للبحث، وتهدف إلى إرواء غليل العقل ببحث ما هو فوق الفهم، في حين ينتهج الدين أسلوب التلقي وخطاب المشاعر، ويستهدف الدين تحقيق الإيمان والاعتقاد بما لا يحيط به العقل أو يدركه.

5- أن مختلف المذاهب الفلسفية ليست في تعارض مع الدين، عدا المذهب المادي الذي يعتبر معاديا للدين بشكل مباشر، لكن في الحقيقة هو يختبئ وراء إطلاق اصطلاحي، لا يقدم إجابات واضحة عن حقيقتها ومصدرها، كالطاقة والمادة وقانون الطبيعة... تلتقي في منتهاها لما أقره الدين من عجز عن إدراكها.

6- فَقَدَ مذهب المادية قيمته بعد أن هَزَّ بنيانه المعركة الأساسية حول ماهية المادة نفسها، وغدا المذهب كليا محل شك من حيث الوجود أصلا.

7- محاولة مذهب اللاأدرية التهرب عن الإجابة، واعتزالهم مباحث ما وراء الطبيعة، بإقرارهم بعدم العلم؛ لا يعني أبدا عدم الوجود، بل أن عدم العلم بما يتعلق بما وراء الظواهر ينم عن الاعتقاد بوجود بواطن مخفية، أقروا بها أم أنكروها.

8- يرى الندوي أن المتكلمين من المسلمين أخطأوا حين فسحوا المجال لأنفسهم للتفكر بعقولهم في مجال لا مكان فيه للعقل، مما ولد آثارا سلبية على التصورات والمفاهيم، وعلى مشاعر المؤمن تجاه خالقه، وصار الإله نتيجة لدور علم الكلام ألعوبة لتطرف العقل وتهوره.

9- رأي الندوي المتعلق بعلم الكلام؛ فيه جانب من التجاوز في حق جهود عظيمة بذلها العلماء في الدفاع عن الدين، وما يجوز في معرض العلاج والدفاع قد لا يستسيغه من لا يستحضر السياق التاريخي، والإكراه الواقعي الذي كانوا يعيشونه، في الذود عن حمى الدين بما ورد من شبهات فلسفية قائمة على حجج عقلية.

10- يذهب الندوي إلى أن الإيمان بالله والبعث وغيرها من المسائل في المعتقدات الغيبية، لا يستطيع العقل أن يثبتها أو يبطلها، ولا يملك أدنى سلطة لذلك، فالدين قائم على أساس متين يفوق العقل متانة واستقرارا بحكم قواعده ومبادئه.

11- يشكل الجانب العملي المتضمن للعبادات والمعاملات والأخلاق جزءا أساسيا من كل الأديان، للعقل عند الندوي في هذا المجال له صلاحية الترجيح والتفضيل، في كل ما تعلق

بمجال الأعمال وأسرار السلوك، ولكنه حتى في هذا المجال لا تعتبر أحكامه نهائية قطعية، فليس بالضرورة أن يستمر كل ما يبدو معارضا للعقل معارض له دائما.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن خلدون: عبد الرحمن، المقدمة (ط:1؛ دار القلم: تونس، 1984م).

2- الإيجي: عبد الرحمن بن أحمد عضد الدين، كتاب المواقف، تحقيق : عبد الرحمن عميرة (ط:1 ؛ دار الجيل: بيروت–لبنان، 1997م).

3- بدوي: عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة (ط:1؛ المؤسسة العربية لدراسات والنشر: بيروت–لبنان، 1984م).

4- بن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير (دط؛ الدار التونسية للنشر: تونس، 1984 هـ).

5- بن فارس: أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (دط؛ دار الفكر: دمشق–سوريا، 1979م).

6- بن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب (ط:3، دار صادر – بيروت، 1414ه).

7- البوطي: محمد سعيد رمضان، المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة (ط: 5؛ دار الفكر: دمشق–سوريا، 2015م).

8- جارودي: روجيه، ماهي المادية؟، ترجمة: محمد عيتاني (دط؛ دار المعجم العربي: بيروت–لبنان، دت).

9- الجسر: نديم، قصة الإيمان–بين الفلسفة والعلم والإيمان (ط:3؛ مطابع المكتب الإسلامي: بيروت–لبنان، 1969م).

10- الجوهري: إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار (ط:4؛ دار العلم للملايين: بيروت–لبنان، 1987م.

11- حلمي: مصطفى، الإسلام والمذاهب الفلسفية (ط:1 ؛ دار الكتب العلمية: بيروت–لبنان، 2005م).

12- خان: وحيد الدين، الدين في مواجهة العلم، ترجمة: ظفر الإسلام خان (ط:4؛ دار النفائس: بيروت–لبنان، 1987م).

13- زينب: عبد العزيز، الإلحاد وأسبابه –الصفحة السوداء للكنيسة (ط:1 ؛ دار الكتاب العربي: دمشق–سوريا، 2004م).

14- صليبا: جميل، المعجم الفلسفي(دط؛ دار الكتاب اللبناني: بيروت- لبنان، 1982م) .
15- الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (ط:1؛ مؤسسة الرسالة: القاهرة-مصر، 2000م).
16- عبد الحليم: محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام (دط؛ دار الكتاب اللبناني: بيروت-لبنان، 1958م).
17- عوض: رمسيس، الإلحاد في الغرب (ط:1؛ سينا للنشر: القاهرة-مصر، والانتشار العربي: بيروت-لبنان، 1997م).
18- الغزالي: محمد بن محمد أبو حامد، إحياء علوم الدين (دط؛ دار المعرفة: بيروت-لبنان، دت).
19- الغزالي: محمد بن محمد أبو حامد، المنقذ من الضلال (دط؛ دار الكتب الحديثة: القاهرة-مصر، دت).
20- الغزالي: محمد بن محمد أبو حامد، تهافت الفلاسفة، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا (ط:6؛ دار المعارف: القاهرة – مصر، دت).
21- القرضاوي: يوسف، العقل والعلم في القرآن الكريم (ط:1؛ مكتبة وهبة: القاهرة-مصر، 1996م).
22- مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية الميسرة (ط:1؛ المكتبة العصرية: بيروت-لبنان، 2010م).
23- محمد: فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ط: ؛ دار الحديث : القاهرة – مصر، 1364ه).
24- موسوعة العقائد الإسلامية (ط3؛ دار الحديث للطباعة والنشر: قم-إيران، 1429ه).
25- النجار: عبد المجيد، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل (ط:3 ؛ الدار العربية للعلوم: بيروت-لبنان، 2005م).
26- الندوي : أبو الحسن علي، بين الدين والمدنية (ط:5؛ مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان، 1987م).
27- الندوي: عبد الباري، الدين والقوى العقلية، ترجمة: واضح رشيد الندوي (ط:1؛ دار وحي القلم: دمشق-سوريا، 2003م).

الندوي: عبد الباري، بين التصوف والحياة، ترجمة: محمد الرابع بن رشيد الحسني الندوي (ط:1؛ مكتبة دار الفتح: دمشق-سوريا، 1963م).

ـ الهوامش:

1 الشيخ عبد الباري الندوي (ت1976م) : من خريجي ندوة العلماء بالهند، ضليع بمعرفة علوم الفلسفة القديمة والحديثة وعلم الكلام والتصوف، وباللغة الأردية والفارسية والإنجليزية، دَرَّسَ بكلية دكن في بونا ثم كلية كجرات بأحمد آباد ثم رئيسا دائما لقسم الفلسفة بالجامعة العثمانية بحيدر آباد، من أبرز شيوخه العلامة شبلي النعماني وشير علي الحيدرآبادي، ألف مجموعة من الكتب من أبرزها: الدين والعلم؛ والدين والحياة؛ والدين والقوى العقلية؛ وبين التصوف والحياة؛ والأمة الإسلامية تعيش لصفاتها وخصائصها؛ رجال الفكر والدعوة في الإسلام. وقد وصفت جهوده العلمية بالتميز والدقة ومعاصرة التحديات الواقعية، وقال عنه الأمير حبيب الرحمن الشيرواني وزير الشؤون الدينية بحيدرآباد واصفا جهوده : "لقد أَسلَمَتِ الفلسفة على يديه"؛ انظر: عبد الباري الندوي، الدين والقوى العقلية، ترجمة: واضح رشيد الندوي (ط:1؛ دار وحي القلم: دمشق-سوريا، 2003م)، ص5-6 ؛ وانظر: عبد الباري الندوي، بين التصوف والحياة، ترجمة: محمد الرابع بن رشيد الحسني الندوي (ط:1؛ مكتبة دار الفتح: دمشق-سوريا، 1963م)، ص14.

2 قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي واصفا قدراته بأنه:"استطاع بذكائه، وصلاحيته للتمييز أن يدرك الحدود الفاصلة للفلسفة والعقل، والفارق بين الفلسفة والعلم الذي كان خفيا وحتى على كبار المثقفين والعلماء في ذلك العصر، فكانوا يخلطون بينهما"؛ انظر: المرجع نفسه، ص5-6.

3 إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار (ط:4؛ دار العلم للملايين: بيروت-لبنان، 1987م)، ج5، ص1769.

4 أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (دط؛ دار الفكر: دمشق-سوريا، 1979م)، ج4، ص69.

5 سورة البقرة: الآية 44.

6 محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (ط:1؛ مؤسسة الرسالة: القاهرة-مصر، 2000م)، ج1، ص10.

7 محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ط: ؛ دار الحديث : القاهرة – مصر، 1364هـ)، ص468.

8 أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (دط؛ دار الفكر: دمشق-سوريا، 1979م)، ج5، ص463؛ وانظر: محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب (ط:3، دار صادر – بيروت، 1414ه)، ج11، ص674.

9 عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل (ط:3 ؛ الدار العربية للعلوم: بيروت-لبنان، 2005م)، ص72.

10 عبد الرحمن بن أحمد عضد الدين الإيجي، كتاب المواقف، تحقيق : عبد الرحمن عميرة (ط:1 ؛ دار الجيل:

بيروت-لبنان، 1997م)، ج2، ص87.

11 محمد بن محمد أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين (دط؛ دار المعرفة: بيروت-لبنان، دت)، ج3، ص16.(بتصرف)

12 عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص68-69.

13 تنبيه: أذكر في كثير من الأحيان في هذا المقال من بدايته إلى نهايته، اسم الشيخ عبد الباري الندوي بلقبه اختصارا بـ" الندوي"، فلا يختلط الأمر على القارئ مع من اشتهر به وهو أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى، أو غيره من علماء ندوة العلماء، وحال ذكري لأحدهم سأذكر اسمه كاملا لأنه الاستثناء في هذا المقال.

14 انظر: كتاب الشيخ عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص12 وما بعدها.

15 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص12-14.

16 زينب عبد العزيز، الإلحاد وأسبابه -الصفحة السوداء للكنيسة (ط:1 ؛ دار الكتاب العربي: دمشق-سوريا، 2004م)، ص81-82.

17 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص15-16.

18 وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ترجمة: ظفر الإسلام خان (ط:4؛ دار النفائس: بيروت-لبنان، 1987م)، ص64.

19 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص15-17.(بتصرف)، وانظر: وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص65-67.

20 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص19-21.

21 المرجع نفسه، ص22-23.

22 المرجع نفسه، ص24-25.

23 أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، (دط؛ دار الكتب الحديثة: القاهرة- مصر، دت)، ص182، 199.

24 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص25-26.

25 رمسيس عوض، الإلحاد في الغرب (ط:1؛ سينا للنشر: القاهرة-مصر، والانتشار العربي: بيروت-لبنان، 1997م)، ص58.

26 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص29.

27 عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة (ط:1؛ المؤسسة العربية لدراسات والنشر: بيروت-لبنان، 1984م)، ج2، ص439.

28 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص30.

29 مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية الميسرة (ط:1؛ المكتبة العصرية: بيروت-لبنان، 2010م)، ص2958.

30 روجيه جارودي، ما هي المادية؟، ترجمة: محمد عيتاني (دط؛ دار المعجم العربي: بيروت-لبنان، دت)، ص6.

31 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص31.

32 وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص64-65.

33 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص29-32.

34 رمسيس عوض، المرجع السابق، ص133، 138-139.
35 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص56-59.
36 المرجع نفسه، ص49-51.
37 المرجع نفسه، ص59-60.
38 أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا (ط:6؛ دار المعارف: القاهرة – مصر، دت)، ص154 ؛ وانظر:
39 أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، ص200.
40 يستعمل كثيرا هذا المصطلح أستاذنا الشيخ الدكتور عمار جيدل في محاضراته التي تلقيناها عنه خلال مشوارنا التعليمي؛ وهو أستاذ العقيدة والفرق الإسلامية ومقارنة الأديان كلية العلوم الإسلامية بالخروبة بجامعة الجزائر.
41 عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام (دط؛ دار الكتاب اللبناني: بيروت-لبنان، 1958م)، ص463.
42 مصطفى حلمي، الإسلام والمذاهب الفلسفية (ط:1 ؛ دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، 2005م)، ص128.
43 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص63.
44 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص7.
45 أبو الحسن علي الندوي، بين الدين والمدنية (ط:5؛ مؤسسة الرسالة:بيروت-لبنان، 1987م)، ص22-23.
46 سورة الأنفال: الآية 02.
47 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص69-70
48 ابن خلدون، المقدمة (ط:1؛ دار القلم: تونس، 1984م)، ص557.
49 أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال (دط؛ دار الكتب الحديثة: القاهرة- مصر، دت)، ص118.
50 أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص97.
51 المرجع نفسه، ج1، ص99.(بتصرف)
52 محمد سعيد رمضان البوطي، المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة (ط: 5؛ دار الفكر: دمشق-سوريا، 2015م)، ص29-30.
53 المرجع نفسه، ص41.
54 أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص99.
55 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص59، 61.
56 المرجع نفسه، ص53، 64.
57 عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص70.
58 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص70.
59 الإيجي، المرجع السابق، ج1، ص147.
60 سورة الأنعام: الآية 68.
61 سورة الإسراء: الآية 85.

62 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص64.
63 سورة آل عمران: الآية 191.
64 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص65.
65 سورة يونس : الآية 16 وفي ثلاث عشرة مرة ؛ انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ط: ؛ دار الحديث : القاهرة – مصر، 1364ه)، ص468.
66 سورة الأنبياء: الآية 10.
67 سورة يوسف: الآية 109.
68 سورة المؤمنون : الآية 80.
69 محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (دط؛ الدار التونسية للنشر: تونس، 1984 ه)، ج2، 145.
70 يوسف القرضاوي، العقل والعلم في القرآن الكريم (ط:1؛ مكتبة وهبة: القاهرة–مصر، 1996م)، ص22، 24، 26.
71 سورة البقرة: الآية 64.
72 سورة الذاريات: الآية 21.
73 سورة يوسف: الآية 109.
74 يطلق الفيلسوف "كانط" هذين المصطلحين: "العقل العملي والعقل النظري" على كل ما هو قبلي في الفكر، أي على الملكة العقلية المتعالية التي تتضمن مبادئ المعرفة القبلية المستقلة عن التجربة، فإذا نظرنا إلى العقل من جهة اشتماله على المبادئ القبلية للمدركات العلمية التي تولد فينا بعض المعاني المجردة كمعنى النفس والعالم والله، بهذا المعنى كان عقلا نظريا أو تأمليا، وإذا نظرت إليه من جهة اشتماله على المبادئ القبلية لقواعد الأخلاق التي تولد فينا مسلمات الأخلاق، وخلود النفس، ووجود الله كان من هذه الجهة عقلا عمليا، وهنالك من يرى أنّ العقل هو مبدأ الإدراك، ولا يوجد في هذا الصدد أيّ فارق بين العقل النظري والعقل العملي، وإنّما يكمن الفارق في الهدف؛ فإذا كان الهدف من إدراك الشيء هو معرفته لا العمل به، يُسمّى مبدأ الإدراك حينئذٍ بالعقل النظري، أمّا إذا كان الهدف من الإدراك هو العمل، فيسمّى مبدأ الإدراك عند ذاك بالعقل العملي؛ انظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص89 ؛ وانظر: موسوعة العقائد الإسلامية (ط3؛ دار الحديث للطباعة والنشر: قم–إيران، 1429ه)، ج1، ص165.
75 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص63–68.
76 نديم الجسر، قصة الإيمان–بين الفلسفة والعلم والإيمان (ط:3؛ مطابع المكتب الإسلامي: بيروت–لبنان، 1969م)، ص131 ؛ وانظر: أبو الحسن علي الندوي، بين الدين والمدنية، ص23–24.
77 ابن خلدون، المقدمة (ط:1؛ دار القلم: تونس، 1984م)، ص559.(بتصرف)
78 عبد الباري الندوي، المرجع السابق، ص69، 76.
79 عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص73–74.(بتصرف)
80 المرجع نفسه، ص74–77.

The Dialectic relationship between intellect and revelation according to Abdelbari Nadwi

Bey Ahmed Ameur*

Abstract

This article used to discuss the question of the relationship between intellect and revelation according to the scholar Abdul Bari Nadwi who dealt with that subject , in terms of the huge dispute between philosophers and thinkers .it is a significant topic that Abdul Bari Nadwi is concerned about , he responded to the challenges of his current time, in order to stand against of the modern trends which was influenced by rationality and scientific results that have been achieved in the last two centuries, he was totally oppose putting intellect in metaphysical field. My article stresses the importance of defining the relationship between the intellect and the revelation and both of their fields . Nadwi concluded that there is conflict between science and religion, he shows nature of the relationship between all thought schools and the religion , at the end , he achieved that each one of them has its field.

Key words : intellect, revelation, religion, philosophy, art of discussion.

* Institute of Islamic Sciences - University of El-oued - Algeria.

التقعيد المقاصدي للفتوى

بقلم
أ/ منير يوسف(*)

ملخص

يعالج هذا الموضوع مدى أهمية اعتبار المقاصد الشرعية بالنسبة للفتوى ؛ سواء أكان ذلك متعلقاً باستنباط الحكم الشرعي أو بتنزيله على أرض الواقع وما يحُفُّه من قرائن وأحوال، وهي مسألة تتطلّب درجةً عاليةً من التثبّت والدّقّة والنظر وعلى مستويات عديدة، وقد حرصت في هذه الدراسة أنْ أُبيِّن أهمّ المرتكزات التي تقوم عليها الفتوى بناء على مراعاة مقاصد الشريعة والاعتداد بها، مُبْرِزاً مُسوِّغات هذا المأخذ الأصولي المصلحي بما يُظهِر مدى الحاجة إلى التقعيد المقاصدي للفتوى. كما تمّ التمثيل بفتاوى ثلاثٍ من العبادات والمعاملات حتى يتّضح من خلالها عملياً قيمة اعتبار المقاصد الشرعية عند إصدار الفتاوى، ولا سيما منها ما يتعلق بالفتاوى ذات الصبغة الجماعية لما يترتب عليها من مصلحة أو مفسدة عامة وليست خاصة.

الكلمات المفتاحية: المقاصد الشرعية. الفتوى. التقعيد. المصلحة العامة. المرتكزات.

مقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على إمام المفْتِين، وسيّد العلماء الربانيين، أما بعد:

فإن الفتوى مقامها في الإسلام عظيم، وخطرها على الأمة جسيم، والمقْدِم عليها دون أهليّة واقتدارٍ مُشْرِف على هلاكٍ مبينٍ ؛ ذلك أن « المفتي قائم في الأمة مقام النبي ﷺ. والدليل على ذلك أمور:

أحدها: النقل الشرعي (...)

(*) أستاذ متعاقد بقسم الشريعة ـ جامعة الوادي..
Mouniry_2011@yahoo.fr

والثاني: أنه نائب عنه في تبليغ الأحكام (...).

والثالث: أن المفتي شارع من وجه ؛ لأن ما يبلّغه من الشريعة إما منقول عن صاحبها، وإما مستنبط من المنقول. فالأول يكون فيه مبلّغاً. والثاني يكون فيه قائماً مقامه في إنشاء الأحكام ؛ وإنشاء الأحكام إنما هو للشارع. فإذا كان للمجتهد إنشاء الأحكام بحسب نظره واجتهاده فهو من هذا الوجه شارع، واجب اتّباعه والعمل على وفق ما قاله. وهذه هي الخلافة على التحقيق (...).

وعلى الجملة فالمفتي مُخبِرٌ عن الله كالنبي ﷺ، وموقعٌ للشريعة على أفعال المكلفين بحسب نظره كالنبي ﷺ، ونافذٌ أمره في الأمة بمنشور الخلافة كالنبي ﷺ. ولذلك سمّوا أولي الأمر، وقُرِنت طاعتهم بطاعة الله ورسوله في قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِي الاَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:59]. والأدلة على هذا المعنى كثيرة». [1]

ومن هنا كان الاعتناء بالجانب التأصيلي والتقعيدي للفتوى على درجة بالغة من الأهمية في ظني ؛ لأنه يُمكّن المفتي من الضبط الجيّد لما هو بصدد إصداره من الفتاوى الشرعية.

وقد تظافرت جهود العلماء وتوالَت في تحصين الفتوى بجملةٍ من الشروط حتى لا تكون مَرْتعاً لكل من تُسوِّل له نفسه التقوّل على الله بغير علم.

غير أن الذي لَفَتَ انتباهي قلّة العناية بمقاصد الشريعة كأحد شروط المجتهد، اللّهمّ إلا ما جادت به اجتهادات بعض العلماء كالإمام الشاطبي الذي أعتبره متفرّداً ومتميزاً في العناية بهذا الجانب بالنسبة للفتوى، ومن المعاصرين ما ذكره الشيخ القرضاوي في كتبه، وخاصة منها كتاب: "الفتاوى الشاذة".

لذا ارتأيت تناول مسألة الإلمام بمقاصد الشريعة كأحد شروط المفتي، وقد اخترت لها العنوان التالي: " التقعيد المقاصدي للفتوى ".

فهل الفتوى في حاجة إلى التقعيد المقاصدي ؟ وما هي مظاهر ذاك الاحتياج ؟ وما هي المرتكزات التي يقوم عليها التقعيد المقاصدي للفتوى ؟.

وللإجابة عن هذه الإشكالات وغيرها قسّمت عناصر البحث إلى مطالب أربع كالتالي:

المطلب الأول: تعريف التقعيد المقاصدي للفتوى

المطلب الثاني: الحاجة إلى التقعيد المقاصدي للفتوى

المطلب الثالث: مرتكزات التقعيد المقاصدي للفتوى

المطلب الرابع: مسائل تطبيقية

المطلب الأول: تعريف التقعيد المقاصدي للفتوى

التقعيد المقاصدي للفتوى مصطلح مركّب من كلمات ثلاث: التقعيد، المقاصد، الفتوى. لذا سأقوم بتعريف كل مصطلح على حِدَة، ومن ثمَّ أخلص إلى تعريف التقعيد المقاصدي للفتوى.

أ/ تعريف التقعيد لغة واصطلاحا:

. التّقعيد لغة: مأخوذ من القاعدة ؛ وهي: أصل الأُسِّ، والقواعد: الإِسَاسُ، وقواعد البيت إِسَاسُهُ أو آسَاسُهُ.[2]

. التقعيد اصطلاحا: التقعيد هو مصدر قَعَّدَ، يُقَعِّدُ، تقعيداً. وهو فعل مشتق من كلمة قاعدة.

وقد وجدت تعريفاً للتقعيد الفقهي قريباً مما أقصده بالتعريف المقاصدي. يعني بإضافته إلى الفقه. وهو: "صياغة الفقه قواعد وكليات تضبط فروعه وجزئياته ".[3]

ب/ تعريف الفتوى لغة واصطلاحا:

. الفتوى لغة: ذكر ابن فارس في مادة "فَتَىَ" أن الفاء والتاء والحرف المعتلّ أصلان: أحدهما يدل على طَرَاوَةٍ وجِدَّةٍ، والآخر على تبيين الحكم.

يقال: أَفْتَى الفقيه في المسألة إذا بَيَّن حكمها، ويقال: أَفْتَاهُ في الأمر: أَبَانَه له. وأَفْتَيْتُهُ في مسألته: إذا أَجَبْتُه عنها. والاسم: الفَتْوَى والْفُتْيَا. والفُتْيَا والفُتْوَى والفَتْوَى: ما أَفْتَى به الفقيه.[4]

فالفتوى لغةً بمعنى الإبانة والإجابة عن السؤال.

. الفتوى اصطلاحا: الفتوى عرّفت بعدة تعريفات، منها:

. « الإفتاء هو إخبار بحكم الله تعالى عن دليل شرعي لمن سأل عنه في أمر نازل.»[5]

. « بيان الحكم الشرعي في قضية من القضايا جواباً عن سؤال سائلٍ، معيّنٍ كان أو مبهمٍ، فرد أو جماعة. »[6]

وهذان التعريفان يُبْرِزان أن مقام الإفتاء بالغ الخطورة ؛ لأنه إخبار عن حكم الله تعالى، وهو الذي جعل الراسخين في العلم يَهابُون دائماً الإقدام على الفتوى.

ج/ تعريف المقاصد لغة واصطلاحا:

. المقاصد لغة: المقاصد جمع: قَصْد، وله معانٍ لغوية كثيرة، منها:

استقامة الطريق. العدل. الاعتماد. الأَمُّ.

والقَصْدُ إتيان الشيء، والقَصْدُ في الشيء خِلاف الإفراط، وهو ما بين الإسراف والتقتير.[7]

.المقاصد اصطلاحا:

ذكر العلماء. وخاصة المعاصرون منهم. تعريفات عديدة للمقاصد تكاد تتطابق في المعنى، وإن اختلفت في المبنى، لذا أختار منها تعريفيْن اثنيْن:

1. « المقاصد هي الغايات التي وُضِعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد. »[8]

2. «المقاصد هي المصالح التي تعود إلى العباد في دنياهم وأخراهم، سواء أكان تحصيلها عن طريق جلب المنافع، أو عن طريق دفع المضار. »[9]

وهذان التعريفان يُبْرِزان أن المقاصد هي روح الشرع وجوهره، وأن الله تعالى ما وضع هذه الشريعة الغرّاء إلا ليحقّق للعباد مصالحهم في عاجل الأمر وآجله، أكان ذلك بجلب المصالح أو بدفع المفاسد.

التقعيد المقاصدي للفتوى:

بعد تعريف: التقعيد المقاصدي للفتوى باعتباره مركّباً إضافياً، سأعرّفه الآن باعتباره لقباً. وهنا أنبّه إلى أنّي لم أجد من عرّفه بهذا الاعتبار، لذا أقترح أن يكون تعريف التقعيد المقاصدي للفتوى كالآتي:

" بناء الفتوى على مقاصد الشرع المتشوّفة إلى تحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد ".

بمعنى: أن تكون الفتوى قائمةً على اعتبار المقاصد الشرعية المستمدّة من الكتاب والسنة، ومُرْتكِزَةً عليها، بما يحقّق للمستفتي مصالحه في عاجل الأمر وآجله. والله أعلم.

ثم إن قولي: "بناء الفتوى على مقاصد الشرع" قصدت به أن تكون الفتوى مُؤَصَّلةً على مقاصد الشريعة ومُنْبَنِيةً عليها، كما سأوضّحه لاحقاً إن شاء الله.

المطلب الثاني : الحاجة إلى التقعيد المقاصدي للفتوى

قبل الحديث عن المرتكزات التي يقوم عليها التقعيد المقاصدي للفتوى حقيق عليّ أن أبيّن الحاجة التي تدعو إلى الأخذ بهذا التقعيد والمُسَوِّغ الذي يبرّر الاعتداد به في الفتوى، وقد ظهر لي أنّها ترتدّ إلى نَوَاحٍ أربعةٍ على التفصيل التالي:

1. تحقّق أهليّة الإفتاء وتحصيلها:

التقعيد المقاصدي للفتوى يُمكِّن المفتي ليصبح أكثر أهليّةً وكفاءةً للفتوى، وقد سلك الإمام الشاطبي مسلكاً متميّزاً بالنسبة لشروط الاجتهاد. والذي تعتبر الفتوى من تجلّياته ومظاهره. فقال: « إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتّصف بوصفيْن ؛ أحدهما: فهم مقاصد الشريعة على

كمالها. والثاني: التمكّن من الاستنباط بناءً على فهمه فيها (...)

فإذا بلغ الإنسان مبلغاً فهم عن الشارع فيه قصده في كل مسألة من مسائل الشريعة، وفي كل باب من أبوابها، فقد حصل له وصفٌ هو السبب في تنزّله منزلة الخليفة للنبي ﷺ في التعليم والفتيا والحكم بما أراه الله.

وأما الثاني [يقصد شرط التمكّن من الاستنباط بناء على فهمه مقاصد الشريعة] فهو كالخادم للأول ؛ فإن التمكّن من ذلك إنما هو بواسطة معارف محتاج إليها في فهم الشريعة أولاً، ومن هنا كان خادماً للأول، وفي استنباط الأحكام ثانياً، لكن لا تظهر ثمرة الفهم إلا في الاستنباط، فلذلك جعل شرطاً ثانياً. وإنما كان الأول هو السبب في بلوغ هذه المرتبة لأنه المقصود، والثاني وسيلة.»[10]

والقدر الذي يحتاجه المجتهد من مقاصد الشريعة هو الذي يمكّنه من استخلاص تلك المقاصد من الكتاب والسنة متوسّلاً بطرق الكشف عن المقاصد التي ذكرها العلماء، ولا سِيمَا الإمامان الشاطبي وابن عاشور، يضاف إلى ذلك ضرورة التمكّن من التفريق بين المقاصد الكلية والجزئية والأصلية والتبعية والقطعية والظنية والحقيقية والوهمية، وكذا العلاقة بين المقاصد والوسائل، وهذا كله وغيره مما يتعلق بعلم المقاصد سيمكّن المجتهد من إدراك غايات الشريعة الكلية وحسن الربط بين النصوص ومقاصدها وعمق الفهم عموما.[11]

وتزداد أهمية التقعيد المقاصدي للفتوى في المسائل الحادثة (النَّوازِل) التي لا نصّ فيها ولا إجماع ولا قياس، ممّا يكفل لشريعة الإسلام دَيْمُومَتَهَا وصَلاحَها لكل الأزمنة والأمكنة، يقول الإمام ابن عاشور ـ في معرض حديثه عن النواحي التي يحتاج فيها الفقيه إلى مقاصد الشريعة ـ:

«النحو الرابع: إعطاء حكم لفعل أو حادث حدث للناس لا يُعرَف حكمه فيما لاَحَ للمجتهدين من أدلة الشريعة، ولا له نظير يقاس عليه (...)

أما في النحو الرابع فاحتياجه فيه ظاهر. وهو الكفيل بدوام أحكام الشريعة الإسلامية للعصور والأجيال التي أتت بعد عصر الشارع، والتي تأتي إلى انقضاء الدنيا.»[12]

فكلّما كان المفتي مُلِمّاً بمقاصد الشريعة، ومُحصِّلاً لمباحثها، ومُتمَكِّناً من التمييز بين مسائلها، كان ذلك أَدْعَى إلى أهليّته للفتوى أكثر من غيره ممّن لم يَنحُ نحوه ؛ لأن مقام الفتوى غاية في الخطورة والأهمّية ولاسِيمَا في الحوادث والنوازل التي تقع للناس تَبَعاً لتغيّر الزمان والمكان وتبدّل الظروف والأحوال.

2. ترشيد الفتوى:

إن الفتوى كلما كانت مستندةً إلى مقاصد الشريعة ومقعّدةً على أساسها كان ذلك أدْعَى إلى صوابها وصحّتها وأبعدَ لها عن الخطإ والشذوذ ؛ يقول الإمام الشاطبي بعد أن ساق آثاراً كثيرةً تحذّر من زلّة العالم: «... وهذا كله وما أشبهه دليل على طلب الحَذَر من زلّة العالم. وأكثر ما تكون عند الغفلة عن اعتبار مقاصد الشرع في ذلك المعنى الذي اجتهد فيه، والوقوف دون أقصى المبالغة في البحث عن النصوص فيها ؛ وهو وإن كان على غير قصد ولا تعمّد وصاحبه معذور ومأجور لكن مما ينبني عليه في الاتباع لقوله فيه خطر عظيم (...).

وهكذا الحكم مستمر في زلّته في الفتيا من باب أولى، فإنه ربما خفي على العالم بعض السنة أو بعض المقاصد العامة في خصوص مسألته، فيفضي ذلك إلى أن يصير قوله شرعاً يُتقلّد، وقولاً يُعتبَر في مسائل الخلاف، فربما رجع عنه وتبيّن له الحق، فيفوته تدارك ما سار في البلاد عنه ويضل عنه تلافيه، فمن هنا قالوا: زلّة العالم مضروب بها الطبل. »[13]

ويؤكّد الإمام ابن عاشور على هذا المعنى فيقول: «وفيه ما يعرّفك بأن أكثر المجتهدين إصابةً، وأكثر صواب المجتهد الواحد في اجتهاداته يكونان على مقياس غَوْصه في تطلّب مقاصد الشريعة. »[14]

ولهذا كان المفتي الذي يراعي مقاصد الشريعة في الفتوى ويقعّدها بناءً عليها أكثر قرباً إلى الصواب للأدلة التي ذكرها العلماء آنفاً، وهذا ما يُعرِّفك بمدى خطإ وشذوذ بعض الفتاوى المعاصرة[15]. والتي تصدر بين عشيّة وضُحاها دون تَثَبُّتٍ أو تَمْحِيصٍ أو نظرٍ في مآلاتها وآثارها الخاصة والعامة. نتيجة إهمال هذه المسألة وإغفالها. والله أعلم.

3. مراعاة المصلحة في الفتوى باعتدال:

القول بأن الفتوى يجب أن تكون مقعّدةً ومؤصّلةً من الناحية المقاصدية لا يعني إهمال النصوص الشرعية وتجاوزها، أو الفتوى بناءً على المصلحة ولو صادمت نصًّا ثابتاً، بل ينبغي أن يكون الأمر على وِزَانٍ واحدٍ لا تُهمَل فيه النصوص ولا تُغفَل فيه المقاصد والمصالح.

وقد وُجِد في المعاصرين من حَمَلَ كلام الإمام الشاطبي. في اشتراط المقاصد للمجتهد. على غير مَحْمَلِه وما سِيقَ له أصالةً ؛ مُدّعياً أن الإمام الشاطبي لا يشترط لإدراك مقاصد الشرع العلم بالوسائل، بل إن الاجتهاد العام مفتوح أمام جميع المكلفين حيث تصبح تصرفات المكلف المبنية على المقاصد الأصلية. أي الشكل الكلي للخير العام. كلها عبادات.[16]

أي أن الشاطبي بَنَى رأيه على إدراك المقاصد في فهم المصلحة وتحصيلها وليس على وسائل الاستنباط الأصولية الخاصة بـ (الاجتهاد الخاص).[17]

وهذا كلام غير مقبولٍ ولا مستساغٍ شرعاً ولا عقلاً ؛ ذلك أن الاجتهاد. باعتباره عملاً فكرياً وجهداً عقلياً معتبراً وشاقاً. لا بدّ فيه من أهليّة وكفاءة واقتدار لا سِيَمَا حين يتعلق الأمر بإصدار الفتاوى العامة مما يزيد من التأكيد على ضرورة التشدّد وزيادة الضبط بالنسبة لشروط المجتهد. وإلا صارت الشريعة مرتعاً للعب واللهو.[18]

ثم إن إثبات مقصد شرعي ليس بالأمر الهيّن حتى يكون في مقدور أيّ مكلّفٍ إدراكه ومعرفته. يقول الإمام ابن عاشور: « على الباحث في مقاصد الشريعة أن يطيل التأمّل ويجيد التثبّت في إثبات مقصد شرعي. وإيّاه والتساهل والتسرّع في ذلك ؛ لأن تعيين مقصد شرعي كلّي أو جزئي أمرٌ تتفرّع عنه أدلة وأحكام كثيرة في الاستنباط. ففي الخطإ فيه خطر عظيم.

فعليه أن لا يعيّن مقصداً شرعياً إلا بعد استقراء تصرفات الشريعة في النوع الذي يريد انتزاع المقصد الشرعي منه، وبعد اقتفاء آثار أئمة الفقه ليستضيء بأفهامهم، وما حصل لهم من ممارسة قواعد الشرع، فإنْ هو فعل ذلك اكتسب قوة استنباط يَفهم بها مقصود الشارع. »[19]

وبالتالي فإن المسألة ليست بسيطةً أو سهلةً، بل تتطلب إحاطةً علميةً بخصوص الواقعة محل الاستفتاء، ولن يتأتّى هذا إلا بعد استكمال شروط الاجتهاد والفتوى، وليس ذلك من شأن العوام إطلاقاً.

إضافةً إلى أن الانسياق وراء هذه الدعوى التي ترفع من شأن المقاصد والمصالح ولو على حساب النصوص الشرعية الثابتة من شأنه إسقاط قدسية تلك النصوص والتحلّل من أحكامها وتعطيلها، ولا يخفى ما في هذا المسلك من خطرٍ كبيرٍ وشرّ مستطيرٍ ؛ « ذلك أن قضية المقاصد أو التوسّع بالرؤية والاجتهاد المقاصدي دون ضوابط منهجية وثوابت شرعية يمكن أن تشكّل منزلقاً خطيراً ينتهي بصاحبه إلى التحلّل من أحكام الشريعة، أو تعطيل أحكامها باسم المصالح، ومحاصرة النصوص باسم المصالح، واختلاط مفهوم المصالح بمفهوم الضرورات، في محاولة لإباحة المحظورات، فتوقف الأحكام الشرعية تارة باسم الضرورة، وتارة باسم تحقيق المصلحة، وتارة تحت عنوان النزوع إلى تطبيق روح الشريعة لتحقيق المصلحة، فيُستبَاح الحرام، وتوهَّن القِيَم، وتُغيَّر الأحكام وتُعطَّل، ويبدأ الاجتهاد خارج النصوص، ومن ثم يبرز التفسير المتعسّف للنصوص من هذا الاجتهاد الخارجي، وكأن النصوص في الكتاب والسنة التي ما شرِعت إلا لتحقيق المصالح،

وكانت الدليل والسبيل لبناء الاجتهاد المقاصدي، إذْ بها تتحوّل لتصبح هي العقبة أمام تحقيق المصالح وأن تعطيل المصالح كان بسبب تطبيقها لذلك لا بدّ من إيقافها والخروج عليها في محاولة لفصل العقل عن مرجعيّة الوحي، واستقلاله بتقدير المصالح والمفاسد، والتحسين والتقبيح، بحيث يصبح مقابلاً للوحي، بدل أن يكون قسيماً له مهتدياً به، منطلقاً منه. »[20]

فاتّضح بهذا أنّ مدار الأمر في مراعاة المصلحة هو التوسّط والاعتدال فيها دون إفراطٍ أو تفريطٍ. والله أعلم.

4. حمل المستفتي على الامتثال الطوعي لأحكام الشرع:

هذه المسألة تندرج ضمن ما يُسمّى: "محاسن الفتوى" ؛ وهي منهجٌ قرآنيٌّ وهَدْيٌ نبويٌّ، ومن شأنه أن يجعل المستفتي أكثر إقبالاً على العمل بالفتوى عند إعلامه بما يتضمّنه الحكم من مقاصد شرعية جليلة، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى في شأن الصلاة:﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت:]. وقوله تعالى في شأن الزكاة:﴿ خُذْ مِنَ اَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:103].

وقد بيّن الإمام ابن القيّم هذه المسألة فقال: « ينبغي للمفتي أن يذكر دليل الحكم، ومأخذه ما أمكنه من ذلك، ولا يلقيه إلى المستفتي ساذجاً مجرّداً عن دليله ومأخذه، فهذا لِضِيقِ عَطَنِه، وقلة بضاعته من العلم، ومن تأمّل فتاوى النبي ﷺ الذي قوله حجّة بنفسه، رآها مشتملةً على التنبيه على حِكْمَة الحكم ونظيره، ووجه مشروعيته (...) ومن هذا قوله:﴿ لاَ تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا، وَلاَ عَلَى خَالَتِهَا، فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ قَطَعْتُمْ أَرْحَامَكُمْ.﴾[21]

والمقصود أن الشارع مع كون قوله حجّة بنفسه يرشد الأمة إلى عِلل الأحكام ومداركها وحِكمها فوَرَثَته من بعده كذلك (...) فينبغي للمفتي أن ينبّه السائل على عِلّة الحكم، ومأخذه إن عرف ذلك وإلا حُرِّم عليه أن يفتي بلا علم. »[22]

وقد نظر الإمام الغزالي إلى هذه المسألة من زاوية قَبول المكلف للحكم ومسارعته للاستجابة فقال: « معرفة باعث الشرع ومصلحة الحكم استمالة للقلوب إلى الطمأنينة والقبول بالطبع، والمسارعة إلى التصديق. فإن النفوس إلى قبول الأحكام المعقولة الجارية على ذوق المصالح أَمْيَل منها إلى قهر التحكّم ومرارة التعبّد. ولمثل هذا الغرض استُحِبّ الوعظ وذكر محاسن الشريعة ولطائف معانيها. وكون المصلحة مطابقة للنص، وعلى قدر حدّه يزيدها حسناً وتأكيداً. »[23]

وبهذا الخصوص كانت اجتهادات العلماء في بيان مصالح النصوص والأحكام، حتى يُقْدِم

المكلف على الامتثال لها بكل طواعية واختيار، مطمئنًّا بها قلبه، منشرحاً لها صدره، رَضِيَّةً بها نفسه.

وفي إغفال هذه القضية أو التغافل عنها أثر كبير على أفعال المكلف، إذ تغدو هذه الأفعال مجرّد حركات أو أعمال شكلية لا روح فيها، كونها خالية عن الالتفات إلى مصالح النصوص ومقاصد الأحكام.

« وحين يتسرّب إلى العقل المسلم تصوّر بأن الأحكام قد تخلو عن المقصد إما لأنها تعبّدية، أو لأن البحث عن المقصد لا طائل تحته فالمهم تنفيذ المطلوب، أو لأنه لا داعي للبحث عن تلازم بين الحكم ومقصده فإن ضرراً بالغاً يصيب تصوّر الإنسان لفعله . الذي هو موضع إيقاع الحكم . وسوف يضطرب وتضطرب معه نظرة الإنسان لإرادته ولقيمة فعله ومصدر تقويم ذلك الفعل.»[24]

ولذلك لا بد من التّنبُّه إلى أن ربط الفتوى بمقصدها الشرعي أمرٌ في غاية الأهمية وله أثرٌ بالغٌ في تَلقِّي تلك الفتوى والإقبال عليها والمسارعة إلى الامتثال لها بكلّ انشراحٍ وطمأنينة. والله أعلم.

المطلب الثالث: مرتكزات التقعيد المقاصدي للفتوى

الذي أعنيه بالمرتكزات: "الأسس التي يقوم عليها التقعيد المقاصدي للفتوى"، والتي تجعل الفتوى ذات صبغة مقاصدية تأصيلاً وتطبيقاً وتلقياً. وقد حاولت ذكر أهمّ المرتكزات في نظري على النحو التالي:

1. الوسطية في الفتوى:

هذا المرتكز متأصّل قرآناً وسنةً، ولا أدلّ على ذلك من جَعْلِه سِمَةَ أمة الإسلام عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً ومنهج حياة، قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة:143].

يقول الإمام الشاطبي.مقرّراً هذا الأصل المقاصدي.: « الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفيْن بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال. »[25]

ومُسايرَةً لهذا الأصل يجب أن تكون الفتوى قائمة على الوسطية والاعتدال دون أن يسلك بها المفتي مسلك التضييق والتشديد ولا مسلك التساهل والانحلال، بل يجري على وفق ما جاءت به الشريعة من التوسّط والاستقامة والعدل.

ف: « المفتي البالغ ذِروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدّة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال.

والدليل على صحة هذا أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة، فإنه قد مرّ أن مقصد الشارع من المكلف الحملُ على التوسّط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموماً عند العلماء الراسخين.

وأيضاً فإن هذا المذهب كان المفهوم من شأن رسول الله ﷺ وأصحابه الأكرمين (...)

وأيضاً فإن الخروج إلى الأطراف خارج عن العدل، ولا تقوم به مصلحة الخلق: أما في طرف التشديد فإنه مَهْلَكَة، وأما في طرف الانحلال فكذلك أيضاً ؛ لأن المستفتي إذا ذُهِب به مذهب العَنَت والحرج بغض إليه الدين، وأدّى إلى الانقطاع عن سلوك طرق الآخرة. وهو مشاهد. وأما إذا ذهب به مذهب الانحلال كان مظنّة للمشي مع الهوى والشهوة، والشرع إنما جاء بالنهي عن الهوى، واتبّاع الهوى مُهلِك. »[26]

فالمفتي لا ينساق وراء هوى المستفتي وشهواته، بل يتّخذ من الوسطية منهجاً في فتاويه دون جنوحٍ بها إلى جانب الإفراط أو التفريط.

« فعلى هذا يكون المَيْل إلى الرخص في الفتوى بإطلاق مُضاداً للمشي على التوسّط، كما أن المَيْل إلى التشديد مُضادّ له أيضاً.

وربما فهم بعض الناس أن ترك الترخّص تشديد، فلا يجعل بينهما وسطاً وهذا غلط، والوسط هو معظم الشريعة وأمّ الكتاب. ومن تأمّل موارد الأحكام بالاستقراء التامّ عرف ذلك. وأكثرُ من هذا شأنه من أهل الانتماء إلى العلم يتعلق بالخلاف الوارد في المسائل العلمية، بحيث يتحرّى الفتوى بالقول الذي يوافق هوى المستفتي، بناء منه على أن الفتوى بالقول المخالف لهواه تشديد عليه وحرج في حقّه وأن الخلاف إنما كان رحمة لهذا المعنى، وليس بين التشديد والتخفيف واسطة. وهذا قلب للمعنى المقصود في الشريعة. وقد تقدّم أن اتّباع الهوى ليس من المشقّات التي يترخّص بسببها، وأن الخلاف إنما هو رحمة من جهة أخرى، وأن الشريعة حَمْلٌ على التوسّط: لا على مطلق التخفيف، وإلا لزم ارتفاع مطلق التكليف من حيث هو حرج ومخالف للهوى، ولا على مطلق التشديد. فليأخذ الموفق في هذا الموضوع حَذَرَه، فإنه مَزَلّة قدم على وضوح الأمر فيه. »[27]

فالمفتي إذاً مُطالَب بأن يتجنّب الغلوّ والتشديد والتضييق من جهة، ومُطالَب كذلك بتجنّب التيسير والترخيص والتساهل المُفضِي إلى التحلّل من أحكام الشرع من جهة أخرى. يقول الإمام

ابن عاشور: « ويجب على المستنبطين والمفتين أن يتجنّبوا مواقع الغلوّ والتعمّق في حمل الأمة على الشريعة، وما يُسَنّ لها من ذلك. وهو موقف عظيم. »[28]

وفي شأن التساهل في الفتوى يقول الشيخ جمال الدين القاسمي: « يحرّم التساهل في الفتوى، ومن عُرِف به حُرّم استفتاؤه (...) ومن التساهل أن تحمله الأغراض الفاسدة على تتبّع الحِيَل المحرمة أو المكروهة طلباً للترخّص لمن يَرُوم نفعه أو التغليظ على من يريد ضرّه. »[29]

2. مراعاة مآلات الفتوى:

النظر في المآل واعتباره يُعدّ من أهمّ مرتكزات التقعيد المقاصدي للفتوى ؛ كونه على صلةٍ وُثقَى ومباشرة بما يُفضِي إليه تطبيق الحكم من نتائج، وهو من الأصول المقصودة والمعتبرة شرعاً.

يقول الإمام الشاطبي: « النظر في مآلات الأفعال مُعتبرٌ مقصودٌ شرعاً كانت الأفعال موافقةً أم مخالفةً. وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل ؛ فقد يكون مشروعاً لمصلحة فيه تُستجلَب، أو لمفسدة تُدرَأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه ؛ وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك. فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية فربما أدّى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعاً من إطلاق القول بالمشروعية ؛ وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية ربما أدّى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد، فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد إلا أنه عَذْبُ المذاق، محمود الغِبّ، جارٍ على مقاصد الشريعة. »[30]

وقد ذكر الإمام الشاطبي أن هذا الأصل المقاصدي تندرج تحته قواعد شرعية عديدة معتبرة، منها: قاعدة سد الذرائع. قاعدة الاستحسان. قاعدة الحِيل. قاعدة مراعاة الخلاف.

وهذه القواعد كلها لها حظّ من الاعتداد والاعتبار في التقعيد المقاصدي للفتوى.

والقول بأن اعتبار المآل من مرتكزات التقعيد المقاصدي للفتوى تأكيدٌ على أن الاجتهاد في التطبيق لا يقل خطراً وأهميةً عن الاجتهاد في الاستنباط، لأنه يتعلق بالثمرات الواقعية والآثار العملية في حياة الأمة، وهي الغاية القصوى من التشريع كله.

ثم إن الظروف المُحتفَّة بالواقعة لها أثر كبير في تكييف التطبيق والتبصير بمسالكه، بل وفي تشكيل علة الحكم الشرعي في ظل تلك الظروف.

وخير ما يُمثَّل به بهذا الخصوص اجتهادات عمر بن الخطاب ﷺ فيما فيه نص وفيما لا نصّ

فيه، والتي تُعَدّ من صور الاجتهاد بالرأي القائم على تفهّم النص ومراميه وتفهّم الوقائع نفسها بظروفها وأحوالها، وتكييف تطبيق النص على نحوٍ لا يناقض هدفه، أو روح التشريع العامة، أو مصلحة الأمة.[31]

لذا كان الواجب على المفتي قبل أن يصدر فتواه مراعاة مآلها والتأكّد مما تُفضي إليه من حيث تحقيق المصلحة أو درء المفسدة والموازنة بينهما، حتى تكون الفتوى على وفق ما يتشوّف الشرع إلى تحقيقه من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وخاصة الفتاوى ذات الصّبغة العامة أين يكون الصلاح أو الفساد المترتب عليها عاماً لا خاصاً، وهذا هو مَكْمن الخطورة في الفتوى إذا أُهْمِلَ اعتبار المآل والاعتداد به. والله أعلم.

3. مراعاة العوائد والأعراف:

هذا المرتكز على درجة بالغة من الأهمية ـ في نظري ـ بالنسبة للتقعيد المقاصدي للفتوى، وإهماله أو إغفاله في الفتوى تترتب عنه نتائج في غاية السوء والضرر وخاصة لعموم الناس ؛ ذلك أن العوائد التي لا مناقضة أو معارضة فيها للشرع تُعمَل عند إجراء الأحكام على من كانت تلك العوائد بينهم، ويؤصّل الإمام الشاطبي هذا المعنى فيقول: « لما قطعنا بأن الشارع جاء باعتبار المصالح، لزم القطع بأنه لا بدّ من اعتباره العوائد، لأنه إذا كان التشريع على وزانٍ واحد، دلّ على جريان المصالح على ذلك، لأن أصل التشريع سبب المصالح، والتشريع دائم كما تقدم. فالمصالح كذلك. وهو معنى اعتباره للعادات في التشريع. »[32]

وقد نبّه الإمام القرافي إلى اعتبار هذا المرتكز في الفتوى بصفةٍ خاصةٍ فقال: «... وعلى هذا القانون تُرَاعى الفتاوى على طول الأيام، فمهما تجدّد في العرف اعتبره ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجلٌ من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تُجْرِهِ على عُرف بلدك، واسأله عن عُرف بلده وأَجْرِهِ عليه وأَفْتِهِ به دون عُرف بلدك، والمقرّر في كتبك. فهذا هو الحق الواضح والجمود على المنقولات أبداً ضلالٌ في الدين وجهلٌ بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين، وعلى هذه القاعدة تتخرّج أيمان الطلاق والعتاق وصيغ الصرائح والكنايات. »[33]

ولله دَرّ الإمام القرافي ما أبصرَه بفقه المقاصد ؛ إذ إنّ كلامه هذا ينطبق تماماً على مآل الفتوى في أيامنا هذه وخاصةً في ظل انتشارها بسرعة نتيجة الاستعمال الواسع لوسائل الإعلام والاتصال، وكيف جَنَت فتاوى القنوات الفضائية بالأخصّ على كثير من الناس في العلاقات الأسرية

والقضايا الاجتماعية والمعاملات المالية وغيرها، وهذا كله نتيجة تغييب اعتبار الأعراف والعوائد وإعمالها في إصدار الفتاوى.

ثمّ إنّ القول بتغيّر الأحكام الشرعية تبعاً لتغيّر العوائد لا يعني أبداً أن الخطاب الشرعي فيه اختلاف أو ازدواجية في أحكامه، «... واعلم أن ماجرى ذكره هنا من اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد فليس في الحقيقة باختلاف في أصل الخطاب ؛ لأن الشرع موضوع على أنه دائمٌ أبديٌّ، لو فُرِض بقاء الدنيا من غير نهاية والتكليف كذلك، لم يحتج في الشرع إلى مزيدٍ. وإنما معنى الاختلاف أن العوائد إذا اختلفت رجعت كل عادة إلى أصل شرعي يحكم به عليها ؛ كما في البلوغ مثلاً، فإن الخطاب التكليفي مرتفع عن الصبي ما كان قبل البلوغ ؛ فإذا بلغ وقع عليه التكليف. فسقوط التكليف قبل البلوغ ثم ثبوته بعده ليس باختلاف في الخطاب. وإنما وقع الاختلاف في العوائد، أو في الشواهد. »[34]

4. مراعاة تغيّر الزمان والمكان:

ما قيل حول اعتبار العوائد وإعمالها في الفتوى ينسحب على اعتبار الزمان والمكان أيضاً، فقد ذكر الإمام ابن القيم في فصل: تغيّر الفتوى بمسألة "الطلاق الثلاث" حسب الأزمنة ما نصّه: «... إذا عُرِف هذا فهذه المسألة مما تغيّرت الفتوى بها حسب الأزمنة كما عرفت ؛ لما رأته الصحابة من المصلحة ؛ لأنهم رأوا مفسدة تتابع الناس في إيقاع الثلاث لا تندفع إلا بإمضائها عليهم، فرأوا مصلحة الإمضاء أقوى من مفسدة الوقوع. »[35]

فتغيّر الزمان جعل الصحابة ﷺ يُفْتُون بأن الطلاق الثلاث إذا تلفّظ به الزوج مرةً واحدةً فإنه يقع ولا تحلّ له زوجته حتى تنكح زوجاً غيره. والباعث على فتواهم هذه هو "المصلحة الشرعية" المتمثّلة في المحافظة على رابطة الزوجية وقُدسيّتها من أن يتلاعب بها الأزواج من خلال التغليظ عليهم في إمضاء الطلاق الثلاث بلفظٍ واحدٍ، فيَرْتَدِعَ بذلك كل من تُسوّل له نفسه التلفّظ بالطلاق كَيْفَمَا بَدَا له.

بل إن المفتي الذي لا يأخذ بعين الاعتبار تَغيُّر الأزمنة والأمكنة يَضِلّ ويُضِلّ غيره وجنايته على الدين من أعظم الجنايات ؛ لأن مضرّته ليست قاصرةً عليه وحده، بل هي مفسدة عامة، وهذا مكمن الخطر.[36]

يقول الإمام ابن عابدين: «... ولهذا قالوا في شروط الاجتهاد أنه لا بدّ فيه من معرفة عادات الناس، فكثيرٌ من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتَغيُّر عُرْف أهله أو لحدوث ضرورةٍ أو فساد

أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه أوّلاً لَلَزِمَ منه المشقّة والضرر بالناس، ولخالفَ قواعد الشريعة المَبنِيّة على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد لبقاء العالم على أَتَمِّ نظامٍ وأحسن أحكام. »[37]

فأنت ترى كيف أن الإمام ابن عابدين بيّن أن تغيّر الأحكام مراعاة لتغيّر الزمان له مبرّراته المصلحية والمقاصدية ؛ سواء أكانت الضرورة أم فساد الذّمم أم غيرهما، ثم عَلّل هذا التغيير بأنه ألصق بقواعد الشريعة وأُسُسها، وأنه يتماشَى مع قصد الشارع الحكيم إلى رفع الحرج ورعاية مصالح العباد عاجلاً وآجلاً.

فتغييب هذا المرتكز وعدم العناية به من شأنه أن يجرّ مفاسد عظيمة وشديدة على الناس.

5. مراعاة حال المستفتي:

هذا المرتكز يتعلّق مباشرة بتنزيل الحكم الشرعي على مَحَلِّه، وهنا تبرز قيمته وأهميته ؛ ولذا كان لزاماً على المفتي مراعاة الظروف الشخصية للمستفتي وما يتعلق بحياته الاجتماعية وحالته النفسية، وطبيعة بيئته وظروف عصره وواقع معيشته، وقد كان النبي ﷺ يجيب عن السؤال الواحد إجاباتٍ مختلفةً تَبَعاً لاختلاف السائلين، وهو ما يسمى بـ: "فقه الواقع"، والذي يُعتبَر فهمه والإلمام بكل جوانبه مساعداً في عملية تنزيل الأحكام.

« ولا يتمكّن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعيْن من الفهم:

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حَكَمَ به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبّق أحدهما على الآخر ؛ فمن بَذَلَ جهده واستفرغَ وُسْعَه في ذلك لم يعدم أجريْن أو أجراً ؛ فالعالم من يتوصّل بمعرفة الواقع والتفقّه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله (...) ومن تأمّل الشريعة وقضايا الصحابة وجَدَها طافحةً بهذا، ومن سَلَكَ غير هذا أضاعَ على الناس حقوقهم ونَسَبه إلى الشريعة التي بعثَ الله بها رسوله. »[38]

ومراعاة حال المستفتي وما يحيط بها من عوامل هي التي سمّاها الإمام الشاطبي: "تحقيق المناط الخاص"، وعنها يقول: « فصاحب هذا التحقيق الخاص هو الذي رُزِقَ نوراً يعرف به النفوس ومَرَامِيها، وتفاوت إدراكها، وقوة تحمّلها للتكاليف، وصبرها على حمل أعبائها أو ضعفها، ويعرف التفاتتها إلى الحظوظ العاجلة أو عدم التفاتها، فهو يحمل على كل نفسٍ من أحكام

النصوص ما يليق بها، بناءً على أن ذلك هو المقصود الشرعي في تَلَقِّي التكاليف. فكأنه يخصّ عموم المكلّفين و التكاليف بهذا التحقيق. »[39]

فالمفتي حقيقةً هو من وفّقه الله لأن يأخذ بالاعتبار كل ما يحيط بالمستفتي من حيث نفسيّتُه واستعدادُه لتلقّي الأحكام ودرجةُ تقواه، وغير هذا مما لا يجوز إغفاله بحالٍ عند تنزيل الأحكام على واقعة المستفتي، ويزداد الأمر خطباً وجللاً حين تتعلق الفتوى بقضية ذات شأنٍ عامٍ للمجتمع أو الأمة.

المطلب الرابع: مسائل تطبيقية

هذا المطلب خصّصته لذكر بعض المسائل التطبيقية للتقعيد المقاصدي للفتوى، وقد اخترت ثلاث مسائل من باب التمثيل، وهي:

- إخراج زكاة الفطر بين القول بوجوبها طعاماً والقول بجوازها نقداً.
- قراءة الفاتحة بين التبرّك بها ولزوم عقد الزواج بمقتضاها.
- تسعير السلع الضرورية والحاجية.

1. إخراج زكاة الفطر بين القول بوجوبها طعاماً والقول بجوازها نقداً:

زكاة الفطر من الصدقات التي أوجبها الله تعالى على عباده المؤمنين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «فَرَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَدَقَةَ الْفِطْرِ صَاعاً مِنَ تَمْرٍ أَوْ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلاَةِ.»[40]

وقد اختلف العلماء في إخراج زكاة الفطر بين قائلٍ بوجوب إخراجها طعاماً من غالب قوت البلد عملاً بنص الحديث، وقائلٍ بجواز إخراج قيمة الطعام نقداً تحقيقاً لمقصد الإغناء وسدّ خلّة الفقر والحاجة.[41]

ولا تزال هذه المسألة في كل عام محلّ تضارب بين العلماء في حكمها ممّا ولّد لدى كثير من عوام المسلمين اضطراباً في الأخذ بالرأي الصائب والفتوى المناسبة، ولا يخفى ما في هذا من مفاسد كثيرة قد تجعل أحكام الشرع عرضةً للاستهزاء ممّن لا خلاق لهم والعياذ بالله تعالى.

وإذا أُخضِعت المسألة للتقعيد المقاصدي للفتوى فإن الرأي الصواب - في ظنّي - هو النظر إلى حالة المتصدَّق عليه ؛ ففي أيامنا هذه نجد صنفاً من فقراء المسلمين - مثل مسلمي الدول الإفريقية خاصة كـ: مالي وإفريقيا الوسطى وبعض مناطق نيجيريا، وفي آسيا نجد مسلمي بورما وإخواننا

في فلسطين المحتلّة وغيرهم. لا هَمَّ لهم إلا سَدُّ المخمصة ودفع الجوع، فهؤلاء يجب إعطاء صدقة الفطر لهم طعاماً قولاً واحداً تحقيقاً لمقصد الشارع في دفع الخلّة وإغناء الفقير عن التسوّل وطلب الطعام لنفسه وأبنائه وذويه.

وفي المقابل تجد من المسلمين. وربما كانوا هم الأغلبية. يحتاج إلى النقود من أجل الكسوة أو العلاج أو المستلزمات الضرورية والحاجية للحياة، فهؤلاء يكون تقديم صدقة الفطر لهم نقداً أَنْفَع لهم وأَجْرَى على مقاصد الشارع الحكيم في الإغناء وسدّ الخلّة وقضاء الحاجة.

وقد رجّح الشيخ القرضاوي هذا الرأي الجامع بين نظرتيْ الفقهاء إلى زكاة الفطر فقال: « إن التمسّك بحرفيّة السنة أحياناً لا يكون تنفيذاً لروح السنة ومقصودها، بل يكون مضاداً لها، وإن كان ظاهره التمسّك بها (...)

فلماذا كان الرّفض الشديد لفكرة القيمة في زكاة الفطر، مع أن المقصود بها إغناء المساكين عن السؤال والطواف في هذا اليوم، ولعل هذا يتحقق بدفع القيمة أكثر مما يتحقق بدفع الأطعمة العينيّة ؟.

نحن نوجب دفع الأطعمة في حالةٍ واحدةٍ، وهي (حالة المجاعة) التي يحتاج الناس فيها إلى الطعام أكثر من حاجتهم إلى النقود. وقد توجد النقود عند الإنسان، ولكنه لا يجد الطعام. »[42]

فمثل هذه النظرة الوسطية لمسألة زكاة الفطر يكون التقعيد المقاصدي للفتوى قد قدّم لنا خدمةً جليلةً في تحقيق مقاصد الشرع من تشريع الأحكام، وفيه أيضاً جمعٌ بين الآراء الفقهية المختلفة وإعمال كل رأيٍ في مناطه الخاص، وهذا. في رأيي. منتهى الفقه المقاصدي والمصلحي السديد. والله أعلم.

2. قراءة الفاتحة بين التبرّك بها ولزوم عقد الزواج بمقتضاها:

الذي دعاني إلى اختيار هذه المسألة للتطبيق هو هَوْلُ ما تقذفه فتاوى القنوات الفضائية العابرة للقارات بخصوص هذا الموضوع، وأنا أقصد تحديداً بلدنا الجزائر. حفظه الله من كل سوء. فكثيراً ما يُستفتَى بعض من يتصدّر للفتوى في تلك القنوات الفضائية حول علاقة المرأة التي قُرِئت الفاتحة بينها وبين الرجل (الخاطب والمخطوبة) فيجيب بأنها صارت زوجاً لذلك الرجل، ويسري بينهما ما يسري بين الأزواج من أحكام، هكذا بصفة مطلقة دون تمحيصٍ أو استفسارٍ عن عرف البلد وعادته بخصوص هذه المسألة.

والحال أن هذه المسألة يجب الاحتكام فيها. بناء على التقعيد المقاصدي للفتوى. إلى العوائد

والأعراف، ففي بلد كبير. كالجزائر مثلاً. تجد أن الأعراف فيه تختلف من منطقة إلى أخرى اختلافاً بيّناً، ومسائل الزواج والطلاق لا تندّ عن هذا الاختلاف أبداً ؛ ففي بعض المناطق تُقرأ الفاتحة عند الخطوبة بحضرة الجماعة من أهل الخاطب والمخطوبة، ثم تُقرَأ ثانيةً عند دفع الصداق، ثم تُقرأ ثالثةً ليلة الزفاف أي قبل الدخول ؛ بمعنى أنها تُقرأ تبرّكاً أحياناً، واستفتاحاً لكل خير أحياناً ثانيةً، وإبراماً لعقد النكاح أحياناً ثالثةً. وفي بعض المناطق لا تتكرّر القراءة بهذه الطريقة بل يُكتفَى بها مرّة أو مرتيْن فقط.

فإذا كان الحال هكذا لم يجز أن يُفتَى أن الفاتحة تُصيّر المرأة زوجةً بإطلاقٍ، بل يجب سؤال المستفتي واستفصاله عن قصده بقراءة الفاتحة وعلى ضوء جوابه تكون الفتوى والإخبار بالحكم الشرعي لها.

ولقد جرّت هذه الفتاوى . التي لا تراعي عوائد أهل الجزائر وأعرافهم في شؤون الأسرة وخاصة أحكام الزواج والطلاق . مفاسد كثيرة، فكمْ من خاطب استمتع بمخطوبته استمتاع الزوجيْن ببعضهما نتيجة هذه الفتاوى، ثم يقع بعد ذلك التنازع بينهما وتكون المرأة ضحيّةً في الأخير وتضيع حقوقها بكل بساطة ؛ لأن المحاكم لا تقبل من عقود الزواج إلا ما كان موثّقاً توثيقاً مدنياً من قِبَل الجهات المختصّة، أو ما كان من بعض العقود العرفية وبشروطٍ محدّدةٍ.

لأجل هذا كان التقعيد المقاصدي للفتوى في مثل هذه المسائل على درجةٍ كبيرة من الأهمية ؛ حيث يغلق الباب على الفتاوى الخاطئة التي لا يتبصّر أصحابها بالعوائد والأعراف ولا يُولُون بالاً للمآل الذي ينتج بسبب فتاويهم. والله أعلم.

3. تسعير السلع الضرورية والحاجية:

التسعير هو: إصدار الجهات المختصّة شرعاً أمراً ببيع سلعٍ يكون الناس في حاجةٍ ماسَّةٍ إليها بثمنٍ عدلٍ.[43]

وهو من المسائل التي حفلت كتب الفروع الفقهية بذكر اختلاف العلماء في حكمها وأدلتهم ومناقشاتهم وردودهم في ذلك، بين قائلٍ بالجواز وقائلٍ بالمنع، وقائلٍ بالتفصيل.[44]

وقد ورد بشأن هذه المسألة نص نبوي خاص، فعن أنس بن مالك ﷺ قال:« غَلاَ السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ تُسَعِّرُ لَنَا ؟ فَقَالَ ﷺ: إِنَّ اللهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَطْلُبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي دَمٍ وَلاَ مَالٍ.»[45]

والذي انتشر في زماننا هذا من غلاءٍ فاحشٍ في أسعار السّلع والبضائع من أطعمة وأشربة وألبسة وغيرها واستغلال بعض المواسم والمناسبات للربح السريع على حساب حاجات الناس وأموالهم. كما يحصل في شهر رمضان ومناسبات الأعياد أو الدخول الاجتماعي مثلاً. أمرٌ يوجب النظر إلى مسألة التسعير نظرةً مقاصدية بناءً على مراعاة مصالح العباد.

وتأسيساً على هذا فإن التسعير بالنسبة للسّلع الضرورية والحاجية. واسعة الاستهلاك. صار أمراً واجباً. في نظري. بحكم المصلحة الجماعية أو العامة المترتبة على ذلك، ودفعاً لجشع التجار وفساد ذِممهم واستغلالهم الفاحش لحاجة الناس الماسّة إلى تلك السّلع.

وما قد يظهر. من خلال هذا الرأي. من تضييقٍ على حرية التصرّف ومنعٍ من تحقيق الربح لآحاد التجار لا يكاد يُقارَن بعِظَم المصلحة العامة المترتبة على القول بالتسعير. ثم إن هذا الحكم ليس تشريعاً دائماً، بل هو حكمٌ استثنائيٌ ومؤقّت أَمْلتْهُ الضرورة والحاجة ومراعاة المصلحة العامة، والله أعلم.

وهذا ما جعل الإمام ابن العربي يرجّح القول بجواز التسعير مع مراعاة مصلحة البائع والمشتري، حيث يقول: « والحق: التسعير وضبط الأمر على قانونٍ لا تكون فيه مَظْلَمةٌ على أحدٍ من الطائفتيْن، وذلك قانونٌ لا يُعرَف إلا بالضبط للأوقات ومقادير الأحوال وحال الرجال، والله الموفق للصواب.

وما قاله النبي ﷺ حقّ، وما فَعلَه حكمٌ، ولكن على قومٍ صَحَّ ثباتُهم واستسلموا إلى ربهم، وأما قومٌ قصدوا أكل الناس والتّضييق عليهم فبابُ الله أَوْسعُ، وحُكمُه أَمْضَى».[46]

هذا ما أردتُ توضيحه فيما يتعلق بالتقعيد المقاصدي للفتوى من خلال هذه المسائل التطبيقية الثلاث، والتي تبرز مدى قيمة مرتكزات التقعيد المقاصدي للفتوى (اعتبار العوائد والأعراف، النظر في مآل الفتوى، مراعاة المقاصد والمصالح العامة) في تحقيق مقاصد الشارع من تشريع الأحكام من جهة، والتقليل من الاختلافات الفقهية، والجمع بين الآراء قدر المستطاع من جهة أخرى، بما يحقق مصلحة العباد في المعاش والمعاد.

ولعل هذا ما رام الإمام ابن عاشور تحقيقه كما بيّن ذلك في مقدمة كتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية" بقوله: « هذا كتاب قصدت منه إلى إملاء مباحث جليلة من مقاصد الشريعة الإسلامية، والتمثيل لها، والاحتجاج لإثباتها، لتكون نبراساً للمتفقهين في الدين، ومرجعاً بينهم عند اختلاف الأنظار وتبدّل الأعصار، وتوسّلاً إلى إقلال الاختلاف بين فقهاء الأمصار، ودربةً

لأتباعهم على الإنصاف في ترجيح بعض الأقوال على بعض عند تطاير شرر الخلاف، حتى يستتبّ بذلك ما أردناه غير مرّة من نبذ التعصّب، والفيئة إلى الحق إذا كان القصد إغاثة المسلمين ببُلالة تشريع مصالحهم الطارئة متى نزلت الحوادث واشتبكت النوازل، وبفصلٍ من القول إذا شجرت حجج المذاهب، وتبارت في مناظرتها تلكم المقانب.»[47]

خـاتمة

في ختام هذا البحث أخلصُ إلى تسجيل النتائج التالية:

1 . التقعيد المقاصدي للفتوى هو بناء الفتوى على أساس مقاصد الشرع المتَشَوِّفَة إلى تحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد.

2. التقعيد المقاصدي للفتوى كَفِيلٌ بأن يُقلّل من الفتاوى الخاطئة والشاذة.

3 . التقعيد المقاصدي للفتوى يعالج ظاهرة الغُلوّ في اعتبار المصالح على حساب النصوص الشرعية الثابتة، ويغلق الباب أمام المستهترين والمستهزئين بنصوص الشرع، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يعالج الحرفيّة في التعامل مع تلك النصوص وتنزيلها على الواقع مجرّدةً من معانيها ومقاصدها.

4. الحاجة إلى التقعيد المقاصدي للفتوى تظهر في مجالاتٍ متعدّدةٍ فردياً وجماعياً ممّا يُحتِّم على المفتي إعماله والاعتداد به ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

5. التقعيد المقاصدي للفتوى جارٍ على وفق قصد الشارع إلى تحقيق مصالح العباد عاجلاً وآجلاً.

6 . تنوّع وتعدّد المرتكزات التي يقوم عليها التقعيد المقاصدي للفتوى تجعله مؤهّلاً لمواكبة النوازل والحوادث وإيجاد الإجابة والحلول لها.

7 . التقعيد المقاصدي للفتوى . بما يقدّمه من إجاباتٍ وحلول . يُعَد أحد أسباب الوفاق والائتلاف بين المذاهب الفقهية، وكذا سبباً في التقليل من الخلافات الفروعية.

8 . التقعيد المقاصدي للفتوى من شأنه الإسهام في الوقاية من فوضى الفتاوى التي أصبحت ظاهرةً مُستفحِلةً في مجتمعاتنا وتتطلّب وقفةً جادّةً ومستعجلةً.

هذا ما يسّر الله تعالى لي إنجازه بخصوص هذا الموضوع الذي يحتاج إلى زيادة بحثٍ وتحقيقٍ وتعميقٍ على الصعيديْن التأصيلي والتطبيقي، وقد بذلت فيه جهدي وطاقتي ولم أدّخر في سبيل إنجازه شيئاً، فإن أصبتُ فهو محضُ توفيقٍ من الله تعالى، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله العظيم.

ـ الحواشي والإحالات:

1 أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط1، 1422هـ 2001م، (4/178-179).

2 أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ط3، 2004م، (12/150) . أبو الحسين أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، د.ط، 1420هـ/1999م، (5/109).

3 محمد الروكي: نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، دار الصفاء ـ الجزائر بالاشتراك مع: دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط1، 1421هـ/2000م، (33-35).

4 ابن منظور: لسان العرب (11/182) . ابن فارس: معجم مقاييس اللغة (4/473-474).

5 محمد سليمان الأشقر: الفتيا ومناهج الإفتاء، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط1، 1396هـ/1976م، (09).

6 يوسف القرضاوي: الفتوى بين الانضباط والتسيب، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1415هـ/1995م، (7).

7 ابن منظور: لسان العرب (12/113) . ابن فارس: معجم مقاييس اللغة (5/95-96).

8 أحمد الريسوني: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي،الدار العالمية للكتاب الإسلامي،الرياض ـ السعودية،ط1416،4هـ/1995م،(19).

9 يوسف العالم: المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، الدار العالمية للكتاب، الرياض، ط2، 1415هـ/1994م، (79).

10 الشاطبي: الموافقات (4/76-77).

11 قطب مصطفى سانو: أدوات النظر الاجتهادي المنشود في ضوء الواقع المعاصر، دار الفكر، دمشق ـ سوريا، ط1421،1هـ/2000م، (120-122).

12 محمد الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ومراجعة: محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، د.ط، 1425هـ/2004م، (41).

13 الشاطبي: الموافقات (4/122-123).

14 ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية (66).

15 مثل فتوى إرضاع الموظفة لزميلها في العمل تحت ذريعة جواز الخلوة بينهما، أو الفتاوى التي تظهر بين حينٍ وآخر حول فوائد الأموال المودعة في البنوك الربوية، وكذا الآراء التي تكثر حول الحجاب، وغيرها من الفتاوى النّشاز.

16 محمد جمال باروت وأحمد الريسوني: الاجتهاد (النص، الواقع، المصلحة)، دار الفكر، دمشق ـ سوريا، ط1420،1هـ/2000م، (113-114).

17 المرجع نفسه (123-124).

18 تعقيب أحمد الريسوني على جمال باروت. المرجع نفسه (161-163). وانظر: يوسف القرضاوي: الفتاوى الشاذة ـ معاييرها وتطبيقاتها وأسبابها وكيف نعالجها ونتوقاها، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2010م، (137).

19 ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية (138).

20 عمر عبيد حسنة: من تقديمه لكتاب: الاجتهاد المقاصدي (حجيته ـ ضوابطه ـ مجالاته) لـ: نور الدين بن مختار الخادمي، كتاب الأمة (العدد 65)، ط1، 1419هـ/1998م، (1/33-34).

[21] أخرجه البخاري: كتاب: النكاح، باب: لا تنكح المرأة على عمتها، رقم5108، (365/3) . وأخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح، رقم 1408، (1028/2).

[22] أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين،تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ، (49/6-51).

[23] أبو حامد الغزالي: المستصفى من علم الأصول، تحقيق: محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ط1، 1417هـ/1997م، (369/2).

[24] طه جابر العلواني: من تقديمه لكتاب: المقاصد العامة للشريعة الإسلامية لـ: يوسف حامد العالم، (4).

[25] الشاطبي: الموافقات (124/2).

[26] المصدر نفسه (188/4-189).

[27] المصدر نفسه (189/4-190).

[28] ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية (341-342).

[29] جمال الدين القاسمي: الفتوى في الإسلام، تحقيق: محمد عبد الحكيم القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 1406هـ/ 1986م، (76-77).

[30] الشاطبي: الموافقات (140/4-141).

[31] محمد فتحي الدريني: المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ط1418،3هـ/ 1997م، (31-32).

[32] الشاطبي: الموافقات (218/2-219).

[33] شهاب الدين القرافي: أنوار البروق في أنواء الفروق، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط 1، 1418هـ/ 1998م، (322/1-323).

[34] الشاطبي: الموافقات (217/2).

[35] ابن القيم: إعلام الموقعين (408/4).

[36] المصدر نفسه (470/4).

[37] محمد أمين ابن عابدين: مجموعة الرسائل، د.ط، د.ت، (125/2).

[38] ابن القيم: إعلام الموقعين (165/2-166). وانظر أيضاً: القرضاوي: الفتوى بين الانضباط والتسيّب (85-89). الخادمي: الاجتهاد المقاصدي (67/2).

[39] الشاطبي: الموافقات (71/4).

[40] أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب: فرض صدقة الفطر، رقم 1503، (466/1) . وأخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب: زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، رقم984، (677/2).

[41] ابن قدامة المقدسي: المغني، تحقيق: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتاب، الرياض. السعودية، ط3، 1417هـ/ 1997م، (295/4-297). وانظر: علاء الدين الكاساني: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، تحقيق: علي عوض وأحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط2، 1424هـ/2003م، (343/2). أبو الوليد الباجي: المنتقى شرح موطأ مالك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 1420هـ/1999م، (300/3). أبو إسحاق الشيرازي: المهذب في فقه الإمام الشافعي، ضبط وتصحيح:

زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 1416هـ/ 1995م، (1/303).

42 يوسف القرضاوي: كيف نتعامل مع السنة النبوية، دار الشروق، القاهرة . مصر، ط2، 1423هـ/2002م، (155-157).

43 محمد فتحي الدريني: بحوث مقارنة في الفقه الإسلامي وأصوله، مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان، ط1، 1414هـ/1994م، (1/542).

44 المرجع نفسه (1/546). وانظر أيضا: ابن قدامة المقدسي: المغني(6/311) . الكاساني: بدائع الصنائع (6/517). الشيرازي: المهذب في فقه الإمام الشافعي، (2/64). الباجي: المنتقى شرح موطأ مالك، (6/351).

45 أخرجه أبو داود: أول كتاب البيوع، باب في التسعير، رقم 3450، (5/320) . وأخرجه الترمذي: أبواب البيوع، باب: ما جاء في التسعير، رقم 1314، (2/582) . وأخرجه ابن ماجه: كتاب التجارات، باب: من كره أن يسعّر، رقم 2200، (3/548).

46 أبو بكر بن العربي: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، د.ط، د.ت (6/54). وانظر: محمد فتحي الدريني: بحوث مقارنة في الفقه الإسلامي وأصوله (1/587).

47 ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية (5).

Altqaid AL- Makassedi for fatwa

Mounir Youcef *

Abstract

This topic deals with the importance of considering the legitimate purposes towards Alfatwa or the legal opinions whether it comes to obtaining the legal judgement or adopting it to the ground.

An issue that requires a high degree of validation and accuracy and consideration , and on many levels.

In this study , I insist to show the important pillars upon which the fatwa based on the observance of the purposes and the law invoked , highlighting the rationale for this Altqaid AL- Makassedi so as to clarify our needs to Altaqaid AL-Maqassedi for Fatwa.

Also , three examples of worship and transaction action have been practically used to show which practical value considered legitimate when releasing fatwa. Especially those related to collective nature fatwa of the dye because of their interest or general evil and not private.

Keywords: Intents – Fatwa – Altaqaid – Public Interest – Foundations.

* Institute of Islamic Sciences - University of El-oued - Algeria.

مجلة البحوث والدراسات

العدد (24) ـ السنة (14) ـ رمضان 1438 هـ ـ يونيو (جوان) 2017 م

محور بحوث العلوم القانونية والسياسية

صفحة بيضاء

مبدأ الأمن القانوني ومدى تكريسه في القضاء الإداري

بقلم
د/ محمد بوكماش(*) وخلود كلاش(**)

ملخص

يعتبر مبدأ الأمن القانوني من أهم المبادئ التي تقوم على أساسها دولة القانون، والذي يعني أن تكون المراكز القانونية واضحة وفعالة غير معرضة للاهتزاز والمفاجآت؛ فيستند في قيامه وتحقيقه على عدد من المبادئ القانونية التي لابد من الالتزام بها في ظل أي مجتمع قائم على حكم القاعدة القانونية، كالعلم بالقاعدة القانونية وإتاحة إمكانية الوصول إليها والالتزام الخاص الذي يترتب على الدولة.

ومما هو جدير ذكره هو أن القضاء يعتبر عنصرا حاسما في حل المنازعات وهو جزء أساسي من فكرة الأمن القانوني، فلا يمكن أن ننفي تكريس هذا المبدأ في القضاء خاصة القضاء الإداري، وذلك من خلال عرض جملة من القضايا التي فصل فيها مجلس الدولة والتي تعتبر كصورة حقيقية لتكريس مبدأ الأمن القانوني كإلغاء قرار صادر عن سلطة إدارية لمساسه بالحقوق المكتسبة.

الكلمات المفتاحية: الأمن- القانون- القضاء الإداري.

مقدمة

تعتبر من أهم المهام التي توكل للدولة مهمة تحقيق النظام في المجتمع ويندرج ضمن أحد أهم عناصر النظام في المجتمع الاستقرار أو ما يطلق عليه الأمن القانوني، الذي هو بحاجة إلى سلطة قادرة على إجبار أعضاء الجماعة للالتزام بالضوابط التي يحددها القانون والتي تأمر بها لتحقيق الأمن القانوني، فيعتبر التشريع هو الآلية التي تسمح للدولة بالتعبير عن إرادتها تعبيرا دقيقا من

(*) أستاذ محاضر "أ" بكلية الحقوق والعلوم السياسية ـ جامعة خنشلة.
mboukemmache@gmail.com
(*) باحثة في مرحلة الدكتوراه بكلية الحقوق والعلوم السياسية ـ جامعة خنشلة.

ناحية الصياغة القانونية، وذلك في شكل قاعدة قانونية مكتوبة في وثيقة رسمية مما يضفي عليها طابع الإلزامية؛ حيث تستخدمه الدولة أو السلطة المختصة في توجيه المجتمع نحو تحقيق الأهداف التي تسعى إليها وذلك في إطار معيار محدد يواجه حالة معينة لا يتغير أو يتأثر بالظروف مما لا يترك مجالا لإعمال السلطة التقديرية للقاضي في تفسير الوقائع، فكثيرا ما نجد أن المشرع بهدف تحقيق غاية الأمن القانوني يلجأ إلى صياغة بعض الأحكام بقواعد آمرة لا يجوز للأفراد الاتفاق على مخالفتها.وفي إطار التطرق إلى مبدأ الأمن القانوني من منظور عام يمكننا التساؤل وطرح الإشكالية التالية:

إلى أي مدى تم تكريس مبدأ الأمن القانوني في القضاء الإداري الجزائري ؟

وللإجابة هذا الموضوع، تم التطرق للمحاور التالية:

أولا: الإطار المفاهيمي لمبدأ الأمن القانوني، وتناولنا فيه: -مفهوم مبدأ الأمن القانوني، ثم مقومات توافر الأمن القانوني، وكذا الأمن القانوني وضرورة الأمن القضائي.

ثانيا: صور تكريس مبدأ الأمن القانوني في قضاء مجلس الدولة، وتطرقنا فيه للنقاط للمبادئ التالية:-مبدأ عدم رجعية القوانين - مبدأ الثقة المشروعة أو التوقع المشروع - مبدأ احترام الحقوق المكتسبة. وأخيرا خاتمة.

أولا: الإطار المفاهيمي لمبدأ الأمن القانوني

إن تحقيق الأمن القانوني يعتبر المدخل الأساسي لتحقيق الأمن الاجتماعي والاقتصادي، حيث ينبغي أن تكون القواعد القانونية متوافقة مع مبادئ العدل والحكمة لكي تحظى بالثبات القانوني وتؤمن الاستقرار في المعاملات بين أفراد المجتمع وتساهم في تحقيق الاستقرار العام [1].

1-: مفهوم مبدأ الأمن القانوني

يمكن تعريف الأمن القانوني بأنه عملية تستهدف توفير حالة من الاستقرار في العلاقات والمراكز القانونية من خلال إصدار تشريعات متطابقة مع الدستور ومتوافقة مع مبادئ القانون الدولي غايتها إشاعة الثقة والطمأنينة بين أطراف العلاقات القانونية سواء كانوا أشخاص القانون الخاص أو العام [2].

أيضا يقصد بالاستقرار القانوني أن تكون القواعد القانونية مؤكدة ومحددة في تنظيمها للمراكز القانونية وأن تضمن تأمين النتائج بحيث أن كل فرد يستطيع أن يتوقع هذه النتائج ويعتمد عليها وذلك من خلال العمل على تحقيق التوازن ي المراكز القانونية والاجتماعية داخل المجتمع [3].

كما أنه من المعلوم أن القاعدة القانونية يجب أن تكون واضحة دقيقة غير منفصلة عن مبدأ الحق، إلا أنه يمكن أن تكون القوانين متضخمة الأمر الذي يجعل منه مصدر اللاأمن القانوني فمن أهم صور هذا الأخير إصدار قوانين تتسم بالرجعية، فنتيجة لتنامي حالة عدم الأمن القانوني وصدور تشريعات مضطربة الأمر الذي فتح نقاش حاد والمطالبة بدسترة مبدأ الأمن القانوني والاعتراف به في العديد من الأنظمة القضائية[4].

وقد نشأت فكرة الأمن القانوني بعد أن تواترت اجتهادات محكمة العدل للمجموعة الأوروبية وذلك في 1961، إلا أن قانون المجموعة الأوروبية لم يرد فيه ما ينص على مبدأ الأمن القانوني كمبدأ ملزم لدول الإتحاد الأوروبي على الرغم من أن القاضي الأوروبي كان قد اعتبره من المبادئ الأساسية التي يجب أن تتوفر في أي قانون، الأمر الذي دفع بالمجلس الدستوري الفرنسي الاعتراف بالمبدأ بشكل متدرج ضمن قراراته بتأكيده المتواتر أن القوانين يجب أن تكون واضحة في معانيها فغاية التشريع هو تحقيق التوازن من خلال إصدار تشريعات توقعية ومعيارية مطابقة للدستور وللمواثيق الدولية وذلك عن طريق الرقابة على دستورية القوانين، إلا أنه تم التأكيد على مبدأ الأمن القانوني صراحة من طرف مجلس الدولة الفرنسي وكان ذلك في القرار الصادر ب2006/03/24 مستندا في ذلك إلى ما تم النص عليه في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواطن الصادر سنة 1789 المادة 02 منه والتي تؤكد بأن الأمن من الحقوق الطبيعية الغير قابلة لأي مساس [5].

حيث منحت هذه المادة الحق للطرف المتضرر من صدور قانون قد يمس بشكل أساسي الحقوق والحريات الحق في الدفع بعدم دستورية القانون وقيام المجلس الدستوري مهامه كهيئة مقومة للنصوص القانونية وفرض رقابته على دستورية القوانين.

2-: مقومات توافر مبدأ الأمن القانوني

يقتضي تحقيق الأمن القانوني توافر عدة مقومات أهمها:

2-1- وضوح الآلية التشريعية المنظمة لعلاقات الأفراد داخل المجتمع ويستوجب ذلك ضرورة صياغة القواعد القانونية صياغة محددة وواضحة، فلا داعي لاستعمال بعض المفاهيم غير المحددة والتي تثير تحديد مفهومها خلافات في التطبيق.

2-2- توافر عنصر الجزاء في القاعدة القانونية فلا يمكن أن يتحقق الأمن القانوني بدون استعمال الإجبار وبناء على ذلك يعتبر التشريع هو المصدر الوحيد للقانون لاقترانه بالجزاء الذي

توقعه السلطة العامة،ولا وجود لالتزام ناتج عن الضمير، ولا يوجد أي قانون يمكن إدراكه سوى القانون الوضعي، فيمكن للإنسان تحقيق الأهداف التي يسعى إليها في الحدود التي يحترم فيها الأفراد بعضهم البعض مما يقضي لقاعدة عليا تسري عليهم وتوقيع الجزاء على من يخالفها.

2-3- غياب التعسف الإداري والتعسف والقضائي فيجب تحقيق الأمن القانوني في إطار من المشروعية والالتزام بالقانون؛ هذا الالتزام يفيد أنه لا يجوز الحيدة عن تطبيق القانون أو أعمال القاضي رأيه في التشريع، هذا الأمر يقتضي حصر السلطة التقديرية للقاضي وإحاطتها بالعديد من الضمانات القانونية فيجب على القاضي الالتزام بالنصوص القانونية طالما كانت واضحة أو طالما أنها صدرت عن السلطة المختصة بها [6].

3-الأمن القانوني وضرورة الأمن القضائي

يعتبر الأمن القضائي بمفهومه الواسع المبدأ الذي يعكس الثقة فيما يصدر عن السلطة القضائية من أحكام، وما ينتج عنها وهي تقوم بمهمتها إثر النظر في القضايا التي تعرض عليها، فالغاية من الأمن القضائي هو ضمان سيادة القانون وذلك من خلال استقلال السلطة القضائية وجودة الأحكام وسرعة الفصل في النزاعات أيضا تنفيذ الأحكام القضائية ضد الإدارة، إلا أنه لتأمين الأمن القضائي من طرف القضاة يتعين وجود منظومة تشريعية متكاملة متلائمة مع التشريعات الدولية ومتطابقة مع مقتضيات الدستور.

ويقوم مبدأ الفصل بين السلطات باعتباره من أهم مظاهر تكريس مبدأ الأمن القانوني على مبدأين هما مبدأ التخصص ويقصد به فصل الوظائف أو الفصل الوظيفي فالوظائف الكبرى للدولة تمارس من ثلاثة أجهزة متميزة (التشريعية والتنفيذية والقضائية) أما المبدأ الثاني فهو مبدأ الاستقلالية ويقصد به فصل الأجهزة أو الفصل العضوي حيث أن كلا من هذه السلطات تكون مستقلة كليا عن الآخرين والأعضاء الذين يؤلفونها لا يعزلون أو يعينون من قبل سلطة أخرى [7].

نلاحظ أن المشرع الجزائري لم ينص صراحة على مبدأ الأمن القضائي في الدستور، إلا أنه كرس العديد من الآليات التي يمكن من خلالها الالتزام بهذا المبدأ،ذلك على اعتبار أنه يجب أن تتضمن معظم دساتير الدول الديمقراطية بعض الأحكام التي ينبغي على المشرع التقيد بها عند صياغته للقواعد القانونية أهمها:

- الالتزام بالمواثيق الدولية لحقوق الإنسان والتي تمت المصادقة عليها
- الالتزام بالمبادئ الأساسية للديمقراطية (الحرية –المساواة – العدالة الاجتماعية) [8].

أيضا ما جاء في تعديل ديباجة الدستور والنص الصريح على ضرورة التقيد بمبدأ الفصل بين السلطات والتي جاء فيها " يكفل الدستور مبدأ الفصل بين السلطات واستقلال العدالة والحماية القانونية "، ضف إلى ذلك ما جاء في الفصل الثالث المتعلق بالدولة ونص المادة 15 منه " تقوم الدولة على مبادئ التنظيم الديمقراطي والفصل بين السلطات والعدالة الاجتماعية "

هذه النصوص تأكد على تكريس مبدأ الفصل بين السلطات وقيام دولة القانون ذلك باعتباره مظهر أساسي من مظاهر الأمن القضائي، إلا انه في كثير من الأحيان نجد أن هناك نصوص من شأنها المساس به أو أنها تعتبر كصورة عكسية لعدم التقيد به بشكل مطلق وذلك من خلال منح رئيس الجمهورية سلطة تعيين القضاة ونقلهم أيضا رئاسته للمجلس الأعلى للقضاء ربما لكونه يمثل إرادة الشعب [9].

إن الواجب الحقيقي هو الفصل بين السلطات لا التدخل بأي شكل من الأشكال، لكننا نجد أن العلاقة بين السلطتين وثيقة حيث يمارس رئيس الدولة اختصاصات تجاه السلطة القضائية تتمثل في اختصاصين مهمين هما:

- حق تعيين قضاة المحاكم ونقلهم.
- حق العفو [10].

ومن جهة أخرى يمكن دعم فعالية وضمان الأمن القضائي باعتماد آليات تمكن من توحيد الاجتهاد القضائي أيضا إقرار آليات قانونية كالتعويض عن الخطأ القضائي[11].

وبالرجوع إلى الدستور المغربي الصادر سنة 2011 نجده قد نص على الأمن القضائي في الفصل 117 منه الذي ينص على " يتولى القاضي حماية حقوق الأشخاص والجماعات وحرياتهم وأمنهم القضائي وتطبيق القانون " بموجب هذا النص جعل من مبدأ الأمن القضائي مبدأ دستوري وضرورة حتمية تتقيد السلطة القضائية بهذا المبدأ عند إصدارها لأحكامها تحت طائلة عدم دستوريتها في حالة مخالفتها [12].

يستخلص من أحكام الدستور المغربي أنه أكد على أهمية الأمن القضائي الذي تعود جذوره إلى فترة التأسيس لمبدأ الفصل بين السلطات وكذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواطن، وذلك لأن القضاء هو الجهة المخول لها حماية الحقوق والحريات من أي خرق مهما كان مصدره وكذا إقامة التوازن بين حق المجتمع في الحماية والأمن وحق الفرد في محاكمة عادلة [13].

أما النسبة لرجعية الاجتهاد القضائي الذي هو تأويل للقاعدة القانونية المكتوبة كما أنه يدخل

في ابتكار القاضي للقاعدة القانونية بما يثيره ذلك من نقاشات، الأمر نفسه الذي ينطبق على رجعية القوانين إلا أن الاجتهاد القضائي هو أقل صرامة من الأثر الرجعي للقانون على اعتبار انه لا يعدل القانون بل يعدل شرحه أو تفسيره إذا ما ظهرت عدم صحة التفسير.

على الرغم من أن مبدأ الحق في محاكمة العادلة ومنصفة هو حق دستوري إلا انه لا يمكن التمسك به للاعتراض على تطبيق اجتهاد قضائي جديد[14].

يمكن التطرق إلى الغرامة التهديدية كمظهر أساسي من مظاهر تكريس مبدأ الأمن القضائي وإضفاء الحجية على الأحكام القضائية التي يأمر بها القاضي قصد تنفيذها، فنتيجة لانتشار مفهوم دولة القانون وتكريس مبدأ استقلال القضاء نتج عنه الإقرار بمسؤولية الإدارة وإلزامها بتنفيذ أحكام القضاء باعتبارها شخص من أشخاص القانون، فإذا قيل أن قوة الدولة تكمن في قوة قضائها فإن قوة القضاء كمؤسسة دستورية تكمن في تنفيذ أحكامه وقراراته[15].

الغرامة التهديدية هي عبارة عن مبلغ مالي يلزم القضاء المدين بتنفيذ التزاماته عينا خلال مدة معينة، فإذا تأخر في التنفيذ كان ملزما بدفع غرامة تهديدية عن هذا التأخر عن كل يوم أو أسبوع أو شهر وذلك إلى أن يقوم بالتنفيذ العيني [16].

يكمل دور القاضي الإداري في تحقيق التوازن بين طرفين غير متكافئين الإدارة بصفتها صاحبة سلطة عامة والفرد الذي يفتقد لهذه السلطة ولعل الإشكالية التي طرحت في هذا الإطار هي ما مدى فاعلية الغرامة التهديدية كأداة لإلزام الإدارة على تنفيذ الأحكام والقرارات القضائية الحائزة لقوة الشيء المقضي به في تحقيق الأمن القضائي؟ [17].

حيث إنه قبل صدور قانون الإجراءات المدنية والإدارية الجديد تم إلغاء القرار الصادر عن القاضي الإداري والمتضمن النطق بالغرامة التهديدية وذلك على اعتبار أن الغرامة التهديدية ينطق بها القاضي كعقوبة؛ وبالتالي ينبغي تطبيق مبدأ قانونية العقوبات والجرائم المنصوص عليها؛ حيث لا يجوز للقاضي الإداري النطق في المسائل الإدارية بالغرامة التهديدية مادام لا يوجد قانون يرخص بها [18].

يمكن القول بأن الغرامة التهديدية جاءت كتدارك للنقص الذي كان في قانون الإجراءات المدنية القديم، إذ إن فعاليتها تكمن في اعتبارها وسيلة ضغط على الإدارة فيشترط للحكم بها أن يكون هناك امتناع من طرف الإدارة على التنفيذ إلا أنه يمكن أن يكون الامتناع عن التنفيذ بسبب تدخل قوة قاهرة أو ظروف تؤدي إلى استحالة التنفيذ، كما يشترط أن يكون الأمر في صورة حكم

قضائي وفيه إلزام للإدارة [19].

ثانيا: صور تكريس مبدأ الأمن القانوني في قضاء مجلس الدولة

يعتبر الأمن بصفة عامة ركيزة أساسية تقوم عليها دولة القانون ويتحقق ذلك بالقانون الذي هو أداة أساسية لتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع؛ لذا يجب أن يكون هذا التنظيم محققا للاستقرار والانضباط في المراكز القانونية وذلك من خلال الأمن القانوني باعتباره قيمة اجتماعية تسعى النظم القانونية إلى تحقيقها وذلك بإتباع وتكريس جملة من الآليات التي من شأنها إدراكه وهو ما سنتناوله في هذا المبحث من خلال التطرق إلى المبادئ المكونة لمبدأ الأمن القانوني.

1- مبدأ عدم رجعية القوانين

يقصد به عدم انسحاب أثر القاعدة القانونية على الماضي واقتصارها على حكم الوقائع التي تقع ابتداء من يوم نفاذها، وهذا يعني أن لسريان القانون الجديد من حيث الزمان وجهان وجه سلبي وهو انعدام أثره الرجعي ووجه إيجابي وهو أثره المباشر، فالقانون لا يمكن أن يحكم الوقائع التي تمت قبل نفاذه فهو لا يملك إعادة النظر فيما تم في ظل القانون القديم من تكوين أو انقضاء مركز قانوني أو من توافر بعض عناصر هذا التكوين أو الانقضاء أو من ترتيب آثار معينة على مركز قانوني [20].

إن فكرة الأمن القانوني يمكن أن تكون سببا في إعطاء صفة مطلقة للنتائج المترتبة على قرينة أن القانون الجديد هو أفضل من القديم، فتطبيق القانون الجديد على من نظموا أوضاعهم في ظل القانون السابق يمكن أن يخل بتوقعاتهم وخططهم المشروعة وبالتالي بمشروعية الأوضاع الفردية محل الاعتبار وفكرة المساواة التي تفترض التطبيق الفوري والعام للقانون الجديد هي فكرة لا تخلو من التجريد، الأمر الذي يقتضي تضييق محلها في كل الحالات التي تتضمن نشاطات فردية بحتة حيث انه من الصعب التسليم بحل موحد للجميع [21].

نظرا للانعكاسات السلبية على مظاهر الأمن القانوني التي تتمثل أساسا في (تضخم التشريع – عدم قابلية النصوص القانونية للفهم –خرق مبدأ المساواة أمام القانون)، وجدت جملة من الوسائل المعتمدة للحد أو التقليل من هذه المخاطر كالتقييم القبلي وخضوع القوانين للرقابة القبلية قبل صدورها، أيضا الأخذ بعين الاعتبار المصلحة العامة، والفئة المستهدفة ومدى تقبل القاعدة، أيضا أثر التعديل المفاجئ للقوانين.

ويظهر تكريس مبدأ الأمن القانوني تطبيقا لمبدأ عدم رجعية القوانين في صورة أساسية من

خلال تطبيق إدارة الضرائب لقوانين المالية، والتي كثيرا ما يتم بموجبها فرض ضرائب جديدة أو الإعفاء من أداء ضريبة كانت مفروضة قانونا، وذلك تحت عنوان السنة المالية الحالية أو السنة المالية الجديدة، وبموجب المادة 02 من القانون المدني، التي تنص على مبدأ عدم رجعية القوانين فإنه من المبادئ القانونية المعمول بها أن تحصيل الضرائب بجميع أنواعها عن سنة معينة تتم طبقا للقوانين والأوامر والنصوص التطبيقية الجاري بها العمل عند تاريخ نشر قانون المالية في الجريدة الرسمية وعليه فإنه تطبيقا لذلك قد تم إلغاء القرار الصادر عن إدارة الضرائب التي خرقت القانون خرقا واضحا لتطبيقها مقتضيات المادة 49 من قانون المالية لسنة1983 على نشاط تجاري تمت ممارسته في سنة 1982، وذلك على اعتبار أن مبدأ عدم رجعية القوانين مبدأ رسمي في القانون لا يجوز مخالفته،ومما جاء في حيثيات القرار رقم 54717 الصادر بتاريخ 1987/11/21 ما يلي " حيث أن مبدأ عدم رجعية القوانين يعد مبدأ رسمي في القانون ومن ثم فإنه لا يجوز مخالفته.

حيث إنه وحسب مبدأ قانوني مستقر ومعمول به فإن تحصيل الضرائب بجميع أنواعها عن سنة معينة يتم طبقا للقوانين والأوامر والنصوص التطبيقية الجاري بها العمل عند تاريخ نشر قانون المالية في الجريدة الرسمية " [22].

وفي هذا الإطار نطرح السؤال التالي:هل يمكن تطبيق أحكام القانون الجديد على الماضي إذا تضمن الأخير قواعد قانونية أصلح للمكلف بالضريبة وذلك على غرار القاعدة المطبقة في قانون العقوبات ؟

على اعتبار أن الغاية من تطبيق القانون الأصلح للمتهم هي حماية المصلحة الفردية بشرط أن لا يضر ذلك بالمصلحة العامة من ثمة فإنه لإعمال القانون الأصلح للمكلف لابد أن يشير إليه المشرع الضريبي صراحة، إلا انه نجد أن تطبيق القانون الأصلح للمكلف بالضريبة على الماضي حتى وإن كان سيترتب عليه تحقيق منافع خاصة لكن بالمقابل سيؤدي إلى الإضرار بشكل كبير بالمصلحة العامة وبالخزينة العامة للدولة.

أيضا من أهم مبررات عدم رجعية القوانين الضريبية ذكر:

- إن الأحكام القانونية الخاصة بالضريبة واضحة لا لبس فيها؛ حيث يتم تحديد وقت الالتزام بالضريبة ووقت الجباية وإجراءات التحصيل والإقرار برجعية القوانين الضريبية سيؤدي إلى الاضطراب في القواعد القانونية التي يخاطب بها المكلفون وسيفاجئون ببروز عبء غير

متوقع على عاتقهم وبالتالي عدم استقرار معاملاتهم من ناحية أخرى[23].

– الإضرار بمصلحة الخزينة العمومية خاصة إذا لم يقرر المشرع في ظل القانون الجديد بفرض ضريبة جديدة أو رفع السعر القائم منها بل على العكس يقضي بإلغاء إحدى الضرائب المقررة سابقا أو تخفيض سعرها، وسحب هذا الأمر على السنوات السابقة لصدوره مما يعني إلزام الإدارة الضريبية بإعادة الأموال المستقطعة [24].

2- مبدأ الثقة المشروعة أو التوقع المشروع

يستوجب الإشارة في هذه النقطة أن مبدأ الأمن القانوني وعلى وجه الخصوص مبدأ الثقة المشروعة يجد أساسه في القانون الخاص فيمكن تعريف الثقة المشروعة بأنها الاعتقاد المتولد لدى الدائن من موقف المدين وتكون مشروعة عندما تحيل على اعتقاد عام تدعمه السلطة العمومية (كحكم القاضي بإلزامية العقد مثلا) حيث يقوم القاضي بترجمة الوعي الجمعوي، كما تعني الثقة المشروعة أن السلطات الإدارية ملزمة باحترام التطلعات التي أثارتها على العموم.

وقد عرفت محكمة العدل للمجموعة الأوروبية الثقة المشروعة أنها: "كل وضعية في الواقع ما لم يقرر خلاف ذلك تقدر على ضوء قواعد القانون المطبق وأن يكون القانون واضحا ودقيقا حتى يمكن للفرد معرفة حقوقه وواجباته ويتخذ موقفه اتجاه ذلك" [25].

يظهر هذا المبدأ بشكل أساسي من خلال مبدأ حسن النية في العقود الذي يقصد به مراعاة كل من المتعاقدين صالح المتعاقد الآخر وطبيعة الالتزام وعدم تعمد إلحاق الضرر به وذلك بأن يكون تنفيذه لالتزامه بالطريقة التي اتفق عليها الطرفان، وبذلك يقوم مبدأ حسن النية في تنفيذ العقود على أساسين، فوفقا للأساس الشخصي المتمثل في انتفاء سوء النية لدى المتعاقد بكل الصور والأوضاع والأساس المادي لحسن النية المتمثل في تجنب الإهمال والتقصير وذلك ببذل عناية الرجل العادي [26].

كما يمكن أن يتجسد هذا المبدأ في قواعد القانون التجاري كالالتزام بالأمانة للقيام بالفعل وإتباع المعايير التجارية المعقولة في التعامل العادل للتجار،من أجل المحافظة على الثقة والصدق في العمل والالتزام بالنزاهة في تنفيذ الالتزامات وهو التزام يقع على عاتق طرفي العقد [27]،وفي إطار المعاملات التجارية يرى الفقهاء ضرورة إضفاء صفة التاجر على الشخص الظاهر الذي يقوم بممارسة الأعمال التجارية مع الغير قصد حماية الثقة المشروعة التي تتولد لدى الغير من خلال ظهوره بمظهر التاجر [28].

وتعتبر أهم صورة تدل على تكريس مبدأ حسن النية في تنفيذ العقود الإدارية كفالة الضمان أو المبلغ المالي الذي يلتزم المتعامل المتعاقد بتقديمه للتأكيد على استعداده لتحمل كافة التزامات العقد، والتي يمكن أن تكون في شكل كفالة تعهد فيما يخص صفقات الأشغال واللوازم وكفالة حسن التنفيذ الصفقة بالنسبة لبعض صفقات الدراسات والخدمات، ويحدد مبلغ كفالة حسن التنفيذ بنسبة تتراوح بين 5٪ إلى 10٪من مبلغ الصفقة.

فهذا المبدأ من المبادئ الأساسية في العقد وهو مبدأ يسود العقد في جميع مراحله بحيث لا تقتصر آثاره على إبرام العقد بل يمتد إلى تنفيذه وانقضائه، وفي مقابل ذلك فإنه من أهم الالتزامات التي تقع على عاتق المصلحة المتعاقدة والتي تترتب عن إبرام العقد الإداري التزامها بالحفاظ على التوازن المالي للعقد متى طرأت ظروف من شأنها أن تؤدي إلى إثقال كاهل المتعامل المتعاقد وتجعل مواصلة تنفيذ الالتزامات صعبا.

تلتزم الإدارة المتعاقد بإرجاع مبلغ الضمان متى التزم المتعامل المتعاقد بكافة التزاماته التعاقدية وكان التنفيذ مطابقا لأحكام وبنود الصفقة وطبقا لما تم الاتفاق عليه في دفتر الشروط، وذلك بعد التسليم النهائي للأعمال باعتبارها مرحلة مهمة كغيرها من مراحل إبرام العقد بداية من مرحلة التفاوض أو المرحلة السابقة على التعاقد وصولا إلى نهاية التسليم والإخلال بالالتزامات يرتب على عاتق الطرف المسؤول عن هذا الإخلال المسؤولية وهذه الالتزامات جميعها مبنية على مبدأ حسن النية.

وحسب القرار رقم 4546 الصادر بتاريخ 2002/04/22 فإنه لا يجوز استرجاع المبلغ الخاص بالضمان وكذا تسديد الفاتورة الخاصة بمراجعة الأسعار مادام أن المشكل قائم بين المتعاملين [29].

بالنسبة للمشرع الجزائري فقد تم التأكيد على ذلك من خلال ما جاء به التعديل الدستوري الجديد الصادر في 2016 وبالتحديد ما جاء في نص المادة 188 التي تنص على "يمكن إخطار المجلس الدستوري بالدفع بعدم الدستورية بناء على إحالة من المحكمة العليا أو مجلس الدولة، عندما يدعي أحد الأطراف في المحاكمة أمام الجهة القضائية أن الحكم التشريعي الذي يتوقف عليه مآل النزاع ينتهك الحقوق والحريات التي يضمنها الدستور..." [30].

وفي إطار التعليق على القرار الصادر عن مجلس الدولة الفرنسي تم إلغاء المرسوم الصادر في 2005 والذي جاء بتدابير انتقالية تطبيقا لما جاء به القانون الصادر في 01 أوت 2003 هذا

الأخير الذي جاء بقواعد قانونية جديدة لضمان شفافية المالية وتحقيق الأمن المالي.

يوضح مجلس الدولة أن القواعد التي تطبق عند سن لوائح جديدة يتم استثناء الأوضاع التعاقدية الحالية والتي تحكمها اللوائح المعمول بها في التاريخ الذي أنشأت من أجلها وذلك في إطار احترام مبدأ الثقة المشروعة[31].

أما فيما يخص الأثر الرجعي للحكم بعدم الدستورية فيقصد بها أن القانون المحكوم بعدم دستوريته يعتبر منعدم القيمة القانونية من وقت صدوره لا من وقت صدور الحكم أي أن أثره ينسحب على كافة المراكز القانونية التي نشأت بموجبه وعلى الأوضاع الحقوق والواجبات التي تقررت في ظله [32].

ونلاحظ تكريس القضاء الإداري لهذا المبدأ على وجه الخصوص فيما يخص إلغاء النصوص القانونية واللوائح التنظيمية لمساسها بالمراكز القانونية للأفراد أو لمخالفتها قاعدة قانونية أسمى ومثال ذلك القرار رقم 15581، القاضي بإلغاء عقوبات تطبيقا للائحة تنظيمية صادرة عن جمعية عامة نظرا لمخالفتها للنص القانوني الوارد في المرسوم الذي هو أسمى من اللائحة، حيث أن المبدأ القانوني السائد أن الجمعيات العامة يمكن لها أن تصدر لوائح تنظيمية في حدود ما يسمح به القانون، وبإصدار الجمعية العامة للائحة رقم 05 التي تنص على أنه يقصى تلقائيا كل عضو ينادي بالانقسام داخل المعهد وذلك دون إحالته على اللجنة التأديبية.

وفي هذه اللائحة مخالفة صريحة لمبدأ حق الدفاع المكرس دستوريا بنص المادة 169 من الدستور، ومخالفتها للمادة 07 من المرسوم 421/01 المؤرخ في 2001/12/02[33]، أيضا إصدارها للائحة رقم 07 مخالفة لنص المادة 04 من نفس المرسوم فيما يخص طريقة تعيين الأعضاء [34].

وبناء عليه فإن الطعن في لائحة تنظيمية وتطبيق القانون السليم على اعتبار أن التشريع هو الوسيلة الأساسية لتنظيم علاقات الأفراد داخل المجتمع وذلك كله بهدف تحقيق غاية الأمن القانوني.

أيضا الطعن في القرار القرارات الوزارية وكمثال على ذلك القرار رقم 19704 الصادر في 2005/02/15، المتضمن الطعن في قرار وزاري المشترك يتضمن تحديد قائمة المنتجات الصيدلانية القابلة للتعويض على الرغم من أنه لم يتم إلغاؤه.

أيضا يمكن التطرق إلى القرار رقم 044879 الصادر بتاريخ 2008/10/21 والقاضي

بإبطال القرار الصادر عن وزير العدل حافظ الأختام رقم 1050المؤرخ في 2007/04/17 والمتضمن قرار عزل محضرة قضائية دون إحالتها على المجلس التأديبي والحصول على موافقة 3/2 من الأعضاء المكونين له ومخالفته لنص المادة 53 من القانون المنظم لمهنة المحضر القضائي والذي جاء في حيثياته " حيث أن مفهوم هذه المادة 57 من القانون 06-03 الذي يستند إليها وزير العدل حافظ الأختام كأساس قانوني لتبرير قرار العزل،فهي تختص توقيف المحضر القضائي عن مزاولة مهنته في انتظار إحالته على المجلس التأديبي ولا تعني عزل المحضر القضائي.

حيث أخيرا فإن المادة 53 من نفس القانون الفقرة 2 نصت على أنه لايتم إصدار عقوبة العزل إلا بأغلبية ثلثي 3/2 للأعضاء المكونين للمجلس التأديبي.

حيث إنه يتبين مما سبق ذكره أن قرار العزل الذي يستند على أحكام المادة 57 من القانون 06-03 قد جاء مخالفا للقانون مما يستوجب إلغاؤه. " [35].

أيضا من أوجه إلغاء القرارات الوزارات لمخالفتها للنصوص القانونية وتجاوزها للسلطة صدور القرار رقم 027544 الصادر بتاريخ 2006/02/14 عن مجلس الدولة والقاضي بإبطال القرار الوزاري رقم 03 المؤرخ في 2005/01/04 الصادر عن وزير التشغيل والتضامن الوطني المتضمن إنشاء اللجنة القطاعية التحضيرية المشتركة للجمعية العامة الانتخابية للهلال الأحمر الجزائري وما ترتب عنه من آثار [36].

3- مبدأ احترام الحقوق المكتسبة

يعني هذا المبدأ انه لا يجوز لأي من سلطات الدولة سلب أو انتهاك حقوق استمدها الأفراد بطريق مشروع وبموجب القوانين والقرارات النافذة خاصة متى ما كانت هذه الحقوق تتعلق بممارسة الحقوق والحريات خاصة تلك التي تم النص عليها بموجب الدستور كحق الملكية وحق الجنسية.....[37]

يمكن تعريف الحق المكتسب بأنه ذلك الحق الناشئ عن تصرف قانوني والذي ينشئ مركزا قانونيا، فتتقيد فكرة الحق المكتسب في القانون الإداري بشكل كبير بمبدأ عدم المساس والذي يعني أنه لا يمكن للإدارة المساس بالتصرف القانوني الذي ينشئ آثار قانونية فردية سواء بإلغائه أو تعديله، فمفهوم الحق المكتسب يعتمد على فكرة ضرورة استقرار المراكز القانونية وبالتالي استقرار التصرفات المتعلقة بها [38].

وفي مجال القرارات الإدارية يمكن الحديث عن سلطة الإدارة في سحب وإلغاء القرارات الإدارية، فتقوم الإدارة بإلغاء القرار الإداري الصادر عنها وهنا تنتهي آثاره بالنسبة للمستقبل إلا أنه هناك أسباب مختلفة لهذا الإلغاء فقد يتغير التشريع الذي صدر القرار في ظله فيصدر تشريع جديد يحمل أثرا رجعيا ففي هذه الحالة تصدر الإدارة قرارا جديدا بإلغاء هذا القرار القديم إعمالا للقانون الجديد ذي الأثر الرجعي، أيضا من أسباب إلغاء القرار الإداري من جانب الإدارة أن يكون لدواعي المصلحة العامة ومن أجل المحافظة على النظام العام [39].

إلا انه تتقيد الإدارة عند قيامها بإلغاء قراراتها بألا تتعدى على الحقوق المكتسبة للأفراد جراء هذه القرارات فمتى صدرت صحيحة من الناحية القانونية فلا يمكن للإدارة إلغاؤها كقاعدة عامة، أما إذا كان القرار الفردي معيب من الناحية القانونية فإن للإدارة الحق في إلغائه لكن خلال مواعيد الطعن،أما في حالة فوات المواعيد فإن القرار يتحصن ضد الإلغاء وذلك إذا كان قد أنشأ حقا مكتسبا لمن صدر بشأنه وذلك احتراما للحق المكتسب [40].

يعد مبدأ الأمن القانوني من المبادئ التي أخذ بها مجلس الدولة من خلال حكمه في حيثية مبدئية بأن موضوع القانون لابد أن يراعي الأهمية المعيارية للحقوق المكتسبة واستقرار المراكز القانونية للأفراد، فلابد أن إمكانية الإدارة لإلغاء القرار الفردي المنشئ للحقوق يستوجب توفر شرطي التسبيب الجدي لقرار الإلغاء وإصداره في آجال الطعن القضائي وهذا ما جاء به القرار رقم056947الصادر عن مجلس الدولة في 2010/10/28 والذي جاء في حيثياته " حيث أن المقرر المطعون فيه خرق مبدأ الحق المكتسب إذ أن مقرر الإعانة صدر بتاريخ 2006/06/04 والمقرر المطعون فيه المتضمن إلغاء منح إعانة الدولة صدر بتاريخ 2008/01/14 بمعنى أنه عدل مراكز قانونية بعد فوات أربعة أشهر المنصوص عليها في قانون الإجراءات المدنية والإدارية

حيث لا نجد المبررات والأسباب التي أدت إلى إلغاء المقرر.....

حيث أن المقرر المطعون فيه مشوب بعيب تجاوز السلطة الأمر الذي يستدعي إبطاله " [41].

ومن هنا يمكن القول بأن هذا القرار يعتبر كصورة فعلية لتكريس مبدأ الأمن القانوني في القضاء الإداري الجزائري.

أيضا العقد الإداري الذي تم بموجبه إنشاء مستثمر فلاحية وترتب عنه حقوق مكتسبة لأعضائها، وبالتالي صدور قرار ولائي بإضافة عضو جديد والصادر دون نيل الموافقة من المستثمرين الأصليين يعد مخالفا للقانون ومعرضا للبطلان.وذلك في القرار رقم 035298

الصادر عن مجلس الدولة في 2007/07/25 [42].

وفي هذا الإطار فإن إلغاء القرار الصادر عن مدير الضرائب للولاية لمخالفته لنص قانوني لا يخوله سلطة إلغاء قرار لجنة الطعن للضرائب إلا عن طريق الطعن القضائي يجعل منه كصورة أكيدة وحتمية للأخذ بمبدأ الأمن القانوني والذي جاء في حيثياته " حيث أن النزاع يخص مدى أحقية مدير الضرائب في إلغاء قرار لجنة الطعن للضرائب المباشرة والرسوم المماثلة والرسم على القيمة المضافة

حيث أنه بذلك فالمستأنف مدير الضرائب للولاية كما أقدم باتخاذ القرار محل النزاع المؤرخ في 2007/12/22 تحت رقم 07/19، الذي ألغى بموجبه قرار رأي لجنة الدائرة للطعن يكون قد تجاوز اختصاصه وخالف بذلك القانون "

ومن المبادئ المستقر عليها أنه لا يجوز مدير المؤسسات الكبرى للمدير الولائي للضرائب، لمدير مركز الضرائب أو لمدير المركز الجواري للضرائب إلغاء القرار الصادر عن لجنة الطعن للضرائب إذا تبين لهم أنه غير مؤسس طالما ان المادة 80 قانون الإجراءات الجبائية لا تخول له سوى صلاحية إيقاف تنفيذه والطعن في مدى مشروعيته أما المحكمة الإدارية [43]، حيث تنص المادة 80 ف 4 ق إج على ما يلي " عندما يعتبر رأي اللجنة غير مؤسس،فإن مدير المؤسسات الكبرى أو المدير الولائي للضرائب أو رئيس مركز الضرائب أو رئيس المركز الجواري للضرائب يعلق تنفيذ هذا الرأي على أن يبلغ الشاكي بذلك وفي هذه الحالة، تقوم هذه السلطات برفع طعن ضد رأي اللجنة إلى المحكمة الإدارية في غضون الشهرين المواليين لتاريخ استلام هذا الرأي"[44].

أما بالنسبة للعقود الإدارية فالفكرة التي كانت سائدة هي أنه بمجرد إبرام العقد الإداري أو التصرف المركب وصيرورته نهائيا فإنه لا يمكن الطعن بالإلغاء في أي من القرارات المساهمة في تكوينه إذ أن هذه العملية المركبة قد تولد عنها حقوق مكتسبة لأطرافها وأن إلغاء أي من هذه القرارات المرتبطة بهذه العملية يتضمن المساس بهذه الحقوق، وأن هذه القرارات تصبح نهائية ومحصنة ضد السحب أو الإلغاء بمجرد أن تتبعها عقود أو قرارات تنشئ حقوق مكتسبة [45].

إلا أنه إذا كان القرار الإداري صادرا من الإدارة المتعاقدة وكان مخالفا لشروط العقد أو كان يسبب ضررا معينا للمتعاقد معه فإن هذا المتعاقد يمكنه اللجوء إلى القضاء، لذلك اخترع القضاء الفرنسي ما يسمى بنظرية القرارات القابلة للانفصال ومعناها أنه إذا كان من الممكن فصل القرار عن العملية العقدية والطعن عليه باستقلال فإنه من حق الغير الطعن فيه بالإلغاء إذا كان قد

أصيب بضرر من هذا القرار[46].

يقصد بالقرار المنفصل ذلك القرار الذي يساهم في تكوين العقد الإداري ويستهدف إتمامه إلا أنه ينفصل عن هذا العقد ويختلف عنه في طبيعته فهو قرار يساهم في إبرام العقد ويمهد لهذا الإبرام ولا يدخل في نطاق الرابطة التعاقدية مما يجيز الطعن فيه بالإلغاء واستقلاله عن العقد[47].

ومن أمثلة القرارات المنفصلة عن العقد الإداري نذكر القرارات الصادرة بشطب اسم بعض الأشخاص عن عدد المتعاقدين من الإدارة، القرارات الصادرة بحرمان بعض الأشخاص من دخول المناقصة لفترة من الزمن، قرار استبعاد أحد المنافسين، قرار إرساء المناقصة [48].

وتم تكريس ذلك في القرار رقم 14637 الصادر في 2004 الذي يخص مناقصة وطنية مفتوحة قصد إنجاز دراسة أين منحت الصفقة لمكتب دراسات رفضته لجنة تقييم العروض والمبدأ السائد انه متى كان ذلك استوجب الأمر تقرير تعويض للمتضرر من هذا التصرف فجاء في حيثياته "....وأنه بتاريخ 2001/06/26 اجتمعت لجنة تقييم العروض وقامت برفض 10من12 عرض مقدمة محتفظة بكل من عرض المستأنف وعرض السيد ص.ط.

وأنه أثناء انتظار المستأنف والسيد ص.ط للقرار النهائي للجنة تقييم العروض تفاجئ الاثنان بالإعلان في الجريدة الصادرة في 2001/11/30 عن مناقصة مفتوحة تدعو المقاولين الراغبين في إنجاز المشروع التقرب إلى مكتب دراسات السيد ع.ف الذي رفضت لجنة تقييم العروض عرضه في اجتماعها المؤرخ في 2001/06/26.

وأنه قام المستأنف برفع دعوى أمام قضاة الدرجة الأولى ملتمسا التعويض عما لحقه من ضرر مادي ومعنوي.

وأن لجنة تقييم العروض تقوم بتحليل العروض وبدائل العروض إن اقتضى الأمر من أجل إبراز المقترحات التي ينبغي تقديمها للهيئات المعنية، ومنه لا يمكنها اختيار سوى من بين المترشحين الذين قبلوا من طرف لجنة تقييم العروض.

وأنه باتخاذ البلدية قرار منح الصفقة للسيد ع.ف الذي رفضت لجنة التقييم عرضه إضافة إلى 9مرشحين آخرين قامت بارتكاب مخالفة لقانون الصفقات العمومية وألحقت ضررا أكيدا بالمستأنف وأن الجهة القضائية الأولى بفصلها على نحو قد قدرت فيه وقائع القضية تقديرا سليما وأحسنت تطبيق القانون مما يتعين تأييد القرار في كافة مقتضياته " [49].

خاتمة

تتعد مظاهر تكريس مبدأ الأمن القانوني حسب طبيعة النظام القائم في الدولة، كما أنه هناك العديد من الآليات التي من شأنها تحقيق الأمن القانوني؛ حيث نلاحظ تعدد مجالات حماية مبدأ احترام الحقوق المكتسبة ومن أهمها مبدأ الأمن القانوني في المجال الاستثماري، وذلك من خلال جملة الضمانات الممنوحة للمستثمر الأجنبي، ونظرية الوضع الظاهر فالقاعدة العامة أن الأوضاع غير القانونية لا تستحق حماية القانون إلا أنه خروجا عن هذه القاعدة قصد تحقيق الاستقرار القانوني وتكريس الاستقرار في المعاملات والمراكز القانونية يمكن أن تسبغ الحماية القانونية على أوضاع فعلية نشأت على خلاف حكم القانون ومن أهم تطبيقاتها في القانون الإداري نظرية الموظف الفعلي، إضافة إلى تقيد الإدارة بمبدأ العدالة التصحيحية؛ حيث أنه في حالة ما إذا تسببت الإدارة في أضرار فهي التي تقوم بتصحيحها وجبرها وذلك في إطار التطرق إلى مبدأ الثقة المشروعة كمبدأ عام يمكن أن يقيد الأعمال القانونية الإدارية، أيضا لا يمكن تجاهل العديد من النقاط التي من شأنها التأثير على مبدأ الثقة المشروعة كالتضخم في القوانين أو عدم استقرار القاعدة القانونية وعلى وجه الخصوص القاعدة القانونية المنظمة لعقود الصفقات العمومية وتوالي التعديلات القانونية الخاصة بها، والتي من شأنها التأثير على حقوق المتعاقدين وعدم استقرار المراكز القانونية ودور نظرية فعل الأمير ونظرية الظروف الطارئة في تكريسها لمبدأ احترام الحقوق المكتسبة أيضا تعدد الاجتهاد القضائي وتوسع نطاق السلطة إعمال السلطة التقديرية للقاضي، ضف إلى ذلك دور الحكومة في سن القوانين خاصة التشريع خارج نطاق البرلمان ومدى رقابة المجلس الدستوري على دستورية القوانين.

ـ الهوامش:

1 – سعدي محمد الخطيب، فلسفة القانون وحقوق الإنسان، منشورات الحلبي الحقوقية، ط1، د ب، 2013، ص 126.

2 – مصطفى بنشريف و فريد بنته، الأمن القانوني والأمن القضائي، ص 1 www.marocdroit.com الإطلاع في 2016/07/12.

3 – أحمد إبراهيم حسن، غاية القانون "دراسة في فلسفة القانون "،دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، 2003، ص 180.

4 – يونس العايشي، مبدأ الأمن القانوني وضرورة الأمن القضائي وأثرهما في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، دار السلام، الرباط، نوفمبر 2012، ص 14. www.darssalam.ma

5 – تم ترسيخ مبدأ الأمن القانوني في ألمانيا سنة 1961 من طرف المحكمة الدستورية الفدرالية في ألمانيا أيضا

أكدت المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان أن القانون يجب أن يكون واقعيا سنة 1981 للمزيد من التفصيل أنظر عبد المجيد غميجة، مبدأ الأمن القانوني وضرورة الأمن القضائي، عرض مقدم في إطار الندوة المنظمة من طرف الوداية الحسنية للقضاة بمناسبة المؤتمر الثالث عشر للمجموعة الإفريقية للإتحاد العالمي للقضاة، الدار البيضاء، 28 مارس 2008، ص 03.

6 – أحمد إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص ص 183–184.

7 – ذبيح ميلود مبدأ الفصل بين السلطات في النظام الدستوري الجزائري، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2006، ص 07.

8 – سعد محمد الخطيب،مرجع سابق، ص 127.

9 – ما يؤكد هذا الطرح نص المادة 156 الدستور " السلطة القضائية مستقلة وتمارس في إطار القانون رئيس الجمهورية ضامن استقلال السلطة القضائية" من جهة رئيس الجمهورية هو الذي يمثل السلطة التنفيذية ورئيسها ومن جهة ثانية هو ضامن لاستقلال السلطة القضائية ألا يعتبر ذلك كتداخل في عمل السلطات ؟

10 – هادى محمد عبد الله الشدوخى، التوازن بين السلطات والحدود الدستورية بينها – دراسة دستورية مقارنة –، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2015، ص ص200–203.

11 – حميد شرغو ورشيد الشافعي، مكانة الأمن القضائي من خلال ميثاق إصلاح منظومة العدالة، بحث لنيل شهادة الإجازة في القانون الخاص، جامعة سيدي محمد بن بد الله فاس، كلية العلوم القانونية الاقتصادية والاجتماعية، فاس، 2014/2013، ص 23.

12 – مصطفى بنشريف وفريد بنته، مرجع سابق، ص 10.

13 – الفصل 117 من الدستور المغربي، الجريدة الرسمية العدد 5964 مكرر، الصادرة بتاريخ 28 شعبان 1423 الموافق ليوليو 2011، ص51.

14 – صاري نوال، التفرقة بين الأثر الرجعي للقانون ورجعية الاجتهاد القضائي،ملتقى الأمن القانوني،جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 6/5 ديسمبر 2012، ص 04.

15 – عمار بوضياف، تنفيذ قرارات الإلغاء القضائية في القانون الجزائري، جامعة الملك سعود،2014، ص03.
http://fac.ksu.edu.sa/hidaithy/page12/10/2016 10:48

16 – خالد الدك، الغرامة التهديدية في ضوء القانون والاجتهاد القضائي،مجلة القانون والأعمال، 2012، ص 1 10/12/2016.www.droitetentreprise.org

كما يمكن تعريفها بأنها وسيلة لإجبار الإدارة على تنفيذ أحكام وأوامر وقرارات القضاء الإداري لذلك عرفت على أنها عقوبة مالية تبعية تحدد بصفة عامة عن كل يوم تأخير ويصدرها القاضي لضمان حسن تنفيذ حكمه.

17 – فريدة مزياني، دور الغرامة التهديدية في تحقيق الأمن القضائي، ص2

18 – القرار رقم 14989الصادر في 2003/04/08، سايس جمال، الاجتهاد الجزائري في القضاء الإداري، منشورات كليك، الجزائر، 2013، ص 1065.

19 – بوضياف عادل، الوجيز في شرح قانون الإجراءات المدنية والإدارية، ج2، ط1،دار كليك للنشر، الجزائر، 2012، ص 344.

20 – أحمد إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص 198

21 – منذر الشاوي، فلسفة القانون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2009، ص 92.

22 – القرار رقم 54717 الصادر في 1987/11/21، سايس جمال، مرجع سابق، ص 298،299.

23 – رائد ناجي أحمد، مبدأ عدم رجعية القوانين الضريبية وتطبيقه في العراق، مجلة جامعة تكريت للعلوم القانونية والسياسية، العدد 2، 2009، ص 312.

24 – المرجع نفسه، ص 313.

25 – عبد المجيد غمجة، مرجع سابق،ص 06.

26 – إبراهيم أحمد إبراهيم الذيابات، حسن النية في تنفيذ العقود في القانون المدني الأردني –دراسة مقارنة –، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، قسم القانون، 2005، ص ص 10–15.

27 – حسن النية، مبدأ حسن النية في تنفيذ المعاهدات الدولية، مجلة الديالى، العدد 64، 2014، ص 180. كما يظهر هذا المبدأ في مجال التعاقد الإلكتروني فمن أهم الالتزامات المتفرعة عن مبدأ حسن النية والتي بخلافها تترتب المسؤولية على الطرف المخل نذكر: الالتزام بالإعلام والالتزام بالسرية للمزيد من التفصيل حول مبدأ حسن النية في التعاقد الإلكتروني أنظر: إيناس مكي عبد نصار، التفاوض الإلكتروني "دراسة مقارنة " في ظل بعض التشريعات، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية،المجلد 21، العدد 3،2013، ص ص952–953.

28 – عبد القادر البقيرات، مبادئ القانون التجاري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص 44.

29 –القرار رقم 4546 الصادر في 2002/04/22 سايس جمال، مرجع سابق،ص 1473.

30 – المادة 188 من القانون رقم 01/16 مؤرخ في 26 جمادى الأولى 1437 الموافق ل 06 مارس 2016، يتضمن التعديل الدستوري، الجريدة الرسمية، العدد 14.

31 -Philippe raymbault, recherche de de sécurité juridique en droit administratif français , l'extenso éditions Le principe de sécurité juridique (CE, ass., 24/03/2006, KPMG p02.

32 – عامر زغير محيسن، الموازنة بين فكرة الأمن القانوني ومبدأ رجعية أثر الحكم، مركز دراسات الكوفة، 2010، ص7.

33 – تنص المادة 07 ف 05 من المرسوم التنفيذي رقم 01/421 على " تتمثل المهام المخولة لمجلس النقابة..... الوقاية من كل النزاعات المهنية بين أعضاء النقابة وتسويتها وعرضها إن اقتضى الأمر على غرفة المصالحة والانضباط والتحكيم "

أيضا تنص المادة 04 من نفس المرسوم على " ينتخب أعضاء مجلس النقابة الوطنية على التوالي من قبل نظائرهم في اقتراع يسري لمدة 04سنوات ويمكن أن يعاد انتخابهم عند انتهاء عضويتهم "

المرسوم التنفيذي رقم 01–421 المؤرخ في 05 شوال 1425 الموافق ل20 ديسمبر 2001، يعدل ويتمم المرسوم التنفيذي رقم 92–20 المؤرخ في 08 رجب 1412 الموافق ل13جانفي 1992 المعد والمتمم الذي يحدد تشكيل مجلس النقابة الوطنية للخبراء المحاسبين ومحافظي الحسابات والمحاسبين المعتمدين وبضبط اختصاصاته وقواعد عمله، الجريدة الرسمية، العدد 80.

34 – مجلة مجلس الدولة، العدد5، 2004، ص 237.

35 – سايس جمال، الاجتهاد الجزائري في القضاء الإداري، ج3، منشورات كليك، الجزائر، 2013، ص 1586.

36 – سايس جمال، مرجع سابق،ج3، ص1467 أيضا القرار رقم 33853 الصادر بتاريخ 1984/05/26،فمن المبادئ المعمول بها أن القرارات الفردية الضارة بالأفراد لا تطبق في حقهم بأثر رجعي وإنما تطبق ابتداء من تاريخ تبليغ قرار التصريح بالعقوبة ومن ثم فإن القرار الإداري الذي يقضي بعقوبة تأديبية خلافا لما ورد في أحكام هذا المبدأ يعد مخالفا للقانون.

ومن الثابت في هذه القضية أن وزير الخارجية أصدر بتاريخ 1982/04/01 قرار تضمن عزل موظف بأثر رجعي ونص فيه على سريان مفعوله ابتداء من 1981/11/20 في حين أن هذا الموظف قد استمر في تأدية وظائفه برضا رؤسائه وكان من المتعين على الأقل اللجوء إلى إجراء توقيف هذا الموظف قبل اتخاذ قرار عزله.

ومتى كان كذلك تعين قبول عريضة الطعن والتصريح بإبطال القرار المطعون فيه أنظر نفس المرجع، ص 179.

والقرار رقم 135946 القاضي بإبطال منشور وزاري صادر عن وزير الداخلية والذي يتعلق بحقوق والتزامات الأشخاص دون إثبات مخالفتهم لبنود العقد وبالتالي يعد تجاوزا للسلطة.أنظر:نفس المرجع، ص 656.

37 – عامر زغير محيسن، الموازنة بين فكرة الأمن القانوني ومبدأ رجعية أثر الحكم بعدم الدستورية، مركز دراسات الكوفة، العدد الثامن، 2010، ص 05.

38 – حمدى أبو النور السيد عويس، مبدأ احترام الحقوق المكتسبة في القانون الإداري، دار الفكر الجامعي الإسكندرية، 2011، ص ص 10،11.

39 – عبد العزيز عبد المنعم خليفة، الأسس العامة للقرارات الإدارية مقومات وعيوب القرار الإداري "نفاذ وتنفيذ ووقف تنفيذ القرار الإداري "، دار الفكر والقانون للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2012، ص 279.

40 – حمدي أبو النور السيد عويس، مرجع سابق، ص 13.

41 – مجلة مجلس الدولة، العدد 10، 2012، ص105.

42 – مجلة مجلس الدولة، العدد09، 2009، ص 111.

43 – مجلة مجلس الدولة، العدد 10،مرجع سابق، ص ص 89–90.

44 – المادة 80 من قانون الإجراءات الجبائية المنشئ بموجب القانون رقم 15–18 المؤرخ في 30 ديسمبر 2015 يتضمن قانون المالية لسنة 2016.

45 – محمد سمير محمد جمعة، مدى قبول الطعن بالإلغاء في القرارات القابلة للانفصال في النظامين الفرنسي والمصري، مجلة البحوث القانونية والاقتصادية، العدد 49، أفريل 2011، ص ص 193 –194.

46 – حمدي أبو النور السيد عويس، مرجع سابق، ص 144.

47 – خلوفي رشيد، قانون المنازعة الإدارية، تنظيم واختصاص القضاء الإداري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 77.

48 – للمزيد من التفصيل حول القرارات المنفصلة عن العقود الإدارية انظر: رشا عبد الرزاق جاسم،الطعن بالإلغاء في القرارات الإدارية المنفصلة عن العقد الإداري، مجلة الحقوق، جامعة المستنصرية، كلية القانون، المجلد 4، 2011، ص ص 191 –214.

The principle of legal security and its dedication in the administrative judiciary

Mohammed BOUKAMECHE*
Khouloud KELLACHE**

Abstract:

The principle of legal security is one of the most important principles on which the state of law is based, this means that the legal status are clear and effective, it is based on a number of legal principles that must be adhered to in any society based on the rule of law. It is based on a number of legal principles that must be adhered to in any society based on the rule of law, Such as knowledge and access to legal rule and the special obligation of the State.

It is worth mentioning that the judiciary is a crucial element in resolving disputes which is an essential part of the idea of legal security, We cannot deny that this principle is enshrined in the judiciary, especially the administrative judiciary, by presenting a series of cases in which the State Council was dismissed, which is considered as a true picture to enshrine the principle of legal security, such as the annulment of a decision by an administrative authority on the basis of acquired rights.

Keywords: Security, Law, Administrative Justice.

* Faculty of Law and Political Science - University of Khenchela – Algeria.
* * Faculty of Law and Political Science - University of Khenchela – Algeria.

آلية التصديق الالكتروني كضمانة للتعاملات التجارية بالوسائل الحديثة في التشريع الجزائري

بقلم
د/ دريس كمال فتحي(*)

ملخص

أصبح التعاقد باستعمال الوسائل الالكترونية الحديثة الأكثر شيوعا في مجال التجارة، إلا أنها لا تخلوا من مخاطر القرصنة والاحتيال، ولبعث الثقة والأمان في مثل هذه التعاملات، الأمر الذي استدعى تدخل الأنظمة القانونية لوضع الإطار القانوني الذي يحكم العلاقة .

ولقد حاول المشرع الوطني من خلال إصداره للقانون رقم(04/15) المحدد للقواعد العامة المتعلقة بالتوقيع والتصديق الالكترونيين، وضع أحكام تضمنت آلية التصديق الالكتروني حتى يصبح للتوقيع الالكتروني حجية تضاهي حجية التوقيع التقليدي، لما حدد الجهة المكلفة بها والشهادات التي تصدرها، ونطاق مسؤوليتها في حالة إخلالها بالتزاماتها .

الكلمات المفتاحية: التصديق الالكتروني – مؤدي خدمات التصديق – شهادة التصديق الالكتروني– السلطة الاقتصادية.

مقدمة

أفضى التعاقد الالكتروني إلى ظهور بعض المعوقات، تتمثل أساسا في افتقار التعاملات الالكترونية إلى عنصر الأمن والسرية إلى حد كبير، نتيجة أعمال القرصنة والتدخلات غير المشروعة التي تتعرض لها، بالإضافة إلى صعوبة إثبات تلك التعاملات والتأكد من محتواها وصدورها عمّن نسبت إليه دون تحريف أو تغيير، لذلك ظهرت وسائل حديثة تستجيب لمقتضيات وخصوصية العقود الالكترونية، فحلت السندات الالكترونية محل السندات التقليدية

(*) أستاذ محاضر "ب" بقسم الحقوق ـ كلية الحقوق والعلوم السياسية ـ جامعة الوادي..
dris.k.f@gmail.com

(الخطية)، كما استحدثت وسيلة للإثبات تتلاءم وطبيعة هذه التعاملات تمثلت بالتوقيع الالكتروني الذي أصبح يتمتع بالحجية ذاتها المقدرة للتوقيع التقليدي في إثبات العقود والتصرفات القانونية.

ولكي يحظى التوقيع الالكتروني بتلك الحجية، فإنه يجب أن يستوفى شروطا معينة تعززه وتبث فيه عنصري الثقة والأمان، ومن هذه الشروط ضرورة أن يكون مصادق عليه، وقد استلزم ذلك وجود طرف ثالث محايد يؤكد هوية المتعاقدين، ويؤكد صدور الإرادة عمن نسبت إليه عن طريق إصدار شهادة تتضمن التوقيع الالكتروني للشخص المراد إثبات هويته.

وقد تضافرت الجهود الدولية والوطنية لإصدار قوانين تنظم عمل مؤدي خدمات التصديق الالكتروني والشهادات الصادرة عنها، وفرض الرقابة عليها وتحديد مسؤوليتها في حالة إخلالها بالتزاماتها، فعلى المستوى الدولي أصدرت لجنة الأمم المتحدة للقانون التجاري الدولي في دورتها الرابعة والثلاثين قانون الاونسترال (*Uncitral*) بشأن التوقيعات الالكترونية بتاريخ 2001/01/10، والذي اعتمدت عليه دول عديدة في إصدار تشريعاتها الوطنية، أين كانت أول مبادرة عربية من المشرع التونسي بإصداره لقانون المبادلات والتجارة الالكترونية سنة 2000.

وعلى الصعيد الوطني بدأت بوادر وضع الإطار القانوني للتوقيع الالكتروني بصدور القانون رقم (10/05) المعدل للقانون المدني،[1] من خلال نصوص المواد (323 مكرر 01) و(327)، والتي أعطت للكتابة والتوقيع الالكتروني نفس الحجية للإثبات بالكتابة على الورق، كما تطرق المرسوم التنفيذي رقم (162/07)[2] للتوقيع والتصديق الالكتروني كضمانة لسلامة المعاملات وذلك برخصة من سلطة الضبط للبريد والمواصلات آنذاك من خلال شهادات لإثبات الهوية وتحديد الأهلية القانونية.

ولتوفير حماية لضحايا المعاملات الالكترونية صدر القانون رقم (15/04) المؤرخ في 2004/11/10 المعدل والمتمم لقانون العقوبات،[3] أين جرم كل أنواع الاعتداءات التي تستهدف أنظمة المعالجة الآلية للمعطيات، كما صدر القانون رقم (04/09) والذي تضمن القواعد الخاصة للوقاية من الجرائم المتصلة بتكنولوجيات الإعلام والاتصال ومكافحتها.[4]

وبتاريخ 2015/02/01 صدر القانون رقم (04/15)[5]، الذي أولى اهتماما كبيرا بالتوقيع والتصديق الالكتروني، محاولة من المشرع لمواكبة التطور الحاصل في التجارة الدولية والأساليب الحديثة المستعملة فيها، لكن لم تخلو أحكامه من بعض القيود والجزاءات للحد من مخاطرها،

لذلك ارتأينا الخوض في موضوع آلية التصديق الالكتروني كضمانة لأطراف العقود الالكترونية من خلال تحليل الأحكام القانونية التي جاء بها هذا القانون لمعالجة المشاكل التي قد تقف عائقا دون تحقيق الاستقرار الأمني للمعاملات الالكترونية.

وقد انطلقنا في دراستنا من الإشكالية الرئيسية التي يثيرها الموضوع وهي:

ما مدى فعالية آلية التصديق الالكتروني التي جاء بها القانون رقم (04/15) لتحقيق الثقة والأمان في التعاملات التجارية بالوسائل الحديثة؟

وسيتم دراسة وتحليل الإشكالية السالفة الذكر في مطلبين، الأول يتعلق بماهية التصديق الالكتروني، أين سوف نتطرق لتعريفه، ولمقدمي تلك الخدمة والشهادات الصادرة عنهم.

أما المطلب الثاني فسنخصصه للحماية القانونية، وسنسلط الضوء على الرقابة المفروضة على مقدمي خدمات التصديق، ومسؤوليتهم، العقوبات والأحكام الجزائرية التي جاء بها القانون رقم (04/15).

المطلب الأول: ماهية التصديق الإلكتروني

تقوم التجارة الالكترونية ويتوقف رواجها على الآليات المستعملة لتحقيق الثقة والأمان لمصلحة المتعاقدين ومستخدمي الوسائل الالكترونية، ولتحقيق الأهداف السالفة الذكر يتم الاستعانة بطرف ثالث محايد، قد يكون شخصا طبيعيا أو معنويا، خاصا أو عاما، يقوم بدور الوسيط بين المتعاقدين لتوثيق معاملاتهم الالكترونية، وذلك بعد التحقيق من هوية الأطراف وسلامة التصرف ومشروعيته، أين يمنحهم شهادات تدعى شهادات التصديق أو التوثيق الالكتروني، وبالتالي يطرح التساؤل حول مفهوم التصديق الالكتروني والجهة القائمة عليه، وعن الشهادة الصادرة عنها وفقا للتشريع الوطني والمقارن.

الفرع الأول: مفهوم التصديق الإلكتروني

يسعى التوقيع الالكتروني بصوره المتعددة إلى القيام بوصيفتي الثقة والأمان من جهة، والسرية من جهة أخرى، حتى يضاهي حجية التوقيع المكتوب ويكون دليلا يعتمد به أمام القضاء.(6)

ويعتبر التوقيع الرقمي أكثر صوره استعمالا، ويتم باستخدام مفتاحا خاصا معتمدا قانونا من جهة متخصصة بإصداره، للتحقق من شخصية الموقع، ويقوم التوقيع الرقمي على فكرة الرموز السرية والمفاتيح غير المتناسقة ويعتمد على فكرة اللوغاريتمات والمعادلات الرياضية من الناحية الفنية،(7) ويحقق التوقيع الرقمي وظائف التحقيق من الهوية والسرية وسلامة البيانات، وعدم إنكارها.(8)

وحتى يحقق التوقيع الوظائف السالف الذكر، يجب أن يخضع للتصديق الالكتروني من طرف

ثالث محايد يضمن الثقة فيه، ويؤكد صدور التوقيع الالكتروني عمن نسبت إليه، وبما أن التوقيع الرقمي يقوم على عملية التشفير فإنه لا بد من تحديد المقصود بها.

أولا: المقصود بنظام التشفير

أغلب القوانين قد أغفلت عن تحديد ماهية التشفير، ومن التشريعات القليلة التي تطرقت لهذا النظام وعرفته، التشريع التونسي من خلال الفصل الأول من قانون المبادلات والتجارة الالكترونية[9] على أنه:« استعمال رموز وإشارات غير متداولة تصبح بمقتضاها المعلومات المرغوب تمريرها أو إرسالها غير قابلة للفهم من قبل الغير، أو استعمال رموز وإشارات لا يمكن الوصول إلى المعلومة بدونها » .

وقد عرفه جانب من الفقه[10] على انه تحويل للكتابة من نمطها التقليدي المقروء إلى كودات سرية أي في شكل رموز وعلامات غير مقروءة.

ويهدف التشفير إلى تحقيق مبادئ الثقة والمصداقية وتكامل البيانات وإثبات شخصية مصدر البيانات وعدم إنكار ما تم اتخاذه من أعمال. [11]

وعملية التشفير قد تكون تماثلية، بمعنى أن عملية إغلاق وفتح بيانات المحرر تكون بمفتاح واحد، أو قد تكون لا تماثلية بمعنى أن المفتاح الذي يتم به إغلاق بيانات المحرر غير المفتاح الذي يتم به فتحها[12]، وقد أخذ المشرع الوطني من خلال المادة الثانية من القانون رقم (04/15) بنظام التشفير المزدوج من خلال نصه على مفتاحي التشفير الخاص والتشفير العمومي، وبذلك يكون المشرع قد تجنب سلبيات نظام التشفير بالمفتاح المتماثل، هذا النظام وإن كان يمتاز بالسرعة والسهولة، إلا أنه لا يحقق الثقة والأمان، لسهولة تسرب المفتاح أثناء عملية تبادله، على عكس نظام التشفير المزدوج الذي يقوم على مفتاح حكومي في متناول الجمهور ومفتاح خاص فردي لا يمكن تشفير وقراءه الرسالة بدونه مما يضمن سريتها.

ثانيا: تعريف التصديق الالكتروني

أغلب تشريعات الدول التي بحثنا فيها بما في ذلك التشريع الوطني والمنظمة للتجارة الالكترونية والتوقيع والتصديق الخاص بها، لم تعرف المقصود بهذا الأخير، وإنما اقتصرت على تنظيمها لإجراءات التصديق والجهات المكلفة أو المؤدية لهذه الخدمة والشهادات الصادرة عنها.

ومن خلال ما ورد من أحكام في تلك القوانين التي نظمت التصديق الالكتروني، يمكن أن نعرف هذا الأخير بأنه عملية قانونية فنية تهدف إلى إثبات أن الرسائل والتواقيع الالكترونية

صادرة ممن نسبت إليه، دون تحريف أو تزييف أو تزوير تتم بوساطة طرف محايد مستقل، يقوم بإصدار شهادة الكترونية تحقق الغرض المطلوب.

ويتضح من التعريف السالف الذكر وأن التصديق الالكتروني يقوم بوظيفتين أساسيتين:

الأول: الثقة والأمان في العقود الالكترونية عن طريق إثبات هوية الأطراف، وتحديد حقيقة الاتفاق ومضمونه، أي التحقق من إرادة المتعاقدين وصحتها ونسبتها إلى من صدرت عنه، وكذلك التيقن من طبيعة التعاقد ومضمونه وبعده عن الغش والاحتيال.[13]

الثانية: السرية على اعتبار أن وظيفة التصديق ترتبط بتقنية الكتابة المشفرة، وفي هذه الطريقة يتحقق الارتباط بين السرية والتصديق. [14]

الفرع الثاني: مؤدي خدمات التصديق

أطراف العقد الالكتروني يبحثون دائما عن ضمانات تبعث الثقة والأمان والسرية في معاملاتهم، لأنها تتم في مجلس عقد مفترض، وفي الغالب لا يعرف بعضهم بعضا، مما يستوجب توفير آلية لتحديد هوية الأطراف وحقيقة التعامل ومضمونة ونسبتها إلى من صدرت عنه، ولتحقيق الأهداف والضمانات السابقة كان لا بد من وجود طرف ثالث محايد، مستقل عن أطراف العلاقة العقدية، يصدر شهادات تبعث الثقة في المعاملات التي تتم بالوسائل الالكترونية.

وعليه، السؤال المطروح ما هو المفهوم القانوني لمقدمي خدمات التصديق الالكتروني؟

أولا: تعريف مؤدي خدمات التصديق

عرفه قانون المبادلات والتجارة الالكترونية التونسي في الفصل الثاني بأنه:« كل شخص طبيعي أو معنوي يحدث ويسلم ويتصرف في شهادات المصادقة، ويسدي خدمات أخرى ذات علاقة بالإمضاء الالكتروني» ، وقد سماه في صلب النص "بمزود خدمات المصادقة الالكترونية"، كما أنشأ المشرع التونسي في هذا الصدد مؤسسة عامة سماها "الوكالة الوطنية للمصادقة الالكترونية" تتمتع بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي، وتخضع في علاقاتها مع الغير إلى القانون التجاري التونسي، ومقرها بتونس العاصمة.

أما المشرع الوطني فقد استعمل مصطلح "مؤدي خدمات التصديق الالكتروني"، وعرفه في المادة الثانية من القانون رقم (04/15) بأنه:« شخص طبيعي أو معنوي يقوم بمنح شهادات تصديق الكتروني موصوفة، وقد يقدم خدمات أخرى في مجال التصديق الالكتروني، هذا بعد حصوله على ترخيص تمنحه السلطة الاقتصادية للتصديق الالكتروني » .

كما عرفه جانب من الفقه على أنه كل من يقدم خدمات التصديق للجمهور، ويخضع في عمله لأحكام التشريع الوطني الموضوعة لتنظيم المسؤولية.[15]

ومن خلال التعريف الذي جاء به المشرع الوطني في القانون رقم (04/15) يتضح وأن وظيفة مؤدي خدمات التصديق الالكتروني لا تقتصر على إصدار الشهادات التي تحدد هوية أطراف العقد، وأهليتهم القانونية، وإنما يقدم خدمات أخرى في مجال التصديق الالكتروني، ويعني بها المشرع الخدمات التالية:

- إصدار تواقيع رقمية عن طريق إصدار المفاتيح الالكترونية (المفتاح الخاص أو العام) التي يتم بمقتضاها تشفير الرسائل والتواقيع الالكترونية أو فكها.
- التحقق من صحة التواقيع الالكترونية ونسبتها إلى أصحابها.
- مسك سجلات خاصة بالشهادات الصادرة عنها، وتصنيفها من حيث تلك الصالحة للاستعمال والشهادات الملغاة وتاريخ الإلغاء.
- تعقب المواقع التجارية على الانترنت للتحري عنها وعن جديتها ومصداقيتها، فإذا تبين عدم أمنها، تقوم بتوجيه رسائل تحذيرية للمتعاملين عن عدم مصداقية الموقع.

كما حدد القانون رقم (04/15) الشروط الواجب توافرها في مؤدي خدمات التصديق الالكتروني،[16] والتي يمكن تصنيفها إلى شروط إدارية تكمن أساسا في ضرورة الحصول على ترخيص تمنحه السلطة الاقتصادية للتصديق الالكتروني، وشروط فنية تتجلى في ضرورة تمتعه بمؤهلات وخبرة ثابتة في ميدان تكنولوجيات الإعلام والاتصال للشخص الطبيعي أو مسير الشخص المعنوي.

هذا إضافة إلى ضرورة تمتعه بقدرة مالية كافية كضمانة تمكن من تعويض المتعاملين مع مقدمي هذه الخدمات، وتعكس قدرتها على مواكبة التطور التكنولوجي وتحديث برامجها، كما اشترط المشرع أن يكون طالب الترخيص، شخصا طبيعيا من جنسية جزائرية أو معنوية خاضع للقانون الجزائري، وأن لا يكون قد سبق الحكم عليه في جناية أو جنحة تتنافى مع نشاط تأدية خدمات التصديق الالكتروني.

ثانيا: الالتزامات القانونية لمؤدي الخدمات

نظرا لأهمية الدور الذي تقوم به جهات التصديق الالكتروني، والأثر المترتب على الخدمات التي تقدمها لبعث الثقة والأمان والسرية للمعاملات والعقود الالكترونية، الأمر الذي يحتم

فرض وتحديد التزاماتها، سواء أكانت هذه الالتزامات في مواجهة صاحب الشهادة الذي يرتبط معها بعلاقة عقدية، أم في مواجهة الغير الذي عول على الشهادة الصادرة عنها.

وقد نظم المشرع الوطني التزامات مقدمي خدمات التصديق الالكتروني في المواد من (41 إلى 50) وكذلك المواد (53، 59، 60) من القانون رقم (04/15)، وقد ركز على الالتزامات التالية:

1- الالتزام بالتحقق من صحة البيانات: ويعتبر هذا الالتزام من أهم أو أصعب وأدق التزامات مقدمي خدمات التصديق الالكتروني، وقد نصت عليه المواد (44 و53) من القانون رقم (04/15) حيث لا تمنح شهادة التصديق إلا بعد التحقق من الهوية والصفات الخاصة لطالبها، إلا أن المشرع قيد حرية مقدمي الخدمات في البحث وجمع البيانات الشخصية للمعني بموافقة هذا الأخير، وألا يجمع إلا البيانات الشخصية الضرورية لمنح وحفظ شهادة التصديق الالكتروني.

لكن هذا لا يعني أن مقدمي الخدمات مسؤولين عن صحة المعلومات المقدمة وإنما عن تطابقها وما هو وارد في شهادة التصديق، وذلك عن طريق فحص المعلومات الواردة في الوثائق المسلمة من طالب الشهادة وتقدير توافقها الظاهري،[17] وهو ما عبر عنه قانون الاونسترال "*UNCITRAL*" بالعناية المعقولة.

2- الالتزام بالسرية: هو التزام بتحقيق نتيجة، تتمثل في ضمان سرية البيانات، وهذا الالتزام عام يشمل كافة البيانات التي تقدم لجهات التصديق، سواء أكانت بيانات ذات طابع شخصي، أم كانت تتعلق بالصفقات التجارية التي يبرمونها.

وقد نص المشرع الوطني على هذا الالتزام في المادة (42) من قانون التوقيع والتصديق الالكتروني، وجاء النص عاما، وذلك بالحفاظ على سرية البيانات والمعلومات المتعلقة بشهادات التصديق الالكتروني الممنوحة، كما نصت المادة (43) من نفس القانون على عدم استعمال البيانات الشخصية لطالب الشهادات لأغراض أخرى غير تلك المتعلقة بمنح وحفظ الشهادة، ورتب على الإخلال بهذا الالتزام عقوبة الحبس من ثلاثة أشهر إلى سنتين وبغرامة من مائتي ألف دينار إلى مليون دينار، أو بإحدى هاتين العقوبتين.[18]

3- الالتزام بإلغاء شهادة التصديق الالكتروني: يقع على عاتق مقدمي خدمات التصديق إلغاء الشهادة الصادرة عنهم وفقا لمبدأ تحديث المعلومات المصادق عليها، بناء على طلب صاحب الشهادة أو من تلقاء نفسها.

وقد أورد المشرع الوطني قيودا على الإلغاء بحسب الجهة المطالبة به، فإذا كان من طالب

الشهادة فيتم الإلغاء في الآجال المحددة في سياسة التصديق[19] التي وافقت عليها السلطة الاقتصادية، والملاحظ أن المادة (45) من القانون رقم (04/15) لم تتطرق للحالات التي يتم فيها تقديم طلب الإلغاء، وبالتالي فإن المشرع لم يقيد إرادة طالب الشهادة في إلغائها واكتفى بمسألة الآجال.

أما إذا كان الإلغاء بإرادة مقدمي الخدمات، فقد قيدها المشرع الوطني بحالات مذكورة على سبيل الحصر في الفقرة الثانية من المادة (45) السالفة الذكر، وهي:

- إذا تم منح الشهادة محل الإلغاء بناء على معلومات خاطئة أو مزورة، أو أصبحت هذه المعلومات غير مطابقة للواقع، أو إذا تم انتهاك سرية بيانات إنشاء التوقيع.
- إذا لم تصبح الشهادة مطابقة لسياسة التصديق.
- في حالة وفاة الشخص الطبيعي أو حل الشخص المعنوي صاحب شهادة التصديق الالكتروني بعد إعلام مؤدي الخدمة.

كما ورد قيد آخر على هذا الإلغاء مفاده التزام مؤدي الخدمة بإخطار صاحب شهادة التصديق الالكتروني بقرار الإلغاء مع تسبيب ذلك، إلا أن المشرع لم يحدد طريقة الإخطار.[20]

الفرع الثالث: شهادة التصديق الإلكتروني

يمارس مؤدي خدمات التصديق وظائفهم عن طريق إصدار شهادات، سماها البعض "شهادات التوثيق الالكتروني"[21]، والبعض الآخر استعمل مصطلح "الشهادات المعتمدة"[22]، وآخرون استعملوا عبارة "شهادات التصديق أو المصادقة الالكترونية"[23]، ورغم اختلاف التشريعات في تسمية هذه الشهادات إلا أنها أجمعت على أنها وسيلة لبعث الثقة في التعاملات الالكترونية والحفاظ على سريتها وتوفير الأمان لأطراف العقود الالكترونية، الأمر الذي يستدعى البحث عن مفهومها من خلال تعريفها، وتعداد أنواعها، والبيانات الواجب توافرها فيها.

أولا: تعريف شهادة التصديق الالكتروني

نظرا لأهمية هذه الشهادة في إثبات هوية الموقع وصحة التوقيع،[24] فقد عنيت معظم التشريعات المنظمة للتجارة الالكترونية إلى تعريف هذه الشهادة وتوضيح مفهومها ومن بينها:

قواعد الأونسترال (UNCITRAL) الموحدة بشأن التوقيعات الالكترونية، أين نص في مادته الثانية بأنها:« رسالة بيانات، أو سجل يؤكدان الارتباط بين الموقع وبيانات إنشاء التوقيع » .

كما عرفها المشرع الفرنسي في المرسوم رقم (2001/272) المؤرخ في 2001/03/30 من

خلال الفقرة التاسعة من المادة الأولى على أنها:« مستندات تحمل الشكل الالكتروني وتؤكد الاتصال بين بيانات فحص التوقيع الالكتروني وصاحب التوقيع ».

أما المشرع الوطني فقد عرفها في المادة الثانية من القانون رقم (04/15) على أنها:« وثيقة في شكل الكتروني تثبت الصلة بين بيانات التحقق من التوقيع الالكتروني والموقع » وهو بذلك قد تأثر بالتعريف الوارد في القانون الفرنسي السالف الذكر.

ويلاحظ من التعريفات السابقة أنها ركزت على الجانب الوظيفي لشهادة التصديق الالكتروني، المتمثل أساسا في إثبات هوية الموقع وأنه صادر عمن نسب إليه، وأن توقيعه صحيح، بما في ذلك البيانات الموقع عليها وأنه لم يطرأ عليها حذف أو إضافة أو تغيير

ثانيا: أنواع شهادات التصديق

يصدر مقدمي خدمات التصديق الالكتروني أنواع عديدة من الشهادات، تختلف فيما بينها من حيث درجة ما تقدمه من الثقة والمصداقية، وأهمها:

1- شهادة التوقيع الرقمي: وهي الأكثر شيوعا سماها المشرع شهادة التصديق الالكتروني الموصوفة، وهي شهادة تحتوي على المفتاحين السابق ذكرهما العام والخاص، يمنحهم مقدم الخدمة لطالب التوقيع الرقمي، يثبت من خلالها هويته وقدرته على إبرام التصرفات القانونية.

2- شهادة التعريف:[25] في هذا النوع من الشهادات تتمثل مهمة مقدم الخدمة في التحقق من هوية الأشخاص طالبي الشهادة، وتنشر هذه الأخيرة عبر موقعه على شبكة الانترنت بحيث تكون متاحة للجميع.

3- شهادة الإذن: هي شهادة تقدم معلومات إضافية عن الشخص، أكثر من مجرد التعريف بهويته، أين تبين مكان إقامة الشخص، وعمره، وفيما إذا كان عضوا في إحدى المنظمات أو النقابات المهنية.

4- شهادة المعاملة: وتسمى كذلك شهادة البيان، تقدم بعض الحقائق عن واقعة أو معاملة معينة، على خلاف شهادة التعريف أو الإذن، فإن شهادة المعاملة لم تنشأ لربط شخص معين بمفتاح أو رمز معين، وإنما نشأت لبيان وقوع واقعة أو حدث أو تصرف قانوني ما وقت وقوعه.

5- شهادة خاتم الوقت الرقمي:[26] هي عبارة عن مستند رقمي غير قابل للتزوير، يشهد بأن الوثيقة موجودة في وقت محدد، وأنه ليس من الصعب بيان فيما إذا كانت الوثيقة موجودة قبل أو بعد حادث معين، وهي وثيقة مهمة لإثبات الوقت الذي جرى فيه التوقيع الرقمي للوثيقة.

ثالثا: البيانات الإلزامية الواجبة في الشهادة

لا تكون لشهادة التصديق الالكتروني الحجية، ولا تستطيع أداء مهامها في تأكيد صدور الرسائل والتواقيع الالكترونية عن أصحابها، لتحقيق الثقة والمصداقية والأمان فيها، إلا إذا تضمنت بيانات معينة، منها ما يتعلق بصاحب الشهادة، وأخرى بمصدرها، وبيانات مرتبطة بالشهادة نفسها.

وقد نص المشرع الوطني على تلك البيانات في المادة (15) من القانون رقم (04/15) وهي:

- **هوية صاحب الشهادة وذلك بذكر اسم الموقع والاسم المستعار.**
- هوية مقدم خدمة التصديق الالكتروني المصدر للشهادة والبلد الذي يقيم فيه.
- **التوقيع الالكتروني للجهة المصدرة للشهادة.**
- **فترة صلاحية الشهادة (بداية ونهاية صلاحيتها).**
- البيان المتعلق بحدود استخدام الشهادة وحدود قيمة المعاملات التي تستعمل فيها.
- بيانات تتعلق بالتحقق من التوقيع الالكتروني، وتكون موافقة لبيانات إنشاء التوقيع الالكتروني.
- **رمز تعريف شهادة التصديق الالكتروني، والإشارة إلى أن الشهادة منحت على أساس أنها** شهادة تصديق الكتروني موصوفة.

المطلب الثاني: الحماية القانونية في التصديق الإلكتروني

إن الشخص الذي يدخل في تعامل تجاري عبر الانترنت دون أن يكون لديه معرفة سابقة **بالطرف الآخر مقدم السلعة أو الخدمة، لا يمكنه سوى الاستناد على الشهادة الصادرة عن مقدمي خدمات التصديق الالكتروني، لما تحتويه من بيانات تبعث الثقة والأمان حول هوية** الموقع وصحته ومدة صلاحيتها وحدودها، ونظرا لخطورة التلاعب في هذه البيانات، إما بفعل صاحب الشهادة أو الجهة المصدرة لها، الأمر الذي يستدعي توفير حماية قانونية لأطراف العقد **الالكتروني من سوء إعداد أو استعمال شهادة التصديق.**

وقد عني المشرع الوطني بتنظيم هذه الحماية، من خلال الرقابة التي فرضها على مقدمي خدمة التصديق، كما خصص القسم الثاني من الفصل الثالث للباب الأول من القانون رقم **(04/15)** لمسؤولية مقدمي الخدمة ومسؤولية صاحب الشهادة، ورتب عقوبة مالية وإدارية وأحكاما جزائية عليهما.

الفرع الأول: رقابة السلطة الاقتصادية على مقدمي خدمات التصديق

استحدث المشرع الوطني سلطة إدارية مستقلة وطنية، سماها السلطة الوطنية للتصديق

الالكتروني[27]، تكلف أساسا بترقية استعمال التوقيع الالكتروني والتصديق عليه وتطويرهما وضمان موثوقية استعمالها.

ويتفرع عنها سلطتين، الأولى حكومية،[28] مكلفة بمتابعة ومراقبة نشاط التصديق الالكتروني، وتوفيرها لفائدة المتدخلين في الفرع الحكومي، أما السلطة الثانية فيتعلق الأمر بالسلطة الاقتصادية للتصديق الالكتروني المكلفة بمراقبة مقدمي خدمات التصديق.

أولا: تعريف السلطة الاقتصادية للتصديق الالكتروني

لم يعرف المشرع الوطني هذه السلطة، وإنما تطرق للجهة المكلفة بتعيينها في المادة (29) من القانون السالف الذكر، وهي السلطة المكلفة بضبط البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية، وإلى المهمة الرئيسية لهذه السلطة من خلال المادة (30) والمتعلقة أساسا بمتابعة ومراقبة مؤدي خدمات التصديق الالكتروني الذين يقدمون خدمات التوقيع والتصديق الالكترونيين لصالح الجمهور.

ويتضح من المواد السالفة الذكر وأن هذه السلطة هي سلطة إدارية تتمتع بالشخصية القانونية والاستقلال المالي، تخضع في تعيينها ورقابتها وتحديد سياستها للتصديق الالكتروني للسلطة الوطنية السالف الذكر، مهمتها متابعة ومراقبة مقدمي خدمات التصديق الالكتروني من خلال المهام التي حددها لها المشرع في المادة (30) من القانون رقم (04/15).

ثانيا: مهام السلطة الاقتصادية الرقابية

من خلال استقراء وتحليل نص المادة (30) السالفة الذكر، يتضح وأن المشرع الوطني قد أعطى مهام واسعة للسلطة الاقتصادية، ونص بصفة عامة في الفقرة (13) على أنها إجراء كل مراقبة طبقا لسياسة التصديق الالكتروني ودفتر الشروط الذي يحدد شروط وكيفيات تأدية خدمات التصديق الالكتروني[29].

وأهم المهام التي يتضح فيها جليا الدور الرقابي للسلطة الاقتصادية على مقدمي خدمات التصديق الالكتروني هي:

- منحها التراخيص لمؤدي خدمات التصديق الالكتروني، بعد التأكد من توفر الشروط القانونية المنصوص عليها في المادة (34) من القانون رقم (04/15) السالفة الذكر.
- الموافقة على سياسات التصديق الصادرة عن مؤدي الخدمات والسهر على تطبيقها، والتحقق من مطابقة طالبي التراخيص مع تلك السياسة.
- السهر على وجود منافسة فعلية ونزيهة، باتخاذ كل التدابير اللازمة لترقية واستعادة

المنافسة بين مؤدي خدمات التصديق الالكتروني.

- التحكيم في النزاعات القائمة بين مؤدي الخدمات فيما بينهم أو مع المستعملين للشهادة.
- تقوم السلطة الاقتصادية بتبليغ النيابة العامة بكل فعل ذي طابع جزائي يكتشف بمناسبة تأدية مهامه.

الفرع الثاني : مسؤولية مؤدي خدمات التصديق وصاحب الشهادة

تعد المسؤولية عن الضرر اللاحق بالغير من أهم المسائل التي تعرضت لها الأنظمة القانونية، أين وضعت التشريعات بما فيها الوطني قواعد عامة تحكمها، وإلى جانب هذه القواعد تدخل المشرع لتنظيم حالات خاصة بالمسؤولية من خلال قواعد تتماشى وطبيعة التصرفات القانونية ذات الصلة، وهو ما جسده المشرع الوطني في القانون رقم (04/15) إثر وضعه لأحكام تتعلق بمسؤولية مقدمي خدمات التصديق ومسؤولية صاحب الشهادة.

أولا: مسؤولية مؤدي خدمات التصديق الالكتروني

وضعت المادة (53) من القانون رقم (04/15) أساس مسؤولية مؤدي خدمات التصديق الالكتروني بالتعويض في حالة إخلاله بالتزاماته المنصوص عليها في ذات القانون، سواء في مواجهة صاحب الشهادة الذي ارتبط معه بعلاقة عقدية، أم في مواجهة الغير حسن النية الذي استند على شهادة التصديق الالكتروني، وذلك على النحو التالي:« يكون مؤدي خدمات التصديق الالكتروني الذي سلم شهادة تصديق الكتروني موصوفة، مسؤولا عن الضرر الذي يلحق بأي هيئة أو شخص طبيعي أو معنوي، اعتمد على شهادة التصديق الالكتروني.. »

كما بين المشرع الوطني الحالات التي تقوم فيها مسؤولية مقدمي خدمات التصديق، ويمكن تصنيفها إلى حالتين:

الحالة الأولى: إخلاله بالتزاماته المتعلقة بالتأكد من صحة البيانات الواردة في شهادة التصديق الالكتروني

وقد سبق التطرق إلى هذا الالتزام، وقد رتب المشرع على الإخلال به قيام مسؤولية مقدم الخدمة، باعتباره ضامن صحة جميع المعلومات الواردة في شهادة التصديق، كما أنه ضامن وجود جميع البيانات الإلزامية التي أوجبها القانون، وأن طالب الشهادة يحوز كل بيانات إنشاء الشهادة، ويسأل كذلك عن عدم تأكده من إمكانية استعمال بيانات إنشاء التوقيع، والتحقق منه بصفة متكاملة.

الحالة الثانية: الإخلال بالتزام إلغاء شهادة التصديق متى توافرت الأسباب الموجبة لذلك

وقد سبق تناول حالات الإلغاء، وطبقا لنص المادة (54) من القانون رقم (04/15) إذا كانت هناك حالات تستدعي إلغاء شهادة التصديق، ولم ينفذ مقدمي الخدمات التزاماتهم بإلغائها، إما بناء على طلب صاحب الشهادة أو من تلقاء نفسه، يكون ملزم بتعويض الضرر الناشئ عن إخلاله بالتزامه.

كما وردت استثناءات أين لا تقوم فيها مسؤولية مقدمي الخدمة، وقد وردت في الفقرة الأخيرة من المادة (53) من نفس القانون، فلا يسأل عن الحالات المذكورة أعلاه متى أثبت أنه لم يرتكب أي إهمال، ولا يكون كذلك مسؤولا عن الضرر الناتج عن عدم احترام صاحب شهادة التصديق لشروط استعمال بيانات إنشاء التوقيع الالكتروني.

ثانيا: مسؤولية صاحب الشهادة

طبقا لأحكام المواد (61، 62، 63) من القانون رقم (04/15) يكون صاحب شهادة التصديق الالكتروني مسؤولا عن الأضرار التي يتسبب فيها سواء لمقدمي خدمات التصديق أو الغير الذي تعامل معه، وذلك في الحالات التالية:

- إذا لم يسعى إلى طلب إلغاء الشهادة أمام مقدمي الخدمة، في حالة الشك في الحفاظ على سرية البيانات، أو أصبحت هذه الأخيرة غير مطابقة للمعلومات التي تتضمنها تلك الشهادة.
- إذا استعمل نفس بيانات إنشاء التوقيع للشهادة التي انتهت صلاحيتها أو تم إلغاءها، من أجل توقيع أو تصديق جديد أمام مؤدي خدمات آخر.
- استعماله لشهادة التصديق لأغراض أخرى غير تلك التي منحت من أجلها.

الفرع الثالث: العقوبات والأحكام الجزائية التي جاء بها القانون (04/15)

وضع المشرع الوطني أحكاما تنص على عقوبات تمس بمقدمي خدمات التصديق أو طالب الشهادة وحتى الغير، إلا أنه قد صنفها إلى عقوبات إدارية ومالية وأخرى جزائية.[30]

أولا: العقوبات المالية والإدارية

والملاحظ أن المشرع الوطني قد نص في المواد (64 و65) من القانون رقم (04/15) على عقوبات مالية وإدارية تقع على مقدمي خدمات التصديق فقط.

ويقصد بالعقوبات المالية الغرامات التي يسددها مقدم الخدمة، في حالة عدم احترامه لدفتر الأعباء، أو سياسة التصديق الالكتروني الخاصة به والتي وافقت عليها السلطة الاقتصادية، والتي تتراوح قيمتها ما بين 200.000دج إلى 5.000.000 دج ويتم تحديدها بحسب تصنيف

الأخطاء المنصوص عليها في دفتر الأعباء الخاص بمؤدي الخدمات.

هذا إضافة إلى العقوبات الإدارية، والتي تتعلق أساسا بسحب الترخيص من مقدمي خدمات التصديق الالكتروني، إلا أن المشرع الوطني قد فرق ما بين حالتين:

الحالة الأولى: لا يسحب الترخيص، إلا بعد إعذار مقدم الخدمة للامتثال لالتزاماته، وتمنحه أجل ما بين ثمانية إلى ثلاثين يوما، ويتضمن الأعذار الالتزام الذي تم الإخلال به حتى يتسنى لمقدم الخدمة تقديم مبرراته الكتابية، وفي حالة عدم امتثاله للإعذار، تصدر السلطة الاقتصادية قرار بسحب الترخيص الممنوح له بعد موافقة السلطة الوطنية.

الحالة الثانية: وفيها يتم سحب الترخيص، دون سابق إعذار كما هو الوضع في الحالة الأولى، وذلك في حالة ما إذا مس مقدم الخدمة بما يتطلبه الدفاع الوطني والأمن العمومي، أين يتم السحب الفوري للترخيص، بعد موافقة السلطة الوطنية.

ثانيا: الأحكام الجزائية

عند الرجوع إلى الفصل الثاني من الباب الرابع للقانون رقم (04/15) والمتعلق بالأحكام الجزائية نجد وأن المشرع الوطني قد نص على عقوبات سالبة للحرية وغرامات مالية، قد تمس صاحب الشهادة أو الغير، لكن الملاحظ أن أغلب العقوبات المنصوص عليها في الفصل تتعلق بمقدمي خدمات التصديق الالكتروني.

1- العقوبات المطبقة على صاحب الشهادة والغير:

حسب نص المواد (66 و 74) من القانون رقم (04/15) فإن صاحب شهادة التصديق الالكتروني يعاقب بالحبس من ثلاثة أشهر إلى ثلاث سنوات وبغرامة من عشرين ألف دينار إلى مائتي ألف دينار، في حالة استعماله للشهادة لغير الغرض الذي منحت من أجلها.

كما نص على معاقبة كل شخص، قام بحيازة أو إفشاء أو استعمال بيانات إنشاء توقيع الكتروني موصوف خاصة بالغير، وذلك بالحبس الذي قد يصل إلى ثلاث سنوات وغرامة قيمتها ما بين مليون إلى خمسة ملايين دينار.

2- العقوبات الخاصة بمقدمي خدمات التصديق:

فرق المشرع الوطني بين العقوبات التي تطبق على مقدمي خدمات التصديق الالكتروني ، بحسب الخطأ المرتكب من قبلهم، ويمكن تصنيفها على النحو التالي:

أ- العقوبات المتعلقة بتراخيص ممارسة النشاط: ذلك أنه يعاقب كل مؤدي خدمة تصديق

للجمهور دون حصوله على رخصة أو بعد سحبها منه، بالحبس من سنة إلى ثلاث سنوات وغرامة مالية تصل إلى مليوني دينار أو بإحدى هاتين العقوبتين.[31]

كما يعاقب بالحبس من شهرين إلى سنة وبغرامة تصل إلى مليون دينار، كل مؤدي خدمة لم يعلم السلطة الاقتصادية بالتوقف عن نشاطه.[32]

ب- العقوبات نتيجة الإخلال بالالتزام بالسرية: من أهم الالتزامات التي نص عليها قانون التوقيع والتصديق الالكتروني وذلك بموجب المادة (42)، وإذا أخل مقدمي خدمات التصديق بهذا الالتزام، يعاقب بالحبس من ثلاثة أشهر إلى سنتين، وبغرامة من مائتي ألف دينار إلى مليون دينار، أو بإحدى هاتين العقوبتين.

ج- العقوبات إثر الإخلال بالتزام جمع البيانات وتطابقها: فإذا خالف مقدمي الخدمة الالتزام المنصوص عليه بالمادة (43) من القانون رقم (04/15) والمتعلق أساسا بالحصول على موافقة طالب الشهادة لجمع بياناته الشخصية، وعدم استعمالها لأغراض أخرى، وعقوبتها الحبس من ستة أشهر إلى ثلاثة سنوات، وغرامة من مائتي ألف دينار إلى مليون دينار، أو بإحدى هاتين العقوبتين.

كما نصت المادة (75) على حكم عام يطبق على الشخص المعنوي الذي يرتكب إحدى الجرائم السالف الذكر، أين يعاقب بغرامة تعادل خمس مرات الحد الأقصى للغرامة المنصوص عليها بالنسبة للشخص الطبيعي.

الخاتمة

تحقيقا لمستلزمات الثقة والأمان التي تعتبر من الضمانات الأساسية للتعاملات الالكترونية عامة، وللتجارة الالكترونية بصفة خاصة، سعت الأنظمة القانونية لوضع الإطار القانوني الذي يحكم العلاقة ومعالجة ما قد يطرأ من إشكالات قد تؤثر على المراكز القانونية لأطراف العقد، وقد حاول المشرع الوطني مواكبة التطور الحاصل في مجال التجارة الالكترونية وبعث الثقة والأمان في مثل هذه التعاملات وذلك بإصداره القانون رقم (04/15)، والذي استحدث بموجبه آلية التصديق الالكتروني لتحقيق الهدف المرجو، عن طريق تدخل طرف ثالث سماه "بمؤدي خدمات التصديق الالكتروني" أسندت إليه مهمة إصدار شهادات تؤكد صحة التوقيع وانتسابها للشخص الذي صدرت لصالحه.

ومن خلال تحليل النصوص القانونية التي جاء بها القانون السالف الذكر، تضمنت أحكام حددت المفاهيم القانونية للتصديق الالكتروني ومقدمي الخدمة والشهادة الصادرة عنها، أين نظم شروط الحصول على الترخيص والتزامات مقدمي الخدمة، وكذلك البيانات الإلزامية

للشهادة، كما سلط عليها رقابة إدارية من خلال استحداثه لسلطة اقتصادية تابعة للسلطة الوطنية للتصديق الالكتروني.

ولغرض إعطاء أكثر مصداقية لهذه الآلية نظم المشرع مسؤولية أطراف العقد الالكتروني ومقدمي خدمات التصديق، ورتب عن إخلالهم لالتزاماتهم عقوبات إدارية ومالية وأخرى سالبة للحرية.

ويعتبر هذا القانون نقلة نوعية، الغرض منها مواكبة التطور الحاصل في مجال التجارة، من خلال استعمال وسائل حديثة تحقق السرعة في التعاملات، والتي قد تشهد إقبالا واسعا، متى توفرت الضمانات السالفة الذكر، والتي سعى المشرع الوطني لتوفيرها من خلال آلية التصديق الالكتروني.

ولتحقيق ذلك يستدعي الأمر:

- تفعيل دور السلطة الاقتصادية، وذلك بإصدار النصوص التنظيمية التي تحدد تشكيلها وتنظيمها ومهامها، كما هو الأمر بالنسبة للسلطتين الوطنية والحكومية التي صدرت النصوص المنظمة لها، بموجب المرسومين (2016/134) و (2016/135).

- تسريع عملية إنشاء الهيئات المكلفة بالتصديق الالكتروني، والعدول عن الفترة الانتقالية الطويلة التي نصت عليها المواد 78، 79، 80 من القانون رقم (04/15) والمحددة بخمس سنوات.

- إعداد سياسة التصديق الالكتروني المنصوص عليها في القانون (04/15) السالف الذكر، من قبل السلطات سواء الوطنية أو الحكومية أو الاقتصادية، والسهر على تطبيقها.

- إبرام اتفاقيات جماعية وثنائية، للاعتراف المتبادل بشهادات التصديق الالكتروني الأجنبية، لإعطاء دفع جديد للتجارة الدولية.

- التنسيق ما بين سلطات التصديق الالكتروني ومقدمي الخدمات مع القضاء، عند اكتشاف أي فعل ذي طابع جزائي، وذلك لمحاربة الجرائم الإلكترونية.

الهوامش:

(1) القانون رقم (10/05) المؤرخ في 2005/06/20 المعدل والمتمم للأمر رقم (58/75) المؤرخ في 1975/09/26 المتضمن القانون المدني، المنشور بالجريدة الرسمية عدد (64)، بتاريخ 2005/06/26.

(2) المرسوم التنفيذي رقم (162/07) المؤرخ في 2007/05/30، المعدل والمتمم للمرسوم التنفيذي رقم (123/01) المؤرخ في 2001/05/09 المتعلق بنظام الاستغلال المطبق على كل نوع من أنواع الشبكات بما فيها اللاسلكية الكهربائية وعلى مختلف خدمات المواصلات السلكية واللاسلكية، المنشور بالجريدة الرسمية عدد(37)، بتاريخ 2007/06/07.

(3) القانون رقم (15/04) المؤرخ في 2004/11/10 المعدل والمتمم للأمر رقم (156/66) المتضمن قانون العقوبات، المنشور بالجريدة الرسمية عدد71، بتاريخ: 2004/11/10.

(4) القانون رقم (04/09) المؤرخ في 2009/08/05، المتضمن القواعد الخاصة للوقاية من الجرائم المتصلة بتكنولوجيات الإعلام والاتصال ومكافحتها، المنشور بالجريدة الرسمية عدد (47)، بتاريخ 2009/08/16.

(5) القانون رقم (04/15) المؤرخ في 2015/02/01، المحدد للقواعد العامة المتعلقة بالتوقيع والتصديق الإلكتروني، المنشور بالجريدة الرسمية العدد 06 بتاريخ 2015/02/10.

(6) تنص المادة (08) من القانون رقم (04/15) على أنه:« يعتبر التوقيع الالكتروني الموصوف وحده مماثلا للتوقيع المكتوب، سواءا كان لشخص طبيعي أو معنوي » .

(7) Arnoued-Gausse, la signature électronique-transactions, et confiance sur internet, dunoo, Paris, 2001, P25.

(8) لينا إبراهيم يوسف حسان، التوثيق الالكتروني ومسؤولية الجهات المختصة به، الطبعة الأولى، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، 2009، ص33.

(9) القانون رقم 83 المؤرخ في 19 أوت 2000، المتضمن قانون المبادلات والتجارة الالكترونية التونسي.

(10) أبو زيد محمد ، مكانة المحررات الالكترونية بين الأدلة الكتابية ، الطبعة الأولى، دون ذكر دار النشر ومكانه، 2002، ص54.

(11) أحمد عوض حاج علي، حسين عبد الأمير خلف، أمنية المعلومات وتقنيات التشفير، الطبعة الأولى، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2005، ص34.

(12) الربضي عيسى غسان، القواعد الخاصة بالتوقيع الالكتروني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الحقوق، جامعة عين شمس، مصر، 2006، ص70.

(13) أبو الليل إبراهيم الدسوقي، الجوانب القانونية للتعاملات الالكترونية، الطبعة الأولى، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، 2003، ص134.

(14) لينا إبراهيم يوسف حسان، مرجع سابق، ص40.

(15) Eric.caprioli, règlement des litiges internationaux et droit applicable dans le commerce électronique, paris, litec, éd du Jc, 2002, N°70,P56.

(16) أنظر المواد (33 و34) من القانون رقم (04/15).

(17)Eric.caprioli, la loi française sur la preuve et la signature électronique dans perspective européenne, dir 1999-93 CE du parlement Européen et du conseil de 13/12/1999, éd G3 mais, n°18, P794.

(18) انظر المادة (70) من القانون رقم (04/15).

(19) يقصد بسياسة التصديق طبقا للمادة (02) من القانون رقم (04/15) مجموعة القواعد والإجراءات التنظيمية والتقنية المتعلقة بالتوقيع والتصديق الالكتروني، والتي توافق عليها السلطة الاقتصادية طبقا للمادة (30) من نفس القانون.

(20) انظر المادة (16) من القانون رقم (04/15).

(21) ومثالها قانون المعاملات الالكترونية الأردني رقم 85 لسنة 2001 في مادته الثانية.

(22) قانون التجارة الالكترونية البحريني الصادر بتاريخ 2002/09/14 في مادته الأولى.

(23) قانون المبادلات والتجارة الالكترونية التونسي في الفصل الثاني، وكذلك المادة الثانية من قانون المعاملات والتجارة الالكترونية لإمارة دبي.

(24) عايض راشد المري، مدى حجية الوسائل التكنولوجية الحديثة في إثبات العقود التجارية، أطروحة مقدمة لنيل

شهادة الدكتوراه، جامعة القاهرة، مصر، 1988، ص101.

(25)لينا إبراهيم يوسف حسان، مرجع سابق، ص76.

(26)عايض راشد المري، مرجع سابق، 344.

(27) انظر المادة (16) من القانون رقم (04/15)

(28) تنص المادة (26) من ذات القانون على أنه:« تنشأ لدى الوزير المكلف بالبريد وتكنولوجيات الإعلام والاتصال سلطة حكومية للتصديق الالكتروني تتمتع بالاستقلال المالي والشخصية المعنوية » .

(29) يتم الموافقة على سياسة التصديق الالكتروني الخاصة بها من قبل السلطة الوطنية وذلك طبقا للفقرة الثانية من المادة (18) من القانون (04/15).

(30) هذا دون الإخلال بالعقوبات المنصوص عليها في قانون العقوبات، متى كان يشكل الفعل الصادر عنهم جريمة يعاقب عليها القانون، وعلى سبيل المثال التزوير في محررات رسمية.

(31) هذا وقد تصادر التجهيزات التي استعملت لارتكاب الجريمة وذلك طبقا للفقرة الثانية من المادة (72) من القانون رقم (04/15).

(32) حددت المواد (58) و(59) آجال إعلام السلطة الاقتصادية بالتوقف عن النشاط وذلك وفقا لسياسة التصديق لهذه السلطة، وفي حالة استثنائية تخرج عن إرادة مقدمي الخدمات، يجب تبليغها فورا بوقف النشاط.

"**The authentication mechanism of electronic security for commercial dealings with modern facilities in the Algerian legislation**"

Dr. DRIS Kamel Fethi*

Abstract:

Recruitment has become the use of modern electronic means, most commonly used in the field of trade, but the risk of piracy and fraud is still there . To establish trust and safety in such transactions, the intervention of legal systems to develop a legal framework that governs the relationship, was necessary.

The national legislature has attempted through the issuance of Law No. (15/04), which sets the general rules related to the electronic electronic signature and authentication, and also attempt to set provisions, including electronic authentication mechanism, so that the electronic signature Authenticity is comparable to that of the traditional one . selecting the body tasked, and the certificates issued by it , and The scope of responsibility in case of breach of obligations.

Keywords: Electronic Authentication- provider of certification services - electronic certification - economic authority.

* Faculty of Law and Political Science - University of El-oued - Algeria .

كفالة اليتيم في التشريع الجزائري

بقلم
د/ سعاد زغيشي(*)

ملخص

الكفالة نظام بديل عن التبني شرعا وقانونا سواء لمعلومي النسب أو مجهوليه حفظا للأنساب وعدم اختلاطها تضمن للطفل المتكفل به الحماية في ظل أسرة بديلة ليتم إدماجه في المجتمع حتى لا يكون عرضة للانحراف والإجرام.

الكلمات المفتاحية: اليتيم- الكفالة- القانون.

مقدمة

يعتبر موضوع حقوق الأطفال اليوم من أهم الموضوعات والقضايا المطروحة على المستوى الدولي والوطني، حيث يسعى المشرعون إلى وضع قوانين تحميهم وتحفظهم بغية توفير الحماية اللازمة لهم، واليتيم هو طفل من هؤلاء الأطفال يحتاج إلى الحماية والرعاية أكثر من غيره لأنه لا أب له يحميه ويشفق عليه، لذلك شرعت الكفالة كنظام بديل عن التبني رعاية له ولغيره حتى يبلغ قادرا.

فكيف نظم المشرع الجزائري الكفالة؟ وهل وفر الحماية اللازمة للطفل المتكفل به؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية تناولت الدراسة المباحث التالية:

المبحث الأول في تحديد المفاهيم في اللغة والمصطلح.

المبحث الثاني في الوضعية القانونية للطفل المتكفل به.

المبحث الثالث في الآثار المترتبة عن إسناد الكفالة.

المبحث الأول: تحديد المفاهيم في اللغة والمصطلح

إن عبارة كفالة اليتيم تتكون من كلمتين: كفالة ويتيم، و حتى يمكن إعطاء المدلول الصحيح لهذه العبارة سوف أتطرق إلى تعريف الكفالة في اللغة والاصطلاح وكذا تعريف اليتيم وفضل كفالته.

(*) أستاذ محاضر "أ" بكلية الحقوق والعلوم السياسية ـ جامعة باتنة1..
zeghichisouad@yahoo.com

المطلب الأول: تعريف الكفالة

الفرع الأول: تعريف الكفالة في اللغة

الكفالة في اللغة معناها الضم، وهي مصدر كفل بفتح الفاء، أي : ضم وضمن،ويقال كفل فلان فلانا بمعنى ضمه إليه، وضمن القيام به، والكفالة عند اللغويين تطلق على الحمالة والزعامة والضمان، ولها ألفاظ أخرى مرادفة لهذه الألفاظ، ترجع جملتها إلى معنى التزام بالشيء والتحمل به، فكما يقال: كفيل وضامن وزعيم، يقال: حميل وقبيل وأذين[1] وفي حديث: "وأنت خير المكفولين" يعني رسول الله عليه الصلاة والسلام.أي: خير من كفل في صغره وربي حتى نشأ[2]، ومنه فالكفالة في اللغة هي : ضمان القيام بأمر المكفول.

الفرع الثاني : تعريف الكفالة في الاصطلاح الشرعي

تعرف الكفالة في الشرع بأنها ضم ذمة الكفيل إلى ذمة الأصيل في المطالبة بنفس أو دين أو عين أو عمل، وهذا التعريف لفقهاء الأحناف.[3]

وعند غيرهم من الأئمة تعرف الكفالة بأنها ضم الذمتين في المطالبة والدين[4].

والكفالة في كتب الفقه تسمى بالحمالة والضمان[5].

ومنه نلاحظ أن تعريف الكفالة الوارد في الفقه هو أن يلتزم شخص بأداء حق ثبت في ذمة شخص آخر قد يكون هذا الحق دينا أو عينا أو عملا، وإنما يفعل ذلك على وجه التوثيق والضمان، وهذا التعريف يستعمل في باب المعاملات.

وإذا رجعنا إلى كتب التفسير فهناك من فسر الكفالة في قوله تعالى: ﴿ وكفلها زكريا ﴾[6] أن الكفالة من كفل يكفل كفلا فهو كافل، وهو الذي ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه[7].

ومنه فالكفالة في باب الأسرة هي رعاية الطفل وتربيته والإنفاق عليه على سبيل التطوع، وذلك بأن يضم الرجل إليه طفلا يتيما ويجعله كابنه في الحنو عليه والعناية به والقيام بشؤونه وتربيته، فيحضنه ويطعمه ويكسوه ويعلمه ويعامله كأنه ابنه من صلبه دون أن يلحق به نسبه أو تثبت له أحكام البنوة.

الفرع الثالث: تعريف الكفالة في القانون

يعتبر المشرع الكفالة ضربا من ضروب النيابة التي بها تحل إرادة النائب محل إرادة الأصيل في إنشاء التصرف القانوني مع انصراف آثاره إلى ذمة الأصيل.

وعرفت الكفالة في التشريع الجزائري من الجانبين أيضا، حيث عرفها القانون المدني في المادة 644 بأنها: عقد يكفل بمقتضاه شخص تنفيذ التزام، بأن يتعهد للدائن بأن يفي بهذا الالتزام إذا لم

يف به المدين نفسه.

أما بالنسبية لقانون الأسرة فقد عرف الكفالة في المادة 116 بأنها: التزام على وجه التبرع بالقيام بولد قاصر من نفقة وتربية ورعاية قيام الأب بابنه، وتتم بعقد شرعي. ومنه فالمشرع يجعل الكفالة أيضا التزاما شخصيا على سبيل التطوع إلا أنه يضفي عليها الصفة العقدية حفاظا على حقوق الطفل المكفول.

إن المشرع فتح باب الكفالة لتشمل معلومي النسب و مجهوليه كنظام بديل عن التبني الممنوع بنص المادة 46 من قانون الأسرة، والتي تنص على أنه: يمنع التبني شرعا وقانونا.

كما نصت المادة 120 من قانون الأسرة على أنه: يجب أن يحتفظ الولد المكفول بنسبه الأصلي إن كان معلوم النسب وإن كان مجهول النسب تطبق عليه المادة 64 من قانون الحالة المدنية، والتي تنص على أنه: يعطي ضابط الحالة المدنية نفسه الأسماء إلى الأطفال اللقطاء، والأطفال المولودين من أبوين مجهولين والذين لم ينسب لهم المصرح أية أسماء. يعين الطفل بمجموعة من الأسماء يتخذ آخرها كقلب عائلي.

المطلب الثاني : تعريف اليتيم

الفرع الأول: تعريف اليتيم في اللغة

وردت كلمة اليتيم على عدة معان عند أهل اللغة، فيراد بها الإنفراد، والفرد ما كان وحده[8] قال الراغب: كل منفرد يتيم[9]. كما يراد به فقدان الأب، قال الحرالي: اليتيم: فقدان الأب حين الحاجة، في الذكر إلى البلوغ، والأنثى إلى الثيوبة لبقاء حاجاتها بعد البلوغ[10].

قال بن بري: اليتيم الذي يموت أبوه، وقال ابن السكيت: اليتيم في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأم[11]. إذن فاللغويون يجمعون بأن اليتيم هو من فقد أباه وكان مفردا.

الفرع الثاني : تعريف اليتيم في الاصطلاح

يقول محمد رشيد رضا: اليتيم في عرف الفقهاء من مات أبوه وهو صغير، فمتى بلغ زال يتمه، إلا إذا بلغ سفيها، فإنه يبقى في حكم اليتيم، ولا يزول عنه الحجر[12].

بينما يعرف سعيد حوى اليتامى بقوله: هم الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب.[13]

في الحقيقة لا يمكن أن نقتصر على تقييد اليتم بفقدان الأب فقط، بل هناك من يعرف اليتم بفقدان الأم أيضا[14]، ذلك لأن وظيفة كل من الأم والأب متكاملة وضرورية في حياة الصغير، إذ الأب جانبه مادي ينم عن القوة والأم جانبها روحي معنوي ينم عن الحضن والرفق والحنان،

ودونها تكون حياة الطفل مضطربة غير مستقرة[15].

ومنه نقول أن اليتيم هو من فقد أبواه قبل بلوغه وقد يكون يتمه بفقدان الأب أو بفقدان الأم أو بفقدانهما معا.

الفرع الثالث: تعريف اليتيم الحكمي (اللقيط)

يطلق مصطلح اليتيم الحكمي على ما يسمى اللقيط، وهو من كان أبواه مجهولين، ويدخل اللقيط تحت حكم اليتيم في رأي العلماء[16].

أولا: تعريف اللقيط في اللغة: اللقيط لغة من لفظ لقط، لقطه، يلقطه لقطا، أخذه من الأرض، فهو ملقوط، ولقيط، أما الصبي المنبوذ يجده الإنسان فهو اللقيط عند العرب[17].

ثانيا: تعريف اللقيط في الاصطلاح الشرعي: اللقيط في الشرع هو الطفل المفقود، المطروح على الأرض عادة، خوفا من مسؤولية إعالته، أو فرارا من تهمة الريبة أو الزنا، فلا يعرف أبوه ولا أمه أو لسبب آخر[18]، واللقيط نفس محترمة في الشرع الإسلامي، تستحق الحفظ والرعاية، ولهذا كان التقاطه مطلوبا، وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن التقاطه فرض كفاية على المسلمين، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وإلا أثموا جميعا إلا إذا خاف الملتقط هلاك الولد فالالتقاط هنا فرض عين[19]

الفرع الثالث: تعريف اللقيط في القانون

لم يعرف المشرع اللقيط،غير أنه ورد لفظ اللقيط في المادة 64 من قانون الحالة المدنية في الفقرة الثانية: يعطي ضابط الحالة المدنية نفسه الأسماء إلى الأطفال اللقطاء والأطفال المولودين من أبوين مجهولين.

يتبين من نص المادة أن المشرع يريد بالأطفال اللقطاء أولئك الأطفال الذين عثر عليهم في الشارع أو المسجد أو غيره، سواء كانوا معلومي النسب أو مجهوليه، وأبناء الزنا الذين تخلت عنهم أمهاتهم بمحض إرادتهن.

وفي النظام القانوني الجزائري يدخل اللقيط ضمن مصطلح الطفولة المسعفة الذي يعني: رعاية كل طفل بحاجة إلى المساعدة سواء كان لقيطا أو يتيما أو وضع في المركز بأمر من قاضي الأحداث.

تستقبل مراكز الطفولة المسعفة اللقطاء عبر التراب الوطني ويطلق عليهم أبناء الدولة أو أيتام الدولة وذلك تحت وصاية مديرية النشاط الاجتماعي لكل ولاية.

يعرف عبد العزيز سعد مجهولي الأبوين بقوله: هم جميع الأطفال اللقطاء المتروكين أو المهملين وأبناء الزنا الذين جاءوا إلى الدنيا على غير رغبة منهم، وكان مجيئهم إليها نتيجة لنزوات آبائهم

وخطيئتهم[20].

بينما يعرف العربي بلحاج اللقيط بقوله: هو المولود حديث العهد بالولادة،لا يعرف له أب ولا أم طرحه أهله خوفا من الفقر أو فرارا من تهمة الزنا، أو لغير ذلك من الأسباب[21].

ومنه فاللقيط في التشريع الجزائري يتسع ليشمل كل مولود خارج مؤسسة الزواج، وكل من عثر عليه مهملا أو متروكا معلوم النسب أو مجهوله صغيرا كان أو حديث العهد بالولادة بخلاف المفهوم الشرعي للقيط، الذي يحصره في المهمل أو المتروك وقد يكون ابن زنا، ذلك لأن أبناء الزنا يثبت نسبهم للأم بالولادة لقوله ﷺ: "الولد للفراش، وللعاهر الحجر "[22].

المطلب الثالث: فضل كفالة اليتيم

تعتبر الكفالة إحدى الصور البديلة التي أقرتها الشريعة الإسلامية للطفل الذي فقد رعاية وعطف والديه سواء كان معلوم النسب أو مجهوله، حيث وضعت لها قواعد دينية ينتظم من خلالها نظام الكفالة، كما رغبت فيها وشجعت عليها وجعلتها من أعظم ما ينال به المسلم رضا الله تعالى والقرب من نبيه ﷺ غدا في الجنة،حيث قال عليه الصلاة والسلام: " أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة الوسطى وفرج بينهما"[23] والكفالة من الأعمال الخيرية التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه حيث يقول تعالى: ﴿ وافعلوا الخير﴾[24]

ولعل من أعظم الخيرات كفالة اليتيم أو كفالة طفل فقير. يقول ﷺ: " من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة"[25]، وكذلك قوله: " خير بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يكرم، وشر بيوت المسلمين بيت يقهر فيه يتيم "[26]، ناهيك عن الفضائل التي تعود على الكافل في الحياة الدنيا فضلا عن الآخرة، قال تعالى:﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾[27] حيث تحل البركة في رزقه وماله ويحفظ بها الله ولده وأسرته ومجتمعه.

فالكفالة تساهم في بناء مجتمع سليم خال من الحقد والكراهية والضغينة، مجتمع يسود فيه الإخاء والتراحم يقول عليه الصلاة والسلام: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "[28]

المبحث الثاني : الوضعية القانونية للطفل المتكفل به

إن الكفالة من الأعمال الإنسانية التي تهدف أساسا إلى ضمان حياة اجتماعية سليمة للطفل المتكفل به من جهة، وإلى التقرب إلى الله تعالى من جهة أخرى، إلا أن المشرع عززها بقواعد

حتى تتم على أحسن وجه، تتمثل هذه القواعد في:

المطلب الأول: شروط الكفالة و إجراءاتها:

لكي تكون الكفالة صحيحة ومنتجه لأثارها لا بد من توفر شروط وإجراءات حددها المشرع:

الفرع الأول: شروط الكفالة:

إن فقدان الطفل لأبويه والعيش في كنفهما، لا ينفي مطلقا عدم الالتجاء إلى أشخاص آخرين **قد يكونوا أشخاصا طبيعيين أو اعتباريين يمنحون له الرعاية والتربية السليمة وفق شروط** وإجراءات حددها المشرع الجزائري وقد أشارت الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل لسنة 1989 في المادة 20 إلى ضرورة إيجاد وسط عائلي بديل للطفل المحروم بصفة مؤقتة أو دائمة من هذه البيئة، **ويتعين على الدول الأطراف في الاتفاقية أن توجد مثل هذا الوسط وفقا لقوانينها وتشريعاتها** الوطنية، ولما كانت الجزائر طرفا في الاتفاقية[29] نصت بدورها على هذا الحق: تضمن الدولة **للطفل المحروم من العائلة حقه في الرعاية البديلة[30] والتي تكون أما في الأسر الكافلة أو في** مراكز الطفولة المسعفة.

أولا: الشروط المتعلقة بالأشخاص الطبيعيين (الأسر الكافلة): استنادا إلى نص المادة 118 **من قانون الأسرة الجزائري فإنه يشترط أن يكون الكافل مسلما، عاقلا، أهلا للقيام بشؤون** المكفول، وقادرا على رعايته، والقدرة هنا يقصد بها القدرة الجسدية والمادية فلا يعقل أن تسند الكفالة لشيخ وزوجته تجاوزا السبعين مثلا، أو إلى فقير هو نفسه يحتاج مساعدة الغير[31].

لقد أغفل المشرع بعض الشروط مثل شرط العدالة، وسن الكافل، وكونه زوجا، وموافقة الزوج الآخر، إلا أن دليل الكفالة الموجود على مستوى مديريات النشاط الاجتماعي ومراكز الطفولة المسعفة حدد هذه الشروط من خلال إجراءات الكفالة[32].

ثانيا: الشروط المتعلقة بالأشخاص الاعتبارية (مراكز الطفولة المسعفة): من أجل تنشئة الطفل تنشئة سليمة منسجمة مع تقاليد وخصوصيات وطنه، أنشئت مراكز الطفولة المسعفة بموجب المرسوم رقم 80-83 المتضمن إحداث دور الأطفال المسعفين وتنظيمها وسيرها، ثم **تلته عدة مراسيم تنفيذية متممة للقائمة الملحقة لهذا المرسوم هذه المؤسسات أو المراكز يسلم لها** الأطفال المتخلي عنهم بعد الوضع في المستشفيات، والأطفال اللقطاء واليتامى، والأطفال **المسلمون للمركز بموجب تدبير قضائي، ويساءل قانونا كل من وجد طفلا حديث العهد** بالولادة ولم يسلمه إلى الجهات المعنية وفقا لنص المادة 442 فقرة 3 من قانون العقوبات.

تستقبل مراكز الطفولة المسعفة الأطفال المسعفين من سن المهد إلى 18 سنة عموما، حيث

يقوم برعايتهم طاقم إداري وتقني متخصص من المربين والأطباء و الأخصائيين النفسانيين والاجتماعيين والقانونيين، وهي عبارة عن مؤسسات عمومية ذات طابع إداري واستقلالية مالية[33] موزعة على الوطن،حيث تنشأ في كل ولاية دار أو أكثر للأولاد المسعفين[34] حسب الكثافة السكانية.

الفرع الثاني : إجراءات الكفالة

ذكرنا أن كفالة اليتيم هي رعاية الطفل من قبل أسرة غير أسرته سواء كانت من أقاربه أو غريبة عنه، والمشرع لم يفرق بين الأسر الكافلة في إجراءات الكفالة، فكلها تتم بموجب عقد شرعي ينشأ على مرحلتين :

أولا: المرحلة التمهيدية: وهي المرحلة التي يظهر فيها طرفي العقد دون اللجوء إلى القضاء سواء كان المكفول معلوم النسب أو مجهوله وقد أكد المشرع على أنه يجب أن يكون رضا أبوي المكفول معلوم النسب صراحة طبقا للمادة 117 من قانون الأسرة "....وأن تتم برضا من له أبوان" وأن تكون إرادتهما خالية من العيوب[35] وإلا كان عقد الكفالة باطلا،أما بالنسبة للمكفول مجهول النسب فإن مركز الطفولة المسعفة يكون الطرف الثاني في العقد ممثلا في مديره، حيث يتقدم طالب الكفالة بملف إداري[36] لدى المؤسسة والتي تقوم بدراسته.

يقوم المختصون الاجتماعيون والنفسانيون التابعون لمديرية النشاط الاجتماعي بتحقيق اجتماعي ونفساني مع الأسرة الراغبة في كفالة الطفل ينتهي بإعداد تقرير حول الأسرة، ثم تقوم لجنة مؤهلة بدراسة الملف وتقرير المساعدة الاجتماعية والنفسانية وفي الأخير تعطي قرارها بحيث إذا تمت الموافقة على طلب الكفالة يتم إصدار شهادة بأنه تم تسليم الطفل القاصر للكافل،هذا على مستوى داخل الوطن،أما خارج الوطن فيقدم طلب الكفالة إلى المصالح القنصلية مع تكوين ملف إداري يخضع للدراسة كذلك. إن هذا الإجراء يعتبر أوليا من الكفالة، إذ يجب إفراغها في شكل رسمي كما نصت عليه المادة 117 من قانون الأسرة.

ثانيا: مرحلة تثبيت الكفالة: حفاظا على مصلحة المكفول حتى لا تهدر حقوقه، أوجب المشرع أن تكون الكفالة أمام المحكمة أو أمام الموثق[37]

أ- أمام المحكمة: يتقدم طالب الكفالة بعريضة طلب الكفالة أمام قاضي شؤون الأسرة أو إلى رئيس المحكمة طبقا لنص المادة 492 من قانون الإجراءات المدنية و الإدارية مرفقا إياها نسخة من التصريح بموافقة أحد أبوي المكفول[38] في حالة كون المكفول معلوم النسب، أما في حالة

مجهول النسب فيرفق الطلب بشهادة ممنوحة للكافل من قبل مديرية النشاط الاجتماعي[39] وتكون المحكمة المختصة هي المحكمة الواقع في دائرتها موطن طالب الكفالة، وإن كان موطن طالب الكفالة خارج الوطن يرفع الطلب إلى القاضي الذي هو بموطن المكفول، وعلى القاضي أن يتأكد من الشروط الواجبة في عقد الكفالة طبقا لنص المادة 495 من قانون الإجراءات المدنية والإدارية، وتلقائيا يصدر حكما في شكل أمر نهائي يمنح للكافل كفالة القاصر، هذا الأمر له قوة قانونية تمكن الكافل من تسجيل المكفول بمصالح الحالة المدنية حتى يتسنى له الحصول على الوثائق الإدارية[40].

ب- أمام الموثق: رغم أن عقد الكفالة رضائي على سبيل التبرع والإحسان إلا أن المشرع أوجد طريقا آخر لإفراغ العقد في شكل رسمي بعيدا عن المحكمة وذلك أمام ضابط عمومي وهو الموثق بنص المادة 117 من قانون الأسرة، وللكافل الخيار بين المحكمة والموثق في تثبيت الكفالة، وبعد صدور عقد الكفالة يتوجه الكافل إلى ضابط الحالة المدنية لتسجيل الطفل المكفول.

حاليا بالنسبة للأطفال الموجودين في مراكز الطفولة المسعفة لا تجري الكفالة عند الموثق بل على مستوى القضاء فقط.

ما يؤاخذ عليه المشرع أنه أغفل محاضر التسليم واكتفى بشهادة التسليم التي تمنح من طرف مدير المركز، مع أنه يجب أن يتم التنفيذ وفق محضر يتضمن هوية الكافل والمكفول والأشخاص الذين حضروا التسليم ومكان وساعة تسليم الطفل، وهذا المحضر يوقع من طرف عون التنفيذ والكافل كما هو الحال في التشريع المغربي[41].

المطلب الثاني: حقوق الطفل المتكفل به

يتمتع الطفل المتكفل به بحقوق معنوية وأخرى مالية.

الفرع الأول: الحقوق المعنوية

أولا: التسجيل في سجلات الحالة المدنية

بعد التصريح بالطفل إلى ضابط الحالة المدنية سواء كان معلوم النسب أو مجهوله يجب تقييده في سجل الحالة المدنية طبقا لنص المادة 61 من قانون الحالة المدنية، وإلا فرضت عليه عقوبات نصت عليها المادة 442 من قانون العقوبات، ويجب أن تحرر شهادة ميلاد يبين فيها تاريخ الولادة والساعة والمكان وجنس المولود واسمه طبقا لنص المادتين 63و64 من قانون الحالة المدنية.

إلا أن المشرع خص الطفل اللقيط و مجهول الأبوين بمحضر خاص يذكر فيه كل التفاصيل المتعلقة بتاريخ ومكان العثور عليه وجنسه وعمره الظاهر والحالة التي وجد عليها والأشياء التي

كانت معه طبقا لنص المادة 67 من قانون الحالة المدنية، وإذا تم التكفل به من الملتقط أو غيره فإنه يؤشر على هامش شهادة الميلاد بالكفالة[42].

ثانيا: الحق في الاسم الشخصي

لكل شخص اسم يمنح له بعد ولادته يتميز به عن غيره من الناس،ولقد حث الإسلام على اختيار الأسماء الحسنة للأولاد لقوله ﷺ: " إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماؤكم[43]وقد نصت المادة 64 من قانون الحالة المدنية على أن الاسم يختاره الأب أو الأم أو الشخص الذي صرح بالولادة، ويحمل الطفل معلوم النسب لقب أبيه وفقا لنص المادة 28 من القانون المدني، وقد نصت المادة 217 من قانون العقوبات على أنه يعاقب كل من أدلى أمام الموظف العمومي بتقرير يعلم أنه غير مطابق للحقيقة، أما بالنسبة للأطفال اللقطاء فيتولى ضابط الحالة المدنية نفسه منح الأسماء إذا لم ينسب لهم المصرح أية أسماء، ويعين الطفل بمجموعة من الأسماء يتخذ آخرها كلقب عائلي طبقا لنص المادة 64 من قانون الحالة المدنية حتى يمكن إدماجهم في المجتمع، ويعرض كل من انتحل لقبا غير لقب عائلته نفسه للعقوبة طلقا لنص المادة 247 من قانون العقوبات.

ثالثا: حق الجنسية

يأخذ الطفل معلوم النسب جنسيته الجزائرية عن طريق النسب من جهة أبيه أو من جهة أمه إذا كانت متزوجة بأجنبي مسلم طبقا لنص المادة 6 من قانون الجنسية،أما بالنسبية للقيط فإن الجنسية الجزائرية تقوم على رابطة الإقليم طبقا لنص المادة 7 من قانون الجنسية : أن كل مولود حديث العهد بالولادة عثر عليه في الجزائر يعد مولودا فيها حتى يثبت خلاف ذلك.

أما عن حالة ابن الزنا فإنه يأخذ جنسية أمه الجزائرية وفقا لنص المادة 6 من قانون الجنسية: يعتبر جزائريا الولد المولود من أب جزائري أو أم جزائرية. وينفرد القانون الجزائري بهذا الحكم عن القوانين العربية متبعا في ذلك القانون الفرنسي[44].

لقد أغفل المشرع حالة الطفل الأجنبي المتكفل به، فهل يكتسب الجنسية الجزائرية بمجرد إقامته في الجزائر مع الكافل؟ هل للكافل طلب التجنس للطفل المتكفل به؟ وهل للمكفول المطالبة بالجنسية الأصلية بعد سن الرشد؟ لم ينص المشرع على ذلك.

رابعا: الولاية

يرتب عقد الكفالة حقوقا والتزامات من بينها حق الولاية، وتعرف بأنها النيابة الجبرية التي

يفوض فيها الشرع أو القضاء شخصا كبيرا راشدا بأن يتصرف لمصلحة القاصر في تدبير شؤونه الشخصية والمالية، وبمقتضاها يعتبر الولي هو المتمثل الشرعي لذلك القاصر فيقوم مقامه في جميع الحقوق التي تقبل النيابة من عقود وأفعال ومخاصمات في الحقوق ونحو ذلك[45].

وقد نصت المادة 121 من قانون الأسرة على أنه : " تخول الكفالة الكافل الولاية القانونية".

والولاية سلطة نيابية يستمدها الكافل من أبوي المكفول إذا كان معروف النسب أو من مدير مركز الطفولة المسعفة إذا كان مجهول الأبوين، تكون على الطفل المتكفل به في نفسه وماله لأنه قاصر يحتاج إلى من يرعاه ويقف عند احتياجاته المادية والمعنوية.

أ- الولاية على النفس: وتكون بقيام الكافل بشؤون المكفول من رعاية وعناية وتعليم وتربية، وهذا ما أشارت إليه المادة 116 من قانون الأسرة : " الكفالة التزام على وجه التبرع بالقيام بولد قاصر من نفقة وتربية ورعاية قيام الأب بابنه" فالطفل المتكفل به يحتاج إلى العطف الحنان والتربية والتعليم أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب ليكون فردا صالحا في المجتمع، حيث يقول ﷺ: " كن لليتيم كالأب الرحيم"[46].

ب- الولاية على المال: وتكون بالاعتناء بأموال الطفل المتكفل به وذلك بالنظر فيها بالتنمية والتثمير، حيث يقول ﷺ: " ألا من ولي يتيما له مال فليتجر فيه ولا يتركه تأكله الصدقة"[47]، وهو ما نصت عليه المادة 122 مكن قانون الأسرة: " يدير الكافل أموال الولد المكفول المكتسبة من الإرث والوصية أو الهبة لصالح الولد المكفول"، وقد تضمنت المواد من 88 إلى 98 من قانون الأسرة كيفية إدارة هذه الأموال، وقد رصد المشرع عقوبات ردعية في حالة استغلال حاجة قاصر لم يكمل 19 سنة طبقا لنص المادة 380 من قانون العقوبات.

الفرع الثاني : الحقوق المالية

إن المشرع ومن خلال إجراءات الكفالة اشترط أن تكون الذمة المالية للكافل موسرة،وذلك بأن يقدم كشف الراتب أو ما يثبت يسره حتى يتمكن من المتكفل بالقاصر سواء كان معلوم النسب أو مجهوله[48]، وعليه فإن أول ما يلتزم به من جراء عقد الكفالة هو الإنفاق على الطفل المتكفل به وهذا ما نصت عليه المادة 116 من قانون الأسرة "... بالقيام بولد قاصر من نفقة..." وتشمل النفقة حسب نص المادة 78 من نفس القانون الغذاء والكسوة والعلاج والسكن أو أجرته وما يعتبر من الضروريات في العرف والعادة.

أما إذا كان للمكفول مال فتكون النفقة من ماله في رأي الفقهاء[49]، بخلاف المشرع الجزائري

الذي يلزم الكافل بالنفقة على الطفل المتكفل به بناء على نية التبرع لديه.

إن المشرع حينما أنشأ نظام الكفالة كنظام بديل عن التبني، لم ينظم قواعدها بل تركها لمروءة المواطنين وشهامتهم[50]، وهذا ما نراه من خلال تلك الفراغات القانونية في موضوع الكفالة.

المطلب الثالث: انتهاء الكفالة

ترجع أسباب انتهاء الكفالة حسب المادتين 124 و125 من قانون الأسرة إلى أسباب تتعلق بالمكفول وأخرى بالكافل.

الفرع الأول: أسباب تتعلق بالمكفول

أولا: طلب إنهاء الكفالة :

لقد ترك المشرع سلطة الاختيار للطفل المكفول معلوم النسب في الالتحاق بأبويه أو البقاء عند الكافل إذا طلب أبواه إنهاء الكفالة، هذا إن كان المكفول مميزا، أما إذا كان المكفول غير مميز فللقاضي السلطة التقديرية في إنهاء الكفالة طبقا لنص المادة 124 من قانون الأسرة.

ثانيا: وفاة المكفول

ينتهي عقد الكفالة بوفاة المكفول موضوع الكفالة. نلاحظ أن المشرع أغفل النص صراحة عن مآل أموال المكفول، إلا أنه و باستقراء نص المادة 126 من قانون الأسرة والتي تنص على : أسباب الإرث : القرابة و الزوجية، والمادة 180 في فقرتها الثانية : فإذا لم يوجد ذوو فروض أو عصبة آلت التركة إلى ذوي الأرحام، فإن لم يوجدوا آلت إلى الخزينة العامة، وكذا المادة 773 من القانون المدني ومنه فإن أموال المكفول تؤول إلى الخزينة العامة.

إلا أنني أرى أن الكافل أحق بأموال المكفول بناءا على قاعدة الغرم بالغنم،لأن الكافل هو المسؤول عن الإنفاق عليه وتربيته وتعليمه هذا إذا كان مجهول الأبوين أما إذا كان معلوم النسب فميراثه يكون حسب قواعد الميراث، وكذلك لحديث الرسول ﷺ: " إنما الولاء لمن أعتق"[51] فالإنعام بالعتق سبب لميراث المعتق، فمن باب أولى أن يرث الكافل لأنه كان سببا في إحياء المكفول بتربيته والإنفاق عليه، ثم إن ميراث الكافل للمكفول مجهول الأبوين يفتح باب الكفالة ويرغب فيها.

الفرع الثاني : أسباب تتعلق بالكافل

وتتمثل فيما يأتي:

أولا : وفاة الكافل: إذ بوفاته يزول محل العقد وهو القيام بقاصر ومنه تنقضي الكفالة. إلا أن المشرع ومراعاة لمصلحة المكفول جعل الكفالة تنتقل إلى الورثة إن التزموا بالحلول محل الكافل

طبقا للنص المادة 125 من قانون الأسرة والمادة 497 من قانون الإجراءات المدنية والإدارية، حيث يقوم القاضي بتعيين أحد الورثة كافلا، أما في حالة الرفض ينهي القاضي الكفالة حسب نفس الأشكال المقررة لمنحها ويسند أمر القاصر إلى الجهة المختصة بالرعاية.

وبالرجوع إلى أحكام الولاية نجد المادة 87 من قانون الأسرة تنص على أنه: يكون الأب وليا على أولاده القصر وبعد وفاته تحل الأم محله قانونا، ولما كان الكافل في منزلة الأب في الالتزام بالقيام بشؤون القاصر طبقا لنص المادة 116 من قانون الأسرة أرى أن الكفالة تنتقل إلى زوجة الكافل إن التزمت بها وهذا ما نراه عمليا.

ما يؤاخذ عليه المشرع أنه جعل الطفل المتكفل به كالشيء الموروث ينتقل إلى الورثة، وهذا يتنافى وآدميته، لذلك أرى أنه لابد من إعادة النظر في بعض مواد الكفالة ومحاولة تكييفها عن طريق إيجاد آليات جديدة تتماشى والعصر لتحقيق حماية أكثر للطفل المتكفل به وخاصة من الجانب النفسي.

ثانيا: التخلي عن الكفالة أو التنازل عنها: لقد اشترط المشرع أن يتم التخلي عن الكفالة أمام الجهة التي أقرتها طبقا لنص المادة 125 من قانون الأسرة حيث ترفع دعوى إلغاء الكفالة حسب قواعد الإجراءات العادية طبقا لنص المادة 496 من قانون الإجراءات المدنية والإدارية. ولم ينص المشرع الجزائري على أسباب التخلي عن الكفالة بل تركها لتقدير قاضي شؤون الأسرة.

ثالثا: أسباب أخرى باستقراء المادتين 91 و 118 من قانون الأسرة : مراعاة لمصلحة المكفول فإن الكفالة تنتهي في الحالات الآتية:

1- العجز وعدم القدرة على القيام بشؤون القاصر كالمرض والإعسار.

2- الحجر على الكافل بسبب فقدان الأهلية بجنون أو عته(52).

3- ردة الكافل أي خروجه عن الإسلام إذ لا ولاية لكافر على مسلم.

4- إسقاط الكفالة عن الكافل بموجب حكم قضائي بسبب سوء أخلاقه أو كونه محكوما عليه بعقوبة سالبة للحرية.

المبحث الثالث: الآثار المترتبة عن إسناد الكفالة

إن عقد الكفالة بالنسبة للكافل يعتبر مصدر التزامه، ذلك أن نية الكافل انصرفت إلى التبرع والالتزام بالقيام بشؤون القاصر، إذ يصبح الكافل بمثابة الأب الحريص على ابنه، هذا الالتزام يرتب جملة من الآثار :

المطلب الأول: قبض المنح العائلية

لقد نص قانون الأسرة على الحق في المنح العائلية و الدراسية الممنوحة للمكفول في المادة 121 على أنه: " تخول الكفالة الكافل الولاية القانونية، وجميع المنح العائلية والدراسية التي يتمتع بها الولد الأصلي".

حيث يتقدم الكافل بملف لدى الهيئة المستخدمة يحوي شهادة عائلية مسجل بها الولد المكفول إلى جانب الأبناء الأصليين مع الإشارة في نفس الشهادة بأنه مكفول، أو يضع الشهادة العائلية زائد عقد الكفالة منفصلين وذلك قصد الاستفادة من المنح المقدمة من الضمان الاجتماعي(53).

المطلب الثاني: التبرع للطفل المتكفل به في حدود الثلث

نصت المادة 123 من قانون الأسرة على أنه: " يجوز للكافل أن يوصي أو يتبرع للمكفول بماله في حدود الثلث وإن أوصى أو تبرع بأكثر من ذلك بطل ما زاد على الثلث إلا إذا أجازه الورثة".

لقد أعطى المشرع للكافل بديلا عن الإرث وهو حق التبرع في حدود الثلث،ذلك لأن عقد الكفالة لا ينشئ حقوقا ميراثية بين الكافل والمكفول، وهو الشيء الذي أقرته الشريعة الإسلامية، وقانون الأسرة الجزائري بنص المادة 46: " يمنع التبني شرعا وقانونا".

أشار المشرع إلى صورتين من صور التبرع وعلى الكافل أن يختار إحداهما:

الفرع الأول: الوصية

وهي تبرع لما بعد الموت، ومعناها أن يوصي الشخص لآخر بمال أو أي حق عيني بأن يدخل ذمته ولكن بعد وفاته أي وفاة الموصي(54).

إنه من تمام الإحسان إلى المكفول أن جعلت الوصية من الكافل تنتقل إليه بعد الوفاة حتى لا يترك تعيسا، فقيرا مطرودا من طرف الورثة، وفي المقابل أن لا تكون هذه الوصية أكثر من الثلث حماية للورثة من تعسف الكافل، إلا إذا أجازوها تعففا وإكراما للميت وإحسانا للمكفول(55).

الفرع الثاني: الهبة

يعرف قانون الأسرة الهبة في المادة 202 بأنها: " تمليك بلا عوض"، وهي عبارة عن تبرع إلا أنه يكون في حياة الواهب لمال عيني أو منفعة أو دين لدى الغير(56) وهي تختلف عن الوصية، إذ تنتقل إلى المكفول في حياة الكافل بمجرد الحيازة، أما إذا كان عقارا فلا بد من إجراءات شكلية محددة قانونا طبقا لنص المادة 206 من قانون الأسرة،ولا توجد حدود للهبة، إذ الواهب يتصرف في ماله بكل حرية إذا توفرت فيه شروط الأهلية طبقا لنص المادة 203 من قانون الأسرة،أما في

حالة مرض الموت فتخضع الهبة لأحكام الوصية طبقا لنص المادة 204 من نفس القانون.

إلا أن المشرع وحماية لحق الورثة في التركة جعل الهبة للمكفول تخضع لأحكام الوصية أي حددها بالثلث، وما زاد بطل إلا بإجازة الورثة، وبهذا يكون قد قيد حرية الكافل في الهبة للمكفول.

ما يؤاخذ عليه المشرع أنه في التبرع للمكفول سوى بين الوصية والهبة "... يوصي أو يتبرع للمكفول في حدود الثلث" لأن " أو" تفيد التخيير، وبهذا يكون قد أخلط بين أحكام الوصية وأحكام الهبة[57]، فما هي نية المشرع من ذلك؟ وأين مصلحة المكفول وخاصة إذا انعدم الورثة؟

الفرع الثالث: منح اللقب العائلي

إن إمكانية منح اللقب العائلي للطفل المتكفل به بموجب عقد الكفالة يعتبر من أهم الآثار القانونية المترتبة على عقد الكفالة بالنسبة للقاصر مجهول النسب.

حيث جاء المرسوم التنفيذي رقم 92/ 24 المؤرخ في 8 رجب 1412 ه الموافق ل 13 يناير 1992 م المعدل والمتمم للمرسوم رقم 71/ 157 المؤرخ في 3 يونيو 1971 م المتعلق بتغيير اللقب، وقد نصت المادة الأولى منه على الشروط المطلوبة قانونا لطلب تغيير لقب المكفول وإلحاقه بلقب الكافل وتتمثل هذه الشروط في :

1- وجود عقد كفالة صادر عن الموثق أو من الجهات القضائية المختصة.

2- أن يكون المكفول قاصرا مجهول النسب من جهة الأب.

3- أن يكون طلب تغيير اللقب من طرف الكافل.

4- اشتراط موافقة أم المكفول إذا كانت معلومة وعلى قيد الحياة، وأن تكون هذه الموافقة مكتوبة في شكل عقد رسمي يرفق بطلب تغيير لقب المكفول.

أما عن إجراءات منح اللقب العائلي للمكفول فقد حددها المرسوم السابق، وتتمثل في[58]:

1 - يتقدم الكافل بطلب تغيير لقب المكفول باسم المكفول ولفائدته قصد مطابقة لقب المكفول بلقب الكافل.

2- يوجه الطلب مباشرة إلى وزير العدل الذي يخطر به ويرسله إلى النائب العام مكان ميلاد المكفول الذي يرسله لوكيل الجمهورية الذي يقدم بشأنه التماسات لرئيس المحكمة من أجل استصدار أمره الذي يتضمن تغيير اللقب.

3- التسجيل والإشارة على الهامش في سجلات وعقود الحالة المدنية في غضون ثلاثين يوما بعد صدور الأمر بتغيير اللقب ضمن الشروط والحالات التي ينص عليها القانون، وقد استثنى المشرع

المكفول في حالة تغيير اللقب من النشر والاعتراضات طبقا لنص المادة 5 من مرسوم 1992.

إن منح الكافل للطفل المتكفل به مجهول النسب لقبه ليس تبنيا، إذ وحسب مرسوم 24/92 يبقى الطفل المكفول يحمل الاسم الذي اكتسبه قانونا بمقتضى المادة 64 من قانون الحالة المدنية.

وعليه فإنه لا يمكن استعمال هذا اللقب عند إبرام عقد الزواج ولا في الميراث ولا ينتقل إلى أبناء المكفول إلا عن طريق الإجراءات السابقة الذكر، فالمشرع حينما أجاز منح اللقب العائلي للمكفول أراد أن يدمجه في الأسرة الكافلة ويحفظ كيانه وكرامته داخل المجتمع.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

1- رغم تنظيم الكفالة في التشريع الجزائري إلا أنه توجد ثغرات وغموض في النصوص القانونية خاصة ما يتعلق بشروط الكفالة وحقوق الطفل المتكفل به.

2- لقد سعى المشرع الجزائري إلى توفير قدر من الحماية للطفل المتكفل به إلا أنه غير كاف وخاصة بعد وفاة الكافل.

3- صعوبة إجراءات الكفالة في كثير من الأحيان تؤدي إلى التخلي عن طلب الكفالة من طرف الأسر الكافلة وخاصة أن عدد الأطفال دون هوية في تزايد مستمر.

4- غياب النص القانوني على بعض الحالات مثل: الجزاءات المترتبة على عدم الإنفاق على الطفل المتكفل به وإهماله، الرسمية في تسليم الطفل المتكفل به، إذ الشهادة غير كافية لتوفير الحماية له، النص على ممارسة النيابة العامة لمهام الرقابة على الطفل المتكفل به دون انتظار شكوى من الطرف المتضرر وأن تحدد آليات لذلك.

أقترح الآتي:

1- تسهيل إجراءات الكفالة للأسر الكافلة وجعلها كذلك للنساء الكافلات سواء كن عازبات أو مطلقات أو أرامل وفق شروط يحددها القانون.

2- لابد أن تكون مراقبة دورية للأسر الكافلة ومعاينة الطفل المتكفل به حتى يبلغ قادرا.

3- إجبار الأم العازبة على منح هويتها ولقبها لابنها، طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية.

4- تقديم مساعدات للعائلة الكافلة ماديا ومعنويا تشجيعا لها على عدم التخلي عن كفالة الطفل في شكل منح أو استحداث صندوق خاص لضمان حقوق الأطفال اليتامى مماثلا لصندوق النفقة للحاضنات.

5- إعادة النظر في مواد الكفالة ومحاولة تكييفها وفقا لمقتضيات العصر.

6- نشر ثقافة الكفالة في المجتمع وتغيير نظرته للأطفال اللقطاء لقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الزمر الآية 7]، فاللقيط آدمي كرمه الله تعالى وفي كفالته ثواب عظيم.

ـ الهوامش :

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت. د ط، 1988م، المجلد الثالث، ص 279، ومجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت لبنان. د ط، المجلد الرابع، ص 45.

[2] ابن منظور، المرجع السابق، ص 279.

[3] السيد سابق، فقه السنة، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة. د ط، 1416 هـ، 1995 م، المجلد الثالث، ص 253.

[4] المرجع نفسه، ص 253.

[5] ينظر: عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة، دار ابن الهيثم، القاهرة، مصر. د ط، ص 738، 739.

[6] سورة آل عمران الآية 37.

[7] فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ط1، 1411 هـ، 1990 م، المجلد الرابع، 26/8.

[8] ابن منظور، المرجع السابق، 1004/3.

[9] أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القران، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط1، 1418 هـ، 1997 م، ص 611، مادة يتم.

[10] محمد مرتضي الحسيني الزبيدي، تاج العروس، دار صادر بيروت. د ط، 113/9 مادة يتم.

[11] المرجع نفسه.

[12] محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، لبنان. د ط، 1414 هـ، 1993 م، 342/4.

[13] سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام،مصر. ط5، 1419 هـ، 1999م، 388/1.

[14] ينظر: ابو عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر. ط3، 1967، 20/ 70.

[15] صورية شرفاوي، رعاية اليتيم من خلال الكتاب والسنة، مذكرة ماجستير تخصص كتاب وسنة، كلية الشريعة، 2003، ص 19.

[16] يوسف القرضاوي، الحلال والحرام في الإسلام، المكتب الإسلامي بيروت، لبنان. ط13، 1400 هـ، 1980 م، ص 218.

[17] الزبيدي، تاج العروس، 216/5 و 217، وابن منظور لسان العرب، 5/ 385، 386.

[18] د/وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، الجزائر. ط1، 1412 هـ، 1991 م، 764/5.

[19] المرجع نفسه، ص 765.

[20] عبد العزيز سعد، الزواج والطلاق في قانون الأسرة الجزائري، دار هومة، بوزريعة، الجزائر. ط3، ص 233.

[21] العربي بلحاج، الوجيز في شرح قانون الأسرة الجزائري،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 2004 م،

202/1.

[22] رواه الجماعة ينظر: الشوكاني، نيل الأوطار، تحقيق: نصر فريد ومحمد واصل، المكتبة التوفيقية، مصر. ط1، 1409 هـ، 1988م، 389/6.

[23] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما رقم 6005، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم 2983.

[24] سورة الحج الآية 77.

[25] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغضب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه رقم 2442، ومسلم في صحيحه، كتاب البر و الصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم 2580.

[26] رواه ابن ماجة في السنن، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار الكتاب المصري، المجلد الثاني، الباب السادس رقم 3689.

[27] سورة الرحمن الآية 60.

[28] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم رقم 6011 ومسلم في صحيحه كتاب البر، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم رقم 2586.

[29] صادقت الجزائر على اتفاقية حقوق الطفل بموجب المرسوم الرئاسي رقم 461/92 المؤرخ في 24 جمادى الثانية عام 1413 هـ الموافق ل 19 ديسمبر 1992.

[30] المادة 5 من قانون رقم 12/15 المؤرخ في 28 رمضان 1436 هـ، الموافق ل 15 يوليو سنة 2015م، المتعلق بحماية الطفولة، ينظر: الجريدة الرسمية، عدد 39 المؤرخة في 19 يوليو 2015، ص 6.

[31] الغوتي بن ملحة، قانون الأسرة على ضوء الفقه والقضاء، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر. ط1، 2005 م، ص 169.

[32] دليل الكفالة، وزارة العمل والحماية الاجتماعية، ص 2.

[33] وفقا لنص المادة 2 من المرسوم 83/80 المتعلق بإحداث دور الأطفال المسعفين وتنظيمها وسيرها، المؤرخ في 15 مارس 1980 م.

[34] المادة 4 من المرسوم نفسه.

[35] عبد الرزاق احمد السنهوري، الوسيط في شرح القانون المدني، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د ط، ص 289.

[36] دليل الكفالة، المرجع السابق.

[37] المادة 117، من قانون الأسرة.

[38] الغوتي بن ملحة، المرجع السابق، ص 172.

[39] دليل الكفالة، المرجع السابق.

[40] الغوتي بن ملحة، المرجع السابق، ص 172.

[41] المادة التاسعة من قانون رقم 15/01 المتعلق بكفالة الأطفال المهملين www.blorg.saceed.com تاريخ الزيارة 23 /5/2016.

[42] ينظر: عبد العزيز سعد، نظام الحالة المدنية في الجزائر، دار هومة، الجزائر. ط1، 1995، ص 101.

[43] أخرجه أبو داوود في السنن، كتاب الأدب، باب تغيير الأسماء رقم 4849.

[44] علي علي سليمان، مذكرات في القانون الدولي الخاص الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر.

1993 م، ص 242.

45 حماد نزيه، نظرية الولاية في الشريعة الإسلامية، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت. ط1، 1414 هـ، 1994 م، ص 51.

46 أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب كن لليتيم كالأب الرحيم، رقم 138.

47 رواه الترمذي في السنن، باب ما جاء في زكاة مال اليتيم، رقم 641.

48 دليل الكفالة، المرجع السابق.

49 ابن رشد القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار شريفة، د ط، الجزء 2، ص 4، وما بعدها.

50 عبد العزيز سعد، الزواج والطلاق في قانون الأسرة الجزائري، المرجع السابق، ص 234.

51 اخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب الولاء لمن أعتق وميراث اللقيط، رقم 6752، ومسلم في صحيحه كتاب العتق باب إنما الولاء لمن أعتق رقم 1504.

52 المادة 42 من القانون المدني.

53 طبقا للمادة 67 من قانون 83/11 والمعدل والمتمم بالمادة 30 من الأمر 96/17 المتعلق بالضمان الاجتماعي.

54 العربي بلحاج، الوجيز في شرح قانون الأسرة الجزائري، الميراث والوصية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. ط3، 2004 م، 2/230.

55 ينظر المادة 185 من قانون الأسرة.

56 ينظر المادة 205 من قانون الأسرة.

57 ينظر المواد من 184 إلى 212 من قانون الأسرة، حيث نظمت أحكام الوصية وأحكام الهبة.

58 ينظر كلا من الرشيد بن شويخ، شرح قانون الأسرة الجزائري، المعدل، دار الخلدونية، الجزائر. ط1، 2008 م، ص 248، 249، و الغوتي بن ملحة، المرجع السابق، ص 174، 175.

---

orphan's guarantee in Algerian legislation

Dr. Souad ZRICHI*

Abstract:
The guarantee is an alternative system for adoption in Islamic law and positive law, both for persons of known or unknown descent , in order to preserve the genealogy. The guarantees the child who is protected by an alternative family to be integrated into society so as not to be subject to delinquency and criminality.

Keywords: orphan - guarantee – law

.

* Faculty of Law and Political Science - University of Batna - Algeria .

الحماية الجزائية لحق النفقة للطفل في القانون الجزائري

بقلم
أ/ مباركة عمامرة(*)

ملخص

لقد اهتم المشرع الجزائري بالطفل، وأحاطه بجملة من النصوص القانونية، لحمايته وصيانة حقوقه من الناحية المدنية والجنائية. ومن هذه الحقوق، حق الطفل في النفقة الذي كرسه المشرع في المواد 74-75- 76 -77-78 من قانون الأسرة الجزائري، بحيث حدد في هذه المواد مضمون النفقة والأشخاص الملزمين بها.كما أنشاء صندوق النفقة الذي يتولى دفع نفقة الطفل المحضون عند امتناع المدين عن دفعها ، ثم أضفى صفة التجريم على فعل عدم دفع النفقة للطفل، إذ فرض عقوبات على القائمين بهذه الجريمة، وجاء ذلك في المادتين 331، 332 من قانون العقوبات، وهذا التجريم، جاء لوضع حماية شاملة لحق الطفل في النفقة.

الكلمات المفتاحية: حقوق الطفل- النفقة- قانون الأسرة- قانون العقوبات.

مقدمة

إن الطبيعة الإنسانية تقتضي تنوع حاجات الإنسان عموما، وحاجات الطفل على وجه الخصوص إلى حاجات مادية متمثلة في الغذاء والعلاج والمسكن.. وأخرى معنوية التي بها يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى. لذلك نجد أن كل ما يمثل حاجات الجسم البشري وسلامته واستقراره هي حاجات مادية تقتضي رعاية مادية تتمثل في الغذاء والمسكن واللباس والعلاج وغيرها. والطفل لضعف جسمه وقلة إدراكه، فهو لا يستطيع توفير هذه الحاجات المادية بنفسه، لذلك يتكفل بتوفيرها الوالدان باعتبارهما أول الأشخاص الملزمين برعايته سواء الرعاية المادية أو المعنوية.

(*) أستاذ مساعد بقسم الحقوق ـ كلية الحقوق والعلوم السياسية ـ جامعة الوادي.
mebarka.a2010@gmail.com

وقد كفل القانون الجزائري حق الطفل في النفقة، شأنه في ذلك شأن القانون الدولي من خلال اتفاقية حقوق الطفل عام 1989، وقد نص عليه في المواد 74-75-76-77- 78 من قانون الأسرة. لكن إقرار الحق وحده لا يكفي لحصول الطفل على النفقة، نظرا لتقصير الأشخاص الملزمين بالإنفاق على الطفل إما إهمالا أو تعمدا منهم، لذلك أتبع المشرع هذا الإقرار بحماية جزائية، حيث فرض جزاءا جنائيا يوقَّع على هؤلاء المقصرين، متى ثبت إهمالهم أو تعمدهم في عدم الإنفاق عليه. ومن خلال هذه الورقة البحثية سيتم التعرض إلى الحماية الجزائية لحق الطفل في النفقة من خلال مبحثين: خصصنا الأول لبيان مفهوم النفقة أما الثاني:سنتطرق من خلاله إلى تجريم فعل عدم تسديد النفقة للطفل.

المبحث الأول

التكريس المدني لحق الطفل في النفقة

تجسد تكريس المشرع الجزائري لحق الطفل في النفقة في المواد 74-75-76-77- 78 من قانون الأسرة ،بحيث تطرق من خلال هذه المواد إلى تعريف النفقة و تبيان مضمونها و الأشخاص الملزمين بها و في ما يلي سيتم تفصيل هذه العناصر.

المطلب الأول

تعريف النفقة

أولا- تعريفها لغة:

هي من الفعل نفُقُ، و يقال نفقت السلعة تنفُقُ نَفَاقًا أي غلت ورغب فيها، والنفقة هي ما أُنفق، والجمع نفاق، ونفقت نِفاق القوم و نفقاتهم، إذا فنيت ويقال رجل مِنفاق أي كثير النفقة.[1]

ثانيا- تعريفها اصطلاحا:

النفقة هي مصطلح يطلق على كل ما يحتاج إليه الإنسان لإقامة حياته، من طعام وكسوة وسكن وخدمة وكل المستلزمات المتعارف عليها، بمعنى آخر هي كل ما ينفقه الإنسان على غيره من نقود ونحوها من الأموال.[2]

وهي أيضا اسم لما يصرفه الإنسان أو الأب على عياله من طعام وشراب وكسوة ومسكن وخدمة وكل ما يحتاج إليه العيال أو الأبناء بحسب المتعارف عليه بين الناس فعليا.[3]

ولقد نص المشرع الجزائري على نفقه الطفل في المادة 75 من قانون الأسرة التي تنص على أنه: «تجب نفقة الولد على الأب ما لم يكن له مال، فبالنسبة للذكور إلى سن الرشد والإناث إلى

الدخول، وتستمر في حالة ما إذا كان الولد عاجزا لآفة عقلية أو بدنية أو مزاولا للدراسة وتسقط بالاستغناء عنها بالكسب.»

ويعد حق الطفل في النفقة من أعظم الحقوق التي يجب أن تكفل للطفل لأن به تصان حياته،[4] وقد حدد قانون الأسرة الأشخاص الذين تجب عليهم نفقة الطفل وهم:

أ-الأب:

نصت المادة 75 من قانون الأسرة على أنه « تجب نفقة الولد على الأب ما لم يكن له مال بالنسبة للذكور إلى سن الرشد والإناث إلى الدخول...»، يفهم من هذه الفقرة أن المشرع جعل أول من يتحمَّل مسؤولية النفقة على الطفل هو الأب، وهذا ما أقرَّته الشريعة الإسلامية من قبل، حيث ألقت على الأب بعضا من الالتزامات بسبب استحواذ الرجل على القيادة والرئاسة في الأسرة ،ومن بين هذه الالتزامات، هي تحمل الأب نفقة أبنائه الصغار الغير قادرين على كسب قوتهم لأي سبب من الأسباب إما لصغر سِنِّهم أو مرضهم أو عجزهم أو مزاولتهم للدراسة.[5]

وقد حدد المشرع في المادة 75 من قانون الأسرة مدة استحقاق الطفل للنفقة، فبالنسبة للذكر إلى غاية بلوغه سن الرشد وهو حسب القانون الجزائري تسعة عشرة (19) سنة كاملة، وبالنسبة للأنثى إلى أن يدخل بها زوجها وتبقى مستمرة في حالة ما إذا كان الطفل عاجزا عن الكسب، بسبب مرض مزمن أو بسبب مزاولة الدراسة.[6]

ب- الأم:

الأصل في النفقة أنها واجبة على الأب، لكن في حالة عجز الأب على الإلتزام بدفع النفقة الناتج عن عدم قدرته على الكسب بسبب إعاقة أو مرض يمنعه من ذلك، وفي هذه الحالة لحماية الطفل، أوجب المشرع النفقة على الأم، وذلك في نص المادة 76 من قانون الأسرة الجزائري التي تنص على أنه « في حالة عجز الأب تجب نفقة الأولاد على الأم إذا كانت قادرة على ذلك».[7]

وفقا لنص هذه المادة نجد أن مسؤولية الإنفاق على الطفل تنتقل إلى الأم إذا توفر شرطان أساسيان هما:

1) عجز الأب عن النفقة : بمعنى أنه حتى تلتزم الأم بالنفقة يجب على الأب أن يثبت عجزه عن دفع النفقة للطفل، وللأم أن تثبت عكس ذلك إن كان الأب يريد التهرب من النفقة.

2) قدرة الأم على النفقة : ونعني بذلك حتى تقع مسؤولية الأم بدفع النفقة للطفل يجب أن تكون موسرة وقادرة على دفع نفقة الطفل، وإن كانت غير موسرة فلها أن تثبت عدم قدرتها على

دفع النفقة وذلك للتخلص من هذا الالتزام القانوني.

فمتى تحقق الشرطين السابقين وجب على الأم أن تنفق على أولادها فإن كان عجز الأب عن دفع النفقة كليا، ألزمت بدفع النفقة كليا، وإن كان عجز الأب عن دفع النفقة جزئيا، أُلزمت بمقدار النفقة الذي عجز عنه الأب.(8)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن قوانين العديد من الدول العربية أقرت وجوب النفقة على الأم في حالة عجز الأب في الإنفاق على الطفل، ومن ذلك ما نجده في مدونة الأحوال الشخصية المغربية، بحيث نصت المادة 199 منها على أنه «إذا عجز الأب كليا أو جزئيا عن الإنفاق على أولاده، وكانت الأم موسرة وَجَبَتْ عليها النفقة بمقدار ما عجز عنه الأب»

فوفقا لهاته المادة ألزم المشرع المغربي الأم بالنفقة على الأولاد، بتحقق شرطين وهما : 1-عجز الأب عن الإنفاق كليا أو جزئيا على الطفل، والشرط الثاني:2- هو يُسر الأم.(9)

وفي نفس السياق نجد أيضا مجلة الأحوال الشخصية التونسية اعتبرت الأم مطالبة بالإنفاق على الطفل أيضا وذلك بحسب إحدى الصفتين:

1- بصفتها مدينة «تكميلية» بواجب النفقة على الطفل، وذلك على أساس واجب التعاون القائم بين الزوجين طوال قيام الرابطة الزوجية، وذلك ما ورد صراحة في الفصل 23 من مجلة الأحوال الشخصية «...الزوجان يتعاونان على تسيير شؤون الأسرة وحسن تربية الأبناء وتصريف شؤونهم... »

ومن أبرز أوجه التعاون التي أقرها المشرع التونسي في التنقيح الصادر في 12 جويلية 1993 هو الواجب الجديد المحمول على الزوجة والمتمثل في النفقة، حيث نصت الفقرة الأخيرة من الفصل 23 من مجلة الأحوال الشخصية التونسية، على أنه: «... على الزوجة أن تساهم في الإنفاق على الأسرة إن كان لها مال».(10)

2- وبصفتها مدينة «احتياطية» بواجب النفقة على أبنائها، وذلك في حالة عسر الأب عملا بأحكام الفصل 47 من مجلة الأحوال الشخصية التونسية الذي ينص على أن « الأم حال عسر الأب مقدمة على الجد في الإنفاق على ولدها ».

وكذلك في حالة وفاة الأب حيث تصبح الأم بقوة القانون حاضنة ووليَّة شرعية على الطفل بصفة تلقائية عملا بأحكام الفصل67 (11) من مجلة الأحوال الشخصية التونسية .

ومما سبق نستنتج أن الأم لا تكون ملزمة بالنفقة على الطفل إلا بتحقق شرطين وهما: الأول

هو عجز الأب عن الالتزام بواجب النفقة على الطفل بحيث يقع عبء إثبات العجز على الأب.

أما الشرط الثاني وهو يُسر الأم، وقدرتها على الإنفاق على الطفل، ويقع عبء إثبات يُسر الأم أيضا على الأب، إن كان هو من يدعي قدرتها على تحمل واجب نفقة الطفل، وذلك ما أقرَّه كل من المشرع الجزائري والمغربي والتونسي في القوانين المتعلقة بالأحوال الشخصية.

وقد أحسن المشرع الجزائري صُنعا في إشراك الأم بواجب النفقة على الطفل عند تحقق الشرطين السابقين، فذلك يعد بمثابة ضمان لحق الطفل في النفقة، كما يُعد توسيعا في حماية الطفل من الضياع عند عجز الأب في الإنفاق على الطفل.

ولكن قد يحدث أن يكون الأب عاجزا عن دفع نفقة الطفل، ويثبت أن الأم غير موسرة ولا تقدر على الإنفاق على الطفل، ففي هذه الحالة على من تجب نفقة الطفل؟

هنا يجب أن نفرق بين حالتين: الحالة الأولى: هي عجز الوالدين عن نفقة الطفل عند قيام العلاقة الزوجية، هنا نجد أن المشرع قد حمى الطفل من خلال أحكام المادة 77 من قانون الأسرة الجزائري، التي توجب دفع نفقة الفروع على الأصول بحسب درجة القرابة والإرث.[12] بمعنى أن نفقة الطفل تُوجَبُ على أقربائه، وإن لم يكن له أقارب، فتكون الحماية من خلال تطبيق أحكام الكفالة، التي تعتبر أحد الآليات التي أقرها المشرع لحماية الطفل وتطبق في حالة قيام العلاقة الزوجية أو عند انفكاكها، بل تطبق حتى عند انعدام وجود أبوي الطفل وذلك على اعتبار أن من واجبات الشخص الكافل أن يقوم بالإنفاق على الطفل المكفول هذا إضافة إلى واجبات أخرى تُقرها أحكام الكفالة كالتربية ورعاية الطفل المكفول.[13]

أما في الحالة الثانية: هي عجز الأبوين عن الإنفاق على الأبناء عند انفكاك العلاقة الزوجية أو في حالة الطلاق، نجد أن المشرع عالج هذه الحالة من خلال إنشاء صندوق النفقة، بحيث يتكفل هذا الصندوق بدفع النفقة للأطفال الدائنين بها، ويكون لهذا الصندوق حق الرجوع على الشخص المدين بها فيما بعد.

وفكرة إنشاء هذا الصندوق هو تضامن الدولة مع الفئات الضعيفة في المجتمع; ولقد تم استحداث هذا الصندوق في القانون رقم 15-01 المؤرخ في 04 يناير 2015 والمتضمن إنشاء صندوق النفقة.ومن خلال نصوص هذا القانون يتبين لنا أن صندوق النفقة لا يأخذ صفة المدين بالنفقة ولا صفة الدائن بالنفقة، وإنما يأخذ صفة الوسيط بين الدائن والمدين بالنفقة.

وعليه فما هي النفقة التي يتكفل هذا الصندوق بدفعها، ومن هم الأشخاص المستفيدون من

وساطة هذا الصندوق؟

أولا: النفقة التي يتكفل صندوق النفقة بدفعها: بحسب ما جاء في الفقرة الأولى من نص المادة 2 من قانون رقم 15-01 المتضمن إنشاء صندوق النفقة، جاء فيها ما يلي:« ... **النفقة المحكوم بها وفقا لأحكام قانون الأسرة لصالح الطفل أو الأطفال المحضونين بعد طلاق الوالدين، وكذلك النفقة المحكوم بها مؤقتا لصالح الطفل أو الأطفال في حالة رفع دعوى** الطلاق والنفقة المحكوم بها للمرأة المطلقة ».

من خلال هذه الفقرة يتضح لنا أن هناك ثلاث أنواع من النفقة يتكفل صندوق النفقة بدفعها للدائن بها وهم كما يلي:

1- **النفقة التي يحكم بها للطفل أو الأطفال المحضونين في حالة طلاق الوالدين.**

2- **النفقة التي يحكم بها للطفل أو للأطفال أثناء رفع دعوى الطلاق بمعنى تلك المبالغ التي** يلزم الأب بها قبل صدور حكم الطلاق الذي يتضمن النفقة السالفة الذكر، ويمكن أن نسميها أيضا نفقة الإهمال.

3- **كما يتكفل الصندوق بدفع تلك المبالغ المحكوم بها كنفقة للمرأة المطلقة.**

ويكون التزام الصندوق بدفع مبالغ النفقة المذكورة آنفا بالقدر المحدد في تلك الأحكام التي **أقرت النفقة للأشخاص الدائنين بها. وذلك ما تم النص عليه في الفقرة الثانية من المادة الثانية من القانون رقم 15-01 المتضمن إنشاء صندوق النفقة.**

وعليه ومن خلال ما سبق نستنتج أن المشرع الجزائري حدد في هذا القانون أنواع النفقة التي **يتكفل الصندوق بدفعها، بحيث حددها بثلاث أصناف السالفة الذكر، واستثنى نفقة الزوجة عند قيام العلاقة الزوجية، واستثنى أيضا نفقة الفروع على الأصول. ولعل السبب في هذا الاستثناء هو** أن الغرض من إنشاء الصندوق هو حماية الطفل المحضون عند عدم دفع النفقة المقررة له.

ثانيا: الأشخاص المستفيدين من وساطة صندوق النفقة:

1- **الدائن بالنفقة:** ليس كل دائن بالنفقة تعذر على مدينه الوفاء بمبلغها يستطيع الاستفادة من **صندوق النفقة، فالمشرع ذكر على سبيل الحصر في المادة 2 من القانون رقم 15-01 المتضمن إنشاء صندوق النفقة، الأشخاص المستفيدين من الصندوق بصفتهم دائنين بالنفقة وهم على التوالي:1-** الطفل أو الأطفال المحضونين- ويكونون ممثلين بالمرأة الحاضنة وذلك لعدم قدرة هؤلاء الأطفال **على التقدم للمصالح القائمة على هذا الصندوق والمطالبة بالنفقة المحكوم بها.(14)**

2- المرأة المطلقة المحكوم لها بالنفقة [15]. ويعني ذلك أن المرأة المطلقة والتي لم يصدر حكم يقضي لها بالنفقة لا تستطيع الاستفادة من هذا الصندوق.

وكذلك الأمر إن كانت المرأة المطلقة ولكن لم يحكم لها القاضي بالنفقة فهي أيضا تخرج من نطاق الأشخاص المستفيدين من هذا الصندوق.

لكن التساؤل الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: متى يستطيع الدائن بالنفقة المطالبة بهذه الأخيرة من المصالح القائمة على هذا الصندوق؟

فمن خلال نصوص القانون رقم 15-01 المتضمن إنشاء صندوق النفقة لم نجد ما يشير صراحة إلى الحالات التي يتولى فيها الصندوق دفع النفقة لهؤلاء الدائنين الذين سبق ذكرهم.

بعكس ما وجدناه في القانون التونسي بحيث حدد المشرع التونسي الحالات التي يمكن للدائن بالنفقة أن يلجأ إلى تدخل صندوق النفقة وجراية الطلاق، وهذه الحالة هي عند التلدد من طرف المدين بالنفقة وذلك ما جاء في نص الفصل الثاني من القانون المتضمن إنشاء صندوق النفقة وجراية الطلاق التونسي الذي نص على ما يلي « يمكن للمطلقات و أولادهن الصادر لفائدتهم أحكام باتة متعلقة بالنفقة أو جراية الطلاق وتعذر تنفيذها لتلدد المدين،أن يتقدموا لصندوق ضمان النفقة وجراية الطلاق بمطلب للحصول على المبالغ المستحقة ,و يثبت تلدد المدين إذا تعلقت به قضية إهمال عيال طبقا لمقتضيات الفصل 53 من مجلة الأحوال الشخصية... »

ويقصد بالتلدد في هذه الفقرة هو امتناع المدين عمدا عن أداء النفقة المحكوم بها لفائدة المطلقة والأبناء، و استمر هذا الامتناع مدة شهر كامل، بحيث بعد تلك المدة يخول للدائن بالنفقة أن يتابع المدين في القضاء الجزائي.[16]

ولا يستطيع الدائن بالنفقة الاستفادة من تدخل الصندوق إلا بعد إثباته لحالة تلدد المدين بالنفقة، وقد وضع القانون التونسي الآليات التي يثبت بها الدائن ذلك، وهي إرفاق طلب تدخل الصندوق بشهادة تقديم شكوى إهمال العيال.[17]

المطلب الثاني
مضمون النفقة

تنص المادة 78 من قانون الأسرة الجزائري على أنه:« تشمل النفقة، الغذاء والكسوة والعلاج والسكن أو أجرته وما يعتبر من الضروريات في العرف والعادة ».

يتبين أن المشرع جعل مضمون النفقة متمثلة في الغذاء والكسوة والعلاج والسكن، ثم ترك مجال النفقة مفتوحا ليشمل كل ما هو ضروري في حياة الطفل بحسب العرف والعادة في المجتمع

الذي يعيش فيه مع أسرته وتشمل نفقة الطفل ما يلي:

أ- نفقة الغذاء:

وهي توفير الأكل والشرب له حتى يحيا بصحة جيدة، ولأن الغذاء هو الأساس لنمو جسمه، يجب أن يكون هذا الغذاء من الأغذية الصحية والمفيدة التي تكفل نموا سليما للطفل[18]. ونعني بذلك الغذاء الذي يجعل جسمه خاليا من كل الأمراض التي من شأنها أن تضعف جسده-، وتحميه من الأمراض الناجمة عن سوء التغذية.

ب- نفقة الكسوة:

وتتمثل في توفير الملبس الذي يقيه من البرد والحَرّ، واللباس الذي يجب أن يوفر للطفل هو اللباس الذي يلبسه أقرانه أو أمثاله من العمر، وتشمل نفقة الكسوة أيضا حتى الغطاء والفراش بحسب العرف والعادة.[19]

ج- نفقة المسكن:

ونعني بها توفير الإيواء للطفل، أي على الملزم بالنفقة أن يوفر له مكان يأوي إليه، ويعيش فيه ويحميه من برد الشتاء وحر الصيف، ولا ينظر إلى المكان الذي وفّره الملزم بالنفقة هل هو مملوك له أوليس كذلك؟ يعني أنه لا يَهُمُّ ما إذا كان هذا البيت مملوكا له أو مستأجره من شخص آخر[20]، بل يجب أن يكون هذا البيت متوفر على جميع الشروط و وسائل العيش الضرورية كالماء والكهرباء.

د- نفقة العلاج:

وتتمثل في المصاريف التي يدفعها الأب أو الأم لعلاج الطفل إذا أصيب بمرض من الأمراض، فإنه ملزم (المكلف بالنفقة) بدفع مصاريف العلاج والأدوية إلى حين شفائه من مرضه، وتشمل أيضا حتى مصاريف التطعيم لحمايته و وقايته من الأمراض المعدية والأوبئة[21]. ثم ترك المشرع مجال النفقة مفتوحا لكل ما يعتبر من الضروريات في العرف والعادة، حتى لا يضيِّق على المكلف بالنفقة. وتجدر الملاحظة في هذا الإطار بأن نفقة الغذاء والكسوة والمسكن والعلاج تقدَّر بحسب حال المكلف بالنفقة، فإن كان موسرا فرضت عليه نفقة الموسرين وإذا كان معسرا فرضت عليه نفقة المعسر[22]. وبناء على ما سبق يتبين لنا أن النفقة تشتمل على مجموع الوسائل الضرورية لضمان عيش الطفل حياة كريمة ومحميا من الأضرار التي قد تمس جسده .

لكن قد يقصر الآباء أو الملزمين بالنفقة في الإنفاق على الطفل، مما قد يؤثر في سلوكه، لذلك

سنتطرق إلى تأثير عدم الإنفاق في سلوك الطفل في العنصر التالي.

المطلب الثالث

تأثير عدم الإنفاق في سلوك الطفل

يعبر الكثير من العلماء عن عدم الإنفاق على الطفل بالمستوى المعيشي المتدنِّي للطفل بحيث يتمثل في عدم إنفاق الوالدين أو من يحل محلهما عليه، وعدم الإنفاق قد يؤثر سلبا على الطفل فيشعر بالحرمان وعدم الطمأنينة والشعور بالنقص اتجاه الآخرين، فالطفل الذي يعاني الجوع والبرد يكون ميَّالاً إلى القلق ويتولَّد لديه الشعور بالنقص والحرمان خاصة عندما يرى أقرانه يلبسون ويأكلون بدرجة أفضل منه بكثير. وعدم الإنفاق هذا قد يكون ناتجا عن بطالة الأم أو الأب أو عن عدم كفاية الدخل الشهري للأب أو الأم خاصة في وقتنا الحاضر الذي يشهد غلاء فاحشا في المعيشة، وما يقابل ذلك من قلة وضعف للدخل الشهري، مما يؤدي إلى عدم استيعاب قيمة الدخل لكل المتطلبات الضرورية لعيش الطفل[23]، و قد ينتج أيضا عن إهمال الوالدين الإنفاق على ابنيهما رغم كفاية دخلهما الشهري وسعة رزقهما.

ومهما تعددت أسباب عدم الإنفاق، فإنها أحيانا كثيرة تؤدي بالطفل إلى ترك المدرسة والخروج للعمل في سن مبكرة أي سن الطفولة وهو يجهل كيفية التعامل مع الناس، ولا يعي قسوة الحياة العملية التي قد تدفع به في جماعات من الأشرار الذين يستغلون الأطفال للعمل بهم في مجال الدعارة أو بيع المخدرات ، مستغلين بذلك وضعهم المادي و عوزهم للمال.

وحاجة الطفل للنفقة تجعله يلجأ إلى السرقة ليعوض إشباع حاجاته التي لم يوفرها له والداه[24]. وفي هذا الإطار لقد أثبتت العديد من الدراسات التي تقوم بدراسة جريمة السرقة عند الأحداث، أن غالبية الأحداث الذين يرتكبون هذه الجريمة كان دافعهم الرئيسي لهذا السلوك الإجرامي هو عدم إنفاق أهلهم عليهم أي والديهم أو من يحل محلهم عند غيابهم بسبب الوفاة.[25]

وهكذا فإن عدم الإنفاق يؤدي إلى سوء رعاية الطفل ، ومن ثمّه فقد يشعر بخيبة أمله في أن يعيش حياة أفضل، وحبه للمخاطرة قد يدفع به إلى ارتكاب جرائم السرقة والاحتيال وخيانة الأمانة[26]، وإذا كان الحدث فتاة فقد يدفع بها عدم الإنفاق إلى أن تمارس الدعارة لجلب المال وتلبية حاجاتها.[27]

وقد تنبه المشرع الجزائري للعلاقة الوثيقة بين عدم الإنفاق وإجرام الأحداث و انحرافهم، وذلك بإقراره حق الطفل في النفقة[28]، وقد وسَّع في ضمان هذا الحق للطفل وللأسرة ككل،

حيث وضع عقوبة لمن يمتنع عن النفقة عمَّن يعول، ومن بينهم الأولاد حيث تنص الفقرة الأولى من المادة 331 من قانون العقوبات على أن: « يعاقب بالحبس من ستة أشهر (6) إلى ثلاث (3) سنوات، وبغرامة من 50.000دج إلى 300.000دج كل من امتنع عمدا ولمدة تتجاوز الشهرين(2) عن تقديم المبالغ المقرر قضاء لإعالة أسرته. وعن أداء كامل قيمة النفقة المقررة عليه إلى زوجه أو أصوله أو فروعه. وذلك رغم صدور حكم ضده بإلزامه بدفع نفقة إليهم...»

المبحث الثاني

تجريم الامتناع عن تسديد النفقة للطفل

حق الطفل في النفقة مقرر بموجب القانون وإذا لم يؤدي الوالدان أو الملزمين بالنفقة هذا الحق وجب اللجوء إلى القضاء لإلزامهم به وفي حالة امتناع الملزم بالإنفاق عن تسديد النفقة المقررة في الحكم القضائي يُعدُّ جانيا مرتكبا لجريمة الامتناع عن تسديد النفقة[29]، وهي من الجرائم التي تتعلق بالتخلي عن التزامات السلطة الأبوية أو القرابة، فقد أوجب المشرع نفقة الولد على الأب فالنسبة للذكور إلى سن الرشد أما الإناث تستمر إلى حين الدخول بهن أو الزواج، وتبقى مستمرة إذا كان الولد عاجزا لعاهة في عقله أو بدنه أو مزاولا لدراسته.[30]

وقرر المشرع أنه إذا كان الأب عاجزا عن النفقة ينتقل هذا الالتزام إلى الأم إذا كانت قادرة على ذلك[31]. وفي حالة امتناع الوالدين عن تقديم النفقة يعتبر ذلك تخليا عن الالتزامات العائلية، فجرَّم المشرع هذا الفعل لما له من آثار سلبية على صحة الطفل وسلوكه.

المطلب الأول

أركان جريمة الامتناع عن دفع النفقة للطفل

لقيام هذه الجريمة يتطلب ذلك قيام أركانها وهو ما سنبينه فيما يلي:

أولا – الركن المادي: يقوم هذا الركن بتوفر عناصره والمتمثلة في:

1- وجود حكم قضائي: اشترط المشرع للحصول على النفقة، صدور حكم قضائي و في هذا الخصوص يجب التعامل بمرونة مع هذا العنصر لتشمل كل الأحكام الصادرة عن المحاكم الابتدائية والأوامر الصادرة عن رؤساء المحاكم والقرارات الصادرة عن المجالس القضائية الوطنية، والأحكام والقرارات الصادرة عن الجهات القضائية الأجنبية. ويكون مضفيا بالصيغة التنفيذية[32]، ونستشهد في هذا القول بقرار المحكمة العليا الصادر عن غرفة الجنح و المخالفات بتاريخ :16-04-1995 تحت رقم 124384، حيث جاء فيه: «من المقرر قانونا أن يتحمل المسؤولية الجزائية كل من امتنع عمدا ولمدة تفوق الشهرين عن تقديم المبالغ المالية المقررة قضاء

لإعالة أسرته، ويبقى افتراض عدم الدفع عمديا ما لم يثبت العكس ومتى ثبت صدور أمر قضائي استعجالي يلزم المتهم بدفع النفقة، فإن قضاة المجلس قد خرقوا القانون عندما قضوا ببراءته بدعوى أنه لا يوجد حكم أو قرار نهائي في النزاع.»[33]وبناء على اجتهاد المحكمة العليا القاضي بتفسير عنصر «الحكم القضائي» تفسيرا واسعا ليشمل كل أنواع الأحكام والقرارات المذكورة آنفا ، وزيادة على ذلك فإنه يشترط في الحكم القضائي الملزم بسداد النفقة أن يكون:

حكما نافذا، والأصل أن يكون نهائيا حائزا لقوة الشيء المقضي فيه ليتم تنفيذه، لكن يجوز تنفيذه إذا أمر القاضي بالنفاذ المعجل رغم المعارضة و الاستئناف[34]. وعليه يمكن القول بأن الأحكام التي يأخذ بها لقيام هذه الجريمة، هي الأحكام النهائية وتلك المشمولة بالنفاذ المعجل .

ب- ويشترط أيضا تبليغ المدين بالنفقة بالحكم وفقا لإجراءات التبليغ المنصوص عنها في قانون الإجراءات المدنية.[35]

2 -الامتناع عن أداء النفقة: ونعني بذلك أن يستهين المدين بالنفقة بالحكم المتضمن أداء النفقة ويتجاهله عمدا، ووفق نص المادة 331 من قانون العقوبات نجد أن المشرع افترض تعمد المحكوم عليه بالنفقة الامتناع عن دفع النفقة وعليه أن يثبت العكس.

3- الامتناع عن تقديم كامل النفقة لمدة تجاوز الشهرين: إن امتناع المدين عن تقديم كامل النفقة لمدة تتجاوز الشهرين، هو سلوك سلبي يضر بالطفل الذي يحتاج لكامل النفقة. وعليه فإن الدفع الجزئي لمبالغ النفقة قبل انقضاء مدة الشهرين يؤدي إلى عدم قيام هذه الجريمة لأن المشرع اشترط أن يكون الامتناع عن الدفع لكامل مبالغ النفقة.[36]

وهنا يمكننا القول بأن مدة الشهرين طويلة، وقد تؤدي إلى تعرض الطفل لشتَّى الأضرار المعنوية والمادية، و عليه فمن الضروري إعادة النظر في هذا الشرط لإضفاء حماية أكبر لحقه في النفقة.

.ثانيا: الركن المعنوي:

لقد جاء في الفقرة الأولى من نص المادة331 من قانون العقوبات « كل من امتنع عمدا...» من هذه العبارة يتضح أن المشرع قد افترض توفر القصد الجنائي لدى مرتكب هذه الجريمة والذي يقوم على عنصرين: الأول: علم المتهم بصدور حكم قضائي ضده واجب النفاذ بإلزامه بالدفع. أما الثاني: هو اتجاه إرادته طوعا إلى الامتناع عن الدفع[37]. وهكذا فإن سوء النية مفترض و يقع على المتهم عبء إثبات العكس، كما لا يعتد بالإعسار الناجم عن سوء السلوك أو الكسل أو السكر عذرا معفيا من العقاب.[38]

المطلب الثاني

الجزاء المترتب عن جريمة الامتناع عن دفع النفقة للطفل

تتم متابعة المتهم بعدم تسديد النفقة بإتباع الإجراءات التي نص عليها المشرع في المادة 337 من قانون الإجراءات الجزائية حيث يمكن لحاضن الطفل المحكوم له بالنفقة تقديم شكوى عن طريق الإدعاء المباشر تتضمن الأسانيد التالية:

- نسخة من الحكم القضائي المتضمن استحقاق الطفل للنفقة.
- محضر تبليغ هذا الحكم تبليغا رسميا صحيحا.
- محضر امتناع عن الدفع محرر من العون المكلف بالتنفيذ .

وتجدر الإشارة في الشأن أن للنيابة العامة الحق في تحريك الدعوى العمومية المتعلقة بجنحة عدم تسديد النفقة للطفل متى توفرت الأسباب المبررة لذلك، لأن المشرع لم يعلق إجراءات المتابعة على تقديم شكوى من الطرف المضرور[39]. أما عن المحكمة المختصة بالنظر في هذه الجنحة هي محكمة موطن المستحق للنفقة وهو الطفل وهذا وفقا لنص الفقرة الثالثة من المادة 331 من قانون العقوبات.[40]

وقد حدد المشرع الجزاء الذي يوقع على مرتكب هذه الجريمة والمتمثل في الحبس من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات وبغرامة من 50.000 دج إلى 300.000 دج، كما يجوز الحكم على الجاني بالحرمان من الحقوق الوطنية من سنة إلى خمس سنوات وفقا لنص المادة 332 من قانون العقوبات، و يمكن للضحية الصفح على الجاني لوضع حد لإجراءات المتابعة ، لكن ذلك لا يتم ذلك إلا بعد دفع المدين بالنفقة كل المبالغ المستحقة.[41]

الخـاتمـة

من خلال ما سبق يتبين أن المشرع الجزائري قد كرس حق الطفل في النفقة وقد نص عليه في المواد من 74- 75-76 -77- 78 من قانون الأسرة، و ذلك لأهمية النفقة للطفل، التي تؤمن له حاجياته المادية المتمثلة في المأكل والملبس والعلاج، وتوفر له الحماية من الوقوع في مثالب الإجرام، وفي سبيل تأكيد إقراره لحق النفقة للطفل أضفى صفة التجريم عن فعل الامتناع عن تسديد النفقة للطفل المقررة له بموجب حكم قضائي وانطلاقا مما تم بيانه حول هذه الجريمة. خلصنا إلى النتائج التالية:

1- أن المشرع الجزائري قد أحسن صنعا عند إضفاء وصف الجنحة على هذه الجريمة ، وهذا لتفادي تعقيد الإجراءات التي تأخذها الجنايات، كما أنه لم يصفها بالمخالفة لكون عقوبة المخالفة

لا تتناسب مع حجم الضرر الذي يلحق بالطفل نتيجة هذا الفعل.

2- وقد وفق أيضا عندما أجاز للدائن أو المستحق للنفقة برفع الدعوى أمام محكمة موطنه، وهذا يعد خروجا عن القواعد العامة للاختصاص المحلي التي تعقد الاختصاص بالنظر في هذه الجنحة إلى محكمة محل وقوع الجريمة أو محكمة محل إقامة المتهم أو محل القبض عليه .

3- كما وجدنا أن المشرع قد راع حالة ضعف الطفل وافترض سوء النية في عدم تسديد النفقة للطفل، وجعل عبء إثبات العكس على عاتق المتهم، وهو خلاف للقواعد العامة في قانون الإجراءات الجزائية التي تلقى عبء الإثبات على ممثل النيابة العامة، وفي هذا ضمان أكبر لحق النفقة للطفل.

4- لكن رغم الحماية التي وضعها في هذا الإطار تبقى غير كافية وذلك بالنظر إلى الشروط التي تطلبها لقيام هذه الجريمة التي من بينها: صدور حكم قضائي، الذي يأخذ وقتا طويلا لصدوره حتى وإن تم اللجوء إلى القضاء الاستعجالي، إذ أحيانا كثيرة يكون احتياج الطفل للنفقة لا يَتحمل أدنى تأجيل كالنفقة لغرض العلاج مثلا، وزيادة لذلك مدة الشهرين المنصوص عليها قانونا التي عند استنفاذها يكون الخطر قد أصاب الطفل ولحق به الضرر، وعليه نرى أن هذا الشرط ليس في محله، لذلك نقترح تقليص هاته المدة لإضفاء حماية أكثر للطفل .

ـ الهوامش:

(1) – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،1993، مادة نفق، ص638.

(2) – العربي بلحاج، الوجيز في شرح قانون الأسرة الجزائري-الزواج والطلاق-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، طبعة 1999، ص 169.

(3) – صبحي محمصاني، المبادئ الشرعية والقانونية في الحجر والنفقات والمواريث والوصية، دار العلم، بيروت، الطبعة الثامنة، 1997 ،ص ص 240 ،241.

(4)– كمال لدرع، « مدى الحماية القانونية للطفل في قانون الأسرة الجزائري»، المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والاقتصادية والسياسية، الجزائر، العدد39، لعام 2001، ص53.

(5) – فايز الظفيري، «الطفل والقانون،معاملته وحمايته الجنائية في ظل القانون الكويتي1999»،مجلة الحقوق، الكويت، العدد الأول، لعام 2001،ص ص137، 138.

(6) – عبد العزيز سعد، الزواج والطلاق في قانون الأسرة الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، طبعة 2003، ص ص 222 ،223.

(7) – المادة 76 من الأمر رقم 84-11 المؤرخ في 9 يونيو 1984 المتضمن قانون الأسرة الجزائري المعدل والمتمم.

(8) – محمد الشكبور، أحكام الحضانة –دراسة في الفقه المالكي وفي مدونة الأسرة– مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004، ص ص 144،143.

(9) – فتيحة الطلحاوي،« نفقة الابن والمكفول –أوجه الشبه والاختلاف» مجلة الفقه والقانون، المغرب، العدد التاسع، 2013، ص196.

(10)– محمد الحبيب الشريف، « شرح مجلة حماية الطفل «، مجلة القضاء والتشريع، مركز الدراسات القانونية والقضائية، تونس، العدد الأول، 2002، ص ص120، 121 .

(11) – الفصل67 من القانون رقم 74 الصادر في 12 جويلية 1993 المعدل و المتمم لقانون الأحوال الشخصية التونسي «....و تتمتع الأم في صورة إسناد الحضانة إليها بصلاحيات الولاية فيما يتعلق بسفر المحضون ودراسته والتصرف في حساباته المالية. و يمكن للقاضي أن يسند مشمولات الولاية إلى الأم الحاضنة إذا تعذر على الولي ممارستها أو تعسف فيها أو تهاون في القيام بالواجبات المنجزة عنها على الوجه الاعتيادي، أو تغيب عن مقره و أصبح مقره مجهول... «.

(12) – تنص المادة 77 من الأمر رقم 84–11 المؤرخ في 9 يونيو 1984 والمعدل والمتمم بالأمر رقم 05–02 المؤرخ في 27 فبراير 2005 على ما يلي» تجب نفقة الأصول على الفروع، والفروع على الأصول بحسب القدرة والاحتياج ودرجة القرابة»

(13) – تنص المادة 116 من الأمر السابق « الكفالة التزام على وجه التبرع بالقيام بولد قاصر من نفقة وتربية ورعاية، قيام الأب بابنه وتتم بعقد شرعي».

(14) – جاء في نص الفقرة الثالثة من المادة 2 من قانون رقم 15–01 المتضمن إنشاء صندوق النفقة مايلي: « المستفيد أو الدائن بالنفقة: الطفل أو الأطفال المحضونين ممثلين من قبل المرأة الحاضنة في مفهوم قانون الأسرة، وكطلك المرأة المطلقة المحكوم لها بالنفقة».

(15) – المادة 2 من القانون رقم 15–01 المتضمن إنشاء صندوق النفقة.

(16) – نهلة الجلولي، «حماية الأسرة والطفولة في القانوني التونسي «، مجلة القضاء والتشريع، مركز الدراسات القانونية والقضائية، تونس، العدد8، 2005، ص193.

(17) – رضا خماخم، أحكام النفقة في مجلة الأحوال الشخصية، مركز الدراسات القانونية والقضائية، تونس، 1994، ص ص 107،108.

(18) – فضيل العيش، قانون الأسرة مدعما باجتهادات قضاء المحكمة العليا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، طبعة 2006، ص ص 75 ،76.

(19) – عبد الفتاح تقية، مباحث في قانون الأسرة الجزائري من خلال مبادئ وأحكام الفقه الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، طبعة 2000، ص 172.

(20) – الشافعي عبيدي، قانون الأسرة مدعم بالاجتهاد القضائي للمحكمة العليا، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دون سنة الطبع، ص ص 49 ،50.

(21) – العربي بلحاج، قانون الأسرة ومبادئ الاجتهاد القضائي وفقا لقرارات المحكمة العليا،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، طبعة 2000، ص148.

(22) – نفس المرجع ، ص 149.

(23) – أنور محمد الشرقاوي، انحراف الأحداث، المكتبة الأنجلو مصرية، مصر، الطبعة الثانية، 1986، ص 186.

(24) – على محمد جعفر، حماية الأحداث المخالفين للقانون والمعرضين لخطر الانحراف– دراسة مقارنة–،المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، الطبعة الأولى،2004، ص ص 82 ،83.

(25) – عادل عبد الجواد محمد الكردوسي، الإجرام المنظم– دراسة لجريمة السرقة بالإكراه–، دار النهضة،العربية، بيروت الطبعة الأولى2003، ص ص 98 ،99.

(26)– خالد فهمي مصطفى، حقوق الطفل ومعاملته الجنائية على ضوء الاتفاقيات الدولية،دار الجامعة الجديدة،الإسكندرية، طبعة 2007، ص ص 108–110.

(27) – نفس المرجع ، ص ص106 ،107.

(28) – المادة 75من الأمر رقم 84–11 المؤرخ في 9 يونيو 1984 المتضمن قانون الأسرة الجزائري والمعدل والمتمم بالأمر رقم 05–02 المؤرخ في 27 فبراير 2005.

(29)– المادة 331 من الأمر رقم من 66–156 المؤرخ في 08 يونيو 1966 المتضمن قانون العقوبات الجزائري المعدل والمتمم بالأمر رقم 09– 01 المؤرخ في 25 فبراير2009 .

(30)– المادة 75 من الأمر رقم 84–11 المؤرخ في 09 يونيو 1984 المتضمن قانون الأسرة الجزائري المعدل والمتمم بالأمر رقم 05–02 المؤرخ في 27 فبراير 2005.

(31)– المادة 76 من نفس المصدر.

(32)– أحسن بوسقيعة، الوجيز في القانون الجزائي الخاص، دار هومة، الجزء الأول، الطبعة الرابعة، 2006 ، ص ص 154، 155.

(33)– قرار رقم : 124384 المؤرخ في: 16 أفريل 1995، مجلة القضائية، العدد الثاني، لسنة 1995،ص192.

(34)– أحسن بوسقيعة، المرجع السابق، ص156.

(35)– نفس المرجع، ص 157.

(36)– نبيل صقر، الوسيط في جرائم الأشخاص، دار الهدى،عين مليلة، الجزائر،2009، ص 248.

(37)– عبد العزيز سعد، الجرائم الواقعة على نظام الأسرة،الديوان الوطني للأشغال التربوية، الطبعة الثانية، 2002، ص 26.

(38)–الفقرة الثانية من المادة 331 من الأمر رقم من 66–156 المؤرخ في 08 يونيو 1966 المتضمن قانون العقوبات التي تنص على» و يفترض أن عدم الدفع عمدي، ما لم يثبت العكس و لا يعتبر الإعسار الناتج عن الاعتياد على سوك السلوك أو الكسل أو السكر عذرا مقبولا من المدين في أية حال من الأحوال.«

(39)– أحسن بوسقيعة، المرجع السابق، ص 162.

(40)– الفقرة الثالثة من المادة 331 من الأمر رقم من 66–156 المؤرخ في 08 يونيو 1966 المتضمن قانون العقوبات الجزائري، التي تنص على:» تختص أيضا بالحكم في الجنح المذكورة في هذه المادة، محكمة موطن أو محل إقامة الشخص المقرر له قبض النفقة أو المنتفع بالمعونة«

(41)– الفقرة الأخيرة من المادة 331 من قانون العقوبات التي تنص على» ويضع صفح الضحية بعد دفع المبالغ المستحقة حدا للمتابعة الجزائية.«

Penal protection of the right of alimony for the child in Algerian law

Mbarka AMAMRA*

Abstract:

the right of alimony for the child is among the rights stipulated by the legislator in articles 74-75-76-77-78 of the Algerian Family Code, in order to protect him and maintain his rights civically and criminally. These articles specify the content of child support and the people concerned by it. He also established the child support fund which pays for child support in case the responsible person refuses to do so, and then he criminalized the act of not paying for child support by imposing penalties on people who commit this crime. This criminalization was addressed in articles 331 and 332 of the penal code and it came as a comprehensive protection of the child's right to receive support.

Keywords: child rights, alimony, family law, penal code.

* Faculty of Law and Political Science - University of El-oued- Algeria.

إشراك الجمعيات أحد الوسائل القانونية في حماية البيئة

بقلم
أ/ ريمة كرمي(*)

ملخص

يواجه العالم منذ بضعة عقود، موقفا صعبا لم يسبق له مواجهته، حيث تعاني الطبيعة على كوكب الأرض من التدهور بفعل النشاطات الإنسانية المتعاظمة، ما أدى إلى انشغال جميع الدول بقضية حماية البيئة وعقدت من اجلها الكثير من الاتفاقيات الدولية. تتطلب عملية حماية البيئة مجهودات وطنية وأخرى دولية، فالمجهودات المحلية هي جزء لا يتجزأ من المجهودات الدولية لحماية البيئة. فمؤسسات المجتمع المدني-المهتمة بالبيئة-مطالبة اليوم بوضع السياسات التي تساهم في الحد من التلوث بمختلف أنواعه، خاصة بعد ما اعترف لها بدور الشريك للإدارة في تحقيق أهداف الإستراتيجية الوطنية لحماية البيئة، و قد نظم القانون رقم 03-10 فصل خاص بها.

الكلمات المفتاحية: البيئة- الجمعيات- القانون- الحماية.

مقدمة

إن الاهتمام بالبيئة وقضاياها المختلفة أضحى اليوم من الموضوعات الرئيسية الهامة، التي تحتل مرتبة الصدارة على موائد أصحاب القرار السياسي، في جميع دول العالم سواء المتقدم منها أو النامي خاصة. بعد أن تبين بجلاء مدى الخطر الذي لحق بالبيئة و عناصرها المختلفة في كافة أرجاء المعمورة. لقد حاول الإنسان منذ الأزمنة الغابرة تكييف حياته ومعاشه مع معطيات أو متطلبات البيئة أو الطبيعة التي يعيش فيها و كان موفقا في ذلك، بيد أن الإنسان طغت عليه نفسه البشرية فانصاع لرغباته و نزواته، فانطلق في الأرض مفسدا وليس معمرا، مسرفا و ليس محافظا، فأخل بالنظام البيئي الذي قدره الله العلي القدير وأحسن صنعه وصدق فيه قوله تعالى:﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النسل و الله لا يحب الفساد[1]﴾.

(*) أستاذ مساعد "أ" بقسم الحقوق ـ كلية الحقوق والعلوم السياسية ـ جامعة جيجل.
kermirima83@gmail.com

فمع تنامي الاكتشافات في مجال مصادر الطاقة المختلفة وظهور الرواج الصناعي إلى الوجود والبيئة في تدهور تدريجي من خلال الاستغلال المفرط للثروات الطبيعية، وبروز عوامل التسمم كالضبلب الصناعي وتلوث البحار وتسرب الغازات السامة و التصحر ونحوها من العوامل المخلة بالتوازن البيولوجي التي أصبحت و بمرور الزمن، تهدد حياة الإنسان نفسه، و هو ما أجبر الدول في التفكير في إيجاد الصيغ القانونية المناسبة أو الكفيلة بوضع حدود فاصلة و نهائية لهذه الاختلالات الخطيرة أو على الأقل التصدي لها في التقليل من حدتها المتزايدة بفعل الوسائل الحديثة و الأنماط الجديدة المتعارف عليها الآن.

تعاني الجزائر هي الأخرى ككل دول العالم من مسألة التدهور البيئي الذي ورثت الجزء الأكبر منه عن الاستعمار الذي جاء يستهدف مواردها الطبيعية بالنهب و التخريب و الدمار مما جعل أمر استعادة البيئة – بعد الاستقلال – أمرا صعبا و مكلفا، لكن هذا لم ينقص من عزم الإرادة السياسية في الجزائر على العمل من اجل تحسين وضعيتها البيئية، خاصة بعد ما لاحظت أن التنمية الاقتصادية في الجزائر أفرزت مشاريع شتى أثرت في التوازنات الإيكولوجية، و لأجل ذلك بذلت الجزائر جهودا معتبرة تسارعت وتيرتها منذ إنشاء برنامج الأمم المتحدة لحماية البيئة عام 1972 الذي ساعد الدول خاصة منها النامية في مجال حماية البيئة من خلال حثها ومساعدتها في الانضمام إلى مختلف المعاهدات البيئية.

تتطلب عملية حماية البيئة مجهودات دولية و أخرى وطنية، فالمجهودات المحلية هي جزء لا يتجزأ من المجهودات الدولية لحماية البيئة. فالأمم المتحدة و الدول و مؤسسات المجتمع المدني (المهتمة بالبيئة) مطالبة اليوم بتكثيف و تنسيق مجهوداتها في الحد من التلوث بمختلف أنواعه، والعمل على الحفاظ على التوازن البيئي من خلال تناسق عناصره بما يضمن استمرارية التنمية على المدى البعيد.

تعتبر الجمعيات الوطنية لحماية البيئة إحدى مؤسسات المجتمع المدني التي تلعب أو من المفروض أن تلعب دورا مهما في حماية البيئة، وسوف يتم التطرق من خلال هذا الموضوع إلى دور هذه الجمعيات في تجسيد السياسة البيئية الوقائية في الجزائر.

بناء على ما تقدم يمكن طرح الإشكالية الآتية: ما هو الدور الذي تلعبه الجمعيات الوطنية في حماية البيئة و إلى أي مدى نجحت في تحقيق هذا الدور؟ للإجابة على هذه الإشكالية سيتم التطرق إلى ماهية البيئة (أولا)، و قبل التطرق إلى مفهوم هذه الجمعيات و دورها في حماية البيئة لا باس أن نلقي نظرة على تطور الحركة الجمعوية في الجزائر(ثانيا)، بعدها نناقش بإسهاب دور الجمعيات في حماية البيئة (ثالثا) وبالرغم من التعديلات الجوهرية التي مست نشاط جمعيات حماية البيئة، إلا أن

أدائها لازال دون المستوى المطلوب أدائه مما استدعى البحث عن أسباب ضعف مشاركتها (رابعا).

أولا: ماهية البيئة.

إن موضوع البيئة لا يمكن اعتباره موضوعا مستوفيا لجميع الجوانب، فثمة ضرورة لاستكمال وتعميق وتحديد جوانب التكفل به بصفة منتظمة نابعة من واقع يتخبط في ويلات التلوث اليومي. فلا بد من مواصلة التحليل والتفكير حول المسألة البيئية باعتبارها قضية من قضايا الساعة يعيشها كل مواطن عربي وأوروبي.

لا يفتح نقاش أو دراسة حول البيئة إلا حاول تجسيد مفهوم البيئة من مختلف الجوانب حسب طبيعة المشاكل المطروحة. كما يتغير مفهوم هذا المصطلح تبعا للموضوع الذي يستخدم فيه والغاية منه، وحسب تخصص الباحث الذي يتناوله.

إذا تعددت المفاهيم الخاصة بالبيئة فقد تعددت معها كذلك مظاهر الاعتداء عليها والتي يمكن إرجاعها إلى سبب رئسي و خطير هو التلوث البيئي.

أ- تعريف البيئة:

البيئة هي الوسط الذي يعيش فيه الإنسان مع غيره من المخلوقات الحية و غير الحية و تتوفر به وسائل الحياة وأسباب البقاء[2].

1-التعريف القانوني للبيئة: ورد تعريف البيئة في العديد من الاتفاقيات و في كثير من المؤتمرات، كما أدرجت كافة الدول مفهوم البيئة في التشريعات البيئية التي أصدرتها، و إن اختلف هذا المفهوم من دولة لأخرى.

ففي مؤتمر قمة الأمم المتحدة حول البيئة الإنسانية المنظم لسنة 1972 بالسويد (المعروف باسم مؤتمر إستكهولم) الذي انعقد تحت شعار "نحن لا نملك إلا كره أرضية واحدة" عرف البيئة كما يلي: "جملة الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته[3] ".

أما في التشريعات الوطنية فقد ورد في القانون الجزائري و هو القانون رقم 03-10 الصادر في 19 يوليو 2003، و المتعلق بحماية البيئة في إطار التنمية المستدامة من خلال المادة 4 منه على أنه: " يقصد في مفهوم هذا القانون بما يأتي... البيئة: تتكون من الموارد الطبيعة اللاحيوية والحيوية كالهواء و الجو والماء و الأرض و باطن الأرض و النبات و الحيوان بما في ذلك التراث الوراثي، وأشكال التفاعل بين هذه الموارد وكذا الأماكن و المناظر و المعالم الطبيعية".

أما المشرع المصري فقد عرف البيئة بأنها المحيط الحيوي الذي يشمل الكائنات الحية و ما يحتويه من موارد و ما يحيط بها من هواء و ماء و تربة و ما يقيمه الإنسان من منشآت[4].

أما المشرع الفرنسي فقد نصت الفقرة الأولى من المادة (110-1) من قانون البيئة رقم 914-2000 الصادر في 18 سبتمبر 2000 على أن "الفضاء والمصادر الطبيعية والمواقع السياحية ونوعية الهواء و المحيط الحيواني والنباتي والتنوع البيولوجي يعد كل هذا جزءا من الملكية العامة للأمة [5].

2- التعريف الاصطلاحي للبيئة: تعرف البيئة في علم البيئة الحديث بأنها: الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان بما يتضمنه من ظواهر طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها.

ويرى آخرون أن مصطلح البيئة بمفهومها الواسع هي مفهوم ذو مضمون مركب، فهي تنقسم إلى البيئة الطبيعية التي تشمل الجبال والبحار والأودية... والكائنات الحية، والبيئة العصرية أو الاجتماعية التي يضم ما أنشأه الإنسان من مبان ومصانع وحدائق ونظم اقتصادية واجتماعية وسياسية و ثقافية و أخلاقية[6].

ب- مظاهر الاعتداء على البيئة و واقع البيئة في الجزائر:

المساس بالبيئة قد يتخذ عدة صور، يمثل التلوث أكثر هذه الصور شيوعا خاصة وأن التلوث من الناحية العلمية له عدة أنواع، مما ساهم في حدوث عدة ظواهر بيئية نعاني من ويلاتها في الوقت الراهن كظاهرة الاحتباس الحراري، والتغيرات المناخية وارتفاع نسب الملوثات في مياه الأنهار والبحار.

يعرف التلوث بأنه أي تغير غير مرغوب في الخواص الطبيعية أو الكيميائية أو البيولوجية للبيئة المحيطة بالهواء، ماء، تربة و الذي قد يسبب أضرارا لحياة الإنسان أو غيره من الكائنات الأخرى، حيوانية أو نباتية و قد يسبب أيضا تلفا في العمليات الصناعية، و اضطرابا في الظروف المعيشية بوجه عام[7]. يعرف القانون رقم 03-10 المتعلق بحماية البيئة في إطار التنمية المستدامة التلوث بأنه كل تغيير مباشر أو غير مباشر للبيئة يتسبب فيه كل فعل يحدث أو قد يحدث وضعية مضرة بالصحة وسلامة الإنسان والنبات والحيوان والهواء والجو والماء والأرض والممتلكات الجماعية والفردية[8].

في هذا الإطار تشير تقارير علمية حديثة، أن ظاهرة التلوث و تأثيره على البيئة سائرة في طريق التضاعف، فإذا استمرت أنماط انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون الراهنة، فان المناخ العالمي قد ترتفع درجة حرارته وسيرتفع سطح البحر مترين نتيجة للتمدد الحراري للمحيطات. وقد يؤدي هذا إلى الإضرار بالنشاط الإحيائي البحري، و تغيير دورة الكربون في الكرة الأرضية، بالإقلال من قدرة المحيطات على امتصاص ثاني أكسيد الكربون بدرجة كبيرة ومن ثم فان الأمر سيؤدي في النهاية إلى تزايد حدة الأعاصير بسبب النشاط الصناعي الجائر ضد البيئة، بفعل الإنسان مثلما تشير إلى ذلك العديد من التقارير العلمية الجادة[9].

الوضع في الجزائر ليس في منأى عن هذه التأثيرات الخطيرة للتلوث على البيئة، فواقع البيئة في الجزائر يبين لنا أنها تعاني هي الأخرى من عدة مشكلات من أهمها:مسألة التصحر، فقد أصبحت قضية استعجالية نظرا لتهديدها لمجموع المجال السهبي الواسع، وهو المنطقة الرعوية عالية الجودة للبلاد، حيث أظهرت الصور الملتقطة بالأقمار الصناعية أهمية المساحات المهددة بالتصحر بنسبة 69٪ من مساحة السهوب [10].

– عرفت كذلك الجزائر خلال السنوات الماضية تطورا هاما على الصعيد الحضري والصناعي الذي ولد تلوثا هوائيا يمكن في بعض الأحيان مشاهدته بالعين المجردة، وترجع التدفقات الهوائية في التجمعات الحضرية أساسا لحركة المرور، تدفقات صناعية صادرة عن الوحدات الإنتاجية أو صادرة عن احتراق النفايات الصلبة في الهواء الطلق، حيث نجد أن تسيير النفايات في الجزائر تتميز بنقائص هامة كانعدام فرز النفايات في عين مصدرها، انعدام المراكز الخاصة بإتلاف الأجهزة الالكترونية القديمة التي تحتوي على نسب كبيرة من غاز ثاني أكسيد الكربون وغيرها من الغازات السامة.

في نفس الوقت لا يمكننا أن نغفل وجود أوساط و أنواع التنوع الحيوي أو البيولوجي[11] في خطر، فرغم أن هذا التنوع ثري في الجزائر إلا انه يعاني اليوم من عدة مشاكل كالحرائق والإفراط في عملية الرعي.

إن الآثار الاجتماعية الصحية الناجمة عن هذا الواقع جد خطيرة، تكمن في عدة أمراض كالأمراض المرتبطة بتلوث الهواء، و يزيد من تواتر بعض الاضطرابات مثل الأمراض التنفسية (الربو، النقص التنفسي، السعال المزمن، سرطان الرئتين)حيث تعاني نسبة 21. 5٪ من الأطفال الذين تقل أعمارهم عن 5 سنوات من أمراض تنفسية مستعصية[12].

لمواجهة مختلف هذه المشاكل المتراكمة و لتدارك حالة التدهور الخطير، حاولت السياسة التشريعية الوطنية اتخاذ مجموعة من الإجراءات والوسائل القانونية لحماية البيئة، كتفعيل دور الجمعيات البيئية. فكيف تكونت هذه الجمعيات يا ترى؟وما هو القانون الذي ينظمها ؟هذا ما سوف نعالجه في النقطة الموالية.

ثانيا : نشأة وتطور الحركة الجمعوية في الجزائر.

إن الحياة الجمعوية تهدف إلى ترقية الطاقات البشرية و العمل التطوعي، واحترام و تقبل الآخرين، والنضال ضد أي شيء يؤدي إلى التهميش والإقصاء. وتجدر الإشارة إلى انه في عصرنا الحالي أصبح من الغير الممكن تصور مجتمع متماسك و يسير بثبات نحو التقدم إلا من خلال تبنيه سياسة واضحة فيما يخص فسح المجال للعمل الجمعوي في مختلف الميادين الحياتية.

لم تعتمد الجزائر في سياستها لحماية البيئة على الأسلوب الانفرادي، بل عملت على إشراك الجمعيات و مختلف فعاليات المجتمع المدني في المشاركة بطرقها و وسائل عملها المختلفة في المحافظة على البيئة. وبفعل خضوع جمعيات حماية البيئة للمبادئ العامة التي تحكم الجمعيات، استلزم الأمر البحث في مدى إقرار المشرع لحرية إنشاء الجمعيات أو حرية التجمع.

أ- الحركة الجمعوية قبل عام 1990.

تعرف الجمعية بأنها تجمع لأفراد يسخرون بصفة مستمرة مجهوداتهم الشخصية لتحقيق هدف مشترك دون البحث عن تحقيق الربح، وهي تختلف عن التجمع في كونه مؤقتا وعرضيا.

إن بداية ظهور الجمعيات في الجزائر كان أثر صدور القانون الفرنسي لعام 1901 والذي يحدد إنشاء وتسيير وحل الجمعيات. وذلك لأن الجزائر كانت في ذلك الوقت تحت الاحتلال الفرنسي[13]. نشطت حركة إنشاء الجمعيات في الجزائر إبان فترة الاستعمار، وساهمت بفعالية في بناء الشخصية الوطنية والمحافظة على مقوماتها، و تحولت معظم هذه الجمعيات إلى سند سياسي لجبهة التحرير الوطني[14].

وبعد الاستقلال استقرت فلسفة السلطة السياسية في الجزائر على فكرة إقامة دولة قوية ذات نظام مركزي للتخطيط، هذه القناعة أمدت السلطات الإدارية بصلاحيات تقديرية واسعة، مما نجم عنه انسحاب المجتمع المدني و انتكاس الحركة الجمعوية في الجزائر خلال هذه الفترة[15]. وضمن هذا السياق أصدرت وزارة الداخلية تعليمة بتاريخ مارس 1964 تطالب فيها الإدارة بإجراء تحقيق دقيق حول كل الجمعيات المصرح بها، و بفعل الممارسة الإدارية تحول مضمون هذه التعليمة إلى تقييد لحرية إنشاء الجمعيات. وتكرس هذا التقييد بصدور الأمر رقم 71-79[16] الذي اعتبر أن الجمعية تمثل خطرا محدقا بالتماسك الوطني، بما تبديه من منافسة للدولة الممثل الوحيد لكل الجمعيات[17]. وتعزز تغييب الحركة الجمعوية بصدور المرسومين المعدلين للأمر السابق[18].

إن أول خطوة في طريق فتح المجال إلى تأسيس الجمعيات بنوع من الحرية تجسدت مع ظهور قانون 1987. لقد أدى هذا القانون إلى الاعتراف بمبدأ الوجود القانوني لأية جمعية. إلا أن هذا الوجود مشروط بإجراءات الاعتماد من طرف السلطات العمومية. حيث تتمتع هذه الأخيرة بصلاحيات تخولها رفض اعتماد الجمعيات التي قد لا ترغب في ظهورها على الساحة. لكن رغم النقائص التي عرفها هذا القانون إلا انه ساهم في إنشاء عدة جمعيات وطنية و محلية[19].

ب- الحركة الجمعوية في الجزائر بعد صدور قانون 90-31.

يعتبر قانون 90-31 الصادر في 1990/12/4 الذي يحدد كيفية إنشاء و تسيير الجمعيات خطوة هامة في مجال الاعتراف بحرية العمل الجمعوي. إن الجمعية حسب قانون 90-31 تقوم على أساس

اتفاقية يعقدها عدد من الأشخاص طبيعيين أو معنويين[20]. وتتم هذه الاتفاقية بين الأعضاء المؤسسين بمحض إرادتهم من أجل تحقيق هدف مشترك. ويشترط في الأشخاص المؤسسين أن يكونوا راشدين، متمتعين بالجنسية الجزائرية و بالحقوق المدنية والسياسية. تتمثل الشروط الموضوعية الواجب توافرها في تأسيس الجمعية في أن لا تهدف الجمعية إلى تحقيق الربح. و أن لا يخالف هدفها نظامها الأساسي أو النظام العام، أو الآداب العامة أو القوانين و التنظيمات المعمول بها، وان لا يقل عدد الأعضاء المؤسسين لها عن 15 عضوا، يعلنون بصفة إرادية عن ميلاد الجمعية في جمعية عامة[22]. يتعين على الأعضاء المؤسسين إيداع تصريح تأسيس الجمعية لدى: ولاية مقر الجمعية في حالة ما إذا كانت محلية أي يشمل مجال نشاطها بلدية واحدة أو عدة بلديات تابعة لنفس الولاية. أما لدى وزارة الداخلية في حالة ما إذا كان نشاط الجمعية ذا طابع وطني أو جهوي. ويتم بعد ذلك إشهار تأسيس الجمعية في جريدة ذات توزيع وطني وعلى نفقة الجمعية، وفي حالة تخلف الشروط المتعلقة بالأشخاص المؤسسين و الشروط الموضوعية فان الجمعية تكون باطلة بقوة القانون. يحدد القانون أجلا مدته 60 يوما لدراسة ملف تصريح التأسيس (محضر الجمعية التأسيسية، نسختين للقانون الأساسي وقائمة بأسماء الأعضاء المؤسسين)[23]. فإذا رأت السلطة المختصة أن تأسيس الجمعية مخالف للقانون يمكنها أن تحيل القضية على القضاء الإداري، إخضاع اعتراض الإدارة إلى رقابة القضاء الإداري اكبر ضمانة لتكريس حق إنشاء الجمعيات.

تؤسس الجمعية قانونا و تحوز الشخصية القانونية مباشرة بعد استيفاء جميع الشروط السابقة، وبعد مرور ستين (60) يوما من إيداع تصريح التأسيس لدى الجهة المختصة، يثبت لها حق التقاضي و تمثيل الجمعية لدى السلطات العامة و إبرام العقود و الاتفاقات التي لها علاقة بهدفها، واقتناء الأملاك العقارية أو المنقولة مجانا أو بمقابل لممارسة أنشطتها وفق ما ينص عليه قانونها الأساسي، وتقبل الهبات والوصايا والإعانات المحتملة التي تقدمها الدولة أو الولاية أو البلدية، و تصدر مجلات أو وثائق اعلامية لها علاقة بهدفها و نشاطاتها[24].

ج-الحركة الجمعوية في ظل قانون 12-06:

ألغي القانون رقم 90-31 بموجب القانون رقم 12-06 الصادر في 12 يناير 2012 المتعلق بالجمعيات(الجريدة الرسمية رقم 02). حيث يخضع الأشخاص المؤسسين والمسيرين للجمعية لشروط المادة 4 من القانون كلزوم بلوغهم سن 18 سنة فما فوق، التمتع بالجنسية الجزائرية، التمتع بحقوقهم المدنية و السياسية، غير محكوم عليهم بجناية او جنحة تتنافى مع مجال نشاط الجمعية، ولم يرد اعتبارهم بالنسبة للأعضاء المسيرين. كما نصت المادة 6 من نفس القانون على أن يكون عدد الأعضاء بالنسبة للجمعيات البلدية 10 أعضاء، و 15 عضو بالنسبة للجمعيات الولائية (المنبثقين عن بلديتين

على الأقل)، و21 عضو بالنسبة للجمعيات ما بين الولايات(ثلاثة ولايات على الأقل)، و25 عضو بالنسبة للجمعيات الوطنية المنبثقة عن 12 ولاية على الأقل. أما للحصول على وصل تسجيل الجمعية و اعتمادها قانونيا فلقد نصت المادة 7 على انه يتعين على الأعضاء المؤسسين إيداع تصريح تأسيس الجمعية لدى :المجلس الشعبي البلدي بالنسبة للجمعيات البلدية، الولاية بالنسبة للجمعيات الولائية، وزارة الداخلية بالنسبة للجمعيات الوطنية او ما بين الولايات.

يمنح للإدارة اجل لدراسة مدى مطابقة الجمعية لأحكام هذا القانون وتحسب كالآتي:

- 30 يوم بالنسبة للم. ش. ب(فيما يتعلق بالجمعيات البلدية)
- 40 يوم بالنسبة لوزارة الداخلية(فيما يتعلق بالجمعيات الولائية)
- 45 يوم بالنسبة لوزارة الداخلية(فيما يتعلق بالجمعيات ما بين الولايات)
- 60 يوم بالنسبة لوزارة الداخلية(فيما يتعلق بالجمعيات الوطنية)

في حالة عدم رد الإدارة تعد موافقة، و في حالة إصدار قرار بالرفض لابد أن يكون معللا بعدم احترام أحكام هذا القانون(المادة 10 من قانون 12-06).

في حالة رفض الإدارة منح وصل التسجيل للجمعية ثلاثة (3) أشهر لرفع دعوى الإلغاء أمام المحكمة الإدارية المختصة إقليميا (المادة 10 من قانون 12-06).

ثالثا : دور الجمعيات في حماية البيئة.

تخضع الجمعيات البيئية كغيرها من الجمعيات إلى القواعد العامة المنظمة للجمعيات، ويتحدد دورها في تحقيق أهداف الإستراتيجية الوطنية لحماية البيئة بالصلاحيات التي يقرها لها قانون رقم 03-10 الصادر في 19جويلية 2003 و المتعلق بحماية البيئة في إطار التنمية المستدامة حيث خصها هذا القانون بفصل خاص بها. فإذا لم تستطع الجمعيات البيئية تحقيق أهدافها بالطرق الودية، خولها القانون صلاحية اللجوء إلى القضاء لحمل الإدارة و كل مخالف لأحكام البيئة على الامتثال لهذه القواعد.

تقوم الجمعيات بصفة عامة بالدور التحسيسي والمنبه والمدافع ضد الانتهاكات التي تمس بالبيئة، كما يمكن أن تقوم بتقديم طلبات فتح دعوى لتصنيف حظيرة وطنية أو محمية طبيعية[25]، وإنشاء المساحات الخضراء من خلال المشاركة في إعداد المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير ومخطط شغل الأراضي[26]، وحفظ الصحة الحيوانية والمساهمة في استئصال الأمراض الحيوانية، كما تمارس دورا وقائيا في حماية المياه من التلوث[27]. و في مجال المحافظة على التراث الثقافي خول قانون حماية التراث الثقافي الجمعيات إمكانية اقتراح القطاعات المحفوظة، والمشاركة بصفة استشارية في أعمال اللجنة الوطنية واللجنة الولائية[28]، والتأسيس كطرف مدني فيما يخص

مخالفات أحكام قانون التراث الثقافي[29]. كما خولت قواعد التهيئة والتعمير الجمعيات آليات مختلفة للمحافظة على المناظر والتراث الثقافي والتاريخي، من خلال المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير و مخطط شغل الأراضي و رخصة البناء والهدم[30].

يبقى المعيار الأساسي الذي يتحدد على ضوئه تدخل الجمعيات لحماية البيئة هو الهدف الأساسي التي أنشئت لتحقيقه، فهناك من تعتني بنظافة البيئة وهناك من تعمل على نشر ثقافة التربية البيئية.

أ- عضوية جمعيات حماية البيئة لبعض الهيئات العمومية:

هو ما نصت عليه المادة 35 من القانون رقم 03-10 المتعلق بحماية البيئة في إطار التنمية المستدامة، حيث تساهم هذه الجمعيات بإبداء الرأي و المشاركة في عمل الهيئات العمومية نذكر منها عضوية الجمعيات في اللجنة القانونية و الاقتصادية للمجلس الأعلى للتنمية المستدامة[31]، كذلك بعض المؤسسات ذات الطابع الصناعي و التجاري، وهو ما نصت عليه المادة 12 من المرسوم التنفيذي رقم 01-101 المؤرخ في 21 ابريل 2001، المتضمن إنشاء الجزائرية للمياه، وهو أن يكون هناك ممثل عن جمعية تعمل في ميدان مياه الشرب منذ ثلاث سنوات، كذلك عضوية الجمعيات في الديوان الوطني للتطهير وهو ما نصت عليه المادة 14 من المرسوم التنفيذي رقم 01-102 المؤرخ في 21 ابريل 2001، المتضمن إنشاء الديوان الوطني للتطهير وهو أن يكون هناك ممثل واحد عن جمعية تنشط في مجال حماية المياه منذ ثلاث سنوات.

ب- حق التقاضي :

عندما لا تتمكن جمعيات حماية البيئة في تحقيق أهدافها بالطرق الودية تلجأ إلى القضاء باعتباره احد أهم الصلاحيات التي اعترف بها لها قانون 03-10 وذلك من خلال المواد 36و37و38.

كرس قانون الجمعيات حق الجمعيات في التقاضي (كنتيجة منطقية لتمتعها بالشخصية المعنوية) من اجل الدفاع عن المصالح المشروعة المرتبطة بأهدافها وفرض احترام القواعد المرتبطة بها سواء باللجوء إلى القضاء العادي أو الإداري (المادة 17/فقرة2 من قانون 12-06).

خص قانون حماية البيئة 03-10 الجمعيات البيئية بأحكام خاصة للتقاضي، إذ مكن كل جمعية يتضمن موضوعها حماية البيئة رفع دعاوى أمام الجهات القضائية المختصة عن كل مساس بالبيئة حتى في الحالات التي لا تعني الأشخاص المنتسبين لها والتي تعتبر مخالفة للأحكام التشريعية، المتعلقة بحماية البيئة وتحسين الإطار المعيشي، وحماية المياه والهواء والجو والأرض وباطن الأرض والفضاءات الطبيعية و العمران و مكافحة التلوث، وهو مانصت عليه المادة 37 من قانون 03-10. وممارسة حق الادعاء المدني بالنسبة للحقوق المعترف بها للطرف المدني، بخصوص الأفعال التي تلحق ضررا

مباشرا أو غير مباشر بالمصالح الجماعية التي تدافع عنها، أو بتفويض كتابي من شخصين طبيعيان على الأقل وهو ما نصت عليه المادتان 37 و38 من قانون03-10. أساس هذه المسؤولية المدنية لتعويض الضرر الناشئ عن انتهاك البيئة، هو ظاهر في نص المادة 124 من القانون المدني "كل فعل أي كان يرتكبه الشخص بخطئه، و يسبب ضررا للغير يلزم من كان سببا في حدوثه بالتعويض.

وعليه فان العمل المستحق للتعويض يؤدي ارتكابه إلى قيام مسؤولية الشخص الذي ارتكبه، ونتيجة لقيام المسؤولية فلا بد من التعويض. القاعدة العامة أن الدعوى المدنية هي من اختصاص المحاكم المدنية ودعوى تعويض الضرر هي دعوى مدنية تقام أمام المحاكم المدنية، لكن إذا كانت هذه الدعوى ناشئة عن جريمة، فان الضرر المطالب بتعويضه عندها ليس ضررا مدنيا صرفا، لكن يستمد وجوده من الخطأ الجزائي، بالتالي من حق جمعيات حماية البيئة رفع دعواها إما أمام المحكمة الجزائية أو المحكمة المدنية. قدر قانون الإجراءات الجزائية طرقا ثلاثة للادعاء مدنيا أمام القضاء الجزائي وهو ما نصت عليه المادة 240 من قانون الإجراءات الجزائية: الادعاء المدني أمام قاضي التحقيق أو بالتدخل في الدعوى، وإما ادعاء مباشر أمام المحكمة حسب نص المادة 337 مكرر من قانون الإجراءات الجزائية.

إضافة إلى ما سبق ذكره هناك نصوص خاصة تعطي للجمعيات حق التأسيس كطرف مدني، منها قانون حماية التراث الثقافي(32).

إن اضطلاع جمعيات حماية البيئة بالمهام المذكورة، يجعل منها شريكا قويا ومضادا للإدارة ضد أي استعمال متعسف للوسط الطبيعي، وذلك بالتنديد ضد أية مشاريع ضارة بالبيئة، لكن هل يا ترى استطاعت أن تلعب هذا الدور بامتياز ؟

رابعا: أسباب ضعف فعالية الجمعيات في حماية البيئة.

إن فكرة نشوء الجمعيات ليست حديثة النشأة، إنما جمعيات حماية البيئة هي الحديثة. التي تم التأكيد على وجودها كشريك فعال للدولة في الحفاظ على التوازن البيئي في عدة محافل دولية (ابتداء من مؤتمر استكهولم 1972مرورا بمؤتمر ريو دي جانيرو 1992)(33). ورغم أهمية النصوص التشريعية الوطنية التي كرست حق إنشاء هذه الجمعيات وصلاحياتها، إلا أن الواقع يفرز لنا ضعف فعالية الجمعيات البيئية وذلك راجع لعدة عوامل و هي:

– ضعف و محدودية الجانب المالي للجمعيات :حيث تتكون موارد الجمعيات من اشتراكات أعضائها، العائدات المرتبطة بأنشطتها، الهبات و الوصايا(34). نظرا لمحدودية الموارد الناجمة عن اشتراكات الأعضاء، والعائدات المرتبطة بنشاطاتها والهبات والوصايا، فان نشاط الجمعيات عموما والجمعيات البيئية خصوصا يتوقف على دعم الدولة لتحقيق أهدافها، إلا أن الجمعيات

البيئية تعاني صعوبة الحصول على تمويل لها من الصندوق الولائي لترقية مبادرات الشباب والممارسات الرياضية بسبب عدم إشارة نصوصه الخاصة بتمويل نشاط هذا النوع من الجمعيات. يبقى لهذه الأخيرة الحصول على دعم من وزارة تهيئة الإقليم والبيئة، بناء على طلب تودعه لدى مديرية البيئة، التي تتولى إحالته على وزارة تهيئة الإقليم و البيئة[35]. إلا أن هذا التمويل المركزي يمكن أن يؤثر سلبا على نشاطات الجمعيات مستقبلا[36].

– يرى بعض الباحثين في هذا المجال أن سبب عدم نجاعة نظام العضوية للجمعيات البيئية في بعض الهيئات العمومية يعود إلى الاختيار التمييزي للإدارة لممثلي الجمعيات، والنسب الضعيفة لتمثيلها مقارنة بأغلبية الأصوات التي تحوزها الإدارة أو المؤسسة الاقتصادية، وبهذا لا يمكن لهذه الجمعيات أن تغير مصير القرارات الصادرة عن الإدارة و المتعلقة بالبيئة [37].

– تعاني الكثير من الجمعيات البيئية من ضعف في التنظيم والكفاءة المستوجبة في أعضائها، كما لا تحوز على قدر كاف من التخطيط في سبيل تحقيق أهدافها.

خاتمة

رأينا من خلال ما تقدم أن الجمعيات البيئية هي إحدى الوسائل القانونية والشريك الفعال للدولة لتحقيق استراتيجيتها الوطنية لحماية البيئة، فهي تخضع من حيث تنظيمها إلى القواعد العامة المنصوص عليها في القانون رقم 12-06. بالإضافة إلى الصلاحيات التي خولها لها هذا القانون، تتمتع بمهام خاصة بموجب قانون حماية البيئة في إطار التنمية المستدامة رقم 03-10، الذي أهم ما اعترف لها به هو ممارسة الحقوق المعترف بها للطرف المدني وتمثيل الأفراد المتضررين من انتهاكات البيئة أمام الجهات القضائية.

إن الدور الذي تلعبه الجمعيات لحماية البيئة مازال لا يغطي حتى نسبة 50٪ من الوضع المتدهور للبيئة، و لذا على هذه الأخيرة أن تضاعف من مجهوداتها، حتى تحافظ على أهم حق من حقوق الإنسان و هو الحق في بيئة نظيفة، باعتباره حق مطلق لجميع الأفراد.

و في سبيل ذلك نقترح التوصيات الآتية :

– تفعيل دور الجباية البيئية القائمة على مبدأ الملوث الدافع (الضرائب و الرسوم المفروضة من طرف الدولة بفرض التعويض عن الضرر الذي يسببه الملوث لغيره)[38]في تدعيم الجانب المالي للجمعيات البيئية، وذلك بتحويل هذه الإيرادات إلى حساب الجمعيات، وهذا من شانه ان يحفزها على العمل أكثر على كشف مختلف الخروقات للتشريعات البيئية.

– التنسيق بين الجمعيات ومختلف مخابر البحث المختصة في البيئة، التي ستساعدها بالتزود

بآخر الدراسات المتعلقة بالبيئة، الشيء الذي سيساهم كذلك في تطوير نشاطاتها المتعلقة بالبيئة، و وضع برامج عمل مشتركة.

– زيادة نسب تمثيل الجمعيات البيئية في مختلف الهيئات العمومية و المجالس المنتخبة.

الهوامش:

1– سورة البقرة الآية 205.

2–محسن افكيرين: القانون الدولي للبيئة، ط1، دار النهضة العربية، مصر، 2006، ص 8

– كلمة البيئة هي الاسم للفعل تبوأ أي نزل أو أقام، و تبوأ أي هيأه ومكن له فيه انظر لسان العرب لابن منظور، دار المعارف، القاهرة(مصر)، ط3، دون سنة نشر، ص 328. وتعني البيئة كذلك لغة المكان أو المنزل أو الوسط الذي يحي فيه الكائن الحي مع غيره من الكائنات، كما يعبر بها عن الحالة أو الهيئة التي عليها هذا الكائن انظر محسن افكيرين، مرجع سابق، ص9.

-Le mot environnement du point de vue des définitions du dictionnaire on le trouve dans le grand Larousse de la langue française de1972 :il s'agit de l'ensemble des éléments naturels ou artificiels qui conditionnent la vie de l'homme. Le petit Larousse de 2010 nous dit qu'il s'agit de l'ensemble des éléments physiques, chimiques ou biologiques, naturels ou artificiels, qui entourent un étre humain, un animal ou un végétal ou une espèce. Voir Lavieille (Jean-Marc) : droit international de l'environnement, 3e édition, Ellipses, Paris, 2010 , p15.

3–طارق إبراهيم الدسوقي عطية:الأمن البيئي. النظام القانوني لحماية البيئة، دار الجامعة الجديدة، مصر، 2009، ص108

4–انظر القانون المصري رقم 4 لسنة 1994 في شان البيئة المادة 1/1 متاح على الموقع التالي: http// :www. google. fr

5–رائف محمد لبيت:الحماية الإجرائية للبيئة، رسالة ماجستير، كلية الحقوق، جامعة المنوفية(مصر) 2008، ص13 و انظر كذلك:

Chronologique du droit de l'environnement en France, article disponible sur : http://www. wikipedia. org

6- PRIEUR(Michel): droit de l'environnement, 6 °édition,Dalloz,Paris2011,p1-2.

–محمد خالد جمال رستم: التنظيم القانوني للبيئة في العالم، منشورات الحلبي الحقوقية، ط1، لبنان، 2006، ص11

7–محسن افيكيرين، مرجع سابق، ص14

8–انظر المادة 4 من القانون رقم 03–10

9– سنوسي خنيش: الأبعاد الاستراتيجية لإدارة حماية البيئة الدولية و الإقليمية– دراسة نقدية تأصيلية وفقا لمنظور الدول النامية، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية، العدد1، المركز الجامعي زيان عاشور الجلفة، 2008، ص13– 39. و للمزيد من التفصيل فيما يخص ظاهرة الاحتباس الحراري و آثار تدهور البيئة انظر:

- Bryson(Bates), Zbigniew(W). Kundzewicz et autres :le changement climatique et l'eau, document technique publié par le groupe d'experts intergouvermental sur l'évolution du climat, secrétariat du GIEC, Genève ,2008,p19-36

10–انظر تجربة الجزائر في حماية البيئة، مقال متاح على الموقع الآتي:http // :www. archialg. 4rumer. com

11–المادة4 من قانون 03–10. كما يعني التنوع البيولوجي الاختلاف في أنواع الحيوانات مثل الثديات والطيور وغيرها والاختلاف بين الجينات داخل نفس النوع. انظر في هذا المعنى سنوسي خنيش، مرجع سابق، ص22

12- تجربة الجزائر في حماية البيئة، مقال سبق ذكره.
13-محمود بوسنة:الحركة الجمعوية في الجزائر:نشأتها و طبيعة تطورها و مدى مساهمتها في تحقيق الأمن و التنمية، مجلة العلوم الإنسانية، عدد17، قسنطينة، 2002، ص134
14-انظر: كمال عجالي: مساهمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحفاظ على الهوية الوطنية، مجلة العلوم الإنسانية، عدد16، جامعة منتوري قسنطينة، ديسمبر 2001.
15-محمود بوسنة، مرجع سابق، ص134
16-الامر 71-79المؤرخ في 1971/12/3، المتعلق بالجمعيات، جريدة رسمية عدد1971/105
17-ساسي سقاش:الجمعيات البيئية في الجزائر و دورها في حماية البيئة، رسالة ماجيستير، كلية الحقوق، جامعة منتوري قسنطينة، 2000، ص40-43
18-المرسوم رقم72-176 المؤرخ في 1972/7/27، المتعلق بالجمعيات، جريدة رسمية عدد65 و المرسوم رقم 72-177 المؤرخ في 1972/7/27 المعدل للأمر 71-79
19-محمود بوسنة، مرجع سابق، ص134و135
20-المادة2 من قانون 90-31 الصادر في 1990/12/4 جريدة رسمية رقم 53
21-المادة 4من قانون90-31
22-المادة 6منقانون90-31
23-المواد7-10 من قانون 90-31
24-المادة 16 من قانون 90-31
25-المادة 3 من المرسوم 87-143 المتعلق بالحظائر الوطنية
26-المادة 20 من قانون 90-29 المتعلق بالتهيئة و التعمير المعدل و المتمم.
27-المادة 55 مكرر من الأمر 96-13 المعدل لقانون المياه 83-17
28-المادة 3 من المرسوم التنفيذي 01-104المتضمنانشاء اللجنة الوطنية و الولائية للممتلكات الثقافية.
29-المادة 14من المرسوم 01-104 السابق الذكر
30-المادة 69 من قانون 90-29
31-المادة 5 من المرسوم التنفيذي رقم 96-481 الصادر في 1996/12/28 يحدد تنظيم المجلس الأعلى للبيئة والتنمية المستدامة.
32-المادة 91 من قانون 98-04 المتعلق بحماية التراث الثقافي.
33- انظر المبدأ الرابع من إعلان استكهولم و المبدأ العاشر من إعلان ري ودي جانيرو.
34-المادة 29 من قانون 12-06
35-راجع إرسالية وزارة البيئة و تهيئة الإقليم إلى المفتشيات الولائية للبيئة المؤرخة في 2003/1/6
36-وناس يحي: الآليات القانونية لحماية البيئة في الجزائر، رسالة دكتوراه، كلية الحقوق جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2007، ص148
37-المرجع نفسه، ص143
38-كمال رزيق: دور الدولة في حماية البيئة، مجلة الباحث، عدد5، جامعة البليدة، 2007، ص78 و79.

Engaging associations is one of the legal means to protect the environment

Rima KARMI*

Abstract:

A few decades ago, the world is facing a difficult situation, has never faced, where nature is suffering from degradation due to human activities, leading to the concern of all States to the cause of protection the environment, it has grow into the large number of international conventions, environmental protection processes and other national and international initiatives require the protection of the environment,. The institutions of civil society develop policies that contribute to the reduction of pollution in all its forms, especially after admitting his role of director associated with the objectives of the national strategy for environmental protection in the name of law No. 03-10 corresponding to the protection of the environment in the context of sustainable development.

Keywords: Environment - Associations - Law - Protection.

* Faculty of Law and Political Science University of Jijel.

دور إعادة الهندسة الإدارية في محاربة سلبيات البيروقراطية

بقلم
د/ الهادي دوش(*)

ملخص

إن تزايد حدة المنافسة وارتفاع مستوى توقعات الزبائن جعل منها حافزا لتحقيق القدرة على تحقيق الأداء والتميز على مستوى إدارة الأعمال، خاصة في ظل انتشار تكنولوجيا الاتصال والمعلوماتية والحكومة الالكترونية وكذا انتشار مفهوم الجودة الشاملة، وبذلك نجد أن هناك الكثير من التحديات التي أصبحت على عاتق هذه الإدارة للقيام بثورة ضد الحلول الإدارية التقليدية التي تركز على التطوير والتحسين التدريجي، لذلك نجد أن أكثر من 70٪ من شركات الأعمال الأمريكية منذ التسعينات من القرن الماضي قد خطت خطوات جادة في هذا الشأن ونجحت نجاحا باهرا، الأمر الذي استدعى ضرورة التفكير في إمكانية تطبيق أسلوب إعادة الهندسة الإدارية في الإدارة العامة، خاصة وأن أغلب الدول العربية تعاني من مشكلة البيروقراطية وتعقيدات التنظيم الرسمي، فما جدوى تطبيق هذا الأسلوب في الإدارة العامة؟

الكلمات المفتاحية: إعادة الهندسة الإدارية، الإدارة العامة، البيروقراطية، التنظيم الرسمي.

تمهيد

تعتبر البيروقراطية من أبرز نظريات التنظيم التي استطاعت أن تؤسس دعائم الفكر الإداري الحديث، الذي كانت له منطلقاته ودلالاته الاجتماعية والسياسية، خاصة مع النموذج العقلاني الرشيد الذي سعى إليه ماكس فيبر من أجل تحقيق الاستقرار والكفاءة الإدارية حتى أصبح يعد كوحدة للتحليل في الدراسات المقارنة، وذلك لقدرته على استيعاب كافة خصائص الإدارة ومن ثم التعبير عن خصائص المجتمع الحديث أو المجتمع الرأسمالي كمرحلة متقدمة وفق التفسير

(*) أستاذ محاضر "ب" بقسم العلوم السياسية ـ كلية الحقوق والعلوم السياسية ـ جامعة الوادي.

المادي للتاريخ، غير أن هذا النموذج على أهميته فقد وجهت له العديد من الانتقادات نتيجة ظهور الكثير من النقائض والسلبيات بفعل التغيرات الاجتماعية والسياسية التي أعقبت هذه المرحلة، ولكون الإدارة العامة تستفيد دائما من إدارة الأعمال خاصة فيما يتعلق بالجوانب التنظيمية والإجرائية، فقد ارتأينا في هذه الدراسة أن نستعير مفهوم إعادة الهندسة الإدارية من إدارة الأعمال وتطبيقه على الإدارة العامة في محاولة لاختبار كفاءة هذا المفهوم فيما يتعلق بالجودة والسرعة في تقديم الخدمة وتقييم الأداء، بالتالي محاربة آفات البيروقراطية كظاهرة سلبية تعرفها أغلب المؤسسات الإدارية العربية والوطنية، وعلى هذا الأساس فإن الإشكالية المطروحة هنا هي كالتالي: ما مدى قدرة إعادة الهندسة الإدارية على محاربة البيروقراطية وتحقيق الكفاءة والفعالية داخل الإدارة العمومية؟ وسنحاول الإجابة على هذه الإشكالية من خلال نقطتين أساسيتين:

- مفهوم كل من إعادة الهندسة الإدارية والبيروقراطية وأهم خصائصهما.
- دور إعادة الهندسة الإدارية في تحقيق الكفاءة والفعالية.

أولا: مفهوم إعادة الهندسة الإدارية والبيروقراطية وأهم خصائصهما.

سنحاول أن نتطرق هنا إلى جملة المبادئ والخصائص الأساسية التي تميز كلا المفهومين للوصول إلى توضيح العلاقة بينها، وكيف نستفيد من مفهوم إعادة الهندسة الإدارية في محاربة آفات وسلبيات البيروقراطية.

1- مفهوم إعادة الهندسة الإدارية وأهم خصائصها.

لقد ظهر مفهوم إعادة الهندسة الإدارية reengineering business منذ بداية التسعينات وبالتحديد سنة 1992 عندما أطلق الكاتبان الأمريكيان "مايكل هامر" و "جيمس تشامبي" كتابهما الشهير "هندرة المنظمات " والذي أحدث ثورة حقيقية في عالم الإدارة الحديثة وذلك بما يحمله من دعوة صريحة لإعادة النظر وبشكل جذري في كافة الأنشطة والعمليات والاستراتيجيات التي قام عليها مفهوم الإدارة لمدة زمنية طويلة[1]، هذا وقد دأبت الكثير من الدراسات على استعمال مصطلح "الهندرة" بدل إعادة الهندسة الإدارية وذلك لكونه أقرب للاستعمال في اللغة العربية، لأنها مركبة من كلمتي: هندسة وإدارة[2]، وفي هذا الشأن يعرف "جون باركر" J.Parker إعادة الهندسة الإدارية على أنها استخدام وسائل مهنية وتقنية متطورة لإحداث التغيير الجذري الشامل للمنظمة من أجل توفير ما يحتاجه الزبائن والمستفيدين[3]، كما

عرفها أيضا كل من ما يكل هامر و تشامبي "على أنها البدء من جديد من نقطة الصفر وليس إصلاح للوضع القائم ... بصورة يتم من خلالها التخلي عن إجراءات العمل القديمة الراسخة والتفكير بصورة جديدة في كيفية تصنيع المنتجات أو تقديم الخدمات لتحقيق رغبات العملاء[4]، كما تُعرف "بأنها إعادة تصميم جذري وسريع للعمليات الإستراتيجية التي لها قيمة مضافة وكذلك إعادة التصميم الجذري والسريع للنظم والسياسات والهياكل التنظيمية التي تساعد العمليات للوصول إلى انسياب العمل بأعلى مستوى وفق معايير الجودة العالمية"[5].

يتضح من خلال هذه التعاريف المقدمة بان أسلوب إعادة الهندسة الإدارية يعني التركيز على إيجاد حلول جذرية لمشاكل تنظيمية من خلال الإبداع والتجديد والابتكار في تلك العمليات الإدارية "نظم العمل" لأجل تحقيق نتائج مهمة على مستوى التكلفة وجودة الخدمة والسرعة في الأداء، بالتالي خدمات أفضل للمستفيدين والعملاء، لذلك فقد أصبحت الحكومات اليوم تتجه نحو الشركات المتخصصة لإنجاز أعمال معينة، وكذا الاستعانة بالقطاع الخاص لتقديم بعض الخدمات الضرورية أو توفير السلع للمواطنين، هذا إضافة إلى التوجه نحو سياسية تقليص التضخم البيروقراطي وتخفيض الأعباء المالية على الإدارات الحكومية[6]، وهذا راجع لعدة عوامل داخلية وخارجية منها[7]:

1- انتشار ظاهرة المنافسة العالمية، الأمر الذي أثار مسألة حماية المؤسسات الحكومية وضرورة تقديم الدعم المالي لها.

2- تدني مستوى إرضاء المستفيدين والعملاء، الأمر الذي يدفع بالمسؤولين إلى إقامة شراكة وتعاون مع المؤسسات الدولية لتحسين مستوى الخدمات والمنتجات.

3- ازدياد السكان وكثرة مطالبهم، الأمر الذي تنتج عنه تزايد المؤسسات وتكسير أسواق الاحتكار.

4- صعوبة إرضاء الزبائن بفعل كثرة الخدمات المعروضة وانتشار الجودة والأسعار المغرية.

5- تطور تقنيات المعلومات بسرعة فائقة واستعمالها لإتقان العمل وكفاءة الأداء.

أن الإدارة التي تسعى لتطبيق أسلوب الهندسة الإدارية تهدف إلى ما يلي[8]:

1- التخلص من الروتين والإجراءات البيروقراطية المعقدة.

2- ترضية الزبائن وتحقيق احتياجاتهم .

3- اتخاذ القرارات يكون بالمشاركة مع المسؤولين وفي اتجاه ما يراه المنفذون للقرار وليس صانعوه.

4- تعاقد إدارات القطاع العام مع مؤسسات القطاع الخاص خاصة في تقديم الخدمات،

مادام ذلك يعود بالرضا على المستفيدين.

5- التركيز على مسألة كيف يتم انجاز عمل الحكومة وليس على ما ينبغي أن تقوم به الحكومة.

انطلاقا مما سبق يتضح أن أهداف إعادة الهندسة الإدارية تتجه نحو تطبيق أسلوب إداري جديد يقوم على تحرير المنفذين الإداريين من التقيد بالنصوص القانونية والتعليمات الإدارية والاكتفاء فقط بالعمل على تحقيق النتائج المطلوبة في ظل المهام والاختصاصات المنوطة[9]، بالتالي يصبح الموظفون الإداريون قادرون على أن يعملوا ما في وسعهم ويستخدموا أفضل الأساليب الممكنة انطلاقا من المعلومات المتوفرة لديهم للحصول على أفضل النتائج المرجوة.

لذا نستطيع القول بان أسلوب إعادة الهندسة الإدارية له من الكفاية الحدية – من الناحية النظرية على الأقل – ما يؤهله للقضاء على الكثير من سلبيات الإدارة الحديثة وتعقيداتها التنظيمية، وهذا ما تبرره الدعوة لاستخدام ما يطلق عليه باللغة الانجليزية (3cs)[10]، وتعني ثلاثة أحرف تبدأ ب (c) وهم: الزبائن أو المستفيدين من الخدمة Customer، المنافسة competition ،التغيير change، بالتالي فإن مبادئ إعادة الهندسة الإدارية يقوم على ما يلي:

1- تحول معيار الأداء والمكافآت من الأنشطة والمهام إلى النتائج والعوائد.

2- التركيز على ضرورة تطوير الأساليب والعمليات الإدارية، انطلاقا من خلق مناخ ملائم للموظفين للإبداع والابتكار والمنافسة وتطوير الذات.

3- الدمج الوظيفي، وذلك بالنظر لما يحققه من أفضليات: كتخفيض الكلفة، سرعة اكتشاف الأخطاء وإصلاحها، تنسيق الجهود وتقليص الزمن للقيام بالعمليات.

4- التوجه نحو تعليم الموظفين بدل تدريبهم، لأن متطلبات العمل تحتاج تقدير الموظف لتحديد الأسلوب الأمثل المناسب للعمل.

5- توفير قاعدة كبيرة من البيانات والمعلومات لدى الإداريين والموظفين ومتخذي القرارات، فالقرار ليس حكرا على المسؤولين والمدراء، إنما ينبغي أن يشارك فيه الموظف باعتباره المسؤول الأول والمباشر على تنفيذه وتحقيق نتائجه، ويكون دور المدير في هذه الحالة المنسق، المشرف والموجه.

6- تقليل مستوى الرقابة الإدارية واقتصارها فقط على الضوابط التنظيمية العامة.

7- يتجه أسلوب إعادة الهندسة نحو خدمة المستفيدين وترضية الزبائن وتحقيق احتياجات المجتمع (السوق)، حتى لو استدعى الأمر التعاقد مع بعض المؤسسات المتخصصة، لأن فقدان

الزبائن أو المستفيدين من الخدمة يعني إفلاس المؤسسة.

من خلال ما سبق يتضح بان هذا الأسلوب الإداري الجديد – إعادة الهندسة الإدارية – يسمح بالتغيير الجذري للأفكار والمفاهيم الكلاسيكية التي كانت تُبنى عليها الإدارة الحديثة، انطلاقا من: تفويض السلطة بدل تركيزها، منح صلاحيات أكبر للإداريين والموظفين بدل الوصاية عليهم، اعتماد مبدأ فرق العمل والكفاءة المهنية بدل الهيرارشية واحتكار السلطة لدى القادة والمسؤولين، وكذا اعتماد المنافسة في تقديم الخدمات وتقليص النفقات بدل التوجه نحو فرض الضرائب، بعبارة أخرى إنها يجب أن تعمل بطريقة مشابهة لعمل القطاع الخاص.

2- مفهوم البيروقراطية وأهم مؤشراتها النظرية.

لقد كان لمدلول البيروقراطية مبرراته العملية انطلاقا من الظروف السياسية والاجتماعية التي ظهر فيها هذا المفهوم، فهو يعني منذ ظهوره التوجه نحو التفكير العقلاني الرشيد خاصة في ما يتعلق بالتنظيم الرسمي، ويتضح ذلك من خلال مجموعة الاختصاصات والقواعد والقوانين المكتوبة، وكذا تحديد المهام والصلاحيات وما يترتب عنها من سلطات تصدر في شكل لوائح تنظيمية وذلك من أجل إعطاء المظهر الرئيسي لها المتمثل في صورية القواعد والنظم[11]، كما أنها من الناحية الاصطلاحية تعني سلطة المكتب (bureaucracy) وذلك للدلالة على الرجال الذين يمسكون بالسلطة خلف المكاتب الحكومية[12].

يتفق كتاب الإدارة العامة على أن مفهوم البيروقراطية ينصب حول التنظيم الرسمي وكيفية إنجاز العمل، في محاولة لإعطاء قانوني عقلاني رشيد يتسم بالكفاءة التنظيمية، وفي هذا الشأن يعرفها الكاتب هارولد لاسكي بأنها "وصف لنظام حكومي تكون الرقابة متروكة فيه كلية في يد طبقة الموظفين الرسميين"[13]، ومن خصائص هذا النظام الرغبة الشديدة في الالتجاء للطرق الرسمية في الإدارة والتضحية بالمرونة من أجل الالتزام بتنفيذ المعلومات والبطء في إصدار القرارات ورفض الالتجاء إلى التجارب، وفي هذه الحالات الجادة يتحول الأعضاء البيروقراطيين إلى أجهزة في يد الإدارة العليا (الحكومة) تحتكرهم من أجل مصلحتها الخاصة، ويتحول عملها إلى غاية في حد ذاته[14]، أما كارل ماركس فقد نظر إليها من خلال بناء علاقات القوة في المجتمع فأصبحت البيروقراطية تعني تنظيم أجهزة الدولة للوصول إلى قوة تنظيم المؤسسات ومن ثم حماية المصلحة العامة، أما منير حجاب فقد عرفها في موسوعته الإعلامية بأنها "تنظيم إداري يقوم على السلطة الرسمية وتقسيم العمل وظيفيا بين مستويات متدرجة وفق أوامر رسمية تصدر من رئيس إلى مرؤوسين"[15]، أما النموذج البيروقراطي عند ماكس فيبر فيقوم على كيفية

بناء تنظيمات لمجتمعات بشرية تكون أكثر عقلانية وتحقق أكبر قدر من الكفاءة الفعالية التنظيمية، لذلك فقد رأى بان المجتمع الرأسمالي هو الذي يحقق أكبر قدر من الرشد وذلك بما يحمله من تنظيم للسلطة وسيادة للقانون، إضافة إلى منظومة الحقوق والواجبات وتحديد الوظائف والتخصصات استنادا غلى سلطة قانونية، وبالتالي إلغاء فكرة ملكية موارد التنظيم، فالمجتمعات الحديثة "تقوم على أساس التنظيم العقلاني للإدارة والتسيير"[16].

لقد خصص ماكس فيبر سبعة خصائص للبيروقراطية تزيد من عقلانية وفاعلية المؤسسات، هذه الخصائص هي:

1- التسلسل الهرمي للسلطة، حيث تشرف وتراقب المستويات العليا أعمال وأنشطة المستويات الدنيا.

2- درجة عالية من التخصص الوظيفي وتقسيم العمل، وتحديد للمهام والمسؤوليات.

3- مجموعة من اللوائح والقواعد التنظيمية.

4- خضوع علاقات العمل للموضوعية والحياد دون اعتبار للعلاقات الشخصية.

5- الاعتماد على ضبط المصادر والسجلات في إعداد التقارير وصنع القرارات ومراقبة التسيير.

6- فصل الملكية العامة عن الملكية الخاصة، إذ لا يحق للموظف أن يمتلك منصبه.

من خلال هذه الخصائص العامة البيروقراطية يتضح أن كفاءة التنظيم – حسب نموذج ماكس فيبر– تظهر من خلال مبدأي: الرشد (التعقل) والبحث عن استقرار المؤسسات، ولعل هذا ما جعل بعض المنظرين المعاصرين[17] يصفون هذا النموذج بالتوجه نحو الأوليجارشية عبر مزيد من احتكار السلطة والقوة، من خلال مركزية الضبط والإشراف والرقابة الشديدة، وهو ما يجعل الموظف عبارة عن آلة لتنفيذ القوانين واللوائح فتتعاظم بالتالي الجوانب الشكلية للبيروقراطية ويفقد التنظيم خاصية المرونة ، فتتحول الوسائل إلى غايات والموظفون إلى آلات، بالتالي يظهر الخلل الوظيفي وتضعف كفاءة التنظيم[18]، وهذا ما يسميه ميرتون بالنتائج غير المتوقعة أو غير المرغوبة، وهنا تظهر الوظيفة الكامنة في مقابل الوظيفة الظاهرة، فإذا كانت الوظيفة الظاهرة تعبر عن الدور الذي يقوم به شاغل الوظيفة أو النسق ككل من واجبات والتزامات فإن الوظيفة الكامنة تعني ما يُتوقع أن يصدر من تصرفات غير مرغوبة، وفي هذا الشأن يؤكد روبرت ميرتون على ما يلي[19]:

– إن ضعف التفاعل الإيجابي وتضاؤل العلاقات بين أفراد التنظيم ينتج عنه تدعيم الوضع الراهن وعدم تغييره.

- إن استيعاب أفراد التنظيم للقوانين واللوائح وإجراءات العمل التنظيمية ينتج عنه جمود التنظيم، بالتالي يتحول القانون من وسيلة إلى غاية.

- كلما كان السلوك ثابتا كلما كانت هناك صعوبة في التعامل مع الزبائن والمستفيدين من الخدمة فيفقد هؤلاء تعاملهم مع التنظيم.

إضافة إلى هذه النتائج غير المرغوبة قد تظهر جوانب أخرى لا وظيفية في مقابل الوظيفة، أي ظهور عدة معيقات وظيفة[20] إذ أنه:

1- كلما كانت البيروقراطية شديدة كلما قل الأداء الوظيفي.

2- كلما كانت البيروقراطية صارمة وواضحة كلما قلت الاستفادة من إمكانيات ومهارات العمال.

3- القواعد البيروقراطية تخلق مبدأ الآلية والروتين، فينغلق بالتالي الموظف على ذاته ولا يحاول بذل مزيد من الجهد مما يؤدي إلى انخفاض الانجازات الفعلية والابتعاد عن الأهداف العامة للتنظيم.

4- إن وضع نظام للرقابة للحفاظ على توازن جزء من التنظيم يؤدي في نهاية الأمر إلى الإخلال بتوازن التنظيم ذاته وعدم استقراره.

إن أسلوب إعادة الهندسة الإدارية يعتبر أسلوبا فعالا بالنظر إلى النتائج التي حققها من خلال التجارب العديدة على مستوى إدارة الأعمال[21]، الأمر الذي جعله محل اهتمام الكثير من الدارسين، لذلك بدأ التفكير في إمكانية تطبيقه على مستوى الإدارة العامة لكنه قد يصطدم بالمفاهيم والقيم الإدارية السائدة ونظم العمل التقليدية وطرق التفكير المألوفة، ولو نظرنا إلى التطورات والمتغيرات الحاصلة على مستوى البيئة السياسية الدولية لوجدنا أن الثورة المعلوماتية وما تحمله من وسائل تكنولوجية فرضت تحديات على مستوى الدولة الوطنية خاصة على مستوى الإدارة العامة باعتبارها المسؤولة عن تطبيق سياساتها، مما يستلزم إعادة التفكير في كيفية التعامل مع هذه المتغيرات من أجل تبني أساليب إدارية حديثة لتجاوز هذه التحديات وكيفية تقديم الخدمات العامة.

ثانيا: تطبيق إعادة الهندسة لتحسين كفاءة أداء الإدارة العامة.

يختلف تطبيق إعادة الهندسة في إدارة الأعمال عنه في الإدارة العامة وذلك راجع لصعوبة تطبيقه في الإدارة العامة نتيجة الخصائص التي تُميز هذا القطاع، والتي أجملها "أتون" UTTON في ما يلي[22]: صمود هيكل التنظيم مما يؤدي إلى انغلاق التنظيم على ذاته وعدم إمكانية تخطي

حدوده القائمة، التوقعات غير الواقعية لتعدد الأنشطة، التضارب في أداء الأعمال والمبادرات، لذلك فإن تطبيق أسلوب إعادة الهندسة في الإدارة العامة يتطلب تحقيق عدة متطلبات على عدة مستويات مختلفة من أجل تجاوز سلبيات ومعيقات هذا القطاع والتي يمكن أن تشمل: مستويات الإدارة العليا، نظم وإجراءات أداء العمل، وكذا الثقافة التنظيمية، وسنفصل ذلك فيما يلي.

1- على مستوى الإدارة العليا.

إن إعادة الهندسة الإدارية يتطلب ابتداء ضرورة دعم الإدارة العليا، لأن القيادة الإدارية تعتبر أحد العوامل الرئيسية المهمة لنجاح أي تنظيم، ولا يمكن القيام بأي تغيير إلا إذا اقتنعت الإدارة العليا بذلك وعملت في اتجاهه، لذلك فإن من معوقات تطبيق إعادة الهندسة الإدارية عدم ثقة المديرين بأنفسهم فيلجأون بالتالي - دون وعي منهم- إلى احتكار القرارات وعدم مشاركة العاملين وإتباع أسلوب مركزي خوفا على مستقبلهم الوظيفي[23]، كما أن عدم اقتناع المديرين على مستوى الإدارة العليا بعدم جدوى إعادة الهندسة أو عدم ثقتهم في قدرات العاملين وإمكاناتهم الفردية سيؤدي إلى عدم توفير الضمانات اللازمة لإجراء التغيير المطلوب وقد يتحول ذلك إلى مقاومة للتغيير، لذلك فإنه من البداية يجب إقناع المديرين بدرجة أساسية والعاملين بضرورة التغيير الجذري ليقوم الجميع برفع كافة التحديات التنظيمية حتى لو استدعى الأمر التخلي عن بعض القيم والتقاليد المكتسبة، ومن ثم ضرورة إعادة النظر في هيكلة التنظيم ونظام الحوافز وكذا الأدوار والمسؤوليات تبعا للاحتياجات المطلوبة، هذا إضافة إلى ضرورة توفير درجة عالية من المرونة تسمح بتكامل أجزاء العمل واندماجها لتكون عمليات مترابطة وذات معنى وهو ما يؤدي إلى فتح مجال للعاملين للإبداع وتمكينهم من تقديم الخدمة المطلوبة، لذلك فإن الإعداد الجيد والتخطيط لإعادة الهندسة في الإدارة العامة يبدأ من المسؤولين والمدراء السامين من أجل تصميم العمليات المرتبطة بإعادة الهندسة وتخصيص الفريق الذي سيشرف على هذه العملية[24]، ومن ثم إدراجها ضمن الرؤى الإستراتيجية المرتبطة بتحقيق هذا الهدف، وهذا ما أكد عليه كل من "شان"و"شونغ" CHUNG and CHAN حيث أرجعا نسبة الإخفاق العالية لبرنامج إعادة الهندسة في الإدارة العامة إلى فشل القائمين على هذه العملية في دمج هذا البرنامج ضمن رؤيتهم وأهدافهم الإستراتيجية[25]، لذلك فإن الاستعداد المسبق لتبني هذا الأسلوب يعتبر أمرا أساسيا لنجاح تطبيقه، لأن التوجه نحو تطبيق هذا الأسلوب يتطلب خطة عمل واضحة المعالم ذات خطوت ثابتة مرتَبة زمنيا، وهذه الأشياء من شأنها أن تضع العاملين أمام

تحديات لا بد أن يتخذوا مواقف بشأنها، خاصة لما تكون هذه المؤسسات العامة في الانهيار ولا تستطيع المنافسة فإن على موظفيها في هذه الحالة رفع التحديات والاستعداد للتغيير الذي ينبغي أن تقوده الإدارة العليا وتتبناه.

2-على مستوى نظم العمل وإجراءات الأداء.

يعتبر موضوع الأداء من أهم المسائل المطرحة بحدة في المجالات العلمية من أجل حفاظ المؤسسات على بقائها خاصة في ظل التحديات التي تفرضها البيئة المعاصرة، ونتيجة لذلك فقد قامت العديد من المؤسسات بإعادة النظر في مخرجاتها والسُبُل التي يمكن أن تنتهجها لإرضاء زبائنها، لذلك يُعرف الأداء بأنه "درجة بلوغ الفرد أو الفريق أو المنظمة الأهداف المخططة بكفاءة وفعالية"[26]، فالأداء يقترن بتحقيق الكفاءة التي تعني تقليل التكاليف ومطابقة المقاييس، والفعالية تعني تحقيق النتائج في ضوء الأهداف المرجوة، وهذا ما يعني تحقيق القيمة المضافة، فرواتب الموظفين مثلا لا ينبغي أن يُنظر إليها من خلال الأقدمية إنما من خلال الإضافات المرتبطة بالأداء، هذا الأداء يتم قياسه بطرق دقيقة حسب مجموعة من المعايير المحسوبة بدقة[27]، وأهم هذه الطرق والنماذج نموذج الأداء المتوازن – الذي نشير إليه بالتحديد باعتباره يتوافق مع هذه الدراسة – الذي يعتبر أهم النماذج الحديثة لقياس الأداء، فهو "نظام شامل يتم بموجبه ترجمة إستراتيجية تنظيم الأعمال إلى أهداف ثم إلى مقاييس ثم إلى قيم مستهدفة وخطوات إجرائية واضحة"[28]، فهو يُعد نموذج رباعي الأبعاد بالنسبة إلى المنظورات التي يقوم عليها وهي: منظور الأداء المالي (المقاييس المالية المرتبطة بتحقيق أهداف المؤسسة وتحقيق القيمة المضافة)، منظور العلاقات مع الزبائن (المستفيدين من الخدمة) أي من حيث رضا الزبون ومختلف الاهتمامات التي يُوليها لموضوع الخدمة المقدمة، منظور العمليات الداخلية (حيث يتم تقييم العمليات الداخلية التشغيلية انطلاقا من الفعالية والكفاءة المطلوبة للأداء)، وأخيرا منظور التعلم والنمو (حيث يتم التركيز على القوة البشرية والمتطلبات التعليمية الواجب تطبيقها)[29]، كما نجد أنه من الإجراءات المطلوب تطبيقها في الإدارة العامة مبدأ العمل الجماعي، إذ لا مكانة للاعتماد على الكفاءات الفردية لتحقيق الأهداف، إنما يكون ذلك في إطار فرق عمل متعددة الاختصاصات تقوم على تفويض السلطة للإداريين المختصين بتقديم الخدمة، وكلما كان العمل بهذه الطريقة كلما استطاعت المؤسسة التنبؤ بحدوث المشكلات قبل وقوعها، كما يعتمد إعادة هندسة العمليات الإدارية على الاستثمار في تقنية المعلومات واستخدامها بشكل فعال، بحيث يتم

توظيفها في شكل أسلوب إبداعي لأنشطة العمل المختلفة، لذلك نجد الكثير من المنظرين الإداريين يربطون بين إمكانية تطبيق أسلوب إعادة الهندسة والاستفادة من تكنولوجيا المعلومات لتلبية احتياجات مستفيدين الخدمة وكذا من أجل إحداث التغيير الجذري داخل المؤسسة[30].

إن أسلوب إعادة الهندسة الإدارية يعني التخلي عن إجراءات العمل القديمة والتفكير بصورة جديدة ومختلفة في كيفية تقديم الخدمات وفق منظور الجودة الشاملة، فبفعل وجود برامج الأنظمة الخبيرة وبرامج أنظمة الدعم والتصميم والذكاء الاصطناعي سوف يتمكن فريق العمل من إيجاد عمليات مستندة إلى المعرفة وتمكين العاملين من التفاعل مع المعلومات في أي مكان، ومن ثم الابتعاد عن القرارات المركزية، واستغلال الوقت لإنجاز العمل المطلوب فلا يحتاج الموظف إلى مكان معين لاستلام وتخزين ومعالجة المعلومات، كما أن الخدمة ستقدم لمُستفيديها بأفضل صورة وفي أقرب الآجال الممكنة.

3- على مستوى الثقافة التنظيمية.

إن نجاح تطبيق أسلوب إعادة الهندسة الإدارية يتطلب إيجاد ثقافة تنظيمية إدارية مناسبة تعبر عن مجموعة من القيم والقواعد والمعايير وأنماط السلوك التي تؤثر في أعضاء التنظيم وكيفيات أدائهم، ثقافة تتأثر بما هو سائد في المجتمع وما يتطلبه ذلك من تحسين للخدمات المقدمة خاصة في ظل ازدياد المنافسة بين القطاع العام والقطاع الخاص، تنافس ازدادت حدَته تحت مظلة منظمة التجارة الدولية وقوانينها التي لا تعترف بأي تدعيم مالي أو حماية للمؤسسات التي لا تستطيع أن تُنافس[31]، كما أنه على المنظمات أن تنظر دائما وباستمرار في ثقافتها حتى تتناسب مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية المحيطة بها، وهو ما يسمى بإدارة الثقافة التنظيمية مما يساعدها على مواجهة الظروف الصعبة: كالأزمات، تغيير القيادة، زيادة حجم المنظمة...الخ[32] فالثقافة التنظيمية تؤدي إلى حرص العامل على الالتزام بالعمل ليس خوفا من التعليمات لكن انسجاما مع القيم السائدة، كما أن الثقافة التنظيمية تنشأ بفعل التفاعلات والممارسات والخبرات التي يمر بها التنظيم فترسي بالتالي مجموعة من السلوكات التي يراها إيجابية ويجب تعزيزها ويحارب الأخرى باعتبارها سلبية يجب نبذها، ومن بين هذه الآليات التي ينبغي اعتمادها لخلق الثقافة التنظيمية والمحافظة عليها[33]:

- طريقة اختيار الموظفين: يجب أن يتم اختيارهم على أساس أن لديهم صفات وتوجهات وخلفيات ثقافية مناسبة لثقافة التنظيم.

- الممارسات الإدارية: تتمثل في أنواع السلوكات والقيم التنظيمية غير المعلنة التي يتم تقديم المكافأة أو المعاقبة على ضوئها، بل هي الاختيار الحقيقي لطبيعة الثقافة التنظيمية.

- طرق التنشئة المتبعة: تعتبر التدريب أحد العوامل الأساسية للتنشئة ولتثبيت الثقافة التنظيمية، وغالبا ما يكون ذلك من خلال دورات تدريبية توجيهية يتعرف من خلالها الموظفون على الكثير من أهداف المؤسسة ومهامها وميزاتها عن بقية المنظمات الأخرى.

- الطقوس والرموز واللغة: حيث تعتبر من أهم الآليات غير الرسمية لتعزيز الثقافة التنظيمية، وذلك من قبيل: إقامة حفلات تكريمية للمتفوقين والمنجزين للأفكار التطويرية، وكذا للمناسبات الاجتماعية والثقافية، والرحلات والنشاطات التي يتم فيها ترسيخ قيم التعاون والتشارك والتفاعل بين العاملين، هذا إضافة إلى اللباس باعتباره قيمة رمزية تعزز صورة المنظمة وتخلق شعورا بالانتماء للتنظيم.

كما يعتبر الاتصال داخل الإدارة أحد العناصر الأساسية لتطبيق أسلوب إعادة الهندسة، حيث يعمل على تحقيق الانسجام والعلاقات الحسنة بين أفراد التنظيم، الأمر الذي يُساهم في تحقيق الرضا الوظيفي وتمكين العاملين، فقد أظهرت الدارسات العلمية أهمية العامل البشري والعوامل الإنسانية في تحقيق أهداف التنظيم من خلال الاتصال باعتباره عامل أساسي من عوامل إعادة الهندسة الإدارية[34]، الأمر الذي يجعل العاملين مخوّلين لاتخاذ قرارات ترتبط بأداء مهامهم وتحمل مسؤولياتهم في تنفيذ تلك القرارات، كما أنه من شروط تطبيق إعادة الهندسة الإدارية ضرورة تحفيز الموظفين على الإبداع والابتكار، لأن هذا الأسلوب يعتمد على التغيير الجذري لتحقيق الفعالية والكفاءة من خلال الاهتمام بالعمليات الإدارية، وهذه الجهود مجتمعة تتطلب مساهمة كافة أفراد الإدارة في إحداث عملية التغيير للتأثير في قناعات وسلوكات الموظفين وخلق قيم منفتحة مع جمهور المستفيدين، بل يجب أن تضع خدمتهم ودراسة متطلباتهم جوهر العملية التنظيمية.

الخاتمة

من خلال ما سبق يتضح أن ما ورثته الإدارة العامة من ممارسات وأفكار يُعد مكسبا لا بد من تثمينه لأنه خلاصة تجارب تاريخية، لكن الشيء الذي ينبغي أن نقف عليه بعد هذه الدراسة أن الإدارة العامة لا بد أن تستفيد من التطورات العلمية والممارسات والتجارب العملية الناجحة في إدارة الأعمال، فإعادة الهندسة الإدارية أصبحت اليوم من النماذج الرائدة التي تسعى لتطبيقها

أغلب مؤسسات القطاع العام والخاص، خاصة في ظل انتشار وتعميم منطق المنافسة، ودوافع الجودة الشاملة، وإرضاء الزبائن والعملاء، اعتماد نظام فرق العمل أو العمل الجماعي، ظهور مؤسسات خاصة تضطلع بتقديم خدمات ذات نوعية عالية، كل هذه العوامل مجتمعة تدعوا إلى ضرورة التفكير في تجاوز سلبيات البيروقراطية واحتكار تقديم الخدمة العمومية وكذا انغلاق التنظيم وجموده من أجل حل المشاكل المفروضة ومواكبة التغيير، وهذا ما يوفره أسلوب إعادة الهندسة في منطلقا ته الأساسية من أجل الوصول إلى تحقيق الكفاءة والفعالية.

ـ الهوامش:

1- رافيق بن مرسلي: "الأساليب الحديثة للتنمية الإدارية بين حتمية التغيير ومعوقات التطبيق: دراسة حالة الجزائر من 2001-2011" مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية جامعة مولود معمري، 2011 ، ص60.

2- عمار بوحوش: نظريات الإدارة الحديثة في القرن الواحد والعشرين. بيروت (لبنان): دار الغرب الإسلامي، 2006 ، ص 157.

3- المرجع السابق. نفس الصفحة.

4- رافيق: "الأساليب الحديثة للتنمية الإدارية بين حتمية التغيير ومعوقات التطبيق: دراسة حالة الجزائر من 2001-2011" ، مرجع سابق، ص61.

5- المرجع السابق، نفس الصفحة.

6- بوحوش: مرجع سابق. ص167.

7- المرجع السابق. ص- ص 166-167.

8- المرجع السابق. ص160.

9- هذا ما ذهب إليه العالمان الأمريكيان دافيد أزبورن DAVID OSBORN وتيد قيبلر TID GEABLER حينما استدلا على ما فعله الرئيس الأمريكي جون كيندي عندما طلب من علماء ناسا NASA أن يقوموا بمهمة إرسال رجل إلى سطح القمر وينجحوا في المهمة. أنظر: بوحوش: مرجع سابق. ص160.

10- عبد الكريم، محسن باقر أحلام، وآخرون: "إعادة هندسة تخطيط العملية في الشركات العامة للصناعات الكهربائية بالوزيرة ببغداد"، الملتقى الدولي الرابع حول المنافسة والإستراتيجيات التنافسية المؤسسات الصناعية خارج مجال المحروقات في الدول العربية، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، 08 سبتمبر 2010، ص09.

11 - محمد حسن عبد الباسط: علم الاجتماع الصناعي. القاهرة (مصر): مكتبة غريب، 1978، ص149.

12- المرجع السابق. نفس الصفحة.

13- المرجع السابق. نفس الصفحة.

14- أسابيع صباح: "التنظيم البيروقراطي والكفاءة الإدارية" مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع تنمية الموارد البشرية، جامعة منتوري قسنطينة، 2006-2007، ص20.

15- صالح بن نوار: "فعالية التنظيم في المؤسسات الاقتصادية " الجزائر: مخبر علم الاجتماع والاتصال للبحث والترجمة، جامعة قسنطينة، 2006، ص144.

16- مداس فاروق: التنظيم وعلاقات العمل. الجزائر: مؤسسة الإخوة مدني، 2002، ص11.

17- نعني بهم المنظرين المتأخرين الذين عاشوا ما بين القرن العشرين وبداية القرن الحالي من أمثال: روبرت ميرتون، فيليب سيلزنك، بلاو، ألفن جولدنز،حيث كانت لهم وجهات نظر مختلفة عن سابقيهم.

18- محمد علي محمد: علم اجتماع التنظيم: مدخل التراث والمشكلات. الاسكندرية (مصر): دار المعرفة الجامعية، 2003، ص105.

19- علي السلمي: تطور الفكر التنظيمي. ط2، الكويت: وكالة المطبوعات، 1980، ص40.

20- أسابيع: "التنظيم البيروقراطي والكفاءة الإدارية" مرجع سابق، ص- ص 33-40.

21- لقد قامت أكثر من 70٪ من الشركات الأمريكية بتطبيق برنامج إعادة الهندسة الإدارية في بيئة الأعمال خلال التسعينات لمواجهة متغيرات السوق الدولية، حيث قامت هذه الشركات باستثمار ما يقارب من 50 مليار دولار أمريكي في هذا الشأن، ويتوقع أن تدخل أكثر من 75٪ من الشركات الأمريكية خلال السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين في أشكال إعادة الهندسة وستكون فوائدها مرتفعة جدا لقناعتها بذلك.

22- رافيق بن مرسلي: "الأساليب الحديثة للتنمية الإدارية بين حتمية التغيير ومعوقات التطبيق: دراسة حالة الجزائر من 2001-2011" مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية جامعة مولود معمري، 2011 ص 72.

23- مراد محبوب: "استخدام إستراتيجية الهندسة الإدارية في تحسين جودة الخدمات المصرفية" أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير جامعة بسكرة، 2014/2013، ص26.

24- المرجع السابق، ص18.

25- محمد خير طيفور: إعادة هندسة الأعمال الإدارية وسيلة لتحقيق التميز التنافسي للمنظمات المعاصرة. سوريا: جامعة حلب، 2006، ص10.

26- أحمد سيد مصطفى: إدارة البشر الأصول والمهاراة. (د د ن)، 2002، ص415.

27- هناك خمسة نماذج لقياس الأداء جمعها الباحث بوليام BOULIAMME وهي كالتالي: نموذج هرم الأداء، نموذج المحددات والنتائج، نموذج أصحاب المصالح، مصفوفة الكفاءة التنظيمية، نموذج قياس الأداء المتوازن.

28- مزغيش عبد الحليم: "تحسين أداء المؤسسة في ظل إدارة الجودة الشاملة"، مذكرة ماجستير في العلوم الجارية – فرع التسويق- كلية العلوم الاقتصادية جامعة الجزائر، 2012/2011، ص35.

29- المرجع السابق، ص- ص 38-41.

30- J.PARKER, GUIDE TO BUSINESS PROCESS REENGINEERING, MAY,1993, P29.

31- بوحوش: مرجع سابق.ص166.

32- محمد قاسم القريوتي: نظرية المنظمة والتنظيم. ط03، الأردن(عمان): دار وائل للنشر، 2008، ص- ص 384-383.

33- المرجع السابق. ص- ص 379- 381.

34- عبد الرحمان تيشوري: "تحسين أداء القطاع العام". www.30.dz.justgoo.com. أطلع عليه تاريخ: 2016/09/20.

The role of administrative re-engineering in the fight against the disadvantages of bureaucracy

Dr. El-Hadi DOUCH*

Abstract:

The increase of the concurrence intensity and the rise of the level of customers expectations on managements level made its rising to realize the ability of accomplishing performance and distinction, especially under the spread of technologies of information and communication and the electronic service, also the spread of the exhaustive quality _ thus, we find many challenges became the responsibility of this administration to carry out a revolution against the traditional administrative solutions that focus on the progressive improvement and development. Therefore, we find that more than 70% of affairs American associations have stepped ahead seriously for this purpose since the ninetieth and have made a great success. the fact called for the necessity of reflection in the possibility of applying the reengineering Business style to the public administration, particularly the majority of had countries suffer from bureaucracy end complexities of the official organization. What is the utility of applying this style in the public administration?

Key words: Reengineering Business, public administration, Bureaucracy, official organization.

* Faculty of Law and Political Science - University of El-oued - Algeria.

الإدارة بالأهداف في المؤسسات بين النظرية والممارسة

بقلم
د/ مصطفى بلعور(*)

ملخص

يعتبر موضوع الإدارة بالأهداف من المواضيع الهامة في حقل العلوم الإدارية، ذلك أن يعالج كيفية الرفع من الكفاءة في الأداء الإداري من جهة، وأهمية الرقابة الذاتية أو الضمير المهني في العمل الإداري من جهة ثانية، خاصة وأن الدول النامية هي في أمس الحاجة إلى الوعي بالخدمة وبالهدف حتى يهتم بها الموظفون والعاملون في مؤسساتهم.

إن تطبيق نظام الإدارة بالأهداف كمنهج وأسلوب عملي جديد في تسيير وإدارة المؤسسات وتحقيقه لنتائج جد مهمة خاصة في الشركات الغربية التي طبقته، يدل على فاعليته وأهميته في المنظمات الإدارية والاقتصادية على حد سواء.

الكلمات المفتاحية الدالة: الإدارة بالأهداف- المؤسسات- المؤسسة العمومية الاقتصادية- إدارة المنظمات بالأهداف.

مقدمة

إن تحقيق أهداف التنمية البشرية خاصة في البلدان النامية، لن يتحقق بمجرد التوسع في الزيادة في عدد المؤسسات وحشدها بأكبر عدد من الإداريين والفنيين وتوفير الوسائل المالية والمادية فحسب، بل هناك جانب آخر بالغ الأهمية للرفع من مستوى الكفاءة الإدارية والإنتاجية، ألا وهو الاستراتيجية والأسلوب العقلاني والرشيد في إدارة المؤسسات. يندرج أسلوب الإدارة بالأهداف ضمن هذا الإطار لأن وضع الخطة الكفيلة بتنظيم المؤسسات ورسم سياساتها بحيث تكون قائمة على أهداف، سواء قريبة المدى أو بعيدة المدى ترجع كلها إلى الإطار العام للأهداف التي وجدت من أجلها المنظمة.

إن تطبيق نظام الإدارة بالأهداف كمنهج وأسلوب عملي جديد في تسيير وإدارة المؤسسات

(*) أستاذ محاضر "أ" بقسم العلوم السياسية ـ كلية الحقوق والعلوم السياسية ـ جامعة ورقلة.

وتحقيقه لنتائج جد مهمة خاصة في الشركات الغربية التي طبقته، يدل على فاعليته وأهميته في المنظمات الإدارية والاقتصادية على حد سواء، ذلك أنه نظام يقوم على وضع الأهداف للمؤسسة ككل في شكل خطوط عريضة، ثم وضع أهداف كل منصب من المناصب الإدارية وربط تلك الأهداف ببعضها البعض بحيث تكون هذه الأخيرة هي الأصل لكل نشاط أو تغيير من أجل التحسين والتقييم. ضمن هذا السياق يمكن طرح الإشكالية التالية:

ما هي مرتكزات نظام الإدارة بالأهداف؟ وكيف يمكن للمؤسسات الاستفادة منه في التسيير الإداري الناجح؟

ستكون الإجابة على الإشكالية من خلال النقاط التالية: أولا : مفاهيم الإدارة بالأهداف، ثانيا: أسباب فشل المؤسسات في أهدافها، ثالثا: أسس نجاح المؤسسات في أهدافها، رابعا : نماذج تطبيقية لنظام الإدارة بالأهداف، وخامسا: موقع المؤسسة العمومية الاقتصادية الجزائرية من الإدارة بالأهداف.

أولا: مفاهيم الإدارة بالأهداف:

تعددت مفاهيم الإدارة بالأهداف ويرجع ذلك إلى الاتجاهات الإدارية والخلفيات الفكرية لكل مفكر. إنصافا للحقيقة يجب التذكير بأن "بيتر دركر" "Peter Derker"، يعتبر أول من نادى بالإدارة بالأهداف سنة 1954، حيث يرى أن المنظمات الإدارية تحتاج إلى مبدأ بفسح المجال للفرد لتحقيق القوة الذاتية والمسؤولية وفي نفس الوقت يعطي توجها بوحدة الرؤيا الشاملة، كما ينشئ روح الفريق وينسق أهداف الأفراد في أهداف عامة مشتركة، إن المبدأ الوحيد الذي يمكن أن يحقق ذلك هو « الإدارة بالأهداف والرقابة الذاتية ». [1]

أما المفكر "موريسي Morrisey" فيضع تعريفا مبسطا للإدارة بالأهداف ويرى « أنها إدارة تحوي أهدافا أو نتائج متوقعة واضحة ومحددة،كما تحوي وضع برامج واقعية لتحقيق تلك الأهداف وتقييم الأداء في ضوء قياس النتائج » ويضيف قائلا : « إن الإدارة بالأهداف والنتائج ليست أسلوبا تكنولوجيا للإدارة مبتكرا حديثا ولكنه مجرد منهج منطقي واضح للإدارة ».[2]

أما المفكر " كارل البرخت Karl Albreche " يرى أن الإدارة بالأهداف هي : « عبارة عن أنماط وسلوك أي إتباع نمط معين والقيام بتصرفات سلوكية من طرف المدير الإداري الذي يتميز عن غيره بدراسة النتائج المتوقعة في المستقبل ثم يقوم بتهيئة الظروف المناسبة لمواجهة التطورات المستقبلية، وذلك عن طريق حسن تجنيد وتوجيه العناصر البشرية بالمؤسسة وتحقيق الأهداف المنشودة التي تعود بالفائدة عليه وعلى العاملين في مؤسسته».[3] أما بالنسبة للمؤسسات والإدارات لابد أن تكون لها أهداف محددة وواضحة تسعى لتحقيقها، وبالتالي تكون قد أنجزت

أهدافها المحددة ضمن الإستراتيجية العامة، وعليه انطلاقا من الأهمية المعطاة للهدف، يقرر "تشيستر برنارد" أن التنظيم عبارة عن «نظام من الأنشطة المتعاونة لشخصين أو أكثر، وأن النشاط المتعاون يمكن تحقيقه عندما يتم الاتفاق على الأهداف».(4)

أما الأستاذ "محمد علي شهيب" يرى أن الإدارة بالأهداف عبارة عن إستراتيجية حيث يقول « تعتبر إستراتيجية الإدارة بالأهداف عن الأسلوب الذي تتبعه الإدارة للتخطيط والحصول على النتائج في الاتجاه الذي ترغبه وتحتاجه بحيث يؤدي في نفس الوقت إلى تحقيق أهداف العاملين وضمان رضاهم».(5)

يعني نظام الإدارة بالأهداف وضع أهداف للمؤسسة أو لجزء منها كأساس لتحقيق كفاءة أكبر، وتهيئة الحوافز والبواعث للمديرين،وفي طريقة الإدارة هذه تحدد العوامل التي تعوق تحقيق الأهداف، وتتخذ الإجراءات المناسبة للتغلب عليها وتقييم النتائج بصورة دورية وتوضيح أهداف جديدة للمؤسسة حيث تدعو الضرورة لذلك. (6)

رغم تعدد التعاريف بشأن الإدارة بالأهداف،إلا أنها في مجملها تركز على ضرورة وجود أهداف واضحة ومحددة يتفق على وضعها كل من الرؤساء والمرؤوسين وفي هذا الصدد يؤكد "سيد الهواري" على أهمية الأهداف ووضوحها بقوله:« لكي تكون الأهداف واضحة ومفهومة فإنه يجب أن تكون مكتوبة وموزعة على الأشخاص ويحتفظ كل فرد بنسخة منها ليس في مكتبه أو في ملفاته ولكن يجب أن تكون أمامه بشكل ظاهر....إن الأهداف تحدد الاتجاه العام للمجهودات الجماعية،فلا يمكن تصور جهد جماعي فعال دون أهداف إنها تجعل من السهل التنسيق بين جهود هؤلاء الأفراد فعندما يعرف كل من في المجموعة الأهداف المطلوب الوصول إليها فإنهم يعملون متعاونين للوصول إليها بأقل درجة ممكنة من الصراع التنظيمي ».(7)

تعد الأهداف بمثابة المنارة التي ترشد الناس نحو الغاية التي ينشدونها، وبدونها تصبح الأمور تسير بعشوائية، ومن ثم يتعين على المنظمات الإدارية والقائمين عليها تحديد الأهداف الأساسية والفرعية بوضوح.

ثانيا: أسباب فشل المؤسسات في أهدافها:

إذا كان أسلوب الإدارة بالأهداف قابل للنجاح، فهو كذلك معرض للفشل ذلك أن هناك بعض الصعوبات والعوامل التي تحول دون نجاح المؤسسات في تحقيق أهدافها ما دامت بها أنماط وسلوكيات تقليدية في التسيير وعراقيل نذكر أهمها:

1- تعدد وجهات ومستويات الإشراف والرقابة،ومن ثم هناك خضوع لرقابة مركزية شديدة،وميول بعض المسؤولين لإرضاء الرؤساء بدلاً من إرضاء الضمير المهني، بالإضافة إلى

الخلط بين المصلحة العامة والمصالح الشخصية في العمل وعدم الالتزام بالأهداف المسطرة للمنظمة بشكل رسمي.

2- عدم وجود استراتيجية متكاملة وتقليد جهات معينة وتجاهل الأسلوب الذي يتلاءم والظروف المحلية،بالإضافة إلى الخوف من التغيير وعواقب إحلال أساليب جديدة محل الأساليب التقليدية القديمة،نظراً للتعود على أسلوب معين في العمل وصعوبة التخلص منه،كما أن نجاح الإدارة بالأهداف يتطلب تهيئة الظروف المناسبة، والتمهيد لعملية التغيير حتى يتم تقبل طرق العمل الجديدة [8].

3- عدم تقبل النقد، وقلة الرغبة في الاستفادة من ملاحظات الآخرين - ففي بعض الأحيان- تتخذ القرارات حسب الحالة النفسية والمزاجية للإنسان، وقد تتخذ تحت تأثير وضغط من عناصر خارجية، أضف إلى ذلك الأمور الروتينية الشكلية عند تشكيل لجان مثلا للبث في قضايا استعجالية وإطالة النقاش حولها دون جدوى.

4- نقص الإطارات الكفؤة والحاصلة على مهارات فنية وخبرات عملية وصعوبة الحصول على الإمكانات المادية الكافية لتمويل المشاريع الطموحة، أو حتى محاولة الاستثمار في الميدان الاقتصادي.

5- فرض قيود مالية وقانونية على أجهزة العمل المستوردة وتكليف بعض المسؤولين بإنجاز مشاريع ضخمة بميزانيات تقدر بملايين الدنانير، لكن حركاتهم مقيدة، وكلماتهم غير مسموعة[9]. من المقومات الأساسية لنظام الإدارة بالأهداف، ضرورة وجود نظام مالي مرن يتصرف بالاستقلالية في تمويله ونفقاته على المؤسسة وعلى العاملين بها.

إن القادة الإداريين ملزمين - خاصة في الدول النامية- التي تعاني مؤسساتهم الاقتصادية من مشاكل إدارية- أن يعوا حقيقة الأساليب العلمية والعملية الكفيلة بإنجاح مشاريع الأعمال، دون إهمال دور العنصر البشري في العملية الإنتاجية وأهمية تدريبه وتزويده بمختلف الأساليب الحديثة في الإدارة والتسيير حتى يستفيد منها في الميدان، ومن ثم يحقق أداء مميزا في عمله.

ثالثا: عوامل نجاح المؤسسات في أهدافها:

من أجل نجاح الإدارة بالأهداف في المؤسسات لابد من توفر مجموعة من العناصر، والعمل على التنسيق بينها، ولعل من العوامل الأساسية لنجاح المؤسسات نذكر ما يلي:

1- لابد من تهيئة الظروف الملائمة للإدارة بالأهداف باعتبارها تحوي على درجات متفاوتة من التغيير، وتكون هذه التهيئة عن طريق إيجاد إحساس عند الأشخاص العاملين بالمنظمة وإقناعهم بفاعلية هذا الأسلوب لدفع المنظمة إلى الأمام، وفي هذا المجال لابد من توفير مجموعة من العناصر هي[10]:

- وحدة الهدف والرؤيا بالنسبة للعمل، والتنظيم الملائم وتحمل المسؤولية جماعيا.
- علاقة جيدة واحترام متبادل بين الرؤساء والمرؤوسين وتشاورهم مستمر بينهم.
- وجود التزام مهني ورقابة ذاتية من طرف كل عامل.
- تدريب العاملين على وضع الأهداف وتطبيق خططهم بأنفسهم.
- تصميم الأهداف بطريقة عملية وقابلة للتحقيق، مع المراجعة الدورية لكل الأعمال.

2- اعتماد الإدارة بالأهداف كأسلوب للتطوير التنظيمي، يقوم على منهج للتغيير من أجل بعث روح الفريق، وخلق تقاليد الديمقراطية والمشاركة في الإدارة، والتفويض الحقيقي للسلطات. وفي هذا الصدد يقول الكاتب "جورج جانت" في كتابه "إدارة التنمية" ما يلي: «... من العناصر الأساسية للمؤسسة، التحديد الواضح للأهداف والسياسات والبرامج، وأساليب العمل، كما أن من بينها أيضا السلطة الشرعية، وضرورة التفويض في السلطات الإدارية وتسيير العمل بالكفاءة المطلوبة ووضوح التكليف بالنسبة لأهداف المنظمة برامجها وكلها عوامل لها أهميتها بالنسبة للحكومة ولمشروع التنمية».[11]

3- لابد من الاهتمام بالجانب الإنساني ذلك أن أهم وأعظم عنصر في أي تغيير هو الإنسان. يشمل الجانب الإنساني عدة عناصر منها: القيم الشخصية، العلاقات غير الرسمية، الطموح الشخصي والقدرات الفكرية، والعاطفية لكل إنسان.[12] في نفس السياق يؤكد المفكر "بيتر دراكر" رائد الإدارة بالأهداف على ضرورة إخضاع النظام التعليمي إلى الجانب الإنساني حتى يتم تحقيق أهداف المنظمة، حيث قال "دراكر" عام 1959 في كتابه "معالم المستقبل": « إن النظام التعليمي الذي نحتاج إليه لا يمكن أن يكون نظاما فنيا، مع أنه ستكون له نطاقات فنية عديدة... بل يجب أن يكون إنسانيا حقا: مبنيا على آدميين متحدين في نظرة عامة وعاملين للوصول إلى هدف عام، وإن كانوا ينفذون أعمالهم فرديا، ويجب أن ترتكز المعلومات، المعارف، الأحكام، القيم والتوقعات على القرار والعمل والانجاز والنتائج... وبالتالي فإن النظام التعليمي للإدارة يجب أن يحدث تغذية من جميع الميادين المعرفية المعالجة للتجربة البشرية.» [13]

4- ضرورة التركيز على النتائج باعتبارها المدلول الأساسي للإدارة بالأهداف، حيث أن العديد من المفكرين يربطون بين الأهداف والنتائج. [14]

من هنا تتضح أهمية تحديد الأهداف والنتائج ومجالاتها، وأي خطأ فيها سيؤدي في النهاية إلى انهيار كل شيء. إن تحديد الأهداف وإرجاع الأثر أي التقييم المبني على النتائج يعتبر من المستلزمات الأساسية للإدارة بالأهداف ومؤدى ذلك أن المدير سوف يوفر المعلومات على فترات يمكن التنبؤ بها، حول مدى توافق الأداء مع المعايير، وإلى أي مدى يمكن تحقيق

الأهداف، ويبدو أن إرجاع الأثر، من خلال تقييم الأداء هو العنصر الأساسي في الاستخدام الناجح لتحديد الأهداف من أجل تحسين العمل والأداء الإداري في المؤسسة. (15)

تستوجب عملية تحديد الأهداف الأسس التالية: (16)

- أن تكون الأهداف واضحة وممكنة التحقيق.
- أن تكون هناك خطة زمنية محددة لذلك.
- أن تكون الأساليب والمناهج مضبوطة في العملية.
- أن تكون النتائج مقررة سلفا للبدء في مرحلة ما بعد تحقيق الهدف.
- أن تكون الأهداف من الإنسان وللإنسان وبواسطة الإنسان. دور الإنسان.
- أن تكون الأهداف محاطة بالعناصر البشرية والوعي الجماعي.
- أن تكون الأهداف متفرقة وموضوعة بين الهدف الإستراتيجي والهدف التكتيكي.

تكلم هي أهم النقاط أو العوامل التي يتوقف عليها نجاح المؤسسات في تحقيق أهدافها.

رابعا: نماذج تطبيقية لنظام الإدارة بالأهداف:

لعله من المفيد للتدليل على الأفكار التي طرحت حول نظام الإدارة بالأهداف، ومدى نجاعته كأسلوب للتطوير التنظيمي والاقتصادي، أن نذكر ببعض الشركات الكبرى التي طبقت الإدارة بالأهداف سواء في أوروبا أو في الولايات المتحدة الأمريكية ومن أشهر هذه التجارب ما يلي:

-شركة جنرال موتورز – شركة جنرال إيليكتريك – شركة جنرال ميلز

-شركة سوكوني موبل أويل – شركة ستاندر أويل – شركة هونيويل

-شركة سانت ريجس للورق – شركة 3 إم – شركة كمبرلي كلارك – شركة طيران ك ل م(17)

إلا أن هناك أنماط عديدة لبرامج الإدارة بالأهداف، وبقدر ما هناك منظمات تستخدم هذا الأسلوب إلا إن بعض التجارب وأمثلة التطبيق المعروفة تستحق الدراسة للاستفادة منها. سنركز في هذا الإطار على تجربتين لشركات طبقت نظام الإدارة بالأهداف باعتبار أن كل واحدة ركزت على حل مشكلة جزئية.

- تجربة شركة جنرال ميلز:

طبقت هذه الشركة الإدارة بالأهداف لحل مشكلة جزئية في الإدارة، ألا وهي مشكلة الحوافز. لقد كانت الشركة عام 1954 تطبق برنامج أداء مبني على الحوافز، إلا أنها وقعت مع نهاية الخمسينات من القرن العشرين في مشكلة اضطرت على إثرها إلى تغيير طريقة قياس الأداء في الشركة فأصبحت المحاسبة في ضوء الأهداف المخططة، فمن قبل كان البرنامج الأصلي يقوم أساسا على برنامج للحوافز مبني على تقييم الأداء ولم يكن في يوم من الأيام منهج إدارة، وفي عام

1961 تقرر أن تكون الإدارة، إدارة بالأهداف، أما في عام 1971، فقد حدث تغيير كبير حيث خفت حدة تدخل إدارة الأفراد في الشركة، وبدأ مجلس الإدارة، وكبار المديرين في التفكير في وضع أهداف للشركة برُمتها أي النتائج المتوقعة ككل، ومن تم أصبح أسلوب الإدارة بالأهداف هو السائد في شركة جنرال ميلز. (18)

لقد غيرت شركة "جنرال ميلز" من أسلوب تسيرها السائد في الخمسينات أو الستينات، حيث أصبحت الإدارة بالأهداف ليست مجرد برنامج في المؤسسة وإنما طريقة للإدارة.

– تجربة شركة جنرال إليكتريك:

تعتبر شركة "جنرال إليكتريك" من التجارب الرائدة التي طبقت الإدارة بالأهداف في مجال تخطيط ومراجعة العمل، لقد طور جنرال إليكتريك صورة من الإدارة بالأهداف تسمى تخطيط ومراجعة العمل.

لقد نشأ برنامج جنرال إليكتريك من بعض التجارب التي أجرتها الشركة في سبيل تحديد الأهداف، وقد قيل أنه في ظل منظومة تخطيط ومراجعة العمل أظهر العاملون سلوكات أفضل، وبدأ المديرون يعملون بشكل مباشر وثيق الصلة بأولئك المسؤولين أمامهم، كما أصبح أعضاء المنظمة أكثر استعدادا لتقبل الأفكار الجديدة. (19)

نظرا للنتائج الإيجابية للإدارة بالأهداف في شركة جنرال إليكتريك فقد كان لها أثر كبير في الأخذ ببرنامج تخطيط العمل ومتابعته باعتباره شكل من أشكال الإدارة بالأهداف، وفي ظل هذا البرنامج لا يبحث المرؤوسون عن عموميات الأهداف وإنما يبحثون عن أهداف محددة وقابلة للقياس، بالإضافة إلى تحديدهم إلى مقاييس أو معايير لقياس الأداء، ومن ثم فإن أهداف إدارتهم تستمد من أهداف الإدارات العليا التي ينتمون إليها.

خامسا: موقع المؤسسة العمومية الاقتصادية في الجزائر من الإدارة بالأهداف:

باستقراء تطور المؤسسة الاقتصادية في الجزائر منذ تبني قانون التسيير الاشتراكي للمؤسسات العمومية عام 1971، مرورا بالإصلاحات التي أعلنت عنها السلطة آنذاك والتي تمثلت في إعادة الهيكلة العضوية والمالية للمؤسسات عام 1980و1982، ثم القانون التوجيهي للمؤسسة العمومية الاقتصادية رقم 01/88 الصادر في جانفي 1988 والمعروف بقانون استقلالية المؤسسات، يتضح العجز الهيكلي والمالي للمؤسسة العمومية الاقتصادية في التسيير والإنتاج، وتجلى ذلك خاصة بعد الانخفاض الكبير لمداخيل النفط عام 1986 وهو ما كشف عن تناقضات في المؤسسة العمومية الاقتصادية، نظرا لعدم التوافق بين الوسيلة والغاية وإلى درجة أن كل العمال كانوا يحصلون على أجورهم، أضف إلى هذا الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها، بغض

النظر عما حققوه من أهداف وإنجازات، ومدى ما وصلوا إليه من نتائج إيجابية ونتساءل هنا عن مصدر تمويل هذه المؤسسات خاصة إذا علمنا أن معظمها كانت عاجزة.

إن الممول الرئيسي للمؤسسات العمومية في الجزائر هو الخزينة العمومية وبكلمة أدق هو مداخيل الريع البترولي وبما أن كل مؤسسة كانت تضم آلاف العمال بمن فيهم العاملين المجدين وغير المجدين في أعمالهم ومناصبهم كانوا يحصلون على الامتيازات كالمكافآت والترقيات، في حين إن نظام الإدارة بالأهداف يتطلب ربط مثل هذه الأمور بما يحققه الفرد من أهداف ونتائج إيجابية في ميدان نشاطه.

انطلاقا من قانون التسيير الاشتراكي للمؤسسات، نجد أن السلطة آنذاك حاولت رد الاعتبار للطبقة الشغيلة، وأرادت أن تعهد إليه بمهمة المساهمة في إقامة الاقتصاد الاشتراكي، باعتبار أن السلطة كانت تحمل في خطابها الرسمي شعار دولة العمال. من خلال تفحص قانون التسيير الاشتراكي للمؤسسات نلاحظ أنه يمنح للعمال –نظريا – صفة المسيرين من خلال مجالس العمال، ففي الأمر رقم 74/71 وخاصة المواد (31)، (36)،(37) من الفصل الثالث والمتضمن وظيفة مجلس العمال، يتضح جليا أن اختصاصات هذا المجلس هي عبارة عن إبداء الاستشارة كقاعدة عامة في مجال إعداد الخطة وطرق تنفيذها، فمثلا المادة (31) تنص: « يشترك مجلس العمال مع المديرية في إعداد سياسة الموظفين والتكوين المهني » أما في المادة (36) :

« يستشار مجلس العمال في كل إصلاح أساسي يتعلق بوضعية العمال »[20] بالإضافة إلى اختصاصاته الاستشارية في مسائل تعديل القانون الداخلي للمؤسسة. أما السلطة الفعلية فهي في تجديد مجلس المديرية حيث يعتبر هو المسير الفعلي للمؤسسة تحت وصاية المدير العام وسلطته. وعليه بات من الواضح أن مشاركة العمال في وضع أهداف المؤسسة كانت شكلية، بينما الأهداف الكبرى والقرارات المصيرية هي بيد المدير العام.

إن المنطق الذي كان سائدا آنذاك خاصة في ظل المرحلة الاشتراكية جعل لكل مؤسسة عمومية، ميزانية من خزينة الدولة، حيث أن هذه الأخيرة هي التي تتكفل بالعجز المالي لهذه المؤسسات، وهو ما يعني عدم محاسبة كل من المديرين والعمال المسيرين على مدى تحقيقهم لأهداف المنظمة، وهو ما يؤدي إلى تفشي ظاهرة الفساد الإداري كالاختلاسات والرشوة والمحسوبية،، وتحقيق المصالح الشخصية على حساب مصلحة المؤسسة.إن مصدر تراكم هذه التناقضات إنما يعود إلى انعدام المرجعية والاستمرارية في عمليات بناء الاقتصاد الجزائري، منذ استرجاع السيادة الوطنية بحكم غياب معايير اقتصادية، وحقيقة ثابتة من جراء هيمنة الدولة على كافة قطاعات المجتمع وإخضاع عملية تسيير الشؤون العمومية إلى منطق سياسي بعيد كل البعد

عن العقلانية والموضوعية. (21)

أصابت الأزمة الاقتصادية- منذ منتصف الثمانينات- بنية الاقتصاد الوطني، خاصة مع انهيار أسعار النفط، مما دفع بالسلطة في تلك الفترة إلى البحث عن أنجع الوسائل لتحقيق الفعالية الاقتصادية، وتطوير المردودية المالية والإنتاجية للمؤسسة الاقتصادية العمومية وللجهاز الاقتصادي عامة.

لقد وجد المشرع الجزائري في نموذج التسيير الليبرالي القائم على نمط الصناعات المتوسطة والصغيرة الطريق الأمثل الذي ينبغي الاعتماد عليه قصد التأثير في الاقتصاد الوطني بصورة جذرية، بغية وقف حالة التدهور والانتقال من اقتصاد توزيعي إلى اقتصاد إنتاجي يقوم على قوى السوق. (22)

بالرغم من لجوء السلطة في ثمانينات القرن الماضي إلى إعادة تنظيم المؤسسة العمومية الاقتصادية على أسس جديدة انطلاقا من قانون استقلالية المؤسسات سنة 1988، والذي مس الجوانب التنظيمية للمؤسسة الاقتصادية وطبيعتها القانونية، لتشمل فيما بعد قواعد التنظيم الاقتصادي من خلال طبع أعمال المتعاملين الاقتصاديين بالصفة التجارية، إلا أن المنطق الإداري للدولة بقي هو المسيطر على كل المؤسسات، بحيث لم تأخذ الصبغة التجارية بل بقيت الدولة هي التي تسيرها، وتتكفل بإعادة هيكلته ماليا من خلال مسح مديونتها في كل مرة.

إن الإصلاحات التي جاء قانون استقلالية المؤسسات ووجود أجهزة إدارية بالمؤسسات كمجلس الإدارة ومجلس المراقبة لإدارة الشركة حسب المادة (36): « يتولى إدارة المؤسسة العمومية الاقتصادية المنظمة في شكل شركة مساهمة، مجلس إدارة...» (23)، لم تمنع من خروج الدولة في دائرة الاقتصاد بل بقيت هي المسؤولة على توجيه المؤسسات، باعتبارها المالك الحقيقي لأسهم المؤسسات.إن أسلوب التسيير الإداري الممارس طيلة الثلاثة عشريات الماضية أنتج ما يمكن تسميته " بثقافة الاحتكار " لدى منظمي الاقتصاد الوطني، كما أن النزعة المركزية لا تزال تسيطر على تصرفات وذهنية القرار الاقتصادي. (24)

مما سبق يتضح أن هذه المؤسسات العمومية الاقتصادية لم تحقق أهدافها،كما أن الرقابة الذاتية- وهي مرتكز أساسي في نظام الإدارة بالأهداف- والتي من المفروض أن يتحلى بها كل عامل في المؤسسة العمومية لم تأخذ مجراها، وإلا كيف نفسر ضعف الإنتاجية والمردودية الاقتصادية، رغم تخصيص الدولة جزء من أموال الخزينة العمومية للتكفل بالعجز المالي لتلك المؤسسات.

أدى تدهور الوضعية الاقتصادية للمؤسسات العمومية الاقتصادية إلى لجوء صانع القرار في كل مرة إلى تغيير الأساليب التنظيمية وز الإدارية لهذه المؤسسات، فمن صناديق المساهمة إلى نظام المجمعات أو الشركات القابضة إلى أسلوب الخصخصة وهو ما يدل على عدم التحكم الكافي في وظيفة تسيير المؤسسات ذلك أن القائمين على الجهاز الإداري والمسيرين لم يبذلوا جهودا كافية

قصد الاستفادة من فرص الاقتصاد الوطني.

أبانت التحديات الاقتصادية منذ عام 1986 ومطلع 2016 أن الاقتصاد الجزائري لا يزال رهين التقلبات الاقتصادية الخارجية،خاصة وأن أسعار البترول والغاز تحددها الأسواق الدولية الخارجية وليس الدول المنتجة للمحروقات، مما يتطلب من صانع القرار تنويع مداخيل الاقتصاد الوطني ومرتكزاته الأساسية كتشجيع قطاع الفلاحة، السياحة، الصناعة وإعطاء أهمية أكبر للشراكة بين القطاعين العام والخاص في تنفيذ البرامج التنموية.

تستوجب المعادلة الاقتصادية الصحيحة إعادة رسم استراتيجية شاملة للنهوض بالمؤسسات الاقتصادية من خلال الاهتمام بالوسائل التنظيمية والإدارية الرشيدة التي تتحكم في العمليات الإدارية وبالتالي تساعد على تحقيق أهداف التنمية الوطنية. إن الإدارة التي يجب أن نأخذ بها هي الإدارة الجديدة القائمة على الأسس والخصائص التالية : إدارة الأهداف، إدارة بالإنسان وللإنسان، إدارة علمية، إدارة عملية، إدارة تستهدف التغيير، إدارة استراتيجية. (25)

ضمن نفس السياق يمكن القول أن المؤسسة العمومية الاقتصادية بقيت تحت حماية الدولة مما جعل العاملين بها في مأمن، ولذا نجد أن معظم المسيرين لا يبذلون الجهد الكافي للنهوض بمؤسساتهم وتطويرها، في ظل عدم تشجيع القطاع الخاص المنافس لها على مستوى السوق الوطنية.

إجمالا يمكن القول أن الجزائر شهدت إصلاحات شكلية فقط على مستوى المؤسسة العمومية الاقتصادية، سواء في الجانب التنظيمي أو الهيكلي، بينما بقيت نفس أساليب التسيير الإداري التقليدية، وبقيت البنية الاقتصادية نفسها، وإن كانت الدولة قد أوجدت نصوصا قانونية كثيرة، غير أن عدم التحكم في وظائف الإدارة، وانعدام الشفافية في التسيير، بالإضافة إلى اختلاس الأموال العمومية بقي السمة البارزة على أغلب مؤسساتنا الاقتصادية العمومية.

الخاتمة

أحدث نظام الإدارة بالأهداف تغيرا جذريا في استراتيجيات العمل التنظيمي، وبالتالي كان لهذا النظام -كأسلوب جديد للإدارة وكفلسفة- أثرا كبيرا على الفكر الإداري، خاصة وأن الفكر الإداري الكلاسيكي ركز على العمل والإنتاجية، في حين ركز الفكر الإداري السلوكي على الإنسان، إلا أن الإدارة بالأهداف تميزت بتركيزها على أهداف المؤسسة من جهة، وعلى الإنسان كعنصر فاعل في الإدارة من جهة ثانية، له أهداف يسعى إلى تحقيقها كالأجر والترقية والمكافآت وغيرها وهي كلها مرتبطة بالأهداف والنتائج المحققة.

تقوم الإدارة بالأهداف على مفهوم الرقابة الذاتية لكل عامل لنفسه، ومن ثم تصبح العبرة في مراقبة مدى ما حققه هؤلاء الأشخاص بالمنظمة أي مراقبة، النشاط في نهايته، وعليه تصبح

العبرة فيما حققوه من نتائج إيجابية. تعتبر الرقابة الذاتية، وتقييم عملية الأداء الإداري، ومحاولة تطويرها في كل مرة، من العناصر الضرورية التي تساهم في نجاح المؤسسات في تحقيق أهدافها.

والمتمعن في التجارب الغربية التي طبقت الإدارة بالأهداف في شركاتها سيجد أنها نجحت إلى حد بعيد في تحقيق أهدافها، ذلك أن هذا الأسلوب وجد البيئة الرأسمالية المناسبة لتحقيقه، بالإضافة إلى دور القيادة الإدارية في زيادة المنظمة وتوجيهها دائما في إطار الأهداف، ودون إهمال دور الأفراد العاملين، ودور الموارد المادية والقانونية في العملية الإدارية، وضرورة خضوعها لمنطق الأهداف والنتائج.

يتطلب نجاح المؤسسة العمومية الاقتصادية الجزائرية في تحقيق أهدافها، تهيئة الظروف الملائمة لتطبيق الإدارة بالأهداف، وإقناع المسؤولين الإداريين بجدوى الأخذ بهذا الأسلوب الإداري، الذي إن تم حسن استعماله وتطبيقه كلية على المؤسسة بأنه سيحقق الإنتاجية والمردودية المطلوبة، ونضيف إلى هذا، ضرورة إيجاد نصوص قانونية ولوائح واضحة لا مجال فيها للتلاعبات والتفسيرات الخاطئة، ومحكومة بمنطق الأهداف بحيث أن النتائج المحققة والإيجابية تكون دائما هي الفيصل والحكم في مكافأة العاملين والمديرين، ومن تم يمكن للمؤسسة العمومية الاقتصادية مواجهة التحديات الداخلية كالقدرة على منافسة القطاع الخاص وإرضاء الزبائن والتحديات الخارجية المرتبطة بالتراجع الكبير في أسعار النفط في الأسواق الخارجية ومدى قدرة المؤسسة العمومية الاقتصادية على المنافسة الداخلية والخارجية.

ـ مراجع وهوامش الدراسة:

(1) سيد، الهواري، الإدارة بالأهداف والنتائج. القاهرة : مكتبة عين شمس، 1976، ص 61.

(2) بوحوش، عمار، الاتجاهات الحديثة في علم الإدارة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 349.

(3) نفس المرجع، ص 62.

(4) فخري، مرار فيصل، الإدارة بالأهداف والنتائج. عمان: المنظمة العربية للعلوم الإدارية، 1981، ص 07.

(5) شهيب، محمد علي، السلوك الإنساني في التنظيم. القاهرة : دار الفكر العربي، 1976، ص 218.

(6) جوهانسون، أ ب روبرتسون، معجم مصطلحات الإدارة، إنجليزي عربي. (ترجمة: ن غطاس)، بيروت: مكتبة لبنان، 1974، ص 86.

(7) سيد، الهواري، الإدارة العامة: الأصول والأسس العلمية. القاهرة : مكتبة عين شمس، 1976، ص 34-35.

(8) هناك وجهين للاستراتيجية: الوجه الأول ويسمى الموقف الاستراتيجي وهو يعبر عن العلاقات الفعلية بين المؤسسة والبيئة، وأما الوجه الثاني فيسمى الخطة الاستراتيجية وهو يعبر عن العلاقات المستهدفة بين المؤسسة والبيئة. فالخطة تشمل على مجموعة أهداف المؤسسة، الخطوات والقرارات اللازمة للوصول إلى هذه الأهداف، تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع يمكن مراجعة كتاب حمدي فؤاد علي، التنظيم والإدارة الحديثة، ص 87.

(9) بوحوش، مرجع سابق، ص 281-282.

(10) نفس المرجع، ص 380-381.

(11) جانت جورج، إدارة التنمية.(ترجمة: منير لبيب موسى)، القاهرة: دار المعارف، 1979 ص 28.

(12) سيد، الهواري، الإدارة بالأهداف والنتائج، مرجع سابق، ص 171.
(13) أوردواي، تير، الإدارة: هدفها وإنجازها. (ترجمة: علي كامل بدران)، القاهرة: دار الجيل، 1967، ص 143.
(14) تفاصيل أكثر أنظر: كتاب "فيصل فخري مرار"، الإدارة بالأهداف والنتائج وكذلك سيد الهواري، الإدارة بالأهداف والنتائج فهما يربطان الأهداف بالنتائج.
(15) دنكان، جاك، أفكار عظيمة في الإدارة. (ترجمة: محمد الحديدي)، القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع، 1991، ص 166.
(16) بن لرنب، منصور، "استراتيجية التنمية الإدارية في الجزائر". (أطروحة دكتوراه الدولة في التنظيم السياسي والإداري: معهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر، 1988)، ص 67.
(17) سيد، الهواري، الإدارة بالأهداف والنتائج، مرجع سابق، ص 205.
(18) نفس المرجع، ص 216-217.
(19) دنكان، مرجع سابق، ص 160.
(20) الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، أمر رقم 74/71 يتعلق بالتسيير الاشتراكي للمؤسسات، (الجريدة الرسمية، عدد 101 الصادر بتاريخ 13 ديسمبر 1971)، ص 08.
(21) مزعاش، يزيد، "تناقضات نمط تنظيم المؤسسة العمومية الاقتصادية في الجزائر". (رسالة ماجستير، معهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر، 1994)، ص 04.
(22) نفس المرجع السابق، ص 18.
(23) الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، قانون رقم 01/88 المتضمن القانون التوجيهي للمؤسسة العمومية الاقتصادية، (الجريدة الرسمية، عدد (02) الصادرة بتاريخ 13 جانفي 1988)، ص 34.
(24) مزعاش، يزيد، مرجع سابق، ص 19.
(25) بن لرنب، منصور، المرجع السابق، ص 77.

Management by objectives in institutions between theory and practice

Dr. Mostafa BELAOUAR*

Abstract:

The management with objectives is considered one of the important topics in the administrative sciences field, for that it deals with how to increase the efficiency in management performance on the one hand, and the self or professional conscience control on the other hand, especially the developing countries are in real need of importance of the service with objectives so that it will be the real concern of the staff and workers in their institutions.

The implementation of the management with objectives as a way and a practical new means for the management and conducting institutions and achieving important results mostly in private Western companies that applied it. This implementation proved its efficiency in both the economic and administrative organizations alike.

Keywords: management by objectives, institutions, public economic institution, Managing organizations by objectives.

* Faculty of Law and Political Science - University of Ouargla - Algeria.

مجلة البحوث والدراسات

العدد (24) ـ السنة (14) ـ رمضان 1438 هـ ـ يونيو (جوان) 2017 م

محور بحوث العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير

صفحة بيضاء

الطاقات المتجددة ودورها في دعم التوجه نحو التسويق الأخضر

بقلم
د/ إلياس شاهد (*) ود/ عبد النعيم دفرور (**)

ملخص

تعتبر الطاقات البديلة أو المتجددة مصدرا نظيفا لإنتاج الطاقة لا ينتج عنه ملوثات بيئية، كما أن بعضها يمكن استخدامه بشكل دائم علي مدار اليوم مثل طاقة المحيطات والوقود الحيوي، وبعضها متقطع مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، وذلك لارتباطها بظواهر مناخية تتغير علي مدار الوقت، وتأتي هذه الورقة لتدرس العلاقة بين الطاقات المتجددة وتطبيق فلسفة التسويق الأخضر، تنبع أهميتها من خلال إبراز الدور الذي تلعبه الطاقات المتجددة في التوجه نحو فلسفة التسويق الأخضر، وذلك للدور الذي تلعبه في توفير الطاقة للأجيال القادمة مما يسهم في استغلالها في الجانب التنموي الاقتصادي والاجتماعي، وتهدف إلى إمكانية تفعيل دور الطاقات المتجددة في تسويق المنتجات الخضراء، وتوصلت إلى أن استخدام تقنيات التسويق الأخضر من طرف المؤسسات التي تعمل ضمن مجال الطاقة المتجددة يمكن من تحقيق القبول الاجتماعي، والتميز عن المؤسسات المنافسة باعتبارها تقدم منتجات خضراء.

الكلمات المفتاحية: الطاقات المتجددة، التسويق الأخضر، المزيج التسويقي الأخضر، المنتج الأخضر.

مقدمة

تدخل الطاقة في كل مناحي الحياة بصور مختلفة تختلف من تطبيق لآخر، ولو جاز لنا قراءة تاريخ الإنسانية من وجهة نظر الطاقة لوجدنا أن الحضارة الأقوى هي التي كانت تجيد استعمال الطاقة

(*) أستاذ محاضر "أ" بكلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير ـ جامعة الوادي..
chahed_ilias@yahoo.fr
(*) أستاذ محاضر "ب" بكلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير ـ جامعة الوادي..
naimdefrour@hotmail.fr

بشكل أكثر فاعلية وإنتاجا من الحضارات الأخرى، ومنذ اخترع الإنسان الآلة البخارية مفتتحا بها ثورته الصناعية تفجر نهمه للطاقة، فزادت معدلات الاستهلاك، ليتزايد معها القلق من نضوب مواردها، البترول تحديدا، والذي يعد عصب التنمية في الوقت الحاضر، ومع توسع نشاط الإنسان ازداد طلبه على مصادر الطاقة وخاصة مشتقات البترول لسهولة نقلها وتخزينها ولتعدد استخداماتها، فظهرت أزمات الوقود، وتنبه الإنسان لمحدودية المصادر غير المتجددة، وللمشاكل البيئية التي حلت بالأرض جراء ارتفاع حرارة سطحها فيما عرف بظاهرة الاحتباس الحراري، وظهور ثقب الأوزون والأمطار الحمضية وتلوث البيئة، وتراجع مساحات الغابات. فبدأ الإنسان يفكر في التعامل بعقلانية مع ما تبقى من المصادر الأحفورية وترشيد استخدامها، وتشجيع الرجوع لاستعمال الطاقة المتجددة كالطاقة الشمسية وطاقة الرياح، حيث ينادي حماة البيئة بضرورة أن يولي المستهلكون والمسوقون اهتمام وعناية أكبر بالبيئة المحيطة بهم، بحيث يحاول هؤلاء بأن لا يتم وضع أهداف النظام التسويقي في صورة تعظيم الاستهلاك وزيادة الخيارات المتاحة أمام المستهلك أو إرضاءه، وإنما من الأفضل أن تصاغ تلك الأهداف في صورة تعظيم جودة الحياة المحيطة بنا كأفراد ومؤسسات، وهو ما تجسد في فلسفة التسويق الأخضر والتي تتمثل في إشباع حاجات ورغبات المستهلكين مع الأخذ بعين الاعتبار البيئة الطبيعية والموارد الطبيعية.

وتعتبر الطاقات البديلة أو المتجددة مصدرا نظيفا لإنتاج الطاقة لا ينتج عنه ملوثات بيئية، كما أن بعضها يمكن استخدامه بشكل دائم علي مدار اليوم مثل طاقة المحيطات والوقود الحيوي، وبعضها متقطع مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، وذلك لارتباطها بظواهر مناخية تتغير علي مدار الوقت، وتأتي هذه الورقة لتدرس العلاقة بين الطاقات المتجددة وتطبيق فلسفة التسويق الأخضر، وبناء على ما سبق نطرح الإشكالية التالية:

- ما مدى إسهام الطاقات المتجددة في تدعيم التوجه نحو فلسفة التسويق الأخضر؟

تنبع أهمية هذه الورقة في إبراز الدور الذي تلعبه الطاقات المتجددة في التوجه نحو فلسفة التسويق الأخضر، وذلك للدور الذي تلعبه في توفير الطاقة للأجيال القادمة مما يسهم في استغلالها في الجانب التنموي الاقتصادي والاجتماعي، وتهدف إلى إمكانية تفعيل دور الطاقات المتجددة في تسويق المنتجات الخضراء.

وللإجابة على الإشكالية قمنا بتقسيم الورقة إلى المحاور التالية:

- أولا: مفهوم الطاقة المتجددة ومصادرها.

- ثانيا: الإطار المفاهيمي للتسويق الأخضر.
- ثالثا: التوجه الأخضر لتسويق الطاقات المتجددة.

أولا: مفهوم الطاقة المتجددة ومصادرها:

I- مفهوم الطاقة المتجددة:

إن المفهوم السائد للطاقة هو "القدرة على القيام بعمل ما"[1]، فأيا كان العمل فكريا أو عضليا فهو يتطلب لإنجازه كمية كافية من الطاقة، وتطور مصادر الطاقة مع تطور وسائل العمل التي ابتكرها الإنسان لسد مختلف حاجياته، ففي البداية اعتمد على قوته العضلية لإنجاز أعماله اليومية، ثم استغل الطاقة الحيوانية واستغل حركة الرياح في تحريك السفن وإدارة طواحين الهواء واعتمد على الشلالات لإدارة بعض الآلات البدائية، ثم اكتشف بعد ذلك الفحم، والنفط والغاز الطبيعي، وأصبحت مصادر الطاقة في العالم عديدة ومتنوعة منها مصادر تقليدية ومصادر متجددة.

تعرف الطاقة المتجددة أنها الطاقة المولدة من مصدر طبيعي غير تقليدي، مستمر لا ينضب ويحتاج فقط غلى تحويله طاقة طبيعية يسهل استخدامها بواسطة تقنيات العصر.[2]

وتعرف أيضا أنها "تلك الطاقات التي يتكرر وجودها في الطبيعة على نحو تلقائي ودوري، بمعنى أنها الطاقة المستمدة من الموارد الطبيعية التي تتجدد أو التي لا يمكن أن تنفذ، فهي طاقة تتولد من مصدر طبيعي لا ينضب وهي متوفرة في كل مكان على سطح الأرض ويمكن تحويلها بسهولة إلى طاقة".[3]

تتميز الطاقات المتجددة بأنها أبدية وصديقة للبيئة، وهي بذلك تختلف عن الطاقات غير المتجددة الموجودة في مخزون جامد لا يمكن الاستفادة منها إلا بعد تدخل الإنسان لإخراجها، وتختلف عن الثروة البترولية حيث أن مخلفاتها أقل ضررا على البيئة.

II- مصادر الطاقة المتجددة:

تتمثل مصادر الطاقة المتجددة فيما يلي:

1- الطاقة الشمسية:

الطاقة الشمسية هي من أهم أنواع الطاقة التي يمكن للإنسان استغلالها، فهي طاقة دائمة ومتجددة ونظيفة، تشع علينا من الشمس يوميا بمقدار ثابت ولا ينتظر أن تفنى غلا بفناء العالم، فالشمس كرة متوهجة من الغازات يبلغ قطرها 1.39مليون كيلومتر، وتبلغ درجة حرارتها عند السطح حوالي 5762 درجة مئوية، وتستمد الشمس هذه الطاقة من تفاعلات الاندماج النووي

الذي يحدث بين أنوية ذرات الهيدروجين التي تتحول في النهاية إلى ذرات هليوم.

وتهبط طاقة الشمس على هيئة إشعاعات كهرومغناطيسية حيث يكون حوالي 47% منها أشعة مرئية ونحو 45% منها أشعة تحت الحمراء، ونحو 8% منها أشعة فوق البنفسجية، وتنبعث طاقة الشمس بمعدل ثابت تقريبا يسمى بالثابت الشمسي ويقدر بنحو 1.35 كيلواط/م^2، ولا يصل من هذه الطاقة إلى الأرض إلا نحو 70% منها ويعكس الباقي وهو 30% إلى الفضاء مرة أخرى على هيئة موجات وإشعاعات.[4]

وعلى الرغم من المساهمة المتواضعة للطاقة الشمسية من إجمالي الطاقات المتجددة فقد استقطبت اهتماما واسعا وتميزت بمعدلات نمو بلغت 60% سنويا، وهي تعتمد على السقوط المباشر لأشعة الشمس، ولذلك فهي مناسبة للمناطق الصحراوية والسهبية، وقدر إجمالي الطاقة المركبة في العالم التي تنتج من المحطات الحرارية الشمسية بنحو 354 ميغاواط عام2005.[5]

- مميزات الطاقة الشمسية: تتميز الطاقة الشمسية بالعديد من المزايا الإيجابية مما يجعلها أهم الطاقات المتجددة، نذكر من هذه المزايا ما يلي:[6]

- عدم مساهمة مصادر الطاقة الشمسية في تلوث البيئة، فمشكلة التلوث البيئي تهدد حياة الإنسان وحضارته وهي ناجمة في معظمها من الاستغلال المفرط لمصادر الطاقة الملوثة للبيئة كالنفط والفحم والغاز.

- تعتبر الطاقة الشمسية مصدرا متجددا غير قابل للنضوب وبلا مقابل.

- عدم خضوع الطاقة الشمسية لسيطرة النظم السياسية الدولية والمحلية التي تحد من التوسع في استغلال أي كمية منها.

- توفر الطاقة الشمسية في جميع الأماكن تقريبا، حيث يمكن إقامة المشاريع في أي مكان قرب التجمعات السكانية أو المناطق الصناعية.

ومع هذا فإن للطاقة الشمسية بعض العيوب كونها متقطعة مع عدم تركيزها الدائم، بالإضافة إلى التكاليف العالية التي تتميز بها لتوليد الكهرباء، فهي مرتفعة في بعض الأحيان عن باقي الطاقات المتجددة.

2- الطاقة الهوائية (طاقة الرياح):

وهي الطاقة المتولدة من تحريك ألواح كبيرة مثبتة بأماكن مرتفعة بفعل الهواء، ويتم إنتاج الطاقة الكهربائية من الرياح بواسطة محركات أو توربينات ذات ثلاثة أذرع دوَّارة تحمل على

عمود تعمل على تحويل الطاقة الحركية للرياح إلى طاقة كهربائية، وتعتمد كمية الطاقة المنتجة من توربين الرياح على سرعة الرياح وقطر الذراع؛ لذلك توضع التوربينات التي تستخدم لتشغيل المصانع أو للإنارة فوق أبراج.

وتعرف طاقة الرياح بأنها عملية تحويل حركة (طاقة) الرياح إلى شكل آخر من أشكال الطاقة سهلة الاستخدام، غالبا كهربائية وذلك باستخدام عنفات (مروحيات)، وقد بلغ إجمالي إنتاج الطاقة الكهربائية من الرياح للعام 2006 بـ 74,223 ميغاواط، بما يعادل 1٪ من الاستخدام العالمي للكهرباء، وبالتفصيل فقد بلغت نسبة الإنتاج إلى الاستهلاك حوالي 20٪ في الدانمارك و9٪ في اسبانيا و7٪ في ألمانيا. وبهذا يكون الإنتاج العالمي للطاقة المحولة من الرياح قد تضاعف 4 مرات خلال الفترة الواقعة بين عام 2000 وعام 2006.[7]

3- الطاقة المائية:

الطاقة المائية هي الطاقة المستمدة من حركة المياه المستمرة والتي لا يمكن أن تنفد. وهي من أهم مصادر الطاقة المتجددة، وبمعنى آخر هي الاستفادة من حركة المياه لأغراض مفيدة، فقد كان استخدام الطاقة المائية قبل انتشار توفر الطاقة الكهربائية التجارية، وذلك في الري وطحن الحبوب، وصناعة النسيج، فضلا عن تشغيل المناشير.

تم استغلال طاقة المياه لقرون طويلة، ففي إمبراطورية روما، كانت الطاقة المائية تستخدم في مطاحن الدقيق وإنتاج الحبوب ، كما في الصين وبقية بلدان الشرق الأقصى، وتستخدم حركة الماء الهيدروليكية على تحريك عجلة لضخ المياه في قنوات الري وهو ما يعرف بالنواعير.

كان نقل الطاقة الميكانيكية مباشرة يتطلب وجود الصناعات التي تستخدم الطاقة المائية قرب شلال، وخاصة خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، واليوم يعتبر أهم استخدامات الطاقة المائية هو توليد الطاقة الكهربائية، مما يوفر الطاقة المنخفضة التكلفة حتى لو استخدمت في الأماكن البعيدة من المجرى المائي.[8]

4- الطاقة الجوفية:

وهي طاقة الحرارة الأرضية، حيث يُستفاد من ارتفاع درجة الحرارة في جوف الأرض باستخراج هذه الطاقة وتحويلها إلى أشكال أخرى، وفي بعض مناطق الصدوع والتشققات الأرضية تتسرب المياه الجوفية عبر الصدوع والشقوق إلى أعماق كبيرة بحيث تلامس مناطق شديدة السخونة فتسخن وتصعد إلى أعلى فوارة ساخنة، وبعض هذه الينابيع يثور ويهمد عدة

مرات في الساعة وبعضها يتدفق باستمرار وبشكل انسيابي حاملاً معه المعادن المذابة من طبقات الصخور العميقة، ويظهر بذلك ما يطلق عليه الينابيع الحارة، ولايتم الحصول على هذه الحرارة إلا إذا كانت المكونات الجيولوجية لباطن الأرض تحتوي على مسامات ونفوذية وتحتوي على طبقات خازنة للماء.[9]

ثانيا: الإطار المفاهيمي للتسويق الأخضر.

I- مفهوم التسويق الأخضر:

أثار مفهوم التسويق الأخضر مع بداية ظهوره العديد من التساؤلات لدى الباحثين، كما أنه من خلال مراحل تطوره أصبح يطلق عليه العديد من المصطلحات مثل: التسويق الإحيائي Ecoligical Marketing التسويق البيئي Environnemental Marketing التسويق المستدام Sustainable Marketing، والتسويق الأخضر Green Marketing، ويتضمن التسويق الأخضر العديد من الأنشطة مثل تعديل المنتج، تغيير العملية الإنتاجية، تعديل أساليب التعبئة والتغليف والأنشطة التوزيعية والترويجية.[10]

وتوجد العديد من التعاريف للتسويق الأخضر نورد أهمها فيما يلي:

يعرفه Polonsky أنه " إشباع الحاجات والرغبات الإنسانية دون إلحاق الضرر بالبيئة".[11]

يركز هذا التعريف على إشباع حاجات ورغبات المستهلكين، ويأخذ الاعتبارات البيئية كعامل أساسي في العملية التسويقية.

ويعرفه كل من Stanton و Futrrell أنه "الأنشطة التسويقية الهادفة إلى إشباع حاجات ورغبات المستهلكين مع الأخذ بعين الاعتبار أهداف كل من المسوق والمستهلك، والمحافظة على البيئة الطبيعية والاجتماعية".[12]

يظهر هذا التعريف أكثر شمولا من التعاريف السابقة، فهو يدمج بعد حماية المستهلك من خلال أن تحقيق أهداف المسوق وأهداف المستهلك يتكاملان ويتوافقان مع بعضهما، ويدمج البعد الاجتماعي من خلال تحقيق الرفاهية للمجتمعات والحفاظ على البيئة الاجتماعية بشكل عام، ويدمج البعد البيئي من خلال الحفاظ على البيئة الطبيعية وتقليل آثار الأنشطة التسويقية عليها.

أما الجمعية الأمريكية للتسويق فقدمت ثلاث تعاريف التسويق الأخضر هي:[13]

- من الناحية التجارية: تسويق المنتجات الصديقة للبيئة.
- من الناحية التسويقية: هو تطوير المنتجات وتصميمها بشكل يقلل من أثرها السلبي على

البيئة الطبيعية.

- أما من الناحية البيئية: فهو الجهود التي يبذلها المسوق لإنتاج، توزيع، ترويج، تعبئة وتغليف المنتجات بطريقة تقلل من الضرر على البيئة المادية والطبيعية.

قدمت الجمعية الأمريكية التسويق الأخضر من خلال أهم التطورات الحاصلة في الأنشطة التسويقية، وتعتبر من أقدم التعاريف المقدمة في هذا المجال، فهو يشير للتسويق الأخضر من خلال تسويق المنتجات الصديقة للبيئة، وعدم إلحاق الضرر بالبيئة أو تقليصه.

ويقدم ثامر البكري تعريفا أشملا للتسويق الأخضر، هو "مدخل نظمي متكامل يهدف إلى التأثير في تفضيلات المستهلكين بصورة تدفعهم نحو التوجه إلى طلب منتجات غير ضارة بالبيئة وتعديل عاداتهم الاستهلاكية بما ينسجم مع ذلك والعمل على تقديم مزيج تسويقي متكامل قائم على أساس الإبداع بشكل يرضي هذا التوجه بحيث تكون المحصلة النهائية الحفاظ على البيئة، حماية المستهلكين وإرضائهم وتحقيق هدف الربحية للمؤسسة".[14]

قدم هذا التعريف التسويق الأخضر بشكل أشمل من بعض التعاريف السابقة وتضمن الإشارة إلى أهم أساسيات التسويق الأخضر، ويتجلى ذلك من خلال ما يلي:

- أن التسويق الأخضر مدخل نظمي يهدف إلى توجيه المستهلكين نحو المنتجات غير ضارة بالبيئة.

- أن التسويق الأخضر يقوم على الإبداع، من خلال تصميم و ترويج منتجات متميزة عن تلك التي يقدمها المنافسون وبطريقة متميزة عنهم.

- جمع هدف تحقيق الربحية، خدمة المستهلكين وحمايتهم، والحفاظ على البيئة في شكل أهداف تكاملية ولا تتعارض مع بعضها البعض.

II- مبررات ظهور التسويق الأخضر:

أدى ضعف الوعي البيئي لدى العديد من المسوقين والمستهلكين والاستهلاكي اللاعقلاني للمواد الاستهلاكية والصناعية وعدم الاهتمام بقضايا البيئة إلى نشوء العديد من المشاكل أثرت على البيئة بشكل سلبي، ودفع بأنصار البيئة إلى اتخاذ العديد من الإجراءات والتدابير لحمايتها وضمان ديمومتها، من خلال الاعتماد على أهم الأنشطة التي تدعم التوجه البيئي، ونتج عن ذلك بروز الثورة الخضراء والتسويق الأخضر، ولعل أهم أسباب ظهور التسويق الأخضر مايلي:[15]

1- ظاهرة الاحتباس الحراري: إن انبعاث الغازات الملوثة من السيارات، المصانع، الآلات

والمحركات الصناعية، وحتى المطابخ والمدفآت المنزلية كغاز ثاني أوكسيد الكربون، أدى إلى ظهور ما يسمى بالاحتباس الحراري، ونتج عنه –الاحتباس الحراري– تغير مفاجئ في المناخ ومستويات درجة الحرارة، مما أثر سلبا على نشاط المؤسسات خاصة تلك التي تحتاج إلى استقرار في المناخ مثل: الزراعة، السدود، الري وغيرها.

2- اتساع ثقب طبقة الأوزون: تكونت فتحة الأوزون نتيجة لكثرة للنفايات وتراكمها والمواد الملوثة للبيئة، فنفايات المصانع والمنازل وبقايا المنتجات بعد استعمالها والتي لا تتحلل مع مرور الوقت مثل البلاستيك والألمنيوم والورق وغيرها، ألحقت ضررا بالغا بالبيئة وأسهم في نشوء فتحة الأوزون ولا يزال يسهم في توسعها تدريجيا وأضحى دلك يهدد سلامة البيئة.

3- ارتفاع مستوى التلوث: يمثل التلوث أحد أكبر الأضرار على البيئة ودائما ما يتسبب فيه البشر، فأغلب الأنشطة البشرية كالزراعة والصناعة واستعمال المبيدات والكيماويات المنزلية والنفايات تؤدي بشكل مباشر أوغير مباشر إلى الإضرار بالبيئة، ويمس التلوث بالماء، الهواء والأرض وغيرها، وقد أظهرت الدراسات أن التلوث يزداد بشكل مستمر وأصبح يشكل خطرا على البيئة.

4- تناقص المواد الأولية: تمثل المواد الأولية ما يلي:

– المواد غير المحدودة: وهي الماء والهواء، وقد أصبحت تعاني من التلوث، التبذير وسوء الاستخدام، مما تطلب ضرورة السعي للاستخدام الأمثل لها وضمان سلامتها وديمومتها.

– المواد المحدودة القابلة للتجديد: وهي الغابات والغذاء، ويجب أن تستعمل هذه الموارد بحكمة، مثل المحافظة على المساحات الخضراء وتكثيفها وحماية التربة.

– المواد المحدودة غير القابلة للتجديد: وتتضمن النفط، الحديد، النحاس، فهي محدودة ولا يمكن تجديدها ويوجب ذلك حمايتها وترشيد استخدامها للمحافظة عليها.

5- تقلص حجم المساحات الخضراء: تقلصت مساحة الغابات والمساحات الخضراء في الأرض بشكل سريع، فقد أظهرت صور القمر الصناعي أنه في عام 1987 عرفت البرازيل لوحدها تقلصا في المساحات الخضراء وصل إلى 200كلم^2 ، وذلك بسبب الحرائق وتعدي الأفراد على الأشجار واستعمالها في في شتى المجالات.

6- المفاعلات النووية: تعتبر هذه المفاعلات كأحد أهم مصادر الطاقة البديلة، وفي عام 1989 أطلق عليها اسم "الكذبة الخضراء للعام الجاري"، فهي لم تعد خضراء بالنسبة في نظر المنادين بالحفاظ على البيئة، وقد قامت مؤسسة يابانية بإيقاف نشاطها نظرا لزيادة خطرها على البيئة وارتفاع حجم

نفاياتها وتكلفة التخلص منها وهذا سعيا لتقديم مثال عن التصرف الايجابي تجاه البيئة.

7- انجراف التربة: أدت بعض الأنشطة مثل البناء والتعمير إلى جرف حوالي 75مليار طن من التربة سنويا إلى عمق البحر، وهذا يؤثر على الأنشطة الزراعية والفلاحية وعلى نشاط السدود والأنهار.

8- انقراض بعض أنواع النبات: أدت الزراعة والصناعة إلى انقراض العديد من أنواع النبات، وكان معظمها في المناطق الاستوائية، غياب النبات يؤثر على العديد من الصناعات خاصة تلك التي تعتمد بشكل عليه بشكل كبير مثل الصناعات الصيدلانية.

9- مشاريع البحث والتطوير غير الملائمة: تقدم بعض الهيئات والدول المتطورة إعانات لبعض الدول المتخلفة بهدف مساعدتها على التطور في بعض مجالات الحياة، والحقيقة المقلقة أن هذه الإعانات تذهب في معظمها إلى مشاريع غير مجدية ولا تخدم فعلا هذه الدول، مثلا يقدم البنك الدولي إعانات للدول المتخلفة بهدف إعمار الدول المتخلفة وتطوير شعوبها لكنها لا تكون في المجال الذي ترغبه هذه الشعوب.

دفعت هذه الأسباب بأنصار البيئة إلى اتخاذ العديد من الإجراءات والتدابير لحمايتها وضمان ديمومتها، وهذا ما أسهم بشكل كبير في ظهور التسويق الأخضر.

III- أبعاد التسويق الأخضر ومتطلبات تطبيقه.

أ- أبعاد التسويق الأخضر: تسعى فلسفة التسويق الأخضر إلى تحقيق أهداف المستهلكين بإشباع حاجاتهم ورغباتهم بالشكل المناسب، وتحقيق أهداف المسوق بتحقيق الربحية، لكن مع مراعاة ظروف حماية البيئة والمحافظة عليها.

وتعتمد هذه الفلسفة على البعاد التالية:

1- إلغاء مفهوم النفايات أو تقليلها: إن عدم كفاءة العمليات الإنتاجية يتسبب في الغالب في تقديم منتجات تالفة أو غير قابلة للاستخدام وعلى هذا الأساس فإنه من المهام الرئيسية التي تقع على المؤسسات اليوم التركيز على رفع مستوى كفاءة العمليات الإنتاجية وذلك لتقليل المنتجات غير الصالحة للاستعمال والنفايات وتجنب عناء البحث عن كيفية التخلص منها، ولقد شرعت العديد من الحكومات القوانين من أجل الحد من التلوث الناتج بسبب نفايات العمليات الإنتاجية، فقد فرضت بعض الضرائب والغرامات على التلوث الذي تقوم به المؤسسات خاصة في بعض الدول النامية، ففي السبعينات أقرت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD مبدأ

من يلوث يدفع.[16]

وقد تغير المفهوم التقليدي في التعامل مع النفايات وبقايا الصناعة والإنتاج ضمن التسويق الأخضر، حيث أصبح التركيز على تصميم وإنتاج منتجات بدون نفايات أو نفايات قابلة للتدوير بدلا من البحث عن كيفية التخلص منها، وذلك برفع كفاءة العمليات الإنتاجية، فبدل التفكير في كيفية التخلص من النفايات يتم التفكير في كيفية التقليل منها أو إلغائها.[17]

2- تغيير المفاهيم المتعلقة بالمنتج: تتمثل في أن المنتجات الجديدة يجب أن تعتمد بشكل كبير على موارد أولية غير ضارة بالبيئة، ولا تستهلك الكثير من المواد، بالإضافة إلى ضرورة تدوير بعض المنتجات بعد انتهاء المستهلك من استخدامها لإعادة تفكيكها والاستفادة منها مرة أخرى، فضلا عن ضرورة تغيير أساليب تعبئة وتغليف المنتجات بحيث تتضمن أغلفة يمكن الاستفادة منها مرة أخرى ولا تحتوي مواد ضارة أو مؤذية، فضلا عن الاعتماد على مصادر بديلة لتصنيع تلك الأغلفة.[18]

وفي ضوء ذلك يجب أن تصنف المنتجات إلى ثلاثة أنواع هي:[19]

- المنتجات القابلة للاستهلاك: وهي تتآكل تدريجيا أو عندما ترمى بالتربة تتحول إلى تراب مع تأثيرات جانبية مؤذية قليلا.
- المنتجات المعمرة: مثل السيارات والتلفزيونات والحواسيب التي يجب أن تصنع ومن ثم تعاد إلى الصانعين ضمن دائرة صناعية مغلقة، وهذه المنتجات يجب أن تصمم مع سهولة تفكيكها وإعادة تصنيعها أو الاستفادة من موادها.
- المنتجات أو الصناعات غير قابلة للبيع: كالمنتجات ذات النشاط أو التأثير الإشعاعي والمعادن الثقيلة والمواد السامة وهذه المواد يجب أن تعود دائما إلى الصناع الأصليين الذين يكونون مسؤولون عنها وعن تأثيرها طوال فترة حياتها.

ويلعب تطوير المنتجات دورا مهما في تنافسية المؤسسات، فهي تعمل في بيئة يتطلب منها تطوير وتسويق المنتجات الجديدة بشكل مستمر، ودور التسويق هو إيصال فوائد التكنولوجيا للمستهلكين من خلال بيع المنتجات الخضراء، ويجب أن تكون هذه المنتجات ذات نوعية وترضي توقعات المستهلكين من خلال قيمتها المتوقعة من قبل المستهلكين وفوائدها البيئية.

فعلى سبيل المثال قامت جنرال موتورز GM بصناعة سيارة جديدة تعمل بالطاقة الكهربائية بدلا من البنزين تماشيا مع القوانين البيئية وكذلك عدم التعارض مع القوانين المحلية لولاية

كاليفورنيا الذي يلزم مؤسسات صناعة السيارات بأن تكون نسبة 10 بالمائة من مبيعاتها للسيارات الجديدة في الأعوام القليلة القادمة تمثل سيارات خالية من العوادم (أي لا تسبب أي ضرر بيئي)، ولذلك قررت مؤسسة جنرال موتورز تقديم سيارتها الكهربائية الجديدة EV1 وقد تنبأ مدير المؤسسة بأن السيارة المبتكرة سوف تكون الأولى من جيل جديد من السيارات التي سوف تعيد تعريف التكنولوجيا والكفاءة.

وتقوم المؤسسات بإعادة تصميم مفهوم المنتج من أجل مقابلة حاجات ورغبات المستهلكين ومقابلة حاجات ورغبات الأجيال القادمة من خلال الحفاظ على البيئة والموارد الطبيعية لهم في السنوات القادمة، وتطوير المنتجات وتحسينها بما يتلاءم مع المتطلبات البيئية ورغبات المستهلكين.

3- توضيح العلاقة بين السعر والتكلفة: كل منتج يجب أن يعكس كلفته الحقيقية أو ما يقاربها عند تحديد السعر الخاص به، وهذا يعني أن سعر المنتج يجب أن يوازي القيمة التي يحصل عليها المستهلك عند استعماله، علما أن هذه القيمة لا تعكس فقط كون أن هذه المنتجات لا تضر بالبيئة وإنما تعكس الجانب الآخر لها المتمثل في البحث عن موارد بديلة وحماية الموارد الطبيعية وما يحتويه ذلك من كلف عالية كارتفاع مصاريف البحث والتطوير.[20]

فالقاعدة الأساسية في تحديد الأسعار هي التكلفة الكلية للمنتج، أما بالنسبة للمنتجات الخضراء فقد برزت نسبة زيادة في أسعارها لأنها تملك قيمة أعلى تعكس كونها لا تضر بالبيئة وتعكس الجوانب الأخرى لها المتمثلة بالبحث عن المواد البديلة وحماية الموارد الطبيعية وما يتضمنه ذلك من تكاليف عالية كتكاليف البحث والتطوير.

والتكاليف الكلية للمنتجات يجب أن تحسب بشكل دقيق فهي ليست التكاليف المباشرة فقط وإنما تمثل تكاليف أخرى أيضا منها تكلفة تلوث الهواء والماء والتربة، ولذلك فهذه المنتجات يجب أن تمتاز بمزايا تفوق المنتجات الاعتيادية بحيث تدفع المستهلك لشرائها بالرغم الفرق في الأسعار، حيث أن دراسة أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية عام 2002 وجدت أن الأسباب الرئيسية التي تجعل المستهلكين يعزفون شراء المنتجات الخضراء هو اعتقادهم بأنها تتطلب تضحية عدم المطابقة وارتفاع التكاليف وانخفاض الأداء.[21]

4- جعل التوجه البيئي أمرا مربحا: لقد أدركت العديد من المؤسسات أن التسويق الأخضر يشكل فرصة سوقية قد تمنحها ميزة تنافسية ولربما مستدامة، فمعظم المؤسسات تتنافس في السوق لتحقيق الكسب السريع، بغض النظر عن الآثار السلبية على البيئة.

والمتمعن في المنافسة في السوق يدرك أن هذا يعتبر منفذاً تنافسياً استراتيجياً، يمكن أن يأخذ المؤسسة إلى نوع آخر من المنافسة، وخاصة مع تنامي الوعي البيئي بين المستهلكين وتحولهم التدريجي إلى مستهلكين خضر، ومن مزايا هذا التوجه الاستراتيجي هو أن الهيئات الرسمية وغير الرسمية تروج للتوجهات البيئية بشكل طبيعي ومستمر من خلال أجهزة الإعلام المختلفة وفي ذلك مساعدة ودعم مجاني من هذه الجهات لجهود الترويج الخاصة بالمنظمات التي تتبنى منهج التسويق الأخضر، وبالتالي سيكون هذا التوجه أمرا مربحا، وخاصة في المدى الطويل.[22]

وقد بدأ المستهلكون بالإدراك أن المنافسة في السوق لا ينبغي أن تكون بين المؤسسات التي تضر بالبيئة وتلك التي تحافظ عليها باعتبار أن المنافسة فقط بين المؤسسات التي لا تضر بالبيئة واستبعاد الأخرى.

إن التوجه البيئي يساعد المؤسسة في الوصول إلى مستويات عالية من الكفاءة لكي تصل مباشرة إلى تحسين الربحية في أشكال مختلفة مثل الادخار في تكاليف المواد الأولية والطاقة والنفايات، وبالتالي زيادة الأرباح والعائد على الاستثمار والحصة السوقية وغيرها، وتحقيق الميزة التنافسية من عمليات الاستدامة.[23]

ب- متطلبات تطبيق التسويق التسويق الأخضر:

للتسويق الأخضر قواعد أساسية يجب على إدارة التسويق أخذها بعين الاعتبار إذا ما أرادت النجاح، وهي:[24]

1- إعلام المستهلك: إذا كنت ترغب في بيع منتج للمستهلكين الأكثر حرصا على استعمال المنتجات الخضراء فأنت تحتاج التأكد من أن المستهلك مدرك للقضايا البيئية ويشعر بالقلق اتجاهها، فقد لا يدفع المستهلك سعر إضافي عند شراء ثلاجة خالية من غاز CFC وهو غاز ضار للبيئة يستخدم في أجهزة التبريد، إذا لم يكن لديه علم بأن هذه الثلاجة لا تعمل بغاز مضر بالبيئة، وهذا يعني جعل المستهلك يدرك أن المسوق يبذل جهدا معينا للحفاظ على البيئة.

2- الشفافية والمصداقية: وهذا يعني ان المسوق مطالب باتخاذ إجراءات حماية البيئة في أنشطته وأنه على المستهلكين أن يؤمنوا بشرعية المنتج وحقيقة ما تحمله الرسائل الإعلانية التي تروج للمنتج على أنه صديق للبيئة.

3- طمأنة المستهلك: فالمستهلك بحاجة إلى الاعتقاد بأن المنتج الفعال هو الذي يؤدي الوظيفة التي صنع من أجلها، مع الأخذ بعين الاعتبار أن بعض المستهلكين لن يتخلوا عن

ثقافتهم الاستهلاكية من أجل البيئة، مع ضرورة الانتباه بأن المنتجات التي لا تؤدي وظيفتها ستصفى في صندوق النفايات حتى لو كانت بيئية جدا.

4- النظر في عملية التسعير: يجب أن تكون التكلفة الإضافية التي يحملها المنتج الأخضر ضمن نطاق تحمل المستهلك، وأن يكون قادرا على تحمل أقساطها ويشعر أن المنتج يستحق هذه التكلفة الإضافية.

5- تمكين المستهلكين وتشجيعهم على الشراء: من خلال التأثير عليه للشراء بإضفاء البعد البيئي للمنتجات، وجعل المستهلك يشارك في الحفاظ على البيئة بالتعامل مع منتجات المؤسسة.

6- جعل صورة المؤسسة بيئية لدى المستهلكين: والمسوق لا يكتفي بجعل المنتجات بيئية في نظر المستهلكين، وإنما يجب إظهار أن الأنشطة المرتبطة بالمنتج كالتعبئة والتغليف وعمليات الإنتاج تتم وفق شروط المحافظة على البيئة، مما يجعل علامة المؤسسة معروفة كعلامة خضراء.

لتبني فلسفة التسويق الأخضر بفاعلية ونجاح يجب على المسوق القيام بمجموعة من الإجراءات لتمهيد الطريق أمامه وتشمل:[25]

- دراسة واسعة للمسائل البيئية الراهنة في المؤسسة.
- إيجاد نظام لقياس ومراقبة الآثار البيئية الناجمة عن أداء المنظمة.
- وضع سياسة بيئية واضحة وواقعية بأهداف وبرامج المؤسسة.
- مراقبة تطور برامج التسويق الأخضر في ظل القوانين والتشريعات المتغيرة.
- استخدام الوسائل المناسبة لتدريب وتأهيل العاملين ضمن التوجه البيئي في المؤسسة.
- القيام بالأبحاث العلمية لمعالجة المشاكل البيئية والتكنولوجيا المستخدمة.
- تطوير البرامج التعليمية لتثقيف المستهلكين ورفع درجة وعيهم بالمسؤولية البيئية.
- استخدام الوسائل المناسبة لتأهيل الموردين ضمن التوجه البيئي للمؤسسة.
- المشاركة في دعم وتأسيس المنظمات الاجتماعية التي تعنى بشؤون البيئة والمجتمع.
- دعم البرامج والجهود البيئية على كافة المستويات.

ثالثا: التوجه الأخضر لتسويق الطاقات المتجددة:

I- عناصر المزيج التسويقي الأخضر:

يعتمد المسوقون على المزيج من أجل تحقيق الأهداف المسطرة وذلك من خلال الدور التكاملي والتفاعلي الذي يؤديه، والمزيج التسويقي الأخضر هو الأدوات والعناصر التسويقية

والذي يسعى المسوقون إلى تحقيق التكامل والاندماج فيما بينها من أجل خدمة السوق المستهدف، وتحقيق أهداف المؤسسة وعدم الإضرار بالبيئة الطبيعية، وعناصر المزيج التسويقي الأخضر هي نفسها العناصر التقليدية إلا أن الاختلاف يكمن في أسلوب صياغتها وإدارتها، وتتمثل هذه العناصر فيما يلي:[26]

1- المنتج الأخضر: هو منتج يتم تطويره بطريقة تتناسب مع حساسية المستهلكين للقضايا الصحية والبيئية، فقد يتم إنتاجه بمواد أولية قابلة للتدوير أو يراعى في إنتاجه ترشيد استخدام الطاقة والمواد الأولية.

2- السعر الأخضر: تتطلب المنتجات الخضراء جهودا وتكاليف كبيرة في مجال البحث والتطوير، وتكييف الأساليب الإنتاجية بما يتناسب مع الاستخدام الأمثل للطاقة وتقليل التلف والضياع في استعمال المواد الأولية، وهو ما يجعل هذه المنتجات تحمل إضافة سعرية بسبب التكاليف الإضافية لجعل المنتج بيئيا.

3- التوزيع الأخضر: يتمثل التوزيع الأخضر في إدارة العمليات اللوجستية من نقل وتخزين بما يتناسب مع متطلبات حماية البيئة وتقليل الضرر عليها، كما يعمل على إعادة مخلفات وبقايا المواد المستعملة كالبلاستيك والأوراق.

4- الترويج الأخضر: يتمثل الترويج الأخضر في نقل المؤسسة لتوجهاتها وصورتها البيئية للمستهلكين، وذلك من خلال عناصر المزيج الترويجي الأخضر.

II- الاستراتيجيات التسويقية في ظل تبني المزيج التسويقي الأخضر:

هناك أربع إستراتيجيات يمكن أن تتبعها المؤسسة في حال تبني التسويق الأخضر هي:[27]

1- الإستراتيجية المائلة للاخضرار: تعتمد من قبل المؤسسات الذي لديها وعي بيئي وتأخذ المسؤولية الاجتماعية على عاتقها لحماية البيئة ولكن لا تروج لنفسها في وسائل الإعلام، فمثلا مؤسسة Coca Cola تنفق مبالغ كبيرة في التسويق الأخضر غير أنها لا تعلن عن توجهها الأخضر في المجال العام، فهي تطبق التسويق الأخضر لكن لا يرتبط اسمها وسمعتها بالتسويق الأخضر.

2- الإستراتيجية الدفاعية الخضراء: عند اتباع هذه الإستراتيجية فإن المؤسسة تؤكد على أن منتجاتها خضراء وأنها تدمج التسويق الأخضر في أنشطتها، فتقوم بإعلام المستهلكين عن منتجاتها عبر قنوات الاتصال، ويكون الإعلام بصفة محدودة.

3- إستراتيجية الظل الأخضر: تشير هذه الإستراتيجية إلى أن المؤسسة لديها استثمارات

طويلة الأجل تهدف إلى تطوير منتجاتها وخدماتها لتكون صديقة للبيئة، مثل مؤسسة Toyota عند تقديمها للمنتج Prius وهي سيارة هجينة صديقة للبيئة.

4- الإستراتيجية شديدة الاخضرار: وتقوم فيها المؤسسة بتركيز إستراتيجيتها الخضراء على المنتج في كامل دورة حياته، وعلى أنها مندمجة في كامل القضايا البيئية.

ويمكن توضيح كيفية تطبيق الإستراتيجيات الخضراء على المزيج التسويقي الأخضر في الجدول التالي.

جدول رقم (1): تطبيق الاستراتيجيات الخضراء على المزيج التسويقي الأخضر.

	المنتج	السعر	التوزيع	الترويج
الاستراتيجية المائلة للاخضرار	×			
الاستراتيجية الدفاعية	×			×
إستراتيجية الظل الأخضر	×	×		×
الإستراتيجية شديدة الاخضرار	×	×	×	×

المصدر: من إعداد الطالب بالاعتماد على : Wong Ming Wong, Op-cit, p225.

كما هو مبين في الجدول فعندما تقوم المؤسسة بتطبيق الإستراتيجية المائلة للاخضرار فإنها تقوم بإنتاج منتج صديق للبيئة فقط، ولا تتبعه ببقية عناصر المزيج التسويقي، فهي تعتبر ذات توجه ضعيف نسبيا في تطبيق التسويق الأخضر لهذا توصف بأنها إستراتيجية قريبة للاخضرار.

وعندما تطبق الإستراتيجية الدفاعية فهي تستخدم المنتج الأخضر بالإضافة إلى الترويج، وتنتهج عندما تواجه المؤسسة منافسة شديدة.

وعند تطبيق إستراتيجية الظل الأخضر فإنها تعتمد على عناصر المزيج التسويقي التالية: المنتج، السعر والترويج، فعندما يكون الترويج للمنتج فعالا فإنه يؤدي دوره ويبرر السعر الذي قد يكون مرتفعا بالنسبة للمنتجات الخضراء.

أما إذا طبقت الإستراتيجية شديدة الاخضرار فإنها تستعمل جميع عناصر المزيج التسويقي، فهي ذات توجه أخضر محض.

III- تسويق الطاقات المتجددة الخضراء:

يلعب تسويق الطاقات المتجددة دورا بارزا في دعم التوجه الأخضر للتسويق من خلال ما يلي:[28]

1- تسعير الطاقة المتجددة الخضراء: إن التسعير الأخضر هو بمثابة خيار تطوعي تقدمه مرافق الكهرباء التي تسمح للمستهلكين بدعم الاستثمار في تقانات الطاقة المتجددة، ويمكن للمستهلكين في منازلهم وفي محلاتهم التجارية وشركاتهم شراء الكهرباء من المصادر المتجددة وتكون عموما أسعار الكهرباء من هذه المصادر أكثر بقليل من الطاقة المتولدة من المصادر التقليدية، ويشارك المستهلكون طوعيا بدفع قيمة فواتيرهم الكهربائية من أجل تغطية التكلفة الإضافية للطاقة المتجددة، فشراء الكهرباء الخضراء أسلوب ناجح لإقناع المستهلكين في تخفيض الآثار عن البيئة والناتجة عن استخدامهم للطاقة وهذا ينسجم مع فكر الاستهلاك المستدام.

2- برامج أجور الطاقة وتعريفتها: وهي أكثر البرامج شيوعا واستخداما، وتعمل هذه البرامج على أساس تحديد زيادة سعرية على الطاقة المتجددة الخضراء المسلمة للشبكة الكهربائية، ويمكن أن تحدد هذه البرامج عملية البيع على أساس كتل الطاقة (مثل كيلواط ساعي من طاقة الرياح)، أو كنسبة من استخدام الزبون (مثل 50% من استخدام الزبون للطاقة المتجددة).

3- برامج المساهمة: تعتمد هذه البرامج على التبرعات الطوعية التي لا ترتبط بالطاقة التي يحصل عليها المستهلك، فعلى سبيل المثال تسمح بعض مرافق الطاقة في الولايات المتحدة الأمريكية لمستهلكي الطاقة لديها في الإسهام في تطوير التجهيزات الشمسية العائدة لها.

4- برامج التمويل: وتعتمد هذه البرامج على استخدام جزء من دفعات المستهلكين الشهرية لتمويل تركيب أنظمة جديدة لتطوير إنتاج الطاقة المتجددة الخضراء، حيث أن أسعار الطاقة التي لا تعكس تكاليفها كاملة ستظل تشجع على الهدر وتعيق التقدم نحو المزيد من فعالية الطاقة وتوليفة أكثر نظافة من مصادر الطاقة المتجددة الخضراء، وقد حان الوقت كي تعكس أسعار الطاقة التكاليف البيئية والاقتصادية كاملة.

5- تسويق الطاقة المتجددة الخضراء: يعرف تسويق الطاقة المتجددة الخضراء بأنه القدرة على خلق منتج متميز لمجموعات مستهدفة، وكلما كان هذا المنتج ماديا وملموسا حفز المستهلك على اقتنائه بحيث لا يكون ذلك مستندا إلى السعر فقط، فكلما كان المنتج تنافسيا سعى المستهلك إلى ذلك هذا إلى جانب عوامل أخرى يجب أن تتوافر في هذا المنتج، وهي التركيز على السمات العالية للجودة، ومصداقية المنتج، وإظهار الصفة الخضراء بشكل قوي بحيث يحقق هذا المنتج فوائد بيئية ملموسة.

ويسهم تسويق الطاقة المتجددة الخضراء في تطبيق المفاهيم والأدوات التسويقية لتسهيل

المعاملات والتبادلات التي ترضي كلا من الأهداف الفردية والتنظيمية بأسلوب يحميها ويحافظ عليها، ويدل على الاستعداد لشراء منتجات متميزة تقدم منافع خاصة إلى جانب منافع بيئية عامة، هذا فضلا عن المسائل الحرجة في تسويق الطاقة المتجددة الخضراء يجب أن تأخذ بالحسبان أهمية القواعد والسياسات العامة المرتبطة بالسوق والإفصاح والحصول على الشهادات البيئية، إلى جانب مسائل التوريد، ويركز تسويق الطاقة المتجددة الخضراء على مفهوم التعرفة الخضراء الذي يقدم الفرص والتحديات التنافسية لتسويق الطاقة الخضراء والذي يتكامل مع مسألة التسعير الأخضر الذي يركز على مسائل ولاء المستهلك، ودور ذلك في اتخاذ القرارات الاستراتيجية المتعلقة بتقانات الطاقة المتجددة الخضراء.

ولتسليط الضوء أكثر على تسويق الطاقة المتجددة الخضراء تجدر الإشارة إلى سوق فعلية للطاقة المتجددة الخضراء، حيث ركز المؤتمر الرابع لتسويق الطاقة بعنوان "استراتيجيات التسويق الاستراتيجي من أجل زيادة تبني المستهلك لبرامج الطاقة الخضراء"، على أن الطاقة المتجددة أو الطاقة الخضراء منتج موجود أو برنامج تسعير للمنافع المقدمة للمستهلكين، وتبين التجارب المنافع التي لا تقدم نجاحا باهرا في هذا البرنامج، وهل المستهلكون يستجيبون لهذه البرامج المصممة والمسوقة تسويقا جيدا، وهذا ما طرحه المؤتمر من خلال ضمان وجود برنامج للتسعير الأخضر يمكن من خلاله تحقيق تطلعات المستهلكين وتوقعاتهم، في حين ركز المؤتمر الخامس لتسويق الطاقة المتجددة الخضراء الذي جاء بعنوان "النجاح والتحديات ونقاط الضعف" على مسائل تخفيض الاستهلاك في الطاقة ووضع تقانات أكثر تجددا للطاقة، وشراء تقانات الطاقة المتجددة الخضراء ومساعدة المستهلكين في استخدام واستهلاك طاقة أقل.

ومن هنا بدأ تسويق الطاقة المتجددة الخضراء بالاستفادة من برامج التسعير الأخضر إلا أن نسبة تحول المستهلكين التقليديين إلى الطاقة المتجددة الخضراء بطيء نسبيا

خلاصة

لقد أثبتت العديد من التجارب التنموية في العالم إلى أن البعد البيئي له دور محوري في رسم استراتيجيات الطاقة، ويسهم في رسم الاستراتيجية التنموية الاقتصادية والاجتماعية، وهو ما يتجلى من خلال العلاقة بين التسويق الأخضر واستغلال الطاقات المتجددة، حيث أصبحت العديد من المؤسسات تعتمد على الطاقات المتجددة في تشغيل مختلف عملياتها الإنتاجية، أو تعمل على إنتاج وتسويق منتجات الطاقة المتجددة قصد تشجيع الحفاظ على الموارد الطبيعية، كما

أن استخدام تقنيات التسويق الأخضر من قبل المؤسسات التي تعمل ضمن مجال الطاقة المتجددة يمكن من تحقيق مختلف الأهداف، وأصبح جليا الدور الذي تلعبه منتجات الطاقة المتجددة في تغيير الفكر الاقتصادي الذي يرى بأن التسويق مجرد نشاط إعلاني يهدف إلى زيادة المبيعات إلى نشاط وفكر وفلسفة تطبق في جميع المجالات خاصة في مجال الطاقات المتجددة من خلال تمييز منتجات هذه الأخيرة عن بقية المنتجات باعتبارها منتجات خضراء، وهذا ما يؤكد أهمية الطاقات المتجددة في تدعيم التوجه نحو تطبيق فلسفة التسويق الأخضر.

ومن الواضح أن تبني التسويق الأخضر يحقق للمؤسسات فوائد ومكاسب كبيرة، ويمكن أن يضع المؤسسة على قمة الهرم التنافسي ويمنحها القيادة في السوق، بسبب الالتزام البيئي والاعتماد على الطاقات المتجددة.

وبناء على ما سبق يمكن تقديم التوصيات والاقتراحات التالية:

- ضرورة الحفاظ على الطاقة والحد من الهدر في استعمالها وبلوغ الكفاءة في الحفاظ عليها، من خلال الاعتماد على تقانات الطاقة المتجددة.
- توفير مصادر متجددة للطاقة وتشجيع الاستخدام الأمثل للطاقة.
- الترويج لمنتجات الطاقة المتجددة من خلال التركيز على أنه منتج أخضر مميز عن غيره، وتشجيع المؤسسات التي تسوق منتجات الطاقة المتجددة.
- تشجيع عملية البيع الشخصي المتجه لأصحاب المصانع والمؤسسات بهدف إعطاء صورة واضحة ودقيقة، وإقناعهم بمدى أهمية استخدام الطاقات المتجددة في سير العملية الإنتاجية سواء على البيئة أو المؤسسة، من خلال الاقتصاد في استخدام الطاقة وتحقيق الميزة التنافسية.

فتح منهج الإنتاج الأخضر أفاق جديدة و فرص سوقية مغرية أمام تويوتا ، والذي يشكل درعا ضد المنافسة التقليدية، وبالتالي تحقق زيادة تنافسية في السوق ، وخاصة عندما تتوجه للسوق السيارات الصديقة للبيئة وتستهدف ذوي التوجهات البيئية في السوق.

ـ الهوامش:

[1] السيد شوقي السيد، بحث حول الطاقة المتجددة، العنوان الإلكتروني: www.netfirms.com/domain-names تاريخ التصفح: 2015/06/12.

[2] الطاقات المتجددة مصادرها واستخدامها، العنوان الإلكتروني: www.qalqilia.edu.ps/renew.htm ، تاريخ التصفح: 2014/05/15.

[3] منظمة الدول المصدرة للبترول(OPCE) التقرير السنوي الثالث والثلاثون، العدد 207-33، ص112.

[4] المؤتمر الوطني العربي، التقنيات الحديثة للطاقة من أجل ازدهار البيئة، العدد 67-78، سبتمبر 2005، ص94.

[5] علي رجب، تطور الطاقات المتجددة وانعكاساتها على سوق النفط العالمية والأقطار الأعضاء، أوبيك عدد 127،سنة 2008، ص20.

[6] المؤتمر الوطني العربي، التقنيات الحديثة للطاقة من اجل ازدهار البيئة، ص95.

[7] علي رجب، مرجع سبق ذكره، ص28.

[8] هاني عبيد، الإنسان والبيئة:منظومات الطاقة والبيئة والسكان، دار الشروق، عمان، الأردن، 2000، ص220.

[9] دوغلاس موسشيت، مبادئ التنمية المستدامة، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، مصر، 2000، ص17.

[10] Brijesh Sivathanu Pillai, Kanchan Pranay Patil, Green Marketing, International Journal of Research in Commerce and Management, Volume 3, Issue 7, July 2012, p64.

[11] Moloy Ghosh , Green Marketing- A changing concept in changing time, Management Edge, Volume 4, N°1, 2010, p83.

[12] Moloy Ghosh, op-cit, p83.

[13] Wong Ming Wong, To integrate Green Marketing into Software Developement Company's Marketing plan as a case studying of FBIC, The journal of global business issue, volume2, N°2, p224.

[14] ثامر البكري، أحمد نزار النوري، التسويق الأخضر، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2009، ص47.

[15] Peattie Kenneth. J, Painting Marketing Education, Journal of Marketing Management, Volume6, N°2, 1990, p107.

[16] علاء فرحان طالب وآخرون، فلسفة التسويق الأخضر، الطبعة الأولى، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2010، ص62.

[17]حليمة السعدية قريشي، شهلة قدري، التسويق الأخضر كاتجاه حديث لمنظمات الأعمال في تحقيق التنمية المستدامة، الملتقى الدولي الثاني حول :نمو المؤسسات و الاقتصاديات بين تحقيق الأداء المالي و تحديات الأداء البيئي، جامعة ورقلة، 22و 23 نوفمبر 2012، ص380.

[18]سميرة صالحي، التسويق الأخضر: بين الأداء التسويقي والأداء البيئي للمؤسسات الإقتصادية، الملتقى الدولي الثاني حول :نمو المؤسسات والاقتصاديات بين تحقيق الأداء المالي و تحديات الأداء البيئي، جامعة ورقلة، 22و 23نوفمبر 2012، ص413.

[19]علاء فرحان طالب وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص64.

[20]سميرة صالحي، مرجع سبق ذكره، ص413.

[21]علاء فرحان طالب وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص68.

[22]سامي الصمادي، التسويق الأخضر- المعيقات في المنطقة العربية، الملتقى العربي الخامس في التسويق الأخضر، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، 25-28 يونيو2006، بيروت، لبنان، ص7.

[23]علاء فرحان طالب وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص70.

[24] Pavan Mishra, Payal Sharma, Green Marketing- Challenges and opportunities for business, Journal of Marketing Management, Volume8, N°1, May-August 2012, p37.

[25] فيليب كوتلر وآخرون، ترجمة مازن نفاع، التسويق : تطوره-مسؤوليته الأخلاقية-استراتيجيته، الجزء الأول، الطبعة الأولى، منشورات دار علاء الدين، دمشق، سوريا، 2002، ص124.

[26] Mnappa Omkarshwar, Green Marketing Initiatives by Corporate World, Journal of

Advances in Marketing, Volume 6, N°3, March 2013, P21.

[27] Wong Ming Wong, Op-cit, p225.

[28] رعد حسن الصرن، استعداد المستهلك السوري لتبني تقانات الطاقة المتجددة الخضراء، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 28، العدد الأول، 2012، ص374.

Renewable energies and their role in supporting the trend towards green marketing

Dr. Iliyes CHAHED*
Dr. Abdelnaim DAFROUR**

Abstract:

Renewable energies is a clean source of energy production does not result in environmental contaminants , and some can be used on a permanent basis throughout the day , such as ocean energy and biofuels , and some of them intermittently , such as solar and wind power , and that as they relate to phenomena of climate change over time, The present paper is to study the relationship between renewable energies and the application of green marketing philosophy , derive their importance by highlighting the role of renewable energies in the trend towards green marketing philosophy , and that of the role they play in saving energy for future generations , contributing to exploit the economic and social development side , and aims to the possibility of activating the role of renewable energies in the marketing of green products, and found that the use of green marketing techniques by institutions working within the field of renewable energy can achieve social acceptance , and stand out from the competition as institutions offering green products.

Key words: renewable energies , green marketing , green marketing mix , product green.

* Faculty of Economics, Business and Management Sciences - University of El-oued – Algeria.

** Faculty of Economics, Business and Management Sciences - University of El-oued – Algeria.

آليات انتقال أثر السياسة النقدية إلى النشاط الاقتصادي

بقلم
أ/ علي ذهب(*)

ملخص

إن الاهتمام بالسياسة النقدية وتسليط الضوء عليها من خلال الدراسات التي تعمل على فك أسرارها وتشابكها مع المتغيرات الاقتصادية، بدأ خلال القرن العشرين وعلى أثر أزمة الكساد العالمي أو ما يعرف بأزمة (1929)، لكن أدبيات الاقتصاد تؤكد أن هذا المصطلح ظهر قبل هذا التأريخ وتحديدا يعود إلى القرن التاسع عشر أين عرف مصطلح السياسة النقدية. وترتبط درجة تأثير هذه السياسة في النشاط الاقتصادي بمفهوم غاية في الأهمية وهو فعالية السياسة النقدية ومدى استجابة التغيرات الاقتصادية الأخرى لتغيرات العرض النقدي أو بمعنى آخر كيفية انتقال آثار السياسة النقدية إلى النشاط الاقتصادي وما هي القنوات والآليات التي تساعد على ذلك وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل.

الكلمات المفتاحية: السياسة النقدية – العرض النقدي – معدل الفائدة – التضخم – الأثر النقدي – السياسة الانكماشية – السياسة التوسعية – القنوات الناقلة – معدل التبادل

تمهيد

إن الاهتمام بالسياسة النقدية وتسليط الضوء عليها من خلال الدراسات التي تعمل على فك أسرارها وتشابكها مع المتغيرات الاقتصادية، بدأ خلال القرن العشرين وعلى أثر أزمة الكساد العالمي أو ما يعرف بأزمة (1929)، لكن أدبيات الاقتصاد تؤكد أن هذا المصطلح ظهر قبل هذا التأريخ وتحديدا يعود إلى القرن التاسع عشر أين عرف مصطلح السياسة النقدية. وترتبط درجة تأثير هذه السياسة في النشاط الاقتصادي بمفهوم غاية في الأهمية وهو فعالية السياسة النقدية ومدى استجابة التغيرات الاقتصادية الأخرى لتغيرات العرض النقدي أو بمعنى آخر كيفية

(*) أستاذ مساعد "أ" بكلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير ـ جامعة الوادي.
dehebali03@gmail.com

انتقال آثار السياسة النقدية إلى النشاط الاقتصادي وما هي القنوات والآليات التي تساعد على ذلك وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل.

أولا: مفاهيم حول السياسة النقدية

1/ تعريف السياسة النقدية: هناك عدة تعاريف للسياسة النقدية تختلف بحسب النظام و الباحث الاقتصادي لتلك الفترة، ومرجع هذا الاختلاف يعود في حقيقة الأمر إلى عدة عوامل منها ما قد يكون زماني أو مكاني، ومنها ما يحسب على التشريعات السائدة في كل بلد ومنها ما هو راجع إلى المستوى الفكري والقدرة على التحليل التي تزودنا بها النظرية الاقتصادية في أي حقبة من الزمن، إلا انه يمكن تعريف السياسة النقدية بأنها:

1/1 التعريف الأول: «هي مجموعة القواعد والأساليب والأدوات والإجراءات والتدابير التي تستخدمها البنوك المركزية بغرض التحكم في حجم السيولة والمعروض النقدي في القطاع المالي، بحيث تحقق من خلالها مجموعة من الأهداف منها استقرار الأسعار واستقرار سعر الصرف».[1]

2/1 التعريف الثاني: وقد تعرف السياسة بأنها:«مجمل الإجراءات التي سيستعملها البنك المركزي للتحكم في المعروض النقدي كأداة لتحقيق أهداف السياسة الاقتصادية».[2]

2/ أنواع السياسات النقدية: هناك نوعان للسياسة النقدية:

1/2 السياسة النقدية التوسعية: هي تلك السياسة التي تهدف إلى زيادة عرض النقود في الاقتصاد الوطني لذلك يتم استخدام هذه السياسة لمعالجة الفجوة الانكماشية [3] ويتم ذلك عن طريق:

1/ تخفيض نسبة الاحتياطي القانوني.

2/ تخفيض سعر أعاده الخصم.

3/ شراء أوراق مالية في سوق الأوراق المالية.

2/2 السياسة النقدية الانكماشية: هي تلك السياسة التي تهدف إلى تخفيض عرض النقود في الاقتصاد الوطني، لذلك يتم استخدام هذه السياسة لمعالجة الفجوة التضخمية [4] ويتم ذلك عن طريق: 1/ زيادة نسبة الاحتياطي القانوني.

2/ زيادة سعر أعاده الخصم.

3/ قيام البنك المركزي ببيع أوراق مالية في سوق الأوراق المالية.

ثانيا مفاهيم تتعلق بالانتقال النقدي

1/ تعريف آلية الانتقال النقدي: هي العملية التي من خلالها يتم انتقال آثار التغيرات في

أدوات السياسة النقدية التي يستخدمها البنك المركزي إلى الناتج الحقيقي و التضخم، كما يمكن تعريف آلية الانتقال النقدي بأنها تلك العملية التي من خلالها يتم انتقال تأثير التغيرات في المتغيرات النقدية(مثل:عرض النقود أسعار الفائدة أسعار الصرف الائتمان) إلى النشاط الاقتصادي الحقيقي والتضخم.(5)

2/ تعريف قناة الانتقال النقدي: قناة الانتقال النقدي هي عبارة عن علاقة سببية تبدأ من تغيرات معينة في بعض متغيرات القطاع الحقيقي قبل الناتج الوطني ومن ثم فإن قنوات آلية الانتقال النقدية تتضمن مجموعة من الروابط أو العلاقات التي من خلالها يتم انتقال آثار السياسة النقدية إلى الاقتصادي الحقيقي والتضخم. (6)

3/ مقاربة انتقال أثر السياسة النقدية: إن انتقال أثر السياسة النقدية إلى النشاط الاقتصادي يتم من خلال ما يعرف لقنوات السياسة النقدية التي يبلغ بها أثر أدوات السياسة النقدية إلى الهدف النهائي تبعا لاختيار الهدف الوسيط، وتلعب مرونة المتغيرات الاقتصادية دور مهم في التأثير على آلية الانتقال مع العلم أن هذه المتغيرات كان ارتباط ويثق بطبيعته وهيكل النظام المالي وهيكل الاقتصاد الكلي خاصة والأوضاع الاقتصادية بشكل عام.

ويتجه عدد من الاقتصاديين إلى التمييز بين مقاربتين للانتقال أي السياسة النقدية هما:

3/ 1المقاربة النقدية: هذه المقاربة عبارة وجهة النظر التقليدية لآلية انتقال آثار السياسة النقدية إلى النشاط الاقتصادي الحقيقي والتي ترتكز على نموذج (IS/LM) الذي يوضح أن الانخفاض في عرض النقود سوف يترتب عليه حدوث زيادة في سعر الفائدة الحقيقي .ومن ثم فإن السياسة النقدية وفق هذه المقاربة تعمل بصفة أساسية من خلال أثرها على سعر الفائدة الحقيقي. (7)

وعلى مستوى النموذج (IS / LM)* يمكن أن نوضح أنه الأصول المالية هي:

1/ النقود التي تؤدي وظيفتها كوسيط للتبادل. 2/ السندات التي يفترض أن تغطي كل في الأصول المالية الأخرى أو أنها تمثل سوق رأس المال إجمالا.

وبما أن السلطات النقدية تتحكم في عرض النقود من جهة وأنها تستطيع التأثير على أسعار الأصول المالية الأخرى (مثل السندات، القروض البنكية) من جهة أخرى، فإن يمكن النظر إلى النقود باعتبارها المتغير المالي الأساسي الذي يؤثر على النشاط الاقتصادي الحقيقي في عملية

* (IS / LM): يعبر عن التوازن في كل من السوقين : سوق السلع والخدمات و السوق النقدي

الانتقال النقدي.

وتنقسم قنوات آلية انتقال آثار السياسة النقدية التي تدعم المقاربة النقدية إلى فرعين :

1/1/3 قنوات أساسية: تتمثل القنوات الأساسية في قناة سعر الفائدة، وقناة سعر الصرف.

2/1/3 قنوات ثانوية: تتمثل القنوات الثانوية في قناة أسعار الأسهم، قناة نظرية توبين – Tobin –الاستثمار وقناة آثار الثروة على الاستهلاك و قناة أسعار الأراضي و العقارات.

2/3 المقاربة الائتمانية: تعبر هذه المقاربة عن وجهة نظر الائتمان لآلية الانتقال النقدي وتقوم على منهج عدم كمال الأسواق المالية وأهمية الدور الذي يلعبه الوسطاء الماليين في نقل آثار السياسة النقدية إلى الناتج والتضخم، ويمكن أن نميز هذه المقاربة في خلال الملاحظات التالية:[8]

1/ ترتكز المقاربة الائتمانية لآلية الانتقال النقدي على أهمية البنوك كوسطاء ماليين ذات طبيعة خاصة، لكونها قادرة على التعامل بدرجة أكثر ملاءمة مع مختلف أنواع المفترضين كمشروعات صغيرة كانت أو متوسطة أو قطاع العائلات.

2/ في هذه المقاربة يتم الأخذ بعين الاعتبار الآثار التوزيعية للسياسة النقدية (هناك عدة فروقات نتيجة لغياب التناسق في الأوضاع المالية من ناحية و درجة اعتماد المقترضين على البنوك من ناحية أخرى، بعبارة أخرى مدى مساهمة البنوك في تمويل القروض).

وتتمثل قنوات آلية انتقال آثار السياسة النقدية التي تدعم المقاربة الائتمانية في قناة الإقراض المصرفي وقناة الميزانية العمومية التي تتكون في ثلاث قنوات فرعية هي:

1/قناة التدفق النقدي 2/قناة مستوى السعر غير المتوقع 3/قناة السيولة لدى قطاع العائلات.

وقد أضيفت قناة جديدة تسمى بقناة التوقعات، لكن قبل ان نفصل في شرح هذه القنوات لابد من التطرق إلى الخطوات أو المراحل التي تمر بها عملية الانتقال.

ثالثا- مراحل انتقال آثار السياسة النقدية:

إن انتقال آثار السياسة النقدية يمر بثلاث خطوات رئيسية هي[9]:

1- الخطوة الأولى: تتمثل في أن التغير في سعر الفائدة الرسمي سوف ينعكس في التغيرات في كل من أسعار الفائدة السوقية و أسعار الأصول الأخرى والنقود والائتمان والتوقعات وأسعار الصرف.

2- الخطوة الثانية: تتمثل في هذه المتغيرات تؤثر بدورها على قرارات الاستهلاك والاستثمار سواء كان استثمار للأفراد أو استثمار المشروعات، مما يؤثر على الطلب المحلي أو الداخلي ويؤثر على صافي الطلب الخارجي أو ما يعرف بصافي الصادرات، وهذا ما يؤثر على الطلب الكلي .

3- الخطوة الثالثة: تتمثل في انتقال التغيرات في الطلب الكلي إلى التغيرات في الناتج والتضخم ويتوقف أثر التغيرات في الطلب الكلي على الناتج على مقدار جحود كل من الأجور والأسعار ويمكن توضيح الخطوات السابقة في الشكل التالي:

شكل رقم (1) يوضح مراحل انتقال أثر السياسة النقدية

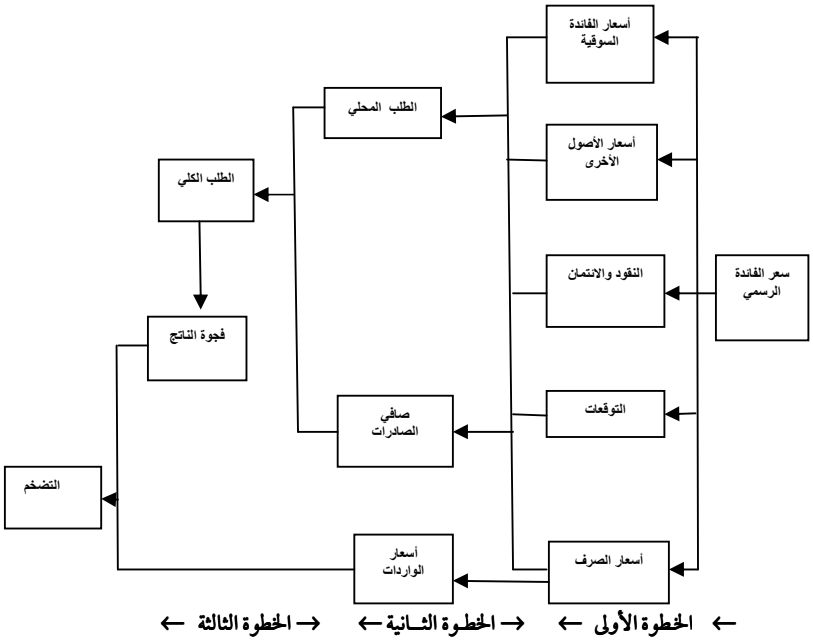

المصدر: مجدي الشوربجي: آثار السياسات الاقتصادية الكلية على الناتج والأسعار في مصر، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة 2013: ص55.

من خلاله الشكل رقم (1) يمكن أن نسجل الملاحظات التالية:

- في حالة عدم جحود الأسعار والأجور فإن التغيرات في الطلب سوف يترتب عليها حدوث تغيرات في الأسعار بشكل فوري. مع عدم حدوث تغيرات في الناتج.

- في الأجل القصير عندما يكون هناك جمود في كل من الأجور والأسعار فإن التغيرات في الطلب الكلي سوف تؤدي إلى حدوث تغيرات في الناتج الكلي فقط.

- يتوقف أثر التغيرات في الطلب الكلي على الناتج والتضخم جزئيا على مستوى فجوة الناتج (الناتج الإجمالي الفعلي مطرحا منه الناتج الإجمالي الممكن)، [10] مثلا إذا كان الناتج المحلي

الإجمالي الفعلي أكبر من الناتج المحلي الإجمالي الممكن، فإن الزيادة في الطلب الكلي سوف تؤدي إلى حدوث فجوة تضخمية مع زيادة حادة في المستوى العام للأسعار المحلية.

رابعا- قنوات انتقال أثر السياسة النقدية:

1- قناة سعر الفائدة:

هي قناة تقليدية لانتقال أثر السياسة النقدية إلى هدف النمو، ذلك أن السياسة النقدية التقليدية تعمل في إطار نموذج (IS / LM) الكينزي وبالتالي فإن السياسة التوسعية تؤدي إلى زيادة عرض النقود (Ms↑) مما يترتب عليها حدوث انخفاض في سعر الفائدة الحقيقي (r↓) وينتج عن ذلك انخفاض تكلفة رأس المال [11]، مما يؤدي إلى زيادة الإنفاق الاستثماري (I↑)، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الطلب والناتج الكليين (Y↑) ويمكن توضيح كيفية انتقال أثر السياسة النقدية التوسعية إلى الاقتصاد الحقيقي وفقا لقناة سعر الفائدة كما يلي:

ملاحظة: بالرغم من أن قناة سعر الفائدة تعمل من خلال قرارات الاتفاق الاستثماري للمشروعات إلا أن الدراسات الحديثة أكدت على إمكانية إدخال قرارات المستهلكين الخاصة بالاتفاق على الأراضي والعقارات والسلع المعمرة [12] ضمن آلية انتقال آثار السياسة النقدية وفقا لقناة سعر الفائدة.

وبيانيا يمكن توضيح قناة سعر الفائدة في الشكل التالي:

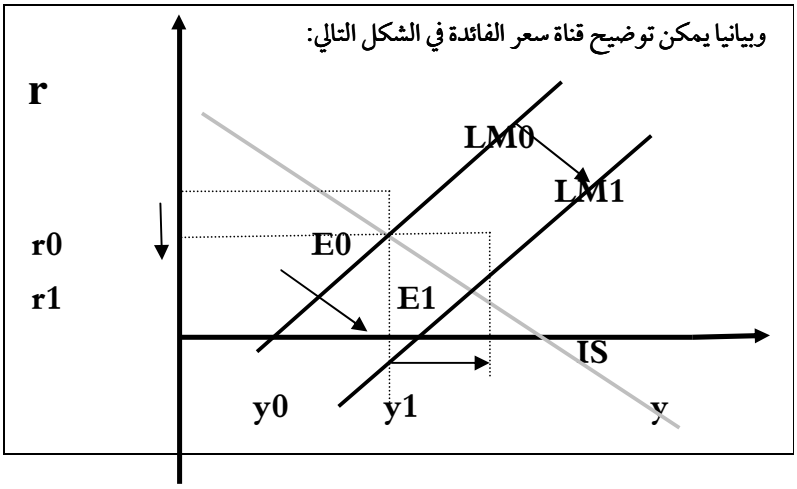

شكل رقم 2 : يوضح بيانيا قناة سعر الفائدة

يتضح من هذا الشكل أن إتباع سياسة نقدية توسعية يؤدي إلى زيادة عرض النقود الحقيقي مما يترتب عنه انتقال منحنى LM إلى أعلى اتجاه جمعة اليمين من LM0 إلى LM1 مؤديا إلى انخفاض سعر الفائدة الحقيقي من r0 إلى r1 ويترتب عن ذلك انخفاض تكلفة رأس المال مما يترتب عنه زيادة في كل من الانفاق الاستثماري الخاص والانفاق الاستهلاكي على الأراضي والعقارات والسلع المعمرة الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الناتج الكلي الحقيقي من y0 إلى y1 في الأجل القصير.(13)

2- قناة سعر الصرف:

تشتمل قناة سعر الصرف على أثر أسعار الفائدة الحقيقية فالسياسة النقدية التوسعية (Ms↑) تؤدي إلى انخفاض أسعار الفائدة الحقيقية (r↓) مما يجعل الودائع بالعملة المحلية أقل جاذبية مقارنة بالودائع بالعملات الأجنبية مما يترتب عنه انخفاض مقدار الودائع بالعملة المحلية مقارنة بمقدار الودائع بالعملات الأجنبية هذا ما يتسبب في انخفاض قيمة العملة المحلية (E↓) وينتج عن ذلك انخفاض قيمة العملة المحلية حدوث زيادة في أسعار السلع المستوردة مقومة بالعملة الأجنبية مما يؤدي إلى زيادة صافي الصادرات (Nx↑) وبالتالي حدوث زيادة في الناتج الكلي (y↑). والشكل (3) يوضح آلية انتقال آثار السياسة النقدية من خلال سعر الصرف. (14)

شكل رقم (3) يوضح قناة سعر الصرف

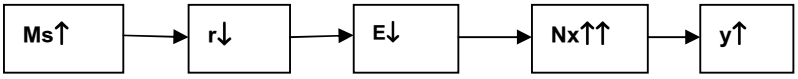

3- قناة أسعار الأسهم:

تتكون قناة أسعار الأسهم من ثلاث قنوات فرعية هي:

3/1- قناة نظرية توبين Tobin للاستثمار:

هي قناة تشرح كيفية انتقال آثار السياسة النقدية من خلال تأثيرها على التغير في أسعار أسهم الشركات إن الفكرة الأساسية لنظرية توبين للاستثمار هي أن الاستثمار يتوقف على نسبة القيمة السوقية لأسهم الشركات إلى تكلفة إحلال رأس المال الحقيقي وقد أطلق توبين على هذه النسبة الحرف الانجليزي "q" ويشير ارتفاع "q" إلى ما يلي : (15)

1/ ارتفاع القمة السوقية للأسهم الشركات مقارنة بتكلفة إحلال رأس المال الحقيقي.

2/ انخفاض أسعار السلع الرأسمالية مقارنة بالقيمة السوقية لأسهم الشركات ومن ثم فإن ارتفاع q يشجع الشركات على إصدار أسهم جديدة وشراء سلع استثمارية جديدة. ووفقا لهذه

النظرية فإن السياسة النقدية التوسعية (Ms↑) تؤدي إلى انخفاض أسعار الفائدة الحقيقية وهذا ما يرفع من القيمة الحالية للعوائد المتوقعة للشركات وانخفاض جاذبية السندات مقارنة بالأسهم، ولهذا فإن الطلب على أسهم الشركات سوق يرتفع، الأمر الذي يرفع من أسعارها وينتج عن هذا الارتفاع زيادة في أسعار أسهم الشركات (Pe↑) حدوث زيادة في القيمة السوقية لأسهم الشركات مقارنة بتكلفة إحلال رأس المال الحقيقي (q↓)، مما يشجع الشركات على إصدار أسهم جديدة، وزيادة الاتفاق الاستثماري (I↑) الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الناتج الكلي (y↑) ونوضح ذلك في الشكل التالي:

شكل رقم (4) يوضح قناة نظرية Tobin للاستثمار

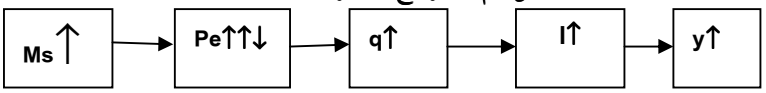

2/3- قناة آثار الثروة على الاستهلاك:

وفق نظرية "دورة الحياة" للاقتصادي Modigliani فإن الاتفاق الاستهلاكي يتحدد بموارد الأفراد الاستهلاكية طيلة حياتهم والتي تتكون من ثلاث عناصر هي:

1/ رأس المال البشري، 2/ رأس المال الحقيقي، 3/ الثروة المالية.

وطبقا لقناة آثار الثروة على الاستهلاك فإن السياسة النقدية التوسعية (Ms↑) تؤدي إلى انخفاض أسعار الفائدة الحقيقية مما يؤدي إلى زيادة أسعار الأسهم (Pe↑) ويترتب عنه حدوث زيادة في قيمة الثروة المالية (w↑)، مما يؤدي إلى زيادة موارد المستهلكين على مراحل حياتهم المتاحة للاستهلاك الأمر الذي يرفع من الاتفاق الاستهلاكي (C↑) ومن ثم حدوث ارتفاع في الناتج الكلي (Y↑) وهذا ما يوضحه الشكل الموالي:

شكل رقم (5) يوضح قناة آثار الثروة على الاستهلاك.

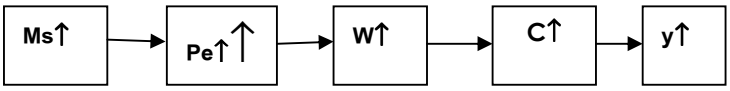

3/3- قناة أسعار الأراضي والعقارات:

على خلاف ما لاحظناه سابقا سنعتبر الأراضي والعقارات ضمن مفهوم الثروة وبذلك يمكن إدخالها ضمن إطار قناة نظرية Tobin للاستثمار وقناة آثار الثروة على الاستهلاك إذ نلاحظ عندها ما يلي:

إن الزيادة في أسعار الأراضي والعقارات تؤدي إلى زيادة قيمة الثروة ومن ثم بإحلال أسعار الأراضي والعقارات محل أسعار الأسهم وبذلك نحصل على قناة جديدة تسمى بقناة أسعار الأراضي والعقارات. (16)

وفقا لهذه القناة فإن السياسة النقدية التوسعية (Ms↑) تؤدي إلى انخفاض أسعار الفائدة (r↓) مما يؤدي إلى ارتفاع أسعار الأراضي والعقارات (Pt↑) وهذه الزيادة ينتج عن زيادة في قيمة الثروة (w↑) مما يؤدي إلى زيادة الإنفاق الاستهلاكي (C↑) وبالتالي حدوث زيادة في الطلب الكلي (y↑) وهذا ما يوضحه الشكل التالي:

شكل رقم (6) يوضح قناة أسعار الأراضي والعقارات

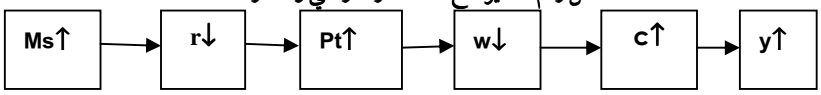

4/3- قناة الائتمان:

تتضمن قناة الائتمان قناتين فرعيتين هما:

1/ قناة الإقراض المصرفي أو ما تعرف بقناة الائتمان بالمفهوم الضيق.

2/ قناة الميزانية العمومية وتعرف بقناة الائتمان بالمفهوم الواسع.

وستناول كل قناة كما يلي:

1/4/3- قناة الإقراض المصرفي:

عند إتباع سياسة نقدية توسعية (Ms↑) أي زيادة العرض النقدي الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الاحتياطات والودائع المصرفية (BD↑) (17) حدوث زيادة في مقدار الائتمان المصرفي المتاح (القروض المصرفية) (BL↑)، مما يؤدي إلى زيادة الاستثمارات (I↑) الأمر الذي يؤدي بدوره إلى زيادة الطلب الكلي (Y↑) وهو ما يوضحه الشكل التالي:

شكل رقم (7) يوضح قناة الإقراض المصرفي

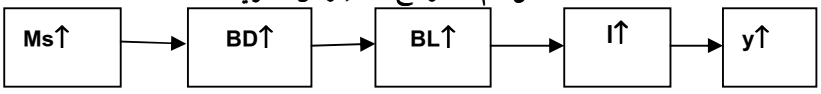

2/4/3- قناة الميزانية العمومية:

تقوم هذه القناة على توضيح العلاقة بين الصدمات النقدية وقرارات الاستثمار التي تتخذها الشركات من خلال تأثير هذه الصدمات في الوضع المالي للشركة(18)، ومضمون هذه القناة أن

علاوة التمويل الخارجي التي يتحملها المقترض تعتمد في الأساس على وضعه المالي. أي وضع المؤسسة المقترضة. حيث يؤدي انخفاض صافي قيمته أصول الشركات إلى تزايد مخاطر مشكلة تماثل المعلومات (مخاطر الاختيار السيئ) أي سوء النية، مما يؤثر على حجم الائتمان الممنوح لتلك الشركات. بالتالي انخفاض الاستثمار والناتج هذا في حالة الانكماش أما عند إتباع سياسة نقدية توسعية (Ms↑) يؤدي إلى حدوث ارتفاع في أسعار الأسهم (Pe↑) مما يؤدي إلى زيادة صافي الثروة للشركات ويترتب عن هذه الزيادة انخفاض أو نقص مشاكل كل من الاختيار المعاكس (السيئ) (AS↓) والخطر المعنوي (سوء النية) (MH↓) وهو ما يؤدي بدوره إلى زيادة الإقراض لهذه الشركات (L↑)، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الاتفاق الاستثماري (I↑) ومن ثم زيادة الناتج الكلي (y↑) والشكل التالي يوضح ذلك:

شكل رقم (8) يوضح قناة الميزانية العمومية

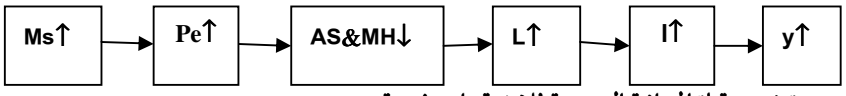

وتتضمن قناة الميزانية العمومية ثلاث قنوات فرعية هي:

1/قناة التدفق النقدي 2/قناة مستوى السعر غير المتوقع 3/قناة السيولة لدى قطاع العائلات.

1/2/4/3 – قناة التدفق النقدي:

إن قوام قناة التدفق النقدي يأتي من خلال آثار السياسة النقدية على أسعار الفائدة الاسمية[19] فعند إتباع سياسة نقدية توسعية (Ms↑) الأمر الذي ينتج عنه حدوث انخفاض في سعر الفائدة الاسمي (i↓) وهذا ما يؤدي إلى حدوث انخفاض نفقات خدمة الدين الأمر الذي يؤدي إلى زيادة قدرة الشركات على خدمة ديونها قصيرة الأجل عن ذي قبل، وهو ما يرفع من صافي التدفق النقدي لهذه الشركات (CF↑) ويترتب عن زيادة صافي التدفق النقدي (CF↑) حدوث زيادة في صافي الثروة للشركات من ينقص من مشاكل كل من الاختيار المعاكس (AS↓) والخطر المعنوي (MH↓) وهو ما يؤدي بدوره إلى زيادة الإقراض (L↑) وهو ما ينتج عنه ارتفاع في الاتفاق الاستثماري (I↑) ومن ثم زيادة الناتج الكلي (Y↑) وهو ما يوضحه الشكل التالي:

شكل رقم (9) يوضح التدفق النقدي

2/2/4/3- قناة مستوى السعر غير المتوقع:

تقوم هذه القناة على أساس تأثيرات السياسة النقدية على المستوى العام للأسعار[20] فإذا كانت مدفوعات الدين للشركات محددة بشكل ثابت بالقيمة الاسمية في العقود وعند حدوث زيادة غير متوقعة في الأسعار (P↑) والتي يمكن إرجاعها إلى التوسع في السياسة النقدية (Ms↑) هذا ما يؤدي من جانب معاكس إلى نقص في القيمة الحقيقية لخصوم الشركات وهذا ما يؤدي إلى زيادة صافي الثروة الحقيقية للشركات (زيادة الأصول بالنسبة للخصوم) الأمر الذي من **شأنه أن يقلل من مشاكل كل من الاختيار المعاكس (AS↓) والخطر المعنوي (MH↓) من** يؤدي إلى زيادة الاتفاق الاستثماري (I↑) الأمر الذي يدفع بزيادة الناتج الحقيق (y↑) وهذا ما **يوضحه الشكل أدناه:**

شكل رقم 09 يوضح قناة مستوى السعر غير المتوقع

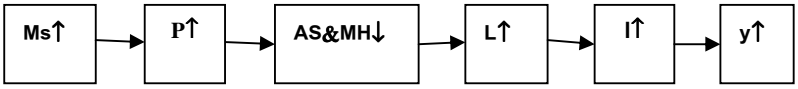

3/2/4/3 – قناة السيولة لدى قطاع العائلات:

تعمل قناة السياسة لدى العائلات من خلال آثار السياسة النقدية على الميزانيات، فعند السياسة النقدية التوسعية (MS↑) تؤدي إلى ارتفاع أسعار الأسهم (Pe↑) وسيترتب عن ارتفاع أسعار الأسهم حدوث زيادة في قيمة الأصول المالية للعائلات (VFA↑) بالنسبة لخصومها، مما يقلل من احتمال تعرضها لضائقة مالية (PFD↓) وهو ما يؤدي غلى زيادة قدرتها على شراء كل من السلع الاستهلاكية المعمرة والعقارات (C↑) الأمر الذي يؤدي غلى زيادة الناتج الحقيقي (y↑) وهذا ما يوضحه الشكل التالي:

شكل رقم 10 يوضح قناة السيولة لدى قطاع العائلات

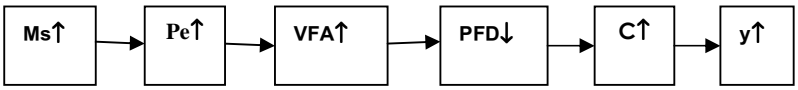

4- قناة التوقعات:

تعتمد قناة التوقعات على أهمية التوقعات بخصوص السياسة النقدية المستقبلية للبنك المركزي في آلية انتقال آثار السياسة النقدية، فالتوقعات هي الكفيلة بتقديم لآثار المترتبة عن السياسة النقدية المتبعة ومعرفة ما إذا كانت هذه السياسة ذات فعالية أم العكس من ذلك لذلك يرتبط اتخاذ الإجراءات المستقبلية للسلطات النقدية لمدى صحة التوقعات ومطابقتها الدقيقة للأحداث التي

سيكون عليها الوضع الاقتصادي المستقبلي. فالتوقعات بالتضخم تبرز مصداقية البنك المركزي ودرجة شفافية القرارات التي يتخذها مع ارتباط ذلك جدة وقوة الصدمات الاقتصادية. فإذا كانت توقعات التضخم غير مستقرة نتيجة عدة معطيات سياسية، مالية، اقتصادية فهذا ما لا يعمل على استقرار الاقتصاد الوطني وعند حدوث تزايد أو ارتفاع مستمر في التضخم فإن توقعات التضخم سوف تتسارع الأمر الذي يؤدي إلى زيادة معدل التضخم بشكل سريع جدا وفي حالاته القصوى، عندما يواجه الاقتصاد مشكلة التضخم الجامح، فإن قناة التوقعات تعتبر أهم من كل القنوات الأخرى لآلية انتقال آثار السياسة النقدية داخل هذا الاقتصاد. (21)

مما سبق يمكن أن نؤكد على أن قدرة السياسة النقدية على التأثير في النشاط الاقتصادي تتوقف على نوع الأداة المستخدمة وعلى الآلية التي يتم بها الانتقال لأثر هذه السياسة إلى الهدف النهائي على الأوضاع الاقتصادية.

وكخلاصة يمكن حوصلة قنوات الانتقال في المخطط التالي:

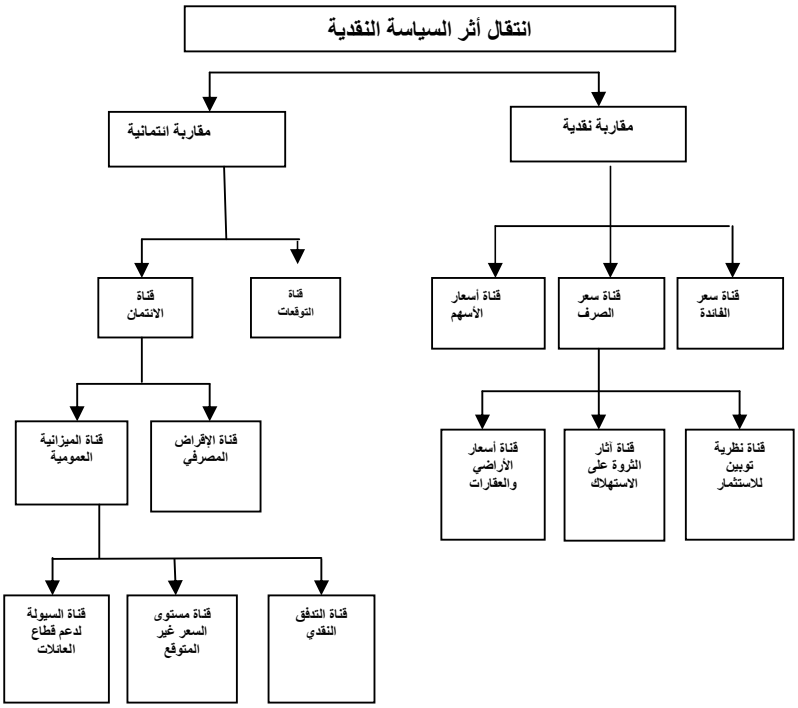

خلاصة:

إن الدراسات الميدانية التي اعتمدت على الأفكار التي ترتكز على ما جادت به البحوث والدراسات في هذا المجال، وضحت اختلاف النتائج المتعلقة بآلية انتقال آثار السياسة النقدية من البلدان المتقدمة، إلى البلدان النامية، ومن ثم لا يمكن استنتاج نتيجة عامة معينة تتفق وخصوصيات البلدان النامية أو البلدان المتقدمة، ويرجع السبب في ذلك إلى اختلاف وتباين أهمية قنوات الانتقال النقدي من دولة إلى أخرى من جهة، ومن فترة زمنية إلى فترة أخرى داخل الدولة الواحدة من جهة أخرى، حيث تتوقف درجة أهمية قناة معينة من هذه القنوات في دولة ما على الخصائص أو الملامح الاقتصادية لهذه الدولة.

المراجع:

(1)- جريدة الرياض، العدد **17418** الصادرة بتاريخ:**02** مارس **2016**، المملكة السعودية، ص:**34**

http://www.alriyadh.com/archive/2016/03/02

(2)-(JEAN PIERRE PATAT , Monnaie ,système financier et politique monétaire, 5 eme édition , économica ,2002,p:277

(3)- مجدي الشوربجي، آثار السياسات الاقتصادية الكلية على الناتج والأسعار في مصر، الدار المصرية اللبنانية القاهرة **2013**، ص:**53**

(4)- نفس المرجع أعلاه ص:**54**

(5) - عبد المطلب عبد المجيد، السياسة النقدية واستقلالية البنك المركزي، الدار الجامعية الإسكندرية، **2013**، ص:**124**

(6)- نفس المرجع أعلاه ص:**125**

(7)- نفس المرجع أعلاه، نفس الصفحة

(8)- مجدي الشوربجي، مرجع سابق، ص:**56**

(9)- نفس المرجع أعلاه ص:**57**

(10)- عبد الرزاق بني هاني، مبادئ الاقتصاد الكلي دار وائل للنشر، الأردن، **2014**، ص:**339**

(11)- عبد الحسين جليل الغالبي، السياسات النقدية في البنوك المركزية دار المناهج للنشر والتوزيع ط1، الأردن، **2015**، ص- ص:**178- 179**

(12)- نفس المرجع أعلاه ص:**192**

(13) - مجدي الشوربجي، مرجع سابق، ص:**127**

(14)- أحمد رمضان نعمة الله وآخرون، النظرية الاقتصادية الكلية، الدار الجامعية، الإسكندرية، **2002**، ص:**212**

(15)- عبد المطلب عبد المجيد، مرجع سابق، ص:**126**

(16)- نفس المرجع أعلاه ص:**127**

(17)- مجدي الشوربجي، مرجع سابق، ص- ص: **56- 57**

(18) PAUT JACQUES LEHMAN, La politique Monétaire institution, instruments et Mécanismes LAVOISIER, PARIS, 2011,p:234

(19)PHILIPE JAFFRE, Monnaie et politique monétaire, 4eme Edition, Economie PARIS, 1996, p:151

(20)- مجدي الشوربجي، مرجع سابق، ص:127

(21)- نفس المرجع أعلاه، نفس الصفحة.

Mechanisms of the impact of monetary policy on economic activity

Ali DEHEB*

Abstract:

The interest in monetary policy began during the twentieth century as a result of the global recession crisis or what is known as a crisis (1929), but the literature of the economy confirms that the term appeared before this date. It dates back to the 19th century. The impact of this policy on economic activity is linked to a concept of great importance, and the extent of response to other economic changes to changes in money supply.

This paper addresses the following: how do the effects of monetary policy move to economic activity? and what are the mechanisms that help this?.

Key words:

Monetary policy - the money supply - the interest rate - inflation - the impact of money - deflationary policy - expansionist policy - transition channels - the exchange rate-

* Faculty of Economics, Business and Management Sciences - University of El-oued – Algeria.

مساهمة القطاع الزراعي في تحقيق التنمية الاقتصادية ـ إقليم وادي سوف[1] نموذجا ـ

بقلم
أ. عمار مصطفاوي (*)

ملخص

تطمح الجزائر كدولة نامية لتحقيق التنمية الاقتصادية، من خلال توفير مختلف الظروف والشروط المساعدة على ذلك، والتي من بين مرتكزاتها القطاع الزراعي، باعتباره قطاعا حيويا، يمكن له تلبية حاجيات البلاد المتزايدة من المنتجات الزراعية، والابتعاد عن شبح التبعية الغذائية للخارج، بل والمساهمة في التنويع الاقتصادي، وإقليم وادي سوف بالجنوب سجل تحولا كبيرا في هذا القطاع حيث يمكن أن نعتبره نموذجا ناجحا.

الكلمات المفتاحية: الإقليم، القطاع الزراعي، وادي سوف، تنمية اقتصادية

تمهيد

تعتبر نهاية الثمانينات القرن العشرين نقطة تحول أساسية في مسار النظام الزراعي بإقليم سوف الذي كان يعتمد على الغيطان[2] الموجودة منذ قرون، ويركز في زراعته على النخيل بالدرجة الأولى، وكذا زراعة بعض المحاصيل لهدف معيشي، أو تلبية حاجيات الأسواق المحلية، هذا الوضع تغير ببروز صعود المياه التي بدأت كظاهرة وتحولت لمشكلة، لتؤثر على أغلب مناطق الإقليم بسوف، مما جعل الفلاحين يعملون على تجاوز هذا الوضع الخطير الذي تسبب في تدهور وضعية مجال قرني، فهو من ناحية الزمن قديم لكن من حيث التقنيات متطور واقتصادي، على اعتبار غياب التبذير، فالنخيل تستهلك حاجتها من المياه فقط.

بداية التحول كانت باستغلال المساحات المحاذية للغيطان واستغلت في زراعة البطاطا على الخصوص التي انتشرت في منتصف التسعينات من منطقة تغزوت[3] لتنتقل لكثير من المناطق

(*) أستاذ مساعد "أ" بكلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير. جامعة الوادي.
mostefaoui.omar1@gmail.com

بالإقليم، وحققت وفرة في الإنتاج، الذي يفوق في كثير من الحالات ما تنتجه أجود أراضي الشمال وأدى لتوسع مستمر في المساحات.

إشكالية الدراسة:

هل يمكن للقطاع الزراعي أن يكون مساهما فعليا في تحقيق التنمية الاقتصادية؟ وكيف ذلك؟

ويكتسي هذا الموضوع أهمية كبيرة في ميدان البحث، فعلى ضوء الأزمات الاقتصادية وتعددها، ومن خلال ما تنادي به السلطات من ضرورة التنويع الاقتصادي والبحث عن البدائل لتحقيق التنمية ارتأينا في هذه الدراسة تسليط الضوء على الاقتصاد الأخضر كقطاع يمكن أن يساهم في ذلك.

ونهدف من هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على منطقة صحراوية تتمثل في إقليم سوف، والتي على الرغم من قساوة الطبيعة والظروف المحيطة، إلا أن ذلك لم يمنع من بروز مظهر زراعي جديد تجاوز مجال نفوذه المستوى المحلي وأصبح يغطي حاجيات الوطن، بل وصل إلى خارج المجال الوطني.

وتقوم هذه الدراسة على فرضية أن القطاع الزراعي بتوفر إرادة حقيقية للدولة من خلال المرافقة والدعم والتوجيه سيكون بديلا حقيقيا لتحقيق الإقلاع الاقتصادي.

وللإجابة عن هذه الفرضية الأساسية فقد قسمنا الدراسة للمحاور التالية:

I . مساهمة القطاع الزراعي في التنمية المحلية والوطنية

II . معيقات النشاط الزراعي في إقليم سوف

III . الآثار الناجمة عن التحول الزراعي

VI . آفاق القطاع الزراعي بين إدارة الدولة وإرادة الفلاح.

وعن موضوع دراستنا لابد من الإشارة لبعض الدراسات السابقة التي اهتمت بإقليم سوف وتاريخه، والكثير منها لا تعدوا أن تكون مونوغرافيا للمنطقة، أما الدراسات العلمية فنذكر:

مخزومي لطفي: آثار السياسات الحكومية على القطاع الزراعي في بناء نموذج تكثيف محصولي مستدام بمنطقة وادي سوف، رسالة دكتوراه من جامعة المدية في الموسم 2016/2015، وهي دراسة تحليلية اقتصادية لعديد المنتجات الزراعية بمنطقة سوف، وأبرزت النتائج إمكانية أن يكون هناك تكثيف لبعض المنتوجات التي تمتلك ميزة تنافسية حقيقة خاصة منتوجي التمور والبطاطا.

مصطفاوي عمار: القطاع الفلاحي بإقليم سوف بين القديم والجديد، رسالة ماجستير الموسم2001/ 2002 من كلية علوم الأرض والتهيئة العمرانية الجغرافية من جامعة قسنطينة، وقد أبرزت الفوارق بين النظامين الزراعيين القديم والجديد وأبرزت أسباب هذا التحول ومدى

مساهمة مشكلة صعود المياه في ذلك.

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على الميدان والتواصل المباشر بالفلاحين وكذا ملاك الموازين المختصة في وزن شاحنات نقل الخضار نحو ولايات الوطن، إضافة إلى المعطيات الإحصائية التي من المصالح المختصة (مديرية المصالح الفلاحية ومديرية الموارد المائية)، وكذا الديوان الوطني للإحصاء ووزارة الفلاحة، وقد اعتمدنا على مجال زمني للدراسة للفترة 1999-2014 وهي الفترة التي تتوافق مع المخططات الخماسية وبرامج الدولة المختلفة.

I. مساهمة القطاع الزراعي في التنمية على المستويين المحلي والوطني :

للوقوف على مساهمة القطاع الفلاحي في التنمية ارتأينا دراسة ذلك على المستوى المحلي من خلال أثر التحول في النشاط محليا ثم معرفة مدى مساهمة ذلك على المستوى الوطني

1.I مساهمة القطاع الزراعي على المستوى المحلي في إقليم وادي سوف:

شهد الإقليم تحول جوهريا في النظام الزراعي الذي كان يرتكز على زراعة النخيل بالطريق التقليدية وما تعرفه من تنوع[4]، إلى نظام زراعي جديد مختلف ويظهر ذلك خلال تطور المساحات المستغلة زراعيا (SAU) حيث انتقلت إلى الضعف سنة 2014 ووصلت لـ 46921 هكتار، وعمدت الدولة لتقديم الدعم لمختلف المنتجات الزراعية خصوصا النخيل الذي تدهورت وضعيته بالإقليم بسبب مشكلة صعود المياه -الناجمة عن الاستغلال غير العقلاني البشري[5] وتدخله المفرط مما أدى لخلل في النظام القائم- وذلك بدعم زراعته في مختلف البرامج خاصة ما تعلق بالامتياز الفلاحي، والذي أصبح يحظى باهتمام دولي على اعتبار أن الزراعة عامل مهم في تحقيق التنمية[6].

مختلف الصعاب التي واجهها الفلاحون لم تقف عائق أمام إدارة الفلاح السوفي، ولا أدل على ذلك المساحات الواسعة من البطاطا التي غيرت طبوغرافية المجال، حيث وبلغت مساحات البطاطا سنة 2012 حوالي 80% من المساحة المستغلة الزراعية بالإقليم، وساعد هذا التوسع المردود الاقتصادي الكبير لهذا المنتوج، ويظهر تطور مساحات البطاطا مقارنة بالمساحات المخصصة لمحصول البطاطا من خلال الجدول:

جدول رقم "01" نسبة المساحة المستغلة في زراعة البطاطا للفترة 1999-2016:

الموسم	المساحة المستغلة زراعيا (هكتار)	مساحة البطاطا (هكتار)	النسبة %
1999/1998	17678	614.3	3.47
2000/1999	17737	804	4.53
2001/2000	17747	707.4	3.98
2002/2001	18374	165.4	9.00
2003/2002	19200	2522.5	13.13
2004/2003	20331	4403	21.65
2005/2004	25872	6693	30.60
2006/2005	23662	7340.5	31,02

30.05	7180.5	23889	2007/2006
42.94	11237	26168	2008/2007
54.71	14173	25902	2009/2008
60.14	18766	31200	2010/2009
66.86	23957	35829	2011/2010
79.30	30159	38031	2012/2011
78.39	34980	44623	2013/2012
70.00	33000	46921	2014/2013
70.07	33000	47092	2015/2014
71.14	35000	49192	2016/2015

المصدر: معالجة معطيات مديرية المصالح الفلاحية لولاية الوادي 2014.

ومن جانب آخر ولتبرير الدافع الاقتصادي وراء هذا الخيار، فقد تجنب الكثير من الفلاحين بالإقليم البطاطا الموسمية على الرغم من مردودها الكبير لتجنب المنافسة مع المناطق المنتجة الأخرى مثل عين الدفلى، معسكر، سطيف .... الخ، واختيار نوع البطاطا المتأخرة والتي بالرغم من وجود بعض المنافسة إلا مخاطر زراعتها بالولايات المعنية أكبر بسبب تساقط الأمطار مما يجعل ولوج الأسواق أكثر أريحية (المنحنى رقم " 01").

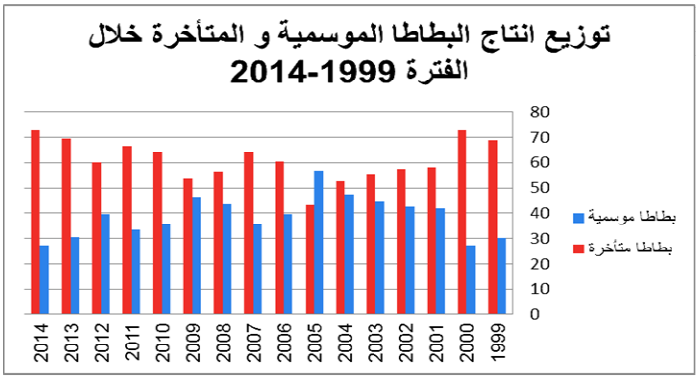

المصدر: معالجة معطيات مديرية المصالح الفلاحية لولاية الوادي 2014.

إضافة لمنتوج البطاطا، هناك منتوجات أخرى عرفت اهتماما كبيرا بالمنطقة مثل الطماطم التي اختصت بها بلدية المقرن، وكذا منتوج البطيخ والتبغ، أما زراعة الزيتون فعلى الرغم من الدعم الكبير من الدولة إلا أن الصعاب التي يواجهها الفلاحون تجعل هذا المنتوج مهدد، وما يشار له أن هناك بلديات بالإقليم اختصت بالإنتاج الفلاحي وحافظت على ذلك وهي بلديات قمار، الرقيبة، حاسي خليفة، الدبيلة، وطريفاوي، سيدي عون، المقرن وهي تقع شمال الإقليم، أما باقي البلديات فلها توجهات أخرى خاصة تربية المواشي بالجهة الجنوبية

محليا استطاع الفلاح السوفي بجهوده المتواصلة وعمله الدؤوب على التحسين من مستواه

المعيشي بفضل زيادة المدخول الذي يحصل عليه من القطاع الزراعي ويظهر ذلك خلال النمط العمراني وأشكال البنايات ومظهرها الخارجي الذي تغير وانتقل نحو الأحسن.

1.1.I تحسن المستوى المعيشي:

ولمعرفة ما يجنيه الفلاح السوفي من مدخول مختلف المنتجات والمحاصيل الزراعية، سنحاول أن ندرس كلفة الإنتاج لأهم المحاصيل الزراعية وحجم الفوائد التي يحصلون عليها.

أ-الكلفة الإجمالية لإنتاج النخلة الواحدة

قصد الحصول على الكلفة الإجمالية لـ 1 هكتار من النخيل تم التواصل مع مجموعة من الفلاحين من مناطق مختلفة من الإقليم لمعرفة متوسط الفائدة التي يجنيها الفلاح من الهكتار من النخيل وتبين أن أغلب الفلاحين يكتفون بصيانة النخيل ومداواته ضد البوفروة7 الذي يكون على عاتق الدولة ، وأعمال التلقيح، وبالتالي ما يحصلون عليه في نهاية المطاف هو فائدة جني المحصول على اعتبار ان متوسط المردود هو 60 كلغ/النخلة في مختلف الأنواع.

والأسعار في سوق الجملة تختلف حسب النوعية وهي كالتالي:

النوعية الجيدة: بين 120.00 دج – 250.00 دج

النوعية المتوسطة: بين 80.00 دج- 120.00 دج

النوعية الرديئة: بين 40.00 دج- 80.00 دج

وهي أسعار سوق الجملة للتمور خلال الموسم الفلاحي 2015 – 2016.

وبالنسبة للنوعية الممتازة والتي تنتج على مستوى المزرعة النموذجية الضاوية ببلدية الوادي فالتكاليف [8] هي كالتالي:

مختلف التدخلات على النخلة الواحدة (عناية، تلقيح، تسميد....إلخ): 5.000.00 دج.

المردود: 2 قنطار للنخلة. (من النوع الجيد دقلة نور)

الأسعار: 200.00 دج المتوسط.

أي أن متوسط ربح النخلة الواحدة هي 45.000.00 دج

ويتم تصدير 50% من المنتوج للخارج بحسب المشرفين على المزرعة (المداخيل بالعملة الصعبة).

ب- التكلفة الإجمالية لمحصول البطاطا للهكتار:

المصاريف:

الغبار: 150.000.00 دج

.....البذور: 150.000.00 دج

.....أسمدة: 15.000.00 دج

.....أدوية: 15.000.00 دج

....يد عاملة: 50.000.00 دج

.....كهرباء: 20.000.00 دج

.....أخرى: 50.000.00 دج

المجموع ..... 450.000.00 دج

المردود.....250ق/هـ (كمتوسط)

أي أن كلفة البطاطا للكيلوغرام هي 18دج/كلغ، بمعنى أن الفلاح ليحقق ربحا يجب أن يبيع بسعر يفوق 18 دج/للكيلوغرام، والفلاحين عادة ما يبيعون منتجاتهم بالجملة والأسعار تتراوح في سوق الجملة بين 23 دج إلى 30 دج، أي أن الربح الصافي يتراوح بين 125000.00 – 250000.00 دج للهكتار الواحد خلال 3 أشهر.

ورغم هذا تبقى مخاطرة الفلاحين كبيرة خلال السنوات التي تكون فيها الأسعار منخفضة مثلما حصل سنة 2015 حين انخفضت الأسعار إلى ما دون الـ18دج، أي أقل من كلفة الإنتاج[9]، ويكمن الحل في لجوء الفلاحين لغرف التبريد مما قد يشكل عبئا إضافيا ح ليعاد بيعها حين ترتفع الأسعار.

ج- التكلفة الإجمالية لمحصول الطماطم / الهكتار

المصاريف:

.....بذور: 105.000.00 دج

.....غبار: 15.000.00 دج

.....أسمدة : 20.000.00 دج

.....أدوية: 20.000.00 دج

.....يد عاملة: 150.000.00 دج

المجموع:..... 605.000.00 دج.

المردود: 600 ق/هـ(كمتوسط)

أي أن تكلفة إنتاج الطماطم للكيلو غرام هي 10 دج، وأسعارها في سوق الجملة تتراوح بين 13 و20 دج، أي أن الربح الصافي يكون بين: 17.500.00 دج – 5.950.000 دج.

ويطرح نفس المشكلة في السنوات التي تنخفض فيها الأسعار مثلما حدث الموسم 2014 – 2015 حين وصلت الأسعار لـ 10 دج أي أنها تغطي تكاليف الإنتاج فقط مما يجعل الفلاحين

يتجنبون زراعتها لاحقا. خصوصا في ظل عدم كفاية غرف التبريد وعدم وجود مصانع تحويل الطماطم بالمنطقة.

د- تكلفة إنتاج البطيخ الأحمر في الهكتار

هناك أشغال إضافية تتكرر كل سنة وتتمثل في أشغال التهيئة الأرضية وكذا الزرب (حماية من الرياح).

المصاريف:

.....الزرب+ التهيئة+البذور: 100.000.00 دج

.....يد عاملة: 50.000.00 دج

المجموع:.....: 1.005.000.00 دج

المردود: 500 قنطار / الهكتار.

وتبلغ أسعار البطيخ الأحمر في السوق بين 25.00 دج- 40.00 دج

أي أن الربح الصافي يتراوح بين 250.000.00 – 750.000.00 دج.

وهو ما جعل هذه الزراعة تشهد نوعا من التوسع في السنوات الأخيرة على الرغم من عدم تشجيع الدولة لها بحكم استهلاكها الكبير للمياه.

ذ- تكلفة إنتاج الفول السوداني في الهكتار

المصاريف:

.....البذور: 60.000.00 دج

.....الأسمدة: 30.000.00 دج

.....الأدوية: 20.000.00 دج

.....اليد عاملة: 100.000.00 دج

المجموع.....: 210.000.00 دج

المردود: 25 ق/ الهكتار.

أي أن سعر الكلغ يكلف حوالي 84.00 دج.

وأسعار البيع في سوق الجملة تتراوح بين 100.00 دج – 170.00 دج.

بمعنى أن صافي الربح يتراوح بين 90.000.00 – 240.000.00 دج.

و- تكلفة إنتاج التبغ في الهكتار

بالنسبة لمحصول التبغ فهو يزرع ببعض المناطق شمال الإقليم

المصاريف

.....البذور: 5000.00 دج.
.....الأسمدة: 20.000.00 دج
.....الأدوية: 10.000.00 دج
.....مصدات الرياح(الزرب) ليست سنوية: 50.000.00 دج
.....الكهرباء: 15.000.00 دج
المجموع: .....:.100.000.00 دج
المردود 15 ق/ هكتار.

سعر البيع محدد من المؤسسة الوطنية للتبغ والكبريت 120.00 دج/كلغ أي أن الربح الصافي يقدر بـ 80.000.00 دج. واليد العاملة عائلية ولا تحتاج إلى يد عاملة من خارج العائلة.

وعلى اعتبار أن مختلف الزراعات هي موسمية، وتستغرق لفترة زمنية لا تتجاوز الـ 03 أشهر، فإن الربح المادي لمختلف المنتجات يعتبر مهم، وهو الأمر الذي أدى بالتالي لتحسين دخول الفلاح الذي تحول في كثير من الحالات لتاجر بهدف ممارسة النشاط الزراعي لتحقيق الربح المادي، الأمر الذي جعل الكثير من ممارسي هذا النشاط هم في الأصل عمال وإطارات في قطاعات إدارية وأخرى مستقلة، وفي محاولة لإعطاء إحصائية تعبر عن ممارسي النشاط الفلاحي، كنشاط ثانوي، وجدنا تحفظ كبير ممن قابلناهم وحاولنا الحصول على ذلك، وفي الميدان وجدنا الأطباء والمعلمين والتجار ممن يستغلون مساحات زراعية للإنتاج الزراعي وحتى تربية المواشي.

I -1-2 الاكتفاء الذاتي من المنتجات الزراعية

بفضل وفرة المحاصيل الزراعية وتطور المساحات الزراعية، استطاع القطاع الفلاحي أن يجعل الإقليم مكتف ذاتيا من مختلف المنتجات الزراعية خاصة الخضروات المختلفة المنتجة محليا، وبقيت تبعية المنطقة فقط في الفواكه التي بقيت مساحاتها وإنتاجها ضعيف لطبيعة المنطقة الصحراوية التي لا تلائم مثل هكذا أنواع من المنتجات الزراعية.

وتوجد في مختلف بلديات الإقليم أسواق يومية تعرض فيها مختلف المنتجات الفلاحية الطازجة ومن مختلف أنواع الخضروات وبالإضافة للبطاطا والطماطم، هناك الكوسة والخيار والبصل والفلفل الحلو والحار....إلى غير ذلك من المنتجات، ولا أدل على الوصول إلى مرحلة الاكتفاء هو الانتقال لتصدير الفائض من الإنتاج إلى الولايات الشمالية من الجزائر.

I -1-3 تقليص نسب البطالة

بلغ عدد المشتغلين بقطاع الزراعة 122000 عامل10 بين دائم وموسمي حيث تراجعت نسب البطالة بالإقليم لأقل من 07% خلال السنوات الأخيرة وفقا لمديرية التشغيل، وتعتبر

توفير مناصب العمل من بين أهداف سياسة التجديد الريفي المعلنة من الدولة [11] .

إذ أن الفلاحة فتحت أفاقا جديدة للتشغيل خصوصا مع دخول الكثير من المشاريع الصناعية الغذائية مرحلة التنظيم من خلال مناطق النشاط التي أنشئت في الكثير من بلديات الإقليم، خصوصا بلدية واد العلندة (مطاحن، معار الزيتون....إلخ)، وكانت سنة 2007 بداية للمنحنى التصاعدي لليد العاملة الزراعية [12] .

منحنى رقم " 02 "

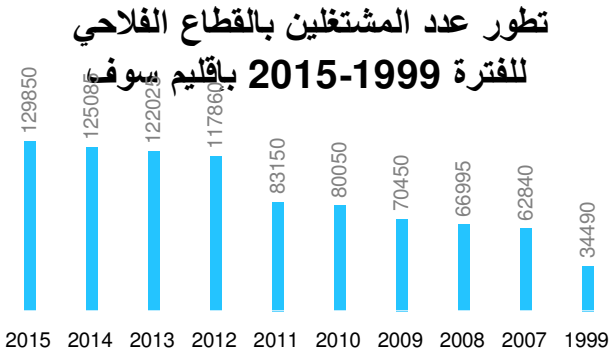

المصدر: معالجة معطيات مديرية التشغيل ومديرية البرمجة ومتابعة الميزانية لولاية الوادي 2016

I -2- مساهمة القطاع الزراعي بإقليم سوف على المستوى الوطني

حقق إقليم سوف أرقاما مهمة في إنتاج بعض المحاصيل الفلاحية واحتلت مراتب متقدمة على المستوى الوطني لاسيما في إنتاج البطاطا، حيث احتلت الولاية ممثلة في الإقليم المرتبة الأولى وطنيا بداية من سنة 2012 بنوعيها الموسمي والمتأخرة، وهذه النتائج مؤشر قوي على مستقبل الفلاحة بالإقليم والجنوب عموما، وقد أصبحت الولاية تغطي 21.3٪ 13من الإنتاج الوطني في الموسم 2015-2016، ويبلغ إجمالي الإنتاج الزراعي بالإقليم حوالي 16 مليون قنطار في مختلف المنتجات وهي بذلك تحتل المرتبة الثانية وطنيا محققا دخلا ماليا يقدر بـ 132.4 مليار دج (مديرية المصالح الفلاحية 2014).

من خلال هذه الأرقام يمكن القول أن الزراعة بالإقليم تشكل رافدا أساسيا للتنمية الاقتصادية الوطنية على الرغم من كل الظروف (الطبيعية، العوائق الإدارية، الكهرباء، المسالك...الخ).

II - معوقات النشاط الزراعي بالإقليم

بالرغم من احتلال الإقليم الريادة في عديد المنتجات الزراعية سيما البطاطا والتمور والفول السوداني، وكذا الاكتفاء الذاتي من الكثير من منتوجات الخضروات إلا أن المعيقات التي يواجهها الفلاحين بالإقليم كبيرة، وإن تم تجاوزها، فستحقق واد سوف معجزة في المساحات والإنتاج، ورغم كل ذلك فقد بدأت فعليا في التصدير والانتقال لمرحلة جديدة من الدورة الاقتصادية.

ومن خلال العمل الميداني والتواصل مع الفلاحين حاولنا تلخيص أهم المشاكل فيما يأتي:

II -1 مشكل العقار الفلاحي وتسوية الوضعيات: في الكثير من المناسبات تؤكد الدولة أن اهتمامها بالقطاع الزراعي يعتبر من أولياتها وتشير الأرقام أن نسبة تسوية وضعيات العقار للمستفيدين لم تتجاوز 48.90%وهذا بالنسبة لمن تجاوزت مدة استفادتهم الخمس سنوات التي يقرها القانون، وبالنسبة لمن حصلوا على قرار الشرط الفاسخ فنسبتهم بلغت 44.62% وتم إلغاء ما نسبته 32.26% أما ما تعلق بعملية تحويل حق الانقطاع إلى حق الامتياز بلغت نسبة 23.10% بإجمالي مستثمرين بلغ 13034 فلاح، وهي تظهر حسب البلديات في إقليم سوف بالمنحنى.

منحنى رقم "03 "

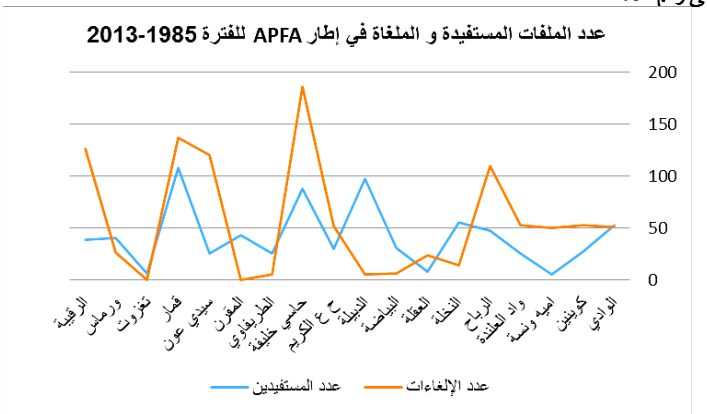

المصدر: معالجة معطيات مديرية المصالح الفلاحية 2013

II -2 الكهرباء الريفية: سطرت السلطات على مستوى ولاية الوادي برنامجا لبلوغ 551.416 كلم شبكة كهرباء فلاحية خلال المخططات المختلفة بداية من ل1999 لغاية 2014 (البرنامج الخماسية)، ولم يتحقق منها سوى 57% وذلك يرجع لمشاريع الكهرباء الكبيرة التي استفادت منها ولاية الوادي، وعدم قدرة الشركة الوطنية للكهرباء والغاز على إكمال هذا

البرنامج، وما بين الصعوبات الأخرى التي تواجه عمليات الإنجاز هو تسوية الأرضيات لإيصال الأعمدة وهو أمر يعيق مؤسسة سونلغاز لإتمام ذلك في أوقات محددة، فالوضعية الاحتكارية لمؤسسة الكهرباء زادت من تعقيد الوضع، ورغم ذلك فالفلاحين وصلوا إلى نقاط بعيدة عن مصادر الكهرباء واستعانوا بالمولدات الكهربائية لعشرات الكيلومترات في تحد واضح يضاف إلى قساوة الطبيعة وهو أمر يشكل عبئا إضافي من حيث التكلفة المادية.

II -3 المسالك الفلاحية: برمجت السلطات مسالك فلاحية يقدر طولها بـ 1070.85 كلم بلغت نسبة الإنجاز 87% أي أن هذا البرنامج حقق نسبا متقدمة ورغم ذلك يبقى حجم المسالك الفلاحية قليلا مقارنة بطبيعة المنطقة، مما أدى بسلطات المنطقة وفلاحيها للاستعانة بسيارات الدفع الرباعي.

II -4 الدعم وصعوباته: أطلقت الدولة عدة مبادرات لدعم القطاع الفلاحي والنهوض خصوصا بالمناطق السهبية وكذا مناطق الجنوب، ومن بين البرامج هو الاستفادة من القروض ، أولها قرض الرفيق[14]، وقرض التحدي والتي لا تمنح إلا لمن استفاد من الشرط الفاسخ وهو ما ليس موجود الإقليم، وإن وجد فإن الدعم لا يشمل بعد التجهيزات المصنعة محليا مثل آلة الرش المحوري وكذا آلات زراعة وحصاد البطاطا، أذن فالدعم أهمل خصوصيات لفلاحي المنطقة، ويشار أن الدعم استفاد منه بعض الدخلاء على القطار الفلاحي، كون المعاينة الميدانية للمصالح المعنية يكون فقط على المساحة المزروعة، وليس على دخولها مرحلة الإنتاج الفعلي.

II -5 غياب أسواق الجملة بالإقليم وصعوبة التسويق: يضطر الفلاحون لبيع منتجاتهم في مزارعهم،ويضطر التجار للوصول لها وأخذ المحصول بشكل مباشر، وهذا الأمر يشكل عامل رئيسي لخسارة أرباح محتملة في ظل عدم وجود أسوق للجملة، فكيف لإقليم يحتل المراتب الأولى في العديد من المنتجات لا يوجد به سوق جملة واحد، يستجيب للشروط البيئية وقربه من شبكة الطرق، مع العلم أنه تم تسجيل مشروع لإنجاز هذا السوق في إطار البرنامج التكميلي لسنة 2014 ولا زال يراوح مكانه، ويتكفل بتسويق مختلف المنتجات الوسطاء في العملية، فالتاجر يجتهد طوال السنة ويكون له هامش ربح محدود، وفي الأخير يحصل الوسطاء على أرباح تصل لضعف ما يحصل عليه الفلاحون.

II -6 الكلفة المرتفعة: في عديد مناطق الإقليم تتطلب عمليات تهيئة الأرض وتسويتها مبالغ ضخمة هذا من جهة، ومن جهة ثانية تعرف تربة المنطقة بأنها تربة هيكلية، بمعنى أنها بحاجة للتخصيب للحصول على مردود جيد وهو ما سيستعمل لأجله الفلاحون الغبار الذي يجلب من خارج الإقليم وبأسعار مرتفعة (السعر بين 80000.00 دج و120000.00 دج

للشاحنة)، وكذا الكهرباء وحفر البئر، واستعمال طرق الحماية من الرياح والتي يتم تجديدها باستمرار (الزرب والجريد)، ففي بعض المنتجات خاصة البطاطا وفي حال وفرة المنتوج سنة معينة فقد تنخفض أسعار البيع إلى ما دون التكلفة الذي يقدر بحوالي 25 دج /كلغ.

II -7 نقص اليد العاملة: تراجعت اليد العاملة المؤهلة الفلاحية، ويظهر ذلك خصوصا في نظام الزراعة القديم حيث لا يكاد أصحاب الغيطان من يقوم بعمليات الاعتناء بالنخيل وتلقيحها، وهو مشكل مطروح كذلك في القطاع الجديد حيث يفضل الكثير من الشباب الأعمال الأقل جهدا والأكثر ربحا، ومن خلال مواسم جني محصول البطاطا، لاحظنا تواجد عمال من خارج الإقليم (ورقلة، وحتى اللاجئين الأجانب) يبيتون بالقرب من أماكن المزارع بحثا عن العمل، وهذا النقص في اليد العاملة جعل الفلاحين يلجئون إلى استعمال آلات زرع وحصد المحصول التي أصبحت تصنع محليا.

III – الآثار الناجمة عن التحول في الأنشطة الزراعية

أدى التحول في النشاط الزراعي في إقليم سوف إلى تحول المظهر العم بداية من طبوغرافية المنطقة وحتى إلى أشكال المساحات الزراعية التي تظهر من الجو كحدائق دائرية الشكل، وقد أدى هذا التغيير إلى حدوث تأثيرات على المحيط وعلى الإنسان منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي.

III-1- المؤثرات الإيجابية:

من إيجابيات توسع المساحات الزراعية نذكر ما يلي:

III-1-1- الحد من زحف الرمال: تعاني المنطقة بحكم طابعها الصحراوي وبحكم تكويناتها الرملية المتحركة، التوسع الكبير في المساحات الزراعية، جعلت حركة الرمال أقل بحكم وجود غطاء نباتي ومصدات الرياح (الزرب) المحيط بالمساحات الزراعية أقل حدة من قبل، بالتالي فالغطاء النباتي ساهم بطريقة غير مباشرة في الحد من زحف الرمال.

III-1-2- انتشار الثقافة الزراعية بين الفلاحين: تكتسب الثقافة في مجال النشاط الزراعي من خلال التجارب والاحتكاك بالخبرات وقد ساهمت الدولة عن طريق الترخيص بفتح مكاتب دراسات مختصة في الهندسة الريفية التي يلجأ إليها الفلاحين خصوصا إذا ما تعلق الأمر بالحصول على الدعم، وكذا انتشار محلات بيع الأسمدة والمبيدات التي يشرف عليها مهندسين زراعيين الذين يبيعون المنتجات وفي نفس الوقت يقومون بدور المرشدين الفلاحيين، ومن جانب آخر عملت مديرية المصالح الفلاحية إلى مرافقة الفلاحين عبر حصص إذاعية يومية على أمواج إذاعة الوادي، مما جعل الفلاحين يحسنون من أدائهم يبحثون دوما عن حلول لمختلف المشاكل والأمراض، والطرق والتقنيات المساعدة في المحافظة على المحاصيل والحصول على

المردود الجيد، وكذلك اشتراك الفلاحين في المعارض السنوية التي تقام للتعريف بالمنتجات الفلاحية وكذا أنواع البذور والأسمدة وبإشراف من غرفة الفلاحة وبمشاركة مؤسسات وطنية ودولية.

III-1-3- التنوع في المحاصيل: استطاعت الولاية والإقليم أن تكون رقما مهما في المعادلة الزراعية بالوطن، حيث أنها لم تحتل المراتب الأولى في إنتاج التمور فقط، بل تعدى الأمر إلى البطاطا والطماطم وبعض المحاصيل الحقلية الأخرى، إضافة إلى التبغ والفول السوداني. وبالإقليم وصل التنوع إلى درجة اكتفاء السوق المحلي وتصريف الفائض نحو الولايات الشمالية، وفي بعض المحاصيل بدأ العمل فعليا في التصدير إلى الخارج، مما جعل الإقليم يساهم في الاقتصاد الوطني بالحصول على العملة الصعبة، وهو ما يسمح بفتح آفاق واسعة للنشاط الزراعي عموما.

III-1-4- خلق مناخ محلي: أن وجود المساحات الزراعية وقربها من المناطق العمرانية خلق مناخات محلية تميزها الرطوبة خصوصا في فصل الصيف، وجعلت الكثير من السكان يحسون بهذا التغير المناخي بشكل ملموس خصوصا الساكنة بالقرب من المناطق الزراعية.

III-2- المؤثرات الإيجابية:

ومن سلبيات هذا التحول نذكر ما يلي:

III-2-1 التأثير على البيئة والمحيط وانتشار بعض الأمراض:

بسبب الغبار الذي يجلب من الولايات الشمالية والذي يتمثل خصوصا في فضلات الدجاج الذي يستعمل كسماد عضوي لتخصيب الأراضي والذي تسبب في انتشار بعض أمراض الحساسية وحالات الاشمانيوز التي عرفت تصاعدا في المنطقة، بسبب طرق جلبه في الشاحنات وكذا تجميعه ووضعه داخل المناطق العمرانية مما ساهم في انتشار الروائح الكريهة التي تفوح من المناطق الفلاحية خصوصا وهي ظاهرة أثرت بشكل مباشر على المنطقة وأثرت على السكان وصحتهم وهو أمر أثار ردود فعل منهم حيث كثرت المطالب بتنظيم عمليات جلب الغبار واتخذت السلطات الولائية قرارا بفتح نقطة تجميع للشاحنات على مساحة 40 كلم من عاصمة إقليم الولاية، ورغم ذلك بقي المشكل مطروح في ظل غياب أراده حقيقية لتنظيم العملية وفرض طرق معينة لجلب الغبار بوضعها في أكياس بعد تجفيفه وتعرضه للشمس، وليس في حالة رطبة ومحملا بالحشرات والذباب الذي أصبح ظاهرة في الإقليم وانتشر بشكل رهيب في السنوات الأخيرة مما تسبب في حالات الإسهال للأطفال وحتى الكبار.

III-2-2 الحد من التوسع العمراني:

إن الاعتداءات المستمرة على الأراضي الفلاحية ووجود الكثير منها داخل المحيطات العمرانية أصبح يشكل عائقا وحاجزا أما التوسع العمراني للمدن ولا أدل على ذلك أن بلدية الوادي عاصمة الولاية والإقليم توقفت بها عملية التوسع شرقا بسبب وجود محيط وزيتن الذي بالكاد يكون داخل المحيط العمراني، وكذلك الأمر بالنسبة لعديد البلديات الأخرى، كتغزوت وحاسي خليفة، سيدي عون، والمقرن وورماس وغيرهم.... إلخ.

III-2-3 بداية التخلي على القطاع الزراعي القديم:

لأن توسع الاستثمار في القطاع الزراعي الجديد أثر بشكل مباشر على القطاع الزراعي القديم الذي عرف عزوفا وتراجعا في اهتمام السلطات المحلية، ونلاحظ ذلك من خلال تدهور وضعيات الغيطان ويساعد ذلك عدم وجود شباب من أخذوا زمام المبادرة للاعتناء بالنخيل والقيام بمختلف عمليات التلقيح ومداواة مختلف الأمراض الذي يصيبه مثل "البوفروة" و"البيوض"[15] هذا الأمر جعل هذا الانتقال يعجز عن التخلي على النظام المغلق القديم على الرغم من أنه مقتد للمياه، والتوجه نحو نظام المفتوح الذي نجم عنه استهلاك كميات كبيرة من المياه والإسراف في ذلك مما تسبب في مشكل آخر زاد من معاناة الغيطان وهو مشكل غور المياه وهي الظاهرة العكسية لمشكلة صعود المياه.

VI- آفاق النشاط الزراعي في الإقليم بين إرادة الفلاح وإرادة الدولة

اعتمدت الجزائر منذ الاستقلال إلى يومنا هذا سياسات متعددة ومتغيرة وفقا لما تفرضه بعض العوامل السياسية الاقتصادية والاجتماعية، ويبدو التحول مقرونا بالنظم السياسية في الجزائر.

فعلى الرغم من أن المعلن دوما هو زيادة المساحات الزراعية لزيادة الإنتاج وتحقيق الاكتفاء للتخلص من التبعية للخارج إلا أنه وبعد أكثر من خمس عقود مازال الاقتصاد الجزائري لم يحقق المنشود، على الغرم من الانتقال لاقتصاد السوق والتخلي عن الاشتراكية كخيار، إلا أن قطاع المحروقات بقي هو المحرك الرئيسي لمسار التنمية بالجزائر، فإن ارتفعت أسعار النفط في الأسواق العالمية انتعش مسار التنمية، وان ضربت الأزمة امتدت آثارها لكل القطاعات من دون استثناء.

والأمر نفسه بالنسبة للإقليم الذي يعتبر جزءا من الوطن، والذي استفاد من مختلف البرامج التنموية خصوصا بعد ترقيتها لولاية سنة 1984، وكانت الاستفادة أكبر بداية سنة 1999، ويظهر ذلك جليا في الميدان، لاسيما في القطاع الفلاحي، حيث أنه بالرغم أن المشاريع المدعومة من طرف الدولة هي نفسها في عديد الولايات خصوصا مناطق السهوب والمناطق الجنوبية، إلا أن آثارها بسوف أكبر في ميدان الزراعة، ويتجلى ذلك في حجم مساهمة القطاع الزراعي في تغطية

حاجيات الكثير من الولايات بالمنتجات الزراعية خصوصا محصول البطاطا الذي وصل إنتاج المنطقة لـ 4/1 المنتوج الوطني[16].

VI-1 إرادة الفلاح:

إن التأمل في واقع النشاط الزراعي بالإقليم يدرك حجم التحديات والصعاب التي استطاع الفلاح بسوف أن يروضها لصالحه، وقد عبر الكثير من الخبراء الذين زاروا المنطقة في إطار البحث العلمي أو الأنشطة التجارية بانبهارهم الشديد لما رأوا عليه واقع الفلاحة عموما، فكيف لفلاحين وما يملكون من إمكانيات مادية ومؤهلات علمية بسيطة في كثير من الحالات، أن يخلقوا مجالا فلاحيا يقع وسط العرق الشرقي، وفي منطقة صحراوية، وبمؤهلات ضعيفة، والعامل الوحيد الذي جعلوه ركيزة كل مجهودهم هو الماء الذي يعتبر أصل المشكل في الإقليم وقد عبر عن ذلك (Marc Cote) بمقاله وادي سوف مريضة بكثرة مياهها[17]، فطوعوا المياه لصالحهم ورسموا مظهرا فلاحيا مشابها لذلك الذي صنعه الأمريكيون في صحراء كاليفورنيا بإمكانيات بشرية ومادية لا تقارن بما هو موجود بسوف.

هذا المظهر المتنوع من حيث المنتوج والمتباين من حيث المساحات، حيث أن المتحكم الأساسي في التوجه العام للأنماط الزراعية هو السوق، وهو من وجهة نظر اقتصادية أمر مقبول في حال تم التحكم في مختلف الظروف، أما في حال الفائض الكبير، سيواجه الفلاحون مصيرهم لوحدهم في حال انهارت الأسعار في غياب آليات للتوزيع وخاصة التصدير كحل لفائض الإنتاج.

وبالرغم مما سبق ألا أن الفلاحين وسعوا في المساحات، ولا زالوا مستثمرين في هذا التوجه، بإمكانياتهم الخاصة في تسوية الأراضي وتكلفتها المرتفعة، وكذا بإيصال الكهرباء واستعمال المولدات الكهربائية التي تم معاينتها ميدانيا في مناطق لا تبعد عن المناطق العمرانية سوى لمساحات لا تتجاوز 30 كلم (في المنطقة الواقعة بين بلدية النخلة ودوار الماء) وإنشاء مسالك فلاحية بالتعاون بين مستغلي الأراضي هو تحدي الفلاحين في منطقة سوف، فكيف رافقت الدولة وإداراتها لواقع القطاع في مثل هذه المناطق.

VI-2 إرادة الدولة:

لم تدخر الدولة جهدا في الارتقاء بالقطاع الزراعي في هذه المنطقة الصحراوية، لكن مهما يكن من أمر فإن إمكانية إيصال الكهرباء والمسالك الفلاحية لكامل الإقليم أمر مستحيل في المدى القريب والمتوسط، لأن ذلك يتطلب إمكانيات ضخمة لا تقوى السلطات المحلية توفيرها خصوصا مع التراجع الكبير في حجم الأموال المرصودة بعد انخفاض أسعار النفط بداية من سنة 2014.

وقامت الدولة من جهة أخرى بتقديم الدعم للفلاحين من خلال عديد برامج الدعم، التي واجهتها صعوبات في أرض الواقع والمشكل التعويضي الأول هو الملكية وتسوية وضعية العقار الفلاحي، الذي لم تمكن من توسيع عمليات الدعم لتشمل الكثير من الفلاحين الحقيقيين.

وفي جانب آخر رافقت الدولة عن طريق غرفة الفلاحة بالولاية الفلاحين من خلال التشجيع على خلق شعب خاصة بكل منتوج فلاحين كشعبة البطاطا وشعبة الطماطم، وهو أمر يسهل من عملية التواصل والإرشاد الفلاحي، والقيام بنشاطات توعوية للفلاحين وكذا التعريف بمنتجاتهم بالمعارض الدورية التي تقام لهذا الغرض، بدعم مباشر في السلطات المركزية والمحلية وباشتراك كل الفاعلين في القطاع.

VI-3 الآفاق المستقبلية:

إن مستقبل الزراعة في سوف لن يكون سوى بمرافقة الدولة للفلاحين، فإرادة الفلاح لوحدها غير كافية، لذا وجب أن يكون تدخل الدولة من خلال الآليات التالية والتي نراها ضرورية للمحافظة على ما تحقق، وجعل القطاع الزراعي كعامل دفع أمامي لعجلة التنمية في وقت كثر المنادون إلى خلق بدائل لقطاع المحروقات الذي بقي هو المحرك لمسار الاقتصاد الجزائر الاستقلال إلى يومنا هذا.

VI-3-1 تعزيز دور الدولة في تنظيم القطاع بالإقليم

إن تنظيم القطاع الزراعي أمر صعب التحقيق لعدة أسباب أهمها:

- الاستحواذ على الأراضي الزراعية بدون حق ليتحول المعتدون بعد سنوات إلى مطالبين بالحصول على ملكيات الأراضي.

- عدم وجود رزنامة محدد لتواريخ بداية البذر وتواريخ جني المحاصيل بمعنى غياب تام للرقابة.

- انتشار ظاهرة تأجير الأراضي الزراعية بهدف تحقيق الربح السهل.

- عدم وجود إحصائيات دقيقة للمساحات والإنتاج والمحاصيل على كامل الإقليم وفي كل بلدية من بلديات الإقليم.

- عدم قدرة الفلاح السوفي على التحكم في تكاليف الإنتاج وتقليصها، بسبب غياب دور المرافق الأولية من الدولة في بدايات الإنتاج وتحضير الأرض.

- غياب الرقابة الصارمة لنوعيات البذور المستوردة من طرف المخابر المختصة، مثلما حدث مع بذور البطاطا المستوردة من فرنسا والتي ثبت عدم صلاحيتها للاستهلاك البشري بداية 18 2016.

– صعوبة تسويق وحفظ المحاصيل الفائضة في ظل عدم قدرة غرف التبريد تغطية هذا الفائض وصعوبة تصديره للخارج بسبب الإجراءات المعقدة.

– غياب ثقافة التصدير لدى الفلاحين.

كل هذه العوامل تحد أمام الدولة لتنمية وترقية القطاع الزراعي.

VI-3-2 الاستدامة في النشاط الزراعي بالإقليم:

استطاع الفلاحون بالإقليم تحقيق نتائج إيجابية، وتجاوزوا الكثير من الصعاب، وأجدوا حلولا لتحديات الإنتاج وحماية المنتجات لكن في المقابل هناك عناصر أخرى أهملت وساهمت في تردي الوضع البيئي وحماية مخزون المياه، في غياب نصوص وتشريعات متعلقة بحماية البيئة في المجال الزراعي والإقليم يظهر عدم احترام شروط الاستدامة في العناصر التالية.

أ- استهلاك المياه: كان النظام الزراعي القديم مغلقا ومحافظا على المياه، حيث أن استهلاك المياه لا يكون باستعمال السقي، وترك النخيل تستهلك حاجتها، والزراعة البيئية لطابعها المعيشي ليست مبذرة للمياه على الرغم من طريقة السقي المعتمدة بالغمر لكن تحكم المساحات الصغيرة جدا فالاستهلاك قليل مقارنة بما هو موجود في وقتنا الحلي، حيث اعتمدت طرق سقي مبذرة للمياه خصوصا الرش المحوري والغمر بالسلبية للمساحات المسقية من البطيخ والتبغ وحتى الفول السوداني.

ب-حماية البيئة: كما هو معروف فإن الأسمدة العضوية المستعملة في تحسين مردود المنتجات الزراعية غير خاضع لرقابة الدولة، وعملية التحكم في العملية لم تتم بعد، وطرق جلبها وبيعها يكون في ظروف غير ملائمة، وساهمت في انتشار عديد الأمراض والروائح الكريهة في محيط المناطق العمرانية وهو أمر لا مناص من إيجاد حلول عملية له، ولتحقيق التنمية المستدامة في الزراعة بالإقليم وجب:

- **استشراف المساحات وزيادة المحصول:وجب وضع تصور علمي دقيق بالاعتماد على عدة عوامل، أهمها المحاصيل المنتجة محليا، وكل ما يتعلق بتطوير الأصناف وتحسين إنتاجها، عن طريق الاستثمار في هذا الجانب، واشتراك الجامعة والمختصين كطرف أساسي في هذه المعادلة بهدف مضاعفة الإنتاج بنفس الموارد المتاحة، أي أن الهدف هو إيجاد نظام إنتاج مستديم بيئيا، وإدارة رشيدة للموارد المتاحة.**
- **التصدير كبديل لتحقيق التنوع الاقتصادي وامتصاص فائض الإنتاج:**

مع الإشارة إلى وجود شراكة مع الإتحاد الأوروبي[19] ولم ينم التصدير بسبب عوائق كالتالي:

- **الإجراءات الإدارية والبيروقراطية لتصدير المنتجات الفلاحية نحو الخارج.**

فمثلا تصدير البطاطا لبعض الدول الأسيوية عن طريق البحر يستغرق أكثر من 40 يوما وهي فترة كافية لتلف المنتوج، وتصديره عن طريق الجو تكون كلفته عالية جدا.

- عدم معرفة الفلاحين بثقافة التصدير والأسواق المستهدفة.
- غياب الخبرة والتخوف من المنافسة الخارجية.
- غياب ثقافة الجودة خصوصا أن بعض الدول تشترط تفاصيل دقيقة فيما يتعلق بالتعليب والتصبير وكذا المواد الأولية المستغلة.
- منافسة بعض المنتجات للدول المجاورة مثل دقلة نور التونسية التي حصلت على دمغة واعتراف من الجانب الأوروبي وتعتبر تونس أول مصدر في العالم لهذا المنتوج[20].

إن تحقيق فوائض الإنتاج في المحاصيل الزراعية في ظل وجود منافسة داخلية مع ولايات أخرى سيجعل من تحقيق الاكتفاء امرأ ممكنا لكن في المقابل الربحية المادية أمرا مستبعدا خصوصا في ظل عدم التحكم الجيد في التكاليف في المنطقة على الأقل.

وتعتبر المنتجات الزراعية بالإقليم ذات جودة طبيعية ولم تدخل عليها تعديلات جينية.

• استشراف الزيادة السكانية:تقدير الزيادة في تعداد السكان وتحديد حاجياتهم من المنتجات الزراعية على المديين المتوسط والبعيد إضافة إلى مراقبة تحركهم ،تنقلهم وهجرتهم من الريف إلى المدينة وكذلك المستوى المعيشي لهم.

• الحفاظ على الموارد الطبيعية:وتتمثل أساسا في الأرض والماء وذلك بمعرفة استنزاف هذه الموارد وأخذ ما تحتاجه الساكنة مع الحفاظ على حقوق الأجيال القادمة، مع الأخذ بعين الاعتبار ما يستنزف عن طريق العوامل الطبيعية كالتعرية ونضوب المياه نتيجة استهلاك المياه الجوفية المتزايدة

الخاتمة

في السنوات الأخيرة استطاع إقليم سوف أن يكون رقما مهما في معادلة الإنتاج الزراعي على المستوى الوطني، بفضل إرادة الفلاحين أولا وثانيا بفضل دعم الدولة وجهودها، فقبل التسعينيات لم يكن يعرف عن الإقليم الاكتفاء الذاتي في المنتجات الزراعية، وبعد التحول في النظام الزراعي والانتقال للنظام المفتوح تضاعفت المساحات الزراعية المستغلة لتصل إلى 90.000 هكتار وحوالي 70% تستغل في إنتاجها محصول البطاطا الذي بقيت تكاليف إنتاجه كبيرة، وجعلت الفلاحين يفضلون البطاطا المحصول المتأخرة عن الموسمية في ظل قلة المنافسة من بقية الولايات المشهورة بزراعة هذا المحصول، واستطاعت المنطقة أن تغطي 21% من الإنتاج الوطني منه، ولم يتوقف الإنتاج الزراعي على البطاطا بل تعداه لعدة منتوجات أخرى

واحتل بها الإقليم مراتب متقدمة على المستوى الوطني هي دليل على قدرة الفلاحين على التنويع الذي يعتبر مؤشر على تحقيق التميز والنجاح إذا استطاعت الدولة موافقة هذا النجاح يتجاوز الكثير من الصعاب العواقب التي يحتاجها الفلاحون لوحدهم في كثير الحالات سواء تعلق الأمر بالمعيقات الطبيعة أو الإدارية، وهذا لا يتأتى إلا بتدخل الدولة واشراك مختلف المتدخلين (الفلاح، الدولة، البحث) لتنظيم هذا القطاع الذي يحكمه السوق فقط أي أن عاملي الربح والخسارة هما الفيصل في التوسع أو التخلي عن النشاط الزراعي برمته.

وللحفاظ على ما تحقق من نتائج في الواقع لابد من تحقيق شروط الاستدامة خاصة ما تعلق بتحقيق أهداف التنمية المستديمة بحماية البيئة وضمان حق الأجيال القادمة في الثروة والانتفاع بخيرات البلاد.

ـ الهوامش والإحالات:

[1] إقليم سوف: و يقع بالجنوب الشرقي من العاصمة الجزائر على مسافة 650 كلم تقريبا، و هو المنطقة الوحيدة التي تتواجد بعمق العرق الشرقي(أكثر من 100 كلم)، يحده شمالا إقليم شط ملغيغ بوادي ريغ و إقليم الرعي دوار الماء و الطالب العربي و شرقا الجمهورية التونسية و امتداد العرق الشرقي، و جنوبا امتداد العرق الشرقي، و غربا وادي ريغ.

[2] الغيطان مفردها غوط وهي تعني المنخفض الواسع يتراوح عمقه بين 10-15 متر وزراعة النخيل تكون قريبة من مستوى الماء

[3] تغزوت بلدية تقع شمال الإقليم على مسافة 15 كلم من بلدية الوادي و تشتهر بها منطقة بقوزة الفلاحية .

[4] أنظر Said Akroune et autres: Inventaire des différents cultivars de palmier dattier (Phoenix dactylifera L.) des régions de Oued-Righ et de Oued-Souf (Algérie); Revue Sècheresse,volume 18 n 2,Avril-Mai-Juin 2007, p-p.135-42

[5] Salim Khechana, El Fadhel Derradji: Management of Water Resources in a Hyper-Arid Area:Strategy and Issues (Case of Oued-Souf Valley-South Eastern of Algeria), Journal of Water Resource and Protection, 2012, p:922.

[6] The world bank ,World development report2008,Agriculture for development ,p 2.

[7] البوفروة أو عنكبوت الغبار مرض يصيب النخيل تتسبب فيه حشرة طفيلية تفتك بأشجار النخيل المثمرة

[8] تم الحصول على المعلومات مباشرة من المكلفين بتسيير المزرعة.

[9] http://www.elkhabar.com/press/article/97544 بتاريخ 15 ماي 2017 على الساعة 23.15

[10]. احصائيات مديرية التشغيل، ولاية الوادي، 2015.

[11] Ministere de l'agriculture et du développement rural et de la pêche ; La politique de renouveau agricole et rural en Algérie ,Novembre 2010, p:06

12مخزومي لطفي, أثار السياسة الحكومية على القطاع الزراعي في بناء نموذج تكثيف محصولي مستدام بمنطقة وادي سوف، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الاقتصادية و التجارية و علوم التسيير، جامعة بحيى فارس، المدية، 2015-2016، ص 144.

[13] http://www.minagri.dz/Reunions_des_Cadres/Reunion_des_cadres_02_06_2016/P

بتاريخ 14 ماي 2017 على الساعة 13.30. oles_agricoles.pdf

[14] الأمر رقم 02-08 بتاريخ 24 جويلية 2008، المتضمن قانون المالية التكميلي لسنة 2008.

[15] بتاريخ 17 ماي 2017 على الساعة 14.55. http://datepalm-ksu.org/index.php?page_id=182

[16] http://www.minagri.dz/Reunions_des_Cadres/Reunion_des_cadres_02_06_2016/Poles_agricoles.pdf. مرجع سابق بتاريخ 17 ماي 2017. على الساعة 15.00.

[17] انظر Marc Cote :Des Oasis malades de trop d'eau:Revue Sechersse vol9-2 ,p-p:81-76,

[18] جريدة النهار الجديد بتاريخ 22/02/2016

[19] انظر Council of the european union Council Decision on the signing, on behalf of the European Euro-Mediterranean Agreement establishing an Association between the European Community and its Member States, of the part, and the People's Democratic Republic of Algeria, of the other part .

[20] http://ar.leaders.com.tn/article/1385 بتاريخ 10 أفريل 2017 على الساعة 15.20.

Contribution of the agricultural sector to economic development Case Study of souf Region

Ammar MOUSTEFAOUI*

Abstract:

As a developing country, Algeria aspires to achieve economic development. By providing the various conditions that help the agricultural sector as a vital sector, that can meet the country's growing needs of agricultural products, and avoid the specter of food dependency abroad, not that only but achieve the economic diversification. The region of Oued "Souf" in the south has undergone a major transformation in this sector where we can consider it a successful model.

Key Words : Region, agricultural sector, Oued Souf, economic development

* Faculty of Economics, Business and Management Sciences - University of El-oued – Algeria.

صفحة بيضاء

صفحة بيضاء

Revue des Recherches et des Etudes

Périodique académique, semi annuelle, savante, international, émis par l 'université d 'El-oued.

1112-4958

مجلة جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي :

مجلة البحوث والدراسات

دورية أكاديمية دولية نصف سنوية محكمة
العدد (24) ـ السنة (14) ـ رمضان 1438 هـ ـ يونيو (جوان) 2017 م

ج 2

24

من موضوعات هذا العدد:

- التجديد في التفسير: التفسير الفقهي أنموذجا.
- الوقف الهبطي في المصحف المغربي: أسسه المعرفية وأبعاده الدلالية.
- مظاهرُ الصِّدِّيقية في إنجازات الخليفة أبي بكر رضي الله عنه.
- مبدأ الأمن القانوني ومدى تكريسه في القضاء الإداري.
- آلية التصديق الالكتروني كضمانة للتعاملات التجارية بالوسائل الحديثة في التشريع الجزائري.
- الحماية الجزائية لحق النفقة للطفل في القانون الجزائري.
- دور إعادة الهندسة الإدارية في محاربة سلبيات البيروقراطية.
- الإدارة بالأهداف في المؤسسات بين النظرية والممارسة.
- الطاقات المتجددة ودورها في دعم التوجه نحو التسويق الأخضر.
- آليات انتقال أثر السياسة النقدية إلى النشاط الاقتصادي.
- مساهمة القطاع الزراعي في تحقيق التنمية الاقتصادية: ـ إقليم وادي سوف نموذجا ـ
- زيغود يوسف والتخطيط الثوري لمنطقة الشمال القسنطيني -1955 1956.
- مؤتمر الصومام عام 1956 وإشكالية تجسيد قراراته.
- الصحراء الجزائرية: دراسة في الجغرافيا.
- الأطباء والبحث عن المعلومة الطبية بشبكة الإنترنيت: دراسة ميدانية بكلية العلوم الطبية بجامعة الجزائر1.
- دور المعلم في التحكم في عملية التقويم بواسطة مقاربة الكفاءات لمرحلة التعليم المتوسط.
- انفتاح أسلوب الشرط على غير معنى المجازاة في النص القرآني.
- تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها...الواقع والمأمول: المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس أنموذجا.
- المؤكِّد اللغويُّ غير الصناعيِّ في التراث النحويِّ العربيِّ - باب المنصوبات الفضلة نموذجًا-
- توظيف الأسطورة في الإبداع الأدبي: الأصل والرمز والدلالة.
- القوى الخَفيّة ومصادر الإلهام الشّعري: قراءة لنفسيّة الشّاعر العربيّ القديم.
- جماليات اللّغة السّينمائيّة.

ISSN 1112 - 4958

مجلة البحوث والدراسات

جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي
العدد 24 / 2017
2

صفحة بيضاء

مجلة جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي

مجلة البحوث والدراسات

دورية أكاديمية دولية نصف سنوية محكمة

العدد (24) - السنة (14) - رمضان 1438 هـ - يونيو (جوان) 2017 م (الجزء الثاني)

ISSN 1112 – 4958

الرئيس الشرفي
أ. د. عمر فرحاتي

رئيس التحرير
أ. د. إبراهيم رحماني

نائب رئيس التحرير
د. عبد القادر حوبه

هيئة التحرير

أ. د. إسماعيل لعيس
أ. د. أحمد زغب
أ. د. عبد الرحمن تركي
أ. د. محمد رشيد بوغزالة
أ. د. محمد السعيد عقيب
أ. د. عادل محلو
د. المكي دراجي
د. إلياس شاهد

توجه جميع المراسلات باسم السيد:

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات – جامعة الوادي
ص. ب: 789 ولاية الوادي 39000 الجزائر.
فاكس: 22 03 13 032 أو 04 30 22 032
Email : revue-recherches-etudes@univ-eloued.dz
www.univ- eloued.dz

من أعضاء الهيئة العلمية الاستشارية

أ. د. إبراهيم بختي (جامعة ورقلة)
أ. د. أبو بكر بحري (جامعة الطارف)
أ. د. أبو بكر لشهب (جامعة الوادي)
أ. د. أحمد جلايلي (جامعة ورقلة)
أ. د. أحمد بن ناصر (جامعة الجزائر)
أ. د. أحمد عبد الرحمن الملحم (جامعة الكويت)
أ. د. الطاهر سعد الله (جامعة الوادي)
أ. د. القرشي عبد الرحيم البشير (جامعة الشارقة)
أ. د. الكوني علي اعبودة (جامعة الفاتح . ليبيا)
أ. د. الهاشمي لوكيا (جامعة قسنطينة)
أ. د. بديع السيد اللحام (جامعة دمشق . سوريا)
أ. د. بشير بن عيشي (جامعة بسكرة)
أ. د. حسين الدوري (العراق)
أ. د. راسم مسير الشمري (جامعة بابل . العراق)
أ. د. شفيق السامرائي (جامعة لاهاي . هولندا)
أ. د. صالح العلي (جامعة دمشق . سوريا)
أ. د. صالح مفقوده (جامعة بسكرة)
أ. د. صبري مسلم حمادي (جامعة ذمار . اليمن)
أ. د. عاطف إسماعيل أحمد (جامعة عمر المختار . ليبيا)
أ. د. عبد العزيز حاجي (جامعة دمشق . سوريا)
أ. د. عبد القادر دامخي (جامعة باتنة)
أ. د. عبد الله بوخلخال (جامعة الأمير عبد القادر . قسنطينة)
أ. د. علي آجقو (جامعة بسكرة)
أ. د. علي قريشي (جامعة باتنة)
أ. د. علي محي الدين علي القره داغي (جامعة قطر)
أ. د. عمر سعد الله (جامعة الجزائر)
أ. د. كمال عجالي (جامعة باتنة)
أ. د. محمد الغالي (جامعة القاضي عياض . المغرب)
أ. د. محمد الناصر بوغزالة (جامعة الجزائر)
أ. د. محمد بوعمامة (جامعة باتنة)
أ. د. محمد خان (جامعة بسكرة)
أ. د. محمد ملياني (جامعة وهران)
أ. د. محمد يوسف الزعبي (جامعة البحرين)
أ. د. مسعود مزهودي (جامعة باتنة)
أ. د. موسى رحماني (جامعة بسكرة)
أ. د. نصر سلمان (جامعة الأمير عبد القادر . قسنطينة)
أ. د. وهبي محمد مختار (السودان)
أ. د. ياسين محمد الغادي (جامعة الإمارات العربية المتحدة)
أ. د. يلس شاوش بشير (جامعة وهران)

المحتويات
مجلة البحوث والدراسات
العدد (24) ـ السنة (14) ـ رمضان 1438 هـ ـ يونيو (جوان) 2017 م
الجزء الثاني

الموضوع	رقم الصفحة
●محور بحوث العلوم الاجتماعية والإنسانية●	307
▣ زيغود يوسف والتخطيط الثوري لمنطقة الشمال القسنطيني 1955ـ 1956.	
✍ د/ جمال بلفردي (جامعة الوادي)	309
▣ مؤتمر الصومام عام 1956 وإشكالية تجسيد قراراته.	
✍ د/ محمد يعيش (جامعة المسيلة)	325
▣ الصحراء الجزائرية: دراسة في الجغرافيا.	
✍ د/ محمد رشدي جراية (جامعة الوادي)	341
▣ جودة الحياة الأسرية وعلاقتها بسلوك المواطنة لدى الأبناء "دراسة ميدانية على عينة من تلاميذ مرحلة التعليم الثانوي بولاية الوادي".	
✍ أ/ أسماء لشهب (جامعة الوادي)	359
▣ الأطباء والبحث عن المعلومة الطبية بشبكة الإنترنيت: دراسة ميدانية بكلية العلوم الطبية بجامعة الجزائر1.	
✍ أ/ عفاف صحة بليمي (جامعة الجزائر2)	377
▣ دور المعلم في التحكم في عملية التقويم بواسطة مقاربة الكفاءات لمرحلة التعليم المتوسط.	
✍ د/ مهدية هامل (جامعة الطارف)	399
●محور بحوث الآداب واللغات●	415
▣ انفتاح أسلوب الشرط على غير معنى المجازاة في النص القرآني.	
✍ د/ الأخضر سعداني (جامعة الوادي)	417
▣ تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها...الواقع والمأمول: المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس أنموذجا.	
✍ د/ البشير مناعي ، ود/ دلال وشن (جامعة الوادي)	431

▣ المؤكّد اللغويّ غير الصناعيّ في التراث النحويّ العربيّ ـ باب المنصوبات الفضلة نموذجًا.
✍ أ/ العيد حذيق (جامعة الوادي) 449

▣ الاستراتيجية الخطابية في خدمة القيم الإنسانية: الشيخ البشير الإبراهيمي أنموذجًا.
✍ أ/ منصف دقاشي (جامعة الوادي) 469

▣ توظيف الأسطورة في الإبداع الأدبي: الأصل والرمز والدلالة.
✍ أ د/ أحمد زغب (جامعة الوادي) 483

▣ القوى الخَفيّة ومصادر الإلهام الشّعري: قراءة لنفسيّة الشاعر العربيّ القديم.
✍ د/ علي كرباع (جامعة الوادي) 495

▣ الاختيار الأسلوبي وشعرية النص.
✍ د/ مسعود وقاد (جامعة الوادي) 509

▣ جماليات اللغة السّينمائيّة.
✍ د/ نجيب بخوش (جامعة بسكرة) 519

▣ **أشكال الكتابة الأدبية في الجزائر العثمانية.**
✍ د/ يوسف العايب (جامعة الوادي) 533

• قسم البحوث باللغات الأجنبية • 351

▣ **Assessing Communicative Language Ability by means of Bachman and Palmer's Model**
Dr. Mohammed NAOUA (**University of El-oued**) 353

• ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه، ولا يمثل بالضرورة رأي المجلة.
• يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط برتبة الباحث ولا بمكانته العلمية.

قواعد النشر في المجلة

ترحب المجلة بكل إسهامات الأساتذة والباحثين، ويشترط في البحوث والدراسات المرشحة للنشر بالمجلة ما يأتي:

- المعالجة الموضوعية وفق الأسلوب العلمي الموثق.
- الالتزام بأصول البحث العلمي وقواعده العامة والأعراف الجامعية في التوثيق الدقيق لمواد البحث.
- أن لا يكون البحث منشورا أو مقدّما للنشر في مجلة أخرى.
- أن لا يكون البحث مستلا من رسالة جامعية أو من كتاب سبق نشره.
- يشترط في البحوث ذات الصبغة النقدية التزام الموضوعية، وتجنب العبارات الجارحة.
- أن يتراوح عدد صفحات البحوث من خمسة عشر صفحة إلى خمس وعشرين صفحة من الحجم A4.
- أن يلتزم الباحث بمعايير البحث العلمي وقواعده مع مراعاة التصحيح الدقيق للبحث.
- أن يرقن بحثه بخط «ترادیسیونال أرابیك» صفحات A4 ، وأن يستعمل حجم الخط 16 بالنسبة للمتن، و12 بالنسبة للحاشية وفق صيغة وورد، وأن تكون الحواشي والإحالات آخر البحث وفق ترقيم تسلسلي مع ذكر البيانات الكاملة للمصادر والمراجع المعتمدة.
- يرفق البحث بملخص في حدود مائة كلمة. مع ترجمته إلى إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية.
- يرسل البحث عبر بريد المجلة الإلكتروني، أو يرسل في قرص ممغنط CD مع نسختين ورقيتين عبر العنوان البريدي للمجلة.
- يرفق الباحث خطاباً موقعاً منه يطلب فيه نشر بحثه، متضمنا تصريحا بكون بحثه ليس جزءا من رسالة جامعية أو كتاب منشور أو أرسل للنشر في دورية أخرى.
- يرفق البحث بالسيرة الذاتية للكاتب متضمنة درجته العلمية ووظيفته وعنوانه الكامل (المهني ـ الشخصي) البريدي والإلكتروني ورقم الهاتف.
- تُعرض البحوث على لجنة فحص أولي للنظر في مدى استيفائها لشروط النشر، ثم توجه إلى التحكيم المتخصص بشكل سري.

- لا تلتزم المجلة بالرد على البحوث الواردة غير المرفقة بالوثائق المطلوبة.
- البحوث المنجزة من طلبة الدكتوراه يتم إرسالها عن طريق المشرف مع تصريحه بتصحيح العمل وتزكيته للنشر.
- ترسل المجلة وعدا بالنشر بمجرد وصول التقارير إيجابية. كما ترسل اعتذارا عن النشر إذا كانت التقارير غير إيجابية دون الالتزام بإعادة إرسال الأبحاث إلى أصحابها أو بيان مبررات الامتناع عن النشر.
- تمتلك المجلة حقوق نشر البحوث المقبولة فيها للنشر، ولا يجوز نشرها لدى جهة أخرى إلا بعد الحصول على ترخيص رسمي من المجلة.
- لا يحقّ للباحث طلب عدم نشر بحثه بعد تحكيمه وقبوله للنشر.

صدر العدد الأول من المجلة

في ربيع الأول 1425 هـ **أفريل** 2004م

مجلة البحوث والدراسات

العدد (24) ـ السنة (14) ـ رمضان 1438 هـ ـ يونيو (جوان) 2017 م

محور بحوث العلوم الاجتماعية والإنسانية

صفحة بيضاء

زيغود يوسف والتخطيط الثوري لمنطقة الشمال القسنطيني
1955ـ 1956

بقلم
د/ جمال بلفردي(*)

ملخص

إن المتأمل والدارس لمسار الثورة الجزائرية يستنبط أن مكمن عظمتها في التضحيات التي قدمت كعربون لتحقيق هدف الاستقلال الوطني كما هو مدون في السطر الأخير من بيان أول نوفمبر1954، أين عاهدت الطليعة الثورية نفسها، بأن تكون وقودا للكفاح المسلح " نصرا، أو استشهادا "، ولا عجب في يكون الشهيد زيغود زيغود أحد أبطال الجزائر الذين كان لهم دور محوري في تزمين الثورة والتأسيس للانطلاقة الثانية لها، وبالطبع فإن المقصد من الجملة الأخيرة لا يحيد عن هجومات الشمال القسنطيني أوت 1955، والتي كان زيغود قائدها، ومنفذها، ومتحملا لعواقبها، ويمكن لنا من خلال ثنايا هذه المحاولة أن نميط اللثام على بعض جوانب الظل حول هذا الحدث التاريخي، والرمز المنظّر له.

الكلمات الدالة: هجومات 1955/08/20، زيغود يوسف، منطقة الشمال القسنطيني التاريخية.

مقدمة

شكلت انطلاقة الثورة الجزائرية ليلة أول نوفمبر 1954 الحدث الأسطوري للجزائريين، وعلامة فارقة بين مرحلتي الحركة الوطنية، ودخلت معها المناطق التاريخية الخمس في مرحلة الكفاح المسلح، والذي تباينت فيه الانطلاقة الثورية من منطقة للأخرى، فكان بوتيرة متصاعدة في منطقتي الأوراس والقبائل، وبدرجة أقل في المنطقة الرابعة نظير توفر الإمكانات من رجال، وسلاح، وجغرافيا منيعة، ومناطق لم يستكمل فيها التنظيم الثوري أركانه فيها كالمنطقة الخامسة، وانطلاقة أقل مما هو متوقع ومأمول بالمنطقة الثانية التاريخية "الشمال القسنطيني"، والتي شكلت تركيبة قيادتها في اجتماع 22 التاريخي النصيب الوافر من الحضور.

(*) أستاذ محاضر "أ" بقسم العلوم الإنسانية ـ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ـ جامعة الوادي..

ورغم هذا وذاك، ومتراجحات الأدبيات والدراسات التي تناولت تاريخ المنطقة الثانية فإننا ننحو إلى ترجيح أن المشكل الحاصل في اجتماع 22 بين بوضياف، ومجموعة قسنطينة قد أرسى بضلاله على الانطلاقة في منطقة الشمال القسنطيني دون شك، ودون الاسترسال في حيثيات ما جاء في متون تلك الأدبيات التاريخية، لأن المحاولة تدور حول الحدث، والتي لا ندعي فيها أن ما جاء فيها جديد، وإنما تحمل قراءة نقدية لبعض المذكرات الشخصية، ومقاربة تاريخية لبعض الكتابات المتخصصة منها والمهتمة بالتاريخ.

1)- جهود زيغود يوسف في بعث النشاط العسكري بالمنطقة التاريخية الثانية 1955ـ1956:

بعد الاجتماع التاريخي لمجموعة 22 في 1954/06/25، و الذي عرف تحولا جذريا في مسار التيار الثوري نحو التوجه المباشر للتحضير والتركيز على الجوانب المتعلقة بالترتيبات التنظيمية التي تؤدي إلى إشعال فتيل الانطلاقة الثورية، وكان ممن شاركوا و حضروا عن الشمال القسنطيني[1] زيغود يوسف[2] إلى جانب إطارات المنظمة الخاصة بمنطقة الشمال القسنطيني، وما يمكنني أن أركز عليه من خلال تواتر الروايات والدراسات لتي تناولت الجانب الاجتماعي الشهيد هو اتفاقها حول جملة من الصفات ما إن تجتمع في شخص إلاّ أكسبته و أهلته لأن يكون جديرا بشرف القيادة، وهي (الصبر، والتواضع، والشعبية، والإخلاص، والإرادة).

ولقد لخص محمد الطيب العلوي شخصية زيغود يوسف عندما كان نائبا بالمجلس البلدي لسمندو" زيغود يوسف حاليا " في كلمتين لهما دلالتهما العميقة حول ما يريده هذا الثائر الذي كان ينتظر ساعة الكفاح المسلح شوقا وحزما. فهو في حياته الشخصية حدادا، و في الواقع يعيش مع رفاقه المناضلين عالم الإعداد لقلب الأوضاع الاستعمارية المتعفنة... "فهو نائب في النهار ثائر بالليل..."[3].

إن قوة التأطير التي كانت عليها المنطقة الثانية التاريخية قد صدمتها الارتباك الشديد الذي اعترى أداء القادة فيها أثناء انطلاقة الثورة و ما بعدها من شهور رغم ما بذله ديدوش مراد القائد الأول من جهود لترميم و تصحيح مسار الانطلاقة بعد استشهاد نائبه باجي مختار بمجاز الصفا بقالمة في 1954/11/17 رفقة أربعة من رفقائه، و لم يكن هذا التردد و التعثر ميزة خاصة بناحية واحدة من نواحي الشمال القسنطيني، وإنما كان علامة ظاهرة في مجموعها زادها سقوط ديدوش مراد شهيدا رفقة مجموعة من المجاهدين المرافقين له في واد بوكركر يوم 1955/01/18الوضعية أكثر تعقيدا [4]، أما بعد هذا التاريخ وفي مشهد ثوري جديد للمنطقة الثانية تمكنت قيادتها من الحفاظ على استمرارية أداء القيادة فيها لإنجاح المشروع الثوري، و هكذا تم تثبيت وتعيين زيغود يوسف في مكان القائد الشهيد ديدوش مراد، وقد عمل القائد التاريخي الثاني للمنطقة الثانية على

تحمل عناء المسؤوليات المختلفة[5].

وهكذا ظهرت المستجدات وطئا على الجزائريين تزامنا مع انطلاق العمليات الثورية ابتداء من دائرة الميلية بالشمال القسنطيني، وقد شملت قطع الطرق و الجسور و أعمدة الهاتف و حرق الفلين الذي يحتكر تجارته المعمرين وأدت في النهاية إلى عزل مدينة القل، و علقت جريدة "لاديباش " الصادرة بتاريخ 1955/05/11 على هذه العملية بعنوان كبير الميلية المعزولة، كذلك تمكن المجاهدون من قتل دركيين فرنسيين في زرزور[6].

وهي تقريبا الحوادث التي جاء ذكرها في مذكرات كافي دون استرسال، اين اختار القائد زيغود الفترة المحددة بين الأول، والثامن ماي من سنة 1955 تخليدا وردا على مجازر 1945/05/08 وكانت المفاجأة الكبرى تفجير مطعم الكازينو بقلب مدينة قسنطينة بل وواصلت جرأة القيادة بإرسال زيغود لفرقة من الكوماندو لمهاجمة معقل تواجد العقيد ديكورنو[7] بالحروش والذي كان يشرف على فرقة المظليين.

وقد حرص القائد زيغود يوسف و طوال مسيرته القيادية للمنطقة الثانية مؤكدا على ضرورة العمل بمبدأ القيادة الجماعية الذي اتفقت عليه مجموعة الست في آخر اجتماع لها في 1954/10/24 في القمة كما في القاعدة التي أولى لها اهتمام منقطع النظير من خلال انشاء لجان العدل بالمناطق الريفية لتسهيل شؤون الاهالي بها من جهة وارساء دعائم الثورة فيه من جهة أخرى[8].

و قد ردّت القوات الفرنسية كعادتها على الشعب الأعزل من خلال انتقامها من سكان القرى " أولاد صالح " أولاد عربي " و " زرزور"، و بدأت بقنبلة تلك القرى و الغابات المحيطة بها فكان أول شهيد سقط بتلك القرى خنخار عمر، وتلاه الشهيد غربي زايد الأول سقط بمشتى أبو موسى والثاني بقرية أولاد صالح[9] – وكما قلنا – كان ذلك انتقاما من عمليات التخريب و التفجير التي قام بها الشعب الجزائري بين01-08 ماي 1955 التي رفعت من معنويات الشعب الجزائري بالمنطقة الثانية.

إن المتمعن لهذه العمليات والتي حاول فيها القائد زيغود يوسف لملمة وترميم التعثر في عملية الانطلاقة بالمنطقة الثانية محاولا اللحاق بركب الكفاح المسلح بالمنطقتين المجاورتين له الأوراس و القبائل، ويلاحظ فيها البساطة و الضعف ومن الناحيتين السياسية والعسكرية التي لم يتعد عدد مجاهديها إلى غاية سقوط مراد ديدوش شهيدا في بداية 1955، (50) مجاهدا، ولم يتجاوز هذا العدد عشية انطلاق الهجومات أكثر من (175) مجاهدا[10]

وربما كانت هذه أحد الأسباب التي دعت زيغود يوسف على عقد العزم على القاء بالتنظيم الثوري إلى الشعب لاحتضانه، أو لنقل أنه فكر في الطريق الصحيح و السليم " الخارق للعادة "

التي بها يمكن تحقيق أهداف تتجلى أهم مظاهرها عند انتفاضة 20 أوت 1955، و التي تكون محور العنصر الثاني من هذه المحاولة البحثية.

2- هجومات الشمال القسنطيني كمنعطف هام في مسار الثورة التحريرية 20-22 أوت 1955:

باتت الوضعية الثورية في المنطقة التاريخية الثانية بين ربيع و صيف 1955 أكثر صعوبة مما كان تتصوره القيادة التاريخية لها، و قد دفعت في ذلك ثمنا باهظا باستشهاد باجي مختار و ديدوش مراد بسبب ردود الفعل الفرنسية القمعية الواسعة التي تعرضت لها مختلف الشرائح الاجتماعية الريفية و بالأخص في الشمال القسنطيني.

و مهما كانت النوايا أو لنقل الاستراتيجية التي اعتمدها القائد زيغود يوسف من أجل إنجاح هذه الهجومات[11]، و التي لابد لها من مكامن و دواعي تركته يقدم على هذا الفعل والتخطيط له لتلقين القوات الفرنسية دروسا في مدى التفوق التكتيكي الثوري الذي انطلق من الاوراس، وتدجين مقولات العسكريين الفرنسيين بأن ما يدور في المنطقة الأولى ليس حركة قطاع الطرق.بل وتثبيتها وترسيخها على أنها حركة ثورية بدأت تتوفر لها بعض شروط الاستمرارية و الانتشار وهكذا بدأت فكرة الهجوم الشامل وبخطة عسكرية تلوح في الأفق كمفتاح لتحقيق أهدافها و نتائج تكون في مستوى تطلعات قيادة الشمال القسنطيني.

ويمكن القول و من خلال بعض الأدبيات التاريخية التي دونت لهذا الحدث التاريخي الهام في مسار الثورة المسلحة أن التخطيط لتلك العمليات لم يكن ينم عبر النزوع نحو المغامرة لدى قيادة المنطقة الثانية وانما كان يعبر عن الرغبة الجامحة من فك أسر المنطقة بكاملها والتي ناءت تحت وطئة العزلة و الإختناق الذي ميز وضعية الشمال القسنطيني من انطلاقة الثورة حتى إلى تلك الفترة " أواسط 1955 "، وعن الشعور بالمسؤولية المعنوية و التاريخية اتجاه المنطقة الاولى التي تحملت إلى حدود تلك الفترة المذكورة أثار وانعكاسات السياسة التطويقية للقوات الفرنسية وكذا حالة الطوارئ المفروضة عليها للقضاء على العمل المسلح في مهده.

وبذلك يكون قائد المنطقة الثانية قد استجاب لنداء قائد المنطقة الأولى بالنيابة بشير شيحاني[12] الذي طلب فيه تكثيف العمليات المختلفة ضد القوات الفرنسية لأن ما قامت به قيادة المنطقة الثانية إلى حدود تلك الفترة لم يكن كافيا ولا رادعا لتحقيق هدف تخفيف الحصار على الأوراس[13].

وكيفما كانت الدواعي و الأسباب التي أدت إلى هجومات الشمال القسنطيني فإن مسؤولية القيادة الثورية بالمنطقة الثانية اتجاه المناطق الثورية الأخرى خاصة الأوراس كانت مسألة موت أو حياة، وكذا استغلال تلك الهجومات في توسيع الانفجار الثوري الشامل كهدف اسمى لها[14]

ولم تتفق الدراسات التي اعتمدناها حول التحضيرات الهامة لأشغال الاجتماع التخطيطي للهجومات، والذي حدد بالفترة الممتدة بين 25 جوان إلى 27 جويلية 1955[15]، ووقع اختيار المكان الذي اتفقت حوله غالبية الدراسات بالمكان المسمى جبل ـ دشرة الزمان ـ (الحدائق حاليا) في دار رابح يونس في الطريق الجبلي الرابط بين سكيكدة و القل، وقدتم في هذا الاجتماع تحديد أماكن وأهداف العمليات الثورية خاصة التي تتمركز فيها معسكرات الجيش الفرنسي ومصالحه الحيوية (المطار، الميناء، مراكز الشرطة والدرك، مفرزات الجيش، مزارع المعمرين، وخطوط السكك الحديدية) واختير حوالي 39 هدفا للعمليات العسكرية و تركيزها خاصة في المدن الكبرى للمنطقة الثانية: قسنطينة، سكيكدة، الحروش، القل، ...، وكذا تحديد التوقيت الزماني الذي حدد بمنتصف النهار من يوم السبت الذي يصادف يوم 20 أوت 1955، والمغزى من اختيار هذا التوقيت الزاني المحدد بمنتصف النهار تزامنا مع فترة الاسترخاء و تناول وجبة الغداء، كما أنه توقيت غير متوقع من طرف الفرنسيين للهجوم وفرصة لإقحام عدد أكبر من السكان[16] في خضم الهجوم، و خلال الاجتماع السالف تقرر أن يدوم الهجوم ثلاثة أيام متتالية من 20 أوت إلى 22 أوت 1955، ووزعت خلاله أيضا المنشورات الخاصة لتنفيذ العمليات المحددة[17].

وهكذا بدأ الهجوم الكبير يوم 20 أوت 1955 في المناطق و النواحي التي حددت سلفا مع إعدام من لا يستجيب لهذا النداء، ووضع حد لكل من يقف أمام ارادة الشعب في الالتحاق بثورته، وقد تضمن تاريخ الهجوم ذكرى رمزية للشعوب المغاربية التي اتفقت فيها تيارات الحركة الوطنية في مرحلة ما على التكامل الكفاحي المغاربي للتحرر فكان التاريخ يشير إلى ذكرى نفي ملك المغرب محمد الخامس إلى جزيرة مدغشقر في نفس التاريخ من عام 1953.

ثم إن اختيار هذا التاريخ كان الغرض منه لفت انتباه الرأي العام الدولي إلى القضية الجزائرية ومساعدتها معنويا و ماديا، وتثبيتا لقرارات مؤتمر باندونغ يوم 12 جويلية 1955 الذي اعترف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، وفيه طالب الحاضرون أيضا تسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الأمم المتحدة ديسمبر 1955[18].

لقد أعطت وحققت الهجومات جملة من الانجازات من قبيل تكريس القطيعة النهائية بين الجماهير الجزائرية و المجموعة الأوربية في الشمال القسنطيني واضعة بذلك حدّا لمناخ التعايش الذي كان سائدا آنذاك بين العرقين خاصة خلال الفترة التي أعقبت مجازر 08 ماي 1945 من جهة، ومن جهة أخرى يمكن القول أن الهجومات قد أبلغت رسالة سياسية مفادها قطع الطريق على المبادرات السلمية التي كانت كتلة النواب طرفا فيها وتحت قيادة علاوة عباس[19].

3- نتائج هجومات الشمال القسنطيني 20ـ22 أوت 1955 وتقييمها:

تعددت وتراوحت نتائج هجومات الشمال القسنطيني 20 أوت 1955 بينما هو سياسي وعسكري، وما هو خارجي، وداخلي محلي لم يتعدى حدود الوطن إلاّ أن الواقع العسكري لردود الفعل الفرنسية شكل بما لا يدع مجالا للشك الصدمة التي ألمت بأبناء المنطقة خاصة في المدن الكبرى "سكيكدة، والقل "، وقد ركزت الصحافة الفرنسية في الجزائر على القتلى المدنيين، وأحصت في ذلك (71) من الجانب الفرنسي كما وصل عدد القتلى العسكرين لها (70) جنديا في وادي الزناتي وحدها، ومن خلال الدراسات التي اعتمدها الدكتور خيثر عبد النور الذي قدر عدد خسائر الكولون و التي حصرها فيما بين 71 و 125 قتيل كحدٍّ أدنى، وبلغت الخسائر في صفوف الجزائريين بين 1273 إلى 12000 كحدّ أقصى، وكان جلهم في مدن سكيكدة وعين عبيد و الخروب، والميلية، والقل [20].

واعترف بالمقابل العديد من قادة الفرنسيين الذين جيء بهم لإخماد الانتفاضة في الشمال القسنطيني ومنهم الجنرال أوساريس (النقيب حينئذ) إلى الاعتراف بأن القائد زيغود يوسف قد استطاع تكوين نوعا جديدا من الرجال الذين كانت الحياة بالنسبة لهم كالموت (الشهادة)، وكان همه من الهجومات تنبيه الرأي العام المحلي و الدولي على تحمل مسؤولياتها اتجاه دم الشعب الجزائري المراق من طرف القوات الفرنسية[21].

ولنعد إلى شهادات علي كافي وشيبوط وعمار قليل للحديث عن الوقع الكبير الذي أحدثته الهجومات والتي تحولت فيها منطقة الشمال من منطقة خامدة إلى بؤرة ثورية، وكانت الضربة القاضية للنظام الاستعماري في الجزائر مزيلة القناع عن وخرافة واسطورة الحوار الفرنسي الجزائري الذي كان يدعو إليه بعض الجزائريين[22].

وبغض النظر عن التباين في تحديد مكان[23] اللقاء لتقييم عملية 20 أوت 1955 بين عمار قليل وعلي كافي فإن نقطة التقاطع بينهما هو سرور قائد العملية بها، وتبين له أن التضحية المرغوب فيها قد أعطت النتائج المرجوة خاصة الرفع الجزئي للحصار على منطقة الأوراس، والثانية قبول الشعب لثورته في المنطقة الثانية.

ويرى علي كافي متأسفا على التشكيك في النتائج الإيجابية للهجومات لدى بعض الكتاب الجزائريين، ولا يعدوا أن يخرج سياق كلامه عن شخصية فرحات عباس الذي ذهب إلى القول بحسب على كافي دائما بأن الهجومات التي قادها زيغود كانت نتيجة أزمة ضمير تملكت قائدها بعد استشهاد ديدوش مراد، في حين – حسب كافي – تجد كاتبا كإيف كوريار في كتابه زمن الفهود يقر بأن الهجوم الأول الحقيقي لحرب الجزائر قد أرسى قواعد ثورية جديدة، وأن هناك

قبل، وبعد 20 أوت 1955 (24).

كما وضعت الهجومات حدا نهائيا للذين ترددوا في الانضمام و الالتحاق بالثورة و في هذا الصدد أصدرت كتلة (61) للنواب الجزائريين داخل المجلس الجزائري بلائحة صريحة رفضوا فيها اصلاحات لاكوست و طالبوا بالإعتراف بكيان جزائري مستقل(25).

وعموما لا يتسع المقام لذكر ودراسة وتقييم شامل لما أفرزته هجومات الشمال القسنطيني محليا، وإقليميا (على فرنسا) وعلى الرأي العام الدولي وبإمكانات متواضعة وتحت قيادة زيغود، وبنتائجها الوخيمة لاسيما البشرية منها على الشعب الجزائري يمكن طرح استفسار يتعلق فعلا بمدى استيعاب الجنرالات الحرب الفرنسية من استخلاص العبر من هجومات الشمال القسنطيني الذي اتسم بالهدوء – بحسب أحد الجنرالات – أثناء التسعة الاشهر التي تلت تلك الهجومات كنتيجة منطقية بزعمه بعد القضاء و قتل المنحرفين ! واللصوص المنتمين إلى ج، ت، وفي مدينة سكيكدة (26).

ويكمن المشكل الحاصل في الظروف والأهداف التي انطلقت منها هذه الهجومات قياسا بالثمن الذي دفعه سكان الشمال القسنطيني، وفتح بذلك سجالا للنقاشات السياسية والأيديولوجية التي تنحوا في الغالب إلى تنقيص من قيمة هذا الانجاز التاريخي الأصيل. إلى أن الأكيد ومن باب ما دبّت عليه البداهة الاحتقارية الاستعمارية لكل ما هو جزائري قد حفظته لنا الأدبيات و الدراسات التاريخية من مجازر مروعة ارتكبتها القوات الفرنسية في حق الجزائريين دون أفعال ولا ردود أفعال ولا مقاومات، وفي هذا الصدد لا يمكننا إلا الإشارة والاستشهاد بمجزرة غار فراشيش، ومجازر الثامن ماي 1945 التي خرج فيها الجزائريون للاحتفال بالنصر فكان الهولوكوست(المحرقة) الاستعمارية الفرنسية بمرصادهم (حصد أكثر من 45 ألف نفس جزائري خلال أسبوع)، و الأكيد في ختام هذا العنصر أن لكل ثورة وقود للوصول بها إلى المشهد الختامي لها الشهادة، أو النصر و هو ما يمكن إسقاطه على نتائج و إفرازات 20 أوت 1955.

4- زيغود يوسف و مؤتمر الصومام أوت 1956:

إن الاعتماد على بعض الشهادات والدراسات التاريخية التي أخذت نصيبها وحيز ليس باليسير عند التطرق لدراسة اجتماع بحجم مؤتمر الصومام، أو عن الشخصيات التي لها السبق في الدعوة إليه لتنسيق الجهود بين المناطق التاريخية لتوحيد الصف وتقييم ما آلت إليه الثورة بعد أكثر من عامين من انفجارها لأمر عسير يصعب على الباحث تسليط الضوء على كثير من النقاط التي بقيت ظلا في مسيرة الثورة، كما أن بعض تلك الشهادات قد أضافت إلى ذلك الظل غموضا وسجالات حول تساؤلات مهمة وجزئيات يفترض أن تجد لها تفسيرات وإجابات في ثنايا تلك الشهادات،

والتي تضفي نوعا من الانحيازية والأسطورية في رسمها لحدود بعض الحوادث التاريخية.

وبغض النظر عن الروايات المختلفة حول الأسبقية إلى عقد مؤتمر الصومام فإن الثابت أن القائد زيغود يوسف كان من أبرز القادة الذين لعبوا دورا محوريا في الدعوة إليه ثم تشجيعه لإنجاح تلك الفكرة التي تدعوا إلى عقد أول مؤتمر بالداخل في 20 أوت 1956[27].

ومن تلك الشهادات التي يمكن تقديمها وتسبيقها حتى على شهادة علي كافي [28] هي شهادة إبراهيم شيبوط الذي يشير أنه، وفي شهر سبتمبر من سنة 1955 عقد اجتماع عام تقيمي للهجومات بمكان طيراوي بمشتة أولاد مبارك، وأثناء هذا الاجتماع استقبل زيغود أعوان الاتصال القادمين من العاصمة وهم رشيد عمارة وابراهيم مزهودي كبداية لعلاقة جديدة بين وفدي منطقة العاصمة بقيادة عبان رمضان وقيادة المنطقة الثانية، ثم تلتها زيارة سعد دحلب[29] في مارس 1956، لناحية الشمال القسنطيني لتحديد مشروع لقاء مسؤولي الثورة المسلحة في مكان ما.

وفي نفس سياق هذه الفكرة يذهب علي كافي بالقول أن الطالب عمارة رشيد وصل إلى المنطقة الثانية دون تحديده للتاريخ، مذكرا أن الطالب دخل في نقاشات طويلة مع القائد زيغود الذي اقترح على هذا الأخير كموفد العاصمة ضرورة عقد مؤتمر وطني[30] من أجل بلورة الطريق الذي حدده نداء أول نوفمبر، وباعثا في الوقت نفسه برسالة مطولة إلى قيادة العاصمة (عبان رمضان وأعمران عمر)، وبعد اطلاع هذين الأخيرين على فحوى رسالة زيغود تم ارسال سعد دحلب إلى قيادة المنطقة الثانية ماكثا فيها قرابة ثلاثة أسابيع، وارتبطت بينه وبين قائد المنطقة الثانية علاقات مودة خاصة [31].

وبغض النظر عن الروايات المختلفة حول الأسبقية في الدعوة إلى عقد هذا الاجتماع (سواء الشهادتين التي أوردناهما، أو شهادات لم نتمكن من الإطلاع عليها) فإن الثابت أن زيغود يوسف كان من أبرز المحورين الذين دار عليهم فلك أشغال مؤتمر الصومام[32]، و برفقة مجلس المنطقة الثانية: بن طوبال، وبن عودة، ومزهودي، وكافي، وحسين روبيح.

ويرى الباحث عبد النور خيثر أن ثقل الرجل لم يكن غائبا عن أذهان القادة المؤتمرين الذين سمحوا له بصورة استثنائية بحضور نائبه بن طوبال كعضو أساسي في الجلسات الرسمية للمؤتمر[33].

ولم تسمح لنا الوثائق القليلة المتوفرة عن جلسات مؤتمر الصومام الرسمية منها وما تداول في الخفاء باستثناء الوثيقة الرسمية للنصوص الأساسية لـ (ج، ت، و) – على الأقل– لو كانت متاحة ومتوفرة لكانت كافية لتغطية بعض جوانب الظل عن أكبر مؤتمر للثورة المنعقد داخليا ، وعن رصد المواقف المختلفة للقادة المؤتمرين سواء منها المتباينة، أو المتآلفة كقضايا التعيينات في هيئات الثورة التي أنشاها الصومام كالمجلس الوطني للثورة الجزائرية ولجنة التنسيق و التنفيذ،

أو كيفية صياغة المحاور الكبرى التي حملتها وثيقة الصومام الرسمية.

وبحسب مذكرات كافي فإن المنطقة الثانية لعبت دورا لا يستهان به من خلال نشاط قائدها زيغود في اعتماد المؤتمرين تقرير المنطقة فيما يتعلق المجالس الشعبية التي كانت المنطقة الثانية المبادرة الأولى بها قبل المؤتمر، والذي صادق على أغلبية ما تضمنته بعض البنود المتعلقة أيضا بالجانب التنظيمي العسكري للولايات التاريخية عسكريا [34].

وبانتهاء أشغال مؤتمر الصومام عاد القائد زيغود بعضوية في المجلس الوطني للثورة الجزائرية وبرتبة صاغ ثان (عقيد) و قائدا للولاية التاريخية الثانية[35]، وقد حملت المناطق التاريخية تسمية الولايات التاريخية بعد المؤتمر، ولم تجب الشهادات المتواترة عن شخصية زيغود سبب وخلفية رفضه التام لعضوية لجنة التنسيق والتنفيذ، وتفضيله البقاء على رئس قيادة الشمال القسنطيني.

وقد أشارت بعض الأدبيات القليلة أن زيغود رفض المشاركة في الانتقادات التلقائية التي أبداها مساعده بن طوبال اتجاه عبان رمضان بل ووافق هذا الأخير فيما طرح من قضايا سياسية احتوتها وثيقة الصومام، وكان متبصرا ومتحفظا اتجاه مسألة [36] نتائج وانعكاسات هجومات الشمال القسنطيني على الشعب في تلك المنطقة التي تطرق إليها كل من بن مهيدي وعبان، والتي كانت من المسائل المتداولة في المؤتمر ولم تسجل في محضره الرسمي.

ولم تكن مكانة الرجل والقائد والشهيد زيغود يوسف مقتصرة على حدود منطقته التاريخية، والتي تحمس غداة عودته من المؤتمر لتطبيق ما جاء في بنود الوثيقة من قرارات ومبادئ عليها من جانب، كما كلف بأخطر قضية في تلك المرحلة وهي إعادة مكانة الولاية الأولى نشاطا وتنظيما من جانب آخر، والتي كان يعتز بها أيما اعتزاز، و قد تزايدت مسؤولياته اتجاه منطقة الأوراس النامشة باستشهاد أخويه في الجهاد على التوالي بشير شيحاني و مصطفى بن بولعيد، و كما قلنا كلفه المؤتمرون مع زميله إبراهيم مزهودي للذهاب إلى الأوراس لدراسة المشكل من أصوله، ومع القيادات المحلية الميدانية لإيجاد تسوية لمشاكل استعصى حلها بين القيادات المتنافرة في الأوراس [37].

ولكن القدر لم يمهل زيغود يوسف سوى أياما معدودات بعد عودته إلى منطقته التي رقيت إلى ولاية على ضوء قرارات الصومام التنظيمية، وبينما هو متنقل من مكان لآخر في مهامه الشاقة ومسؤولياته العديدة لترسيخ الثورة و تطوير الكفاح المسلح بولايته، وبالمكان المسمى الخربة بدوار الحمري، وبعد أربعة عشر يوما من وصوله من الرحلة الشاقة إلى المؤتمر، و في دار أحد المناضلين بسيدي مزغيش (سكيكدة) خرجت عليهم فرقة كومندوس فرنسية وقضت على زيغود و سبعة ممن معه من المناضلين و المجاهدين في 23 سبتمبر 1956 بعد معركة بطولية، وقد استقبل خبر استشهاده بالبكاء والزغاريد مؤديا في ذلك واجبه الوطني كاملا، والذي عاش له

معززا ومقدسا له بسلاحه و نفسه و تواضعه و انسانيته [38].

وحسب شهادة شيبوط فإن القائد زيغود يوسف قد سقط بساحة الشرف بالمكان الذي قضى فيه على وحدة جيش فرنسية بكاملها مع أسره لجندي فرنسي فيها وكان ذلك في ماي 1956، وبتاريخ 23 سبتمبر من نفس السنة سقط زيغود شهيدا فيها، و المؤسف حسب شهادته أنه لم تحضر له مساعدة من طرف جيش التحرير الوطني و السبب يرجع إلى مبتغى القائد زيغود الذي لم يكن يصطحب معه إلا فرقة قليلة من الجنود لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وبحسب شهادة شيبوط فإن زيغود يوسف ترك بعد استشهاده 1659مجاهدا و 5000 مسبل في الوقت الذي بلغت قطع الأسلحة 325 مسدس حرب، و 3750 مسدس صيد، وأكثر من 20 مليون فرنك في خزانة الولاية الثانية التاريخية [39].

الخاتمة

أثبت القائد و الشهيد - العقيد زيغود يوسف أنه بطلا من طينة الكبار، فإرادته القوية جعلته ينخرط مبكرا في حزب الشعب، وفيه زار زنزانة سجن عنابة إلا أن إرادته الفولاذية قادته خارج ما كان ينتظره في أتون و غياهب المحكمة المنتظرة له، ثم ارادته في لملمة التعثر الواضح لمنطقته الثانية غداة الانطلاقة الثورية خاصة بعدما تولى قيادة المنطقة الثانية باستشهاد رفيق دربه ديدوش مراد فكانت نظرته اشعال فتيل الثورة بالطريقة التي رآها مناسبة، وفي حدود الظروف التي تحياها منطقته ففجر هجوم الشمال القسنطيني الذي حقق نتائج باهرة وعلى مختلف المستويات السياسية منها والعسكرية، والداخلية والخارجية على الرغم من بعض الانعكاسات السلبية (ثمن ضريبة الدم التي دفعها الشعب في المنطقة بين 7000 و 12000 شهيد).

ولكن لابد من تضحيات في مستوى التطلعات الشعبية (الاستقلال) كما اختتم إرادته بمشاركته الفعالة في أشغال المؤتمر الوطني الأول للثورة التحريرية بالصومام 20 أوت 1956.

وقد لخص شيبوط إبراهيم رفيق دربه في السلاح في أمنية القائد زيغود الذي يرى أنها تتحقق في ثلاث مطالب رئيسية وحيوية بنظره: المعرفة والعلم، والصحة والعدالة الاجتماعية بين الجزائريين، وهل يمكن القول أنه تنبئ بضرورة تحقيق ثلاثية البعد الاستشرافي لزيغود على المجتمع الجزائري، أم أن التجربة المريرة له علمته قيمة هذه المبادئ الحيوية التي حاول بها صنع وتحريك الرجال كقائد لا مثيل له. إلا أن الاستثناء والهدف الذي أراد تحقيقه حسب شهادة زوجته المولودة طرايفة عائشة [40]، والتي نقلها إبراهيم شيبوط في شهادته قولها تمنى ما يريد " أنا أتمنى السقوط شهيدا ولا أتمنى حضور الاستقلال حتى لا أحيد ولا أفسد بالإغراءات المادية والطموح السياسي المفرط ".

ـ الحواشي والإحالات:

1 – بالرغم من مشاركة قطاع قسنطينة بالنصيب الأوفر في حضور قدماء المنظمة الخاصة و الفارين من الجيش الفرنسي في هذا الاجتماع إلا أن الخلاف الذي نشب بين بوضياف و مجموعة قسنطينة (مشاطي، حباشي، رشيد ملاح، بوعلي) وانسحاب هذه الأخيرة من الاجتماع اضعف نسبيا موقف المنطقة أثناء عملية التفجير، وكان سبب الخلاف الصيغة التي تم بها تعيين القيادة الوطنية (مجموعة الخمس) و رفضهم لقيادة ديدوش مراد على الشمال القسنطيني والمطالبة بتثبيت رابح بيطاط فيها، ولم يكن مطلقا بأنها متعلقة بمواقف التردد أو متخاذلة من هذه المجموعة عن العمل المسلح ولكن انعكاسات هذا الموقف ما لبث و أن ظهرت نتائجه السلبية على الانطلاقة العرجاء للثورة في الشمال القسنطيني بالرغم من كونها الخزان الرئيسي للإطارات التاريخية التي فجرت الثورة.

2 – يمكن معرفة النشأة الاجتماعية و النضالية للشهيد الثائر داخل تيار الاستقلالي وعبر مراحله المختلفة بالاستعانة بالمراجع التالية دون الحصر إبراهيم سلطان شيبوط، زيغود يوسف الذي عرفته " شهادة " (ت)، ترجمة قندوز عباد فوزية، منشورات الحركة الوطنية بالأبيار 2011، ص- ص: 24 – 51، وأيضا محمد عباس، ثوار عظماء " شهادات تاريخية وطنية " ، دار هومة للنشر و التوزيع و الطبع، 2005 الجزائر ص ص: 195-203.

3 – محمد الطيب العلوي، " الشهيد يوسف زيغود القائد الشعبي المتواضع " مجلة الذاكرة، ع5، منشورات المتحف الوطني المجاهد، أوت 1998، ص 60

4 – عبد النور خيثر، تطور الهيئات القيادية للثورة التحريرية 1954-1962، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، (إشراف)، أ د حباسي شاوش، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2005-2006، ص 254

5 – تتفق غالبية الدراسات التي تناولت شخصية زيغود يوسف عن زهده في ملاذ الدنيا و عن حسن سلوكه الاجتماعي، و عن أخلاقه و معاملاته لجنوده، و في هذا الصدد ينقل محمد الطيب العلوي شهادة لصالح مرسي أنه و زيغود و شخص ثالث معهما كانوا يتناوبون على حداء واحد في مسيرة طويلة بينهم إنه نوعا من التصوف الثوري المثالي المحشو بالإخلاص. إنه تصوف نادر الوجود في القادة، و يروي الطاهر زبيري في مذكراته أنه لاحظ أن القائد زيغود يوسف، و من خلال مكوثه ثلاث أيام عنده بعد فراره من سجن الكدية أنه يستيقظ على الخامسة صباحا ليقوم بتدريب فوج من الجنود لمدة ساعتين، ثم يضبط الحراسة جيدا تحسبا لأي عملية عسكرية مباغتة للجيش الفرنسي، و في شهادة أخرى وعلى لسان سعد دحلب الذي نزل ضيفا على زيغود و لمهمة في الأوراس اندهش من شخصية يوسف معتبرا اياه قائدا عظيما و هو الذي علق عليه بقوله " كان رزينا و متبصرا، و كان بإمكانه البقاء لساعات طويلة يفكر منعزلا، و في نفس الوقت كان لا يخلد للنوم قبل رفاقه ويستيقظ قبلهم " ينظر: ابراهيم شيبوط، الشهادة السابقة، ص 109 و الطاهر زبيري، مذكرات أخر قادة الأوراس التاريخيين (1929-1962)، طبع ANEP 2008، ص 118، و كذلك، سعد دحلب، المهمة منجزة من أجل استقلال الجزائر، دار دحلب للنشر 2007، ص 35، 36.

6 – ويذكر العقيد كافي في مذكرته هذه الحوادث بتعليق بسيط مركزا على العمليات التي كانت في ذكرى احتلال الجزائر المصادف للخامس من جويلية، و تميزت العمليات بالكمائن الموجهة ضد المنشآت الاقتصادية خاصة تخريب شبكة الطرق الرئيسية بين المدن و القرى مما تسبب في هزة نفسية لقوات العدو و بذلك و ضع حد لملاحقة وحدات قوات العدو لوحدات قوات جيش التحرير الوطني . ينظر علي كافي، مذكرات الرئيس علي كافي من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946-1962، ط2، دار القصبة للنشر، 2011، الجزائر، ص

100، 101.

7 – أحد القادة العسكريين الفرنسيين الذين شاركوا في معركة ديان بيان فو بالهند الصينية و كان يلقب ديكورنو الصاعقة. ينظر علي كافي، المرجع السابق، ص 100.

8 – المتحف الوطني للمجاهد، الشهيد زيغود يوسف، دار هومة للطبع و النشر، الجزائر، 2001، ص77.

9 – عمار قليل، المرجع السابق ص 304.

10– محمد حربي، جبهة التحرير الوطني الاسطورة و الواقع 1954–1962 (ت) كيمل قيصر داغر، ط1 مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1983، ص 114.

11– تتباين الدراسات و الأدبيات التاريخية في وصف و نعت هذا الحدث التاريخي الهام فمحمد حربي يقر بأنها مجازر و يذهب سليمان الشيخ بالقول بأنها لغة العنف المنظم الذي يفهمه الاستعمار و حصره في عمليات (التخريب، مظاهرات، الاضطرابات، العمليات الفدائية)، وينتهي إلى القول بأنها محصلة للهجوم الكبير يوم 1955/08/20 كحوار بلغة السلاح التي طالما احتقر الاستعمار شعبه وقيادته، و اختزلها صديق و زميل زيغود يوسف ابراهيم شيبوط بقوله أنها عملية 20–22 أوت 1955 وهو نفس الطرح الذي ذهب اليه علي كافي في مذكرته بقوله هكذا تم الاعداد لـ 20 أوت 1955 و مزج معمري خالفة في كتاب عبان رمضان بين مفاهيم عدة فهي تارة عملية وتارة أخرى أحداث و في مرات عديدة انتفاضة. يمكن العودة إلى: معمري خالفة، عبان رمضان (ت) زينب زخروف، ط2، منشورات ثالة الجزائر، 2007، ص ص 261–281 و ص 335، 336. وأيضا سليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين، دراسة تحليلية في الحركة الوطنية و الثورة المسلحة (ت) ، محمد حافظ الجمالي، دار القصبة للنشر 2007، ص 239. وكذا ينظر محمد حربي، حياة تحدي وصمود مذكرات سياسية 1945–1962 (ت) عبد العزيز بو باكير و علي قسايسية، دار القصبة للنشر، 2004، ص 160، وحسب ما أفرزته طبيعة بداية الهجومات و انعكاساتها و افرازاتها داخليا وخارجيا فإن الهجومات قد بدأت بهذا المفهوم ثم تطورت و أصبحت انتفاضة عارمة خلال فترة اندلاعها، وإنتهت كما يؤكد حربي بمجازر دموية اقترفتها أيادي قوات و جنود الاحتلال سواء الفرنسية منها بصفة خاصة أو الهجينة منها خاصة فرقة السينغاليين واللفيف الأجنبي بصفة عامة.

12– يمكن العودة إلى ما أقره الطاهر زبيري من حيث أن هناك نداء من قادة الاوراس إلى المناطق الأخرى للتحرك وفك الحصار على الأوراس، وتخفيف الضغط العسكري الفرنسي عليها، واستجابة لحينها البطل زيغود يوسف الذي بدأ يفكر في طريقة ما للقيام بهجومات واسعة على العدو الفرنسي بمنطقة الشمال القسنطيني غير أنه كان يفتقد للسلاح، و لمواجهة هذا المشكل أرسلت المنطقة الأولى بعض الجنود نحو الشمال القسنطيني للمشاركة في الهجومات، وفي هذا الصدد اصطحب الطاهر القسنطيني 24 مجاهدا من الاوراس كما قاد عيسى عبد الوهاب 12 مجاهدا وأشرف على عبور هؤلاء القائد صالح بوبنيدر مشاركين في تلك الهجومات. و بالمقابل يؤكد محمد عباس أن خليفة بن بولعيد بعث برسالة إلى زيغود يوسف يصف فيها خطورة الوضع بالمنطقة الاولى نظرا لاشتداد الحصار عليها وحثه على فعل شيء من أجل تخفيف الضغط المفروض. ينظر الطاهر زبيري: المرجع السابق، ص 125، و علي كافي، المرجع السابق ص 106، و محمد عباس، المرجع السابق، ص 356، وكذا موسى تواتي، و رابح عواد، هجوم 20 أوت 1955، ط 1، دار البعث، قسنطينة، 1992، ص 13.

13– بودنا الإشارة إلى بعض السلبيات التي حملتها مذكرات كافي على الرغم من أهميتها البالغة كمصدر من مصادر البحث التاريخي في فترة الثورة الجزائرية إلاّ أن كثرة التساؤلات و الأقواس المفتوحة دون مبررات ولا

تفسيرات لألغاز كثيرة وعلى امتداد فصولها دون توضيحات لسياقاتها التاريخيةلم يسمح لنا ذلك كله باستيعابها أو تقديمها كدليل ملموس يقتدى و يعتمد عليه و كمثال على ذلك إشارته في (ص 107) من الطبعة المنقحة والمزيدة أن زيغود يوسف بعث إلى المنطقتين الأولى و الثالثة برسالتين يدعوهما إلى القيام بعمليات منسقة وحدث – بحسبه – ما لم يكن في الحسبان بوقوع مبعوثي المنطقة الثالثة في قبضة العناصر المصالية في البويرة وإغتيلا غدرا ! و صادف الوفد الثاني إستشهاد بشير شيحاني ؟ ! و لم يذكر في هذا الصدد التاريخ ولا حيثيات الواقعة و التساؤل المهم الذي يمكن طرحه هنا متى بعث زيغود يوسف مبعوثه للأوراس هل قبل الهجومات (كما يذهب إلى ذلك كافي) أم بعد هجومات الشمال القسنطيني ؟ أم مع بداية معارك الجرف التاريخية سبتمبر 1955 ؟ أم أن المشكل هو عدم وصول المبعوث إلى عين المكان في الوقت المحدد، و هل شارك هذا المبعوث في هجومات الشمال القسنطيني لأن المتوفر من معلومات و ما مر معنا يؤكد بعث بشير شيحاني للأسلحة والرجال لمساعدة القيادة بالمنطقة الثانية في تفجير هجوم الشمال القسنطيني، و كان الطلب الرئيسي في رسالة شيحاني إلى زيغود يوسف القيام بعمل ما في المنطقة الثانية لتخفيف الحصار على المنطقة الأولى.وفي ختام هذه الإشارة بودنا تقريب الباحثين إلى الدراسة النقدية الهامة للمجاهد محمد قديد و رغم صغر حجمها فإنها تحمل من التصحيحات و التنقيحات ما يقوي و جهة نظرنا حول مذكرات كافي و ما تحمله من دلالات و قراءات سمحت لنا بالتأويل و التعليق عليها سلبا، و في هذا الصدد نشير إلى تساؤل كافي في مذكرته و في صلب الورقة البحثية التي نحاول إماطة اللثام عن بعض الجوانب الغامضة فيها يمكن العودة إلى ماقاله صاحب المذكرات أنه و مع نهاية الاجتماع التاريخي بالصومام بقوله أن بن مهيدي قال لزيغود (سنتقابل عن قريب في شارع إيزلي...، في نهاية هذه السنة أو مطلع 1957 للاحتفال بالنصر) كيف و لماذا دون تقديم حجة أو دليل و هل يمكن القبول بهذا الطرح الذي فتح لنا احتمالين أولاهما هل هو قرب نهاية الزمن العسكري للثورة ؟ أم هناك مفاوضات سرية غير رسمية بين وفد العاصمة و الوفد الفرنسي، و بهذه التعليقات و التأويلات التي فتحت مجالا لسجال ايديولوجي بين المجاهدين في وقت من الأوقات خاصة على هذه المذكرات. ينظر محمد قديد، الرد الوافي على مذكرات كافي، در هومة للنشر الطبع و التوزيع، 2001، الجزائر، ص ص: 1-103. وأيضا علي كافي، المرجع السابق ص 107.

14- أحسن بومالي، إستراتجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954-1956، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، (د، د، س، ن)، الجزائر، ص 207.

15- ذهب علي كافي بالقول بأن الاجتماع التحضيري لإعداد الهجومات كان في شهر جويلية من سنة 1955، بينما ينحو عمار قليل بالقول بأن الاجتماع كان بين 25 جوان و 01 جويلية و بحسبه حضره أكثر من 100 مجاهد تحت قيادة زيغود يوسف، وتم فيه رسم الخطوط العريضة للعمليات، وفي ما بعد تم اجتماع قادة النواحي الذي انعقد في 19 أوت 1955 لوضع اللمسات النهائية لمخطط الهجوم، في الوقت الذي يشير فيه أحسن بومالي إلى أن الاجتماع بدأت أشغاله في 23 جويلية 1955 واستمرت إلى غاية الشهر و تحت اشراف زيغود و بنفس عدد المجاهدين الذين تم ذكرهم سلفا. و يمكن الاشارة أن هذه الدراسات تتفق على شهر جويلية كمعلم زمني بارز تم في حيز التحضير للهجومات التاريخية للشمال القسنطيني.

16- هناك من الدواعي والأسباب التي أدت إلى إقحام السكان في معركة الهجوم فهو يوم عطلة وفيه يجتمع و يلتقي سكان مدينة سكيكدة بالسوق الأسبوعي حيث يتوافد عدد كبير من المواطنين من مختلف المناطق المحاذية لها مما يسهل دخول جنود جيش التحرير الوطني إلى المدينة بالزي المدني مخفيا اللباس العسكري و السلاح هذا من

جهة، ومن جهة أخرى اختير هذا اليوم لأنه نهاية الأسبوع وبداية العطل و الإجازات للجنود الفرنسيين ورجال الشرطة و الدرك.

17- لا يمكن لنا في حيز هذه الورقة البحثية سرد كل تفاصيل الهجومات و التي لم تستثن فيها المدن و القرى المذكورة في مخطط الهجوم، و قد حققت في ذلك بعضا من أهدافها إلا أنها أذهلت المعمرين و القوات الفرنسية التي استدعت قوات الفيلق التاسع للمدفعية لمحاصرة و غلق مداخل و مخارج مدينة سكيكدة و التحضير لمجزرة رهيبة بها. و يمكن العودة إلى زخم هائل من الدراسات التي تناولت تلك الهجومات منها مثلا – لا حصرا – موسى تواتي و رابح عواد: المرجع السابق، و أيضا المنظمة الوطنية للمجاهدين: مجلة أول نوفمبر (عدد خاص) ، بتاريخ 20 أوت 1973 و من خلال عناوين، (من ذكرى 20 أوت 1955، و ملحمة 20 أوت في الشمال القسنطيني، و شاهدا عيان يرويان 20 أوت بالقل) ص ص: 7-33، و أيضا مصلحة البحوث والتوثيق: " هجوم 20 أوت 1955 على الشمال القسنطيني " مجلة المصادر، (ع3) مركز دراسات الحركة الوطنية بالأبيار، ص ص:166-170

18- يعود الفضل في دراسة القضية الجزائرية في مؤتمر باندونغ 1955 إلى الزعماء جمال عبد الناصر المصري والرئيس الهندي نهرو والأندونسي أحمد سوكارنو الذين آثروا على ترك ممثلي ج، ت، وللمشاركة في أشغال المؤتمر كوفد ملاحظ (يتكون من آيت أحمد، أمحمد يزيد)، و أوصى المؤتمر بعرض القضية الجزائرية على الجمعية العامة للأمم المتحدة، و فعلا قدم مندوبو (14) دولة افريقية وآسيوية رسالة إلى الأمين العام للهيئة الأممية بتاريخ 29 جويلية 1955 وتم تقديمها إلى الجمعية العامة في سبتمبر من نفس السنة و صرح حينها جاك سوستال بأن هذا الحدث ذا قيمة معنوية للجزائريين أكثر من حصولهم على السلاح، ينظر: عبد القادر خليفي، " المؤتمرات الأفروآسيوية والقضية الجزائرية " مجلة المصادر، (ع8) مركز دراسات الحركة الوطنية بالأبيار، الجزائر، 2003، ص 224، 225.

19- إن الشخصية المشار إليها في المتن هو ابن أخ فرحات عباس ومستشارا بلديا لمدينة قسنطينة و قد حكم عليه بالإعدام لأنه نشر بيانا جاء فيه " نحن المنتخبين الشرعيين للشعب الجزائري ندين العنف من أي جهة كانت " ومعنى ذلك بتعبير علي كافي أنه يساوي بين الثورة والاحتلال بالإضافة إلى مشاركته في تكوين جمعية الأخوة الإسلامية الفرنسية. ينظر علي كافي، المرجع السابق، ص 107، وأيضا سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص 280.

20 – في شهادة للمجاهد أحمد هبهوب والذي شارك في أشغال الإجتماع التحضيري لهجوم 20 أوت 1955 برفقة أكثر من مئة مجاهد وتحت قيادة زيغود يوسف أكد أن قائد المنطقة الثانية حث الحاضرين من المجاهدين بتحمل المسؤولية ووجوب دفع ضريبة الدم التي لا شيء غيرها لإنقاذ الثورة من الهلاك المحقق، وقد حدد في الاجتماع رقم 5000 شهيد الواجب دفعها من أبناء المنطقة كضحايا محتملين للرد القمع الفرنسي مما يعني أن القائد زيغود كان على علم بما ستؤول إليه إفرازات الهجومات من طرف القوات الفرنسية التي ضنت انها وجدت الملاذ الآمن في الشمال القسنطيني بعد البداية الثورية المتعثرة فيها. ينظر عثمان الطاهر علية، الثورة الجزائرية أمجاد و بطولات، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، (د، س، ن)، ص 81، وأيضا إبراهيم شيبوط، الشهادة السابقة، ص 71.

21- بول أوساريس، شهادتي حول التعذيب مصالح خاصة الجزائر 1957 –1959، (ت) مصطفى فرحات، دار المعرفة للنشر، الجزائر، 2008، ص 64.

22- إبراهيم شيبوط، المرجع نفسه ص 71.

23- ذكر علي كافي أنه وبعد الهجومات وزعت تعليمة لتقييم نتائج العملية في المكان المسمى الكرمة قرب سمندو برئاسة زيغود برفقة مساعديه، في الوقت الذي أشار عمار قليل إلى مكان تايراوا شرق سطارة كمكان اجتماع تقييم نتائج الهجومات وتم ذلك في شهر نوفمبر 1955 دون ذكر الأول للمعلم الزمني لانعقاد الاجتماع التقييمي. ينظر: عمار قليل، المرجع السابق، ص 343، و علي كافي، المرجع السابق، ص 111.

24- علي كافي، المرجع السابق، ص 111، 112.

25- أحسن بومالي، المرجع السابق، ص 250

26- أوساريس، المرجع السابق، ص 78.

27- عبد النور خيثر، المرجع السابق ص 259.

28- ينظر تعليقنا حول مذكرات علي كافي وعلى الرغم من أهميتها فإننا نقول و تأكيدا لما سبق أستحضر في هذا الحيز ما كتبه في الصفحة 87 أنه و أثناء التحاقه بالثورة (لم يلتحق بالصفوف الأولى للثورة في بدايتها بل كان مركزي التوجه) أشعره الوضع العام بنوع من الغوضى وعدم الوضوح! إن هذا القول يفتح الكثير من التأويلات ففي اعتقادي أنه وقبيل التحاقه بالثورة لم تكن أدنى فكرة بالثورة أو على الأقل علاقتة ببن طوبال الذي قال في إحدى شهاداته بأننا أثناء اجتماع 22 كنا امام خيارين: إما التنظيم ثم انطلاق الثورة أو العكس و بالإمكانات المتوفرة و الشهادات في ذلك متواترة منها شهادتي بيطاط و بوضياف، و في الصفحة 88 من المذكرات يقول كافي إن الثورة لا تقبل قيادات جاهلة في إشارة إلى قائد فرقته الدراجي العايب و قد سرد القصة بنوع من التعالي واصفا إياه ببعض الأوصاف التي لا يليق المقام ذكرها هنا، يمكن العودة إلى عمار بوحوش: "تحويل المنظمة الخاصة إلى جبهة التحرير الوطني " مجلة الذاكرة، ع3 المتحف الوطني للمجاهد، خريف 1905، ص 41، 42، و أيضا محمد قديد، المرجع السابق ص 97، 98.

29- بالعودة إلى تأليف معمري خالفة حول عبان رمضان الذي يشير إلى موفد العاصمة إلى المنطقة الثانية كان هدفه الأساسي تتمة المسيرة إلى المنطقة الأولى للإطلاع على الظروف السائدة فيها، والتي كان يعتقد أنها تحت قيادة بن بولعيد، و كانت الفترة متأرجحة بين فيفري و مارس 1956، ولم تكن بحسبه أن المهمة ذات صلة بمؤتمر الصومام والذي لم يكن مبرمجا آنذاك في هذه الزيارة بخلاف الشهادات المتواترة التي تنحوا بالقول أن زيارة سعد دحلب كانت من أجل ترتيب مكان انعقاد المؤتمر التنظيمي للثورة. ينظر معمري خالفة، المرجع السابق، ص 324، وإبراهيم شيبوط، الشهادة السابقة، ص 89.

30- بالنسبة لمعمري خالفة لا تهمه الشهادات المتواترة حول أسبقية زيغود في المبادرة لعقد في مؤتمر وطني للثورة، أو تزامنها مع فكرة عبان رمضان مستدلا في ذلك من جملة من الشواهد و الدراسات التي تدلل حسبه على أن الفكرة و التحضير و التنظيم و سير الأشغال و القرارات المنبثقة عن المؤتمر كلها محطات أشرف عليها عبان. ينظر معمري خالفة، المرجع نفسه، ص 313.

31- لم يذكر كافي سبب زيارة سعد دحلب إلى المنطقة الثانية هل هي تحضير المؤتمر الجامع ام استغلها كمحطة للعبور إلى المنطقة الأولى و معرفة أوضاعها.

32- فرضت السياسة التطويقية للقوات الفرنسية على منظمي الاجتماع تغيير مكان انعقاده لأكثر من مرة فمن المشروحة بالقاعدة الشرقية إلى بوالزعرور بالشمال القسنطيني إلى أماكن عدة بالمنطقة الثالثة لعقده منها لعزازقة وبني وقان بناحية البيبان ثم بقلعة بني عباس بآقبو، واستقر المقام بالقيادة على أن يكون الاجتماع بدوار أوزلاقن بجبل آزرو من جهة اليسرى لوادي الصومام المحاذي لغابة آكفادو. ينظر عمار قليل، المرجع السابق،

ص 407، 408 وأيضا معمري خالفة، المرجع السابق ص 327.

33- عبد النور خيثر، المرجع السابق ص 259.

34- علي كافي، المرجع السابق ص 134.

35- مديرية المجاهدي لولاية سكيكدة، شهداء الجزائر في ولاية سكيكدة 1954-1962، دار الفجر للطباعة و النشر، (د، س، ن) ص 332

36- عندما تطرق كل من بن مهيدي وعبان إلى نتائج الهجومات ومسألة الليلة الحمراء بالولاية التاريخية الثالثة تحت قيادة عميروش و كمين سكامودي بالولاية الرابعة تحت قيادة كموندوس علي خوجة لم يرغبا في الإدانة أو إلقاء اللوم على أحد، و إنما أرادا فقط التنبيه إلى الانعكاسات الخطيرة التي قد تنجر عن تسيير الثورة بمثل هذه الطرق التي قد تؤدي إلى رفع مساندة الرأي العام المحلي والإقليمي و الدولي للثورة، لكن المؤسف وفي سياق تعليق معمري خالفة حول رد العقيد عميروش بقوله بأن الذبح أصبح طابعه الخاص ؟ينظر: معمري خالفة المرجع السابق، ص ص: 334-339.

37- محمد الطيب العلوي، المقال السابق، ص 73.

38- مديرية المجاهدين بولاية سكيكدة، المرجع السابق، ص 333.

39- إبراهيم شيبوط، الشهادة السابقة، ص 98.

40 - نفسه ص 96.

Zighoud Youcef and the revolutionary planning of the northern region of Constantine 1956-1955

Dr. Djamel BELFERDI*

Abstract:

The study of the path of the Algerian Revolution shows that its greatness is the sacrifices made to achieve the goal of national independence as recorded in the last line of the statement of November 1, 1954. The martyr Zighoud Youcef was one of the heroes of Algeria who played a pivotal role in the start of the revolution, as well as the attacks of the North of Constantine in August 1955, where he was its leader. In this paper, we address aspects of this historic event.

Key words: the attacks of 20/08/1955, Zighoud Youcef, The historical northern region of Constantine.

* Faculty of Social and Human Sciences - University of El-Oued. – Algeria.

مؤتمر الصومام عام 1956 وإشكالية تجسيد قراراته

بقلم
د/ محمد يعيش(*)

ملخص

في هذا المقال حاولنا تناول إشكالية مهمة في تاريخ ثورتنا، تمثلت في مسألة تجسيد قرارات مؤتمر الصومام، والتي لم تكن سهلة وممكنة إلا بعد جهد كبير وفترة زمنية، وذلك يرجع إلى عدم انسجام بعض تلك القرارات مع واقع الثورة المعاش، ومثالية بعضها الآخر، وخاصة القرار المتعلق بأولوية الداخل على الخارج وأولوية السياسي على العسكري، وعليه أثيرت معارضة شديدة في الداخل والخارج، وكل ذلك اندرج في إطار الصراع السياسي بين عبان في الداخل وابن بلة في الخارج، وكانت ساحته الرئيسية قاعدة تونس والأوراس، وتعرضت الثورة لمحنة شديدة، لم تنتهي إلا بخسائر جسيمة وبجهود ضيعت في حمل المعارضين على تقبل تلك القرارات، وفي نهاية المطاف تبين أن قرارات الصومام وعلى الرغم من بعض الانتقادات كانت مفيدة للثورة على الصعيد التنظيمي والوحدوي، وهذا ما نحاول تناوله في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: الثورة الجزائرية، مؤتمر الصومام، تجسيد قرارات الصومام، معارضة قرارات الصومام.

مقدمة

يعتبر مؤتمر الصومام حدثا مهما وحاسما في تاريخ الثورة التحريرية، فقد فعلت قراراته النشاط السياسي والعسكري للثورة، وأوضح ميثاقه مبادئ وأهداف الكفاح التحرري، وإن كان الإجماع حاصل على أهمية المؤتمر كحدث إلا أن بعض مقرراته لم تحض بالإجماع وتعرضت للانتقاد، وهو ما جعل كثير من قضايا المؤتمر مثار جدل ونقاش، فعلى الرغم من إصرار القيادة الجديدة على التنفيذ الصارم لتلك المقررات، فقد تأخر تعميم تجسيد المقررات في بعض المناطق إلى النصف الأول من

(*) أستاذ محاضر"أ" بقسم التاريخ ـ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ جامعة المسيلة.
yaichemohamed50@yahoo.fr

سنة 1957، فلماذا أخذ هذا الخلاف منحى الصدام والمواجهة؟، وكيف تمت تسوية الانعكاسات التي خلفها الصراع على مشروعية الصومام؟، هذا ما نحاول التعرف عليه من خلال توضيح كثير من ملابسات المؤتمر وبيان سبل تجسيد قراراته والصعوبات التي اعترضت ذلك.

أولا ـ ظروف انعقاد مؤتمر الصومام:

انعقد المؤتمر في ظروف صمم فيها العدو القضاء على الثورة، وظهرت أطماع القادة الفرنسيين في الاعتماد عل الوسائل العسكرية والسياسية لإخماد الثورة في مختلف المناطق، ورغم صعوبة التنسيق والاتصال بين المناطق فقد قطعت الثورة شوطا كبيرا وحققت انتصارات باهرة منذ اندلاع الثورة وإلى غاية انعقاد المؤتمر، وترجع فكرة المؤتمر إلى لحظة اندلاع الثورة حيث اتفق قادتها في اجتماع 23 أكتوبر 1954 على عقد مؤتمر عام في جانفي 1955، ونظرا للظروف الصعبة التي كانت تواجهها الثورة، خاصة في التنسيق والاتصال، وبحكم تعرض أغلب قادة مناطق الثورة الخمسة للاستشهاد أو الاعتقال فان الفكرة تأخر تجسيدها.

وفي سنة 1956 توجهت جهود التنسيق التي بعثها عبان رمضان مع قادة المنطقة الثانية بالاتفاق على عقد مؤتمر عام لقادة الثورة بمنطقة الشمال القسنطيني، وتفيد الشهادات أن المقترح جاء من قبل زيغود الذي أكد لمبعوث عبان استعداد منطقته الكامل لإنجاح المؤتمر، واقترح منطقة بوزعرورة بالقل مكانا للاجتماع (كافي، ع، 1999: 97)، وتؤكد شهادة أوعمران أن زيغود أرسل برقية لعبان في هذا الشأن اطلعا عليها رفقة ابن امهيدي، وبعد مناقشة الموضوع أرسلت برقية لإعلام وإشراك الوفد الخارجي في الموضوع (أوعمران، ع، 1984: ج2، ص 108)، ولكن ظهرت بعض الصعوبات حالت دون عقده هناك، كما تعذر عقده بجبال سوق اهراس في عهد مصطفى ابن بوالعيد، والذي شكل لجنة لتحضير المؤتمر وطلب منها الاتصال بقيادة الشمال القسنطيني وقيادة الخارج (عثماني، ع، 1999: 505 506)، وبعد الاتصالات والمداولات بين القادة في الداخل والخارج تم الاتفاق على عقد هذا المؤتمر في منطقة البيبان (Mabrouk,,b, 2000, ;114 -115)، وذلك باعتبارها منطقة تتوسط مناطق الشرق والغرب وقريبة من مدينة الجزائر مقر قيادة عبان، وإثر اشتباك خاضه الوفد القادم من العاصمة بمشدالة وفرار البغل الذي كان يحمل بعض وثائق المؤتمر لمعسكر العدو تقرر نقل الاجتماع إلى الضفة اليسرى للوادي التي كان يشرف عليها عميروش، واختيرت قرية ايفري بأوزلاقن قرب مدينة أقبو غرب بجاية كمقر للمؤتمر، وحدد تاريخ 14 أوت 1956 موعدا لانعقاده(امقران، ع،

مقابلة يوم 6 أفريل 2008).

افتتح المؤتمر أعماله يوم الثلاثاء 14 أوت 1956 لتنتهي يوم 23 أوت، وذلك بمشاركة معظم قادة الثورة عدا الوفد الخارجي وممثلي منطقة أوراس النمامشة، وشارك في مداولات الاجتماع رمضان عبان ممثلا لمنطقة الجزائر العاصمة، وكريم بلقاسم ممثلا للمنطقة الثالثة، وعمار أوعمران ممثلا للمنطقة الرابعة، وزيغود يوسف ومعه ابن طوبال استثناءا ممثلين للمنطقة الثانية، ومثل ابن مهيدي المنطقة الخامسة دون أن يستشير نوابه.

وخلال جلسات الاجتماع تم تقييم حصيلة اثنين وعشرين شهراً من الكفاح، ودرس كل ما يتعلق بشؤون الثورة، وعلى ضوئها تم توضيح آفاق المستقبل وإستراتيجية العمل، وإن كان المجتمعون متفقين على كثير القضايا فان نقاشاتهم لم تخلوا من الحدة والجدال، ويبدوا في نظرنا بروز جبهتين في هذا النقاش، يمثل الأولى زيغود يوسف بثقله المحترم، ويمثل الثانية بقية الأعضاء الذين يبدوا أنهم جاءوا إلى المؤتمر متفقين على المقررات بحكم ارتباطهم بتنسيق وثيق، ومع ذلك كانت جبهة زيغود التي عززت بنائبه ابن طوبال قوية، لكنها تمثل أقلية ظلت تناقش بحدة بعض المسائل الخلافية ومنها:

. مسألة التمثيل: حيث تساءل زيغود عن عدم حضور ممثل الأوراس، وبالخصوص الوفد الخارجي، وعبر عن تخوفه من هذا الغياب الذي ينقص من أهمية المؤتمر، وذلك بحكم أهمية منطقة الأوراس ودورها في الثورة وثقل قادة الخارج وقوة نفوذهم المعنوي.

. مبدأي "أولوية الداخل على الخارج" و"أولوية السياسي على العسكري": حيث عارض زيغود بشدة المبدأين، وبخاصة المبدأ الثاني معتبرا أن القائد يجيب أن يكون سياسيا وعسكريا في نفس الوقت.

. إلحاق المعتدلين بقيادة الثورة: إذ اعترض زيغود على تولي المعتدلين أية مسؤوليات قيادية في الجبهة لأن ذلك يضر بالثورة، وهذا الأمر جعله يسر لمرافقيه بالعبارة الخالدة " الاستقلال ممكن التحقيق أما الثورة فقد انتهت" (عباس، م، 2007: 159).

ثانيا ـ قرارات المؤتمر ونتائجه:

لقد صادق المؤتمرون بعد المناقشات على قرارات هامة، يمكن أن نلخصها في النقاط الآتية:

1- تقسيم البلاد إلى ست ولايات ورسم حدودها من جميع الجهات، وتقسيم الولاية على النحو التالي: الولاية ثم المنطقة ثم الناحية ثم القسمة، وتكون القيادة في مجلس الولاية جماعية بين

قائد الولاية ونوابه الثلاث.

2- نظمت القرارات العسكرية التي أقرت التوحيد العسكري والرتب واللباس والمصالح والمخصصات.

3- أقرت القرارات السياسية تنظيم النشاط السياسي على الشكل التالي:

أ- المؤسسات القيادية وتشمل:

. لجنة التنسيق والتنفيذ: تتكون من خمسة أعضاء، وتتكفل بالإشراف على الجهاز السياسي والعسكري للثورة، ولها الحق في تشكيل الحكومة المؤقتة بالتنسيق مع المندوبين في الخارج.

. المجلس الوطني للثورة الجزائرية: يتألف من 34 عضو (17 منهم دائمين و17 مؤقتين) ويعتبر المجلس أعلى جهاز تشريعي للثورة (برلمان)، يوجه سياسة جبهة التحرير الوطني الداخلية والخارجية, وهو المخول بإيقاف القتال والبت في القرارات المصيرية.

ب- المحافظون السياسيون: مهمتهم سياسية، فهم يساعدون جيش التحرير الوطني ويقدمون المشورة وينقلون الأخبار ويوجهون الشعب ويواجهون الحرب النفسية.

ج – المجالس الشعبية: تشكل عن طريق الانتخاب في جميع قرى ومدن الوطن لتشرف على سير الحياة اليومية وما يتعلق بالشؤون العدلية والمالية والاقتصادية.

د- العلاقة بين الجبهة والجيش: قرر المؤتمر أولوية السياسي على العسكري.

هـ- العلاقة بين الداخل والخارج: أقر المؤتمر أن تعطى أولوية الداخل على الخارج.

و- المحاكم: تشكيل محاكم لتحاكم المدنيين والعسكريين, وفقا للقوانين المسنة (D, S, 1990 ; 236-246).

هذا وأقر المؤتمر ميثاقا سياسيا لسير الثورة يعد منهاجا ودستورا لها، وجاء في كراسة تشتمل على أكثر من ثلاثين صفحة، وقد تم تحضيرها أشهرا قبل انعقاد المؤتمر، وذلك بمساهمة عبان وابن امهيدي وتمام وكذا العناصر الشيوعية الملتحقة بالثورة (عمار أوزقان، محمد لبجاوي)، وقد ورد في محضر المؤتمر أن المجتمعين اطلعوا على الميثاق ووافقوا عليه، ولا ندري ما إذا نوقشت جميع قضاياه أو صودق عليه بشكل عام، ونرجع أن تكون المصادقة تمت بعد القراءة الأولية ولم يعطى له كامل الوقت رغم أهميته السياسية والإيديولوجية، مثلما حدث لميثاق طرابلس في ماي 1962، وقد استعرض الميثاق الحالة السياسية الراهنة التي تنتهجها جبهة التحرير الوطنية وإستراتيجية المستعمر في القضاء على الثورة، وتعرض للأفاق العامة التي حددت الأهداف من الحرب والمهام الجديدة

لتفعيل الثورة، وفيما يخص وسائل العمل والدعاية استعرض الميثاق نظرة جبهة التحرير الوطني للحركة الفلاحية والعمال والشباب والمثقفين والتجار والمرأة. وأكد على تضامن الشمال الإفريقي وتفعيل الموقف الجزائري أمام العالم (وزارة الإعلام والثقافة، 1979: 13 82).

ويعد مؤتمر الصومام انتصارا كبيرا للثورة التحريرية، فلقد أرسى تنظيما سياسيا محكما وخلق جيشا نظاميا، وخرج بقيادة وطنية موحدة قادرة عل تنسيق المواقف والإشراف على الثورة في كامل مناطق الوطن، وقد أثرى منهاج مؤتمر الصومام إيديولوجية جبهة التحرير الوطني، وزود الثورة بالأدوات التي كانت تنقصها لتوفير أسباب نجاح الكفاح المسلح والوصول إلى استقلال البلاد، وإنه وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهها المعارضون لمقررات الصومام فإن المؤتمر ومقرراته كانت نقلة نوعية في مسيرة الثورة التحريرية، وتأكيد على ذلك يمكن الاستئناس بشهادة ابن طوبال الذي تحدث عن ايجابيات مؤتمر الصومام لإطارات جبهة التحرير الوطني في مستهل عام 1960 بالقول: "...لكن هذا المؤتمر رغم نقائصه ورغم ضعف التمثيل على المستوى الوطني أقام مع ذلك وحدة نظامية، وحققت الجزائر لأول مرة مثل هذه النتيجة، وشهدنا لأول مرة مثل هذا التنسيق ومثل هذه المعركة، أعني تنصيب هياكل كانت هي الهياكل نفسها في جميع الأماكن، ولأول مرة كان لنا جيش موحد لم يكن له في السابق من الجيش إلا الاسم... ولأول مرة أيضا في تاريخ ثورتنا حدد ما يشبه المبادئ، أو خطوط السير لثورتنا فحظيت بنفس جديد وبروح جديدة لاستئناف سيرها وبقوة أزيد وثقة في المستقبل إلى حد، وبقيادة موحدة في هذا الوقت كان التنسيق فعليا بين الولايات، كما أن التنسيق بين الداخل والمنظمة في الخارج كان حقيقيا، وهو ما لم يكن موجودا من قبل." (A N A, GPRA, B49, Dos 1).

ومما سبق يتجلى لنا أن انعقاد مؤتمر الصومام كان حدثا كبيرا في تاريخ الثورة التحريرية، وقد كان محطة حاسمة لتنظيم الثورة سياسيا وعسكريا وتوحيد القيادة وإستراتيجية العمل وتوضيح الموقف من مختلف القضايا، وبفضل ما أقره مؤتمر الصومام من تنظيمات ومبادئ قطعت الثورة أشواطا في مواجهة السياسة الفرنسية وإلحاق الهزيمة بمخططاتها الجهنمية.

ثالثا: جهود تجسيد مقررات المؤتمر:

بمجرد عودة القادة المشاركين في مؤتمر الصومام إلى مراكز نشاطهم بادروا إلى إعلام المسؤولين المحليين بالمقررات المصادق عليها، وطلبوا منهم مباشرة تنفيذها في الميدان، وقد بادرت بعض المناطق إلى عقد الاجتماعات للمناقشة والإثراء، وصدرت في مناطق أخرى أوامر

فوقية تطلب التعجيل بتجسيد مقررات الصومام العسكرية منها والسياسية، وفي هذا الشأن يؤكد علي كافي. احد قادة الولاية الثانية. على ما يلي: "وشرعت الولاية في عملية شرح ضخمة لقرارات المؤتمر بعد مؤتمرها المحلي" (كافي، علي، 2004: 109). وجسدت منطقة القبائل مقررات المؤتمر بانضباطية وحزم، حيث تم إرساء النظام السياسي والإداري، وأعيدت هيكلة الجيش ونصبت المجالس الشعبية (بوعزيز، يحي، 2004: 154)، وكذلك الأمر بالنسبة للمنطقة الرابعة التي كان يقودها اوعمران، وأما المنطقة الخامسة فقد تفاجأ قادتها بانعقاد المؤتمر، واحتج البعض على مقرراته، لكن ما لبث أن اقنع ابن امهيدي نوابه بضرورة تجسيد مقررات المؤتمر(عباس، محمد، 2003:61 . 62)، وكان طبيعيا أن تجد مهمة تجسيد القرارات صعوبات ميدانية عملت قيادة الولايات على تجاوزها، من مثل تحديد المسؤوليات بدقة والتقسيم الجغرافي...الخ، وقد استهجن مثلا إطارات الشمال القسنطيني إجراء تعليق الرتب ولم يطبقوه، كما استمر الجدل طويلا بخصوص مبدأ أولوية السياسي على العسكري وأفرز انعكاسات سلبية (كافي، علي، 2004: 109. 110)، لكن غير المتوقع هو أن يجد المؤتمر كل تلك المعارضة الشديدة لمقرراته، وهي معارضة نشطتها القيادات التي لم تحضر المؤتمر، وهي قيادة الوفد الخارجي وقادة الأوراس والنمامشة والقاعدة الشرقية في الداخل.

رابعا: معارضوا مؤتمر الصومام:

ظهرت معارضة لمؤتمر الصومام وللجنة التنسيق والتنفيذ في الداخل والخارج، وكان يحركها أساسا ابن بلة بدعم من الاستخبارات المصرية، وفيما يلي استعراض لهاتين المعارضتين.

1. المعارضة في الخارج:

بمجرد تلقي ابن بلة ورفاقه رسالة عبان التي تعلمهم بانعقاد المؤتمر وتبلغهم بقراراته أعلن ابن بلة معارضته لهذه القرارات، والتمس من عبان تأجيل الإعلان عن المقررات إلى غاية مناقشتها مع جميع القادة المؤهلين (Harbi, M , 1981: 168)، وبعث ابن بلة برسالة أخرى إلى قيادة الداخل، ضمنها مؤاخذاته على مقررات المؤتمر، وعددها في النقاط الآتية:

. غياب الطابع التمثيلي للمؤتمر بسبب عدم حضور الوفد الخارجي، الأوراس، وهران، والمنطقة الشرقية.

. عدم أهلية عبان ورفاقه لوحدهم في التحكم في مصير الثورة التي يجهلون كل شيء عنها (Harbi M , 1981:169 -171).

وقد احتدم الجدل وتحول إلى عداء مستفحل بين خصمين عنيدين: عبان وابن بلة، ومثلما اجتهد عبان في ترتيب الأمور لصالح تكريس نفوذه سعى ابن بلة للبحث عن أنصار له لإعادة الاعتبار لنفوذه، ولن يكون ذلك إلا بعقد مؤتمر تصحيحي أو الدخول في مناوشات مسلحة وتصفية حسابات، وقد كادت تستفحل الفتنة بين ابن بلة وقادة الداخل، لكن حادث اختطاف الطائرة المقلة لابن بلة ورفاقه في أكتوبر 1956 وضعت حدا لذلك وحسمت الموقف لصالح عبان.

ومع ذلك فان دعاية ابن بلة القوية ضد المؤتمر وتوكيله لمحساس مسؤول قاعدة تونس بحماية الثورة بالطريقة التي يراها مناسبة دعت محساس وأنصاره الى الاستمرار في حملة المعارضة لمقررات الصومام، وقد كان محساس المقرب من ابن بلة ثوريا صارما معارضا للسياسيين، ويرى ضرورة مجابهة السياسيين الذين "حرفوا الثورة" حفاظا على الثورة، ومن أجل ذلك كان ينسق مع ابن بلة ومحمد يوسفي في المغرب من أجل تصحيح الوضعية(حربي، م: 159:1983 .160)، وبحكم تواجده في قاعدة تونس الإستراتيجية وارتباطه الوثيق بقيادة أوراس النمامشة والقاعدة الشرقية فقد شكل جبهة معارضة قوية موالية لابن بلة، وتؤكد بعض الشهادات أن هذه القيادات كانت تحضر لمؤتمر تصحيحي في تونس بمناسبة حضور ابن بلة لاجتماع تونس في أكتوبر 1956، وأنه وصلهم من ابن بلة خطاب مسجل يعدد فيه المزالق التي وقع فيها المؤتمرون ويدعوا إلى تصحيح المؤتمر(الوردي قتال، شهادة، تبسة، يوم 17 جويلية 2005)، وواصل محساس التزامه بعد اعتقال ابن بلة، فقد رفض الاعتراف بقيادة لجنة التنسيق والتنفيذ، والتعامل مع مبعوثيها إلى تونس (ابن عودة، آيت احسن، مزهودي)، وأعلن معارضته لقرارات الصومام، وقد دعا محساس القادة الموالين له لعقد اجتماع في ديسمبر 1956، صادق على مبدأ الوقوف في وجه "محرفي الثورة" ومعارضة قرارات الصومام، وقد اجتهدت لجنة التنسيق والتنفيذ في تجاوز المشكلة مع محساس وديا، وأمام تفاقم الأزمة رأت لجنة التنسيق والتنفيذ أن تتحرك بسرعة لتخليص قاعدة تونس من تنازع سلطتين، ومن فوضى عارمة تؤثر على إمدادات الأسلحة وعلى العلاقات مع السلطة التونسية، فانتقل الأمين دباغين إلى تونس وشرح للرئيس بورقيبة وأعضاء الديوان السياسي حقيقة الوضع في الجزائر، وفند افتراءات محساس الطاعنة في قرارات مؤتمر الصومام وسلطة لجنة التنسيق والتنفيذ، ولكنه لم يستطع كسب الموقف التونسي في هذه القضية، إذ أن محساس كان محل إيثار كثير من المسؤولين التونسيين(المدني، أ، 1986: 336)، وكانت السلطات التونسية بدورها مترددة، وتريد أن تناور باستعمال الورقتين لخدمة أهدافها، وأثرها

اتخذت لجنة التنسيق والتنفيذ قرارها بتعيين أوعمران مسؤولا عسكريا عن الوفد الخارجي ومشرفا عن التسليح، وطلبت منه الانتقال إلى تونس لتسوية قضية محساس بالتعاون مع ابن عودة ومزهودي، وأبرقت برسالة إلى السلطات التونسية، شرحت فيها الموقف من الفتنة التي يثيرها محساس في تونس ويوقع فيها الأوساط التونسية في الخطأ، وأكدت لجنة التنسيق والتنفيذ بتوقيع جميع أعضائها "نحرص على إعلامكم بأن لجنة التنسيق والتنفيذ المنتخبة في المؤتمر الوطني في 20 أوت 1956 عينت الدكتور الأمين محمد رئيسا لوفد جبهة التحرير الوطني والعقيد اوعمران نائبا له مكلفا على الخصوص بفرع الإمداد، وفي انتظار وصول هذا الأخير الذي هو في طريقه إلى تونس فإن الرائدين بن عودة بن مصطفى المدعو "مراد" وإبراهيم مزهودي مؤهلان للحديث باسم لجنة التنسيق والتنفيذ، ولذلك نرجو منكم تسهيل مهمة الإخوة الأمين واوعمران ومزهودي وبن عودة ونرجو منكم زيادة على ذلك نقل الوقائع المذكورة أعلاه إلى علم حكومتكم (Mabrouk, B, 2004,219-220)، وكان لهذه الرسالة ولمجيء اوعمران إلى تونس ولقائه مع بورقيبة أثر في تحول موقف السلطات التونسية إلى جانب لجنة التنسيق والتنفيذ، وكان محساس في نظرها ما زال يحظى بالتمثيل الرسمي والنفوذ الفعلي في تونس، خاصة وأن مجموعات سوق أهراس وأوراس النمامشة تقف إلى جانبه، وأنه يتفهم المطالب التونسية، ولكن السلطات التونسية لم تكن تقدم له دعمها إلا مقابل القطيعة التامة لأتباعه مع أنصار صالح بن يوسف ووضع حد لتصرفات المجموعات المتمركزة في تونس(زروال، م، 2007: 397)، وقد سمحت لها الظروف المستجدة، وخاصة اعتقال قادة الوفد الخارجي في أكتوبر 1956 وتمكنها من فرض السيادة من أن تتبنى سياسة بديلة جاءت بها ممثل لجنة التنسيق والتنفيذ، وهو يلتمس عقد اتفاقية تنظم شؤون الثورة وتعيد النظر في ضوابط العلاقات الجزائرية التونسية، وهكذا قدمت السلطات التونسية دعمها لأوعمران مقابل تقديمه لتنازلات معتبرة تفيد في تأكيد السيادة التونسية(زروال، م 2007: 403. 404).

واتبع اوعمران في تونس سياسة متشددة ضد محساس وقادة سوق أهراس المستقلين عن الولايتين الأولى والثانية والمجموعات الأوراسية، ويبدو أن محساس خضع للأمر الواقع وتجنب الدخول في صراع مع اوعمران بتونس حفاظا على مصلحة الثورة (محساس،ع، مقابلة: 9 جويلية 2005)، في حين يذكر عمار سعيداني أن قادة الأوراس وسوق أهراس غضبوا لتنحية أوعمران محساس عن مسؤولية تونس وتعيين ابن عودة، وكلفوا فوجا بتنحية ابن عودة بالقوة وإرجاع

محساس إلى مكتبه بتونس، لكن محساس فضل الانسحاب من منصبه تحت ضغط أوعمران (سعيداني، ط، 2001: 159.158)، وقد كان أوعمران في الوقت ذاته يخطط لإخضاع المجموعات الرافضة لقرارات مؤتمر الصومام بالقوة حينا والمناورة أحيانا (مزهودي، شهادة، محفوظات شخصية).

وقد اهتم أوعمران منذ بداية سنة 1957 بمهمة التموين بالأسلحة والذخيرة ونقل الشحنات المتواجدة بليبيا عبر التراب التونسي لتسلم إلى وحدات الجيش، وكان أول عمل أنجزه هو التفاوض مع الحكومة التونسية بهدف الاستفادة من مساعداتها وإيجاد آليات محكمة لإنجاح مهمة تمرير الأسلحة (عباس، م، 1992: 187)، إن هذا التعاون التونسي الجزائري قضى على جيوب المعارضة اليوسفية وأنهى الخلاف المتفاقم بين جماعة الخارج ولجنة التنسيق والتنفيذ، وقد تفرغ أوعمران لإعادة النظام بالمناطق الحدودية الجزائرية كونها أرضية إستراتيجية لمرور الأسلحة كان محساس يفكر من قبل لجعلها ولاية مستقلة.

إن محساس الذي تظاهر بالاستقالة كان يناور في الخفاء لإبقاء سلطته مفروضة في تونس، وعندما أدرك أوعمران نواياه قرر اعتقاله، تمكن محساس من الهروب من سجنه وقدم شكوى إلى بورقيبة زادت في تعقيد العلاقة معه، اذ تضمنت تلك الشكوى الدعوى بان أوعمران يفكر في التحالف مع اليوسفيين وفي الانقلاب على نظامه، ولعلاج هذه المشكلة استدعى أوعمران محمد الأمين دباغين ويزيد في 15 أفريل 1957 لعقد مباحثات مع بورقيبة ووزير داخليته المهيري، والمطالبة بتسليم محساس لقيادة لجنة التنسيق والتنفيذ، ولكن السلطات التونسية ظلت تماطل (تقرير أوعمران A.N.A, Boite n° 182 , DOS n°5).

لقد أشار أوعمران في إحدى تقاريره بتفصيل إلى مشكل تطهير قاعدة تونس من محساس وأتباعه، وقد خص وضعية منطقة سوق أهراس بالحديث ولم يشر إلى مناطق النمامشة وصدراتة وعين البيضاء، وهي مناطق كان يتوجب على قادتها البحث عن حلول لقيادة الولاية الأولى بالتعاون مع قادة منطقة الأوراس الذين وصلوا في هذه الأثناء إلى تونس، فقد رأى أوعمران ان يتبع خيار التفاوض مع قادة سوق أهراس، واقترح أن تشكل منطقتهم قاعدة شرقية في مرتبة ولاية، تتكفل بنقل السلاح إلى الداخل، كان هدفه استمالة بوقلاز قائدها ونوابه من اجل التعاون معه وإنهاء موالاتهم لمحساس، حصل هذا الاتفاق في مارس 1957 والتمس أوعمران من لجنة التنسيق والتنفيذ مباركته (A.N.A, Boite n° 182 , DOS n°5) وهو ما حصل بالفعل، واتبع أوعمران خيار الشدة مع قادة المناطق الأخرى المناوئين له، لقد زكى تعيين محمود لقيادة منطقة

النمامشة وشن حملة تصفية ضد أنصار لغرور، كما قرب إليه عبدالله بلهوشات ممثلا لمنطقة صدراته، وكان حاج علي الحركاتي من العناصر الأولى الداعمة لسلطة أوعمران فاختاره لتمثيل منطقة عين البيضاء، اعتقد اعمران ان سياسة اللين حينا والشدة أحيانا يمكن أن تحقق نتائجها، وفعلا حقق مبتغاه ولكن على حساب تضحيات جسام، يقول اوعمران عن مهمته التي توجت بإنهاء مشكلة محساس وطروحاته المظللة للقيادة في تونس والداخل، " بالرغم من تجذر هذه الحملة في داخل المناطق، نجحنا في مواجهة تلك الذهنية عن طريق عمل طويل النفس تمثل في اجتماعات مختلفة داخل المناطق، وحققنا نتائج ايجابية بحيث أصبحت لجنة التنسيق والتنفيذ معترفا بها من طرف كل المناطق كما تم الاعتراف بأخطاء الماضي وتصحيحها نهائيا إلى درجة صار معها محساس في حكم عامل الفتنة للقضية الجزائرية حتى في نظر أولائك الذين كان يعتمد عليهم من أجل إسقاطنا"(A.N.A, Boite n° 182 , DOS n°5)، وأخيرا اضطر محساس للفرار إلى خارج تونس خشية من اغتياله، وهكذا يبدوا لنا أن المعارضة التي قادها محساس باسم بن بلة في تونس كانت شديدة ومؤثرة على سلطة لجنة التنسيق والتنفيذ، وقد واجه محساس بالقوة القادة المعارضين (لزهر شريط قائد النمامشة وعباس لغرور قائد الأوراس وطالب العربي قائد السوافة)، وهكذا فان لجنة التنسيق والتنفيذ لم تفرض سيطرتها نهائيا في تونس إلا بتضحيات جسيمة في النصف الأول من سنة 1957(مقلاتي،ع،، 2009: 487 495).

هذا ولم تسجل قاعدة المغرب أية معارضة تذكر بسبب إشراف قيادة ولاية وهران على القاعدة (الثعالبي، ط، مقابلة، 16 مارس 2006)، وأما فدرالية الجبهة بفرنسا فأبدت بعض التحفظ لكنها لم تعلن أية معارضة، وقد بادر عبان بإرسال صالح الوانشي للإشراف على الفدرالية إلى أن عينت لجنة التنسيق والتنفيذ شخصا آخر موالي لعبان هو محمد لبجاوي.

2. المعارضة في الداخل:

ارتكزت المعارضة في الداخل بين قادة الأوراس المتفرقين والنمامشة والقاعدة الشرقية، فقد عرفت منطقة الأوراس بعد اغتيال شيحاني بشير واستشهاد مصطفى بن بو العيد انقساما حادا، ولم يتسنى لها حضور مؤتمر الصومام، وكان عباس لغرور وعاجل عجول يشرفان على خنشلة وكيمل، في حين قررت قيادة منطقة باتنة الانفصال وتعيين عمر بن بوالعيد الذي اتصل بقادة منطقة القبائل مسؤولا عن الأوراس، كما قررت كتلة النمامشة الانفصال عن قيادة الأوراس إثر خلافات حادة مع لغرور، وشكلت بعدها مجموعة عين البيضاء. صدراتة قيادة مستقلة (قتال، و،

مقابلة، 17 جويلية 2005).

وقد درس مؤتمر الصومام وضعية الأوراس وقرر إرسال زيغود ومزهودي وعميروش لإصلاح الوضع، واثر استشهاد زيغود وانتقال مزهودي الى تونس انتقل عميروش إلى الأوراس، وكان هذا الأخير صارما في معاملته لقادة الأوراس ومتسرعا في إصدار أحكامه، فقد حكم بإعدام عجول مما حدا بهذا الأخير لتسليم نفسه لأقرب مركز عسكري فرنسي، كما أن سياسة القوة التي اتبعها عميروش وأوعمران مع قادة أوراس النمامشة خلفت انعكاسات كبرى على استقرار المنطقة، حيث استمرت الأزمة التي أضرت كثيرا بنشاط الثورة هناك، لم يحسمها تعيين محمود الشريف قائدا للولاية الأولى في ربيع عام 1957، إذ ورغم الاغتيالات الجماعية التي لحقت بخيرة القادة وإرساء النظام الجديد ظلت بعض المجموعات تعلن الثورة على قرارات الصومام والقيادة الجديدة (زروال، م 2007: 259 345).

لقد توصل عميروش بعد جهود كبيرة من عقد اجتماع في 20 أكتوبر 1956 ضم ثلاث قادة بارزين في الأوراس، هم الطاهر نويشي واحمد نواورة ومحمد العموري، سيشكلون نواة صلبة لقيادة جديدة يتصدرها العموري، الذي أمضى بعدها رسالة باسم منطقة الأوراس يعبر فيها عن ولائه لكريم وسلطة القيادة الجديدة، وفي اجتماعات حاسمة لقادة الاوراس برعاية عميروش ومحمدي السعيد في القبائل الصغرى (ديسمبر 1956 . جانفي 1957) تمت دراسة المشكلات التي تتخبط فيها الأوراس، عقدت تلك الاجتماعات في غياب عمار بن بوالعيد ومسعود بن عيسى ولكن بحضور أغلب القادة: لعموري، الحاج لخضر، الطاهر نويشي، إبراهيم كابويا، المكي حيحي، عبد الحفيظ طورش، مدور عزوي، مصطفى رعايلي ومحمد الشريف بن عكشة، والتحق بهم سي الحواس خلال الاجتماع الأخير، في الاجتماع الأول بأقبو في 28 ديسمبر 1956 تم التوافق على مبادئ العمل الثوري وفق ما يقره مؤتمر الصومام، وقدمت عدة مقترحات لتفعيل العمل الثوري والتنسيق بين الولايات (زروال، م 2007: 503)، وخصص الاجتماع الثاني في 4 جانفي 1957 لدراسة مشكلة القيادة في الأوراس والمسائل التنظيمية، دام لمدة أسبوعين، وقد أدان الاجتماع تصرف عجول، وقرر إرسال لجنة للتحقق من تهمة المصالية الموجهة الى سي الحواس، واتفق على ضبط حدود الولاية ومناطقها، وطالب بتموين الولاية بالمال، وكانت أهم نقطة درسها الاجتماع هي تشكيل قيادة للولاية الأولى، حيث تم التطرق للخلاف الناشب بين الأوراسيين والنمامشة، وقدم تقرير في هذا الشأن من طرف علي النمر عن المهمة التي قام بها لدى

القادة النامشة، ولأن القادة النامشة كانوا متواجدين بتونس تقرر أن يعقد اجتماع في مدينة تونس ينتدب له لعموري ونويشي ويصحبهم عميروش(زوزو، ع، 2004: 428. 429)، وخلال الاجتماع الثالث المنعقد في 11 جانفي 1957 والذي حضره القادة الذين حضوا الاجتماعين السابقين مضافا إليهم سي الحواس وأحمد قادري اللذين وصلا المنطقة للتو، تعرض المجتمعون لقضية سي الحواس، حيث وجهوا له أربعة عشر سؤالا تدور كلها حول وضعية منطقته وموقفه من المصالية، وقد أجابهم بأن التهمة الموجهة له نميمة وأنه كان معينا رسميا من طرف ابن بوالعيد، وأعلن محمدي السعيد في نهاية الاجتماع عن قرار لجنة التنسيق والتنفيذ تعيين لعموري ممثلا للأوراس في تونس (زوزو، ع، 2004: 437)، وغداة الاجتماع تحرك موكب عميروش والعموري ونويشي باتجاه تونس عبر الشمال القسنطيني، وعاد القادة الآخرون إلى مناطقهم متذمرين من عدم عودة العموري معهم، لكنهم عازمين على تطبيق ما اتفق عليه ومنددين بأولئك الذين ما زالوا يعارضون قرارات الصومام ويعملون على إحياء النعرات المحلية (زروال، م، 2004: 312 313)، حيث كان عمر بن بوالعيد ومسعود بن عيسى يروجان أن قادة النامشة عازمون على منع عميروش من دخول منطقتهم، وهكذا نجحت سلسلة الاجتماعات هذه في تكوين قيادة متماسكة للأوراس يعتمد فيها على كفاءة الشاب المثقف لعموري ورفيقه أنواورة وعلى سي الحواس.

وبدوره نجح مزهودي في إقناع قادة النامشة مبكرا بتعيين قائد جديد لمنطقتهم هو محمود الشريف، وأخذ بيده في توطيد سلطته، إبعاد القيادة القديمة عن الميدان وإمداده بالسلاح وكسب تعاون السلطة التونسية، ولكن مزهودي وبن عودة وجدا مشاكل في تثبيت سلطة لجنة التنسيق والتنفيذ في تونس، حيث كان محساس يحرض قادة سوق اهراس ولغرور وجماعته على معارضة قرارات مؤتمر الصومام المنحرفة، تسببت تلك المعارضة الشديدة في تونس في تأخير حسم الأمور.

وهكذا تم إرساء تنظيم مؤتمر الصومام في الأوراس تدريجيا، ووصل الى عمق المنطقة الثالثة الصحراء، والتي كان يتولاها سي الحواس وسي زيان، حيث أرسل عميروش عدة لجان الى هذه المنطقة من أجل شرح قرارات الصومام وتجسيدها، وفي مارس 1957 عقد سي الحواس اجتماعا موسعا لمسؤولي المنطقة من أجل تأكيد تجسيد قرارات الصومام العسكرية والسياسية (السقاي،م، مجلة أول نوفمبر: عدد 90. 91، 1988: 14. 15)، في حين ظلت بعض الفرق في الاوراس تعبر عن معارضتها لمؤتمر الصومام وعرفت تاريخيا باسم "المشوشين"، لم تتمكن قيادة الولاية الأولى من التخلص من حركتهم إلا في سنة 1960(مقلاتي،ع، 2013: 82.81).

خامسا: تجسيد مبادئ منهاج الصومام.

إذا كانت القرارات العملية لقيت كل هذه المعارضة فإن تجسيد منهاج الصومام الذي تكفلت به القيادة التنفيذية جرى في ظروف أخرى. لقد حدد منهاج الصومام إستراتيجية العمل المستقبلي على المستوى الداخلي في:

– إضعاف الهيكل العسكري والبوليسي والإداري والسياسي للمستعمر.

.توفير الوسائل المادية للحرب.

.تدعيم تناسق العمل السياسي والعسكري وترقيته.

. مجابهة مناورات العدو الدعائية، وذلك بتمتين الوحدة الوطنية وتفعيل دور الطبقات الاجتماعية، وتشجيع المترددين على الالتحاق بالثورة، وعزل المتطرفين من الاستعماريين من خلال كسب الأحرار الفرنسيين.

وفي المجال الخارجي حددت إستراتيجية العمل في كسب التأييد المادي والمعنوي للثورة. وذلك بواسطة:

.تصعيد حملة تأييد الرأي العام الدولي.

. كسب الإعانة الدبلوماسية لصالح قضية الجزائر من خلال حمل الدول المحايدة على تأييد القضية الجزائرية.

وحددت جبهة التحرير الوطني وسائل العمل في وضع آليات محكمة لتنظيم الشعب الجزائري لخوض الكفاح، وتصفية الجو السياسي وتوضيح الأهداف الكفاحية، واستثمار الفئات الاجتماعية الفاعلة في دعم الثورة "الفلاحين، العمال الشباب، المثقفون، التجار والحرفيون، النساء"، والبحث عن الأنصار المستعدين لدعم القضية الجزائرية وهم كثر "الأحرار الفرنسيون، يهود الجزائر، تضامن الشمال الإفريقي" (وزارة الإعلام والثقافة، 1979: 13.53).

وقد عملت لجنة التنسيق والتنفيذ التي اتخذت من مدينة الجزائر مقرا لها على تنفيذ هذه الإستراتيجية، وكان العمل يجسد بنظرة شاملة وتنسيق جماعي محكم، وذلك رغم بعض التحفظات التي كان يأخذها كريم وبن امهيدي على عبان الذي عرف بتظاهره بالزعامة (Dahlab, S, 1990,: 57-58)، وقد وزعت بين أعضائها المسؤوليات، فتكفل ابن امهيدي بالإشراف على العمل الفدائي، ودحلب بالصحافة والإعلام، وابن خدة بالعلاقات والتنظيم السياسي والأمانة، وعبان بالتنسيق العام، في حين كان كريم شكليا يشرف على الجانب العسكري

(Dahlab, S, 1990,: 59- 60).

وكون ابن امهيدي بخبرته شبكة فدائية واسعة تقبض على القصبة أوكل قيادتها العسكرية لياسف سعدي، وقد كان حكيما متقد الذكاء، وهو صاحب فكرة الإضراب العام الذي جسد في بداية عام 1957، وكان يهدف من ورائه الى تحقيق مكاسب سياسية ومعنوية لصالح القضية الجزائرية، ونهض ابن خدة بجهود معتبرة في الاتصال بالأحرار الفرنسيين، وإدارة شؤون منظمات الطلبة والعمال والتجار. وقد كانت معركة العمال والطلاب شرسة ضد المستعمر، والتحق بهما إليهما الاتحاد العام للتجار الجزائيين الذي أعلن عن ميلاده في منتصف سبتمبر 1956 مباشرة بعد مؤتمر الصومام، وكللت جهود دحلب بتوزيع العديد من المنشورات وطبع صحيفة المجاهد بإمكانيات بسيطة في مدينة الجزائر(Dahlab, S, 1990,: 59- 60)، وقد عرف عبان خلال هذه المرحلة بنشاطه الحثيث وإدارته الحازمة للجنة التنسيق والتنفيذ، وإضافة إلى النشاط السياسي الذي كان يشرف عليه فقد باشر إجراء اتصالات مع بعض الأحرار الفرنسيين الذين نقلوا وجهة نظره للمفاوضات لرئيس الحكومة "قي موللي". وكان يشرف على النشاط الخارجي ويلح على تنظيم الفدراليات بالخارج وتفعيل النشاط الدبلوماسي وتوفير السلاح بأقصى سرعة، كما كان يتابع مع رفاقه تطورات الثورة عبر مختلف الولايات(Ben khada, b, 2002: 31 -32).

الخاتمة

من خلال ما عرضناه نخلص للتأكيد أخيرا أن قرارات مؤتمر الصومام ومنهاجه كانت لبنة مهمة في تفعيل مسيرة الثورة التحريرية، كونها أسهمت في وضع استراتيجية موحدة ومنظمة للثورة التحريرية.

وقد وجد منظرو الصومام صعوبة بالغة في تفعيل قراراتهم التنظيمية والإيديولوجية، خاصة وأنها كانت تتسم بالمثالية وعدم انسجامها مع واقع الثورة، وعليه كان عليهم الانتظار طويلا من أجل إتمام تجسيد وتعميم تلك القرارات.

وكانت معارضة الوفد الخارجي والقادة الموالين له في الداخل لمقررات الصومام شديدة، وخاصة القرار المتعلق بأولوية الداخل على الخارج وأولوية السياسي على العسكري، والذي أثار جدلا كبيرا، وتعرضت الثورة بسبب ذلك لمحنة شديدة، لم تنتهي إلا بخسائر جسيمة وبجهود ضيعت في حمل المعارضين للاعتراف بتلك القرارات وبسلطة لجنة التنسيق والتنفيذ.

المصادر والمراجع

أولا. المصادر:

1. الوثائق:

. الأرشيف الوطني الجزائري، بئر خادم. A N A, GPRA, B49, Dos 1.

. الأرشيف الوطني الجزائري، بئر خادم. A.N.A, Boite n° 182 , DOS n°5

2. الشهادات:

. شهادة محررة بخط يد إبراهيم مزهودي.

. شهادة المجاهد عبد الحفيظ امقران، أدرار، يوم 6 أفريل 2008

. شهادة الطيب الثعالبي مسؤول جبهة التحرير بالمغرب، مقابلة شخصية، الجزائر العاصمة، يوم 16 مارس 2006،

. شهادة الوردي قتال، تبسة، يوم 17 جويلية 2005

. شهادة أحمد محساس، مقابلة شخصية، الجزائر العاصمة، يوم 9 جويلية 2005

3. الكتب باللغة العربية:

. سعيداني الطاهر: القاعدة الشرقية قلب الثورة النابض، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2001

. عباس محمد: فرسان... الحرية (شهادات تاريخية) دار هومة، الجزائر، 2003

. عباس محمد: ثوار ... عظماء، مطبعة دحلب، الجزائر، 1992

. كافي علي: مذكرات الرئيس علي كافي من المناضل السياسي الى القائد العسكري، دار القصبة للنشر، الجزائر، 1999،

. المنظمة الوطنية للمجاهدين: الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة، منشورات جبهة التحرير الوطني، الجزائر، 1984، ج2.

. مجموعة مؤلفين: مصطفى ابن بوالعيد والثورة الجزائرية، منشورات جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة في الأوراس، ط1، دار الهدى، عين مليلة، 1999

. وزارة الإعلام والثقافة (الجزائر): النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني 19621954، طبع وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر،1979

4. الكتب باللغة الأجنبية:

- Ben khada ben yousef, Alger, capitale de la résistance 1956 – 1957, éd, houma, 2002,
- BELHOCINE Mabrouke: Courier –Alger- le Caire 1955-1956 et le congré de la Soumam dans la revolution , Casbah ,Alger, 2000,
- DAHLAB Saad :Pour l' Indépendance de l'Algérie :mission accomplie ed, Dahlab, Alger, 1990,
- HARBI Mohammed: Les Archives de la revolution Algerienne ,ed, jeune Afrique ,Paris, 1981,

ثانيا. المراجع:

. بوعزيز يحي: الثورة في الولاية الثالثة، دار الأمة، الجزائر، 2004

. حربي محمد: جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، ترجمة كميل داغر، ط1 مؤسسة الأبحاث العربية – دار الكلمة للنشر، بيروت، 1983

.زروال محمد: إشكالية القيادة في الثورة الجزائرية، الولاية الأولى نموذجا، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007

.زوزو عبد الحميد: محطات في تاريخ الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2004

.السقاي، محمد: العقيد سي الحواس، مجلة أول نوفمبر، الجزائر، عدد 90 91، سنة 1988:

.عباس محمد: نصر بلا ثمن الثورة الجزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007

.مقلاتي عبد الله: العلاقات الجزائرية المغاربية والإفريقية، دار السبيل، الجزائر، 2009، ج1.

.مقلاتي عبد الله: محمود الشريف قائد الولاية الأولى ووزير التسليح إبان الثورة التحريرية، دار العلم والمعرفة، الجزائر، 2013.

The 1956 Soumame Conference and the problem of embodying its decisions

Dr. Mohammed YAICH*

ABSTRACT

In this article we have tried to address the problem of the task in the history of our revolution, was the question of the embodiment decisions soummam conference, which were not easy and possible only after considerable effort and time period, due to the incompatibility of some of those decisions with the reality of the revolution pension, and perfect each other, in particular resolution on the primacy of the inside to the outside political priority on the military, and the strong opposition it raised at home and abroad, all of which is integrated as part of a political conflict between Abane at home and the son of injury abroad, and was acquitted Home Tunisia and Aures base, came the revolution severe distress, did not end until a loss and serious efforts wasted in getting opponents to accept those decisions, and ultimately show that the decisions Alsomam despite some of the criticisms have been useful to the revolution on the organizational and Unionist level, and this is what we are trying to be addressed in this article.

Keywords: soummam conference– revolution- decisions.

* Faculty of Social and Human Sciences - University of Msila.

الصحراء الجزائرية: دراسة في الجغرافيا

بقلم
د/ محمد رشدي جراية(*)

ملخص

تعرف الصحراء الجزائرية ظروف طبيعية تجعلها متميزة إلى حد ما عن صحارى الأقطار المجاورة لها سواء على صعيد معالم السطح أو ظروفها البيئية وتنوعها في بعدها الإيكولوجي الطبيعي، مما جعلها في الحقيقة تخفي الكثير من أسرارها وخباياها عن الباحثين والمستكشفين ورغم كل ذلك فهي لم تنل حقها من التحقيق والدراسة، ربما قد يكون هذا المقال لبنة تحفز على خلق عمل أكاديمي متكامل في المستقبل.

الكلمات المفتاحية: الصحراء- الجزائر- الجغرافيا.

مقدمة

من الصعوبة بمكان إيجاد تعريف محدد ودقيق للصحراء الكبرى، [1] فلو سألت أحد ساكنيها عن مدلولها لأجابك بأنها ذلك النطاق الواقع خارج حدود القرية التي يسكنها، أي بمعنى الخلاء الواقع خارج العمران.[2]

فالصحراء كلمة عربية تعني الأرض الجرداء، إذ مثلت للعرب الأرض الواسعة المسطحة القاحلة من كل نبات، في لون هو مزيج من الرمادي والبني وهذا هو المعنى الذي حملته في الآداب الجاهلية، كما تحمل الصحراء طابع الموت ولونه.[3]

لقد عرفت الصحراء من الأرض في معجم لسان العرب لابن منظور على أنها: " تلك المستوية في لين وغلظ دون القف، وقيل إنها الفضاء الواسع الذي لا نبات فيه، والصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد ليس بها شجر ولا أكام ولا جبال ملساء وجمع صحراء صحروات، وصحارى، وهي مؤنث الصفة ويقال أصحر أي الذي يضرب لونه من الحمرة الى الغبرة ".[4]

(*) أستاذ محاضر "أ" بقسم العلوم الإنسانية - كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - جامعة الوادي..
med.rouchdi@gmail.com

فلم يسم هيرودوت الصحراء باسمها، وإن كان قد أشار لرياحها الحارة القاتلة، ورمالها، وواحات نخيلها، ورأى فيها امتدادا لأراضي الليبيين، [5] كما أشار للأثيوبيين[6] قاطني منطقة التبستي[7] الحالية وبالتالي عمق الصحراء[8]، واستخدم بطليموس في القرن الثاني الميلادي كلمة ليبيا على المنطقة الواقعة جنوب مدار السرطان.[9]

واستعمل اليعقوبي في القرن التاسع للميلاد كلمة الصحراء ليعني بها المقبرة التي يدفن فيها الناس موتاهم، [10]ولكنها في القرن نفسه ظهرت في كتاب (فتوح إفريقيا والأندلس) للجغرافي المصري إبن الحكم لتعني لأول مرة جزء من الشمال الإفريقي.[11]

بينما أطلق الإدريسي لفظ الصحراء سنة 1154م على النطاق الشاسع الواقع بين سلسلة الأطلس الصحراوي شمالا وبلاد الزنج جنوبا وفزان شرقا ومملكة صنهاجة غربا [12]، وأعاد ليون الإفريقي[13] في القرن السادس عشر بعث الاسم القديم ليبيا أما في العصور الحديثة اتسع مدلول كلمة الصحراء التي إطلقت قديما على هضبة آير (Air) لتشمل كل منطقة الصحراء بين السودان[14] والبحر المتوسط.[15]

فالصحراء أو الصحراء الكبرى كما تقول الأطالس، هي حقا أكبر فيافي العالم قاطبة، [16]، حيث تمثل أكبر نطاق جاف إذ تقع معظم أجزائها بين دائرتي عرض 20ْو 35ْشمالا.[17] وهناك من يرى أنها تتجاوز البحر الأحمر شرقا، لتمتد الى قارة آسيا فحسب فيرون.ر فإن: "الجزيرة العربية امتدادا للصحراء الكبرى، وهي تابعة لقارة إفريقيا ومفصولة عن آسيا بالخليج العربي... "[18] وسأعتمد الحدود الجغرافية المعتمدة آنيا من قبل أغلبية الجغرافيين، وبهذا تكون الصحراء الكبرى هي الكتلة الشمال إفريقية، [19] الممتدة من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر على مسافة 5200 كلم، ومن السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي والساحل المتوسطي الشرقي،[20] إلى غاية الخط المار بالخرطوم والحد الشمالي لمناخ بلاد الساحل الإفريقي على مسافة 2000 كلم، وتبلغ مساحتها تقريبا تسعة مليون كلم^2.[21]

وتبقى الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى غير واضحة المعالم، لكنها تنتهي عموما عند الخط الذي يشكله امتداد هضاب النيجر، التي تتفق مع انتشار نبتة كرام كرام.[22]

وهي تمتد عبر البلدان الحالية التالية، المغرب الأقصى، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، السودان، تشاد النيجر، مالي، موريطانيا، الصحراء الغربية، وتتمثل وحدة الصحراء في جفافها التام، الأمر الذي يجعل شروط قيام الحياة بها تكاد تكون مستحيلة خارج مناطق الواحات.[23]

أولا – موقع الصحراء الجزائرية وبنية سطحها:

تنطبق حدود صحراء الجزائر مع الحدود السياسية للدولة، مع كل من تونس، ليبيا، النيجر، مالي، موريطانيا، الصحراء الغربية، والمغرب أما حدها الشمالي فهو طبيعي ويتمثل في سلسلة الأطلس الصحراوي، [24] وتتربع على مساحة قدرها 1987600 كلم^2، وبذلك تغطي مساحة نسبتها 90٪ تقريبا من المساحة الكلية للجزائر، المقدرة بـ2381741 كلم^2.[25]

تبدو المعالم المكونة لسطح الصحراء الجزائرية بسيطة غير معقدة، إذا ما قورنت بالمنطقة التلية (الشمالية) فهي تكاد تخلو من الجبال ما عدا (جبال الهقار وأوغرطة) والمرتفعات المعقدة والالتواءات الحديثة، وبالرغم من كل ذلك تغطي سطحها أحواضا وانحدارات شديدة وعروق رملية متحركة[26] وإجمالا يمكننا تقسيم الصحراء الجزائرية بناء على معالم السطح وبنيته الخارجية الى ثلاث مناطق متباينة هي (أنظر الخريطة 1):

– الصحراء المنخفضة الشرقية (الحوض الشرقي الكبير).

– الهضاب الصخرية الشمالية. الوسطى والغربية.

– مرتفعات الجنوب الشرقي الجبلية (الهقار – الطاسيلي).[27]

1/الصحراء المنخفضة الشرقية:

إن مهندس المناجم ج.رولاند، هو أول من نعتها بالصحراء المنخفضة في تقريره العلمي سنة 1880م، فعرفها بأنها مسطحات أرضية طباشيرية تحدها شمالا الحافة الأطلسية الجنوبية وجنوبا مرتفعات الهقار، ومرتبطة إحداها بالأخرى من الشمال إلى الجنوب جانبيا بتضاريس المناطق المجاورة لها [28]ولقد كانت خلال الزمن الرابع متصلة بالبحر عبر منطقة الشطوط الحالية، وهي الآن عبارة عن منخفض في الركن الشمالي الشرقي للصحراء الجزائرية، تظهر به بعض الشطوط، أهمها شط ملغيغ الذي يقع دون مستوى سطح البحر بحوالي 31م، وبذلك فهو أخفض مكان بالجزائر كلها.[29]

يبلغ طولها من الشمال الى الجنوب 700 كلم، أما عرضها تقريبا فهو نصف طولها، ارتفاعها عموما منخفض جدا، 100م بوادي سوف، 200م بورقلة، [30] مما يساعد على انتشار الواحات حيث تتوفر المياه الباطنية.[31]

أما وسطها فتغطيه رمال العرق الشرقي الكبير في شكل أقواس تدعى الكثبان الرملية، [32] وعند الاتجاه غربا وجنوبا وشرقا، تبدأ الصحراء المنخفضة في الانقشاع ببطء، إذ يلاحظ ذلك

عند حدودها مع هضاب ميزاب، وتدمايت، وحمادة تنغرت والظهرة،[33] وهي تنقسم إلى عدة مناطق أهمها:

. منطقة سوف: تقع بين دائرتي عرض 33° و34° شمالا وخطي طول 6°و8°شرقا، على الأطراف الشمالية للعرق الشرقي الكبير يحدها شط وادي ريغ غربا، وشط ملغيغ وغرسة شمالا وشط الجريد شرقا، [34]لكن حدودها التقليدية القديمة تصل الى الحدود الليبية جنوبا وجبال النامشة شمالا لتنتهي مع حدود بلاد ميزاب شرقا، وتقدر مساحتها 80000 كلم^2 [35] أرضها بساط من الرمل المفروش تغطيها الكثبان الرملية المتحركة المتزايدة من سنة الى أخرى حيث يتجاوز ارتفاعها أحيانا 100م.[36]

– منطقة ورقلة: تقع على الحواف الغربية للعرق الشرقي الكبير يمر بها وادي مية الذي يرجع في نشأته للزمن الرابع، بينما تقع واحة ورقلة في منخفض مقفل غربا بانحدارات شديدة للهضبة الصخرية بحوافها المحطمة ومجاري السيول المتقطعة التي تمتد إلى متليلي وغرداية حيث تتوزع بها سلسلة من الكور المتباعدة ويشتهر مركز المنطقة (ورقلة) بواحاتها وكثرة نخيلها.[37]

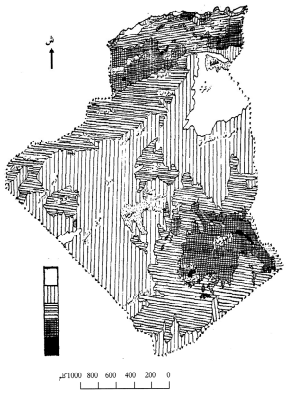

مريطة رقم 1 : تضاريس الجزائر .

المرجع : حليمي عبد القادر علي ، جغرافية الجزائر، ص 49.

– منطقة الزاب: أو الزيبان، كان المصطلح قديما يشمل منطقة أوسع تمتد من بسكرة الى سهول الحضنة ومدنها الواقعة على السفوح الأطلسية الجنوبية لكنها حديثا تطلق على بسكرة والأرياف المحيطة بها كالزيبان الظهراوي والشرقي والغربي التي تشتهر بغابات نخيلها وجودة تمورها.[38]

2/ الهضاب الصخرية الشمالية.الوسطى والغربية:

تشكل وحدة واحدة تمتد من هضبة ميزاب شرقا إلى حمادة غير(guir) عند الحدود المغربية

غربا، ومن سفوح الأطلس الصحراوي الغربي شمالا الى غاية دائرة عرض 26° شمالا[39]، وهي منطقة مرتفعة لا يقل الارتفاع فيها عن 600-700م، بينما تنحدر الوديان فيها من الغرب الى الشرق[40] وأهم مناطق هذا الإقليم هي:

- سلاسل أوغرطه والساورة: سلسلة هرسينية جيرية تعود للعصر الديفوني، [41]مكونة خط يمتد من سفوح الأطلس الغربي إلى الطاسيلي، يبلغ عرضها في المتوسط 125كلم، تختفي سلسلة أوغرطة في الشمال تحت الحمادات يحدها من الشرق وادي الساورة الذي يفصلها عن العرق الغربي الكبير.[42]

- العرق الغربي الكبير: سلاسل من الكثبان الرملية تمتد من بني عباس بأقصى الجنوب الغربي حتى هضبة المنيعة شرقا، وعرق الشيخ وعرق إيقدي بالحدود الجزائرية الموريطانية، [43] فيحيط بالحافة اليسرى لوادي الساورة، [44] ويواصل إمتداده الى غاية حواف هضبة ميزاب شمالا وكتلة تادمايت جنوبا[45]متخذا شكل الهلال، بينما تبلغ مساحته 80000 كلم^2.[46]

- هضبة ميزاب: تقع في الشمال والوسط، تفصل الصحراء المنخفضة عن العرق الغربي الكبير، مكونة سلسلة مرتفعات تنتهي جوانبها بمنحدرات شديدة ووعرة تسمى الباطن، تشق سطحها وديان زقرير، والنساء، ميزاب، لتتقاطع في مناطق تدعى الشبكة، وتكسو ظاهرها كتل تسمى الكور.[47]

- حمادة غير: تقع بين سفوح الأطلس الغربية وجبال أوغرطة، أي الشمال الغربي من منطقة إيرفود، إنها رواسب أكثر من 30م من الحجر الرملي والحصى الأحمر الخشن.[48]

- هضبة تادمايت: تبرز هضبة ميزاب في الجنوب الغربي في شكل طية أرضية مرتفعة، تحمل اسم تادمايت، تطل حافتها الغربية على وادي قورارا وسبخة تيميمون الكبيرة، أما جنوبا فتطل على سلسلة منخفضات تديكيلت الصغيرة، ويحدها في جنوبها الغربي منخفض توات، وتلتقي هضبة تادمايت بالساورة في الشمال الغربي للصحراء وبعرق شاش في أقصى جنوبها الغربي.[49]

3/ مرتفعات الجنوب الشرقي الجبلية (الهقار- الطاسيلي):

تعتبر كتلة الهقار المحاطة بهضبة الطاسيلي مركز وسط الصحراء الكبرى، [50]تبلغ مساحتها 300000 كلم^2، ومتوسط إرتفاعها1000م وكان (كونراد كيليان) أول من نشر رسم تخطيطي لمعالم الهقار والنطاق الطاسيلي الدائر بها سنة 1922م.[51]

وتعتبر الآتاكور قلب الهقار، إذ اتخذت شكل القبة التي تعلوها الطفوح البركانية وتراكم الافا

وهي أكثر أجزاء تلك الكتل الهضبية ارتفاعا فارتفعت بعض قممها البركانية ارتفاعا ملحوظا، مثل تاهات 3006م وقمة إيلمان 2732م وأزيكرام 2728م، وتنحدر هذه الكدية بشدة صوب الشرق والجنوب.[52]

ويحف منطقة الهقار من الشمال والشرق والجنوب الانجرافات الواضحة المتمثلة في حواف النطاق الطاسيلي القديم المتكون من مرتفعات متدرجة نزولا إلى الخارج، أما إلى الداخل فهي ترتفع تدريجيا، وبهذا تنقسم إلى قسمين، طاسيلي داخلية وأخرى خارجية، وبالاتجاه غربا يبدأ النطاق الطاسيلي في الاختفاء،[53] وأهم مناطق هذه الصحراء الجبلية هي:

– الآتاكور وتوابعها: رأس الهقار ووسطه يصل ارتفاع سطحها إلى 1000م، وتمتد إلى الجنوب الشرقي عبر مرتفع ريفسا، ثم جنوب الجنوب الشرقي، حتى حواف الرق بها قمة تاهات، كما تبرز بها فوهات البراكين القديمة إلى ارتفاع 400م فوق سطح الهضبة القديمة.[54]

– آناحف: سلسلة طويلة من الهضاب المتصلة الى الشرق من الآتاكور وتمتد من الشمال الى الشمال الغربي للمرتفعات وجنوب جنوبها الشرقي والى غاية منخفض سروانوت الفاصل بين الهقار والآجر.[55]

– تنزروفت: أشد الجهات قحولة فهي الصحراء بمعنى الكلمة تقع غربي الكتلة الوسطى بين أحنات وأدرار الإيفوراس، يبلغ عرضها 500 كلم تنعدم بها الحياة النباتية والحيوانية فهي صحراء الصحراء.[56]

– الأمادرور: تمتد هضبة الأمادرور شمال كتلة الآتاكور إنها رق صحراوي لا أثر للماء أو النبات فيه مشهورة بسبخة الملح المتواجدة بها.[57]

– طاسيلي الناجر: تمتد طاسيلي الناجر من وادي إغرغار[58] إلى غاية فزان بليبيا، يتراوح عرضها من 60 إلى 150كلم، أما ارتفاعها فيصل إلى 1200م.[59]

– أحنات: سلسلة أرجوانية تقع شمال غرب الهقار على الامتداد الجنوبي الشرقي، وهي تمتد 200كلم من جنوب الطاسيلي إلى غاية أمقيد بعرض 10 الى 15 كلم، على شكل حذوة حصان يبلغ ارتفاعها 650م، وبهذا الارتفاع المنخفض ترتبط بجارتها تنزروفت.[60]

– طاسيلي الجنوب: تقع جنوب الهقار، وهي امتداد للنطاق الطاسيلي المحيط بها، تفصلها مساحات الرق المتكونة من الحصى والأحجار الرملية تتخللها رؤوس جبلية مدفونة في الرمل والحصى مثلما هو الحال في عين قزام.[61]

ثانيا – البنية الجيولوجية للصحراء الجزائرية:

الصحراء نواة قارية شاسعة ومستقرة تكونت خلال مجموع العصور الجيولوجية[62] فهي قاعدة قارية قديمة تظهر بها التكوينات التي ترجع إلى الزمن الأركي أو الزمن الذي لم تظهر فيه حياة حيوانية بعد وتتجلى هذه التكوينات الأركية بوضوح بالصحراء الجزائرية في الجهات الجنوبية الشرقية حيث تحتل مساحات شاسعة، [63] إذ كانت نواتها الأولى من صخور قارة جندوانا البلورية وبخاصة النيس والميكاشيست التي يعد الرخام والجرانيت والذهب والفضة والحديد من أهم مكوناتها.[64]

ولقد تخللتها جميعا لافا منصهرة إلى جانب طبقات جرانيت منتشرة في طياتها ويقل هذا التحول من القاعدة نحوالسطح، حيث تظهر عليه بعض الصخور الرملية الرسوبية الأخرى.[65]

ورغم ظهور الصخور القديمة عارية في بعض المناطق فإن معظمها يختفي تحت إرسابات أحدث تركها بحر تيثس عند طغيانه على هوامش قارة جندوانا ونظرا لصلابة الصخور المكونة لهذه الهضبة فقد قاومت حركات الضغوط الجانبية، ولذلك لم تكن الالتواءات ظاهرة رئيسية بها.[66]

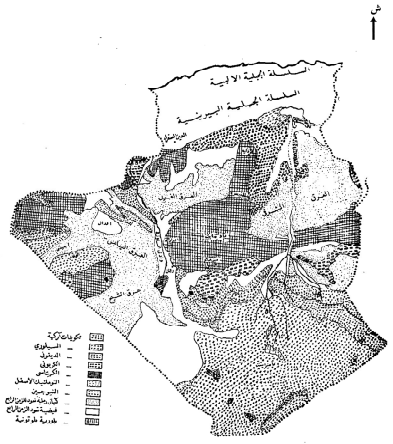

خريطة رقم 2 : التركيبة الجيولوجية للصحراء الجزائرية.

المرجع : حليمي عبد القادر علي ، جغرافية الجزائر ، ص 10

ومنذ أكثر من 500 مليون سنة أصبحت درعا قاريا فلم تتعرض لأية التواءات فيما بعد، ماعدا بعض الانكسارات في بقاع قليلة وبعد تعرضها لعملية تعرية قوية، غمرتها مياه البحار القديمة الأولى، وحين انحسرت هذه المياه خلال العصر الفحمي تركت ورائها رواسب بحرية

يبلغ سمكها آلاف الأمتار في أغلب الأحيان.[67]

لكن البحر لم يلبث أن غمر الصحراء من جديد خلال الفترة السينومانية (cénomanien)[68] مما جعل الهقار جزيرة عائمة، لكن المياه هذه المرة انحسرت نهائيا خلال عصر الأيوسين أي منذ حوالي 50 مليون سنة تقريبا.

وبالتالي عودة فترة جديدة من الحت والتعرية والرواسب القارية، [69]والتي لعبت فيها عوامل التعرية الهوائية دورها وساعدت على تشكيل إرسابات الحواسي التي تحتوي على البترول ضمن تكويناتها.[70]

إذ ترجع للزمن الأول الأحواض الفحمية المختفية تحت عرق إيوان وفي منخفض تيديكيلت في وسط الصحراء الجزائرية وترجع له طبقة الجنوب الغربي الفحمية (بشار، القنادسة).[71]

وخلال الزمن الثاني غمرتها مياه البحر الكريتاسي من جديد، التي تظهر بوضوح في شمال الصحراء الشرقي ممتدة الى الجنوب الغربي(وادي الساورة) لتتجه شمالا حتى سلسلة الأطلس التلي.[72]

أما تكوينات النومليتيك[73] العائدة الى الزمن الثالث فقليلة بالصحراء الجزائرية حيث تظهر إلا في إقليم بسكرة، أما خلال الزمن الرابع فتكونت الكثبان الرملية التي تغطي كل من العرق الشرقي الكبير والعرق الغربي الكبير.[74] كما حدثت خلاله بعض الانكسارات التي أدت إلى بعض الثورات البركانية وطفوح الافا بمنطقة الهقار.[75] (أنظر الخريطة رقم 2).

إذن لعبت هذه العوامل المتنوعة دورها في تشكيل سطح الصحراء من حركات تصدع وانكسارات وثورات بركانية، وعوامل النحت الهوائي في فترات الجفاف، مما نتج عنه المظاهر التضاريسية التي نشاهدها كالمنخفضات والكثبان الرملية، وهضاب وسلاسل الجبال المتقطعة.[76]

ثالثا – المناخ:

يسود الصحراء مناخ يمتاز بالبساطة والاطراد الممل والمتشابه في مساحات واسعة، حيث تطالع زائرها بجدبها وقحولتها، مما يجعل معركة الحياة مع هذه البيئة الضنينة الشحيحة عبئا على الإنسان والحيوان فلا تتاح شروط الحياة إلا في أماكن مبعثرة ومحدودة.[77]

حالة التصحر التي عليها الصحراء اليوم ترجع في الأساس لعامل المناخ، وخاصة نسبة التساقط الضئيلة جدا ودرجة التبخر القوية مما يضر بالنبات ولا يوفر له شروط الحياة، خاصة عامل الرطوبة المفقودة، [78] كما أن سلسلة جبال الأطلس رغم ارتفاعها الضعيف تشكل حاجزا أمام المؤثرات المناخية المتوسطية وتمنعها من التوغل صوب الداخل، فتساعد في حجب الرطوبة

عنها أيضا.[79]

وعموما يمتاز مناخ الصحراء بالجفاف وقلة الأمطار تدريجيا من الشمال إلى الجنوب حيث لا يزيد متوسطها السنوي عن 100ملم، وإن هي نزلت فلا تكون إلا بعد سنوات[80] في حالة نزوله سرعان ما يتبخر بفعل ارتفاع درجة الحرارة ومن المعلوم أن الصحراء أشد المناطق تبخرا في العالم وماء المطر الذي يقدر له الوصول الى الأرض سرعان ما تبتلعه الأرض المتعطشة.[81]

ورغم ما يشاع من أن الصحراء تصيبها السيول الجارفة، إلا أنها تبقى مظهرا شاذا إذ يبلغ معدل التساقط السنوي 30 ملم في تندوف، و61 ملم في غرداية، 170 ملم في الأغواط، 160ملم في تمنراست، فقد تكون نسبة التساقط في هذه الأخيرة في العام الذي يليه 4 ملم في حين قد ينقطع بالعام الثالث، [82] ومن ثم يبدو واضحا بقاء عامل المفارقة والتفاوت في نسب التساقط مؤثرا على مناخ الصحراء بصفة عامة.

كما تبقى درجة الحرارة عاملا مؤثرا في مناخ الصحراء، إذ يبلغ متوسطها صيفا 38°م وشتاءا 13°م بينما يبلغ المدى الحراري السنوي 25°م [83]، لكنها قد تصل الى أقصاها صيفا عند منتصف النهار فتصل إلى ما بين 60°م- 80°م، أما تحت الظل فتبلغ ما بين 50°م -55°م، وقد تتناقص ليلا حيث يبلغ متوسط الفارق بين الليل والنهار 36°م، وتنزل درجة الحرارة في الشتاء خاصة في الليل إلى درجة الصفر، وفي المناطق المرتفعة (الهقار) إلى – 60°م.[84]

كما يضاعف من شدة الحرارة هبوب الرياح الحارة (الشهيلي) أحيانا مما يؤدي إلى كوارث مثل إبادة قوافل الرحل أو موت حيواناتهم على الأقل، [85] ولهذا نجد مناطق شاسعة في الصحراء تسمى (صحراء الصحراء) غير آهلة، وخالية من الحياة تماما، أشهرها منطقة تنزروفت التي تمتد في غرب الصحراء الجزائرية، والتي استعصت على الرواد والمستكشفين حتى سنة 1936م.[86]

رابعا – النبات:

نبات الصحراء على نوعين دائم التواجد وآخر مؤقت لا ينبت إلا بعد سقوط المطر وهو ما يصطلح على تسميته بالعشب [87]، فالنباتات الصحراوية عموما قصيرة وهزيلة تنمو مبعثرة بشكل متباعد قد تفصل بينهما مساحات جرداء، منها نباتات قصيرة العمر، تنمو عقب سقوط المطر مباشرة وتكمل دورتها وتزول بسرعة، لكن تبقى جذورها مدفونة في التربة كي تستطيع العودة الى الحياة والنمو مرة أخرى، عند سقوط المطر في الموسم القادم.[88]

أما النباتات الصحراوية المعمرة فتتحايل على ظروف الجفاف بعدة طرق فبعضها يضرب

بجذوره الطويلة في الأرض بحثا عن الرطوبة كالنخيل، أو يكون سميك الأوراق ليختزن فيها المياه كالتين الشوكي والصبار، أو إبرية الأوراق فلا يفقدها النتح الماء، وبالصحراء الجزائرية مساحات شاسعة قد تخلو من النبات تماما[89] (الخريطةرقم 3).

ورغم ذلك فليست الصحراء خالية تماما من النبات، بل تنبت في بعض المناطق من أرضها أشجار ونباتات عشبية متنوعة، [90] ففي ضواحي غرداية يوجد حوالي 300نوع من النباتات، وهو نفس العدد تقريبا في جهات بني عباس بغرب الصحراء، بينما لا يتعدى مجمل عدد النباتات بشمال الصحراء 500 نوع.[91]

ومن أهم نباتات الصحراء، الحلفاء، البشنة، الصفار، العرفج، السمهري، العضيد والسعد، الحارة، التين، ذنب الفأر، كرش الأرنب، الخبيز، بوقريبة، القريطفة، النصى، القطف، النمص، الطازية، المنتينة، اللبين، الحاذ، الغبيثاء، الازول، السويدة، القصيبة، سيف الغراب، النجم، اللافة، الشيح، الحرمل، الفيجل، الضمران، الفطر (الكمأة)، والحنظل (العلقم)، [92] الدسلس، العقفارية، الخدة، الخذلانة، الحميض، البدانة، البهمة.[93]

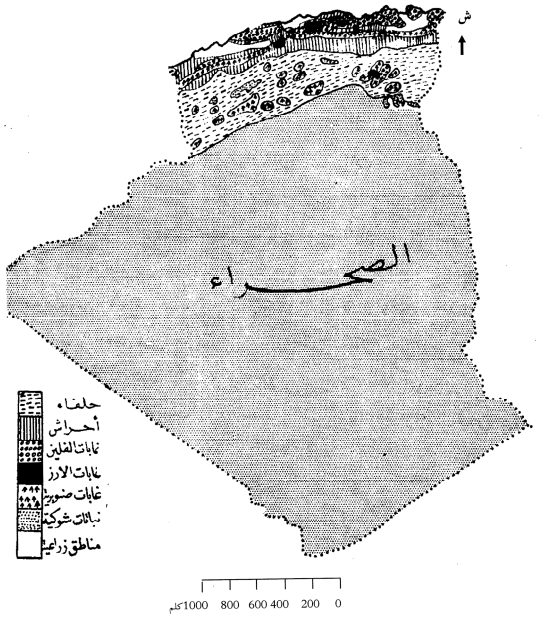

خريطة رقم 3 : توزيع الغطاء النباتي.

المرجع : حليمي عبد القادر علي ، جغرافية الجزائر ، ص 88.

خامسا – الحيوان:

أثبتت الاكتشافات من خلال البقايا التي يعثر عليها بالصحراء على وجود حيوانات كثيرة ومتنوعة عاشت بها، والتي لم يعد لها الآن أية أثر منها ما عاشت في العصر الحجري القديم، مثل الفيل القديم والجاموس القديم، الحمار الوحشي، الزراف، الأسماك عديمة الحراشف، أما الحيوانات التي انتشرت خلال فترة العصر الحجري الحديث، فأهمها، فرس النهر، الكركدن، الزراف، التماسيح، الظباء، السلاحف، بالإضافة الى الحمار الوحشي، والحمار الإفريقي.[94]

كذلك الأروية الشمال إفريقية التي كانت جبال الصحراء الجزائرية الجنوبية تعج بها، والمهاة التي وجدت على رسومات زوسفانة والتي أتى على ذكرها كل من هيرودوت وبلين كذلك الكلب رفيق الإنسان بالصحراء وهو نتاج عملية تهجين بين الذئب والثعلب إبان فترة العصر الحجري الحديث، ولم يبق من هذا النوع الآن سوى حفيده كلب الطوارق خاصة بمرتفعات آير، أما القطة ذات القفاز[95] التي عاشت بأوربا في الزمن الرابع واختفت منها مع الزحف الجليدي، انتقلت لتعيش بسهوب الصحراء كقطة متوحشة لتظهر فيما بعد بمصر القديمة كحيوان مستأنس.[96]

أما النعام الذي تدل بقاياه العظمية، وبقايا قشور بيضه وريشه على أنه عاش بالمنطقة خلال العصر الحجري القديم، لكن بصفة قليلة ومحدودة، أما خلال العصر الحجري الحديث، فبينت الرسوم الصخرية تواجده بالصحراء مع توسع انتشاره وكثرة إعداده وأكبر دليل على ذلك بقايا قشور بيضه التي توجد في كل مكان بالصحراء الجزائرية.[97]

كما جسدت الرسوم الصخرية بالصحراء الأسد والضبع والفهد وابن آوى وغيرها من الحيوانات المفترسة، [98] كما جاب الفيل الأطلسي الصحراء وهو أصغر حجما من الفيل الآسيوي رغم أنه حفيد الفيل الإفريقي البالغ ارتفاعه أحيانا أكثر من أربعة أمتار، [99] وكانت قرطاجة تستعمل في حروبها الفيلة التي تصطادها من الصحراء الشرقية الجزائرية خاصة بمنطقة الشطوط.[100]

ولقد تبقى الفيل والأسد بالصحراء ولم ينقرضوا منها الى بنهاية القرن الأول الميلادي تقريبا، بعد أن دمرهم الإنسان لأجل متعة القتل أو لأجل العاب السيرك.[101]

أما الجاموس الكبير فقد كان ينتشر بمنطقة الأطلس، وهو حيوان ضخم لا يبتعد كثيرا عن الماء لذلك يعيش بالقرب من المستنقعات، ولكن آثاره بالصحراء قليلة، في وادي جدي

(بسكرة) بالصحراء الشرقية وزوسفانة بالصحراء الجزائرية الغربية بينما لا أثر له باقي أنحاء الصحراء الجزائرية ولا أثر له بين حيوانات الرسوم الصخرية.[102]

عثر على بقايا عظمية متحجرة للجمل بالصحراء الجزائرية تعود إلى العصر الحجري القديم، ويبدو أنه اختفى بعد ذلك فلا أثر له بالصحراء خلال فترة العصر الحجري الحديث، ولا أثر له حتى في الكتابات أو التماثيل المصرية، وهيرودوت نفسه لم يأت على ذكره، وعندما تحدث كل من تيت ليف وبوليب عن الحرب بين قرطاجة وروما بصورة مسهبة، ظهرت في كتاباتهم الفيلة والجياد، أما الجمال فلا أثر لها، [103] وعلى الأرجح أن الجمل ظهر بالصحراء مع بداية العهد المسيحي.[104]

وكل الحيوانات الموجدة في وقتنا الحاضر بإقليم السافانا الاستوائية كانت موجودة بالصحراء، خلال فترة العصر الحجري الحديث، عندما كان مناخها أكثر رطوبة مما هو عليه الآن.[105]

وبحلول سنة 1000 ق.م، تقريبا كانت الصحراء قد أخذت المظهر الذي نعرفه عليها اليوم وأغلبية الحيوانات هاجرت جنوبا إلى المناطق الاستوائية، أو اختفت تدريجيا ماعدا بعض الفيلة التي بقيت بالشطوط الكبرى خاصة في وادي ريغ (تقرت)، إلى غاية بدايات العصر المسيحي.[106]

أما أهم حيوانات الصحراء في الوقت الحالي فهي:

الظباء والغزلان والأروية والمهاة والماعز والدمان[107] وهي تعيش بالعرق الشرقي الكبير وعرق أمقيد ما عدا الأروية والدمان بمرتفعات الهقار والطاسيلي، [108]وبعض القوارض كالأرانب البرية والجربيل، والجربوع، والفأر ذو الشعر المشوك والقنفذ.[109]

ويبقى الجمل حيوان الصحراء الأول ولولاه لما تمكن الإنسان من إخضاعها والسيطرة عليها قبل اختراع الآلات الحديثة، [110] وهو يستخدم للحمل والجر والركوب، بحيث يتحمل شدة الحرارة وهو صبور على العطش والجوع لعدة أيام وله مزايا أخرى كثيرة.[111] أما الحصان فيبقى بالصحراء حيوان ترف لرؤساء القبائل أو للأشخاص الميسورين بسبب تكلفة غذائه لهذا بقي انتشاره محدودا.[112]

بالإضافة إلى الأبقار بالواحات المتناثرة بالصحراء تبقى قطعان الماعز قليلة مقارنة بقطعان الضأن التي تملأ المراعي الصحراوية خاصة بأدرار وتوات وتديكيلت بالصحراء الجزائرية.[113]

أما الحيوانات المفترسة فمعظمها أنقرض كالأسد والضبع المرقط والفهد، أما الموجود فالقطة

المتوحشة وهي نادرة، ويوجد بكثرة الثعالب وخاصة الفنك بالعرق الشرقي الكبير وابن آوى والذئب الداكن وهو حيوان مهاجر متنقل.[114]

أما الطيور المهاجرة العابرة للصحراء خاصة في فصل الربيع فتمثلها الحداءة، اليحموم، الصافر، الطيطوى، العصفور، أم عجلان، الغرغر، القطا، أبو عباءة، القارية، الطواف، الكروان، الشحرور، الحبار، الخطايفة، وغيرها الكثير.[115]

أما التي تستوطن الصحراء بصفة دائمة فهي قليلة، أهمها الغراب، والباز، العقاب، الصقر، الشاهين، الرخمة، وطائر القبرة والقليعي والحمام الأزرق.[116]

ومن الطيور التي انقرضت نهائيا من الصحراء النعام، التي شوهدت لغاية بدايات القرن العشرين وبقيت في فيافي تندوف لغاية الخمسينات منه، وهي الآن بصفتها البرية منقرضة تماما، لكنها تربى في حظائر كما تربى الماشية والأغنام في عين صالح وتندوف لكن بصفة محدودة جدا.[117]

أما البرمائيات والأسماك فيمثلها الضفدع الأخضر والتماسيح [118] التي انقرضت الآن، كما تعيش أنواع من الأسماك في البحيرات المغلقة وفي الفقرات[119] منها الأسماك ذات الأصول المتوسطية، التي تأتي عن طريق قناة وادي إغرغار إلى أقصى الجنوب الشرقي ومنها ذات أصل سوداني تنتقل من بحيرة تشاد عبر وادي تمنراست ووادي تافيساست.[120]

أما الزواحف فأهمها الحنش، الورل، الضب، الزليقة، الحردون، العظاء، البعطوط، الأفعى الثعبان، وغيرها، [121] وهي في الغالب تتغذى على الحشرات البالغة 502 نوع، من الخنافس، والعقارب والصراصير الليلية والفراش والجنادب، ويمكن تقسيم حصص الحشرات بالصحراء الجزائرية إلى:

- الحشرات آكلة النبات الأخضر 36 ٪.
- حشرات آلفة الرطوبة 28 ٪.
- حشرات ساكنة الأرض 19 ٪. [122]

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة الجغرافية للصحراء الجزائرية يمكننا الخروج بالاستنتاجات التالية:

- نرى أن السمة البارزة التي يتمتع بها سطح الصحراء الجزائرية تتمثل في الرتابة والبساطة والابتعاد عن التعقيد، لكن ذلك لم يمنع من تنوع معالمه، حيث تنتشر العروق والرق والحمادات، والأحواض والمنخفضات ناهيك عن المنحدرات، إضافة الى بعض الهضاب وبعض الجبال

القليلة الارتفاع ذات الأصول البركانية.

– يبقى العامل المهم في تكون سطح الأرض بالصحراء حاليا هو الريح ودرجة الحرارة المرتفعة، وشدة الفارق في حرارتها بين الليل والنهار، أما عامل الماء فهو ضعيف إن لم يكن منعدما في بعض الجهات.

– لم تكن الصحراء عما هي عليه اليوم من جفاف وجدب وكآبة فقد عرفت قبل سنة 1000 قبل الميلاد، مناخا رطبا ممطرا إلى حد ما، ونباتا كثيفا شبيه بالسافانا الحالية وحيوانات استوائية متنوعة وكثيرة.

– إن التغيرات المناخية والطبيعية بالصحراء أثرت بدورها على تواجد الحيوانات بها، فتكشف لنا الرسوم الصخرية عن بعضها مثل الفيل والجاموس الإفريقي والزراف وفرس النهر والأسود وغيرها الكثير، بينما نشاهدها اليوم فقيرة من تواجد الحيوانات غير تلك التي تستطيع العيش في لهيب الصحراء والقناعة بالنزر اليسير من الماء.

– رغم ما تعرفه الصحراء من جفاف وتصحر والارتفاع الكبير في درجات الحرارة وقلة الرطوبة، وضعف منسوب التساقط، إلا أن هناك أنواعا عديدة من النباتات والأشجار استطاعت أن تتأقلم مع هذه الظروف المضنية وتكيف نفسها مع هذه الشروط الطبيعية القاسية.

– يمكن للجزائر استغلال الصحراء في الزراعة والتشجير أو كمراعي ومروج اصطناعية تربى فيها الماشية والإبل ولما لا تربية اصطناعية مكثفة في حظائر لطائر النعام مما يدر الكثير على خزينة الدولة.

الهوامش:

[1] - H.j.Hugot , le sahara avant le désert, Editions des hespèrides, Paris , France , 1974 , p 20.

[2] - R.Pottièr, histoire du sahara , nouvelles èditions latines , paris , 1920 , p 10.

[3] – غيرستر جورج، الصحراء الكبرى، ترجمة، خيري حماد، بيروت، المكتب التجاري للطباعة و التوزيع و النشر، 1961، ص9.

[4] – أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، بيروت، دار صادر، 1997، ص 16.

[5]- St Gsell , hérodote (textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du nord), jourdan ,alger,1915.pp 168. 169.

[6] – الأثيوبيين: المقصود الزنج .

[7] – التبستي: مرتفعات جبلية شمال تشاد (3415م)، انظر جمال الديناصوري و آخرين، جغرافية العالم، ج2، (إفريقيا وأستراليا)، القاهرة، المكتبة الأنجلومصرية، بدون تاريخ، ص ص187، 188 .

[8]- H.Basset , la libye d'hérodote d'après le livre de m.gsell , R.Africaine, 1918 , N° 59,office des publications universitaires, alger. pp 298,299.

[9] – جمال الدين الدينا صوري وآخرون، جغرافية العالم، ج2، (إفريقيا وأستراليا)، القاهرة، المكتبة الأنجلومصرية، بدون تاريخ، ص 250.

[10] – أحمد بن إسحاق اليعقوبي، البلدان، تحقيق محمد أمين الضناوي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002، ص 103.

[11] – عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح إفريقية و الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1964، ص 98.

[12] – أبو عبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتابه نزهة المشتاق، تحقيق وتقديم وتعليق، إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص ص87. 103.

[13] – ليون الإفريقي: هو حسن بن محمد الوزان الغرناطي الفاسي الزياني، ولد سنة 1485م بغرناطة ثم هاجرت عائلته إلى فاس، زار الجزائر تونس، ليبيا، مصر، السودان، موريطانيا، مالي، غينيا، السينيغال، غانا، نيجيريا، وبالتالي عرف إفريقيا البيضاء والسوداء جيدا وكتب عن الصحراء ورحلته بها، أنظر كتابه: حسن الوزان، (وصف إفريقيا)، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي و محمد الأخضر، ج1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983.

[14] – السودان: المقصود بلاد الزنج الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

[15] – جمال الدينا صوري و آخرون، المرجع السابق، ص251.

[16] - E.f.Gautier ,le sahara , payot, paris,1928.p09.

[17] – يسري عبد القادر الجوهري، شمال إفريقيا دراسة في الجغرافية التاريخية، الإسكندرية، دار الجامعات المصرية، 1970، ص43.

[18] - R.Furon. le sahara(géologie,ressources,minérales) , payot , paris , 1964, p 42.

[19]– H.Cuny , les déserts dans le monde , payot , paris ,1961. pp 171.

[20] – تلتقي حدود الصحراء في ليبيا مع البحر المتوسط مباشرة.

[21] - "Sahara." Microsoft® Encarta® 2006 [CD]. Microsoft Corporation, 2005.

[22] – إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى و شواطئها، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص 13.

[23]– Petit Larousse en couleurs . Larousse . paris .France . 1980. P 1534 .

[24] - Petit Larousse en coulleurs.p1009.

[25] - Encyclopaedia Universalis , Encyclopaedia universalis France s.a .éditeur, paris,1980 , volume 1, p.631.

[26] – حليمي عبد القادر علي، جغرافية الجزائر (طبيعية، بشرية، إقتصادية)، دمشق، مطبعة الإنشاء، 1968، ط2، ص 48.

[27] - R.Furon, le sahara, pp,91-141.

[28] - G.Aumassip, néolithique sans poterie de la région de l'oued mya (bas-sahara),s.n.e.d, alger,1972 , p 07.

[29] – حليمي عبد القادر علي، المرجع السابق، ص 48.

[30]- G.Aumassip , op cit , p 07.

[31] – جمال الدينا صوري وآخرون، المرجع السابق، ص273.

[32] – الكثبان الرملية: تلال من الرمل تتكون عادة حول حاجز طبيعي مقاوم للريح فتترسب حمولتها من التراب و الحصى مكونة الرمال أنظر: H.Cuny, les désert dans le monde, p178.

[33] - J.Despois,et R.Raynal ,Géographie de l'afrique du nord –ouest, payot,paris,1967,pp

422-425.
[34] - A.R.Voisin, Le souf,(monographie), El-walid, el-oued, 2004, pp 15-16.
[35] - A.Najah , Le souf des oasis, éd.la maison des livres, alger, 1970 .p10.
[36] – إبراهيم بن الساسي العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق، الجيلاني بن إبراهيم العوامر، تونس، الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977، ص40.
[37] - J.Lethielleux, Ouaregla cité saharienne, librairie orientaliste paul geuthner , paris ,1984 ,pp 1-3.
[38] – إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص ص 142– 144
[39] - J.Despois,et R.Raynal, op cit, p 441.
[40] –جمال الديناصوري وآخرون، المرجع السابق، ص 274.
[41] - A . Berthelot , l'Afrique saharienne et soudanaise,les arts et le livre ,paris,1927,p 25.
[42] - R.Furon, le sahara, p 141.
[43] – حليمي عبد القادر علي، المرجع السابق، ص 51.
[44] - A.Coyne, Le Sahara de l'ouest (étude géographique sur l'adrar et une partie du sahara occidental), R.africain, 1889,n°=33, office des publications inversitaires , alger , pp37-38.
[45] – محمد عبد المنعم الشرقاوي و محمد محمود الصياد، ملامح المغرب العربي، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1959، ص 24 .
[46] - J.Despois et R.Raynal, op cit, p 443.
[47] – جمال الديناصوري وآخرون، المرجع السابق، ص ص 275–276.
[48] - R.Furon,Le sahara, p151.
[49] - J.Despois et R.Raynal, op cit, p 441.
[50] - A.Berthelot, op cit , p 24.
[51] - R.Furon, Le sahara , pp 91-92.
[52] – محمد السويدي، بدو الطوارق بين التغير والثبات، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص 108.
[53] - H.Cuny, op cit , p175
[54] – جمال الدين الديناصوري و آخرون، المرجع السابق، ص 280.
[55] - H.Lhote, Les Touaregs du hoggar ,payot ,paris, 1955, p 20.
[56] - E.f.Gautier, Mission au sahara, t1,(sahara algérien) , librairie armand colin , paris , 1908, pp,14-15.
[57] – جمال الدين الديناصوري وآخرون، المرجع السابق، ص 281.
[58] – وادي إغرغار: يأتي من منطقة الهقار مجتازا المنطقة طوليا ليصب أولا في الرواق الرملي المسمى حاليا قاسي الطويل بمنطقة حاسي مسعود، ثم يواصل سيره شمالا ليصب ثانية في وادي ريغ، أنظر: E.f.Gautier, Le sahara, p 96.
[59] - H.Lhote, Les Touaregs du hoggar ,p26.
[60] - R.Furon, Le sahara , p 103.
[61] - H.Lhote , Les Touaregs du hoggar ,p 28.
[62] - P.Ozenda , Flore du sahara ,éd, c.n.r.s , paris, France, 1977, p33.
[63] – حليمي عبد القادر علي، المرجع السابق، ص 08.
[64] – عبد السلام بو شارب، الهقار أمجاد وأنجاد، الجزائر، المتحف الوطني للمجاهد، 1995ص 33 .
[65] – جمال الدين الديناصوري وآخرون، المرجع السابق، ص 257.
[66] – جودة حسنين جودة و علي أحمد هارون، جغرافية الدول الإسلامية، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1999، ص76 .

[67] – محمد الطاهر العدواني، الجزائر في التاريخ، ج1، (الجزائر منذ نشأة التاريخ)، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص31.

[68] – السينومانية: هي الفترة الأولى لتوضع الطبقات الكريتاسية العليا، وتشمل الفترة ما بين 99، 5 الى 93، 5 مليون سنة، للمزيد أنظر:

-cénomanien.in Wikipedia,encyclopédia[En ligne].http://fr.wikipedia.org/wiki/C%C3%A9 nomanien,(16.05. 2007).

[69] - H.Cuny, Op cit ,p174.

[70] – عبد السلام بوشارب، المرجع السابق، ص 36

[71] – حليمي عبد القادر علي، المرجع السابق، ص09.

[72] - P.Ozenda , op cit ,p 33.

[73] – نسبة الى حيوان النومليتيك المسماة بقروش الملائكة، لأنها تظهر في صورة قطع نقدية مستديرة يصل قطرها الى 12سم، أنظر:حليمي عبد القادر علي، المرجع السابق، ص 16.

[74] – حليمي عبد القادر علي، المرجع السابق، ص 11.

[75] – جمال الدين الديناصوري وآخرون، المرجع السابق، ص258.

[76] – عبد السلام بوشارب، المرجع السابق، ص 36.

[77] – جمال الدين الديناصوري وآخرون، المرجع السابق، ص 259.

[78] - H.Lhote , Les touaregs du hoggar, p10

[79] - J.Despois ,R.raynal , géographie de l'Afrique de nord-ouest. P 422.

[80] – حليمي عبد القادر علي، المرجع السابق، ص 76.

[81] – إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 15.

[82] – جمال الدين الديناصوري وآخرون، المرجع السابق، ص ص 260–261 .

[83] – جودة حسنين جودة وعلي احمد هارون، جغرافية الدول الإسلامية، ص 121.

[84] - H.Cuny , op cit , p173.

[85] - Ibid, p174 .

[86] – إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 15 .

[87] - H.Lhote , Les touaregs du hoggar . p 39 .

[88] – حليمي عبد القادر علي، جغرافية الجزائر، ص ص 88 – 90.

[89] – جودة حسنين جودة ، العالم العربي دراسة في الجغرافية الإقليمية، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 1998، ص 113 .

[90] - H.P.Eydoux , L'homme et le sahara ,Gallimard ,paris , 1943 , p 10 .

[91] - P.Ozenda , Op cit , p 40 .

[92] – إبراهيم بن محمد الساسي العوامر، المرجع السابق، ص 52–53 .

[93] . يوسف حليس، الموسوعة النباتية لمنطقة سوف (النباتات الصحراوية الشائعة في منطقة العرق الشرقي الكبير)، مراجعة و تقديم الدكتور السنوسي محمد مراد، الوادي، الوليد، 2007، ص 64. 243 .

[94] - H.Lhote , Les touaregs du hoggar ,p 44 .

[95]- القطة ذات القفاز: جدة قططنا الأليفة الحالية .

[96] - A.Berthelot , Op cit , pp 47-50 .

[97] - H.Camps-Fabrer , La disparition de l'autruche en Afrique du nord ,c.r.a.p.e, alger ,1963, pp 7-20 .

[98] - H.Lhote , Les touaregs du hoggar, p 46 .
[99] - A.Berthelot , Op cit , p 45 .
[100] - H.Lhote , Les touaregs du hoggar, P 44 .
[101] - A.Berthelot , Op cit , p 45 .
[102] - Ibid, p 48 .
[103] – غيرستر جورج، المرجع السابق، ص ص 55 – 56 .
[104] - CH- A. Julien , Histoire de l'Afrique blanche , que sais –je ?, press universitaires de France ,vendome , 1976, p 14 .
[105] - H.Lhote , Les touaregs du hoggar, P 45.
[106] - A.Voisin , Op cit ,p 53 .
[107] – الدمان: الغنم الجرداء من الصوف.(الباحث)
[108] - E.F.Gautier , Mission au sahara, t1,(sahara algérien), pp 317,318.
[109] - H.Lhote , Les touaregs du hoggar ,p 45
[110] – غيرستر جورج، المرجع السابق، ص ص 10–15.
[111] – إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 33–34.
[112] - H.P.Eydoux ,Op cit ,p 11.
[113] - H.P.Eydoux ,Op cit ,p 11.
[114] - H.Lhote , Les touaregs du hoggar ,p 46 .
[115] – إبراهيم بن محمد الساسي العوامر، المرجع السابق، ص69 – 71 .
[116] – أحمد بن الطاهر المنصوري، المرجع السابق، ص ص 27– 29 .
[117] - H.Camps-Fabrer ,La disparition de l'autruche en Afrique du nord, pp 31 – 39.
[118] – الضفدع الأخضر: (يتواجد في الصحراء بالقرب من المستنقعات ونقاط الماء) .
– التماسيح: (آخر تمساح بمنطقة الطاسيلي قتله الملازم الأول الفرنسي بوفال سنة 1924م) .
[119] – انقرض سمك البني (من الشبوطيات) من الفقرات نهائيا حوالي عام 1950م.
[120] - H.Lhote , Les touaregs du hoggar ,p 50.
[121] – إبراهيم بن محمد الساسي العوامر، المرجع السابق، ص 72.
[122] - H.Lhote , Les touaregs du hoggar ,p 51.

The Algerian Desert: A Study in Geography

Mohammed Rochdi DJARAIA

Abstract:

The Algerian Sahara defines natural conditions make it somewhat distinct from the deserts of neighboring countries, both in terms of the features of the surface or environmental conditions and diversity in its natural ecological dimension, which made it in fact conceal many of its secrets from researchers and explorers. Despite this, it has not been entitled to study. this article addresses this subject in order to lay the groundwork for an integrated academic work in the future.

Keywords: Sahara - Algeria - Geography.

* Faculty of Social and Human Sciences - University of El-oued – Algeria.

جودة الحياة الأسرية وعلاقتها بسلوك المواطنة لدى الأبناء

(دراسة ميدانية على عينة من تلاميذ مرحلة التعليم الثانوي بولاية الوادي)

بقلم

أ/ أسماء لشهب(*)

ملخص

بهدف التعرف على العلاقة بين جودة الحياة الأسرية كما يدركها الأبناء وسلوك المواطنة لديهم، تم إجراء دراسة ميدانية على عينة مقدرة ب 300 تلميذا وتلميذة ببعض ثانويات ولاية الوادي وباستخدام مقياس جودة الحياة الأسرية المعد لهذه الدراسة ومقياس سلوك المواطنة لرياض أبازيد.

أظهرت النتائج وجود علاقة بين درجات جودة الحياة الأسرية ودرجات سلوك المواطنة لدى التلاميذ عينة الدراسة، وباستخدام الاختبار "ت" لدراسة الفروق تبين:

- عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في درجات جودة الحياة الأسرية تعزى لمتغير الجنس.
- وجود فروق ذات دلالة إحصائية في درجات سلوك المواطنة لصالح الإناث.

وخلصت في الأخير إلى جملة من المقترحات أهمها:

- ضرورة اعتماد منهج التكامل بين مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية (الأسرة، المدرسة، المسجد، وسائل الإعلام..) في تفعيل دورها الاجتماعي التربوي لتكوين مواطن صالح متشبع بقيم ومبادئ مجتمعه.
- الاهتمام بالإرشاد الأسري كمدخل لجودة حياة أعضائها.

الكلمات المفتاحية: جودة الحياة الأسرية، سلوك المواطنة، تلميذ مرحلة التعليم الثانوي.

(*) ماجستير علم النفس المدرسي، أستاذة متعاقدة بقسم العلوم الاجتماعية ـ جامعة الوادي..
lacheheb_asma@yahoo.com

مقدمة

يعتبر مفهوم جودة الحياة التطور الأحدث في قضية شغلت البشرية منذ القدم رغم اختلاف المسميات التي أطلقت عليها، إذ لم يكن ظهوره بمحض الصدفة وإنما نتاجا لتضافر جهود العلماء والباحثين في ميادين مختلفة للعلم، فقد أشار"(لامبيري وآخرون) Lambiri et al إلى تزايد الاهتمام بمفهوم جودة الحياة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية على مستوى البحث النظري والميداني وخاصة علم الاجتماع والاقتصاد الحضري ونتيجة تأثير جودة الحياة على التنافسية ومعدلات الرفاهية"[1].

وتمثل العولمة تحديا كبيرا للمجتمعات البشرية على اختلاف ثقافاتها ومستوياتها الاقتصادية بسبب تأثيرها على جميع مناحي حياة الأفراد والجماعات، فوسائل الاتصال كأحد مظاهر العولمة والانفجار المعرفي حولت العالم إلى قرية صغيرة؛ مما أثر على مفهوم المجتمع المحلي والدولة.... لهذا شكلت العولمة تحديا للتربية في العديد من المجتمعات الإنسانية إذ أدى الغزو الثقافي إلى انهيار الحدود الثقافية وانعكس ذلك على الأفكار والمعتقدات السائدة في المجتمعات. وأدت هذه الظواهر إلى اهتمام المجتمعات المتطورة خاصة بتربية أبناءها على سلوك المواطنة بهدف مواجهة تنامي العنف وتفكك العلاقات الاجتماعية وسيطرة صراع المصالح الخاصة على مصلحة المجتمع والوطن وتراجع منظومة القيم وقواعد السلوك الرشيد في المجتمع عموما.

وقد أدى هذا الوضع إلى خلق حالة من الإرباك وعدم الاستقرار مست جميع نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، تولد عنها هاجس الخوف من المستقبل بصورة جعلت من الاستمتاع بالحياة والشعور بالطمأنينة والسعادة أو ما يصطلح عليه بجودة الحياة أمرا يصعب بلوغه لكل فئات المجتمع وشرائحه. وكون الأسرة تمثل المنظمة الأساسية والأكثر تماسكا في المجتمع فهي التي تتحمل الجزء الأكبر من مسؤولية إعداد المواطن الصالح القادر على مواجهة متطلبات الحياة والمساهمة في تحقيق الأمن الاجتماعي وتنمية وطنه عبر نقل الموروث الثقافي والقيم الإنسانية لأفراد المجتمع والتي تعد المواطنة إحداها.

1- إشكالية الدراسة:

لقد تبين أن مواجهة تحديات عصرنا الحالي وتحقيق مستويات عالية من جودة الإنتاجية تتطلب جودة في الأداء الإنساني، أي لابد أن يلازمها _أو حتى يسبقها_ بناء الإنسان، بمعنى جودة الإنسان من داخله والتي تنعكس على إنتاجيته وأدائه، والذي يمتلك القدرات والمهارات

والإمكانات التي يمكنه بممارستها التعامل مع التقدم المعرفي والتقني المتسارع لهذا العصر، والنجاح في مواجهة أعباء ومتطلبات الحياة اليومية التي تتسم بالتعقيد المتزايد، حيث يتم تحويل كل ما لدى الفرد من معلومات واتجاهات وقيم ومعتقدات إلى سلوكات تحقق فعاليته وشعوره بالرضا والتوافق والنجاح في الحياة في إطار ما يطلق عليه "جودة الحياة النفسية"[2].

بالمقابل، أوضح مؤتمر الصحة النفسية الذي عقد في برشلونة سنة 1959 أهمية المؤسسات الحكومية وغير الحكومية التي تعنى بالأفراد في مراحل نموهم المختلفة، كما توصل إلى أن من أهم العوامل التي تحقق الصحة النفسية للأطفال أن تولي الدول اهتماما خاصا لإرشاد الوالدين إلى الطرق والأساليب السليمة في تربية أبنائهم، "إذ أصبح من الحقائق المقررة في علم النفس أن أساليب التربية في السنوات الأولى من حياة الفرد تؤثر في مستقبل حياته بل أنها من أهم العوامل التي تشكل سلوكه في المستقبل"[3].

ومن المنطقي أن يكون الوالدين أكثر الناس تأثيرا على النمو النفسي والاجتماعي والجسمي والعقلي للأبناء "فهما من ناحية الموصلان الأساسيان للمفاهيم الثقافية، ومن ناحية أخرى المهيمنان على تنشئة الأبناء بشكل مباشر وفعال، لذا يمكن القول أن التباين في شخصيات الأبناء يرتبط ارتباطا وثيقا بنوعية العلاقات الأسرية وبالأساليب الوالدية المتبعة أثناء عملية التنشئة"[4] فإن كانت هذه العلاقة موسومة بالمودة والمحبة والعدالة والرضا والتي تمثل بدورها دعائم ومقومات جودة الحياة الأسرية، وفرت لهم فرص التعامل مع الواقع بايجابية والتوافق معه والتمتع بالصحة النفسية بالمحصلة، أما إذا ساد هذه العلاقة الرفض والجفاء والتفرقة بين الأبناء وعدم الرضا أو المبالغة في الحماية والتدليل وعدم القدرة على المبادرة أدى كل ذلك إلى الاضطراب النفسي. وقد زاد الاهتمام في الآونة الأخيرة بدراسة جودة الحياة الأسرية، نظرا لأهميتها في توافق الأبناء على المستوى الاجتماعي والانفعالي والنفسي، ومن ثم تحسين مستوى الصحة النفسية لديهم. ويفسر (بوتنام، 1995) Putnam احتلال جودة الحياة الأسرية لقمة هذه الموضوعات من حيث الأهمية؛ بكون الأسرة تعد المنظمة الأساسية والأكثر تماسكا في المجتمع وهي تمثل رأس المال الاجتماعي في المجتمع [5]، وهي بذلك تمثل أهم مؤسسة تربوية للأبناء.

ولقد صنف الدارسون غايات التربية ضمن ثلاث فئات رئيسية متداخلة: أهداف تتعلق بنقل المعرفة وأهداف تتصل باحتياجات الفرد وأخرى ترتبط باحتياجات المجتمع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. لذا فالتربية تهدف من خلال مؤسساتها (والتي تعد الأسرة أهمها)

وبرامجها ووسائلها إلى بناء المواطن الصالح المتشبع بالقيم والأخلاق التي يؤمن بها المجتمع والمعتز بوطنه وتاريخه والقادر على مواجهة متطلبات الحياة المستقبلية والتعايش معها وهو ما يصطلح عليه بتنمية سلوك المواطنة، إذ ثبت أن للمواطنة تأثيرا كبيرا في البناء الاجتماعي والثقافي والتربوي وتعزيز منظومة القيم الاجتماعية والوصول إلى بناء اجتماعي متماسك يقوم على الاعتزاز بالمجتمع وقيمه وتاريخه(6).

من خلال هذا السياق انبثق التساؤل الرئيسي للدراسة: هل توجد علاقة بين مستوى إدراك الأبناء لجودة حياتهم الأسرية وسلوك المواطنة الذي يبدونه؟

2- فرضيات الدراسة:

تعتبر الفرضية حلا مؤقتا يتحقق منه بإتباع خطوات المنهج العلمي، لهذا الغرض صيغت فرضيات الدراسة على النحو التالي:

الفرضية العامة:

لا توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين درجة جودة الحياة الأسرية ودرجة سلوك المواطنة لدى تلميذ مرحلة التعليم الثانوي.

الفرضيات الجزئية:

1- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في درجات جودة الحياة الأسرية بين تلاميذ مرحلة التعليم الثانوي باختلاف الجنس.

2- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في درجات سلوك المواطنة بين تلاميذ مرحلة التعليم الثانوي باختلاف الجنس.

3- أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

- الكشف عن العلاقة بين مستوى جودة الحياة الأسرية كما يدركها تلميذ مرحلة التعليم الثانوي ودرجة سلوك المواطنة لديه.

- الكشف عن إمكانية وجود فروق بين درجات جودة الحياة الأسرية لدى التلاميذ تعزى لمتغير الجنس.

- الكشف عن إمكانية وجود فروق بين درجات سلوك المواطنة لدى التلاميذ تعزى لمتغير الجنس.

4- أهمية الدراسة: تستمد الدراسة أهميتها من:

- ضرورة مسايرة التنشئة الاجتماعية للتطور العلمي والتكنولوجي والانفتاح الثقافي بالعمل على إكساب الفرد جملة من المعايير والقيم تساعده على اكتساب سلوك المواطنة السوي.

- ما توصلت إليه الدراسات من أن من الشروط الجوهرية في التربية الأسرية كونها أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية، أن تسعى لمساعدة الطفل على التكيف مع متغيرات العصر وأن يمتلك المقومات التي تضمن بقاءه.

- كونها تساهم في تسليط الضوء على بعض النقائص التي قد تفسر جانبا من ضعف مخرجات مؤسسات التنشئة الاجتماعية خاصة فيما يتعلق بضعف النظام القيمي لدى الشباب وانتشار مظاهر الانحراف في وسط يفترض فيه قيادة المجتمع مستقبلا.

- كما تتمثل أهمية الدراسة في اقتراح أداة لقياس جودة الحياة الأسرية، يمكن أن تساهم في فهم طبيعة العلاقات المتداخلة والمتشعبة بين أفراد الأسرة وأساليب المعاملة الوالدية والجوانب المختلفة للحياة الأسرية بشكل عام.

5- جودة الحياة الأسرية: تعتبر الأسرة أولى المجتمعات التي يتعامل معها الطفل، لذا فقد ركز علماء النفس والاجتماع بشكل خاص على الأسرة كمفهوم نفسي واجتماعي.

5 -1- تعريف الأسرة من المنظور النفسي والاجتماعي:

يقصد بالأسرة تلك الجماعة الأولية التي ينشأ فيها الفرد نتيجة الزواج أو التبني أو صلة الدم، وتكون المسؤولية الأولى لهذه الجماعة هي التنشئة الاجتماعية الأولى للأبناء وتعيش عادة في مسكن واحد.

وتشير الأسرة بالمعنى الضيق إلى وحدة قرابة أساسية، وهي في أصغر أشكالها أسرة نووية (أب وأم وأبناء) وقد تمتد إلى الأجداد والأعمام أو الأخوال وأبناءهما وتكون عندها أسرة ممتدة أو عائلة.

ويشير "نمط الأسرة إلى نوعية من العلاقات بين الوالدين أو بين الوالدين والأطفال تميز أسرة معينة. وأنماط الأسرة تتفاوت تفاوتا كبيرا في الأسلوب الانفعالي وفي اتجاهات الأعضاء بعضهم نحو البعض الآخر، فبعض الأسر تتسم بالدفء الانفعالي والبعض الآخر يتسم بالبرود"(7).

وهذا ما يفسر قوة العلاقة التي تربط بين أفراد بعض الأسر وضعفها أو انعدامها عند البعض الآخر وهو ما ينعكس على التكافل والدعم النفسيين والاجتماعيين بينهم.

وينظر الإرشاد الأسري للأسرة كنسق اجتماعي يتكون من مجموعة من العناصر التي تتفاعل مع بعضها، إذ تربطها علاقات متشابكة فيؤثر كل عنصر في هذا النسق على بقية العناصر ويتأثر بها، لذا فإن فهم هذا النسق لا يتم بفهم كل جزء من هذه الأجزاء بشكل منفصل، بل يجب إدراك كيفية تفاعل هذه الأجزاء مع بعضها البعض.

5-2- القواعد التي تحكم الأسرة:

إن الأسرة كنسق اجتماعي محكوم بقواعد معينة تؤثر وتتحكم في سلوك أعضاء هذا النسق وتجعل نماذج سلوكهم تتحرك في نطاق هذه القواعد كنوع من التطبيع الاجتماعي.

قد تكون هذه القواعد واضحة وقد تكون معروفة لدى أفراد الأسرة بشكل ضمني غير صريح وهي في كلتا الحالتين تتحكم في التفاعل الاجتماعي داخل الأسرة، وتفاعلها مع البيئة الخارجية، ويؤثر مدى مرونة ووضوح هذه القواعد على التوافق النفسي لأفراد الأسرة، كما يؤثر مدى مسايرة هذه القواعد للمعايير والقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع على مدى توافقها الاجتماعي معه.

5-3- توازن الأسرة:

تسعى الأسرة باستمرار إلى المحافظة على توازنها داخليا وخارجيا بهدف الحفاظ على بقائها، وهي لأجل ذلك تقاوم كل ما يحاول أن يهز أو يزعزع هذا التوازن والذي يجب بدوره أن يتصف بالدينامية، فالأسرة بوصفها نسقا اجتماعيا يفترض أن يحدث بها شيء من التغير تبعا لنموها والظروف المحيطة بها والتي لا تتصف أبدا بالثبات التام، فهي مطالبة بإحداث نوع من التغير الصحي للاستمرار.

وتحاول الأسرة جاهدة السيطرة على عملية التغذية العكسية للتحكم في المدخلات التي ترد للأسرة، ففي كثير من الأحيان تقف حدود الأسرة كمانع قوي ضد بعض المعتقدات خاصة تلك التي تعتبرها أفكارا متحررة، ويكون سلوك الرفض من قبل الأسرة معبرا عن هذا الموقف، بحيث تقوم بعملية انتقاء لما يجب أن يدخل إلى الأسرة وما يجب ألا يدخل وبناء على ذلك تتشكل عملية التغذية العكسية وتؤثر هذه المواقف على مدى توازن وتماسك الأسرة ومسايرتها للمجتمع المحيط وبالتالي التوافق النفسي والاجتماعي لأعضائها.

5-4 تعريف جودة الحياة:

لقد تعددت الآراء حول تحديد مفهوم جودة الحياة، إذ عرفها (تايلور وروجان) Taylor et

Rogdan على أنها "رضا الفرد بقدره في الحياة والشعور بالراحة والسعادة"[8].

فيما ذهب (جود، 1994) Good إلى تعريف جودة الحياة على أنها "درجة استمتاع الفرد بإمكانياته المهمة في حياته، أو بمعنى آخر إلى أي حد يرى الفرد حياته جيدة، وأن جودة الحياة تعكس مواقف الحياة المرغوب فيها لدى الفرد في العمل، والصحة، والحياة الأسرية المجتمعية"[9]، أما منظمة الصحة العالمية فقد عرفتها على أنها إدراك الفرد لمركزه في الحياة في سياق الثقافة، ونسق القيم الذي يعيش فيه وفي علاقة ذلك بأهدافه، وتوقعاته، ومستوياته، واهتماماته، وهو مفهوم واسع ويتأثر بطريقة معقدة بصحة الفرد الجسمية، وحالته النفسية ومستوى استقلاله، وعلاقاته الاجتماعية، وعلاقته بالجوانب المهمة في البيئة التي يعيش فيها.

في حين عرف (فرانك، 2000) Frank جودة الحياة بأنها "حسن إمكانية توظيف إمكانيات الإنسان العقلية الإبداعية وإثراء وجدانه ليتسامى بعواطفه ومشاعره وقيمه الإنسانية وتكون المحصلة هي جودة الحياة، وجودة المجتمع ويتم هذا من خلال الأسرة والمدرسة والجامعة وبيئة العمل ومن خلال التركيز على ثلاثة محاور هامة هي التعليم والتثقيف والتدريب" [10].

يتضح مما سبق أن جودة الحياة تتضمن جوانب متعددة كالصحة والقدرة على القيام بالوظائف العقلية والبدنية والاجتماعية، وشعور الفرد بالرضا على مستوى أداءه في مجالات الحياة المختلفة مما يؤدي به إلى بلوغ درجة الاستمتاع الأمر الذي ينعكس بالإيجاب على مستوى إنتاجيته.

وبناء عليه، تتعدد العوامل التي تتحكم في تحديد مقومات جودة الحياة، ويمكن ذكر أهمها كالتالي:

1/ القدرة على التفكير وأخذ القرارات.

2/ القدرة على التحكم.

3/ الصحة الجسمانية والعقلية.

4/ الأحوال المعيشية والعلاقات الاجتماعية.

5/ المعتقدات الدينية والقيم الثقافية والحضارية.

6/ الأوضاع المالية والاقتصادية والتي على أساسها يستطيع الفرد ترتيب أولوياته وما يراه الأهم[11].

ويعتبر (جيمس، 2002) James, K جودة الحياة الأسرية للأطفال والمراهقين أحد مؤشرات جودة الحياة وبعدا أساسيا من أبعادها.

5-5 تعريف جودة الحياة الأسرية:

قدم الدارسون عدة تعاريف لجودة الحياة الأسرية، حيث عرفها (بارك وآخرون، 2003) Park, et al بأنها "الدرجة التي عندها تشبع حاجة أفراد الأسرة إلى الالتقاء أو التجمع، واستمتاع أفراد الأسرة بحياتهم معا، وتوفر الفرص لديهم لانجاز أهدافهم التي تعتبر هامة بالنسبة لهم"، في حين ذهب (ايزاكس وآخرون، 2007) Isaacs إلى تعريفها على أنها "الأداء الجيد للوالدين في الأسرة أو السعادة الأسرية"(12).

يتفق كلا التعريفين على ارتباط جودة الحياة الأسرية بالرضا والشعور بالسعادة لدى أفرادها الذين تربطهم علاقات انفعالية ايجابية تنمو من خلالها شخصياتهم وتتطور، كما تمثل الجماعة الأولية التي تساعدهم على تحقيق أهدافهم التي ترتبط بدورها بتحقيقهم لذواتهم وشعورهم بالتوافق النفسي والاجتماعي.

وتعتبر جودة الحياة الأسرية مفهوما متعدد الأبعاد ظهر في السنوات الأخيرة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان في بداياته منصبا على أسر ذوي الاحتياجات الخاصة.

وقد صنفها (بارك وآخرون، 2002) Park et al في البداية إلى أربعة أبعاد أساسية هي: التفاعل الأسري، المعاملة الوالدية، الحالة الاقتصادية الميسورة للأسرة، السعادة الأسرية، وبعد سنة قام (بارك) Park بإعادة تصنيفها ضمن بعدين رئيسيين وهما: جوانب أو مجالات فردية وتتمثل في السعادة الانفعالية، البيئة المادية، السعادة الاجتماعية، الصحة، الإنتاجية، المقاومة أو أساليب المواجهة. أما البعد الثاني فيشمل الجوانب أو المجالات الأسرية المتمثلة في: التفاعل الأسري، الحياة اليومية، المعاملة الوالدية، الحالة الاقتصادية الميسورة للأسرة(13).

التعريف الإجرائي لجودة الحياة الأسرية: تبنت الدراسة الحالية البعدين الأخيرين في تعريفها الإجرائي لجودة الحياة الأسرية والذي يقاس بالدرجة المتحصل عليها على المقياس المعد للدراسة.

6- سلوك المواطنة:

يعبر لفظ المواطنة على صفة المواطن التي تحدد حقوقه وواجباته الوطنية، ويتعرف المواطن **على هذه الحقوق والواجبات من خلال عملية التعلم وعن طريق ما يطلق عليها بالتربية الوطنية.**

وتدل الدراسات على أن المواطنة تتميز بنوع خاص من ولاء المواطن لوطنه والالتزام بخدمته في السلم والحرب والتعاون مع بقية مواطني هذا الوطن عبر العمل بشكل فردي أو ضمن مؤسسات رسمية كانت أم تطوعية في تحقيق الأهداف التي يصبو إليها الجميع.

6-1- تعريف سلوك المواطنة: تعرف المواطنة في قاموس علم الاجتماع بأنها: مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين فرد طبيعي ومجتمع سياسي (دولة) ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول (المواطن) الولاء ويتولى الطرف الثاني(الدولة) الحماية، وتتحدد هذه العلاقة بين الفرد والدولة عن طريق أنظمة الحكم القائمة(14).

يدل هذا التعريف على أن المواطنة تعبر عن علاقة بين الفرد ودولته تحكمها قوانين هذه الدولة، ويترتب على هذه العلاقة واجبات وحقوق متبادلة بين الطرفين، كما تكفل القوانين مساحة من الحرية للمواطنين يصاحبها جانبا من المسؤولية يضمن عدم تجاوز هذه القوانين فيحفظ بذلك بقاء الطرفين واستمراريتهما.

أما من المنظور النفسي فالمواطنة هي "الشعور بالانتماء والولاء للوطن والقيادة السياسية التي هي مصدر للحاجات الأساسية وحماية الذات من الأخطار المصيرية وبذلك فالمواطنة تشير إلى العلاقة مع الأرض والبلد "(15).

كما يعرف سلوك المواطنة بأنه جهود إضافية وتصرف اختياري وعفوي يتجاوز حدود الوصف **الوظيفي ويتخطى الدور الرسمي، حيث يعمل الفرد طواعية وبدافع ذاتي دون أي حافز خارجي** ويهدف إلى المساهمة في تحقيق أهداف الجماعة ومساعدة بقية أعضاءها والتعاون معهم(16).

6-2- أبعاد سلوك المواطنة: لتحديد أبعاد المواطنة يمكن مقاربتها من خلال ثلاثة أبعاد أساسية على الأقل وهي:

1- البعد الفلسفي والقيمي: على اعتبار المواطنة نتاج إنساني ثقافي فهي بالضرورة تنطلق من **مرجعية فلسفية وقيمية تمنح مفاهيمها الأساسية دلالتها المتعارف عليها كالحرية والعدل والحقوق والواجبات والمصير المشترك...**

2- البعد السياسي والقانوني: كون العلاقة بين المواطن والوطن تحكمها جملة من القواعد **والقوانين والمعايير التنظيمية فهي بالتالي تحدد أنماط العلاقات والسلوكات المنتهجة في المجتمع** للتمتع بحقوق المواطنة الكاملة كالحق في المشاركة في اتخاذ القرارات وتحمل المسؤوليات، والحق **في حرية التعبير والمساواة والعدل وتكافؤ الفرص مقابل الالتزام بالواجبات.**

3- البعد الاجتماعي والثقافي: تحدد المواطنة منظومة التمثلات والسلوكيات والعلاقات والقيم الاجتماعية بحيث تصبح المواطنة كمرجعية معيارية وقيمية واجتماعية وكمنظم لثقافة المجتمع(17).

وذهبت دراسات أخرى إلى تقسيم أبعاد المواطنة إلى خمسة أبعاد تتمثل في:

1- الإيثار: ويعني ذلك السلوك التلقائي الموجه نحو أعضاء الجماعة قادة كانوا أو أتباعا ومساعدتهم في لأداء مهامهم الخاصة ومد يد العون لهم في حل مشكلاتهم الشخصية.

2- الكياسة: وتشير إلى سلوك الفرد الموجه نحو تجنب المشكلات والصعوبات التي تؤثر على الآخرين، وهذا السلوك يساهم بشكل كبير في تقديم الاقتراحات وتمرير المعلومات وتسهيل إجراءات وعمل الجماعة ويتضمن مساعدتهم وتعاونهم بصورة رسمية وغير رسمية.

3- الضمير الحي: ويشير إلى سلوك الفرد غير المباشر نحو الجماعة والآخرين من خلال الالتزام بأداء المهام وزيادة مستويات الأداء عن المستوى المعروف أو المتوقع والانصياع التلقائي إلى سياسات وأنظمة وتعليمات وقواعد الجماعة.

4- الروح الرياضية: وتشير إلى سلوك الفرد نحو استيعاب الأشياء غير المناسبة التي تحصل أو السلوكيات غير المفهومة التي تصدر من قبل بقية الأعضاء دون شكوى أو تذمر، بالإضافة إلى التسامح والصبر والإحساس بمشكلات الآخرين.

5- السلوك الحضاري: ويشير إلى السلوك والنشاطات التي يبديها الفرد من خلال انغماسه ومشاركته في الحياة الاجتماعية للجماعة التي ينتمي إليها، ومتابعة كافة أنشطتها [18].

التعريف الإجرائي لسلوك المواطنة: تبنت الدراسة الحالية الأبعاد الخمس الأخيرة في تعريفها الإجرائي لسلوك المواطنة والذي يقاس بالدرجة المتحصل عليها على مقياس سلوك المواطنة الذي أعده الباحث رياض أبازيد.

6-3- آثار سلوك المواطنة: تنبع أهمية سلوك المواطنة بصفة عامة من كون العصر الذي نعيشه يتصف بكبر حجم التحديات التي تواجه الأفراد والجماعات -منظمات كانت أو دول- على حد سواء؛ فالتغيير السريع الذي طال البيئة الخارجية في شتى المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية أوجد بيئة مضطربة تحتاج إلى مناخ تنظيمي يحكم الأفراد والجماعات بشكل يتماشى مع الضغوط الخارجية المفروضة عليهم، ومن هنا جاءت أهمية العنصر البشري في حل هذه المعادلة الصعبة عبر إكسابه جملة من السلوكات المساهمة في ضمان أمنه واستمراريته والتي من بينها سلوك المواطنة.

لقد كشفت الكثير من البحوث والدراسات السلوكية أن لسلوك المواطنة تأثيرا كبيرا على أداء الأفراد والجماعات والمنظمات، إذ يؤدي سلوك المواطنة إلى تحسين الكفاءة والفعالية من خلال حسن استخدام الموارد والإبداع وعملية التكيف السريع للأفراد مع التطورات الخارجية[19]، كما وجد أن سلوك المواطنة يفضي إلى تحسين سبل الاتصال والتنسيق بين عمل الأفراد والجماعات

ورفع الروح المعنوية وتحقيق الرضا لدى أعضاء الجماعات على اختلاف تنظيماتها وأنشطتها.

7- منهج الدراسة:

أعتمد في هذه الدراسة على المنهج الوصفي، فهو الذي يصف الظاهرة كما هي في الواقع، إذ استخرجنا عينة الدراسة من هذا الواقع ثم قمنا بالمقارنة بين أفرادها.

8- عينة الدراسة:

تكونت العينة من تلاميذ ثانويات: الشهيد علية محمد، عبد الكريم هالي، متقن عبد القادر الياجوري، للموسم الدراسي 2017/2016، بتعداد 300 تلميذا وتلميذة مقسمين إلى 156 تلميذة و144 تلميذا بطريقة طبقية عشوائية من حيث احترام تمثيل العينة لمجتمع المؤسسات ميدان الدراسة.

9- أدوات جمع البيانات:

لغرض الدراسة، تم تكييف مقياس أبازيد لقياس درجات سلوك المواطنة وبناء أداة لقياس مستوى جودة الحياة الأسرية كما يدركها التلاميذ أفراد عينة الدراسة.

- مقياس سلوك المواطنة الذي أعده رياض أبازيد وقننه على البيئة الأردنية، واستخدم صدق المحكمين للتأكد من صدق الأداة أما الثبات فقد استخدم معامل ألفا كرونباخ وتحصل على قيمة قدرت بـ (0.77).

وقد أجريت بعض التعديلات على المقياس تمثلت في حذف بندين ليصبح بطول ثلاثون بندا وتعديل بعض العبارات لتناسب العينة الحالية، إضافة إلى اعتماد ثلاث بدائل للإجابة بدل الاثنين المعتمدين في المقياس الأصلي، ثم أعيد حساب صدقه باستخدام طريقة المقارنة الطرفية وثباته باستخدام التجزئة النصفية وقد بلغ معامل الارتباط بعد تصحيح الطول 0.76.

- مقياس جودة الحياة الأسرية ذو أربعة بدائل ويضم عشرين بندا، تم حساب ثباته باستخدام الفا كرونباخ والتي بلغت قيمتها 0.79 أما صدقه وإضافة إلى استخدام طريقة صدق المحكمين فقد تم التأكد منه إحصائيا من خلال طريقة المقارنة الطرفية.

10- الأساليب الإحصائية للدراسة:

اعتمدت الدراسة معامل الارتباط (بيرسون) لحساب العلاقة بين متغيرين كميين واختبار (ت) لعينتين مستقلتين وغير متساويتين لدراسة الفروق بين المتوسطات، وذلك لكونها الأنسب لمعالجة بيانات الدراسة الكمية والتحقق من فرضياتها.

11- عرض نتائج الدراسة ومناقشتها:

باستعمال أدوات جمع البيانات المنصوص عليها سابقا وبعد معالجتها إحصائيا توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

11-1- عرض ومناقشة نتائج الفرضية العامة:

تنص الفرضية العامة على أنه" لا توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين درجة جودة الحياة الأسرية ودرجة سلوك المواطنة لدى تلميذ مرحلة التعليم الثانوي". للتحقق من صحة هذه الفرضية تم استخدام معامل الارتباط بيرسون للكشف عن العلاقة بين درجات جودة الحياة الأسرية ودرجات سلوك المواطنة لدى تلاميذ مرحلة التعليم الثانوي ببعض ثانويات ولاية الوادي وقد تحصلنا على قيمة معامل الارتباط مقدرة ب(0.65) والتي تدل على وجود ارتباط موجب دال عند مستوى الدلالة 0.01. وعليه فقد تم رفض الفرضية الصفرية وتبني الفرضية البديلة والتي نصها "توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين درجة جودة الحياة الأسرية ودرجة سلوك المواطنة لدى تلميذ مرحلة التعليم الثانوي".

ويمكن تفسير النتيجة بكون الأسرة ومن خلال ما تقدمه للأبناء من رعاية وحب واحتواء، إضافة إلى تدريبهم على التعامل مع مواقف الحياة بكفاءة، تلعب دورا بالغ الأهمية في عمليات نمو السلوك الاجتماعي والقدرة على التواصل؛ إذ يستمد الطفل من والديه العطف والحنان والدفء والأمان وعن طريقهما يتعلم الضبط والشجاعة والثقة فترتفع مستويات جودة الحياة لديه، وبالمقابل يلعب التفاعل الاجتماعي بين أفراد الأسرة دورا هاما في تعلم السلوك الاجتماعي واكتساب القيم[20]. إضافة إلى ذلك فان علاقة الفرد الجيدة بمجتمعه وبيئته الاجتماعية وخاصة الأسرية تتيح له الانضمام إلى جماعات تساهم في تنمية مجتمعه ما يعزز بدوره سلوك المواطنة لديه[21].

كما أن الفرد ومن خلال مسيرته التربوية من الولادة حتى دخوله المدرسة مرورا بكل مراحلها عن طريق تلقيه مجموعة من المناهج الدراسية تتبلور لديه جملة من القيم الدينية والوطنية والقومية تبدو من خلال إحساسه بحبه لمجتمعه ووطنه وارتباطه ببيئته المدرسية و معلميه وزملائه مما يمكنه من الشعور بالانتماء للجماعة ومنه انتمائه للوطن والتي تتجلى بصورة واضحة في انخراط الأفراد في جماعات كالمنظمات الطلابية باختلاف توجهاتها و أفواج الكشافة والجمعيات الشبانية من اجل النهوض بالوطن بالترشيد للحفاظ على البيئة ومحاربة الآفات الاجتماعية والمحافظة على الهوية الوطنية[22].

وتقاربت نتائج الدراسة الحالية مع ما توصل إليه (سيلغمان) Seligman من أن تعليم الأطفال

في عمر العاشرة مهارات التفكير والسلوك المتفائل يخفض معدل الاكتئاب إلى النصف عندما يصلون سن البلوغ، وقدم رفقة زملائه جملة من الأفكار حول الوقاية من الأمراض والاضطرابات النفسية، فالتقدم الذي يمكن أن يحدث لمنع المرض النفسي يأتي من إدراك وتنمية منظومة من القدرات والكفاءات والفضائل لدى الشباب والتي منها: الرؤية المستقبلية، الشعور بالسعادة، التدين، تقبل الذات، العلاقات الايجابية.....[23]، وهو ما يؤكده (هيننق وآخرون)Henning et al في دراستهم التي أجروها على طلبة جامعة (أوكلاند) للطب، حيث أفادت أن العلاقات الاجتماعية تقود وتؤثر على تطور شبكة وظائفهم وأعمالهم[24] مما يدل على أن الخبرات التي يعايشها الفرد داخل الوسط الأسري خاصة خلال سنوات حياته الأولى تنعكس على علاقاته وسلوكاته الاجتماعية في سن البلوغ مما يربط جودة الحياة الأسرية بمدى مقاربة تلك السلوكات للسواء.

11-2- عرض ومناقشة نتائج الفرضية الجزئية الأولى:

والتي تنص على أنه "لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في درجات جودة الحياة الأسرية لدى تلاميذ مرحلة التعليم الثانوي باختلاف الجنس (إناث/ذكور)". وللتحقق من صحة هذه الفرضية تم استخدام اختبار "ت" للكشف

عن الفروق في درجات جودة الحياة الأسرية لأفراد العينة باختلاف جنسهم.

جدول رقم (01) : يوضح دلالة الفروق بين متوسطي درجات جودة الحياة الأسرية لدى أفراد العينة باختلاف الجنس(ذكور/إناث).

المجال	الفئة	العينة "ن"	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	"ت" المحسوبة	"ت" المجدولة	درجة الحرية	مستوى الدلالة المعتمد	القرار
جودة الحياة الأسرية	إناث	156	44,12	6.71	0,70	2,21	298	0,05	غير دالة
	ذكور	144	43,79	6.04					

يتضح من خلال الجدول أعلاه انه لا توجد فروق في درجات جودة الحياة الأسرية لأفراد العينة باختلاف الجنس(إناث/ذكور)." فقد جاءت قيمة "ت" المحسوبة أصغر من "ت" المجدولة وهي غير دالة عند مستوى الدلالة 0.05 وعليه فقد تم قبول الفرضية الصفرية التي تنص على عدم وجود " فروق ذات دلالة إحصائية في درجات جودة الحياة الأسرية لدى تلاميذ مرحلة التعليم الثانوي باختلاف الجنس (إناث/ذكور)"، وتتقارب نتائج الدراسة الحالية مع ما توصل إليه كل من: (هارست، 1991) Hurst، أبو النور(2000)، (زانج ونورفيليتس، 2002) Zhang et Norvilitis، (كريسين وآخرون،2003) Kirsten et al، (سكرابسكي وآخرون، 2005) Skrabski، (ليندفورس

وآخرون، 2006) Lind Fors والتي أكدت جميعها على عدم وجود فروق في جودة الحياة تعزى لمتغير الجنس. في حين تعارضت مع دراستي حبيب (2006) ومنصور (2007) واللتين توصلتا إلى وجود فروق لصالح الإناث عكس دراسة محمود والجمالي (2010) والتي توصلت إلى وجود فروقا في جودة الحياة تعزى لمتغير الجنس ولصالح الذكور[25].

ويمكن تفسير هذا الاختلاف الكبير في النتائج المذكورة أعلاه بأن لجودة الحياة عوامل أساسية تساهم في تشكيلها من بينها: حاجات الفرد كالحب والتقبل وغيرها، التوقعات، المصادر المتاحة للإشباع، النسيج البيئي المرتبط بإشباع هذه الحاجات[26] وهي عوامل تتغير باختلاف عينات الدراسات والمجتمعات التي استخرجت منها مما ينعكس على النتائج المتوصل إليها. خاصة وأن عينة الدراسة الحالية من فئة المراهقين المتمدرسين وقد توصلت دراسة (بيترسون وسليغمان، 2007) Peterson et Seligman التي أجريت على 2439 فردا و445 مراهقا إلى وجود ارتباط دال موجب بين استراتيجيات التفكير الايجابي كالحب والأمل وحب الاستطلاع وكلا من السعادة والرضا عن الحياة[27].

أي أنه يمكن تفسير عدم وجود فروق بين الإناث والذكور لعينة الدراسة الحالية في مستوى إدراكهم لجودة حياتهم الأسرية بإرجاعه لامتلاكهم لاستراتيجيات تفكير ايجابية على اختلاف جنسهم؛ وهذه الاستراتيجيات تساعدهم على تحقيق جودة الحياة، وقد توصلت عفراء العبيدي في دراستها التي أجرتها على 200 طالب وطالبة جامعية إلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين الجنسين في نمط التفكير(ايجابي/سلبي)[28] .

11-3- عرض ومناقشة نتائج الفرضية الجزئية الثانية: والتي تنص على أنه "لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في درجات سلوك المواطنة بين تلاميذ مرحلة التعليم الثانوي باختلاف الجنس (إناث/ذكور)". وللتحقق من صحة هذه الفرضية تم استخدام اختبار "ت" للكشف عن الفروق في درجات سلوك المواطنة لأفراد العينة باختلاف الجنس.

جدول رقم (02) : يوضح دلالة الفروق بين متوسطي درجات سلوك المواطنة لأفراد العينة باختلاف الجنس(إناث/ذكور).

المجال	الفئة	العينة "ن"	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	"ت" المحسوبة	"ت" المجدولة	درجة الحرية	مستوى الدلالة المعتمد	القرار
سلوك المواطنة	إناث	156	77.98	7.65	5.90	2,21	298	0,05	دالة
	ذكور	144	69.36	16.50					

يتضح من خلال الجدول أعلاه انه توجد فروق في درجات سلوك المواطنة لأفراد العينة باختلاف جنسهم (إناث/ذكور)." فقد جاءت قيمة "ت" المحسوبة اكبر من "ت" المجدولة وهي دالة عند مستوى الدلالة 0.05 وعليه فقد تم رفض الفرضية الصفرية و تبني الفرضية البديلة والتي تؤكد وجود فروق لصالح الإناث، وقد يعود ذلك إلى أن طبيعة الأنثى في مجتمعاتنا الشرقية تجعل منها أرضا خصبة لنمو القيم المتعلقة بالوطن وروح الانتماء والمواطنة فالإناث يبدين ولاء اكبر للوطن من خلال المحافظة على النظام واحترام القوانين وأداء الواجب الاجتماعي وروح التعاون والمناقشة وحب الاستطلاع هذا ما أكده الرشيد في دراسته التي أجراها على 300 طالب وطالبة عن القيم السائدة في المجتمع الكويتي حيث توصل إلى أن الإناث أكثر ميلا للقيم المذكورة سلفا من الذكور[29]. فالقيم تلعب دوراً في تشكيل دوافع الفرد نحو الانجاز وتحقيق التنمية التي ينشدها المجتمع، فضلاً عن اعتبارها دعامة أساسية في عملية التحديث. فالقيم لا تؤثر فقط على تحديد الأدوار الاجتماعية لأفراد المجتمع، بل تحدد الكيفية التي تؤدى بها هذه الأدوار، مما يسهم في الحفاظ على البناء الاجتماعي[30].

وقد توصل وطفة 2003 في دراسته التي أجراها على 1003طالبا وطالبة من 06 جامعات كويتية، والتي كانت حول أبعاد وأولويات الانتماء المجتمع الكويتي المعاصر وتحديد نسق الانتماءات الاجتماعية السائدة فيه، إلى أن الإناث تحصلن على درجات أعلى في الانتماء للوطن مقارنة بالذكور الذين أبدو ولاء للقبيلة بدل الوطن[31]. وأكد هلال وآخرون في دراسة حول وجود مظاهر المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية من وجهة نظر المدرسين وأولياء الأمور والطلبة، وجود فروق في مظاهر المواطنة لصالح الإناث وأكدها المدرسون القائمون على تدريسهم وأولياء أمورهم في البيت. فالطالبات يبدين مشاعر الانتماء للوطن أكثر من الطلبة[32].

ـ استنتاج عام و توصيات:

مما سبق يتضح أن جودة الحياة الأسرية من أهم القضايا في حياة الأفراد والمجتمعات على حد سواء، نظرا لكونها تمثل قاعدة أساسية لتفادي الكثير من المشكلات التي يمكن أن تعرقل النمو السليم للفرد مما ينعكس بالتأكيد على المجتمع الذي يعيش فيه ومن خلاله. كما تلعب القيم هاما دوراً في تشكيل دوافع الفرد نحو الانجاز وتحقيق التنمية التي ينشدها المجتمع، فضلاً عن اعتبارها دعامة أساسية في عملية التحديث، لما لها من دور في تحديد وكيفية تأدية الأدوار الاجتماعية للأفراد، مما يسهم في الحفاظ علي البناء الاجتماعي للدول لذا فهي تسعى جاهدة إلى

تدعيم مثل هذه القيم حتى يكتب لها الاستقرار والنماء معاً.

وقد ثبت أن هذه القيم يمكن إكسابها للفرد عبر التدريب ومن خلال الوسط الذي يعيش فيه سواء كان أسرة أو جماعة أو مؤسسة أو مجتمعا عبر نشر روح التعاون والمواطنة من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي المختلفة، وينعكس تأثير هذه القيم في سلوكيات الأفراد، كونها تعتبر الموجه والمحدد لها.

وعلى ضوء نتائج الدراسة الحالية ومراجعة الإرث النظري حول الموضوع توصلنا إلى جملة من المقترحات أهمها:

- ضرورة اعتماد منهج التكامل بين مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية (الأسرة، المدرسة، المسجد، وسائل الإعلام..) في تفعيل دورها الاجتماعي التربوي لتكوين مواطن صالح متشبع بقيم ومبادئ مجتمعه.

- التركيز على أهمية البناء الروحي والقيمي للفرد إلى جانب البناء المعرفي.

- الاهتمام بالإرشاد الأسري كمدخل لجودة حياة أعضائها.

المراجع:

1- مشري، سلاف (2014): جودة الحياة من منظور علم النفس الايجابي (دراسة تحليلية)، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الوادي، العدد 08، الجزائر،ص. 223.

2- المرجع السابق، ص. 216.

3- فهمي، مصطفى(1995): الصحة النفسية،مكتبة الخانجي، ط5، القاهرة، مصر، ص. 280.

4- مصطفى، يامن سهيل (2010): العنف الأسري وعلاقته بالتوافق النفسي لدى المراهقين، رسالة ماجستير منشورة،دمشق، سوريا، ص.133.

5- عبد الوهاب، أماني عبد المقصود، شند، سميرة محمد(2010): جودة الحياة الأسرية وعلاقتها بفاعلية الذات لدى عينة من الأبناء المراهقين، المؤتمر السنوي الخامس عشر، مركز الإرشاد النفسي، جامعة عين شمس، مصر، ص.498.

6- مراد، حنان ومالكي، حنان(2011): أثر الانفتاح الثقافي على مفهوم المواطنة لدى الشباب الجزائري، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص.

7- عبد المعطي، حسن مصطفى (2004): علم النفس الإكلينيكي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ب ط، القاهرة، مصر، ص.13.

8- نعيسة، رغداء علي (2012): جودة الحياة لدى طلبة جامعتي دمشق وتشرين، مجلة جامعة دمشق، المجلد 28، العدد 1، سوريا، ص.150.

9- محمود، هويدة حنفي، الجمالي، فوزية عبد الباقي (2010): فعالية الذات المدركة ومدى تأثيرها على جودة الحياة لدى طلبة الجامعة من المتفوقين والمتعثرين دراسيا، مجلة أمارباك، المجلد الأول، العدد الأول، الأكاديمية

الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا، ص.69.

10- بحرة، كريمة (2014): جودة حياة التلميذ وعلاقتها بالتحصيل الدراسي، رسالة ماجستير منشورة، جامعة وهران، الجزائر، ص. 29.

11- محمدي، فوزية، بوعيشة، آمال(2013): معوقات جودة الحياة الأسرية، الملتقى الوطني الثاني حول الاتصال وجودة الحياة في الأسرة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، ص. 10.

12- عبد الوهاب، شند، مرجع سابق، ص.500.

13- المرجع السابق، ص.503.

14- غيث، عاطف(1995): قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، بيروت، لبنان، ص. 56.

15- مراد، مالكي، مرجع سابق، ص.543.

16- أبازيد، رياض(2010): أثر التمكين النفسي على سلوك المواطنة للعاملين في مؤسسة الضمان الاجتماعي في الأردن، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مجلد 24، عدد 2، الأردن، ص. 502.

17- مراد، مالكي، مرجع سابق، ص. 544.

18- أبازيد، مرجع سابق، ص. 503.

19- العامري، أحمد بن سالم(2003): محددات وآثار سلوك المواطنة التنظيمية في المنظمات، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الاقتصاد والإدارة، مجلد 17، عدد 2، المملكة العربية السعودية، ص ص.71-72.

20- عبد الوهاب، شند، مرجع سابق، ص. 491.

21- الشراح، يعقوب احمد (2010):الوطن تاريخ وولاء،جريدة الري،العدد 11357، دولة الكويت.

22- العامر،عثمان صالح(2005): اثر الانفتاح الثقافي على مفهوم المواطنة لدى الشباب السعودي، المؤتمر السنوي الثالث، الباحة، المملكة العربية السعودية،ص 511.

23- مشري، مرجع سابق، ص ص.232.233.

24- بحرة، مرجع سابق، ص ص.23.24.

25- محمود، الجمالي، مرجع سابق، ص. 99.

26- المشاقبة، محمد أحمد خدام(2015): جودة الحياة كمنبئ لقلق المستقبل لدى طلاب كلية التربية والآداب في جامعة الحدود الشمالية، مجلة جامعة طيبة للعلوم التربوية، المجلد 10، العدد 1، ص.36.

27- سليم، علاء بن أحمد بن حسن(2015): التفكير الايجابي كمتغير وسيط في العلاقة بين السمات الشخصية ومعدل الأخطاء في قيادة السيارات، ماجستير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ص.54.

28- العبيدي، عفراء إبراهيم خليل(2013): التفكير (الايجابي/ السلبي) وعلاقته بالتوافق الدراسي لدى طلبة جامعة بغداد، المجلة العربية لتطوير التفكير، المجلد 4، العدد7 .

29- الرشيد، حمد (2000): بعض العوامل المرتبطة بالقيم التربوية لدى طلاب كلية التربية بجامعة الكويت، دراسة ميدانية، المجلة التربوية جامعة الكويت، العدد56،الكويت، ص ص. 15-63.

30- الربيدي، عبد الرحمن زيد(2004): المواطنة ومفهوم الأمة الإسلامية، وكالة المطبوعات والبحث العلمي، وزارة الشئون الاجتماعية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص730.

31- وطفة، على اسعد (2003):نسق الانتماء الاجتماعي و أولوياته في المجتمع الكويتي المعاصر مقاربة سوسيولوجية في جدول الانتماءات الاجتماعية و اتجاهاتها، مجلة دراسات الخليج و الجزيرة العربية،المجلد 29،العدد

108،كانون الأول، الكويت، ص16.

32- هلال، فتحي وآخرون (2000): تنمية المواطنة لدى تلاميذ مرحلة الثانوية بدولة الكويت، دراسة ميدانية، وزارة التربية، الكويت.

The quality of family life and its relation to the behavior of citizenship among children

(Field study on a sample of secondary school students in WILAYA of EL-OUED)

Asma LECHEHEB*

Abstract:

In order to identify the relationship between the quality of family life as understood by the children and the behavior of citizenship, a field study was conducted on a sample of 300 students in some of secondary schools of Wilaya of El-oued and using the family life quality measure prepared for this study, and the measure of citizenship behavior of Riyadh Abazid.

The results showed a relationship between family life quality scores on the one hand, and the degree of citizenship behavior of the students in the sample of the study, on the other hand. Using test "T" to study differences, it was found that:

- There are no statistically significant differences in the quality of family life due to the gender variable.
- There are statistically significant differences in the degree of citizenship behavior in favor of females.

Finally, a number of proposals were presented:

-The need to adopt the approach of integration between the different institutions of social upbringing (family, school, mosque, media, etc.) in activating their social and educational role to form a good citizen saturated with values and principles of his community.

- Attention to family guidance as an input to the quality of life of its members.

Keywords: quality of family life, behavior of citizenship, secondary school student.

* Faculté des sciences sociales et humaines – Université d'El-oued.

الأطباء والبحث عن المعلومة الطبية بشبكة الإنترنيت
دراسة ميدانية بكلية العلوم الطبية بجامعة الجزائر1

بقلم
أ/ عفاف صحة بليمي(*)

ملخص

سنقوم من خلال هذه الدراسة بالتعرف على سلوك البحث عن المعلومة الطبية بشبكة الإنترنيت، لدى شريحة تتميز بحاجتها الكبيرة لهذه المعلومات، وهم الأطباء. سنحاول الوقوف على ذلك ميدانيا بإجراء دراسة ميدانية على عينة من الأطباء المقيمين بكلية العلوم الطبية بجامعة الجزائر1. والتي من خلالها سيمكننا التعرف على مجموعة من المؤشرات حول سلوك البحث عن المعلومة الطبية في الإنترنيت، كالوقت الذي يقضونه في البحث عن المعلومات باستعمال الشبكة، الصعوبات التي يواجهونها، أسباب تغير سلوك البحث عن المعلومات، استعمال الإنترنيت لبث أعمالهم وعلاقته بتغيير سلوكهم، كمية الأبحاث التي يقومون بها لإجراء أعمالهم العلمية والعملية، ثم التعرف على مميزات البحث التي تتيحها الشبكة، وأخيرا التعرف على تأثير كمية الأبحاث على العادات العلمية للأطباء.

الكلمات المفتاحية: المعلومات الطبية- البحث الوثائقي- الانترنيت- الأطباء المقيمون- جامعة الجزائر1.

مقدمة

عرفت المعلومات الطبية المتوفرة بالوسائط الالكترونية، وطريقة استعمالها ثورة بعد ظهور وانتشار الانترنت. هذه الظاهرة غيرت طريقة العمل وطرق الوصول للمعلومة عن طريق الإبحار والولوج، بدل تصفح الوثائق العلمية المختلفة الأشكال، من كتب، دوريات، تقارير

(*) أستاذ مساعد "أ" بقسم علم المكتبات والتوثيق ـ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ جامعة الجزائر2.
sahaaichaafaf2@yahoo.fr

المؤتمرات، ودراسات علمية، وكذلك ارتياد المكتبات. فبالموازاة مع الصناعات الالكترونية للمعلومات، المؤسسة والمبنية على الإنتاج والاستغلال التجاري لقواعد المعلومات، على المستوى الدولي. نلاحظ تطور نظام جديد للمعلومات، والذي لا يكتسي الطابع الذي يأخذ معالم النظام القديم، بل يكمله. إنها مواقع صحية ظهرت وانتشرت على شبكة الإنترنيت، توفر مجانا لفئة الهيئة الطبية ولفئات المجتمع خدمات جديدة صحية بقيمة مضافة عرفت انتشارًا واستعمالا واسعًا هذه السنوات الأخيرة، من طرف الأطباء، وكذلك لدى العامة.

فمن خلال إجرائنا لهذه الدراسة، سنلقي الضوء على مجموعة من النقاط ذات الصلة بموضوع البحث عن المعلومات الطبية بالانترنت. حيث سنحاول التعرف على سلوك الأطباء تجاه عملية البحث، من خلال الإجابة على مجموعة من التساؤلات، والتي سنطرحها فيما يلي:

- هل تأثر الوقت الذي يقضيه الأطباء في البحث عن المعلومة الطبية باستعمال شبكة الإنترنيت؟
- ما هي الصعوبات التي يواجهونها؟ وكيف تؤثر على الوقت المخصص للبحث عن المعلومة الطبية؟
- هل غير استعمال الإنترنيت طريقة بحث الأطباء عن المعلومة الطبية؟
- ما هي الأسباب التي ساهمت في تغيير سلوك البحث عن المعلومة لدى الأطباء؟
- هل يستعمل الأطباء شبكة الإنترنيت لبث أعمالهم؟ وهل أثر ذلك على تغيير سلوكهم؟
- ما هي المميزات التي تقدمها الشبكة للباحثين من الأطباء؟
- ما هو تأثير كمية الأبحاث التي يجريها الأطباء بشبكة الإنترنيت، على عاداتهم العلمية؟

كما تهدف الدراسة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف من خلال الإجابة على التساؤلات المطروحة، والتي سنحصرها في النقاط التالية:

- التعرف على تأثير استعمال الإنترنيت على الوقت الذي يقضيه الأطباء في البحث عن المعلومة الطبية المناسبة.
- معرفة نوع الصعوبات التي يواجهها الأطباء عند البحث عن المعلومة بالشبكة، وتأثيرها على الوقت الذي يقضونه في البحث.
- التعرف عما إذا تغيرت طريقة بحث الأطباء على المعلومة بعد استعمال الإنترنيت.
- إلقاء الضوء على الأسباب التي ساهمت في تغيير سلوك الأطباء للبحث على المعلومة الطبية.
- التعرف على استعمالات الأطباء للإنترنيت، إذا كانوا يستعملونها لبث أعمالهم، أم أنهم

يستعملونها كمصدر للمعلومات فقط.

– التعرف على المميزات التي تتيحها الشبكة للأطباء، وتلك التي ساهمت في التأثير على سلوك البحث على المعلومات لدى الأطباء.

– معرفة تأثير كمية الأبحاث التي يجريها الأطباء باستعمال الإنترنيت، وتأثيرها على عاداتهم العلمية.

يتبع الباحث لإجراء دراسة علمية، منهجا يناسب طبيعتها. وتختلف المناهج العلمية باختلاف المواضيع والتخصصات. فهي طريقة التفكير والعمل التي يعتمدها الباحث لتنظيم وتحليل وعرض أفكاره، للوصول إلى نتائج وحقائق موضوعية حول ظاهرة معينه أو حول موضوع الدراسة[1]، والمتمثل عندنا في دراسة سلوك البحث عن المعلومة الطبية بشبكة الإنترنيت لدى الأطباء، بإجراء دراسة ميدانية بكلية العلوم الطبية بجامعة الجزائر1.

اعتمدنا في دراستنا على المنهج الوصفي، باعتباره الأنسب لمثل هذا النوع من الدراسات. حيث يصف الموضوع المدروس وصفا منهجيا، معبرا عنه نظريا، كما يوضح خصائص الظاهرة أو الإشكالية المدروسة، ومن ثم يعبر عنها كميا، بعد القيام بالدراسة الميدانية والوصول إلى بيانات كمية فيتضح بذلك مقدار وحجم الموضوع أو الظاهرة المدروسة ودرجة ارتباطها بالظواهر والمتغيرات الأخرى ذات الصلة.[2]

يعتمد المنهج الوصفي عند تطبيقه على عينة ممثلة لمجتمع الدراسة الأصلي تجرى عليها الدراسة لتعمم نتائج الدراسة على بقية أفراد المجتمع الأصلي. وتتكون العينة لدينا من 227 طبيب مقيم من مجموع الأطباء المسجلين بكلية العلوم الطبية بجامعة الجزائر1، الممارسين أعمالهم بمجموعة من المستشفيات الجامعية بالجزائر العاصمة..

كما يستعمل المنهج الوصفي مجموعة من الأدوات لجمع البيانات من عينة الدراسة، قد تكون الملاحظة لتحديد وضبط الظاهرة. المقابلة، والتي أجريناها مع مسؤول المصلحة المكلف بالإقامة لإفادتنا بالإحصائيات الخاصة بالأطباء. واستمارة الاستبانة، التي أفادتنا في جمع البيانات من عينة الدراسة.

1. لمحة عن نشأة الأنترنيت وتطورها:

تأسست شبكة الإنترنيت في أواخر الستينات، في الولايات المتحدة الأمريكية تحت إشراف وكالة مشاريع البحوث المتقدمة (ARPA) التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية. حيث كان يطلق على الشبكة في ذلك الوقت اسم ARPANET. وكانت تربط مجموعة صغيرة من الحواسيب فقط،في

مناطق قليلة من الولايات المتحدة الأمريكية.

في منتصف الثمانينات أنشأت المؤسسة الوطنية للعلوم للولايات المتحدة الأمريكية (USNSF) شبكة خاصة بها، سمتها: المؤسسة الوطنية للعلوم " National Science Fondation"، حيث استخدمت التكنولوجيا المستخدمة في ARPANET. واتسعت لتربط مجموعة من الشبكات الصغرى في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية، ليصل عدد الشبكات المشتركة بها سنة 1985 بـ 100 شبكة. ثم بدأت الشبكة بالاتساع بتمويل من المؤسسة الأم، بعد إنشائها في سنة 1988 للانترنت فائقة السرعة، مما يسمح بربط آلاف الحواسيب التابعة لمؤسسات البحث والجامعات، المعاهد، الدوائر الحكومية والصناعة التي تعنى بالبحث[3]. وذلك باستخدام بروتوكولات خاصة بالشبكة (TCP/IP). ثمّ ما لبثت الإنترنت أن توسعت، حتى امتدت إلى مستوى عالمي، لتشترك بها جامعات أوروبية ثم آسوية. لتصبح وسيلة جدّ مهمة لنقل المعلومات عن طريق خدماتها كالبريد الالكتروني بين المؤسسات المشتركة بها.

في بداية التسعينات انتشرت الإنترنت انتشارا واسعا لتغطي أغلبية مناطق العالم. وانضمت إليها آلاف الشبكات المختلفة، بفضل تطبيق البروتوكولات الخاصة بالسيطرة وضمان أمن المعلومات بالشبكة (TCP/IP). كما شهدت اشتراك شبكات أخرى مزودة بالصوت والصورة، وأدوات الإعلام المتعددة (Multimedia) مثل شبكة الويب (Web).[4]

لم تعد الإنترنت الآن حاليا وسيلة لإرسال البريد الالكتروني، أو نقل وتبادل البيانات فقط، بل أصبحت عبارة عن فضاء واسع مليء بمختلف الأفكار والنشاطات لمختلف الأفراد باختلاف شرائحهم، ومستوياتهم العلمية والفكرية.

2. تعريف الإنترنت:

تناولت الأدبيات المتخصصة تعاريف مختلفة وعديدة لشبكة الإنترنت، واختلفت التعريفات باختلاف المحاولات التي تستخدم فيها، أو تنوع الخدمات، والوظائف التي تؤديها. وباختلاف الأشخاص والمختصين الذين يعرفونها.[5]

وفيما يلي سنذكر بعض التعاريف الواردة للإنترنت:

الإنترنت هي تعريب لعبارة "Internet" وهو الاسم المختصر لـ: (Inter network). بمعنى "الشبكة الدولية للمعلومات". كما تطلق عليها عدة تسميات أخرى مثل: الشبكة، الشبكة العالمية أو شبكة العنكبوت.[6]

ويرى المختصون صعوبة إيجاد أو وضع تعريف واضح ومحدد للإنترنت نظرا لاختلاف مجالات اختصاص المعرفين لها. لكنهم متفقون على الجانب المادي لها: أي أنها شبكة عالمية للملايين من الحواسيب المترابطة فيما بينها.[7]

كما ورد تعريف للانترنت في معجم مصطلحات المكتبة "Glossary of library terms" على أنها "شبكة الشبكات المتكونة من ملايين الحواسيب المنتشرة عبر العالم".[8]

كما عرفها البعض بأنها: وعاء معلوماتي عالمي تصب فيه روافد العالم بكامله، دون حدود لسعته. وهي في الوقت نفسه منهل متدفق للمعلومات يهدف لتلبية متطلبات العالم كله، دون أن ينضب.[9]

والواقع أن الانترنت ليست شبكة واحدة قائمة بذاتها. وإنما هي شبكة الشبكات التي تتبادل المعلومات فيما بينها، دون قيد أو رقيب.[10]

وهي تضم عددًا كبيرًا من شبكات المعلومات المحسوبة المحلية (LAN)، والواسعة (WAN)، الموزعة على مختلف المستويات: وطنية، إقليمية، ودولية حيث تسمح لأي حاسوب مزود بمعدات و برمجيات مناسبة، بالاتصال مع أي حاسوب في العالم أيًّا كان موقعه و طريقة ارتباطه، وتبادل المعلومات معه مهما كان حجم البيانات و نوعها: صور، فيديوهات، أصوات، خرائط... وتعتبر إحدى الوسائط الفعالة في الوصول للمعلومات وتقديمها أينما وجد طالبها وبسرعة كبيرة، دون حركة أو تنقل وذلك باستعمال محركات البحث التي توفرها، ومستفيدا من الأدوات والوسائل التقنية والأجهزة والبرامج الموصولة بها.[11]

يعتبر التعريف الأخير، تعريفًا موسعًا ودقيقًا للشّبكة، يوضح كل العناصر والنقاط التي يجب معرفتها حول الانترنت بإيجاز، وهناك عدد كبير جدا من التعاريف، لكن سنكتفي بما ذكر سابقا.

3. أدوات البحث عن المعلومات الطبية في الإنترنيت:

توفر شبكة الإنترنيت مجموعة من وسائل وأدوات البحث عن المعلومة الطبية، سنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

1.3. لغة MESH (MEdical Subject Heading):

هي قائمة مصطلحات بالانجليزية في الطب، وضع في أوائل الستينات من طرف المكتبة الوطنية الأمريكية للطب (NLM) (National Library of Medicine)، يضم 19.768 مصطلحًا، تستعمله أغلب الفهارس والمواقع الطبية في تكشيف وثائقها على الانترنت.

إن مصطلح "MESH" هو المختصرات الأولى لـ: MEdical Subject Headings، (قائمة

رؤوس الموضوعات الطبية)، والتي يمكن اعتبارها باللغة التوثيقية رؤوس الموضوعات أو المداخل الموضوعية، وباللغة الطبيعية يمكن اعتبارها واصفة طبية.[12]

فمكنز MESH مكون من مجموعة واصفات من بنك المعلومات البيبليوغرافية لمدلاين (Medline). كما تستعمل هذا المكنز العديد من وسائل وأدوات البحث الطبية لتكشيف وثائقها. فلغة MESH بالنسبة للأطباء هي أداة جد هامة لأنها تمكنهم من الوصول إلى المعلومات أو الوثائق بطريقة دقيقة، كفاية على أنه أداة سهلة وبسيطة الاستعمال، موازاتا مع الكم الهائل من المعلومات المتاحة في الشبكة.[13]

2.3. محركات البحث الطبية المتخصصة:

محركات البحث هي عبارة عن برامج مصممة للبحث على بيانات أو معلومات تحتوي على كلمة أو مصطلح خاص محدد مسبقا من طرف المستعمل[14]. كمثال:

– MedHunt (مد هنت): هو محرك بحث الجمعية السويسرية (HON) (Health On Net) وهو يحصي صفحات طبية مصنفة في 03 أصناف مشار إليها في أعلى الصفحة نتائج البحث[15].

- النوع الأول: يظهر نتائج البحث التي تنطبق مع مبادئ HON، وهذا يظهر بجانب النتيجة.

- النوع الثاني: يظهر نتائج البحث التي عولجت من طرف العاملين بالتكشيف التابعين للجمعية HON يظهرون بالأحمر.

- النوع الثالث: يظهر النتائج التي كشفت أوتوماتكيا من طرف مارفين (Marwin)، وهو البرنامج المكشف لل Med hunt .http://www.hon.ch/.

– MMT Médecins Maîtres Toile: هذا المحرك تابع لجمعية الأطباء الناطقين بالفرنسية مجموعة الصفحات لمواقعها مكشفة من طرف محرك مشترك، فال 20000 صفحة المكشفة من طرف هذا المحرك هي غالبا واضحة ومنطقية. http://www.mmt-fr.com/

– DDRT (Diseases, Disorders and Related Topics) : وهو فهرس تابع لمعهد كارولينسكا (Karolinska)، بستوكهولم. http://www.mic.ki.se/diseases/index.html.

– OMNI (Organised Medical Networked Information): وهو المحرك المأوي من طرف جامعة نوتنغاهم (Nottingham). http://www.omni.ac.uk/

– MEDLINEplus: قائمة من 350 موضوعا و33 تخصصا.. http://www.nlm.nih.gov/medlineplus

– Trip Database: تضمن الوصول إلى قاعدة بيانات لمعلومات موجودة بأكثر من 75 موقع

للطب المبني على الأدلة (EBM).

3.3. محركات البحث العملاقة في الطب:

الفرق بين محركات البحث ومحركات البحث العملاقة، هي البرمجيات التي تطلق عملية البحث في عدة محركات بحث أخرى في مرة واحدة انطلاقا من طلب بحث واحد[16]. ويوجد نوعان من محركات البحث العملاقة.

– النوع الأول: يدمج ويجمع النتائج المتحصل عليها مع حذف التكرار في النتائج، ويصف النتائج حسب ترتيب منطقي، كالترتيب حسب نوع النتيجة، أو الوعاء الموجود فيه المعلومات المبحوث عنها.

– النوع الثاني: يعطي النتائج المتوصل إليها في قوائم منفصلة حسب نتائج بحث كل محرك[17]. فالبحث يكون أسرع من لو أننا أجرينا نفس عملية البحث انطلاقا من محركات مختلفة، بطريقة منفصلة. لكن وقت الإجابة يكون أطول بعض الشيء، لان الطلب موجه لعدة محركات. تكون هذه المحركات مفيدة في حالة البحث البسيط، لكن إذا لم تحذف النتائج المكررة سيكون هناك الكثير من التكرار. ويعد موقع كوبرنيك Copernic(www.Copernic.com/) من الأوائل الذين وفروا عميلا مجانيا على الموقع للبحث مع أكثر من 10 محركات بحث أخرى من أمثلتها:

– Sumsearch: أداة بحث مستقبلة من طرف جامعة تكساس (Texas)، موجهة للطب المبني على الأدلة (EBM)، يقوم بالأبحاث في عدة قواعد بيانات منها: le manuel Merck الذي يعد من أهم قواعد البيانات المتخصصة في الطب المبني على الأدلة. وقاعدة Database of Abstracts of Reviews of effectiveness وNational Guideline Clearinghouse. وكذلك Medline . كلها قواعد بيانات يتم إجراء أبحاث آنية فيها من طرف محرك البحث SumSearch. http://sumsearch.uthscsa.edu/

– Gateway: يقوم هذا المحرك بطلبات بحث مشتركة في عدة قواعد معلومات للمكتبة الوطنية للطب (NLM) بالو م أ. http://gateway.nlm.nih.gov/gw/cmd

4.3. الفهارس والأدلة الطبية:

"إن الأدلة أو الفهارس الناتجة عن معالجة أو تجربة بشرية مباشرة للمعلومات الموجودة على الانترنت، لم تعد متواجدة منذ فترة كبيرة، نتيجة الكم الهائل للمعلومات بالشبكة. فالأدلة أو الفهارس تظهر فقط المعلومات الخاصة بصفحات الاستقبال للمواقع، ولا تبحث في جميع

صفحاتها المترابطة ببعضها انطلاقا من صفحة الاستقبال"[18].

أما تنظيمها فهو خاضع لتصنيف معرفي وهرمي، حيث تظهر النتائج في شكل قوائم مرتبة من الأعم إلى الأخص، ليصل إلى واصفات لصفحات الويب أو المعلومات أو أي عنصر موجود بصفحة، والفهرس العام الأكثر شيوعا هو موقع ياهو (Yahoo). Yet Another Hierarchical (encore un oracle hiérarchique /Oracle)

– CISMeF: هو دليل المواقع الطبية للمستشفى الجامعي لـ روان (Rouen) بفرنسا، وهو يسمح بالوصول إلى معلومات ذات جودة، لأن المواقع التي يستقي منها معلوماته مختارة مسبقا والذي يكشف فقط مواقع مؤسساتية.

-Doc'CISMeF : وهو قاعدة بيانات تستعمل واصفات مكنز أو لغة MESH للـ NLM المكتبة الوطنية للطب. http://www.doccismef.chu-rouen.fr/

– Atoute.org: وهو موقع يأوي صفحات للمساعدة على البحث على المعلومة الطبية. http://www.atoute.org/

5.3. البوابات:

هي فضاء افتراضي للتواصل، له إقبال كبير جدا من طرف المستفيدين أو من طرف هدف معين المستندة على محتوى خدمات، أدوات البحث التي يوفرها هذا الفضاء والتي تتيح لهم بالوصول إلى أماكن تواجد المصادر التي يحتاجون إليها بسرعة كبيرة أو تحديدها.[19]

1– أمثلة على بوابات وأدوات البحث في الطب[20]:

– Health on the Net: وهي بوابة للجمعية السويسرية (HON) (Health On Net). http://www.hon.ch/

– Health A to Z: تقدم هذه البوابة أدوات تفاعلية، مواقع ومراكز معلومات على الشبكة. http://www.HealthAtoZ.com/

– Healthfinder: هو خدمة للمركز الوطني للمعلومات الطبية The National Health Information Center التابع لـ: US Department of Health and Human Services، هذه البوابة تقدم معلومات ومستجدات، مقالات، معاجم طبية، وأدلة وغيرها من مصادر المعلومات. http://www.healthfinder.gov

– MedExplorer: تقدم البوابة رابطات لأفضل المعلومات في الصحة الموجودة بالشبكة. http://www.medexplorer.com/

– Navigamed: فهرس لـ 3000 رابطة مصنفة حسب التخصص. http://www.navigamed.com

- Medhunt: وهو محرك بحث لـ (HON) (Helth on the Net).

2- أمثلة على بوابات وأدوات البحث في جراحة الأسنان[21]:

- American Association of Endodontists (AAE): http://www.aae.org

- American Association of Orthodontists: http://www.aaortho.org/

- ANALYSE INFORMATIQUE ET TRAITEMENTS ODF: http://www.gpsvo.com

- Bibliodent: http://www.bibliodent.com

- Dental clic: http://www.dental-clic.com

- FORMATION DENTAIRE APPLIQUEE: http://www.fda-france.com

- The center for dental laser education: http://www.lasered.org

- Virtual journal of orthodontics: http://vjco.it

- Webdent: http://www.webdent.com

3- أمثلة على بوابات وأدوات البحث في الصيدلة[22]:

- BIAM: قاعدة معلومات مؤتمتة حول الأدوية. http://www.biam2.org.

- Cours de Pharmacologie: التابع لجامعة الطب برين (Rennes).
http://www.med.univ-rennes1.fr/galesne/

- DCI-Médicaments Génériques: يقدم قائمة من الأدوية البديلة لكل دواء أصلي.
http://d.c.i.free.fr/

- Guide des Equivalents Thérapeutiques: يقدم قائمة من أسماء الأدوية وبدائلها حسب الاسم التجاري، الاسم العلمي، حسب الدرجة الدوائية، وحسب المخبر.
http//www.ameli.fr/23/get.html.

- Internet Drug Index: بالإضافة إلى كونه كشافا للأدوية، فهو يوفر قائمة لـ 300 دواء الأكثر بيعا في الو م أ، مكوناتها كيميائية المناسبة وأثارها الجانبية. http://rxlist.com/

- MedlinePlus/Drug Information: يقدم وصفا دقيقا لكل الأدوية مرتبة ألف بائيا.
http://www.nlm.nih.gov/medlineplus/druginformation.html

- Prescrire (La Revue): ظهر سنة 1980، وهو مجلة للتكوين موجهة للمختصين في مجال الصحة تنشر من طرف الجمعية (AMP)، l'Association Mieux Prescrire، أما الموقع فيقدم ملخصات لمقالات. http://www.prescrire.org/.

- Répertoire commenté des médicaments: منجز من طرف المركز البلجيكي

للمعلومات الصيدلانية Centre Belge d'Information Pharmacothérapeutoique (CBIP)هذا الموقع يقدم معلومات لها علاقة بالأدوية مخصصة للمختصين في مجال الصحة.
http://www.cbip.be/nindex/ggr/main.cfm

4- أمثلة على بوابات وأدوات البحث في البيولوجيا:

- BioNet Book: فهرس لصفحات الويب في مجال البيولوجيا
http://www.pasteur.fr/recherche/BNB/bnb-fr.html
- BioMedNet: بوابة العلوم الطبيعية والحياة مع توفر المقالات بالنص الكامل.
http://www.bmn.com
- Bioresearch: فهرس للمصادر الموجودة بالشبكة مصادق عليها، تغطي مجال البيولوجيا والعلوم البيوطبية، يستعمل لغة MESH . http://bioresearch.ac.uk/
- Google biologie: http://directory.google.com/Top/Science/Biology/

4. الأطباء المقيمون:

يعرف القانون الجزائري في المادة الثانية من الأحكام العامة للقانون الأساسي للأطباء والصيادلة وجراحي الأسنان المقيمين في العلوم الطبية، الأطباء المقيمين بأنهم: ممارسون يتابعون التكوين ما بعد التدرج في العلوم الطبية، ومسجلون في دورة الدراسات الطبية المتخصصة التي تسمى إقامة. وبذلك فالطبيب المسجل في الإقامة يسمى: الطبيب المقيم.[23]

في إطار متابعة تكوينهم، يعين المقيمون في الهياكل الاستشفائية الجامعية وهياكل التكوين المعتمدة لدى اللجان البيداغوجية، بمقرر مشترك بين عميد الكلية ومسؤول المؤسسة الاستشفائية التي يعينون فيها. حيث ينتمي المقيمون إلى كلية الطب التي يدرسون فيها، وتسيرهم المؤسسة الإستشفائية التي يعينون فيها، فيما يخص نشاطات العلاج والرواتب والعطل. وإلى مؤسسة التكوين وفيما يخص النشاطات البيداغوجية وكل الأعمال الأخرى ذات الصلة بتكوينهم[24]. كما حددت شروط الالتحاق بالإقامة في الفصل الثاني.[25]

- حقوق وواجبات الأطباء المقيمين:

خصص القانون الأساسي للأطباء والصيادلة وجرحى الأسنان المقيمين في العلوم الطبية فصله الثالث، لحقوق وواجبات الأطباء المقيمين، التي سنذكر منها:

- العلاج والتشخيص والوقاية.
- المداومة الاستعجالية، ومداومة المصلحة.
- البحث، وتدريس الأعمال التطبيقية، أو الموجهة لطلبة العلوم الطبية.

– تكوين المستخدمين شبه الطبيين.

– أن يتكونوا في البيداغوجيا والبحث من خلال المشاركة في الملتقيات والمحاضرات وكل نشاط آخر تحدده مؤسسات التكوين المسجلين فيها.

– التزامهم بأوقات العمل، وخضوعهم للنظام الداخلي للمؤسسة التي يعينون فيها.

– استفادتهم من تكوين نظري وتطبيقي ضروري لممارسة وظائفهم.

– استفادتهم من العطل السنوية، والمختلفة الأسباب، وشروط الاستفادة منها. وكذلك **بالنسبة للانتداب داخل أو خارج الوطن.**[26]

خصص الفصل الرابع للأحكام التأديبية المصنفة إلى ثلاث درجات حسب الخطورة. أما **الفصل الخامس فخصص للراتب والحماية الاجتماعية، حيث حددت رواتب الأطباء المقيمين والتعويضات وكذلك خدمات الضمان الاجتماعي.**[27]

جاءت الأحكام الختامية في الفصل السادس، حيث وضحت وضع الأطباء المقيمين بعد التخرج. إما بصفة ممارس متخصص مساعد في الصحة العمومية، أو بصفة أستاذ مساعد **استشفائي جامعي باحث حسب الشروط القانونية الأساسية المنصوص عليها للتوظيف في رتب** هذين السلكين.[28]

5. الأطباء والبحث عن المعلومة الطبية بالإنترنيت بكلية العلوم الطبية بجامعة الجزائر1:

من خلال إجرائنا للدراسة الميدانية، على عينة من الأطباء المقيمين بكلية العلوم الطبية بجامعة الجزائر1، والمزاولين إقامتهم بمجموعة من المستشفيات الجامعية بالجزائر العاصمة.نسعى إلى **التعرف على مجموعة من المؤشرات حول سلوك الأطباء عند البحث عن المعلومة الطبية بشبكة الإنترنيت، كالوقت الذي يقضونه في البحث عن المعلومات الطبية باستعمال الشبكة، وماهية** الصعوبات التي يواجهونها. الأسباب التي قد تؤدي إلى تغير سلوكهم البحثي عن المعلومات. **واستعمالهم الإنترنيت لبث أعمالهم وعلاقته بتغيير سلوكهم. ثم التعرف على كمية الأبحاث التي** يجرونها للقيام بأعمالهم العلمية والعملية، ثم التعرف على المميزات التي يتيحها استخدام الشبكة **في البحث، وأخيرا التعرف على تأثير كمية الأبحاث على العادات العلمية للأطباء.**

1.5. الوقت الذي يقضيه الأطباء في البحث عن المعلومات الطبية باستعمال الإنترنيت:

الإجابات	التكرارات	النسبة%
وقت طويل	27	%11.9
وقت معقول	03	%01.3

وقت قصير	197	%86.8
المجموع	227	%100

الجدول رقم (01): الوقت الذي يقضيه الأطباء في البحث عن المعلومات الطبية باستعمال الإنترنيت.

يعتبر عامل الوقت عنصرا مهما جدا عندما يتعلق الأمر بالبحث والحصول على المعلومات العلمية المناسبة، خاصة لدى الأطباء، لما يرتبط الأمر بالبحث العلمي لدى البعض، أو بمعلومات مهمة لها علاقة بصحة مرضاهم لدى البعض الآخر. وسنحاول من خلال النتائج الظاهرة في هذا الجدول التعرف على الوقت الذي يقضيه الأطباء للوصول إلى المعلومات التي يرونها مناسبة لحاجاتهم العلمية والعملية.

يقضي أغلبية أفراد العينة بنسبة 86.8% وقتا أقل في البحث عن المعلومات المناسبة عند استعمال الإنترنيت في البحث عن المعلومات الطبية. كما نجد فئة قدرت بـ 11.9%، أجابت بأن الوقت الذي يقضونه في الوصول إلى المعلومات المناسبة أصبح أطول، وهذا يعني أنهم يلقون صعوبات في استعمال الإنترنيت للوصول إلى ما يناسبهم من معلومات سواء كانت الصعوبات ذات طابع تقني من ناحية التعامل مع الأجهزة، ومشاكل الربط. أو أنهم غير متحكمين بشكل جيد في تقنيات البحث الوثائقي عن المعلومات لاستغلال الشبكة والمعلومات التي تتيحها بشكل فعال. كما نجد 03 أفراد، أي ما نسبته 01.3% أجابوا بأن الوقت المخصص للبحث عن المعلومات بقي نفسه.

2.5. الصعوبات التي يواجهها الأطباء عند استعمال الإنترنيت وتأثيرها على الوقت المخصص للبحث:

		نوع الصعوبات							
								المجموع	
		التكرارات	%	التكرارات	%	التكرارات	%	التكرارات	%
		117	%41.5	114	%40.4	51	%18.1	282	%100
وقت المخصص للبحث	وقت أطول	09	%07.7	02	%01.7	21	%41.2	32	%11.3
	نفس الوقت	03	%02.6	01	%0.8	00	%00	04	%01.4
	وقت أقصر	105	%89.7	111	%97.3	30	%58.8	246	%87.2
	المجموع	117	%69.4	114	%20.7	51	%09.8	282	%100

الجدول رقم (02): الصعوبات التي يواجهها الأطباء عند استعمال الإنترنيت وتأثيرها على الوقت المخصص للبحث.

سنحاول من خلال هذا الجدول، ربط العلاقة بين الصعوبات المختلفة، بالوقت المخصص

للبحث عن المعلومات. وخاصة التعرف على سبب قضاء وقت أطول في البحث عن المعلومات باستعمال الوسائط الحديثة للمعلومات.

والملاحظ من النتائج الظاهرة في الجدول بعد مقاطعة متغير الوقت المخصص للبحث، وأنواع الصعوبات. هو أن من يقضون وقتا أطول في البحث عن المعلومات سببه ليس بالضرورة صعوبات تقنية كما يمكن أن نتوقع، كونهم غير متمكنين من اجتيازها، فهناك نسبة 41.2% منهم كانت الصعوبات التي يواجهونها ذات طابع مادي. وذلك راجع لقلة من لديه الإمكانيات للتسديد عن بعد.

فيما يخص الصعوبات التقنية، فهناك 07.7% ممن يقضون وقتا أطول للوصول إلى المعلومات يعود سببه إلى الصعوبات التقنية، أي أنهم يواجهون صعوبات مع استعمال الوسائط الحديثة، ويصعب عليهم تخطيها. لذا يطول الوقت المخصص للبحث عن المعلومة المناسبة. ونسبة قليلة فقط قدرت بـ 01.7% ترجع طول الوقت إلى الصعوبات اللغوية. وذلك لأن الأطباء المقيمين في هذا المستوى قادرون على التحكم على الأقل في اللغة الفرنسية، وجزء كبير منهم متحكم أيضا في الإنجليزية، لذلك ظهرت النسبة صغيرة.

أما إذا لاحظنا من يواجهون صعوبات تقنية بشكل عام. فنلاحظ أن أغلبيتهم يقضون وقتا أقل في البحث عن المعلومات باستعمال الوسائط الحديثة للمعلومات، رغم الصعوبات التي يواجهونها، هذا يعني أنهم قادرون على تخطيها، ولا يشكل من لديه صعوبات تقنية، ويقضي وقتا أطول في الوصول إلى المعلومات سوى نسبة 07.7% فقط. نستنتج أن الصعوبات التقنية التي يواجهها الأطباء المقيمون عند استعمال الوسائط الحديثة للمعلومات، ليست بالضرورة سبب طول الوقت المخصص للبحث والوصول للمعلومات المناسبة لأعمالهم وأبحاثهم العلمية والعملية.

3.5. أسباب تغيير استعمال الأنترنيت لسلوك البحث للأطباء:

		تغير استعمال الوسائط الحديثة للسلوك البحثي					
		لا		نعم		المجموع	
		التكرارات	%	التكرارات	%	التكرارات	%
		73	%32.2	154	%67.8	227	%100
أسباب تغيير استعمال الإنترنيت للسلوك البحثي	لوصول أسرع للمعلومات	01	%10	90	%28	91	%27.4
	الوصول لمعلومات أوضح	08	%80	118	%36.6	126	%38
	استقلالية أكثر في البحث	01	%10	55	%17.1	56	%16.9
	اتصال أكثر	00	%00	59	%18.3	59	%17.8
	المجموع	10	%100	322	%100	332	%100

الجدول رقم (03): أسباب تغيير استعمال الإنترنيت لسلوك البحث للأطباء.

من خلال هذا الجدول سنحاول التعرف على تأثير الإنترنيت على طريقة البحث عن المعلومات أو السلوك المنتهج من طرف الأطباء عند البحث عن المعلومات باستعمال الوسائط الحديثة للمعلومات.

والملاحظ من خلال النتائج أعلاه أن 67.8% من عينة الأطباء يرون بأن سلوكهم تغير باستعمال الإنترنيت بينما لم تتأثر 32.2% المتبقية من العينة، والسبب يعود لدى من تغيرت سلوكاتهم البحثية بالدرجة الأولى إلى وضوح المعلومات المتوصل إليها ما توضحه نسبة 36.6% من الإجابات. وبالدرجة الثانية نلاحظ أن سرعة الوصول إلى مصادر المعلومات هو السبب الثاني في تغيير السلوك البحثي لدى الأطباء عند استعمالهم للانترنيت، ما تمثله نسبة 28% من إجابات الأطباء.

يليه إمكانية الاتصال أكثر التي يتيحها استعمال الإنترنيت، حيث يفضلها الأطباء لأنها تمكنهم من التواصل بشكل أسهل مع زملائهم، وكذا التظاهرات العلمية، ما بينته نسبة 18.3% من الإجابات. وفي الأخير نجد أنها تمكنهم من الاستقلالية في إجراء الأبحاث، وهو سبب أثر على سلوك الأطباء عند البحث عن المعلومة بحيث يفضلونها لأنهم يستغنون عن ارتياد المكتبة والاحتكاك بالأشخاص، أي الوصول للمعلومات بدون وساطة، والممثلين بنسبة 17.1% من الإجابات.

4.5. استعمال الإنترنيت لبث النشاطات العلمية وعلاقته بتغيير السلوك البحثي للأطباء:

الجدول رقم (04): استعمال الإنترنيت لبث النشاطات العلمية وعلاقته بتغيير السلوك البحثي للأطباء.

		تغير استعمال الانترنت للسلوك البحثي					
		لا		نعم		المجموع	
		التكرارات	%	التكرارات	%	التكرارات	%
		73	%32.2	154	%67.8	227	%100
استعمال الانترنت لبث النتائج العلمية	لا	60	%82.2	118	%76.6	178	%78.4
	نعم	13	%17.8	36	%23.4	49	%21.6
	المجموع	73	%100	154	%100	212	%100

غيرت الإنترنيت في سلوك الأطباء بحيث يعملون على بث أعمالهم وأبحاثهم، حتى البسيط منها على الشبكة. فعملية بث نتائج النشاطات العلمية للأطباء المقيمين، لم تتأثر بتغيير الإنترنيت للسلوكات البحثية للأطباء من خلال استعمالها للبحث عن المعلومات. أي أن العملية ليست عكسية.

فالملاحظ هو أنه سواء لدى من أجاب بأن الانترنت غيرت سلوكاته البحثية، أو لدى من لم

تتغير سلوكاته باستعمال الإنترنت فعملية بث نتائج النشاطات العلمية والعملية للأطباء لم تتأثر. حيث أن الأغلبية لدى الفئتين لا يستعملون الإنترنت لبث أعمالهم أو نشاطاتهم العلمية والعملية، وفئة قليلة تراوحت بين 17.8% لدى من لم يغير استعمال الإنترنيت سلوكاتهم البحثية، و23.4% لدى من غيرت الانترنيت سلوكاته هم من يستعملونها لبث أعمالهم. هذا يعني أن اللجوء لبث نتائج الأعمال، أو النشاطات العلمية أو العملية للأطباء على الشبكة، تعود لشخص الطبيب في حد ذاته وأن ديناميكية الطبيب الشخصية هي التي تدفعه لبث أعماله، ونشاطاته عبر الشبكة ، وكذلك طموحاته العملية وما يصبو إليه من تطور في مهنته. ولا يعود التغيير إلى تأثير استعمال الإنترنيت أو الوسائط الحديثة للمعلومات بصفة عامة.

5.5. تأثير كمية الأبحاث باستعمال الإنترنيت على مميزات الأعمال العلمية للأطباء:

		كمية أبحاث الأطباء باستعمال الإنترنيت							
		أكثر		أقل		مساوي		المجموع	
		التكرارات	%	التكرارات	%	التكرارات	%	التكرارات	%
		155	%68.3	48	%21.1	27	%10.6	227	%100
مميزات الأعمال بعد استعمال الإنترنيت	أكثر سرعة	59	%14.9	21	%17.8	06	%10.7	86	%15.1
	أكثر تنوع	133	%33.7	40	%33.9	20	%35.7	193	%33.9
	أكثر حداثة	147	%37.2	42	%35.6	23	%40.1	212	%37.3
	موسعة وشاملة	56	%14.2	15	%12.7	07	%12.5	78	%13.7
	المجموع	395	%69.4	118	%20.7	56	%09.8	569	%100

الجدول رقم (05): تأثير كمية الأبحاث باستعمال الإنترنيت على مميزات الأعمال العلمية للأطباء.

سنحاول من خلال هذا الجدول التعرف على العلاقة بين كمية الأبحاث التي يجريها الأطباء المقيمون، باستعمال الإنترنيت، وبين ما يمكن أن يميز أعمالهم بعد الاستعمال قياسا ببعض المعايير الموضوعة مسبقا.

والملاحظ هو تعدد الإجابات، حيث أجاب أغلبية الأفراد على معيارين أو أكثر من المعايير المقترحة. والمعيار الذي حظي بأكثر عدد من الإجابات هو الحداثة. وكان رأي 212 من إجابات الأطباء المقيمين عن أبحاثهم، وكيف أصبحت بعد استعمالهم للانترنت والوسائط الحديثة للمعلومات من هذه الفئة. هناك ما نسبته 69.3% منهم أصبحت كمية أبحاثهم أكثر من قبل، ويرون أن الحداثة أصبحت تميز أعمالهم. و19.8% أصبحت كمية أبحاثهم أقل. وبقيت كمية الأبحاث نفسها حتى مع استعمال الانترنت والوسائط الحديثة للمعلومات بالنسبة لـ: 10.8% المتبقية منهم. هذا بالنسبة للذين يرون أن أبحاثهم تميزت بالحداثة أكثر باستعمال الانترنت والوسائط الحديثة للمعلومات.

بالنسبة لعامل تنوع الأعمال فقد جاء في المرتبة الثانية حسب وجهة نظر الأطباء المقيمين وذلك بنسبة إجابات 193. حيث يرون أن هذا العامل هو ما ميز العمل بالانترنت، ويجعل احتمال أن تكون أعمالهم أكثر تنوعا، وذلك لإتاحة المعلومات من خلال هذه الوسائط الحديثة للمعلومات. من هذه الفئة التي يرى أن العمل بالانترنت والوسائط الحديثة للمعلومات يتيح التنوع لأعمالهم نجد نسبة 68.9% منهم أصبحت عملية البحث عن المعلومة لديهم أكثر من قبل خلال استعمال هذه الوسائط. ونجد 20.7% منهم قلت عملية البحث عن المعلومات لديهم باستعمال هذه الوسائط. بينما نسبة 10.4% بقيت كمية الأبحاث نفسها. نلاحظ تقارب النسب من الناحية الكمية أي أن السلوك كميا بقي نفسه رغم تفضيل ميزة عن أخرى من الناحية النوعية.

في المرتبة الثالثة نجد عامل سرعة انجاز الأعمال والأبحاث حيث سجل نسبة إجابات قدرت بـ86 من إجابات الأطباء المقيمين، ويعتبر عامل السرعة في الوصول إلى المعلومات، عاملا مهما، بحيث ينعكس على سرعة انجاز الأعمال العلمية مهما كان مستواها، وكذا سرعة الوصول للحلول العملية، مثلا أثناء التشخيص. ويعتبر عاملا مهما أيضا في تفعيل مستوى الطبيب وأعماله. مهما كانت علمية، أو عملية.

كما يبقى التوجه الكمي نفسه. كما لاحظناه سابقا. حيث تسجل النسبة الكبيرة لدى من كثرت كمية أعمالهم وأبحاثهم ونشاطاتهم. ثم لدى من قلت وهم نسبة قليلة وأخيرا من بقيت كمية أبحاثهم نفسها حتى باستعمال الانترنت والوسائط الحديثة للمعلومات.

وكآخر ميزة رأى أفراد العينة أن استعمال الانترنت والوسائط الحديثة للمعلومات يمكنها أن تنعكس على أعمالهم وطريقة بحثهم بحيث تصبح موسعة وشاملة، وهذا راجع لكمية المعلومات التي تتيحها هذه الوسائط الحديثة حيث ينعكس ذلك على توسع الأبحاث وشموليتها لعناصر دقيقة، لم تكن قد تتضمنها الأوعية الورقية.

6.5. مميزات استخدام الأنترنيت في البحث عن المعلومات:

الإجابات	التكرارات	النسبة %
الراحة في البحث	94	%17.4
الفعالية في البحث	118	%21.9
توفر الجو المناسب للبحث	31	%05.7
تسمح بالوصول إلى مجالات موسعة	64	%11.9
السرعة في البحث	136	%25.2

%18.0	97	وضوح نتائج الأبحاث
%100	540	المجموع

الجدول رقم (06): مميزات استخدام الإنترنيت في البحث عن المعلومات.

يتيح استعمال شبكة الإنترنيت مجموعة من التسهيلات لمستعملها، حيث توفر الراحة وتسهل عليه الوصول إلى كم وافر من المعلومات العلمية، إن كان متحكما في استعمالها وتقنيات البحث فيها.

يوضح الجدول أعلاه رأي الأطباء المقيمين حول مميزات استخدام الانترنيت لإجراء أبحاثهم وأعمالهم العلمية والعملية. والملاحظ أن عامل السرعة في البحث هو العامل الذي يراه الأطباء أكثر عامل يميز العمل بهذا النوع من الوسائط، وسجل نسبة 25.2% من الإجابات. خاصة إذا كان الربط متاحا حتى في مكان العمل، حيث تمكن الطبيب من الوصول إلى المعلومة بأسرع وقت في مكان عمله.

يليه عامل الفعالية في البحث، حيث سجل نسبة 21.9% من إجابات الأطباء، الذين يرون أن استعمال الشبكة يمتاز بالفعالية في الوصول إلى المعلومات، وكذا انجاز الأبحاث والأعمال العلمية. تقارب عامل وضوح نتائج الأبحاث، والراحة في البحث من حيث عدد الإجابات إذ حققا نسبة 18% و17.4% على التوالي.

ويرى الأطباء أن نتائج أبحاثهم عن المعلومات تمتاز بالوضوح باستعمال الإنترنيت، وهو عامل لا تتميز به الأوعية الورقية، حيث يجب الوصول إلى الوثيقة أولا، ثم البحث عن المعلومة بداخلها. عكس الأوعية الحديثة أين يتم البحث باستعمال الكلمات الدالة، أو مساءلات بسيطة، وتكون نتائج البحث مباشرة، سريعة وواضحة. كما يتميز العمل بهذه الوسائط بالراحة، فالطبيب من مكانه، ودون التحرك إلى المكتبات يمكنه الوصول إلى المعلومات التي يريدها ويبحث عنها.

كما يرى 11.9% من عينة الأطباء أن استعمال الإنترنيت يسمح بالوصول إلى مجالات موسعة من المعرفة، ويتيح المعلومات في التخصص، وما جاوره من تخصصات علمية وطبية بشكل أفضل. ويرى ما نسبته 17.4% من المجيبين أن استعمال الانترنيت للعمل يمتاز بتوفير الراحة لمستعمله. فيوفر عليه عناء التنقل والبحث عن المعلومة من مكان إلى آخر، حيث يمكنه الوصول إليها بواسطة نقرة من جهازه. سواء أكان ذلك في مكان عمله، أو في بيته، أو في مكان آخر.

7.5. تأثير كمية الأبحاث باستعمال الإنترنيت على العادات العلمية للأطباء:

كمية أبحاث الأطباء باستعمال الإنترنيت								
المجموع		مساوي		أقل		أكثر		
%	التكرارات	%	التكرارات	%	التكرارات	%	التكرارات	
%100	227	%10.6	27	%21.1	48	%68.3	155	

تأثير كمية الأبحاث باستعمال الإنترنت على العادات العلمية للأطباء	تجعل البحث أكثر ديناميكية	69	%30.1	21	%32.3	07	%21.9	97	%29.8
	تفتح مجالات جديدة للبحث	50	%21.8	16	%24.6	05	%15.6	71	%21.8
	تدفع الأطباء للاهتمام بالبحث	110	%48	28	%43.1	20	%62.5	158	%48.5
	المجموع	229	%100	65	%100	32	%100	326	%100

الجدول رقم (07): تأثير كمية الأبحاث باستعمال الإنترنيت على العادات العلمية للأطباء.

من خلال هذا الجدول سنحاول التعرف على تأثير استخدام الانترنت على العادات العلمية لدى الأطباء، وربط العلاقة مع كمية الأبحاث التي يجرونها.

والملاحظ من خلال إجابات أفراد العينة والتي تعددت، أن أغلب من زادت كمية أبحاثهم، كان نتيجة تأثير استعمال الإنترنيت، فهي تحثهم على الاهتمام بالبحث، وكانت نسبتهم 48% .أما من جعلت بحثهم أكثر ديناميكية فهم 30.1%. وانعكس ذلك على كمية أبحاثهم. بينما من فتح استعمال الإنترنيت مجالات بحث جديدة أمامهم، فهم 21.8%، وبذلك زادت كمية أبحاثهم.

بالنسبة لمن أجابوا أن كمية أبحاثهم قلت، نلاحظ أن تأثير الإنترنت على عاداتهم العلمية، أخذ نفس الاتجاه للفئة الأولى التي زادت كمية أعمالها، حيث يرى أفرادها بأن الإنترنت تدفع بالأطباء إلى الاهتمام بالبحث بالدرجة الأولى. يليها من تجعله أكثر ديناميكية أو تفتح أمام الطبيب مجالات جديدة للبحث. أي أن اتجاه التفكير أو الآراء نفسها، سواء أزادت كمية الأبحاث أم قلت لدى الأطباء باستعمال الإنترنيت. ما يثبته توجه إجابات الفئة التي بقيت كمية أعمالهم نفسها ولم تتأثر باستعمال الإنترنيت، لكن رأيهم يوافق رأي الفئتين السابقتين.

6. نتائج الدراسة:

بعد إجراء الدراسة الميدانية، وجدولة وتحليل بياناتها، يمكننا الوصول لمجموعة من النتائج، والتي سنعرضها فيما يلي:

– أغلبية الأطباء المقيمين يقضون وقتا أقل في البحث والوصول إلى المعلومات الطبية المناسبة باستعمال الإنترنيت، مقارنة بالوقت المستغرق عند البحث باستعمال الأوعية الورقية. وتوجد هناك نسبة صغيرة قدرت بـ 11.9% ممن يقضون وقتا أطول باستعمال الوسائط الحديثة، يرجعونه لقلة تحكمهم في استعمالها. (الجدول 01)

– تبين أن الصعوبات التقنية التي يواجهها الأطباء المقيمون عند استعمال الأنترنيت ليست بالضرورة سبب طول الوقت المخصص للبحث، والوصول إلى المعلومات المناسبة لأعمالهم وأبحاثهم العلمية والعملية. فقد سجلت نسبة 89.7% ممن يواجهون صعوبات تقنية، لكنهم

يخصصون وقتا أقل للبحث عن المعلومات. كما نلاحظ أن من يقضون وقتا أطول للوصول إلى المعلومات كان سببها صعوبات مادية بالدرجة الأولى، حيث سجلت نسبة 65.6% (الجدول 02). هذا يعني أن طول الوقت المخصص للبحث ليس بالضرورة نتيجة الصعوبات التقنية التي يواجهها الأطباء المقيمون، بل له علاقة مباشرة بالصعوبات المادية، أي صعوبة التسديد الإلكتروني للحصول على المعلومات التي يحتاجونها.

– تبين أيضا أن استعمال الانترنيت من طرف الأطباء المقيمين غير سلوكهم البحثي بنسبة 67.8%. مقابل 32.2% لدى من لم يتأثر سلوكه البحثي. وهذا راجع لعدة أسباب منها: وضوح المعلومات بنسبة 36.3%، والوصول إليها في وقت أسرع بنسبة 28%، مع إمكانية اتصال أكثر بنسبة 18.3٪، ثم استقلالية أكبر في إجراء الأبحاث بنسبة 17.1% (الجدول 03).

– اتضح أن عملية بث نتائج الأعمال والنشاطات، ترجع إلى الإمكانيات الشخصية والطموحات الفردية للأطباء. فرغم تغيير استعمال الانترنت للسلوكيات البحثية بنسبة 67.8%، إلا أن السلوك أو التفكير في بث الأعمال لم يتأثر. حيث نرى أن 76.6% ممن غير استعمال شبكة الانترنت سلوكهم في البحث، لا يبثون أعمالهم من خلالها. فالتوجه هنا واحد لدى الفئتين، التي تغير سلوكها، والتي لم يتغير. (الجدول 04). مما سبق نستنتج أن فئة قليلة من الأطباء المقيمين يبثون أعمالهم ونشاطاتهم العلمية، وتجاربهم العلمية على شبكة الانترنت، والذين يمكن اعتبارهم فئة منتجة. في حين أن أغلبية أفراد العينة لا يبثون نتائج أعمالهم على الشبكة.

– فيما يرى أغلب من زادت كمية أبحاثهم باستعمال الأنترنيت أن أعمالهم أصبحت أكثر حداثة بنسبة 37.2%، وأكثر تنوعا من حيث المعلومات بدرجة ثانية بنسبة 33.7%، كما يتم الوصول إليها بسرعة أكبر بنسبة 14.9% وبشكل موسع وشامل بنسبة 14.2% (الجدول 05). وكانت توجهات الإجابات بترتيب العوامل السابقة نفسه حتى لدى من قلت كمية الأبحاث لديهم.

– رتب الأطباء المقيمون مميزات استخدام الانترنت تفاضليا حسب سرعة عملية البحث أولا بنسبة 25.2%، ثم فعاليته بنسبة 21.9%، ووضوح النتائج بنسبة 18%، ثم الراحة التي تقدمها في البحث بنسبة 17.4%، فالسماح للوصول إلى مجالات موسعة بنسبة 11.9%. وأخيرا كونها توفر جوا مناسبا للبحث بنسبة 05.7% (الجدول 06).

– للأسباب السابقة تبين أن استعمال الانترنيت أثر على العادات العلمية لدى الأطباء. خاصة أولائك الذين زادت كمية أبحاثهم، كونها دفعتهم للاهتمام بالبحث بالدرجة الأولى ما نسبتهم

48.5%، ثم جعله أكثر ديناميكية بنسبة 29.8%. كما ساهمت في فتح مجالات جديدة للبحث بنسبة 21.8%. وتجدر الإشارة إلى أنه توجه عام، حتى لدى من قلت أو لم تتأثر كمية أبحاثهم (الجدول 07).

الخاتمة

سعينا من خلال هذا العمل، إلى الوقوف على سلوك البحث عن المعلومة الطبية بشبكة الإنترنيت، لدى الأطباء. من خلال الدراسة التي أجريناها على عينة الأطباء المقيمين بكلية العلوم الطبية بجامعة الجزائر1. والتي حاولنا من خلالها إلقاء الضوء على مجموعة المؤشرات المرتبطة بسلوكهم عند البحث عن المعلومة الطبية بالشبكة.

حيث تبين أن أغلبية الأطباء يقضون وقتا أقل في البحث عن المعلومة الطبية باستعمال الإنترنيت. أما من طال وقت بحثهم، فأرجعوه إلى مشكل التسديد الإلكتروني، وليس للصعوبات التقنية، فقد سجلت نسبة كبيرة ممن يواجهون صعوبات تقنية، لكنهم يقضون وقتا أقصر في البحث عن المعلومة الطبية.

كما أثر استعمال الإنترنيت على سلوك الأطباء من خلال وضوح المعلومات، سرعة الوصول إليها، استقلالية كبيرة في البحث، مع إمكانية اتصال كبيرة يتيحها العمل بالشبكة. لكن استعمالها لم يؤثر على سلوك، أو حتى التفكير في بث الأعمال لدى أغلبية العينة، والذين يعتبرون بذلك مستهلكين للمعلومات المتاحة على الشبكة، وليسوا منتجين إلا نسبة قليلة جدا منهم. كما ساهمت حداثة المعلومات المتاحة والمتوفرة في الشبكة، تنوعها سرعة الوصول إليها، وكونها موسعة وشاملة لعدة مجالات، في زيادة كمية أبحاث الأطباء باستعمال الإنترنيت.

بالإضافة إلى كل الأسباب السابقة، وكون العمل بالشبكة يوفر الراحة والجو المناسب للبحث، تبين أن استعمال الأطباء للانترنيت أثر على العادات العلمية لديهم. من حيث دفع حركية البحث وفتح مجالات جديدة وموسعة للبحث. خاصة لدى من زادت كمية أبحاثهم.

في الأخير نرجو أن نكون قد وفقنا في تحقيق الأهداف المحددة في بداية الدراسة، آملين أن تكون تواصلا لدراسات أخرى حول الموضوع تساهم في توضيح أكثر لنقاط لم نتطرق إليها، وعوامل أخرى لم نعالجها.

الهوامش:

[1] عليان، ربحي مصطفى، عثمان، محمد غنيم. أساليب البحث العلمي: الأسس النظرية والتطبيق العلمي. عمان: دار

صفاء، 2008. ص.41.

[2] بوحوش، عمار، الذنيبات، محمد. مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2001. ص.138.

[3] عليان، ربحي مصطفى، النجداوي، أمين. مقدمة في علم المكتبات والمعلومات. عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000. ص.293.

[4] همشري، عمر أحمد، عليان، ربحي مصطفى.المرجع في علم المكتبات والمعلومات. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1997. ص.570.

[5] عبد الهادي، محمد فتحي.المعلومات وتكنولوجيا المعلومات على أعتاب قرن جديد. القاهرة: الدار العربية للكتاب،2000. ص. 236

[6] الدناني، عبد المالك ردمان. الوظيفة الإعلامية لشبكة الإنترنيت. بيروت: دار الرائد الجامعية، 2008. ص. 36

[7] المرجع نفسه.ص.39-40

[8] Glossary of library terms [En linge]. Desponible sur : http://www.ac. www.edu/~rangeley/glossary.html. consulté le: [22/08/2015]

[9] شمسان، عبد الكريم. المركز الوطني للمعلومات والانترنت في اليمن. الإستراتجية العربية الموحدة للمعلومات في عصر الانترنت ودراسات أخرى. أعمال المؤتمر التاسع للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات . تونس21-26 اكتوبر1998. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،1999. ص.201

[10] حشمت، قاسم.الانترنت ومستقبل خدمات المعلومات : دراسات عربية في المكتبات وعلم المعلومات. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.1996. ص.77.

[11] الدناني، عبد المالك ردمان. المرجع السابق. ص.37-38.

[12] Eveillard, Philippe. Cismef : Le pas décisif. Site de Revue du praticien Médecine Générale du 20 juin 2010 ; N° 698/699, [En ligne]. <http://www.33docpro.com/Medecine/Internet_Med/internet_med_index.asp?Page=chronique>

[13] Idem.

[14] Guedon, Richard. Réseaux & télémédecine. [En ligne]. .http://www.medcost.fr/html/intranets_re/mag_27/richard_guedon.htm . consulter le 18/04/2016

[15] Idem.

[16] Université du Québec. Site de l'Université du Québec, [En ligne].www.bibliotheques.uqam.ca

[17] Idem.

[18] Rostaing, Hervé. Le web et ses outils d'orientation : comment mieux appréhender l'information disponible sur Internet par l'analyse des citations ? in BBF, t.46, n°1 ; 2001.- p.68-77.

[19] Qu'est-ce qu'un portail ?.[En ligne]. https://padres.itesm.mx/portalHelp2/ohw/state/content/locale.fr_CA/navId.3/navSetId./vtTopicFile.welchelp_hs_CA%7Cwelcport~htm/vtTopicId./. Consulter le 18/04/2016

[20] Annuaire santé Global Booster Santé : Recherche d'informations santé. Site Global Booster Santé. [En ligne]. http://cqcounter.com/site/globalbooster.com.html. Consulter le 18/04/2016

[21] Abcdent : Sites dentaires spécialisés.[En ligne]. http://www.abcdent.fr/. Consulter le 18/04/2016

[22] Institut des sciences pharmaceutiques et biologiques (ISPB) . Site de la Faculté de pharmacie de Lyon, [En ligne]. http://www.univ-lyon1.fr/universite/organisation/institut-des-sciences-pharmaceutiques-et-biologiques-ispb--19601.kjsp. Consulter le 18/04/2016

[23] مرسوم تنفيذي رقم 11-236 المؤرخ في 03 جوان 2011 المتعلق بالقانون الأساسي للمقيم في العلوم الطبية.

(الجريدة الرسمية). ع. 38 الصادرة بتاريخ 06 جوان 2011. ص. 14

[24] المرجع نفسه. ص. 14.

[25] المرجع نفسه. ص. 15.

[26] المرجع نفسه. ص. 15.

[27] المرجع نفسه. ص. 16.

[28] المرجع نفسه. ص. 17.

Doctors and search for medical information on the Internet Field Study at the Faculty of Medical Sciences, University of Algiers

Afaf saha BELLIMI*

Abstract:

This research paper discusses the behavior of searching for medical information on the internet by doctors who need this information. A field study was carried out on a sample of resident doctors in the Faculty of Medical Sciences, University of Algiers 1. Through this, we identify a set of indicators about the behavior of searching for medical information on the Internet, Such as the time they spend searching for information using the network, The difficulties they face, the reasons for changing the behavior of searching for information, the use of the Internet to publish their research and its relationship to change their behavior, The amount of research they do to conduct their scientific and practical work, and then identify the search features offered by the network. Finally we get to know the effect of the amount of research on the scientific habits of doctors.

Keywords: Medical Information - Documentary Search - Internet - Resident Doctors - University of Algeria 1.

* Faculty of Social and Human Sciences - University of Algiers 2.

دور المعلم في التحكم في عملية التقويم بواسطة مقاربة الكفاءات لمرحلة التعليم المتوسط

بقلم
د/ مهدية هامل(*)

ملخص

تعتبر عملية التقويم التربوي حلقة أساسية من حلقات العملية التعليمية لأن عملية التعليم تبدأ بالتقويم وتمر بالتقويم وتنتهي بالتقويم، وقد تم اعتماد التقويم بالكفاءات في المدرسة الجزائرية في إطار الإصلاحات التربوية المعتمدة، ومن مميزات التقويم بالكفاءات هو وضع المتعلم باعتباره محور العلمية التعليمية . في مواقف تثير نشاطه للملاحظة والتحليل والتفسير، لكن التساؤل المطروح كيف يمكن لمعلم التعليم المتوسط بالمدرسة الجزائرية التحكم في عملية التقويم بواسطة الكفاءات وتتفرع عنه التساؤلات التالية:

. ماذا نعني بالتقويم التربوي والتقويم بواسطة الكفاءات ؟، ما هي أنواع التقويم التربوي؟

. ما هي أهم الوسائل المتبعة ليتحكم معلم التعليم المتوسط في عملية التقويم بواسطة الكفاءات؟ وما هي أهم المعوقات التي تعترض تطبيق عملية التقويم بواسطة الكفاءات؟

الكلمات المفتاحية: التقويم التربوي، التقويم بالكفاءات، المعلم، المتعلم، التعليم المتوسط.

المقدمة

إن المدرسة اليوم أصبحت مجبرة على تأكيد علاقتها مع المجتمع الخارجي، وبالتالي عليها أن تواكب التطور الحاصل على مستوى العالم سواء على المستوى التطور المعرفي والتربوي أو الاقتصادي والتغير الاجتماعي والثقافي، فكان عليها تبني مقاربة تستجيب لمبادئ اقتصاديات المعرفة ولعل أكثر المقاربات توافقا مع مبادئه هي المقاربة بالكفاءات . وتعتبر عملية التقويم

(*) أستاذ محاضر "أ" بقسم علم الاجتماع ـ جامعة الطارف.
hamemahdia@yahoo.Fr

العصب الحيوي للعلمية التعليمية حيث نجدها في مختلف مراحل العلمية التعليمية وهي محدد أساسي للعلاقة بين المعلم والمتعلم لهذا ارتأينا تناول الصعوبات التي يواجهها معلم المدرسة المتوسطة الجزائرية أثناء عملية التقييم في إطار المقاربة بالكفاءات.

أولا : الجانب النظري للبحث

1.تعريف التقويم التربوي:

التقويم لغة: تعود في أصلها اللغوي إلى تقدير الشيء وإعطائه قيمة، والحكم عليه وإصلاح اعوجاجه، حيث جاء في لسان العرب لابن منظور [1]تحت مادة "قوم " قوم السلعة واستقامها، قدرها، ويرى أن أصل الفعل قوم لا قيم. والتقويم في اللغة أيضا معناه تقسيم الأزمان وحساب الأوقات وما يتعلق بها.

وتجدر الإشارة بأن هناك خلط بين كلمة التقويم وكلمة التقييم وقد يبدو للبعض بأنهما يحملان نفس المدلول وهو بيان قيمة الشيء لكن الفرق هو أن التقويم تعني بالإضافة إلى بيان القيمة للشيء تعديل أو تصحيح ما أعوج منه، أما كلمة التقييم فتدل على إعطاء قيمة للشيء فقط، ومن هنا نجد أن كلمة التقويم أعم وأشمل من كلمة التقييم حيث لا يقف التقويم عند حد بيان قيمة الشيء، بل لا بد كذلك من محاولة إصلاحه وتعديله بعد الحكم عليه[2] وعليه فالتقويم أشمل من التقييم بإضافة عملية الإصلاح للاعوجاج في حالة اكتشافه في عملية التقييم .

التقويم اصطلاحا: ظهرت العديد من التعريفات للتقويم عرف جون ماري دي كاتل بأنه: "فحص ومعاينة درجة الملائمة بين مجموعة إعلامية ومجموعة من المعايير للأهداف المحددة من أجل اتخاذ قرار[3] (J.M De ketele.1982) يقوم على اتخاذ القرار بالاعتماد على معايير الأهداف من خلال فحص وتفسير البيانات التي تم جمعها حول الشيء المقوم.

وعرف ماجر 1986 التقويم بأنه:" فعل مقارنة مقياس مع مثال (معيار). ثم إصدار حكم على المقارنة[4] يشير بذلك إلى عملية القياس التي تتضمن المقارنة بين المقياس والمعيار التي تتم أولا ثم إصدار حكم نتيجة للمقارنة بينهما.

أما التقويم التربوي فقد عرفه أحمد زكي صالح (1965) بأنه: "العملية التي يتم فيها تحديد قيمة معينة بشيء محدد أو لحدث معين والتقويم في التربية هو تقويم أحداث سلوكية. "[5]

يعرف بلوم التقويم بأنه: " مجموعة منظمة من الأدلة التي تبين ما إذا جرت بالفعل تغييرات على مجموعة من المتعلمين مع تحديد مقدار أو درجة ذلك التغير على التلميذ."[6]

من خلال ما سبق يمكن استخلاص بأن التقويم التربوي هو :

.عملية جمع البيانات الضرورية والكافية التي تسمح بالانتقاء من بين مجموعة من الاختيارات.

. يقوم التقويم على القياس من خلال استخدامه أدوات مضبوطة ودقيقة للقياس تربط بين تقدير وحكم أو عدد رقمي بشيء أو حدث حسب قاعدة مقبولة منطقيا ومتعارف عليها، كما هو الشأن بالنسبة للامتحانات.

. يتضمن أيضا التقويم على إصدار الحكم ويعني ذلك إعطاء قيمة نتيجة القياس مقابل معيار أو قانون القياس، ومعيار أو قانون آخر للمقارنة، بوضع النتيجة في إطارها المرجعي لتكتسب دلالتها، وبذلك فإننا نقيس لنقوم وما القياس إلا مرحلة أولية للتقويم. فإصدار الحكم يتم بالرجوع إلى الإطار المرجعي الذي تتم المقارنة في ضوئه النتيجة ليصدر الحكم القيمي على أساس ذلك.

2 أنواع التقييم التربوي:

هناك عوامل اجتماعية وتربوية متنوعة تتحكم في العمل التعليمي والتربوي مما ينعكس على تعدد وتنوع عمليات التقويم التربوي وفي هذا الصدد سنقتصر على عرض التصنيف الأكثر شيوعا القائم على الوظيفة التي تؤديها والمرحلة التي يتم فيها وهو على ثلاثة أنواع كما يأتي:

أ/ التقويم التشخيصي: ويطلق عليه البعض بالتقويم التمهيدي وهو إجراء عملي يتم في بداية تعليم معين للحصول على بيانات ومعلومات عن قدرات التلاميذ ومهاراتهم وأهداف السابقة والضرورية لتحقيق أهم هذا التعليم"[7] وتحديد نقطة البداية المناسبة التي يستند إليها تدريس الأهداف الجديدة. وقد أولى بلوم (B . Bloum :1983)، أهمية خاصة لهذا النوع من التقويم خاصة في نظريته المتعلقة بالتعلم من أجل التمكن وصنف نقطة بداية أي تعلم جديد بالنسبة لأي متعلم إلى قسمين:

تتعلق الأولى بالقدرات العقلية (مكتسبات سابقة) وتتعلق الثانية بالمواصفات العاطفية المتمثلة في دافعية التلميذ للتعلم (B . Bloum :1983)، ويساهم التقويم التشخيصي أيضا في تحديد أعراض الاضطراب التعليمي التي تتم ملاحظتها حتى يمكن اتخاذ الإجراء العلاجي لتصحيح وإزالة العوائق بالنسبة للمعلم والمتعلم، أما عندما يتعلق الأمر بالمنهج فإن هذا النوع من التقويم يجرى قبل تجريب المنهج المدرسي من أجل الحصول على المعلومات أساسية حول العناصر المختلفة لتجريبه[8] . وبذلك فإن التقويم والتشخيصي يتضمن بعدين متكاملين هما:

1. تشخيص المكتسبات السابقة.

2. تحديد أسباب الاضطراب التعليمي الملاحظ لتصحيح الثغرات انطلاقا من معالجة الأسباب.

ب. التقويم التكويني: ويسمى أيضا التقويم التتبعي أو البنائي، وهو إجراء عملي يمكن من التدخل لتصحيح مسار الفعل التعليمي يتم خلال التدريس ويقيس مستوى التلاميذ والصعوبات التي تعترضهم أثناء العلمية التعليمية ليقدم لهم بسرعة معلمات مفيدة عن تطورهم أو ضعفهم، ويحدد سرعة تعلمهم مما يعمل على تحفيزهم لبذل الجهد اللازم في الوقت المناسب، "ومن أدواته الاختبارات الشفوية، الاختبارات القصيرة، والتمارين الصفية والواجبات المنزلية[9].

ج. التقويم الختامي: ويطلق عليه البعض التقويم النهائي أو الختامي أو الإجمالي، وهو أيضا إجراء عملي يتعلق بنهاية التدريس، ويمحص بلوغ الأهداف النهائية التي قد تتعلق بدرس أو وحدة دراسية أو مقرر أو مرحلة دراسية كاملة، يهدف إعطاء درجات أو شهادات للمتعلمين تسمح لهم بالانتقال من مستوى إلى آخر أو بالتخرج، وهو بذلك فهو تقويم تصفوي يهم الإدارة ومتخذي القرارات أكثر من غيرهم.

هناك أيضا تصنيف آخر للتقويم حسب خليل إبراهيم شبر ومجموعة من الباحثين يحددون أربع أنواع للتقويم وهي : التقويم القبلي والتقويم التكويني (المستمر) والتقويم التشخيصي والتقويم الختامي ويلتقي هذا التصنيف مع المقاربة بالكفاءات والتي سيتم عرضها فيما بعد بالتفصيل

3. تعريف المقاربة بالكفاءات:

تقوم مقاربة التدريس بالكفاءات على "تصور بيداغوجي يتبنى إستراتيجية في التعليم والتعلم متمركزة حول المتعلم جاعلة منه هدف العملية التربوية ومحورها وتسعى إلى تنمية قدراته وإكسابه مهارات وكفاءات بما يتناسب وهذه القدرات من جهة وبما يتناسب مع متطلبات المجتمع من جهة أخرى."[10]

أ. المقاربة بالكفاءات تحدد أدوار متكاملة وجديدة لكل من المعلم والمتعلم:

فالأستاذ "لم يعد دوره حشو أدمغة المتعلمين بالمواد التعليمية، إنما أصبح قائدا، وموجها، ومرشدا، ومنظما لبيئة التعلم، ولم تعد جودته تقاس بكمية ما عنده من المعلومات حول المادة التي يدرسها انما بقدرته على التوصيل والتأثير والانجاز" [11] ، وعليه يظهر دور المعلم في ضوء المقاربة بالكفاءات على أنه:

1. "يسهل عملية التعلم ويحفز على الجهد و الابتكار .
2. يعد الوضعيات ويحث المتعلم على التعامل معها.
3. يتابع باستمرار مسيرة المتعلم من خلال تقويم مجهودات.

في المقابل فإن " والمتعلم محور العلمية التعليمية وعنصر نشيط فيها، فهو:

1. مسؤول على التقدم الذي يحرزه.

2. يبادر ويساهم في تحديد المسار التعليمي.

3. يمارس ويقوم بمحاولات يقنع بها أنداده ويدافع عنها في جو تعاوني.

4. يثمن تجربته السابقة ويعمل على توسيع آفاقها."[12]

ب. التقويم بالكفاءات :

إذا تحدثنا عن التقويم فالمقاربة بالكفاءات من أهم خصائصها هي القابلية للتقويم أي إمكانية قياس جودة انجاز التلميذ (حل وضعية مشكلة، انجاز مشروع)، ويتم تقويم الكفاءة من خلال معايير تحدده سابقا وقد تتعلق المعايير بنتيجة المهمة، (جودة المنتوج، دقة الإجابة، ...) أو بسيرورة انجازها واستخدامها : (مدة الانجاز، درجة استقلالية التلميذ، تنظيم المراحل ...)[13]

4. استراتيجية التقويم في إطار المقاربة بالكفاءات:

حسب لعزيلي فاتح في ظل المقاربة بالكفاءات على المعلم أن يضع خطة لتقيم المتعلم تتضمن **ما يلي :**

أ. التقويم قبل بداية كل درس (التقويم الأولي):

يهدف هذا التقويم إلى التعرف على الجهد الذي بذله التلميذ في استذكار دروسه السابقة، أن يتضمن تحديد المستوى والقدرات الذهنية والاستعدادات والميول ,,, كما يهيئ المعلم لعملية التدريس بجميع مكوناتها ومواقفها...لذا يأخذ أشكالا عدة مثل مراجعة أداء التلاميذ للواجبات التي تعطي لهم في صورة قراءات أو أسئلة أو تمارين أو امتحان شفهي أو امتحان تحريري قصير وذلك بهدف اختبار الخبرات المناسبة للمتعلم (لا تستغرق أكثر من 10 دقائق).

ب. التقويم في بداية كل درس أو أثناءه (التقويم البنائي)

ضرورة أن يعرف مدى تحقيقه لأهدافه ينبغي أن يشمل كل درس جزء من خطته نوعا من التقويم لمعرفة ماذا كان قد حقق أهدافه أم لا ؟ وهذا في إطار تحسين عملية التعلم وتلاقي أوجه النقص فيها سواء أثناء الحصة أو في الحصة التالية.

و"يعتمد التقويم البنائي على مبدأ التغذية المرتدة Feedback حيث يتم الاستفادة من معرفة النتائج التي حققها المتعلم في خطواته السابقة في تطوير وتحسين هذه النتائج وذلك بإبلاغها للمتعلم في الوقت المناسب وبالصورة التي تساعده على الاستفادة بها."[14]

ج. التقويم التشخيصي: يهتم هذا النوع من التقييم بالتلاميذ الذين يجدون صعوبات في التعلم ومن ثمة السعي إلى الكشف عن هذه الصعوبات وتحديد عواملها وسبل علاجها، ولتحقيق ذلك تستعمل الاختبارات التحصيلية لتحديد المستوى ثم الاختبارات التشخيصية لتحديد مواطن الضعف وعواملها وطرق علاجها.

د/ التقويم بعد الانتهاء من الدراسة كل وحدة دراسية (التقويم الختامي): يهدف هذا التقويم إلى قياس مدى تحقيق أهداف تدريس الوحدة بصورة متكاملة والتعرف على نواحي القوة والضعف في تحصيل التلاميذ وقد تستخدم تقديرات التلاميذ في هذا الامتحان كجزء من درجة أعمال السنة للتلميذ طبعا مع تحليل نتائج هذا الامتحان.

5. تقنيات جمع المعلومات وصفية حول التحصيل المعرفي للتلميذ:

يجمع الباحثين في علوم التربية بأن هناك ثلاث تقنيات تساعد على جمع المعلومات:

1". أن تقدم للتلاميذ مجموعة من الواجبات لانجازها عمليا.

2. أن يطرح عليهم أسئلة.

3. أن نطلب من أشخاص آخرين ملاحظة وتقويم سلوكهم."[15]

أ/ الامتحانات: بحيث تجرى بواسطة طرح أسئلة وقد تكون الأسئلة كتابية أو شفوية وعادة ما تقسم الامتحانات الكابية كما هو معلوم إلى الاختبارات الموضوعية والتي تعد وتقنن وفق شروط علمية دقيقة (اختبارات الذكاء والقدرات الخاصة، اختبارات التحصيل...) والاختبارات التي يضعها المدرس بنفسه وهي غير مقننة.

1. الاختبارات الشفوية: تعد هذه الاختبارات من الوسائل المناسبة للتقويم اليومي للتلاميذ (في بداية الحصة ونهايتها).

قد تكون من المفيد بالنسبة لتدريس مختلف الأنشطة ألا تقتصر هذه الاختبارات الشفهية على الأسئلة وإجابات لفظية، بل يمكن أن تضاف إليها بعض الموافق العملية ، كأن نعرض على التلاميذ بعض العينات للتعرف عليها أو بطلب منهم رسم جهاز معين أو القيام بعملية ما، وبهذا تستخدم هذه الاختبارات لا في النواحي اللفظية فقط بل في النواحي العملية.

ولهذه الاختبارات عدة إيجابيات نذكر منها :

.معرفة قدرة المتعلمين على الفهم والتحصيل المعرفي.

.معرفة قدرة المتعلم على التفكير.

.الكشف عن خصائص شخصية المتعلم كالاتجاهات والميول.

أما سلبياتها:

.تتأثر بالعوامل الذاتية للمدرس.

.غير عادلة لتفاوت لدرجة صعوبة الأسئلة بين تلميذ وآخر.

.تحتاج إلى وقت طويل لهذا لا يشجع على استخدامها.

2. الاختبارات الموضوعية: وهي "تتكون من أسئلة مغلقة، إجاباتها الصحيحة محددة لا خلاف فيها يقيس كل منها شيئا واحدا أو جزئية واحدة من جزيئات الموضوع ولا تسمح بتدخل عوامل أخرى تؤثر في صورة الإجابة المطلوبة.

إذ يمكن أن يشتمل الاختبار فيها على عدد كبير من الأسئلة التي تغطي أجزاء الموضوع كما أنه يسهل على المعلم تصحيحها في وقت قصير إذ تتسم بالموضوعية وهنا لا تكون تسمح بمرونة الإجابة وإنما تكون إجاباتها قطعية.

ومع ذلك فالاختبارات الموضوعية محدودة بالنسبة لتدريس بعض الأنشطة تظهر من حيث أن هناك بعض نواحي التعلم لا يمكن قياسها بصورة متكاملة بواسطة هذا النوع من الاختبارات الموضوعية مثل: القدرة على حل المشكلات أو القدرة على التفكير الإبداعي، أو تنظيم المعلومات وتحديد درجة أهميتها بالنسبة لمعالجة موضوع أو موقف معين، ولكنها في هذا مفيدة لتقويم الأهداف... صالحة لتقويم عدد كبير من التلاميذ في وقت قصير إذ هناك صورا عديدة للأسئلة الموضوعية مثل: أسئلة الصواب والخطأ، وأسئلة التكميل، وأسئلة الاختبار متعدد، وأسئلة المزاوجة... يمكن للمعلم أن يستخدم هذه الصور في قياس تحصيل التلاميذ بأشكال متعددة[16].

وهناك أيضا الاختبارات ذات أسئلة المقالي وهنا تعطى حرية أكبر للمتعلم لتقديم إجابته عن الأسئلة المعروضة عليه.

إيجابيات: الأسئلة المقالية:

. تتيح للمتعلم فرصة تحليل وتركيب الأفكار هي أداة قياس فعالة للأهداف التعليمية ذات المستوى المعرفي عال.

. تساعد المتعلم على تنظيم أفكاره ومعلوماته وتساعده أيضا على اكتساب عادات مهارات جديدة تمكنه من فهم المادة على النحو كله.

.لا تتطلب إعداد أسئلتها جهدا ووقتا كبيرين من جانب المعلم وتعمد في بنائها على مهارات معينة.

سلبيات الأسئلة المقالية:

.عدم ثبات نتائجها نظرا للعوامل الذاتية للمصحح.

.يتطلب تصحيح الأسئلة المقالية وقتا كبيرا .

.لا تغطي المقرر من محتوى المادة الدراسية.

بالنسبة التحرير الموضوعي:الايجابيات:

.سهولة التطبيق واستخراج النتائج وتفسيرها.

.استبعاد العوامل الذاتية سواء في مجال الإجابة أو التصحيح.

.تغطي أكبر جزء من المادة بسبب كثرة الأسئلة وتنوعها.

.تحديد المستويات المتباينة لتحصيل المعلمين.

.تكوين عند المتعلم عادات مستحبة كسرعة التفكير وعدم الخروج عن الموضوع وفهم الأفكار.

.هي تعليمية وتشخيصية وعلاجية.

.يراعي فيها تدرج الأسئلة في الصعوبة.

السلبيات:

.تحتاج إلى جهد ووقت كبيرين لبنائها لكثرة الأسئلة التي تنظمها.

.لا تقيس مستويات المعرفة العليا كالتركيب والتحليل.

.يتطلب بنائها مهارات معينة قد لا تتوفر عند بعض المعلمين الأمر الذي يجعلها ضعيفة البنية وغير قادرة على القياس.

.يعتمد تفوق الطالب فيها على معرفة الحقائق المجردة أكثر من معرفة العلاقات وربط الأسباب.

3 الاختبارات العملية: يمكن تناول أهم الصور لهذه الاختبارات على هذا النحو:

•اختبارات الأداء: وهي تلك الاختبارات التي يطلب فيها من التلميذ أداء عمل معين أو حل مشكلة ما.

•اختبارات التعرف: وتهدف إلى قياس مقدرة التلاميذ على التعرف على الأشياء.

•اختبارات الإبداع هي اختبارات يطلب فيها من التلاميذ عمل أجهزة معينة أو القيام بتجارب بالاستعانة بما يرونه مناسبا من الإمكانات المتاحة"[17]

ب/ تقنيات الوصف الذاتي: وتستخدم تقنيات الوصف الذاتي لمعرفة الميول والاتجاهات وتحديد نوع السلوك ويمكن تميز المقابلة والملاحظة على هذا النحو:

1. المقابلة: وهي عبارة عن استمارة تستخدم عادة لمعرفة الميول والاتجاهات .....

2. الملاحظة: تتفرع بدورها إلى لوائح السلوك أو لوائح تسجيل السمات بحيث يستعين بها الملاحظ الذي يريد تقويم حصة دراسية مثلا لتسجيل حضور نوع من السلوك أو عدم حضوره"[18]

ج / شبكات التقويم: إن شبكة التقويم وسيلة فعالة وعملية للتأكيد من مدى تحقق الكفاءة في كل مستوياتها إلا أن تصميم شبكة التقويم بمراعاة كل شروط التقويم التي تطلبها المقاربة ليس بالأمر السهل لذا لا بد على المصححين أن يتحروا الدقة في تصميم هذه الشبكة إن كانت من إنتاجهم وفي تطبيقها بطريقة جيدة إذا كانت شبكة مقننة يمكن استعمالها في وضعية أخرى.

6.المقاربة النظرية للتدريس بالكفاءات

تعتمد هذه المدرسة النظرية البنائية ويمثل هذه المدرسة فيقو تسكي Vygotsky وترى " أن بناء المعرفة واكتساب المهارة والاتجاه يتمان في نطاق التفاعل مع الغير والمقارنة بين الإدراك الذاتي للأشياء والأفراد والأحداث، وإدراك الآخرين لها، وعن طريق تبادل الآراء والتجارب الشخصية من منطلق أن التفكير ومختلف العمليات الذهنية أدوات اجتماعية من أجل التفاعل والتعامل مع الآخرين"[19] ، ويتم تحليل العلمية التعليمية على أساس أن " بناء المعرفة يحدث عن طريق التفاعل الاجتماعي، الذي يقوم بدور فعال في تطوير السيرورة الذهنية للمتعلم "[20]

ثانيا: الجانب الميداني للبحث:

1. تساؤلات الدراسة الميدانية: ما هي أهم الوسائل المتبعة ليتحكم معلم التعليم المتوسط بالمدرسة الجزائرية في عملية التقويم بواسطة الكفاءات؟

.ما هي أهم المعوقات التي تعترض تطبيق عملية التقويم بواسطة الكفاءات؟

وللإجابة على هذه التساؤلات اعتمدنا المنهجية التالية:

2. المنهج المستخدم: يمكن تصنيف هذه الدراسة ضمن الدراسات الوصفية وقد تم الاعتماد على منهج المسح بالعينة عدد أفراد العينة هم 28 معلم من معلمي المتوسطة بإحدى بلديات ولاية الطارف، المجال الزمني هو الفترة من 7 إلى 15 أفريل 2015 تم تطبيق الاستمارة. علما أنه المتوسطة بالقرب من مكان إقامة الباحثة لهذا تعرف المعلمين عن قرب تقريبا.

3. تفريغ وتحليل البيانات الميدانية: حظيت مجموعة أفراد العينة بتكوين حول عملية التقويم بالكفاءات وهذا بتأكيد جميع أفراد البحث بأنها تلقت تكوينا فيما يتعلق بالعملية، ولقد أجاب أغلبية أفراد العينة بأنه تلقى التكوين على يد المفتش التربوي بنسبة: 58,71 ٪، وهناك من اعتمد

على مدير المؤسسة أو أساتذة بالجامعة بنسبة 7,14٪ وبنسبة مماثلة عبرت بأنها اعتمدت على الانترنت، استشارة بعض الأساتذة الزملاء بنسبة 14,28 ٪ وهذا ما يبينه الجدول رقم 1، الأكيد بأن عملية التكوين على المقاربة بالكفاءات هي عملية إلزامية أقرته وزارة التربية لهذا يتم في أطر رسمية مع ذلك هناك توجه جديد نحو استخدام مصدر جديد للمعلومات هو الانترنت أي الاعتماد على الذات في التكوين للمعلم .

جدول رقم 1: توزيع العينة بحسب الجهة التي تقوم بالتكوين

مع من تم التكوين	ت	ن
المفتش	24	58,71
من تلقاء نفسي	0	0
الانترنت	2	7,14
مدير المؤسسة + أساتذة في الجامعة	2	7,14
استشارة بعض الأساتذة	4	14,28
المدرسة العليا للأساتذة	1	3,60

صرح أفراد العينة بأنهم يتلقون تكوينا دوريا حول عملية التقييم بالكفاءات بنسبة 64,26 ٪ ومع ذلك هناك من أكد بأنه لا يتم عقد اجتماع دوري وهي نسبة لا يستهان به بنسبة 35,71 ٪ وهذا ما ورد في معطيات الجدول رقم 2 ، مع ملاحظة أنه بعد الاطلاع على دفتر التكوين لأحد الأساتذة بالفعل لقد تم مناقشة عمليات التقييم بالكفاءات ولكن في مرة واحدة ويتم مناقشة بعض الصعوبات التطبيقية لشبكة التكوين بين الحين والآخر .

جدول رقم 2: الاجتماعات الدورية مع المفتش:

الفئات	ت	ن
نعقد اجتماع دوري مع المفتش	18 (تكنولوجيا وانجليزية واجتماعيات ورياضيات)	64,29
لا نعقد اجتماع دوري مع المفتش	10	35,71
المجموع	28	100

للوسائل المستعملة في عملية التكوين دور بالغ الأثر على حسن استقبال المعلومات حول عمليات التقييم بالمقاربات بالكفاءات، عبر أفراد البحث بأنه يتم الاستعانة بوسائل تكنولوجية حديثة بنسبة 64,29 ٪ مع تقديم أمثلة بنسبة مساوية للأولى كما هو موضح في الجدول رقم 3 :

جدول رقم 3 الوسائل المتبعة في عملية التكوين

ن	ت	الوسيلة المستعملة في التكوين
64,29	18	وسائل تكنولوجية حديثة
14,28	4	القاء تقليدي
7.14	2	التزويد بمراجع
	18	يقدم أمثلة

وتجدر الإشارة بأنه هناك من صرح بأنه مزال الاعتماد على الالقاء التقليدي بنسبة مقدرة بـ : 14,28 ٪ وهذا يدل على محاولة الدمج بين الوسائل التقليدية والحديثة في التكوين، وكانت النسبة الأقل هي التزويد بالمراجع بنسبة 7,14 ٪ مما يتيح فرصة للمعلمين للاعتماد على الذات بالبحث عن هذه المراجع والاطلاع عليها .

جدول رقم4 في حالة طلب المساعدة أثناء مواجهة المشكلة

ن	ت	الفئات
64,29	18	زميل عمل أكثر خبرة
0	0	أكثر تخصص
50	14	مسؤول المادة
	32	أكثر من إجابة

بناء على نتائج الجدول رقم 4 يتضح بأنه أكثر الأفراد العينة يعتمدون على زميل عمل أكثر خبرة في حالة تعرضهم لمشكلة ما حول التقييم وقدرت هذه الفئة بنسبة : 64.29 ٪، وعادة ما يلجؤوا إلى مسؤول المادة بنسبة 50 ٪ وهو في الحقيقة الجهة الرسمية المخولة لتقديم التوجيه والإرشاد في حالة تعرض أساتذة المادة لمشكلة ما.

. الصعوبات: يعتمد أستاذ التعليم المتوسط على الاختبارات الكتابية بنسبة 92,86 ٪ أما الاختبار الشفوي وعلى الرغم من أهميته وضرورته في حدود المقاربة بالكفاءات إلى أنه لا يعتمد عليه إلا بنسبة : 14,28 ٪ وهذا ما تبينه نتائج الجدول رقم 5 في ما يلي:

جدول رقم5 الاختبارات التي تستخدمها في عملية التقييم

ن	ت	الفئات
92,86	26	الاختبار الكتابي
14,28	4	الاستجواب الشفوي
/	30	المجموع أكثر من اجابة

لقد سبق الإشارة إلى أن هناك استراتيجية تعتمد أسلوب التقييم بالمقاربة بالكفاءات وهي التقويم

الأولى والتقويم البنائي في كل بداية الدرس والتقويم التشخيصي والتقويم النهائي بعد كل وحدة وهذه الاستراتيجية تحتاج لوقت وإلى عدد محدود من المتعلمين، أما أساتذة التعليم المتوسط فيعتمدون على الاختبارات التقديرية وتشخيصية لتحديد مستوى المتعلم والتأكد من المعرفة السابقة من خلال الاختبار في بداية السنة الدراسية ودائما يعتمدون عليه بنسبة 85,72 ٪، أما الفئة التي صرحت بأنه أحيانا يلجأ إليه قدرت نسبتها بـ: 14,28 ٪ وهذا ما توضحه نتائج الجدول رقم 6

جدول رقم 6 الاعتماد على الاختبار التشخيصي في بداية السنة

ن	ت	استخدام الاختبار التشخيصي
85,72	24	دائما
14,28	4	أحيان
0	0	أبدا
100	28	المجموع

جدول رقم 7 :الاختبار بعد نهاية كل حصة

ن	ت	استخدام الاختبار بعد نهاية كل حصة
35,71	10	دائما
42,86	12	أحيان
21,43	6	أبدا
100	28	

من خلال الجدول السابق رقم 7 يتضح بأنه يتم استخدام الاختبار بعد كل حصة بشكل دائم بنسبة 35,71٪، وأحيان بنسبة 42,86 ٪ وأبدا بنسبة 21,43 ٪ وهي نتائج تقترب في بعض جوانبها مع نتائج الجدول رقم 8 حول إجراء الاختبارات بعد نهاية كل وحدة وقد قدرت الفئة التي عبرت بأنه يتم دائما اعتماد الاختبار بنسبة 14,28 ٪ وأحيانا بنسبة 50 ٪ وأبدا لا تعتمد على الاختبار بعد كل وحدة بنسبة 21,42 ٪ وهذا ما يظهر بشكل جلي في الجدول رقم 8

جدول رقم 8 الاختبار بعد نهاية كل وحدة

	ن	ت		استخدام الاختبار بعد نهاية كل وحدة
	14,28	8		دائما
	50	14		أحيان
0	يتطلب وقت	0	21,42	أبدا
14,28	لا حاجة له	4		
7,14	برنامج مكثف	2		

وتدل النتائج السابقة بأن كثرة الاختبارات تجعل الكثير من الأساتذة لا يلجأوا إليها إلا أحيانا والبعض يؤكد بأنه أبدا لا يلجأ إليها ويرجع هذا بحسب وجهة نظرهم بأن هذه الاختبارات لا حاجة لها والاختبار النهائي هو الفاصل وكذا إلى كثافة البرامج ذلك أن الوقت الذي يستغرقه مثل هذه الاختبارات المتكررة يفضل أن يتم استثماره في إتمام محاور البرنامج.

في الحقيقة لعدد تلميذ القسم تأثير واضح على تحصيل المتعلم وله نفس التأثير على عملية التقييم وقد أكد أفراد العينة ذلك بنسبة 92,86٪ وبنسبة 7,14٪ ليس لعدد تلاميذ القسم تأثير على عملية التقييم وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال الشكل التالي

الشكل رقم 1

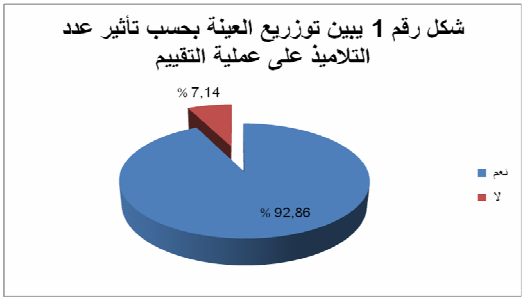

1- يفضل أساتذة التعليم المتوسط بأنه لا يتجاوز عدد التلاميذ للقسم الواحد 25 متعلم لضمان نجاعة التقييم بنسبة قدرت بـ: 57.14 ٪ وإذا تم إضافة بقية الإجابات تصبح النسبة التي قدرت عدد التلاميذ القسم بين 20 و25 متعلم هي (57.14 ٪+ 21,42 ٪+ 7,14٪ = 85,70 ٪) أما الواقع فيكد بأن القسم الواحد يصل عدده إلى 40 متعلم مما يكون أكبر عائق لعملية التعلم بصفة عامة وعملية التقييم بصفة خاصة . فقد ورد في منشورات المجلس الأعلى للتعليم حول المعايير والاشتراطات الواجب توفرها في المبنى المدرسي بأن لا يزيد عدد الأطفال في غرفة التعليم بالروضة عن (20 طفل) كما لا يجوز أن يزيد عدد الطلاب الصف الدراسي عن 25 طالب في المدرسة بغض النظر عن المرحلة الدراسية."[21]

جدول رقم 9 عدد تلاميذ القسم المفضل لنجاح عملية التقييم

ن	ت	الفئات
7,14	2	20
21,42	6	24
57,14	16	25

7,14	2	27
100	28	المجموع

للتقويم بالمقاربة بالكفاءات أهمية جيدة لاكتشاف الفروق الفردية والمتعلم المتميز ولقد أكد جميع أفراد العينة هذه الأهمية وكما أنه يسمح باستخدام التقييم الذاتي ، لكن تتداخل الجهات المعنية بمراجعة التقويم بنسب متفاوتة ، لكن أعلى نسبة رجحت بأن المفتش التربوي هو من له الحق في مراجعة تقييم المعلم لعملية التقييم بنسبة 92,85 ٪ثم تليه مسؤول المادة بنسبة 42,84٪ ، فمدير المؤسسة 21,42 ٪ وهي أطراف رسمية تتدخل بشكل رسمي في المراجعة التقييم من أجل خضوع المتعلمين كلهم لنفس معايير التقييم لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو عدم إشارة المعلم بأن المتعلم ذاته هو من يقوم بمراجعة عملية التقييم حتى تتم بشكل فعل المراقبة الذاتية.

جدول رقم 10 : الجهة المخولة لها أن تراجع عمليات التقييم

ن	ت	الجهة المخولة / التكرارات
42,84	12	مسؤول المادة
21,42	6	مدير المؤسسة
92,85	26	المفتش التربوي
	44	المجموع اختيار أكثر من إجابة

الخاتمة

تعتبر عملية التقويم التربوي من أهم مراحل العملية التعليمية في الوقت الحالي وتتزايد هذه الأهمية بالنسبة للمقاربة بالكفاءات والتي تعبر المتعلم محور العلمية التعليمية ولكن تبني مثل هذه المقاربة بالنسبة للمدرسة الجزائرية يفترض توفير البيئة التنظيمية والإدارية والبيداغوجية، والتكوين الجيد والسليم للمعلم وتوفير كل الإمكانات لنجاحها، لكن أساتذة التعليم المتوسط يعتبرون عدد التلاميذ داخل القسم لا يتناسب على الإطلاق مع هذه المقاربة التي تعتمد على كثرة الاختبارات وعمليات التقويم لهذا يفترض تقليص عدد تلاميذ القسم على أن لا يزيد عن 20 متعلم في القسم الواحد .

ـ الهوامش:

[1] ابن منظور، لسان العرب، بيروت، ص 449 ص 500.

[2] .أحمد جودت سعادة: مناهج الدراسات الاجتماعية، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1984. ص 204 .

[3]- J M. DE Ketele docimologie introduction aux concepts et aux pratiques Cabay.1982 p40

[4] - Mager (Robert) comment mesurer les résultats de l'enseignement ed . Bordes.1986 -

p24

[5] . محمود عبد الحليم المنسي، وأحمد صالح: التقويم التربوي ومبادئ الإحصاء: مركز الإسكندرية للكتاب،س د، ص 15 .

[6] . الصانع محمد عبد الله وآخرون، تقويم البرامج التربوية في الوطن العربي، المركز العربي للبحوث التربوية لدول الخليج العربي، الكويت،1981.، ص 80.

[7] . الفاربي عبد اللطيف والعضاض عبد العزيز: كيف تدرس بواسطة الأهداف،المغرب، 1990. ص 67

[8] . الصانع وآخرون، تقويم البرامج التربوية في الوطن العربي: مرجع سبق ذكره،ص 89.

[9] . خليل إبراهيم شبر وآخرون: أساسيات التدريس، دار المناهج، عمان الأردن، 2010، ص 268 .

[10] . قرايرية حواس وسيلة تقييم: مدى تحقيق المقاربة بالكفاءات لأهداف المناهج الجديدة في إطار الإصلاحات التربوية حسب معلمي ومفتشي المرحلة الابتدائية: دراسة ميدانية بالمقاطعات التربوية بولاية قالمة، رسالة دكتوراه في علم النفس التربوي، إشراف لوكيا الهاشمي، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، السنة الجامعة 2009/ 2010، ص 157.

[11] . محسن علي عطية، أسس التربية الحديثة ونظم التعليم، دار المناهج للنشر، عمان، الأردن، 2010، ص250، ص251.

[12] .. مناهج السنة الرابعة من التعليم المتوسط، الجزائر / جويلية 2005 ص 4 وص5.

[13] . لعزيلي فاتح: التدريس بالكفاءات وتقويمها التدريس بالكفاءات وتقويمها،..السنة الثامنة (أكتوبر2013) العدد 14، ص 73.

[14] .. محمود عبد الحليم المنسي، وأحمد صالح: التقويم التربوي ومبادئ الإحصاء: مرجع سبق ذكره،ص: 29 .

[15] . الدريج محمد: تحليل العملية التعليمية وتكوين المربين، سلسلة المعرفة للجميع، الرباط، 2000، ص 186.

[16] . لبيب رشدي: معلم العلوم . مسؤولياته، أساليبه، عمله، إعداده، المكتبة الأنجلو المصرية، ط1 1997 ص، 218

[17] . المرجع نفسه، ص 223 .

[18] . الدريج محمد: تحليل العملية التعليمية وتكوين المربين، مرجع سبق ذكره، ص187 .

[19] . مولاي المصطفى البرجاوي: المقاربات بالكفايات...مدخل جديد لتطوير المناهج التعليمية: موقع إلكتروني. http://www.alukah.net/social/0/75605/ تاريخ الاطلاع: تاريخ الاطلاع:1/ 2/2015 على الساعة 10 صباحا.

[20] . معوش عبد الحميد: (عن خير الدين هني)،" درجة معرفة معلمي السنة الخامسة ابتدائي للوضعية الإدماجية وفق منظور التدريس بالمقاربة بالكفاءات وعلاقتها باتجاهاتهم نحوها" بحث ميداني ببعض المدارس الابتدائية بولاية المسيلة. قسم علم النفس كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة مولود معمري تيزي وزو، السنة الجامعية 2011.2012، ص 52 .

[21] . المجلس الأعلى للتعليم: تعليم لمرحلة جديدة . المعايير والاشتراطات الواجب توفرها في المبنى المدرسي. ص 2 الموقع على الانترنت /www.edu.gov.qa/Ar/SECInstitutes تاريخ الاطلاع:1/ 2/ 2015 على الساعة 10 صباحا.

Teacher's role in controlling the evaluation process through Competency- Based Approach in the middle school level

Dr. Mehdia HAMEL*

Abstract

Educational evaluation is considered as an essential part in the teaching/learning process because education process begins and ends with the evaluation. Teaching through competencies was adopted in the Algerian educational system by the reforms of 2003. The main focus of teaching through competencies is making the learner, who is considered as the centre of the teaching /learning process, in positions where he should raise his observation, analysis and interpretation skills. But the question is how can middle school teacher, in Algerian schools, control the process of evaluation by competencies? The following questions are also raised:

- What do we mean by educational evaluation and evaluation by competencies? What are the types of educational evaluation?
- What are the most important means used by middle school teacher to control

the process of evaluation by competencies?

- What are the main obstacles that hinder the application of the evaluation by competencies?

key words: Educational Evaluation, evaluation by competencies, the teacher, the learner, middle school education.

* Department of Sociology University of Taref.

مجلة البحوث والدراسات
العدد (24) ـ السنة (14) ـ رمضان 1438 هـ ـ يونيو (جوان) 2017 م

محور بحوث الآداب واللغات

صفحة بيضاء

انفتاح أسلوب الشرط على غير معنى المجازاة في النص القرآني

بقلم
د/ الأخضر سعداني(*)

ملخص

أسلوب الشرط مثل غيره من أساليب العربية قد تؤثر في دلالته مقامات وأحوال أثناء إنتاجه، فتقضي بأن يتجاوز هذا الأسلوب الدلالة على الشرط والجزاء وهما الدلالة الأصلية له، ليدل على معان أخرى تتحدد بمعونة السياق ومعرفة خواص الخطاب. الشيء الذي يدل على قدرة العربية على الغنى التعبيري، وانفتاح عبارتها على عالم الإبداع والخلق الفني.

وتتمثل أسمى صور ذلك الرقي الأسلوبي في النص القرآني الكريم. ومنه نأخذ أمثلة هذا المقال المتواضع الذي نتتبع من خلاله التنوعات الدلالية المتميزة لذلك الأسلوب.

الكلمات المفتاحية: أسلوب الشرط – نص قرآني – الدلالة.

مدخل

عرف كل من ابن مالك وأبي حيان الأندلسي أسلوب الشرط من خلال تعريف الشرط، وذلك بما مجمله أنه:" تعليق جملة بجملة بأداة خاصة، تجعل علاقة الأولى بالثانية علاقة سببية، والتعليق بينهما يتم في الماضي أو المستقبل، أو المستقبل خاصة"[1]

ومفاد هذا التعريف أن أسلوب الشرط يقوم على تسييب مضمون الجملة الثانية عن مضمون الجملة الأولى بواسطة كلمة تعلق هذه النسبة بينهما تسمى أداة الشرط. وأن الشرط الحقيقي هو ما يكون شرطه مستقبلا، وكذا جوابه الذي ينبني عليه[2]، مجزوما أو في محل جزم[3]، وغير مقترن بالفاء[4]. وأما الشرط الحاصل في الماضي فيعتبر مجرد تعليق أمر على أمر في زمن مضى، ولا يصح اعتباره شرطا حقيقيا لدخوله في حيز الثبوت، وخروجه عن حيّز الإمكان والاحتمال.

(*) أستاذ محاضر "ب" بقسم اللغة العربية وآدابها ـ كلية الآداب واللغات ـ جامعة الوادي.
elakhdar.sa@gmail.com

وفي العصر الحديث فصّل عباس حسن مفهوم الشرط من خلال تعليل تسمية فعل الشرط بهذا الاسم قائلا:"سمي فعل شرط، لأن المتكلم يعتبر مدلوله ووقوع معناه شرطا لتحقق الجواب ووقوع معناه، ولا يمكن – عنده– أن يتحقق معنى الجواب ويحصل إلا بعد تحقق معنى الشرط وحصوله؛ إذ لا يتحقق المشروط إلا بعد تحقق شرطه، سواء أكان الشرط سببا في وجود الجواب والجزاء، نحو: إن تطلع الشمس يختف الليل، أم غير سبب، نحو: إن كان النهار موجودا كانت الشمس طالعة. فوجود النهار ليس سببا في طلوع الشمس، وإنما هو ملزوم، والجواب لازم له؛ ولهذا يقولون : إن الشرط ملزوم دائما والجزاء لازم، سواء أكان الشرط سببا أم غير سبب."[5] والملازمة ما هي إلا اقتران بين مضموني جملة الشرط وجملة الجزاء، ولا تقتضي وجود معنى السببية بينهما.

وانطلاقا من هذه الحرية الموجودة في مطلق التعليق وعلاقة الملازمة وحدها، ينفتح هذا المقال على حالات من التعليق الذي لا يزيد على مجرد الربط بين الجملتين، ثم تكون دلالات هذا الأسلوب الشرطي متنوعة ومنفتحة على ما توجبه السياقات والأحوال المختلفة، فتصبح دلالته مسوقة لأغراض أخرى.

الأغراض الأدبية للأساليب الشرطية التي خرجت من باب المجازاة:

1. إثبات الجواب وإطلاقه:

قال عز وجل:﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ .[6]

أي وإن تكن المعصية مثقالَ حبّة من خردل جئنا بها وحاسبنا عليها. إنّ عمل الشر مهما تناهى في الصغر وغاب عن الناس وعن صاحبه، فإن الله يأتي به لسعة علمه، وإحاطته بأفعال الناس وبملكوته.

إذا حكمنا بحكم الظاهر على التركيب الشرطي في هذه الآية، عددنا أن وجود معصية في مثقال حبة من خردل هو شرط في مجيء الله به ومجازاته عنه. كما يعلم من طريق مفهوم الآية أن المعصية التي تكون أكبر هي أولى بإتيان الله بها. ولكن ما ينبغي أن نلاحظه أن المقصود ليس أن وجود المعصية يكون سببا في إظهار قدرة الله على مجيء الله بها، وكأن غياب وجود المعصية يتسبب في عدم ظهور القدرة الإلهية.

بالتأمل في الآية نجد أن المعنى المراد إثباته هو أن الله قادر قدرة مطلقة على استقصاء وعرض جميع أعمال العباد والجزاء عليها. وبهذا المعنى يكون الشرط مسوقا لأجل توكيد وإثبات قدرة الله في الإحاطة بحسنات العبد أو سيئاته. وليس مسوقا لبناء الجواب عليه، وإن كان معنى الملازمة

حاضرا في التركيب.

2. تجهيل المتكلم أو دحض حجته:

قال الله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾. [7]

موقع هذه الآية موقع الاحتجاج على أن المشركين كاذبون وكافرون في اتخاذهم أولياء من دون الله.

أي : " لو أراد الله أن يتخذ ولدا " كما زعم ذلك من زعمه ، من سفهاء الخلق ، "لاصطفى مما يخلق ما يشاء" أي: لاصطفى من مخلوقاته (كالملائكة مثلا)، الذي يشاء اصطفاءه ، واختصه لنفسه ، وجعله بمنزلة الولد ، ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ الصاحبة . وقوله "سبحانه" إشارة إلى استحالة اصطفائه شيئاً لأجل اتخاذ الولد . وقوله "هو الله الواحد القهار" إشارة إلى البرهان على استحالة ذلك.[8]

وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، ويجوز تعليق الجزاء على المستحيل لقصد تجهيل المتكلم أو دحض حجته.

3. تمثيل الجواب لأقصى درجات الشرط:

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾. [9]

إذا فُسّر جواب الشرط "فقد اهتدوا" على المعنى الأصلي له، حصل من ذلك اتحاد الشرط والجزاء، لأن الإسلام هو عين الاهتداء. ولذا مُنع ظاهر الاهتداء وفُسر باللازم له وهو النفع أي " فقد نفعوا أنفسهم " [10]. ونفعهم لها هو الفوز والنجاة في الآخرة .

ويكون التركيب الشرطي قد بني على معنى أن الجواب يمثل أسمى وأوكد ما قد يبلغه الشرط من درجات الكمال.

4. التدليل بالجواب على انتفاء الشرط:

قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ إِنْ كنتُ قلتُهُ فقد عَلِمْتَهُ ﴾ [11]

ضمير النصب في "قلته" عائد إلى الكلام المتقدم "اتخِذوني وأمِّي إلهين مِنْ دون الله".

إنْ: معدول بها عن التعليق الشرطي الحقيقي وهو الذي يكون مستقبلا ، إلى مجرد التعليق الذي هو الربط بين متلازمين؛ لأن فعل الشرط في هذه الآية جاء مركبا من كان يتلوها الفعل الماضي. وبما أن "كان" قوية في الدلالة على المضي -كما يصفها المبرد – فإن فعل الشرط(وهو

القول) تعيّن مضيّه، وتعلق به الجواب "فقد علمته"، فصار تعليقا لأمر مضى بآخر مثله في المضي. والماضي حدث معلوم بسبب مضيه وحصوله. ولا تحوِّلُ "إنْ" دلالته إلى الشك والاستقبال.

وبذلك يكون هذا التركيب الشرطي منصرفا إلى غير التعليق الدال على السببية إلى الاستدلال به على انتفاء أن يقول عيسى عليه السلام ذلك الكلام بدليل أن الله يعلم أنه لم يقله. ونحوُ احتجاج الرسلِ بعلم الله في القرآن الكريم قوله تعالى على ألسنة الرسل: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [يس:17.16]. فلما كان متحققا من براءة نفسه أحال ذلك على علم الله تعالى.

وهكذا يكون قد استدل بمضمون الجزاء على مضمون الشرط، كما هو الشأن في مدخولي "لو" الامتناعية عند قول الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:22].

إن فعل الشرط المركب، الماضي لفظا ومعنى (كنت قلته) يمنع من اعتبار "إنْ" حرفا للتعليق به مستقبلا، وبالتالي تخرج "إنْ" عن وظيفتها النحوية الأصلية إلى تأدية وظيفة تشبه وظيفة حرف الشرط الامتناعي "لوْ"، من حيث التعليق بها يكون في الماضي. واستدل بها على الشرط بالجزاء، أي أن انتفاء قوله له ثابت بعلم الله ذلك.

كما أنّ ما هو في ظاهره جواب لـ"إنْ" ليس كذلك؛ لأن مضمونه ليس مترتبا على معنى الشرط المتمكن في المضي. أي إن كون الله عالما وشاهدا على انتفاء ذلك القول عن عيسى عليه السلام، ليس مسببا عن كون عيسى لم يقله، لكنّ هذا الجواب الظاهر دليلٌ على براءته عليه السلام. وقد قال الله ذلك تقريعاً لمن اتخذ عيسى إلهاً. وفي قوله: "فقد عَلِمْتَهُ" أسند عيسى عليه السلام العلم إلى الله تعالى. وفيه غاية الأدب وإظهار المسكنة لعظمة الله تعالى وتفويض الأمر إليه.

5. بلوغ الجواب أقصى غايات نوع الشرط:

قال الله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾. [12]

"الفوز: هو حصول الربح ونفي الخسارة. والفاء في قوله "فمن زحزح" للتفريع على "تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ" ومعنى "زحزح" أبعد. وحقيقة فعل "زحزح" أنها جذب بسرعة وهو مضاعف زحّه عن المكان إذ جذبه بعجلة."[13]

وإنما جمع التعبير القرآني بين " زحزح عن النار وأدخل الجنة " مع أن في الثاني غنى عن الأول للدلالة على أن دخول الجنة يشتمل على نعمتين عظيمتين هما: النجاة من النار ونعيم الجنة. وفي ظاهر عبارة الشرط إطناب، إذا تأملناه ألفيناه زيادة في المبنى تشي بزيادة في المعنى.

ومعنى "فقد فاز" نال مبتغاه من الخير؛ لأن ترتب الفوز على دخول الجنة والزحزحة عن النار

معلوم. فلا فائدة في ذكر الشرط إلا لهذا. أي أن سوق الكلام على سبيل الشرط والجزاء لا يقصد به ترتيب أمر على ذاته، وإلا كان عبثا ولغوا. ولكن يقصد به أن الجواب المذكور يمثل منتهى ما يرتجى من الشرط: فقد حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن النار ولم يدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:185]، أي: توفية الأعمال التامة، إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة:21].

إنّ عبارة الجواب"فقد فاز" يتعلق مدلولها بمجازاة المؤمنين عن الأعمال الصالحة مجازاة مستوفاة في نهاية المطاف. غير أنها قد تتجزأ على مراحل هي: الفوز في الحياة الدنيا وفي حياة البرزخ وفي الحياة الأخرى. كما أن مدلول تلك العبارة قد يأتي صريحا كما هي طريقة العرب في كلامهم، وقد يأتي مفهوما من فحوى الخطاب، وقد يأتي ملحوظا بطريق الإشارة التي تحيلنا إلى نصوص قرآنية ذات صلة.

وفي الآية تخصيص الحكم الوارد به جواب الشرط، فالفوز حكم متحقق بضرورة اجتماع الشرطين وهما الزحزحة عن النار ودخول الجنة. فإذا اختل شرط الزحزحة عن النار تعطل القصد ببلوغ الفوز المراد.

وفي عبارة هذا الأسلوب، علق الفوز وهو نيل الحظ من الخير والنجاة من الشرّ على التنحية من النار ودخول الجنة، لأن من لم ينحّ عن النار بل أدخلها، وإن كان سيدخل الجنة لم يفز، كمن يدخلها من أهل الكبائر. ومن نحي عنها ولم يدخل الجنة كأصحاب الأعراف، لم يفز أيضاً.

6. توكيد النفي باستعمال أسلوب الشرط:

قال الله تعالى:﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾.[14]

نفى الله أن يراه عيسى عليه السلام في قوله:"لن تراني". وأكد هذا النفي باستعمال أسلوب الشرط، بحيث علق الله تعالى رؤيته باستقرار الجبل، ثم جعله دكّا، ونبّه بذلك على أن رؤيته لن

تقع، لتعليقه إياها بأمرٍ وُجِدَ ضده وهو الدّكّ المقابل للاستقرار.

وهذا أسلوب مشهور في مذاهب العرب، حيث يؤكدون نفي الشيء بما يُعْلَمُ أنه لا يقع، ويستعملون لذلك التركيب الشرطي أو غيره.[15]

وفي توكيد انتفاء رؤية موسى عليه السلام لذات الله تعالى، تسكين لقلبه ولطف به وبالناس؛ إذ أراه حال الجبل الصلب الذي أصبح مدكوكا بإرادته تعالى.

7. إرادة تسوية حكم الجواب بحكم الشرط:

قال عزّ من قائل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾. [16]

بسبب فقدان دلالة المفهوم يبدو لأول وهلة أن هذا التركيب الشرطي عبثي؛ لأنه لا تظهر أية مناسبة أو ملازمة بين الشرط وجوابه، أي بين الأمر بنكاح النساء وعددهن في جوابِ شرطِ الخوفِ من عدم الإقساط في اليتامى.

أما إذا علمنا من حديث عائشة زوج الرسول ﷺ بأن اليتيمة تكون في حجر وليّها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليّها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فلا يعطيها مثل ما يعطيها غيرُه، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، أو يطلبوا نكاح ما طاب لهم من النساء غيرِهِنّ . أقول إذا ما علمنا هذا من حديث عائشة رضي الله عنها، ظهرت المناسبة بين الشرط والجزاء. وذلك يعني أن لفظ "اليتامى" الذي تسبب إطلاقه في حمل أسلوب الشرط والجزاء على غير معنى الملاءمة بينهما، لمّا قيد بحديث عائشة رضي الله عنها، صار محصور الدلالة، ومقصودا به اليتامى من النساء اللواتي بلغن سن الزواج وكنّ تحت وصاية أوليائهنّ. كما أن تقييد هذا الإطلاق قد فهمه بعض المفسرين من قوله في الجواب: ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ أي نساءٍ غيرِهِنّ، لا يدخلن في فئة اليتامى، فكانت الملازمة بين طرفي الجملة الشرطية واضحة عندهم.

ويظهر وجه الملازمة بين الشرط والجزاء أيضا بربطهما بالمناسبة التي قدمها عكرمة على أنها سبب نزول لهذه الآية. قال:نزلت في قريش، كان الرجل يتزوج العشر فأكثر فإذا ضاق ماله أخذ مال يتيمه فتزوج منه، فنزلت الآية لتسد ذريعة أكل أموال اليتامى؛ إذ حَدَّدَتْ عددا من النساء أقل مما كان يطلبه الرجل، وفي ذلك مَظِنّة ألا تمتد يده إلى أموال أوصيائه.[17]

وجاء جواب الشرط "فانكحوا" بصيغة الأمر المحمول على الندب الذي هو ضد الكراهة، وأما الحال المتعلق به وهو "مثنى وثلاث ورباع" فيتجه بالأمر إلى الإباحة .

ولو حُملت عبارتا الجملة الشرطية على الظاهر لكان معنى الآية أنه لا يباح النكاح مثنى وثلاث ورباع إلا لمن خاف الجور في اليتامى، لأجل تعليقه عليه، أما مَن لم يخف فمفهوم الشرط يدل على أنه لا يجوز له ذلك، والإجماع على خلاف ما دلّ عليه الظاهر من اختصاص الإباحة بمن خاف الجور. حيث أجمع المسلمون على أنَّ مَن لم يخف الجور في أموال اليتامى يجوز له أيضا أن ينكح ذلك العدد كمن خاف. فدلّ إجماع الأمة على أن الآية جواب لمن خاف ذلك، وحكمها أعم.[18] وهذا يعني أن الاقتصار على المعنيين الظاهر والمفهوم لعبارتي الشرط والجزاء، يقف بنا دون الفهم الصحيح، وأن الأمر يتطلب تأويلا أو اعتبار مناسبة ما تتلاءم دلاليا والجملة الشرطية.

وثمة مناسبات أخرى ذكرتها كتب التفسير مُفهمة بأن هذا التركيب الشرطي معدول به عن أصل دلالته الوظيفية العامة، ويتعلق هذا العدول بوظيفة "إنْ" التي صارت بمعنى " كما" التي تستعمل في الربط بين جملتين لأجل التسوية بين مضمونيهما حكما، بإلحاق الثانية بحكم الأولى، مثل قولنا: كما علّمْتَ زيدا فأكرم عَمْرًو، لملاحظة أن الفاعل واحد، والعلة في تعليم زيد هي الإحسان إلى الغير، وهي موجودة في الإكرام أيضا، فوجب على المخاطَب إكرام عمرو.

ومن السياقات المتصلة بهذه الآية ما جاء في تفسير البحر المحيط أنّ ابن عباس وابن جبير وقتادة والسدي قالوا: "كانت العرب تتحرج في أموال اليتامى، ولا تتحرج في العدل بين النساء. يتزوجون العشر فأكثر، فنزلت في ذلك، أي: كما تخافون ألّا تقسطوا في أموال اليتامى، فكذلك فتحرجوا في النساء، وانكحوا على هذا الحد الذي يَبْعُدُ الجور عنه."

وقال مجاهد :" إنما الآية تحذير من الزنا، وَزَجْرٌ عنه، أي كما تتحرجون في أموال اليتامى، فكذلك فتحرجوا من الزنا، وانكحوا ما حُدَّ لكم."

وعلى القولين يكون لفظ "اليتامى" غير مختص بالذكور ولا بالإناث.[19]

واستنادا إلى هاتين الروايتين تكون الجملة الشرطية خارجة عما يقتضيه وجود شرطها من وجود جوابها إلى جريانهما مجرى قضية منطقية، أي أنهما خرجا إلى الدلالة على أن الشرط تضمن مسألة وحكمها وعلته، وذلك هو تحرجهم من مدّ أيديهم إلى أموال اليتامى لما فيه من علة القبح. ومسألة مدّ الأيدي إلى أموال اليتامى ظلما هي الطرف المقيس عليه. وأنه يجب حَمْلُ حُكْمِ مسألةِ الجواب على حكم أختها في الشرط، لجامع علة الحكم بين المسألتين، والعلة الثابتة في الثانية هي قبح الاعتداء على الغير في أموالهم أو أعراضهم. فيكون الطرف المقيس وحكمه: وجوب التحرج من الاستكثار اللامحدود من الزوجات مع عدم العدل بينهن، وكذا التحرج من الزنا، ثم الالتزام بالعدد المحدد من طيبات النساء والعدل بينهن، أو الاكتفاء بواحدة.

وحسب هذين السياقين فإن فعل الشرط الماضي صيغة يقبل احتمال أن يكون ماضيا معنى أيضا، كما يحتمل أن يكون ماضيا لفظا ومعنى. وأما الأمر الذي صدرت به عبارة الجزاء فمستقبل على ما يجيء عليه الأصل.

8. إفادة التهييج والحث على زيادة التثبت:

قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾. [20]

إذا اعْتُبِرَ المخاطبُ سيدَنَا محمدا ﷺ، كان الشرط المراد، على تقدير:إن كنت في شكّ ما يسيرٍ مما أنزلنا إليك... وورد الشرط في الآية بالأداة "إنْ" الموضوعة للفرض والإمكان، بينما لا يتصور منه عليه الصلاة والسلام الشك لانكشاف الغطاء له، فيكون الغرض من الشرط تهييج الرسول عليه الصلاة والسلام وزيادة تثبيته، وليس الغرض إمكان وقوع الشك له عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، ولذلك قال حين جاءته الآية: «لا أشك ولا أسأل». [21]

وهذا يعني أن شخصية المخاطب قد تكون السبب في العدول بالجملة الشرطية المفيدة لترتيب أمر على أمر مشكوك فيه، إلى إفادة التهييج والحث على زيادة التثبت.

وإذا اعتبرنا أنّ الخطاب له عليه الصلاة والسلام، والمراد به أمتُهُ أو كلُّ سامع، يكون تقدير الشرط على الأصل، أي: إن كنت أيّها السامع في شك مما أنزلنا على لسان نبينا إليك فاسأل. ويكون في الآية تنبيه وتوجيه إلى أن من خالجته شبهة في الدين ينبغي له الإسراع في مراجعة من يزيلها من أهل العلم وذلك حسب ما تدل عليه الفاء الجزائية من معنى التعقيب.

وهذا يعني أن الخطاب الخاص برسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام إذا صحّ تعميمه، وإسناده إلى سائر المؤمنين وغيرهم صحّ جريانه على الأصل، وبالتالي يدل الشرط على الأمر المعلق عليه أمر غيره في المستقبل تعليق إمكان.

9. الإغراء بالإقدام على الفعل أو التحذير منه:

قال الله تعالى:﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ﴾. [22]

تركيب الآية: جملة شرطية بنيت على "إنْ" التي هي أم أدوات الشرط. وإذا ما كان علماء البيان يقولون: إنَّ "إنْ" الأصل فيها أن تكون فيما لا يجزم بوقوعه أو عدم وقوعه من فعل الشرط، وذلك في لسان العربية، فإننا إذا ما جئنا للنظر في موقعها في بيان الله تعالى جدُّه، ما يكون لنا أن نقول إن الله تعالى جدُّه لا يجزم بوقوعه أو عدم وقوعه كما نقول في بيان الناس. ولكنا نقول إن الله تعالى إذ يأتي في بيانه هو غير محكي عن أحد من خلقه يفهم من ذلك الإتيان بـ"إنْ" حتُّه من

يخاطبه على أن يفعل ما يغريه به، أو يحثه على أن يكف عما لا يليق به، ويحمل هذا الحَثُّ معه معنى التحذير والتهديد بما تنخلع له أفئدة العارفين للطائف البيان الإلهي الحكيم، فهو دالٌ على أنَّ نصره ليس بالمتوقف على مناصرتهم له، فإنه المستغنى عن ذلك، وشواهد الحال قائمة بين أعينهم وفي آذانهم لم تمسها يد العفاء فتنسى، فهو كما يقول " الطبري " في تفسيره :

"هذا إعلام من الله تعالى أصحاب رسوله ﷺ أنه المتوكل بنصر رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكير منه لهم فعل ذلك به، وهو من العدد في قلة والعدوّ في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة والعدوّ في قلّة؟" [23]

وقد دخلت هذه الأداة على فعل منفي، فأدغمت " النون" في "لام" "لا" النافية، ومجيء النفي بـ" لا" من دون " لن" أو " لم" يظهر فيه أمران:

الأول :استحضار الشرط في كل زمان يقع فيه النفي أي أن هذا الحكم المترتب على تحقق عدم نصركم له ليس خاصًا بهذه الواقعة: غزوة العسرة بل هو ممتد، فـ"الألف" في "لا" تشعر بهذا الامتداد، وفي هذا إيناس عظيم لرسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

الآخر: الإيحاء بعدم الجزم بأنَّ عدم النصر واقع منهم، فلا يفهم أحد أن ذلك الترك مقطوع بوقوعه منهم فيتعلل بالقدر.

فاجتمع الإغراء بالإقدام على المناصرة من رافدين: "إن" من دون "إذا" و"لا" من دون "لن" أو "لم".

وجواب الشرط محذوف تقديره إلا تنصروه فسينصره الله تعالى جدُّه وأقيم مقام الجواب المحذوف دليله "فقد نصره الله "، وهذا من بديع الإيجاز ولو قيل في غير القرآن الكريم :إلا تنصروه فسينصره الله فقد نصره إذ أخرجه لما فهم منه أن "السين" التي في "سينصره" حاملة ما تحمله : قد" في " قد نصره" من التحقيق لكنه لما أقام " قد نصره الله" مقام "سينصره" دلَّ ذلك على كمال تحقق نصر الله تعالى له، فكان فيه جمع من الدلائل على تحقق نصر الله تعالى له : " قد" و الفعل الماضي وإسناد الفعل إلى اسم الجلالة " الله" فإسناد الفعل إليه تعالى جدُّه يحمل إلى قلب المسلم فيضًا من اليقين بتحقق ما أسند إلى اسمه جلَّ جلاله.

ويفهم من إقامة "فقد نصره الله" مقام "سينصره" أن نصره حينئذٍ أي حين ترغبون عن نصره سيكون من بابة نصره إذ أخرجه الذين كفروا، وهم يعلمون كيفية نصره حينذاك فقد كان من قبيل المعجزة المدهشة التي تقف أمامها العقول في غاية من الإبلاس والحيرة.

وهذا يحمل تهديدًا لمن تثاقل ورغب عن النفار في سبيل الله تعالى .

10. استقرار وثبوت الجواب مهما كان الشرط:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي. وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾. [24]

أي قل لو كان جنس البحر مدادا وهو ما تمد به الدواة من الحبر لتحرير كلمات ربي علمه وحكمته التي من جملتها ما ذكر من الآيات الداعية إلى التوحيد المحذرة من الإشراك، لنفذ البحر مع كثرته ولم يبق منه شيء لتناهيه قبل أن تنفد كلمات ربي لعدم تناهيها، فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر. وفي إضافة الكلمات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره ﷺ في الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى وإظهار البحر والكلمات في موضع الإضمار لزيادة التقرير. والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أي لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لو لم نجيء بمثله مدادا ولو جئنا بقدرتنا الباهرة بمثله مدادا عونا وزيادة لأن مجموع المتناهيين متناه...[25]

وإن لو في هذا الاستعمال تدل على أن جوابها قار وثابت سواء أكان الشرط المتقدم ما ذكر أو خلافه، فهي على نحو لو في المثال المشهور:نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه.

ونظير هذه الآية الكريمة في عدم الارتباط بين طرفي الشرطية قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: 154]، لأن سبب بروزهم إلى مضاجعهم شيء آخر غير مذكور في الآية، وهو ما سبق في علم الله من أن بروزهم إليها لا محالة واقع، وليس سببه كينونتهم في بيوتهم المذكورة في الآية، وإلى غير ذلك من الآيات. وهذا فرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية.

11. بيان سفاهة أو مكر الفاعلين:

قال الله تعالى:﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾. [26]

يجري هذا التركيب على الأصل في دلالة "لو" على امتناع جوابها للامتناع شرطها، اعتبارا بأنه يعبر عن عقيدة المنافقين والكافرين.

وأما على اعتبار عقيدة الإيمان فان هذا الشرط فاسد لأن القتل من عدمه حين الخروج إلى الجهاد أمر يرد إلى ما قضى فيه الله، ولا يكون متسببا عن سداد رأي صادر من هذا أو ذاك.

ويمكن القول بأن هذا الشرط مسوق على سبيل بيان سفاهة أحلام المنافقين، وذلك في تأسيسهم قتل البعض منهم على سببية عدم إشراك خاصتهم في الأمر والمشورة.

وهو وإن كان ظاهره صورة العتاب عن ترك مشورتهم فنيتهم منه تخطئة النبي في خروجه

بالمسلمين إلى أُحُد وأنهم أسدّ رأيا منه.[27]

وهو المعنى التداولي الذي أرادوا إثباته في حق الرسول، كيما يبثوا الشك في قلوب أتباعه رغبة في أن يرتدوا عنه.

12. فقدان معنى المجازاة لكون نصها منسوخا بغيره:

يقول عز من قائل: ﴿ أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ. الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [28]

أي: أيها النبي حُثَّ متبعيك ومصدِّقيك على ما جئتهم به من الحق، على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين، فإن يكن منكم عشرون رجلا صابرين عند لقاء العدو، ويحتسبوا أنفسهم ويثبتوا لعدوهم، يغلبوا مائتين من عدوهم ويقهروهم؛ بسبب أنهم قوم يقاتلون على غير رجاء ثواب، ولا لطلب أجر ولا احتساب. ثم خفف تعالى ذكره عن المؤمنين، إذ علم ضعفهم، وكثر عددهم. ودلّت هذه الْآيَةَ عَلَى ثُبُوتِ حُكْمٍ عِنْدَ شَرْطٍ مَخْصُوصٍ، وَتَقْدِيرُهُ إِنْ حَصَلَ مِنْكُمْ عِشْرُونَ مَوْصُوفُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى مُقَاوَمَةِ الْمِائَتَيْنِ فَلْيَشْتَغِلُوا بِمُقَاوَمَتِهِمْ.[29]

وَإذا كان ذكرُ النَّاسِخِ مُقَارِنًا لِلْمَنْسُوخِ لَا يَجُوزُ في علم الناسخ والمنسوخ، فإنّ الْعِبْرَة فِيهِما بِالنُّزُولِ دُونَ التِّلَاوَةِ. والنزول كثيرا ما يرتبط بالوقائع، ولذا أمر الرجل أن يصبر لعشرة، والعشرة لمائة في زمن كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَلِيلِينَ، فَلَمَّا كَثُرُوا خَفَّفَ اللَّه تَعَالَى عَنْهُمْ. وتغير الحكم في القتال إلى ما أصبح عليه المسلمون وهم كثر، إلى أن يصبح الجهاد فرض عين في حق كل مسلم، وذلك إذا ما داهم العدو قرية المسلمين.

إن الشرط والجزاء الواردة بهما الآية الخامسة والستون، هما على صورة التركيب الشرطي النمطي، وهما من حيث الدلالة يدلان على تعليق غلبة المائتين من الكافرين على قتل العشرين من المؤمنين الصابرين لهم. وهذا المعنى مرتبط بفترة وحالة ووضعية معينة مما كان عليه المؤمنون، وذلك حين غزوة بدر لما كان المؤمنون قلة وضعفاء أمام القوة المادية لقريش. ثم تغير هذا الحكم بالتخفيف مع وقوع كثرة المؤمنين.

ولهذا يمكن القول بأن حكم هذا التركيب الشرطي قد نسخ، وبالتالي خرج من بابه إلى مجال الدلالة على مجرد حكم خاص بفترة مضت، ولا يعمل به بوصفه نصا في بقية الفترات اللاحقة. وهذه الفترات يصح لها العمل بالحكم المتضمن في الآية السادسة والستين(66)، وغيره من

النصوص كخبر أنه إذا داهم عدو قرية مسلمة، فإن الجهاد يصبح عينيا. والله أعلم.

خاتمة

إن أسلوب الشرط كغيره من أساليب العربية نص يتعرض للظواهر السياقية الخارجية فيتحصل من ذلك أن يكتسب دلالات خارجة عن الدلالة المرجعية له. وتتعدد هذه الدلالات المبتدعة. وليس من السهل وضع اليد على ما يتجدد منها؛ لأن الكشف عنها يتطلب معرفة محددات المعاني الميتالغوية.

وإذا كان هذا الأسلوب المبحوث عن مقاصده مجاله القرآن الكريم، فإنه يصبح من الضروري استحضار مناسبات النزول ومعرفة الأشخاص الذين يحيل إليهم النص القرآني، والتنبه إلى الثقافة السائدة عند العرب في أزمنة خلت، والعقيدة التي تتحكم في تفكير وسلوك الأشخاص الذين يخاطبون بتلك الأساليب.

إن التأمل في دراسة النماذج القرآنية التي اخترناها يقودنا إلى فكرة أن أسلوب الشرط في الأصل هو تركيب قائم على التعبير عن أفعال إنجازية يقصد إليها المتكلم، ويطالب المخاطب أن يتأثر بها اقتناعا وسلوكا. كما أن العدول الدلالي الذي يميّز أسلوب الشرط هو في الواقع انفتاح على المزيد من المعاني التداولية التي تضطلع السياقات التاريخية والاجتماعية في بلورتها. الشيء الذي توصل إليه أكثر المفسرين، لأنهم يستقصون المعاني العملية التي تعبر عن التكاليف الموجهة إلى العباد. وهو نفسه الشيء الذي يكرس القول بأن اللغة هي أداة للتواصل المجدي بعيدا عن اللغو والعبثية.

ـ الهوامش:

(1) ينظر كل من ابن مالك، شرح التسهيل: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق محمد عبد القادر عطا وطارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2001، 386/3. وأبي حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق: رجب عثمان محمد ورمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 4/ 1862.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، 8 / 155.

(3) قال ابن مالك: وأجزم بإن ومن وما ومهما... فعلين يقتضين شرطا قدما... يتلو الجزاء وجوابا وسما. أي إن أدوات الشرط تقتضي جملتين، تسمى الأولى شرطا والثانية جزاء وجوابا أيضا. ويجب كون الأولى فعلية، وأما الثانية فمنها ما تكون فعلية أيضا ومنها ما تكون اسمية... وقد قال(فعلين) تنبيها على أن الحق في الشرط والجزاء أن يكونا فعلين، وإن كان ذلك لا يلزم في الجزاء." ينظر: المرادي (749هـ)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق:عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 2001، 1274/4، 1277.

(4) ذلك أن اقتران الجزاء بالفاء الرابطة له بالشرط، يعلم منه أن جملة الجزاء في الأصل مستقلة بمضمونها عن الشرط، وإنما أريد لها أن تكون ملازمة له، وبمنزلة المترتبة عنه على سبيل السببية، ثم يأخذ إعرابها إعراب الفعل المضارع المجزوم بأداة الشرط.

(5) عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط 15، 4/ 422.

(6) الأنبياء: 47.

(7) الزمر:4.

(8) ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، 23/ 324.

(9) آل عمران:20.

(10) الألوسي (شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق محمود شكري الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د. ت، 3/109.

(11) المائدة:116.

(12) آل عمران: 185.

(13) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 4/188.

(14) الأعراف: 143.

(15) ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ الأعراف: 30.

وقول الشاعر:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي		وصار القار كاللبن الحليب.

البيت غير منسوب لقائل بعينه، وقد استشهد به أبو البقاء كمال الدين الشافعي(المتوفى: 808هـ) في الأمثال المتصل بالغراب. ينظر: محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري أبو البقاء، حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، 1424 هـ، 2/244.

(16)النساء: 3.

(17) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 3/222، 223.

(18) أبو حيان الأندلسي(محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان)، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل احمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 1993، 3/171.

(19) جاء في لسان العرب: "... وَهُوَ يَتِيمٌ حَتَّى يبلغَ الحُلُم. اللَّيْثُ: اليَتِيمُ الَّذِي مَاتَ أَبوه فَهُوَ يَتِيمٌ حَتَّى يبلغَ، فإِذا بَلَغَ زَالَ عَنْهُ اسمُ اليُتْم، وَالجَمْعُ أَيْتَامٌ ويَتَامَى ويَتَمَةٌ، فأَما يَتَامَى فَعَلَى بَابِ أَسارى، أَدخلوه فِي بَابِ مَا يَكْرَهُونَ لأَن فَعالى نظيرُه فَعْلى، وأَما أَيْتَام فإِنه كُسِّر عَلَى أَفعالٍ كَمَا كَسَّرُوا فَاعِلًا عَلَيْهِ حِينَ قَالُوا شَاهِدٌ وأَشْهاد، ونظيرُه شريفٌ وأَشْراف ونَصِيرٌ وأَنْصارٌ، وأَما يَتَمَةٌ فَعَلَى يَتَمَ فَهُوَ يَاتِمٌ، وإِن لَمْ يُسْمَعِ." ابن منظور (محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري)، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة، 1414 هـ، 12/ 645.

(20) يونس: 94.

(21) الألوسي، (شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق محمود شكري الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د. ت، 11/189-190.

(22) التوبة:40.

(23) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن الكريم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000 م، 14/ 257.

(24) الكهف: 109.

(25) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان، 3/ 562.

(26) آل عمران: 154.

(27) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير،4/ 137.

(28) الأنفال: 65-66.

(29) فخر الدين الرازي (محمد بن عمر بن الحسين)، مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ط1، 1981، 15/ 504.

Significance of condition style on the non-penalty in the Koranic text

El-akhdhar SADANI*

Abstract:

Condition style is one of the Arabic language methods, however, it may exceed the significance of the condition and the penalty , as it may indicate other meanings subject to context. This indicates the ability of the Arabic language. This is shown in the text of the Koran.

Keywords: Condition style - Quranic text - significance.

* Faculty of Arts and Languages – University of El-oued - Algeria.

تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها...الواقع والمأمول
المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس أنموذجا

بقلم
د/ البشير مناعي(*) ود/ دلال وشن(**)

ملخص

هذه قراءة وصفية تحليلية لإشكالية تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها؛ وقد تمّ التركيز على البيئة الفرنسية تحديدا، ليتم التعرّض لأهم العوائق التي تعترض المهتمين بهذا الموضوع والمشتغلين به.

وقد كان محور الدراسة التطبيقي يتناول المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس أنموذجا ؛ والذي وقفنا من خلاله على الجهود المبذولة في سبيل تحقيق النجاعة في العملية التعليمية، وأهم الإشكاليات الحائلة دون تحقيق النتائج المرجوّة، مع تقديم رؤية – متواضعة – لإصلاح ما يمكن إصلاحه، والوصول إلى مدرسة نموذجية تمثّل الهدف المأمول للقائمين على تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية– التدريس– باريس– غير الناطقين بالعربية.

توطئة:

يجمع الدارسون على أنّ اللغة العربية هي أقدم اللغات، وقد اختارها المولى عز وجل لتكون لغة كتابه العزيز ؛ القرآن الكريم، وقد تميزت بخصائص عديدة على مستوى الألفاظ والتراكيب والأدب والتصوير لتبلغ ذروة الكمال في التعبير عن أساسيات الحياة، بل هي مكتملة في ولادتها كما يقول الكاتب الفرنسي أرنست رنان: « اللغة العربية بدأت فجأة على غاية الكمال، وهذا

(*) أستاذ محاضر "أ" بقسم اللغة العربية وآدابها ـ كلية الآداب واللغات ـ جامعة الوادي.
(*) أستاذ محاضر "ب" بقسم اللغة العربية وآدابها ـ كلية الآداب واللغات ـ جامعة الوادي.

أغرب ما وقع في تاريخ البشر، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ... » [1].

وقد تزامن ظهور عدة علوم مع نزول القرآن الكريم والتي كانت سببا بلوغ الحضارة الإسلامية شأوا عظيما لم تبلغه حضارة قط ؛ ومن هذه العلوم الطب والكيمياء والفلك والجغرافيا وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة، فأوْلى العرب لغتهم الأهمية الكبرى، وذلك لما تمتاز به من قوة البيان وجزالة اللفظ ووفرة المعنى... لتغدو لغة تحمل رسالة إنسانية بمفاهيمها وأفكارها، واستطاعت بحق أن تكون لغة حضارة إنسانية واسعة اشتركت فيها أمم شتى كان العرب هم نواتها الأساسية والموجهين لشراعها.

لكل هذه العوامل حرص الناطقون بغير اللغة العربية على الاهتمام بهذه اللغة ودراستها، والتعرف على قواعدها ومفرداتها ومعانيها... ليفتح الباب مشرعا للدارسين والمهتمين بها للغوص في علم يدعى: "تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها "، فيكون ظهور هذا العلم مساعدا لتفعيل دور اللغة العربية في مواجهة التحديات على اختلاف أنواعها ومشاربها، ولا ريب أن انتشارها بين المسلمين غير العرب أو العرب المهاجرين إلى بلدان الغرب، يساعدهم على فهم أمور دينهم، وارتباطهم الوثيق ببيئاتهم الأصلية، والأكيد أن تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها سيكون باللغة العربية الفصحى وليس باللهجات العامية؛ لأن الأولى هي الأقدر على تلبية حاجيات التعلم في نواحي الحياة المختلفة.

إشكالية تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها:

يكاد يجمع أهل الاختصاص على وجود أزمة حقيقية تمس تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وخاصة ببلدان الغرب الأوروبي، وتحديدا بفرنسا – محل الدراسة – إذ لم يحظ هذا الجانب كفايته من الدراسات العلمية الأكاديمية، فتعددت وتنوعت طرق تعليم اللغة العربية بشكل واسع بنحو غير متكافئ من جوانب عدة كنوعية التأطير وسعة الاستيعاب، بالإضافة إلى تنوع الفاعلين من أكاديميين وغيرهم، ولا ريب أن تأثير أوساط أخرى كالجمعيات والمساجد لخير دليل على ذلك.

ويذهب بعض الدارسين إلى أن تعليم اللغة العربية مسألة غير جديدة في الغرب وذلك لأن بدايات تدريسها يعود إلى أيام وجود المسلمين في الأندلس، وقد كانت فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية في ذلك الوقت تستقدم منهم المعلمين لتدريس اللغة العربية وبقية العلوم والفنون التي ازدهرت عند العرب في بلاد الأندلس كالرياضيات والفلسفة والموسيقى وغيرها...

وأول من نادى بضرورة تعلم العربية في فرنسا هو الملك فرنسوا الأول في القرن السادس عشر، ليواصل المستشرقون اهتمامهم باللغة العربية كما فعل شارل بلا الذي عكف على دراسة كتب التراث العربي : ككتاب كليلة ودمنة وقصص ألف ليلة وليلة ورسائل الجاحظ وغيرها.

أما حديثا فقد بدأ المجتمع الغربي يمسه تحول في واقع اللغة العربية، حيث شهد ولادة عدد كبير من المدارس المتخصصة في تعليم اللغة العربية. وبدأ العالم الغربي يهتم بالحضارة العربية الإسلامية؛ ليس من باب الفضول في معرفة الآخر هذه المرة، بل لأن الحضارة العربية والإسلامية قد أصبحت مكونا أساسيا لشخصية الملايين من المواطنين. هذا كله رغم التعامل الحذر الذي تبديه الهيئات الرسمية الغربية تجاه اللغة العربية خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر، لتبتدئ اللغة العربية في شق طريقها في هذه البيئة الجديدة الغريبة عنها بالأصل رغم كل العراقيل والمصاعب.

وفي فرنسا لم يعد تعليم اللغة العربية مقتصرا على مجموعة من المعاهد ذات الطابع الرسمي فقط كما نجد ذلك في معهد الدراسات الشرقية الذي أسّس في بداية الأمر لتعليم اللغات العربية والفارسية والتركية (وهو يدرس حاليا قرابة المائتي لغة شرقية) ولا على أقسام اللغة العربية في جامعة باريس (السربون) أو باريس ثمانية، وليل وأكس بروفانس ومعهد العالم العربي والمدارس العربية التي أسستها بعض الدول العربية عن طريق سفاراتها، بل تعداها إلى انتشار المعاهد الخاصة والجمعيات والمساجد انتشارا مذهلا ، وهو ما يفسر تلهف الجالية العربية والمسلمة على تعلم اللغة العربية، بل مس هذا التلهف الفرنسيين أنفسهم على لغة عرفت بثرائها وجمالها، وهو ما يشهد به العدو قبل الصديق، ولا أدل على ذلك من قول Hitti,P.K : "إنني أشهد من خبرتي الذاتية، أنه ليس ثمَّة من بين اللغات التي أعرفها وهي تسع لغات لغة تكاد تقترب من العربية سواء في طاقتها البيانية أم في قدرتها على أن تخترق مستويات الفهم والإدراك، وأن تنفِّذ وبشكل مباشر إلى المشاعر والأحاسيس، تاركة أعمق الأثر فيها، وفي هذا الصدد فليس للعربية أن تقارن إلا بالموسيقى..."[2]

وبنظرة فاحصة في واقع تعليم اللغة العربية بفرنسا . خاصة عند الجالية المهاجرة . على اعتبار أنهم المعنيون أكثر بتعلمها . فإن ذلك يدفعنا للوقوف على الضعف الذي يسم دور الدول المعنية بجالياتها في مجال تعليم اللغة العربية؛ هذا الضعف الذي حاولت الجمعيات الدينية والمساجد تغطيته وسدّ ثغرته، لتعمل على تأطير وتوجيه وتدريس اللغة العربية لأبناء المهاجرين. رغم أنّ المساجد في حقيقتها هي فضاءات روحية سدّت عجزا فاضحا في تعليم اللغة العربية؛ إلا أنّها تتخبّط في عشوائية التسيير وانعدام الأطر الكفأة في التدريس، لأنّ هؤلاء الأساتذة يفتقرون – في

الغالب- إلى تكوين نوعي ومؤهلات علمية والأكثر من ذلك فإنّ أغلبهم لا يتقنون اللغة الفرنسية- لغة بلاد الإقامة- والطرق البيداغوجية المتبعة في المدارس الأوروبية، وهو ما يجعل التواصل منبتّا بين المعلم والمتعلم.

بالإضافة إلى أنّ جزءا كبيرا من الجالية بفرنسا والمعنية بالدراسة تنتمي إلى الأصول الأمازيغية أو غير العربية، وهو ما يزيد الأمر تعقيدا أكثر على مستوى التلقين ، زد على ذلك اعتماد المدرّسين على مقررات وكتب مستوردة من المغرب العربي أو عن الشرق الأوسط والتي قد لا يراعى فيها خصوصية الطابع اللغوي واللساني الذي طبع به أبناء الجالية. وبالتالي فالعملية التعليمية ميّزها الارتجال والافتقار إلى منهج تربوي واضح وملائم لخصوصية هذه البيئة التي نشأ فيها أبناء الجالية، ليخلق لنا جيلا ضعيفا في بنائه اللغوي غير قادر على التعبير بلغة عربية فصيحة وسليمة.

المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية : أنموذج الدراسة

قبل أن نلج بالحديث عن المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس نجد أنفسنا مدفوعين إلى التعرف على ما يسمى باتحاد المعاهد الأوروبية للعلوم الإسلامية والإنسانية...

لمحة تاريخية:[3] بدأ بعض قيادات المسلمين منذ بداية الثمانينيات وتحديدا سنة 1980 في التفكير في إنشاء مؤسسات لها اهتمامات بشؤون المسلمين المقيمين بأوروبا، ومن الهياكل التنظيمية التي أولت هذا الموضوع اهتمامها "اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا" الذي أنشأ مؤسسات تضطلع بتكوين علمي للمربين والأمة والمعلمين وفق أسس منهجية علمية.

في سنة 1990 تم افتتاح أول معهد في فرنسا في شاتو شنون تحت اسم المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية، ثم في سنة 1997 افتتح معهد آخر في بريطانيا، وفي سنة 2000 تم افتتاح معهد باريس..ليبتدئ التفكير في إنشاء اتحاد المعاهد الأوروبية للعلوم الإنسانية في سنة 2007 .

ويمكن تلخيص رسالة الاتحاد في نشر تعليم عال وتكوين أطر في مجالات العلوم الإنسانية والإسلامية وخدمة المجتمع الأوروبي في العموم والجالية المسلمة بالخصوص، ويمكن حصر العديد من الأهداف التي رسمها الاتحاد، وأهمها :

- ✓ تقديم الدعم المادي والمعنوي للجمعيات الأعضاء في الاتحاد لتسهيل مهمتها وتمكينها من أداء مهامها.
- ✓ مدّ الجمعيات الأعضاء بالمناهج البيداغوجية والتعليمية والشهادات المناسبة والتنسيق بينها.
- ✓ تطوير المناهج العلمية والبيداغوجية ذات الصلة بالعلوم الإنسانية والإسلامية.

- ✓ العمل على التعريف بالدين الإسلامي وثقافته وحضارته.
- ✓ الوصول إلى رسم خطط للتعاون والتبادل مع المؤسسات الأكاديمية الأوروبية وغيرها.

وإذا انتقلنا ـ تحديدا إلى المعهد الأوربي للعلوم الإنسانية ـ فهو ثمرة لمبادرة "اتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا" العضو بـ" اتحاد المنظمات الإسلامية بأوروبا " عام 1990، وذلك بمشاركة علماء ومفكرين وباحثين من أوروبا والعالم الإسلامي بتأسيس جمعية اسمها "المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية (IESH)، ومع ازدياد الطلب تمّ فتح فرع للمعهد في بريطانيا بويلز سنة 1997، ثم فرع آخر للمعهد في باريس في 2000 (محل الدراسة) ليتجسّد بذلك المخطط الذي رسمه مؤسسو الاتحاد وهو ضرورة إيجاد بنى ومؤسسات تلبي حاجة المسلمين في الحفاظ على دينهم ولغتهم العربية مع الأخذ بالاعتبار خصائص وواقع المجتمعات الأوروبية عموما والفرنسية بالخصوص.

وفقا للمادة الثانية من القانون الأساسي للمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية تتلخص أهداف المعهد في الأهداف التالية.

- ✓ إنشاء المؤسسات التعليمية في العلوم الإنسانية.
- ✓ ممارسة التعليم الديني بصفة علنية
- ✓ تنظيم وتقديم المحاضرات والدورات التعليمية وتدريبية في العلوم الشرعية للرجال والنساء دون تمييز
- ✓ إصدار الشهادات في ميدان العلوم الدينية
- ✓ إعداد ونشر الدراسات والبحوث.
- ✓ نشر المعرفة والدين والثقافة والحضارة الإسلامية بجميع الوسائل المناسبة.
- ✓ التنسيق والتعاون مع المؤسسات ذات الأهداف المماثلة.

وقد بدأ المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية في باريس في ضاحية سان دوني المعروفة بكثافة سكانها ذوي الأصول المهاجرة في يناير 2001 م بحوالي 180 طالبا ثم تطور العدد ليصبح سنة 2014 حوالي 1800 طالبا بالانتظام والانتساب، كل ذلك في أجواء مريحة ومشجعة على طلب العلم في العاصمة الفرنسية. وقد رسم القائمون على المعهد أهدافا لمؤسستهم التعليمية يمكن تلخيصها في الآتي :

- ✓ إنشاء مؤسسات لتعليم العلوم الإسلامية
- ✓ التعليم الشرعي

- ✓ تنظيم محاضرات ودورات تكوينية وتأهيلية في العلوم الإنسانية والدينية
- ✓ تقديم شهادات في مجال العلوم الشرعية.

وإذا انتقلنا إلى النظام الدراسي للمعهد، فيمكن القول أن الدراسة فيه تقوم على تخصصات تتمحور في أقسام أهمها:

1. قسم اللغة العربية للناطقين بغيرها
2. قسم الشريعة وأصول الدين
3. قسم القرآن الكريم والقراءات
4. قسم تكوين الأئمة والمربين
5. قسم الدراسات العليا
6. قسم الدراسة بالانتساب
7. قسم الدراسات الإسلامية باللغة الفرنسية

ويضم المعهد طلبة من الجنسين يتساويان تقريبا في العدد ما بين عرب وفرنسيين ذوي أصول عربية وفرنسية و أفارقة، بل حتى طلبة من ذوي جنسيات أسيوية كاليابانيين وغيرهم ممن لهم رغبة في دراسة اللغة العربية والقرآن الكريم وعلوم الدين الإسلامي.

وقد لخّص مدير المعهد توجّه المؤسسة وتركيبتها في حوار أجراه مع الجزيرة نت بقوله : إن "وجودنا في العاصمة قصد به تلبية احتياجات المسلمين في المنطقة الباريسية التي تضم نحو مليوني مسلم أي ثلث إجماليهم في فرنسا ، ولدينا 850 طالب علم ما بين من يتابع دروساً مكثفة أو ليلية أو في عطلة نهاية الأسبوع، علماً بأن أغلبية الدارسين لديهم وظائف يعملون بها في الوقت نفسه." [4]

ويقوم المعهد على الهبات من الداخل والخارج؛ إذ تكشف مطالعة دفاتر المعهد عن ميزانية سنوية حجمها 700 ألف يورو تعاني من عجز نسبته 20٪. ويطرح جاب الله نظام الكفالة على الراغبين في دعم المعهد يقوم بمقتضاه القادرون بالتكفل برواتب العاملين التي تستقطع نسبة مهمة من الميزانية...[5]

تدريس اللغة العربية وإشكالياته للناطقين بغيرها:

قراءتنا لتدريس اللغة العربية بأنشطتها المختلفة في المعاهد والمدارس الخاصة – ومن ضمنها المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية – كشفت لنا بجلاء عن العديد من الإشكالات والتي نرى بضرورة الوقوف عليها واقتراح حلول لها، وتتميّز هذه الإشكالات بتنوّعها على مستوى:

الصوت والصرف والنحو والدلالة...

أوّلا ـ إشكالات صوتية:

ـ لقد حرص القائمون على تدريس اللغة العربية في المعهد وغيره من المدارس التي تهتم بهذا المجال ـ على اختلاف مستوياتهم وإمكانياتهم ـ على تقديم الدرس اللغوي للناطقين بغير اللغة العربية عموما والفرنسية بالخصوص على مستويات عدّة، ولعلّ أهمها على الإطلاق المستوى الصوتي؛ ليتعرّف الطالب أساسا على مخارج الحروف وهي العشرة الشفوية والشفوي الأسنانية، والأسنانية اللثوية، والجانبية، والغارية، والطبقية واللهوية والحلقية والحنجرية[6]، وقد أكّد الباحثون على أن اللغة العربية تختلف عن اللغات اللاتينية باحتوائها على عدد أكبر من المخارج الاحتكاكية؛ وقد لمسنا صعوبة كبيرة عند المتعلمين الأجانب في نطقها وخاصة الأصوات اللهوية والحلقية كالأصوات: الحاء والعين والقاف والخاء.. ولعلّ السبب في صعوبة نطقها عدم وجودها في لغتهم الأم اللغة الفرنسية، حينها يجد المتعلّم نفسه مجبرا ـ دون قصد ـ إلى استبدالها بأصوات أخرى. فالمعالجة لمشكلة الأصوات، ليست من السهولة بمكان، للناطقين بغير العربية في مرحلة متأخرة من العمر، لأن الجهاز الصوتي تشكل، وأخذ قالباً مناسباً لأصوات اللغة الأم، أو أصوات الطفولة المكتسبة، مثل اللهجات، أو اللغة الثانية الشبيه بالغة الأم .[7]

وترى الباحثة هداية هداية أنّ تعلم الأصوات في مرحلة متأخرة قد يكون صعباً لكنه ليس مستحيلاً مع التكرار والمعايشة فالمتعلم يمكن أن يتعود النطق الصحيح أو على الأقل القريب من الصحيح بدليل أننا نسمع ونقلد الأصوات حتى ننطق اللغات الأجنبية بطريقة قريبة من نطق أصحابها.[8]

زد على ذلك بعض العوائق الأخرى ذات الطابع الصوتي والتي ساهمت في تعميق الأزمة وعلى رأسها عدم الاستفادة من وسائل التقنية الحديثة كالمختبرات اللغوية والتسجيلات الصوتية.

ثانيا ـ إشكالات نحوية:

ومن الإشكالات التي تعترض متعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها، الالتزام بالقواعد النحوية التي تبنى عليها لغتنا وتتباين عما يوجد في لغة البيئة الأم، ومن أهمها:

1- الاختلاف في بنية الجملة العربية عن بنية الجملة في العديد من اللغات الأخرى، ومن أشكال هذا الاختلاف خلو الجملة العربية من الأفعال المساعدة، أو أفعال الكينونة.

2- حرية الترتيب في عناصر الجملة العربية؛ فيتم التقديم أو التأخير بين عناصرها لضرورة أو

لغرض بلاغي، بخلاف ما نجده في غيرها من اللغات.

3 – التذكير والتأنيث وعلاماتهما، وإن كانت مشكلة عامة في لغات العالم الأخرى.

4 – إشكالات الأعداد وتذكيرها وتأنيثها، والذي يعدّ من أكثر أنظمة اللغة العربية تعقيدا نظرا لتشعّباته.

5 – الإعراب أو العلامة الإعرابية؛ فالإعراب سمة وسمت بها اللغة العربية دون غيرها من اللغات.

6 – التعريف والتنكير، وهي من أعقد الإشكالات التي تعترض متعلّمي اللغة العربية الناطقين بغيرها.

7 – كثرة القواعد وتنوّعها عند التطبيق.

8 – عدم ربط قواعد النحو بالقراءة والتعبير، ودروس اللغة الأخرى.

هذه أهم الصعوبات التي تعترض متعلّمي اللغة العربية من غير الناطقين بها – في العموم – ذات الصلة بالنحو والقواعد اللغوية، وإن كان ذلك لا ينفي أهمّيتها باعتبارها ركنا أساسيّا من أركان تعلّم اللغة وضبط استخدامها.

ثالثا ـ الإشكالات الصرفية

الصرف هو العلم الّذي يُعنى بتحويل الكلمة من أصل واحد إلى كلمات أخرى من نفس الجذر لمعانٍ مقصودة ذات مغزى، وهذا التغيير هو الّذي يفيد في المعنى. وهو علم يبحث في مفردات اللغة من حيث صورتها، وهيئتها، وما فيها من صحّة، أو إبدال، أو إعلال، أو إدغام، وهو علم دراسة المشتقّات في اللغة، وبمعنى آخر هو العلم الّذي يدرس "بنية الكلمة" في اللغة العربيّة ومعناها من حيث المشتق منها. وهذا النظام الصرفي الاشتقاقي الذي يميّز اللغة العربية لا نجده في غيرها من اللغات، وبالتالي خلق صعوبات جمّة لقاصدي تعلّم اللغة العربية ومنها:

1– تعدّد وتشعّب أبواب الصرف ومواضيعه وتعقّد مسائله وقضاياه؛ إذ لكل باب في الصرف موضوعاته ولكل موضوع تفريعاته، ولكلّ فرع أحكامه وقضاياه...

2 – انفراد اللغة العربية بقضايا صرفية لم يكن لمتعلّميها من الناطقين بغيرها عهد بها في لغة بيئتهم الأم، وعلى رأسها: ظاهرة الاشتقاق، والميزان الصرفي، الإفراد والتثنية والجمع (مما يدخل في نظام الأعداد) بالإضافة إلى قضايا أخرى كأبنية الأفعال والمصادر.. وغيرها.

3 – اختلاط الأمر على المتعلّمين بين السماع والقياس في بعض أبواب الصرف. أي عدم اطراد القواعد الصرفية التي وضعها الصرفيون، ليكون الشذوذ أحيانا أكثر مما وافق القواعد.

4 – التداخل بين القضايا الصرفية والنحويّة في بعض الأبواب، وهو أمر طبيعي لقوة الصلة الرابطة بين العلمين في جوانب عديدة.

5 – معظم المواد والموضوعات الصرفية في كتب تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها تقدم للمتعلمين من خلال طرائق التدريس التقليدية المتبعة في تدريس الناطقين بها.[9]

6 – التأثير الواضح للعديد من الصعوبات الصوتية التي يعاني منها العديد من متعلّمي اللغة العربية من غير الناطقين بها. في فهم بعض المسائل الصرفية، وذلك لكون الأصوات في ذاتها هي مادة صرفية.

رابعا ـ الإشكالات المعجمية :

وهي الإشكالات ذات الصلة بالجانب الدلالي، ويمكن إجمالها في النقاط التالية :

1 . الكثرة العددية لكلمات اللغة العربية، وهو ما يجعل المتعلّم يصعب عليه التحكم فيها مما بلغت معرفته باللغة وعلومها ودلالاتها.

2. تعدد المعاني وتنوّع الدلالات للكلمات في اللغة العربية.

3 . انتقال الكلمة في اللغة العربية من الدلالات الحقيقية إلى المجازيّة، وهو ما يجعل تحديد المعنى من الصعوبة بمكان؛ خاصة عند الناطقين بغير العربية.

. بالإضافة إلى أنّ ارتباط الكلمات العربية بالتصريف وتنوّعها بسبب خضوعها للقواعد الصرفية من حيث الشكل والبنية والميزان الصرفي كلّ ذلك يشكّل صعوبة يحياها المتعلم، فالمتعلمون الناطقون بغير اللغة العربية يعتقدون أنّ تعلّم الكلمة لا يتعدّى حفظها وفهم دلالتها، ولهذا يلجؤون إلى وضع الكلمات في قوائم وحفظ معانيها معزولة عن سياقها، وهذا لكونهم لـم يتعوّدوا على هذا النوع في لغاتهم...

إنّ المتعلم للغة العربية تواجهه صعوبات في تحديد دلالات بعض الكلمات وتوظيفها، فتجده يخطئ في الفهم والاستعمال بسبب تأثير اللغة الأم وقواعدها ؛ فهو يتصور أن المعاني التي تدور في ذهنه يمكن أن يستعملها بالطريقة نفسها التي كان يستعملها في لغته الأم،مع اختلاف اللفظ فقط، والسبب في هذه المشكلة الاعتماد على الترجمة من تأثير لغته الأم – كما أشرنا – وصعوبة التعبير عن المعاني العربية بالكلمات والأساليب العربية.

ويمكن تذليل هذه الإشكالات المعجمية بحلول يمكن إجمالها في التالي: [10]

أ – اختيار الكلمات اختياراً علميًّا دقيقًا وتقدم للمتعلمين تقديماً جيداً يراعى فيها الأساليب العملية التربوية فلابد أن تكون الكلمات شائعة الاستعمال وتقدم بشكل تدريجي من السهل إلى

الصعب.

ب – تقدم الكلمات بنسب متفاوتة من خلال أنماط شائعة الاستعمال ومتدرجة من حيث الصعوبة والتعقيد، ويراعى في ذلك مستوى المتعلمين؛ فتكون فوق مستواهم قليلاً فلا تكون سهلة جداً ولا صعبة جداً.

ج – يكون اختيار الكلمات وترتيبها وتقديمها مبنياً على الدراسات اللغوية النفسية في اللغة العربية التي تبين التدرج الطبيعي لاكتساب مورفيمات اللغة العربية وصيغها الصرفية ووظائفها النحوية.

د – تقدم الكلمات الجديدة ذات المعاني غير المألوفة لدى المتعلمين من خلال أنماط مألوفة وتراكيب قصيرة وأساليب سهلة ليتمكن الطالب من معرفة معنى الكلمة الجديدة من غير حاجة للبحث عنها في المعجم.

هـ – ينبغي أن تراعى حاجة المتعلمين إلى كلمات معيّنة في كل مرحلة من مراحل التعلم حتى لو كانت هذه الكلمات معقدة.

و– يجب أن يكون محتوى النصوص معروفاً ومفهوماً لدى المتعلمين فلا يجمع النص بين صعوبة الكلمات وغرابة المعنى.

ز– ضرورة مصاحبة المقررات بعض المواد الرافدة من كتب وقصص يستفيد منها المتقدمون باللغة لتزداد ثروتهم اللغوية.

ح – تزويد الكتاب بالصور التوضيحية اللازمة، بشرط أن تكون واضحة وضرورية وأن توضع في مكانها المناسب.

خامسا ـ إشكالات منهجية:

ويتعلق الأمر بالإشكاليات ذات الصلة بطرق التدريس للكتاب المقرر، ومن المهم التركيز على الجانب السمعي الشفهي، ويرى بعض الباحثين أن المشكلة التي تعاني منها برامج تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها هي صعوبة التخلص من هذه الطريقة رغم اقتناع الكثير من القائمين على هذه البرنامج بوجوب تغييرها واستبدالها بطرائق تحقق الهدف المرجو، وأن التخلص من هذه الطريقة صعب بل يبدو مستحيلا مادامت محتويات مقررات تعليم العربية من مفردات وصيغ وتراكيب قد اختيرت ونظمت على أساس من هذه الطريقة.[11]

ومما يدخل في هذا الإطار التكوين العلمي والمنهجي لمعلم اللغة العربية لغير الناطقين بها، إذ من أخطر المشكلات التي يعاني منها تعليم العربية لغير الناطقين بها، ندرة وجود المعلم الكفء

القادر على تكيف الأهداف، والمواد التعليمية، وطريقة التدريس مع نوعيات الدارسين وحاجاتهم وحاجات البيئة التي يعيشون فيها.[12]

فالباحثون يجمعون على وصف المعلم بأنه هو الأساس في المنظومة التعليمية، وله الأولوية فيها؛ إذ أن الأهداف تتحقق على يد المعلم الكفء ذي الوعي والإدراك. لذا يجب أن يكون الاهتمام منصبّا على إعداد المعلّم إعدادا جيّدا لتحقيق إصلاح العمليّة التعليمية في أي بيئة وفي أي مجتمع. ولا يتحقق ذلك إلا بالعمل على تطوير كفاءته التربوية وتزويده بالمهارات العلمية والمهنية التي تؤهّله للتفاعل الناجح مع المنظومة التربوية.

وأهمّ ما يجب أن يراعى في المعلّم ما يلي:

1- أن يكون معلّم اللغة العربية محيطا باللغة الأم – بالإضافة إلى تكوينه الأساسي في اللغة المدرّسة –وهذا لغرض تحقيق التواصل الفعّال مع المتلقّين.

2 – إعداد برنامج تدريبي هدفه تنمية بعض الكفايات اللازمة لمعلم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

3 – الاعتماد على الجانب التشويقي، وخاصة في توطئته لدروسه، فيراعي المعلّم تنظيم ما يختار وينتقى بشكل يقع في نفس المتعلم وعقله موقع القبول والتفاعل.

4 – أن تكون للمعلّم مؤهلات يحقق بها النجاح باعتباره مربّيا ومعلّما في الآن ذاته؛ ويمكن حصرها في التالي: [13]

أ – المؤهل الفطري: ويتمثّل في الاستعداد الطبيعي لرسالة التربية بحبّها والميل إليها.

ب – المؤهلات المكتسبة: وهي مراتب

- المؤهل العلمي: إن المعلّم يكوّن ويربّي، لذلك فالمطلوب أن يتسلّح بقدر كبير من المعارف التربوية النظرية والتطبيقية فضلا عن معارف المادة التعليمية، فالكفاءة العلمية، والتحقّق من المعارف والتمكّن منها أساس العمليّة التربويّة بشقّيها التكويني والمعرفي.
- المؤهل التربوي البيداغوجي:

فالكفاءة العلميّة لا تكفي وحدها في العملية التربوية إذا لم توازها كفاءة تربوية بيداغوجية تتمثّل في حسن العطاء وحسن التوجيه والقدرة على قيادة الفوج التربوي فضلا عن فهم حاجات المتعلّم وخصائص شخصيته والاهتمام به، فيكون قدوة له عارفا طريقة التعامل معه سواء في مجال التكوين أو في السلوك.

○ المؤهل الاجتماعي: إنّ المطلوب من المربي أن يفهم الواقع المتجدّد باستمرار، ويطّلع على أحداث زمانه من جهة، كما يجب عليه أن يتسلّح بقدر من الروح الجماعية التي تمكّنه من التعايش مع الجماعة التربوية التي يشرف عليها.

○ المؤهّل الرسالي الحضاري: فالتربية رسالة وليست وظيفة فقط، والمربّي لا بدّ أن يدرك هذه الحقيقة الهامّة وهو يمارس العمليّة التربويّة، بل لا بدّ أن يدرك مجموعة من الأمور ذات الصلة الوثيقة بالتربية، وهي :

- إدراك رسالة المجتمع في الحياة.
- استيعاب معادلة الصراع الحضاري والعالمي.
- فهم دور رسالة التربية في إعداد المتعلّم لذلك كلّه.

ج. أخلاق المربّي:

فالعمليّة التربويّة تقتضي من المربّي الاتصاف بفضائل الأخلاق والالتزام بها مع نفسه، وفي دروسه، وفي معاملة تلاميذه، والمحيط حواليه؛ فهو قدوة حسنة، وإذا افتقد فيه المتعلّم القدوة فقد الثقة فيه، وانعكس ذلك على المردود التربوي، وعلى سلوك المتعلّم نفسه.

5 - إيلاء الاهتمام الأكبر على نشاط التعبير بنوعيه: الشفهي والكتابي وهما من أهم الأنشطة التي تؤكد تحكّم المتعلّم في التقنيات اللغوية؛ فالشفهي يهدف من خلاله المعلّم إلى التواصل بلغة سليمة والتعبير عن المشاعر والأفكار والآراء، مع التركيز على الأهداف التعلّميّة التالية :[14]

* - الاعتماد على ثراء اللغة وخصوبة الأفكار في المحادثة والمناقشة.
* - تناول الكلمة في وضعية ذات دلالة.
* - القدرة على ضبط النفس في محادثة الآخرين، مع مراعاة شعور من يحادثهم، وضرورة تمييز الكلام الموجّه إلى الآخرين وفقا لمقامهم ومنزلتهم.
* - أن يضرب الأمثلة لتوضيح الأقوال.
* - التزام التسلسل والترابط في سرد الأحداث.
* - مراعاة التلاؤم بين الأفكار والتعبير عنها بالكلمات المناسبة.
* - حسن الربط بين المقام والمقال في الإفصاح عن الموقف.

أمّا التعبير الكتابي فهو الذي يكشف قدرة المتعلّم على إنتاج نصوص تظهر حسن تفكيره وصواب تعبيره. وله أهداف تعلُّميّة على معلّم اللغة العربية للناطقين بها - وبغيرها من باب أولى

– مراعاتها، وأهمها :[15]

* – أن يراعي قواعد الكتابة من حيث وضوح الفكرة وسلامة اللغة.
* – توظيف المفردات والتراكيب البليغة في تحريره.
* – القدرة على تحليل النصوص الأدبية بشرحها ونقدها.
* – التحكم في تقنيات الشرح والمناقشة والتقليص والتلخيص.
* – القدرة على الكتابة في مختلف النصوص (الحوارية، التفسيرية، الحجاجية...)

وتركيزنا على نشاط التعبير بصورة عامة – والكتابي منه على الأخص – لمتعلم اللغة العربية ليس باعتباره نشاطا لغويا معزولا عن باقي الأنشطة اللغوية الأخرى ؛ بل هو متشابك ومتداخل في مهاراته اللغوية مع نشاطات اللغة الأخرى إلى حدّ كبير؛ فهو متشابك مع القواعد النحوية والصرفية، متشابك مع الإملاء والخط، متشابك مع الأدب والنصوص، متشابك مع البلاغة. وما يجدر ذكره أنّ التعبير الكتابي بين فروع اللغة هذه يعتبر غاية في ذاته، وما هذه الفروع إلا وسائل مساعدة ومعينة عليه. ومعنى هذا المتعلّم بقدر تقدّمه ونموّ مَلَكَته في هذه الفروع يكون تقدّمه ونموّ مهاراته في التعبير الكتابي[16]..ولذلك أولينا نشاط التعبير الأهميّة الكبرى بالمقارنة مع باقي الأنشطة.

6 - أن ينحو المعلّم سبل التيسير في ما يقدّمه، وخاصة تلك الدروس التي تتميّز بجفافها كالنحو والصرف والعروض وغيرها.

ولعلّ هذه النقطة هي أهمّ الأمور التي يجب أن يراعيها معلّم اللغة العربية الناطقين بها وللناطقين بغيرها من باب أولى، ومن خلال تجربتي المتواضعة والتي اطّلعت من خلالها على بعض الدروس المقدّمة في المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس ومن ورائها بعض الأسئلة التي امتُحن بها الطلبة، تبيّن لي هذا الإيغال في التعسير وعدم مراعاة القدرات العقلية لطلبة لا ينطقون اللغة العربية وقد لا يتقنونها تمام الإتقان، بالإضافة إلى عدم مراعاة الوقت اللازم لإنجاز الامتحان، فتأمل معي أخي القارئ امتحانا مدّته ساعة، نصّه المختار قصيدة لأحمد شوقي قالها في مدح الرسول ﷺ:

إذا زرتَ بعد البيت قبر محمـــــد	وأبصرتَ مثوى الأعظُم العثرات
وفاضت من الدّمع العيون مهابـة	لأحمدَ بين الستـر والحجـــرات
وأشرق نور تحت كلّ ثنيّـــــة	وضاع أريـج تحت كلّ حصـــاة
فقل لرسول الله يا خير مرســـل	أبثّك ما تدري مـــن الحســـرات

شعوبك في شرق البلاد وغربهـا كأصحاب كهف في عميق سبات
بأيانهم نوران ذكرٌ وسنّـــــةٌ فما بالهم في حالك الظلمـات

ثم تطرح الأسئلة ليتمّ مساءلة الطلبة إعراب: مهابة – لأحمد – يا خير مرسل – تدري – بأيانهم...فبالإضافة إلى كثرة المطلوب إعرابه تتميّز الوظائف الإعرابية بصعوبتها على مستوى طالب لا ينطق اللغة العربية؛ فمهابة تمييز، وأحمد مجرور باللام لا تظهر علامته لأنه ممنوع من الصرف، وخير مرسل منادى منصوب لأنه من النوع الأول المضاف، وتدري مضارع علامته مقدرة مانع من ظهورها الثقل..

هذا بالإضافة إلى أسئلة في فهم النص والنقد والبلاغة والصرف والتعريف بصاحب النص!!!! كل ذلك في حيّز زمني لا يتجاوز الساعة.

وفي امتحان آخر نصّه للإمام الشافعي، ومطلع القصيدة :

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفسا إذا حكم القضاء

وعدد الأبيات كان (13) ثلاثة عشر بيتا، والأسئلة كانت كالآتي:

– قدّم النص – الإطار : – ضمن أي النصوص يدرج؟

– قدّم صاحب القصيدة؟ من هو؟ متى ولد؟ أين؟ – متى توفّي؟ ما هي مؤلفاته؟

– ما هو موضوع القصيدة ؟

– اشرح الكلمات التالية : جزع–جلد–شيمة–البرايا السخاء– ظمآن – التأنّي – العناء.

– هات أوزان الكلمات التالية: دع – طبْ – قيل –تُر– تَقي

وقراءتنا للأسئلة – رغم تميّزها بالتنوّع – إلا أنّها تؤكّد ما أشرنا إليه آنفا من الصعوبة والإيغال في التعقيد ؛ وخاصة الأوزان (السؤال الأخير)، بالإضافة إلى عدم مراعاة التوازن في طول النص (13 بيتا) في امتحان لا يتجاوز الساعة.

7 - ضرورة التنويع في النصوص المختارة للتدريس؛ إذ الملاحظ غلبة النصوص ذات الطابع الديني، وقد مثلتُ بالنصين السابقين، فمعلّم اللغة العربية ينوّع في اختيار النصوص بين الشعراء على اختلاف منازلهم وبين الأزمنة على اختلاف مراحلها؛ لأنّ الهدف الذي يسعى إليه معلّم اللغة العربية هو تنمية الذوق الفني الجمالي في المتعلّمين.

هذه أهم الإشكالات ذات الصلة بتدريس اللغة العربية المقدم للمتعلمين من الناطقين بغيرها، وقد كان التركيز فيها على طلبة المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس، مع الاستعانة ببعض

النماذج الأخرى من المتمدرسين الناطقين بالفرنسية، والتي تعتبر من الإشكالات العائقة دون نجاح ما يصبو إليه القائمون على العملية، وعلى المهتمّين ببناء وإعداد البرامج التعليمية والمناهج التكوينية للناطقين بغير اللغة العربية مراعاتها لتحقيق الأهداف المتوخاة من العملية التعليمية.

الآفاق المرجوّة لتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها :

بالإضافة إلى ما ذكرنا من إشكالات نرى ضرورة مراعاتها لتحقيق النجاعة للدرس اللغوي العربي لغير الناطقين به، تجدر الإشارة إلى جملة من العناصر نراها هامة في تحقيق آفاق واعدة لتكريس النجاح للعملية التعليمية لهذه الفئة من المتمدرسين، وإن كنا لا ننكر الجهود المبذولة في سبيل تحقيق ذلك من القائمين على هذا المعهد وغيره، ولكن هو سعي نحو الأفضل والأنجع، والمساهمة قدر المستطاع في رسم معالم هذه الأفضلية والنجاعة...

1 – توجيه الآباء وتبصيرهم بأهمية توجيه أبنائهم وبناتهم إلى ضرورة تلقي اللغة العربية وعلومها.

2 – العمل على تكوين معلمين أكفاء يتم تغييرهم واستبدالهم بصورة منتظمة من أجل بث روح التحدي والمنافسة.

3 – تجاوز مرحلة إقرار مناهج دراسية مرتبطة بالبلدان الأصيلة إلى مرحلة إعداد مناهج دراسية ملائمة لجميع شرائح أبناء الجاليات ومراعية لخصوصية المهجر.

4 – بذل مزيد من الجهود لتنشيط حركة اللغة العربية التي هي الوعاء الثقافي للأمة العربية بين أبناء الجاليات والأقليات الإسلامية والعمل على التخفيف من وطأة اللغة الأجنبية وهيمنتها في الخطاب والتواصل.

5 - العمل على رفع التحدّي لغاية غرس أهمية اللغة العربية وتعلّمها، وخاصة لدى أبناء الجالية العربية المقيمة بفرنسا – خصوصا – وفي أوروبا عموما، لأنّ في اعتقاد نسبة كبيرة من أبناء هذه الفئة أنّ تعلّم هذه اللغة أمر ثانوي، ليسوا بحاجة إليه ؛ إلا في إطار عائلي ضيّق، بخلاف نظرة أوليائهم الذين يعتبرونها وسيلة هامة لغرض الحفاظ على الهويّة العربية والإسلامية.

6 - الاهتمام بأوقات الفراغ لدى الطفل وفترات راحته؛ والسبب يعود إلى أن بعض الجمعيات التي تهتمّ بتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها – وخاصة من أبناء الجالية العربية المقيمة هناك – لا تراعي هذا الأمر، فتجده المتعلّم يصاب بالإرهاق نتيجة الجمع بين التعليم الرسمي في المدارس الفرنسية وتعليم اللغة العربية، في حين أنّ أقرانه يستغلون فترات راحتهم في الرياضة

والإنترنيت والمطالعة وغيرها من الأنشطة الترفيهية؛ وهو ما يؤثر في نفسية الطالب ويجعله يشعر بالملل مقارنة بما يعيشه أقرانه من أبناء المسيحيين.

7 - الالتزام بالمناهج العلمية في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها؛ والتي يجب أن تجسّد في المهارات الأساسية ؛ كالقراءة والإنصات والكتابة... وغيرها.

فالقراءة باعتبارها المهارة الأساسية، ومحاولة توظيف المناسب لنوع القراءة ؛ من الاستئناسية، الاستيعابية، النموذجية والإفهامية [17].

بالإضافة إلى مهارة الإنصات وما تحققه من تواصل هادف لغرض تحقيق الفهم ؛ إذ أنّ السياقات المقروءة للجمل والمفردات تدعمها السياقات المسموعة.

كما تمثّل مهارة الكتابة تكملة للعملية التعليمية، وهي تهدف بالارتقاء بالمتعلّم من مستوى الجملة البسيطة إلى الجملة المركبة، بالإضافة إلى تشجيعهم على توظيف أدوات الربط لدورها في تجسيد تكثيف أجزاء النص.

خاتمة

لا ريب أن لغتنا العربية قد فرضت نفسها في وسط الأوروبي بالخصوص، رغم أنه في العموم وسط غير آمن لوجود الكثير ممن يتحامل عليها؛ ولكن هذا لمن يمنع الآباء الوافدين من البلاد العربية أو الذين ولدوا هناك من الصمود في وجه العوائق ليدرسوا أبناءهم اللغة العربية ولو بصور متواضعة بعيد عن المناهج الحديثة المعتمدة، ولكنها خطوات نأمل في أن تؤتي أكلها لاحقا.

وهذه الثمرة التي نأمل جنيها لا نراها تتحقق إلا باعتماد هذه المدارس والجمعيات نظرة استراتيجية دقيقة في التعامل مع هذه الموضوع ؛ ولعلّ أهم ما يجب مراعاته للمهتمين بتعليمية اللغة العربية لغير الناطقين بها التركيز على الثلاثية الرئيسية للعملية:

- تكوين المعلم الكفء.
- بناء المنهج السليم للتكوين.
- الاهتمام بالمتعلّم وترغيبه في تلقي اللغة العربية.

مع التأكيد على ضرورة فتح قنوات حوار رسمية مع المجتمعات الأوروبية على المستوى الرسمي وغيره لتوضيح أهمية هذه اللغة على جميع مستوياتها: الجمالية والفنية والحضارية، وهذا حتى تأخذ اللغة العربية مكانها بطريقة طبيعية حالها حال باقي اللغات الأجنبية الأخرى.

ـ الهوامش:

1 خالد زغريت، جمال اللغة العربية في عيون المستشرقين، جريدة العروبة، عدد 13031، حمص، سوريا، 2013.
2 نفسه.
3 تمّ الاعتماد في الحصول على بعض المعلومات على اتصال ميداني مع بعض مؤطري المعهد، وعلى : اتحاد المعاهد الأوروبية للعلوم الإسلامية والإنسانية على الموقع www.uiesih.wordpress.com.
4 سيد حمدي، المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية بباريس.. طلبة وعلوم شرعية، موقع الجزيرة نت.
5 نفسه.
6 رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 3، 1997، ص 30 وما بعدها.
7 عز الدين مولود البوشيخي، المقاربة التواصلية في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، دار الرشيد النشر والتوزيع، 1982، ص15.
8 هداية هداية، الدرس الصوتي وتطبيقاته على اللغة العربية، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، مكتبة الرياض، ط 1، 2009، ص 203.
9 محمد النجيجي، الدرس الصرفي وتطبيقاته، دار النشر، القاهرة، دار الفكر العربي، ط3، 1998، ص 98 .
10 فخري أحمد محمود، المبادئ والأسس العامة لبرامج تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة، دار الرشيد للنشر والتوزيع، بغداد، 1982، ص202.
11 رشدي طعيمة، المبادئ والأسس العامة لبرامج تعليم اللغة العربية لأغراض عامة، الرياض، مكتبة الرشيد، 2011، ص 113.
12محمود كامل الناقة،المدخل في تدريس النحو،دار النشر، مكتبة الرشيد، الرياض، ط1، 2011، ص 307 .
13اللجنة الوطنية للمناهج بوزارة التربية الوطنية، الوثيقة المرافقة لمنهاج اللغة العربية وآدابها، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، مارس 2005، ص 28 و29.
14 مديرية التعليم الثانوي العام، منهاج السنة الأولى للغة العربية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 2005، ص 16.
15 نفسه، ص 17.
16 نفسه، ص 26.
17 مديرية التعليم الثانوي العام، منهاج السنة الأولى للغة العربية، ص 54 وما بعدها.

ـ قائمة المراجع :

- خالد زغريت، جمال اللغة العربية في عيون المستشرقين، جريدة العروبة، عدد 13031، حمص، سوريا، 2013.
- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 3، 1997.
- عز الدين مولود البوشيخي، المقاربة التواصلية في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، دار الرشيد النشر والتوزيع، 1982.
- هداية هداية، الدرس الصوتي وتطبيقاته على اللغة العربية، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، مكتبة

الرياض، ط 1، 2009.
- محمد النجيجي، الدرس الصرفي وتطبيقاته، دار النشر، القاهرة، دار الفكر العربي، ط3، 1998.
- فخري أحمد محمود، المبادئ والأسس العامة لبرامج تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة، دار الرشيد للنشر والتوزيع، بغداد، 1982.
- رشدي طعيمة، المبادئ والأسس العامة لبرامج تعليم اللغة العربية لأغراض عامة، الرياض، مكتبة الرشيد، 2011.
- محمود كامل الناقة،المدخل في تدريس النحو،دار النشر، مكتبة الرشيد، الرياض، ط1، 2011 .
- اللجنة الوطنية للمناهج بوزارة التربية الوطنية، الوثيقة المرافقة لمنهاج اللغة العربية وآدابها، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، مارس 2005.
- مديرية التعليم الثانوي العام، منهاج السنة الأولى للغة العربية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 2005.

Teaching Arabic to non - native speakers ... Reality and hope European Institute of Human Sciences in Paris model

Dr. Bachir MENNAI*
Dr. Delal OUECHEN**

Abstract:

This is an analytical descriptive reading on the problem of teaching Arabic to non-native speakers; The French environment was emphasized, where the main obstacles were exposed. The focus of the applied study relates to the European Institute of Human Sciences in Paris as a model; in which we address the efforts to achieve efficiency in the educational process, and the most important problems that hinder the achievement of the desired results, with a vision of reform, and access to a model school that represents the desired goal for those who teach Arabic to non-Arabic speakers.

Keywords: Arabic Language - Teaching - Paris - Non-Arabic Speakers.

* Faculty of Arts and Languages – University of El-oued - Algeria.
* * Faculty of Arts and Languages – University of El-oued - Algeria.

المؤكِّد اللغويُ غير الصناعيِّ في التُراث النحويِّ العربيِّ ـ باب المنصوبات الفضلة نموذجًا ـ

بقلم
أ/ العيد حذيق(*)

ملخص

لَفَتَ انتباهي – وأنا أُدرِّس مقياس: النحو والصّرف، للسنوات الثانية علوم إسلامية؛ وهو مساقٌ خاصٌّ بمنصوبات الأسماء –، تَكَرُّر مصطلح (التَّوكيد) في عِدَّةِ مواضعَ منه، معَ أنَّهُ – عند النَّظر لأوَّل وهلةٍ – ليس من مظانِّه؛ إذِ التَّوكيدُ الصِّناعيُّ، موضعه التَّقليديُّ: باب التَّوابع، مع النَّعت والعطف والبدلِ. وهو الشيء الذي أغراني بتتبُّعِ هذه الظَّاهرة في باب المنصوباتِ بالذَّات، فوقع لي منها ثمان مسائلَ، في خمسة أبواب، فجمعتها وأدرْتُ الكلامَ عليها، في هذا المقال الذي وسمتهُ بـ: المؤكد اللغوي غير الصناعي في التراث النحوي العربي – باب المنصوبات الفضلة نموذجًا –. وقد جعلتُهُ في مقدِّمة ومطلبين وخاتمة.

أمَّا المقدِّمة؛ فخصَّصتُها لشرح مصطلحات العنوان. وعرَّفتُ بالتوكيد وأغراضه في المطلب الأوَّل. فيما كان المطلب الثاني إحصاءً ودراسةً لمواضع التوكيد في باب المنصوبات. وأمَّا الخاتمة فأُفرِدت لأهم النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: التوكيد– النحو– اللغة العربية– التراث.

مقدمة

مِمَّا يَحسُنُ – قبل الخوض في موضوع المقال –، أن يُبيّن الباحث مصطلحات العنوان، حتى يستبين للقارئ الغرض المقصود، ويبلغ دارسه الهدف المنشود، والمصطلحات المتعلقة بالعنوان ثلاث هي: (المؤكدات اللغوية)، و(غير الصناعية)، و(المنصوبات الفضلة)، وبيانها كما يلي:

(*) أستاذ مساعد "أ" بقسم الحضارة الإسلامية ـ معهد العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي..
alaide1980@gmail.com

1- أوّلاً: المؤكد اللغوي: اسمُ جنسٍ أقصِدُ به، الأساليب الَّتي جاءت في اللُّغة العربيَّة، يُرادُ من سياقها التَّوكيد؛ سواءٌ كانت اسمًا أم فِعلاً أم حرفًا أم جُملةً، وسواءٌ كان المؤَكَّدُ لفظةً مُفردةً، أم معنى جُملةٍ كاملة.

2- ثانيًا: غير الصناعي: وأردْتُ بهذا الضَّابطِ؛ صِفةً مُقيِّدةً، تُخرج التّوكيد الصناعيَّ؛ ذلك أنَّ نظرةً أوَّليَّةً على أساليب التَّوكيد، تجعلُك تصنِّفُه قسمينِ: توكيدٌ صِناعيٌّ، وتوكيدٌ غيرُ صِناعيٍّ.

أمَّا التَّوكيدُ الصّناعيُّ؛ فهو ما نجده في كتب النّحو، التُّراثيّة منها والمُحدثة، في باب التّوابع، مع النعت والعطف والبدل، وهو لا يعدو أمرين اثنين، هما: التوكيد اللفظيُّ، والتّوكيدُ المعنويُّ.

وأمَّا ما اصطلحتُ على تسميته بالتَّوكيد غيرِ الصِّناعيِّ؛ فَرميتُ بذلك إلى أساليب التَّوكيد الأخرى، المنثورة في أبواب نحويَّةٍ متعدِّدةٍ، ولكنَّكَ لا تَجدها في الصَّنعة النَّحويّة الإعرابيَّة مُصنَّفةً في باب التَّوكيد، الَّذي هو في الأصل مظِنَّتُها، بل أنت واجدُها – كما سبقَ أن أشرتُ –، مُوزَّعةً في غيرِ مظانِّها على كثيرٍ من المواضع، وإن شئتَ تحديدًا لهذا المُصطلح قُلتَ: كلُّ أسلوب أفاد توكيدًا، ولكنَّهُ لا يُعرَبُ من جهة الصَّنعةِ الإعرابيّة توكيدًا. فقد تجدهُ حالاً أو تمييزًا أو ظرفًا، أو غيرَ ذلك، مع إفادته معنى التَّوكيد.

3- ثالثًا: المنصوبات الفضلة: وأقصدُ به الباب الَّذي يُذكرُ فيه منصوباتُ الأسماء، وضابط (الفضلة) مصطلحٌ نحويٌّ، يُقابلُه مُصطلحٌ آخرُ هو: العُمدة، والعُمدة عند النُّحاة: ما لا يُستغنى عنه من الكلام؛ كالمبتدأ والخبر والفاعل، فيما الفضلةُ: «ما يأتي من الأسماء تتميمًا للكلام، ويُمكن الاِستغناءُ عنه غالبًا في بناء الجُملة»[1]، وإلى هذا المعنى، أشار ابنُ السَّرَّاج (ت:316ه) رحمه الله في (الأصول في النحو) بقوله: «كُلُّ اسمٍ تذكره بعد أن يستغني الرافع بالمرفوع، وما يتبعه في رفعه إن كان له تابعٌ، وفي الكلام دليلٌ عليه، فهو نصبٌ»[2] وقد قيَّدتُ هذه المنصوبات بكونها فضلةً؛ حتَّى أُخرجَ المنصوبات التي ليست فضلةً، كاسمِ إنَّ وأخواتها، وخبر كان وأخواتها، فإنها – عند التحقيق وإن كانت من المنصوبات – عُمدةٌ؛ لأنَّ أصلها مُبتدأٌ وخبر، وهما من العمدات دون نزاعٍ، وعلى ذلك، يكون المُرادُ بالمنصوبات الفضلة، ثمانية أبواب نحويَّةٍ هي:

1- المفعول به، ويدخل فيه: أسلوب الإغراء، والتحذير، والاختصاص، بل والمنادى، ومن جُملته: الندبة والاستغاثة والترخيم. 2- والمفعول المطلق. 3- والمفعول له أو لأجله. 4- والمفعول فيه أو الظرف. 5- والمفعول معه. 6- والمستثنى. 7- والحال. 8- والتمييز[3].

المطلب الأوّل: تعريف التّوكيد وأغراضه

وبيانُ هذه المسألة في ثلاث نِقاطٍ، هي: تعريف التوكيد لغة، وتعريف التوكيد اصطلاحًا، ثُمَّ أغراض التَّوكيد، وهذا إجمالٌ، تفصيلُه على النَّحو الآتي:

1- أوّلاً: تعريفُ التَّوكيدِ لُغةً:

تتَّفقُ معاجمُ اللُّغةِ على أنَّ مادَّة (و ك د)، تدور على معنًى واحدٍ؛ هو: التَّقويةُ والشَّدُّ والإحكامُ.

فقد جاء في (لسان العرب) لابن منظورٍ (ت:711ه) رحمه الله: «وكد: وَكَّدَ العقد والعهد أوثقه، والهمزُ فيه لغةٌ. يُقالُ: أوكدته وأكَّدته، وآكدته إيكادًا، وبالواوِ أفصحُ، أي شددته، وتَوَكَّدَ الأمرُ وتأكَّدَ، بمعنًى، ويُقالُ: وَكَّدْتُ اليمين، والهمزُ في العقودِ أجودُ، وتقولُ: إذا عقدْتَ فأكِّدْ، وإذا حَلَفْتَ فوَكِّدْ»[4].

ولعلَّ أصلَ التَّوكيد، نابعٌ من الدِّلالة الحِسِّيَّة؛ من شدِّ الحبال والسُّيور وأمثالها، ثُمَّ انتقلَ إلى المعنويَّات؛ من تأكيد العقود والعُهود وغيرها، ذلكَ أنَّك واجدٌ في اللُّغةِ قولَهم: «وَكَّدَ الرَّحل والسَّرجَ توكيدًا: شَدَّهُ. والوكائدُ: السُّيُور الَّتي يُشَدُّ بها، واحدُها: وِكادٌ وإكادٌ [...] والوِكادُ حَبلٌ يُشدُّ به البَقَرُ عند الحَلْبِ»[5].

وقد جمع الجوهريُّ (ت:393ه) رحمه الله، بين الدِّلالتينِ؛ الحِسِّيَّة والمعنويَّة - دون ترجيح - فقال: «[وَكَدَ] وكَدْتُ العهدَ والسَّرجَ توكيدًا، وأكَّدته تأكيدًا، بمعنًى، وبالواوِ أفصحُ، وكذلك أوكدهُ وآكده إيكادًا فيهما، أي شدَّهُ»[6] وواضحٌ أنَّ توكيد العهد أمرٌ معنويٌّ، وتوكيد السَّرج أمرٌ حِسِّيٌّ.

ولِدَوَرانِ تصاريفِ مادَّةِ (و ك د) على أصلٍ واحدٍ هو: التَّقوية والشَّدُّ؛ فقد نَصَّ ابنُ فارسٍ (ت:395ه) رحمه الله في (مُعجم مقاييس اللُّغة) على أنَّ: «(وَكَدَ) الواوُ والكاف والدَّال، كلمةٌ تدُلُّ على شِدَّةٍ وإحكامٍ»[7].

وممَّا يُلاحظُ في هذا المقام؛ لَهَجُ معاشرِ اللُّغويِّين، بالتَّنبيه على كون لُغة الواو في (التَّوكيد) أفصح، وما ذلك - والله أعلمُ - إلاَّ لِوُرودِ القُرآن الكريم بها، دون لغة الهمز، وذلك قولُ الله جل وعلا: ﴿وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:91] قال ابنُ جريرٍ (ت:310ه) رحمه الله: «يقولُ: ولا تُخالفوا الأمر الذي تعاقدتم فيه الأيمانَ، يعني بعدما شددتم الأيمان على أنفُسِكُم، فتحنثوا في أيمانكم، وتكذبوا فيها، وتنقضوها بعد إبرامها، يُقالُ منه: وَكَّدَ فلانٌ يمينه

يُوَكّدها: إذا شَدَّدها. وهي لُغةُ أهل الحجاز، وأمَّا أهل نجدٍ؛ فإنَّهم يقولون: أَكَّدْتُها، أُوَكِّدُها تأكيدًا»[8].

ونصُّ كلامِ ابنِ جريرٍ رحمه الله، عن معنى (التَّوكيد) في الآية، هو ذاته ما ذكرنا عنِ اللُّغويِّين من معنى الشَّدِّ والتَّقوية. وفي كلامه أيضًا لطيفةٌ أُخرى، وهي: تصريحُه بأنَّ التَّوكيد (بالواو)؛ لُغةُ أهل الحجاز، والتَّأكيد (بالهمز) لُغةُ أهل نجدٍ، فلا تعدو – على ذلك – أن تكون الآية (آية النحل) من قراءات اللهجات؛ أي: ما اختلف من القراءة من جهة الأداء فقط؛ كالفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والتحقيق والتسهيل والإبدال، ولم يكن له أثر من جهة الدلالة والمعنى، لأنَّهما واحدٌ.

2- ثانيًا: تعريفُ التَّوكيدِ اصطلاحًا:

جاء في (جامع الدروس العربيَّة)، للأستاذ مصطفى الغلاييني (ت:1364هـ=1944م) رحمه الله أنَّ: «التَّوكيد (أو التَّأكيد): تكريرٌ، يُرَادُ به تثبيتُ أمرِ المُكرَّرِ في نفسِ السَّامع، نحو: (جاءَ عليٌّ نَفسُه)، ونحو: (جاء عليٌّ علي)»[9]. ولعلَّ الدَّارس يُلاحظ أثر الصَّنعة النَّحويّة في هذا الحدِّ للتَّوكيد؛ إذ هو عند التَّأمُّل، لا يخرج عن التوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي، من حيث التأصيل النظري، ومن جهة المثال التطبيقي. وهذا نموذج من تعريفات اللغويين المُحدَثين لهذا المصطلح.

ولم يَحفلِ النُّحاةُ قديمًا، بوضعِ حدٍّ يُعرّف التَّوكيد، إلاَّ ما ندر، كإشارة الرُّمَّانيِّ (ت:384هـ) رحمه الله له بأنَّه من: «التَّوابع؛ وهي الجارية على إعراب الأوَّل»[10]. أو إلماحة ابنِ جنِّي (ت:392هـ) رحمه الله بأنَّ: «التوكيد لفظ يتبع الاِسمَ المؤكَّدَ، لرفع اللبس وإزالة الاِتِّساع»[11]. ولا يخفى على الناظر في هذه التعاريف – سواءٌ منها المتقدمة والمتأخِّرة –، تركيزها على الصَّنعة النحوية، أي على الوظيفة الإعرابيَّة للكلمة الدَّالَّة على التّوكيد بوصفها تابعًا، لا على ما دَلَّت عليه من معنى التثبيت والتَّقرير، الَّذي قد تشتركُ فيه وظائفُ نحويَّةٌ متعدِّدةٌ، حتَّى من غير التوابع – على ما سنبيِّنُ في المطلب الثَّاني –، ولا يُنكرُ هذا من النحاة، لأنَّهم يُعرِّفون بشيءٍ مُصطلحٍ عليه عندهم، ولا يخرج عن هذا الإطار، وهو: التوكيد الصناعي الاصطلاحي؛ سواءٌ كان لفظيا أو معنويا.

إلاَّ أنَّهُ لمَّا كان حديثُنا في هذا المقال، عن التوكيد غيرِ الصِّناعيِّ (أو غيرِ الاِصطلاحيِّ)؛ فإنَّا وجدنا أقربَ تعريف لما أردناه، تعريف البلاغيين له، وعلى رأسهم القزوينيُّ (ت:739ه) رحمه الله إذ يقول: «التَّأكيد لفظٌ يُفيدُ تقوية ما يُفيدُه لفظٌ آخرُ»[12]. وهذا تعريفٌ يُدخِلُ كُلَّ ما أفادَ توكيدًا، ولو لم يكن في الاِصطلاح النَّحويِّ توكيدًا، وهو أشبهُ ما يكون بتعريف (أسلوب التوكيد

اللغوي) لا (بمصطلح التوكيد النحوي)، وهو الشَّيءُ ذاتُه الَّذي أردتهُ أنا من مُصطلح (المؤكدات اللغوية غير الصناعية) في عنوان المقال. ومن ثَمَّ تعلمُ؛ أنَّ التَّوكيد بوصفه أسلوبًا عربيًّا، غيرُ قاصرٍ على باب التوابع النحوية، كما تعلمُ من جهةٍ أخرى أنَّهُ: «يجري في جميعِ أنواعِ الكلمةِ؛ من الإسمِ والفعل والحرفِ، بل في الجُملة أيضًا»[13].

3- ثالثًا: أغراضُ التَّوكيد:

لمَّا كان التَّوكيدُ ينقسمُ - نحويًّا - إلى قسمين: لفظيٍّ ومعنويٍّ؛ فقد ذكر النُّحاة أنَّ فائدةَ التوكيد اللفظيِّ، تقرير المُؤَكَّد في نفس السّامع، وتمكينه في قلبه، وإزالة ما في نفسه من الشبهة فيه. وأمَّا التوكيد المعنوي؛ فيمكن أن يُقال أن الغرض منه - حسب ألفاظه الدَّالَّة عليه - أمران اثنان: ما كان بلفظ (النفس والعين)؛ ففائدته رفع احتمال أن يكون في الكلام مجاز، أو سهوٌ، أو نسيانٌ. وما كان بألفاظ (كل وجميع وعامة وكلا وكلتا) ففائدته الدِّلالة على الإحاطة والشمول[14].

هذا من حيث التَّأصيلُ النظريُّ، وأمَّا من جهة التطبيق العملي؛ فإنَّ للتوكيد أغراضًا كثيرة، وفوائد غزيرةً، تتعلق بمقصود المتكلم، وسياق الكلام، وفي هذا الصَّدد، يُقرِّر العلويُّ (ت:745هـ) رحمه الله: «أنَّ التَّأكيد؛ تمكينُ الشيء في النفس، وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشك وإماطة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ كثير الفوائد»[15]. ولعلَّ من جملة فوائده الكثيرة، التي أشار إليها العلويُّ، ما صرَّحَ به الكفويُّ (ت:1094هـ) رحمه الله في (الكُلِّيَّات) فقال: «والتَّأكيد كما يكون لإزالة الشك ونفي الإنكار مع السامع، كذلك يكون لصدق الرغبة ووفور النشاط من المتكلم، ونيل الرواج والقبول من السامع، وكون الخبر على خلاف ما يترقب السامع، نحو: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء:117]. و ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى﴾ [آل عمران:36]، وتحسين إتيان ضمير الشأن، نحو: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المومنون:117]، [...]، وقد يكون التأكيد لرد ظن المتكلم، كقولك: (أحسنت إليه ثم أساء إلي)، أو لإظهار كمال العناية كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:3]، أو كمال التَّضرُّع والإبتهال نحو: ﴿إِنَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران:16]، أو كمال الخوف نحو: ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران:192]. إلى غير ذلك من المعاني التي تُناسبُ التَّأكيد بوجهٍ خِطابيٍّ»[16].

وما دامَ الكلام هنا عن أغراض التوكيد السياقية؛ فلا حرج من الإشارة إلى أن بعض الباحثين استقرى ما ذكر منها العلاَّمة ابنُ عاشور (ت:1393هـ=1973م) رحمه الله في تفسيره (التحرير والتنوير)، فأحصى منها تسعةَ عشرَ (19) غرضًا، من جملتها: الاهتمام بالخبر وتقويته، ولمح أصل

الحرف، ودفع الإيهام، ودفع احتمال المجاز وإثبات حقيقة الخبر، وشدَّة الترغيب في الأمر المؤكد والحث عليه، والتأييس وانقطاع الأمل، والثناء بالخير والشهادة، والتعجيب، والمبالغة في التهكم، وإفادة سرعة اقتران الفعلين المترتب أحدهما على الآخر، والتفنن، والمشاكلة[17].

وجملة القول في ختام هذه المسألة، أن للتوكيد اللفظي غرضًا أساسيًّا هو: تقرير المؤكَّد في نفس السامع، ونفي ما قد يعترضه من الشبهة. وأن للتوكيد المعنوي غرضين رئيسين هما: نفي احتمال المجاز، والسهو، والغلط، ويكون بلفظ (النفس والعين)، والدلالة على الإحاطة والشمول، ويكون بألفاظ (كل وجميع وعامَّة) في الجمع، و(كلا وكلتا) في التثنية. وأمَّا غير ذلك من الأغراض البلاغية المتعددة؛ فإنها تُلتَمَسُ من كلِّ موضع على حدة، وهو أمر متوقف على عدة أمور؛ منها: قصد المتكلم، وحال المتلقي، ومقام الخطاب.

المطلب الثَّاني: مواضع التوكيد في باب المنصوبات؛ إحصاءً ودراسةً

التوكيد؛ أسلوبٌ عربيٌّ مبثوثٌ في تضاعيف الأبواب النحوية، ولا يغيبُ على دارس باب المنصوبات، تكرُّر هذا المصطلح فيه بصورةٍ لافتةٍ، إلاَّ أنَّنا إذا أردنا إحصاءَ لمواضع التوكيد غير الصناعي في هذا القسم؛ ألفينا أنها ثمانية مسائل في خمسة أبواب، وهي كالآتي: في باب المفعول به، مسألة واحدة هي: دخول حرف الجر الزائد للتوكيد على المفعول. وفي باب المفعول المُطلق، مسألتان اثنتان هما: المصدر المؤكد لعامله، والمصدر المؤكد لمعنى جملة قبله. وفي باب المفعول فيه، مسألة واحدةٌ هي: الظَّرف المؤكد. وفي باب الحال، ثلاث مسائل هنَّ: الحال المؤكدة لعاملها، والحال المؤكدة لصاحبها، والحال المؤكدة لمعنى جملة قبلها. وفي باب التمييز، مسألةٌ واحدةٌ هي: التمييز المؤكد.

1- المسألة الأولى: دخول حرف الجر الزائد للتوكيد على المفعول به:

هُناك عِدَّةُ صُورٍ للتوكيد في باب المفعول به[18]، لكنَّ الَّذي يعنينا في هذا المقام، هو الصُّورة الَّتي يكونُ فيها التوكيدُ غيرَ صناعيٍّ (أي لا يُعربُ توكيدًا في الصَّنعة النحوية)، وهي: دخول حرف الجرِّ الزَّائد على المفعول به، لإفادة التوكيد، فيكونُ المفعول - إذ ذاك - مجرُورًا لفظًا، منصُوبًا محلاً (لاشتغال المحلِّ بحركة حرف الجرِّ الزَّائد)، والمعروف عند النحاة، أن حرف الجرِّ الزائد، يدخل - في الأصل - لتقوية المعنى وتوكيده فيما يدخل عليه، وليس الأمرُ قاصرًا على باب المفعول، وإنما يقع في مواضعَ أُخَرَ؛ كالفاعل - خاصَّةً إذا كان في سياق النفي - كقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة:19]، وخبر (ليس)، سيما إذا دخلت عليها همزة

التقرير، كقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:36]، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:10]، وأكثر الحروف التي تُزاد مع المفعول ثلاثةٌ: مِنْ، والباءُ، واللاَّم.

أمَّا (مِنْ)؛ فإنَّها تُزادُ قبل النكرة، المسبوقة بنفيٍ أو شبهه (النهي أو الاستفهام)، وفائدتها توكيد عموم النفي[19]، ومن شواهدها قول الله جل وعلا: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:103]، فإنَّ كلمة (بحيرة) وما عُطف عليها، مفاعيل للفعل (جعل)، وإنما دخلت عليها (من) الزائدة، لتوكيد عموم النفي. ومثلها قوله سبحانه:﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك:3]، وفي هذه الآية شاهدان اثنان: الأول كلمة (تفاوت)؛ فإنها مفعول مجرور لفظا منصوب محلا للفعل (ترى)، وهو مسبوق بنفي (ما). والآخر: كلمة (فطور) وهي أيضا مفعول مجرور لفظا منصوب محلا للفعل (ترى) الثاني، لكونه مسبوقًا بشبه نفي (الاستفهام: هل).

وَأمَّا الباءُ؛ فإنها تُزادُ مع المفعول به، لتوكيد اتِّصال الفعل بمفعوله، ومن شواهدها في القرآن الكريم؛ قول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:196]، والتقدير: ولا تلقوا أيديكم، والباء زائدةٌ للتوكيد. ومثلهُ أيضًا قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم:25]، أي: جذعَ النخلةِ[20]، قال العلاَّمة ابن عاشور (ت:1393هـ=1973م) رحمه الله في الآية الأولى: «وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْأَيْدِيَ هِيَ الْمَفْعُولُ إِذْ لَمْ يَذْكرْ غَيْرَهُ، وَأَنَّ الْبَاءَ زَائِدَةٌ لِتَوْكِيدِ اتِّصَالِ الْفِعْلِ بِالْمَفْعُولِ كَمَا قَالُوا لِلْمُنْقَادِ «أَعْطَى بِيَدِهِ» أَيْ أَعْطَى يَدَهُ لِأَنَّ الْمُسْتَسْلِمَ فِي الْحَرْبِ وَنَحْوِهِ يَشُدُّ بِيَدِهِ، فَزِيَادَةُ الْبَاءِ كَزِيَادَتِهَا فِي ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مَرْيَم: 25]»[21].

وأمَّا اللاَّمُ؛ فإنَّها أيضًا تُزادُ مع المفعول به، تقويةً لعامله الَّذي ضعف؛ إمَّا بتأخُّره عن معموله (مفعوله)، كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:43]، (فللرؤيا) في الأصل، مفعول (تعبرون)، أي: تعبرون الرؤيا، إلاَّ أنَّه لمّا تأخر العامل (الفعل) عن المعمول (المفعول)، ضعف، فاحتاج إلى تقويةٍ، فجئنا بحرف الجر الزائد (اللام) ليؤدي هذه الدلالة. وإمَّا لكونه فرعًا في العمل؛ أي وقوعه وصفًا عاملاً عمل فعله؛ من اسم فاعل أو صيغة مبالغة، أو غيرها من المشتقَّات العاملة، كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود:107، البروج:16]، أو قوله سبحانه: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ [المعارج:16][22]. وقد تكون زيادة اللام مع الفعل، تأكيدًا لحصوله، كما قرر ذلك ابنُ عاشور (ت:1393هـ=1973م) رحمه الله، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:30]، قال: «وَفِعْلُ (قَدَّسَ) يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، فَالْإِتْيَانُ بِاللَّامِ مَعَ مَفْعُولِهِ فِي الْآيَةِ؛ لِإِفَادَةِ تَأْكِيدِ

حُصُولِ الْفِعْلِ، نَحْوُ: شَكَرْتُ لَكَ، وَنَصَحْتُ لَكَ، وَفِي الْحَدِيثِ عِنْدَ ذِكْرِ الَّذِي وَجَدَ كَلْبًا يَلْهَثُ مِنَ الْعَطَشِ (فَأَخَذَ خُفَّهُ فَأَدْلَاهُ فِي الرَّكِيَّةِ فَسَقَاهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ) أَيْ شَكَرَهُ مُبَالَغَةً فِي الشُّكْرِ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ ضَعْفُ ذَلِكَ الشُّكْرِ مِنْ أَنَّهُ عَنْ عَمَلِ حَسَنَةٍ مَعَ دَابَّةٍ فَدَفَعَ هَذَا الْإِيهَامَ بِالتَّأْكِيدِ بِاللَّامِ وَهَذَا مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ»[23].

والحاصل، أنَّ زيادة حرف الجر مع المفعول به، مُفيدةٌ للتوكيد؛ سواءٌ كان توكيدًا لعموم النفي، أو توكيدًا لاتِّصال الفعل بمفعوله، أو توكيدًا لحصول الفعل ودفع التوهم عنه.

2- المسألة الثَّانية: المصدر المُؤكِّد لعامله:

يُقرّر النحاة في هذا المقام، أنَّ المفعول المُطلق؛ هو المصدرُ المنتصب؛ توكيدًا لعامله، أو بيانًا لنوعه، أو بيانًا لعدده، كقولك: (ضربتُ ضربًا، وسرتُ سيرَ زيدٍ، وضربتُ ضربتينِ)، وإلى هذا أشار ابنُ مالكٍ (ت:672هـ) رحمه الله في (الخُلاصة) بقوله:

توكيدًا اَو نوعًا يُبينُ أو عدد ❋ كسرتُ سيرَتينِ سيرَ ذي رَشَدْ[24].

وفي هذا التقرير؛ بيانُ أنَّ المصادر المنصوبة (المفاعيل المطلقة)، إمَّا أن تكون مؤكدة فقط، أو مبينة للنوع فقط، أو مبينة للعدد فقط، وذلك ما لم يرتضِهِ بعضُ الباحثين المُحدثين؛ إذ المصدران الأخيران يُفيدان أيضًا التوكيد، مع إفادتهما لبيان النوع أو العدد، على أن التركيز فيهما على الدلالتين الأخيرتين لا على التوكيد المجرد، يقول الأستاذ عبَّاس حسن (ت:1398هـ=1978م) رحمه الله، في (النحو الوافي): «قد يكون الغرض من المصدر المنصوب أمرًا واحدًا؛ هو: أن يؤكد – توكيدًا لفظيًا – معنى عامله المذكور قبله، ويقويه، ويقرره؛ "أي: يبعد عنه الشك واحتمال المجاز" [...]، وقد يكون الغرض من المصدر المنصوب أمرين معًا – فهما متلازمان: توكيد معنى عامله المذكور، وبيان نوعه، ويكون بيان النوع هو الأهم [...]، وقد يكون الغرض منه أمرين متلازمين أيضًا؛ هما: توكيد معنى عامله المذكور مع بيان عدده، ويكون الثاني هو الأهم، ولا يتحقق الثاني وحده بغير توكيده معنى العامل»[25]. وهذا التأصيل، هو عينُ ما أشارَ إليه من قبلُ، خالد الأزهريُّ (ت:905هـ) رحمه الله، في (التصريح) بقوله: «المفعول المطلق: "هو اسم يؤكد عامله"، فيفيد ما أفاده العامل من الحدث من غير زيادة على ذلك. "أو يبين نوعه"، أي: نوع العامل، فيفيده [أي بيان النوع] زيادة على التوكيد. "أو" يبين "عدده" أي: عدد العامل، فيفيد عدد مرات العامل زيادة على التوكيد»[26].

ومن شواهد المصدر المُؤكّد لعامله في القرآن الكريم؛ قول الله جل وعلا: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

تَكْلِيمًا﴾ [النساء:164]، (فتكليمًا) مصدرٌ مؤكِّدٌ لعامله (الفعل: كلَّم) ويذكر المُعربون وأهل المعاني؛ أنَّ الغرض من سياق المصدر المؤكد لعامله هنا: هو دفع توهُّم إرادة المجاز [27]، فهو تكليمٌ من الله حقيقةً لموسى عليه السلام، على الكيفية التي لا يُحيطُ بها إدراكنا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11].

ومن المؤكد لعامله الوصف (المشتق)، قول الله جل وعلا: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ [الصافات:1-2] فإنَّ كُلاً من المصدرين (صفا وزجرا) في الآيتين الكريمتين، مفعولان مطلقان مؤكدان لعامليهما الوصف (اسما الفاعل: الصافات والزاجرات).

ومما ينبغي علمه عن المصدر المؤكد لعامله؛ أن الأصل فيه، عدم حذف عامله؛ لأنَّ هذا المصدر مسوقٌ - أصلاً - لتأكيد معنى عامله في النفس، وتقويته، ولتقرير المراد منه، - أي: لإزالة الشك عنه - ولبيان أن معناه حقيقي لا مجازي -، وهذه هي دواعي المجيء بالمصدر المؤكد، ومن أجلها لا يصح تثنيته، ولا جمعه، ولا أن يرفع فاعلًا أو ينصب مفعولًا، ولا أن يتقدم على عامله، ولا أن يحذف عامله؛ لأن هذا الحذف مناف لتلك الدواعي، معارض للغرض من الإتيان بالمصدر المؤكد[28].

3- المسألة الثَّالثة: المصدر المؤكِّدُ لمعنى جُملة قبله:

النوع الثاني من المصادر التي تأتي مؤكدة؛ المصدر المؤكد لمعنى جُملةٍ قبله، أي أنَّ المعنى المؤكد في هذا الموضع، مُستفادٌ من الجُملة جميعًا، لا من العامل على حدةٍ، ثمَّ يأتي المصدر مؤكدًا لذلك المعنى المتقرر سلفًا.

ومن شواهد هذه المسألة؛ قول الله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:145]، فإن الله جل وعلا، لمَّا ذكر أنَّ نفسًا لن تموت إلاَّ بإذنه سبحانه؛ عُلم أنَّ ذلك بأجلٍ منه تبارك وتعالى، ثُمَّ أكَّد هذا المعنى بقوله: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾؛ (فكتابًا) مفعولٌ مطلقٌ مؤكد لمعنى الجملة قبله، لا لعامله.

وقريبٌ منه قول الله جل وعلا: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:241]؛ فإنه سبحانه، لما ذكر أن للمطلقات أن يُمتعن بالمعروف، عُلِمَ أنَّ ذلك حقٌّ لهنَّ، ثُمّ أُكِّد مضمون الجُملة بقوله جل وعلا: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، (فحقًّا) هنا، مفعولٌ مُطلقٌ مؤكد لمعنى الجملة قبله[29].

ومن العجيب في هذا المقام، أن النحاة قرروا في هذا النوع من المصادر؛ وجوب حذف عامله،

مع كونه مؤكدًا، (وحذف عامل المؤكِّد امتنع) كما استقر عندنا سلفًا. وهم يقسمون المصدر المؤكد لمعنى جملة قبله إلى قسمين: مؤكد لنفسه، ومؤكد لغيره، وإليهما يُشير ابنُ مالكٍ (ت:672هـ) رحمه الله بقوله:

«ومنه ما يدعونه مؤكدا * لنفسه أو غيره فالمبتدا
نحو "له عليَّ ألفٌ عرفًا" * والثان كـ"ابني أنت حقًّا صرفا"

"ومنه" أي: ومن الواجب حذف عامله "ما يدعونه مؤكدا" وهو إما مؤكد "لنفسه أو غيره؛ فالمبتدا" من النوعين – وهو المؤكد لنفسه – هو الواقع بعد جملة هي نص في معناه، وسمي بذلك لأنه بمنزلة إعادة الجملة؛ فكأنه نفسها "نحو: له علي ألف عرفا"، أي: اعترافا، ألا ترى أن "له علي ألف" هو نفس الاعتراف "والثان" – وهو المؤكد لغيره – هو الواقع بعد جملة تحتمل غيره فتصير به نصا، وسمي بذلك لأنه أثر في الجملة، فكأنه غيرها؛ لأن المؤثَّر غير المؤثَّر فيه "كابني أنت حقا صرفا" فـ"حقا": رفع ما احتمله "أنت ابني" من إرادة المجاز»[30].

4- المسألة الرَّابعة: الظَّرفُ المؤكّد:

هذه من أغرب المسائل بالنسبة إليَّ، إذ تصوُّرُ أن يكون الظَّرف مؤكدًا، من أبعد ما يكون، لأنَّ أصل الظرف في اللُّغة هو: الوعاء، وسُميت الأواني ظروفًا؛ لأنها أوعيةٌ لما يُجعلُ فيها، ومنه سُميت أسماء الزمان والمكان ظُروفًا، لأنَّها أوعيةٌ للأحداث؛ فما من حدثٍ يقع، إلاَّ وله وِعاءان زمنيٌّ ومكانيٌّ يقع فيهما[31].

وإدراك كون وعاء الشيء مؤكدًا له، فيه ما فيه من العسر؛ لأن الوظيفة الأساس للظرف؛ غالبًا، تخصيص الحدث زمانيًّا أو مكانيًّا[32]، لذلك – والله أعلمُ –، لا تجدُ الكلام عن الظرف المؤكد من الناحية التأصيلية عند النحاة، إلاَّ نزرًا من إشارات بعض المُحدثين، كقول الأستاذ عباس حسن (ت:1398هـ =1978م) رحمه الله: «من أنواع الظرف ما يكون مؤسسًا، وما يكون مؤكدًا، فالمؤسس هو الذي يفيد زمانًا أو مكانًا جديدًا لا يفهم من عامله؛ نحو: (صفَا الجو اليوم، فقضيته حول المياه المتدفقة، وبين الأزاهر والرياحين)، فكل واحد من الظروف: "اليوم، حول، بين ..." يسمى: "ظرفًا مؤسسا، أو تأسيسيًا"؛ لأنه أسس أي: أنشأ معنى جديدًا لا يفهم من الجملة بغير وجود هذا الظرف. والمؤكد: هو الذي لا يأتي بزمن جديد، ولا مكان جديد، وإنما يؤكد زمنًا أو مكانًا مفهومًا من عامله، ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ ، فالظرف: "ليلًا" لا جديد معه إلا التوكيد لزمن الإسراء؛ لأن الإسراء لا يكون إلا ليلًا،

ومثل: صعد الخطيب فوق المنبر؛ فالظرف: "فوق" لم يأت بجديد إلا توكيد معنى عامله الدال على الصعود، أي: الارتفاع والفوقية. لما سبق كان الظرف في مثل قول القائل: سرت حينًا ومدة لم يزد زمنًا جديدًا غير الزمن الذي دل عليه الفعل»[33].

وأمَّا من الناحية التطبيقية على الشواهد القرآنية، فهي أيضًا لا تعدو شاهدين اثنين، هما كل ما يتكرر ذكره عند من تعرض لمسألة الظرف المؤكد، وهما: قول الله جل وعلا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء:1]، ومثلُها قوله سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [الدخان:23]، ومحلُّ الشاهد فيهما هو الظرفُ (ليلاً)؛ إذ معناه مفهومٌ مستقرٌّ من الفعل (أسرى، فَاسْرِ)، لأنَّ معنى أسرى: سار ليلاً، فلمْ يبق لتقييد الفعل بالظرف (ليلا) إلاَّ التوكيد[34].

5- المسألة الخامسة: الحالُ لمؤكدة لعاملها:

الحالُ وصفٌ فضلةٌ يُذكرُ لبيانِ هيئَةِ الاسمِ الذي يكونُ الوصفُ له، وقد تكون مبينة لهيئة الفاعل، كقول الله جل وعلا: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:21]، فإن (خائفًا) وجملة (يترقب)، كلاهما حالٌ من الفاعل (الضمير المستتر الذي يرجع على موسى عليه السلام)، كما قد تكون مبينة لهيئة نائب الفاعل، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:28]، أو لهيئة المفعول، كقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران:30]، وغيرها كالمبتدأ، والاسم المجرور[35].

ويقسم النحاة الحال أقسامًا كثيرةً، باعتبارات مُختلفة، إلاَّ أنَّ الذي يعنينا الوقوفُ عليه من هذه الاعتبارات في هذا المقام، تقسيمها من جهة تأسيس المعنى وتأكيده، فهم يقولون أنها من هذا الباب؛ إمَّا مُؤسسةٌ، وهي التي تفيد معنى جديدًا لا يستفاد من الكلام إلا بذكرها، وإمَّا مؤكدةٌ، وهي التي لا تفيد معنى جديدًا، وإنما تقوي معنًى تحتويه الجملة قبل مجيء الحال، ولو حذفت الحال لفهم معناها مما بقي من الجملة، أيْ أن معناها مُستفادٌ بدونها. ثم هذه الحال المؤكدة؛ قد تكون مُؤكدةً لعاملها، أو لصاحبها، أو لمعنى جملةٍ قبلها[36]، والمقصود بالبيان في هذه المسألة هي الأولى: الحال المؤكدة لعاملها.

الحال المؤكدة لعاملها هي كُلُّ وصفٍ دلَّ على معنى عامله، سواءٌ وافقه من جهة اللفظ أو خالفه، والمعنى أن هذا النوع يأتي على ضربين: حالٌ مؤكدةٌ لمعنى عاملها ولفظه، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء:79]، فإن كلمة (رسولاً) حالٌ مؤكدة لعاملها الفعل (أرسل)، وهي موافقةٌ له لفظًا ومعنًى. وقد ترد مؤكدة لمعنى عاملها فقط دون لفظه، ومن

شواهدها قول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:60]، فإن كلمة (مفسدين) حالٌ مؤكدة لمعنى عاملها الفعل (تعثوا)؛ لأن العياث والإفساد بمعنًى. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل:10]، لأن التولي والإدبار واحدٌ، وإلى هذه المسألة أشارَ ابن مالكٍ (ت:672هـ) رحمه الله بقوله:

وعاملُ الحالِ بها قد أُكِّدَا * في نحوِ: لا تعثَ في الارضِ مُفسِدَا[37].

6- المسألة السَّادسةُ: الحال المؤكدة لصاحبها:

النوع الثاني من الحال المُؤكِّدة، هو: الحال المؤكدة لصاحبها، وتعلُّق هذه الحال من جهة التوكيد في هذا المقام، إنما هو بصاحب الحال، لا بالعامل الذي نصبها، وغالبُ ما يردُ من الأمثلة على هذه المسألة، أن يكون صاحبُ الحال صيغةً من صيغ العموم (كما هو عند الأصوليين)، ثُمَّ تأتي الحالُ مِن بعدُ لتُؤكِّد ذلك العموم الَّذي تقرر معناه في الجُملة من صاحبها.

ولم يُومئ ابنُ مالكٍ (ت:672هـ) رحمه الله في (الخُلاصة)، إلى هذا النوع، ولكنَّ الأشمونيَّ (ت:900هـ) رحمه الله، مثَّل له في الشرح بقول الله جل وعلا: ﴿لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:99]، والشاهد فيه الحال (جميعًا)، إذ هي مُؤكدةٌ لمعنى صاحبها اسمُ الموصول (مَنْ)، لأن اسم الموصول من دلالاته العموم، وجاءت الحال (جميعًا) مؤكدةً لذلك العموم[38].

ومثلُه أيضًا، قولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية:13]، فالحال (جميعا) هنا مؤكدةٌ لصاحبها اسم الموصول (ما)، الذي وقع مفعولاً. وقوله سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة:208]، الحال (كافة) مؤكدةٌ لصاحبها (ضمير الجمع في: ادخلوا). وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النحل:25]، الحال (كاملة) مؤكدة لصاحبها (أوزارهم)، وقد جاء صاحب الحال هنا، جمعًا مُضافًا، وهو من صيغ العموم كذلك، فكان المعنى (أوزارهم جميعها)، وهو قريبٌ من معنى الحال (كاملة)، ولذلك كانت الحال في هذا الموضع أيضًا مؤكدةً لصاحبها[39].

وجملة ما يُقالُ في هذه الأمثلة؛ أنَّ صاحب الحالِ فيها يُفيدُ العموم، والحال أيضًا أفادت العموم، فكانت بذلك مؤكدةً.

7- المسألة السَّابعةُ: الحال المؤكدة لمعنى جُملةٍ قبلها:

ثالثُ الصور التي تأتي عليها الحالُ مُؤكدةً، أن تؤكد معنى الجُملة التي قبلها، أي أنها لا تفيد معنى جديدًا، وإنما تقوي معنًى تحتويه الجملة قبل مجيء الحال[40]. وهذه المسألة، أشبه ما تكون

بمسألة جرى ذكرها من قبلُ وهي (المصدر المؤكد لمعنى جملةٍ قبله)؛ إذ كلاهما يُستفادُ معناه من مضمون الجملة قبله.

وقد اشترط النحاة في هذه الجملة تفاصيل، من جُملتها أن تكون جُملةً اسميَّةً، رُكناها (المبتدأ والخبر) اسمان جامدان، معرفتان[41]، وذكروا من أحكامها؛ أنَّ لفظها (الحال) متأخرٌ عن الجملة دائمًا، ولا يتقدَّمها البتَّة، وأنَّ عاملها واجبُ الحذف. وإلى هذا ألمح ابن مالكٍ (ت672ه) رحمه الله في (الخُلاصة) بقوله:

وإن تؤكد جملة فمضمرُ ❋ عاملها، ولفظها يؤخرُ

إلاَّ أنَّ من الدَّارسين المحدثين، من لم يرتضِ تلك الشروط في الجُملة المؤكدة، لأنها تُخالف الواقع الاستعماليَّ لهذا التركيب، يقول الأستاذ فاضل صالح السامرائي: «وفي هذه الشروط نظرٌ فيما أرى؛ فإنه لا داعي لاشتراط أن يكون الاسمان جامدين، فالحال المؤكدة لمضمون الجملة، قد تكون مع الأسماء الجامدة والمشتقة، وذلك بحسب دلالتها، وذلك نحو أن تقول: (هو الجاني مقهورًا) فهذه الحال تحتمل معنيين: إما أن يكون المعنى، أن الجاني مقهور، مغلوبٌ أمرُه، منهزم النفس، وهذا من لوازم الجناية، فتكون الحال مؤكدة لمضمون الجملة، كما تقول (هو أخوك عطوفًا). [...] فإن أردت المعنى الأول، كانت لمضمون الجملة، و(الجاني) اسمٌ مُشتقٌّ. [...] كما أنه لا داعي لاشتراط التعريف، وإن قولهم (لا يُؤكد إلا المعرفة) باطلٌ؛ لأن هذا رأي البصريين في التوكيد الذي هو تابعٌ، نحو (أقبل محمد نفسه)، وهذا ليس منه، فنحن نقول (ما وَلَّى رجلٌ منَّا مُدبرًا)، فنكون قد أكدنا العامل، وصاحب الحال نكرةٌ، ولم يمنع التنكير من التوكيد، ونقول (قضيتُ سِتَّة أيامٍ كاملةً) (فكاملةً) تحتمل الحاليَّة، وهي عند ذاك، مؤكدة لصاحبها وهو نكرةٌ»[42].

ومن شواهد هذه المسألة في القرآن الكريم؛ قول الله جل وعلا: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام:126]، فكلمة (مستقيمًا)، حالٌ مؤكدة لمضمون الجملة التي قبلها، وإنما كانت حالاً مؤكدةً؛ لأن صراطَ الله لا يكون إلاَّ مُستقيمًا. ومثلُه قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر:31] فكلمةُ (مصدقًا) في الآية الكريمة، حالٌ مؤكدة لمعنى جملة (هو الحق)؛ لأن كون القرآن حقًّا من عند الله، مفيدٌ كونَه مصدقًا لما بين يديه من الكتب الإلهية[43].

8- المسألة الثَّامنة: التَّمييزُ المُؤكِّد:

التمييزُ هو: الاسمُ النكرة المفسر لما انبهم من الذوات أو النسب؛ أي من الأسماء المفردة أو

الجمل، ومعنى ذلك أنه في اصطلاح النحاة قسمان: تمييز الذات، وهو ما بيَّن الإبهام الواقع في الاسم المفرد، كقول الله جل وعلا: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:4]، فكلمة (كوكبًا) تمييز، بيَّنَ الإبهام الواقع في العدد (أحدَ عشرَ). وتمييزُ النسبة، وهو ما فسَّر الإبهام الواقع في الجملة، أي في الإسناد، كقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:7]، فالتمييز (رحمةً وعلمًا) مفسِّرٌ لنسبة سعة الله لكل شيء(44).

وكون التمييز مفسرًا؛ يجعلُ وظيفته الأبرز من جهة المعنى التأسيس، سواء في المأثور عن العرب من الشواهد الفصيحة، وما ورد في القرآن الكريم، ولذلك فقد أنكر جمعٌ من النحاة ورودها مؤكدةً، إلاَّ أن قلة مجيئها كذلك، لا ينفي وجودها بالكلية، يقول الأستاذ مصطفى الغلاييني (ت:1364هـ=1944م) رحمه الله: «قد يأتي التمييزُ مؤكّداً، خلافاً لكثير من العُلماءِ، كقوله تعالى ﴿إنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عندَ اللهِ اثنا عشرَ شهراً﴾ ونحو "اشتريتُ من الكتبِ عشرينَ كتاباً"، فشهراً وكتاباً لم يذكرا للبيانِ، لأنَّ الذات معروفة، وإنما ذُكرا للتأكيد. ومن ذلك قول الشاعر [من البسيط]:

وَالتَّغْلِبِيُّونَ بِئْسَ الفَحْلُ فَحْلُهُم * فَحْلاً، وأُمُّهُمُ زَلاَّءُ مِنْطِيقُ»(45)

وممن أجاز ورودَ التمييز للتوكيد، الكفويُّ (ت:1094هـ)، إذ يقول في (الكليات): « والتمييز يجوز أَن يكون للتَّأْكِيد مثله فِي: (نعم الرجل رجلا) قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ذرعها سَبْعُونَ ذِرَاعا﴾»(46).

فتلك ثماني مسائل، في باب المنصوبات الفضلة، ورد فيها أسلوب التوكيد من جهة المعنى والغرض، وإن لم يكن ذلك التركيب توكيدًا اصطلاحيًّا.

خاتمةٌ

ممَّا يُمكن لدارس أسلوب التوكيد أن يسجله مِن نتائج في هذا المقام:

1- أنَّ أسلوب التوكيد، متورٌ في أبواب النحو المختلفة، فمسألة حرف الجر الزائد للتوكيد – مثلا –، نجدها في عدَّة مواضع، فنُلفيها في باب المفعول به؛ وهو من المنصوبات الفضلة، كما نجدها في باب خبر ليس؛ وهو من المنصوبات العمدة، كما نجدها في باب المبتدأ وباب الفاعل؛ وهما من العمدات الأصيلة.

2- أنَّ مبنى التوكيد في اللُّغة جميعِها – من جهة الصياغة اللفظية –، على قضيَّةٍ واحدةٍ، هي: التَّكرار؛ سواءٌ كان هذا التكرار للمعنى فقط، أو للفظ والمعنى جميعًا، وهذا الأمرُ؛ وجدناه في كُلِّ أساليب التوكيد؛ الصناعي منها وغير الصناعي، في باب المنصوبات وغيرها.

3- أنَّ باب المنصوبات الفضلة، مجالٌ رحبٌ لأسلوب التوكيد؛ إذ في خمسة أبوابٍ منه، من أصل ثمانيةٍ، وُجِدَتْ أساليبُ توكيدٍ، وكان باب الحالِ أوفرَها نصيبًا بثلاثة مسائلَ، يليه باب المصدر (المفعول المطلق) بمسألتين، وبعدهما كُلٌّ من باب المفعول به، والمفعول فيه، والتمييز بمسألةٍ في كُلِّ بابٍ.

4- المُلاحظُ على أغراض التوكيد في باب المنصوبات أنَّها تفاوتت من موضعٍ إلى آخرَ، بين توكيد عموم النفي، ودفع توهم المجاز، وتقوية إيصال العامل إلى المعمول، وغيرها، إلاَّ أنَّها مع ذلك الاختلاف الجزئيِّ، تشتركُ جميعًا في الغرض الأساس، الَّذي هو: تثبيتُ المعنى المؤكَّدِ في نفس السامع، وتقويته وتقريره، ما يُنبي عن الصِّلة الوثيقةِ بين المعنى اللغويِّ للتوكيد، والمعنى الصناعي الاصطلاحيِّ.

5- مع كون التوكيد فرعًا في اللغة، والتَّأسيسُ هو الأصل، (وحمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التوكيد) كما يقرر أهل الأصول، إلاَّ أنَّ النَّاظر في أساليب التوكيد المدروسة في هذا المقال، لا يعدَمُ لمحًا لفائدةٍ في كُلِّ أسلوبٍ بانفراده، غير أن تلك الفوائد لا ينظمها سلكٌ واحدٌ، وإنَّما تُلتمَسُ من كلِّ موضعٍ بحسبه.

- التَّوصيات:

لا ريب أن المتتبع لبعض الأساليب في اللغة العربية، يُلفي أنها شتات بين أبواب لغوية مختلفة، كأسلوب النفي مثلاً، وأسلوب التوكيد، وغيرهما، ما يُعسِّر على الدارس الشادي، الإحاطة بتلك الصور المختلفة للأسلوب الواحد، بله إدراك ما فيها من سرٍّ في التعبير، ولذلك فقد تعالت صيحات المهتمين، بأن تكون دراسة هذه الظواهر اللغوية على هيئة أساليب متكاملة، لا على صفة صورٍ مختلفةٍ، موزعة على أبواب مشتتة. وفي هذا الصدد يقول د. إبراهيم مصطفى (ت:1382هـ=1962م) رحمه الله: «ومثل النفي في ذلك (التأكيد)؛ يدرسونه في (باب إنَّ)، ويقرنون (بإنَّ) المؤكدة، (أنَّ) الواصلة، (وليت) المتمنية، لأنها أدواتٌ تتماثلُ في العمل، وإن تباعد ما بينها في المعنى والغرض. وفي باب الفعل، يذكرون نوني التوكيد وأحكامها، لأثرهما في إعرابه. وفي بحث التوابع يجعلون للتوكيد بابًا خاصًّا، يذكرون فيه عددًا من الكلمات، حكمها في الإعراب حكم ما قبلها.

ولو جُمِعت أساليبُ التوكيد في العربية – ما هنا وما لم يُذكر –؛ وبُيِّن ما يكون منها تنبيهًا للسَّامع، وما يكون تأكيدًا للخبر، وما يكون تقويةً للرَّغبة، لكان أقربَ إلى أن تُدرسَ كلُّ أنواع

التوكيد، ويُبيّن لكل نوعٍ موضعه؛ ولكان أدنى إلى توضيح أساليب العربية وسِرِّها في التعبير»[47].

وقد وجدتْ هذه الشَّكوى سبيلها عند جمعٍ من الدارسين المُحدثين، ومن جُملتهم الباحثة عائشة عبيزة، التي تقول في رسالتها (دراسةٌ وظيفيَّةٌ لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم): «وقد عرف العلماء أشكالاً كثيرةً للتوكيد، وحللوها بِنيةً ودلالةً، ولكنهم رغم ذلك؛ أهملوا الكثير من الأشكال والمسائل الأخرى المتعلقة بهذا الأسلوب، ولم يُدرجوها في التقسيمات المعروفة للتوكيد، وإن كانوا قد تحدثوا عن إفادتها معنى التوكيد في أبوابٍ أخرى»[48].

فهي – إذًا –، دعوةٌ إلى دراسة أبواب اللُّغة حسب المعنى والغرض، لا على أساس اتحاد العمل؛ فمن الإجحاف بمكانٍ، أن نقرن في الذكر – مثلاً –، بين (لا) النافية للجنس، و(إنَّ) المؤكدة، لمجرد كون عملها واحدًا، وأذكر – على سبيل التجربة العملية – أنَّ هذه القضيَّة بالذّات، طالما كانت محلَّ استغراب الطلبة أثناء تدريسي لهم، لأنهم لا يستوعبون الجمع بين متضادَّيْن في الدلالة في موضعٍ واحدٍ، فعندما أقول في الإعراب التطبيقي: (لا النافية للجنس تعمل عمل إن)؛ لا يكادُ ينقضي عجبُهم، فأُضطرُّ للوقوف عندها، ومُحاولة إفهامهم أنَّ (للا النافية للجنس) شِقّين: أحدهما؛ متعلقٌ بالمعنى الذي تفيده، والآخر؛ متعلق بالعمل الإعرابي الذي تؤديه. أمَّا من جهة المعنى؛ فهي عكس (إنَّ)، فإن الأولى تنفي، والأخرى تؤكد. وأمَّا من جهة العمل؛ فعملها واحدٌ؛ إذ كلاهما تنصب مبتدأً ويُسمى اسمَها، وترفعُ خبرًا ويُسمى خبرَها.

وما هذه المماحكةُ[49]، إلا ثمرة تغليب الوظائف الإعرابيَّة، على الأغراض المعنويَّة، المستفادة من الأساليب العربيَّة، ولِمَ لا – اجتنابًا لهذه النقيصة، وتكميلاً لتعليم النحو في المراحل السابقة ، استحداثُ مقياسٍ جديد، نسميه – مثلاً –: أساليب اللغة العربية، يُدرس في مرحلة الماستر، في أقسام اللغة العربية، وحتى العلوم الإسلامية، يأخذ فيه الطالب دروس النحو، على شكل أساليب متكاملةٍ، لا قزعات متناثرة في أبواب مختلفة، على غرار ما فعل العلاَّمة الكبير عبد السَّلام محمد هارون (ت:1408هـ=1988م) رحمه الله، في كتابه (الأساليب الإنشائية في اللغة العربية)، أو ما فعلت جامعة المدينة العالمية في ماليزيا، في مُقرَّرِها المتعلق (بالإعجاز اللغوي في القرآن الكريم).

هذا، والحمد لله أوَّلاً وآخرًا، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

ـ الهوامش:

1) عبد الله بن يوسف الجديع، المنهاج المختصر في علمي النحو والصرف، ط3، مؤسسة الريان، لبنان، 1428ه-2007م، ص88.

2) أبو بكر محمد بن سهل بن السراج، الأصول في النح و، تحقيق عبد الحسين الفتلي، ط2، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1417ه-1996م، ج1، ص159.

3) يُنظر: جلال الدين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دط، المكتبة التوفيقية، مصر، دت، ج2، ص4.

4) جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414ه، ج3، ص466.

5) المصدر نفسُه، ج3، ص366-367.

6) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1407ه-1987م، ج2، ص553.

7) أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دط، دار الفكر، دمشق، 1399ه-1979م، ج6، ص138.

8) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القُرآن، تحقيق أحمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1420ه-2000م، ج17، ص281.

9) مصطفى بن محمد سليم الغلاييني، جامع الدروس العربية، ط28، المكتبة العصرية، لبنان، 1414ه-1993م، ج3، ص231.

10) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، رسالة الحدود، تحقيق إبراهيم السامرائي، دط، دار الفكر، عمان، دت، ص68.

11) أبو الفتح عثمان بن جني، اللمع في العربية، تحقيق فائز فارس، دط، دار الكتب الثقافية، الكويت، دت، ص84.

12) محمد بن عبد الرحمن جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط3، دار الجيل، بيروت، دت، ج2، ص75. وقد نسبه التهانوي (ت:بعد 1115ه) في (كشاف اصطلاحات الفنون) لسعد الدين التفتازاني (ت:793ه)، ولعل هذا الأخير، هو من استفاده من القزويني (ت:739ه)، إذ هو سابقٌ له وفاةً، بِنحو 54 سنةً.

13) محمد بن علي بن القاضي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996م، ص361.

14) يُنظر: عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل(ت:769ه)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط20، دار التراث، مصر، 1400ه-1980م، ج3، ص206-208. و: الغلاييني، جامع

الدروس العربية، ج3، 232-233.

15) يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1423ه، ج2، ص94.

16) أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، الكليات (مُعجمٌ في المصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، ط2، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1432ه-2011م، ص223.

17) يُنظر: إبراهيم علي الجعيد، خصائص بناء الجملة القرآنية ودلالاتها البلاغية في تفسير التحرير والتنوير (رسالة دكتوراه في البلاغة من جامعة أم القرى بمكة المكرمة، بإشراف أ د محمد محمد أبو موسى)، جامعة أم القرى، 1419ه-1999م، ص20 وما بعدها.

18) من جملة أساليب التوكيد في باب المفعول به؛ تكرار المُغرى به في أسلوب الإغراء، كقول الشاعر:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ✵ كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاحِ

أو تكرار المحذر منه في أسلوب التحذير، كقول الآخر:

إيَّاك إيَّاك المراءَ فإنَّهُ ✵ إلى الشرِّ دَعَّاءٌ وللشّرِّ جالبُ

لكنَّ هذه الأساليب، تدخل في باب التوكيد الصناعيِّ (أي تُعربُ توكيدًا من الناحية النحوية)، لذلك لا يعنينا الكلام عنها في هذا المقال.

19) يُنظر: عبد الله بن يوسف جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت:761ه)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط6، دار الفكر، دمشق، 1985م، ص425. و: ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج3، ص14.

20) يُنظر: أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت: 429ه)، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق محمد فائز وإميل بديع، ط4، دار الكتاب العربي، لبنان، 1420ه-1999م، ص319. و: أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري (ت:538ه)، المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق علي بو ملحم، ط1، مكتبة الهلال، بيروت، 1993م، ص381. و: أبو الحسين علي بن الحسين الباقولي (ت: 543ه)، إعراب القرآن، تحقيق إبراهيم الإبياري، ط4، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1420ه، ج2، ص671.

21) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج2، ص214.

22) يُنظر: أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص660.

23) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص406.

24) يُنظر: ابن عقيل، شرح الألفية، ج2، ص169-172.

25) عباس حسن، النحو الوافي، ط3، دار المعارف، مصر، دت، ج2، ص207-209.

26) خالد بن عبد الله الأزهري، التصريح بمضمون التوضيح في النحو، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1421ه-2000م، ج1، ص490.

27) يُنظر: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي(ت:338ه)، إعراب القرآن، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1421ه، ج1، ص251. و: أبو البقاء

الكفوي، الكليات.ج1، ص409.

28) يُنظر: عباس حسن، النحو الوافي، ج2، ص219.

29) يُنظر: فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، ط1، دار الفكر، عمان الأردن، 1420ه-2000م، ج2، ص153-154.

30) أبو الحسن علي بن محمد الأشموني(ت:900ه)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1419ه-1998م، ج1، ص477.

31) يُنظر: محمد بن أبي بكر الرازي(ت:666ه)، مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، ط1، دار الفكر، لبنان، 1421ه-2001م، ص172. و: الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج3، ص48.

32) يُنظر: عائشة عبيزة، دراسةٌ وظيفية لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم (رسالة دكتوراه في اللغة العربية من جامعة باتنة، وقد كان من جملة مناقشيها؛ أستاذتنا الفاضلة: أ.د. ذهبية بورويس - متعها الله بالعافية -)، باتنة، 2009م، ص324.

33) عباس حسن، النحو الوافي، ج2، ص257-258.

34) يُنظر: أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري(ت:538ه)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407ه، ج2، ص646.

35) يُنظر: الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج3، ص78. و: جميل أحمد ظفر، النحو القرآني قواعد وشواهد، ط2، مطابع الصفا، مكة المكرمة، 1418ه-1998م، ص338.

36) يُنظر: الأشموني، شرح الألفية، ج2، ص27. و: عباس حسن، النحو الوافي، ج2، ص391.

37) يُنظر: ابن عقيل، شرح الألفية، ج2، ص276. و: جميل ظفر، النحو القرآني، ص362.

38) يُنظر: الأشموني، شرح الألفية، ج2، ص28.

39) يُنظر: فاضل السامرائي، معاني النحو، ج2، ص307.

40) يُنظر: عباس حسن، النحو الوافي، ج2، ص391.

41) يُنظر: الأشموني، شرح الألفية، ج2، ص28-29.

42) فاضل السامرائي، معاني النحو، ج2، ص309-310.

43) يُنظر: جميل ظفر، النحو القرآني، ص363-364.

44) يُنظر: الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج3، ص113. و: جميل ظفر، النحو القرآني، ص369 فما بعدها.

45) الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج3، ص125.

46) الكفوي، الكليات، ص241.

47) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، تقديم طه حسين، ط2، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1413ه-1992م، ص5-6.

48) عائشة عبيزة، دراسةٌ وظيفية لأسلوب التوكيد في القرآن الكريم، ص4-5.

49) قال ابن منظورٍ رحمه الله (ت: 711ه): «محك: المِحْكُ: المُشارَّة والمنازعة في الكلام، والمِحْكُ: التمادي في

اللجاجة عند المساومة والغضب ونحو ذلك [...] ورجلٌ مَحِكٌّ ومُماحكٌ ومَحكانُ؛ إذا كان لجُجًا عَسِرَ الخُلُق»
اللسان، ج10، ص486.

The linguistic non-artificial assertives in the section of grammatical accusatives.

Laid HEDIG*

Abstract:

It caught my attention, while teaching the module of grammar and syntax for the second year Islamic Sciences; the repetition of the term (assertion) within a course concerning the accusative nouns. At first glance, (assertion) is not a part of (accusative nouns). Traditionally, it is placed within the section of (subordinates) along with the adjective, the conjunction, and the apposition. Therefore, I was tempted to follow up this phenomenon in the section of (accusatives) and eight issues were raised within five sub-sections. The afore mentioned issues were discussed in my article entitled: **The linguistic non-artificial assertives in the section of grammatical accusatives.** The article is composed of an introduction allocated to explain the terms of the title; a body of the two parts: the first one defines the assertion and its purposes, and the section one is mainly for the study and statistics of (assertion) cases within the section of (accusatives). Last, but not least, it involves a conclusion which is devoted for the important findings and recommendations.

* Institute of Islamic Sciences - University of El-oued - Algeria.

الاستراتيجية الخطابية في خدمة القيم الإنسانية
الشيخ البشير الإبراهيمي أنموذجًا

بقلم
أ/ منصف دقاشي(*)

ملخص

السعي لتحقيق القيم الإنسانية على أرض الواقع هدفٌ سامٍ يسعى إليه كلّ مَنْ سمتْ إنسانيته عن تُرابيته (عرقُه) مهما كانت أيديولوجيته. وهذه القيم تُنشّأ عليها الناشئة، فيشبّوا وقد استوت إنسانيتهم وزكت نفوسهم وتسامتْ غاياتهم. والتنشئة تتطلب رجالا خُلّصًا ذوي نوايا صادقة وعزائم قويّة، يتمتعون بكفاءات تأثير عالية في المخاطَبِين (كلّ حسب مقامه ومكانه ومستواه)، كي تصل رسالة القيم التي يحملونها واضحة ويمكّنوها في النفوس كما هي متمكنة في نفوسهم، وهذه هي البراعة والبلاغة. ومن الذين كان لهم شرف الدفاع عن القيم الإنسانية، الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كتَبَ وخطَبَ وراسلَ مستغلا ما وهبه الله من ملكة لغوية وأدبية وسلطة دينية، في تحقيق القيم الإنسانية؛ وعلى رأس تلك القيم الحرّية، وهذا المقال يعطي نموذجا من هذا الخطاب في أسلوب النداء الذي اعتمده الإبراهيمي مدْخلاً يكاد يكون دائما.

الكلمات المفتاحية: القيم الإنسانية، الخطاب الإنساني، استراتيجية النداء ، البشير الإبراهيمي.

مقدمة

كلّ الذين كتبوا عن شخصية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يجمعون على مواصفات قلّما تجتمع كلّها في شخص واحد، ولكنّها اجتمعت في شخصه، لخصها تلميذه جميل صليبا بقوله: «بدمشق عهدت وزارة المعارف إلى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في التدريس – تدريس اللغة

(*) أستاذ متعاقد بقسم الحضارة الإسلامية ـ معهد العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي..

العربية – فأعجبنا سعة علمه وقوّة ذاكرته واستقامة منهجه، لأنّه كان يملي علينا المتنبي والبحتري وأبي تمام عن ظهر القلب من أوّلها إلى آخرها، ويقرّب معانيها من أفهامنا بالتفسير المحكم والشرح الدقيق والتحليل الأدبي الجميل، حتّى ولّد في نفوسنا حبّ اللغة العربية وآدابها .. وكان الذي حبّبه في نفوسنا تواضعه، ولطفه، ووقاره، وشجاعته، وعفّته، وشعوره بكرامته، وحرصه على القيام بواجباته وتعلّقه بالقيم الإنسانية المثالية». وتظهر هنا بوضوح معالم شخصية الإبراهيمي، وقوّة تأثيره في المخاطبين، ويدلّل هذا على أنّه كان ينتهج استراتيجية خطابية فعّالة حملت لمسة إنسانية، ينفذ من خلالها إلى عقول وقلوب مخاطبيه، فما هي هذه الاستراتيجية؟

من كتابات الإبراهيمي المنثورة في جريدة البصائر والمتضمنة في آثاره، يمكننا أن نقول أنّ الشيخ اعتمد في خطاباته أساليب عدّة، منها أسلوب النداء، الذي به يقرّب المخاطَب (مستمعا/قارئا)، فيمسك بسلطان قلبه ويجعله مقتنعا بفكرته، فيحدث الأثر العملي في سلوكه. واستعمل الإبراهيمي أسلوب النداء لاحتكاكه المباشر بالأسلوب قرآني، وهو الأسلوب الذي يضفي على صاحبه اللمسة الإنسانية. فكان يبدأ مقالاته بالألفاظ التالية: إخواني .. أيها الناس .. أيها السادة .. أيها الإخوة .. أنت يا حضرة القارئ .. أي أبنائي .. أيها الإخوان .. أيها السادات الأكارم .. أيها الآباء .. أيتها الأمة الكريمة ... ونادى العمال والطلبة والمثقفين والمرأة ووو...

إضافة إلى العوامل المذكورة سابقا فقد ساعد الإبراهيمي في النجاح اعتماده عاملين مؤثرين في استراتيجية الخطاب: المقاصد والسّلطة. ففي المقاصد، كان يحرص على بلورة المعنى مع مراعاة كيفية التعبير عن المقصد، وانتخاب الاستراتيجية التي تتكفّل بنقله مع العناصر السياقية الأخرى. ووظّف السّلطة الروحية التي يتمتع بها في إنتاج الخطاب، والتي كانت تمنحه قوّته الانجازين.

تسليطا للضوء على القيم الإنسانية التي كان يحملها ويدعو إليها الشيخ البشير الإبراهيمي قمنا بدراسة الأسلوب الذي كان يستعمله معتمدًا على عاملي المقاصد والسّلطة من خلال أسلوب النداء، وسمنا مقالنا بـ: الاستراتيجية الخطابية في خدمة القيم الإنسانية "الشيخ البشير الإبراهيمي أنموذجا".

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي :

الخطابة بقدر ما هي ملكة يهبها الله لمن يشاء، هي صنعة يقوم صاحبها بصقلها وطرق يقوم برصفها، بالجد والمثابرة في تحصيل العلم والمعرفة، بالمطالعة الدائمة والقراءة الجادة وحفظ

الأسانيد وممارسة مختلف الأساليب، لكسب رهان التميز وتعميق الأثر في النفس والغير.

اكتسب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي المولود بأولاد إبراهيم سنة 1889، من خلال نشأته في بيت العلم، بين يدي والده وعمّه الشيخ محمدّ المكّي، حيث حَفِظ القرآن الكريم وفهم مفرداته وغريبه وهو في التاسعة من عمره وتعلّم فنون العربية؛ فحفظ ألفية ابن مالك، وألفية ابن معطى، وكثيرا من الأشعار والمتون، حتّى أُجيز بتدريسها وهو في الرابعة عشر من عمره. واستفاد من ذلك في بلورة رؤية واضحة مع الشيخ ابن باديس (1889-1931) في تكوين وتربية النشء على فكرة صحيحة ولو مع قليل من العلم.

قال فيه احمد توفيق المدني: كان الإبراهيمي أمّة، كان جيلا، كان عصرا، كان من أولئك الأفذاذ القلائل، الذين أمْلَوْا إرادتهم على الحياة، وأخضعوا الأيام لمشيئتهم فكيّفوها كما أرادوا، وأخرجوا بلادهم من مصير شاءه لها الظالمون، إلى مصير رسموه لها بأنفسهم، فحدّدوا أهدافه، واستبانوا مسالكه، واقتحموا اقتحام الروّاد الصادقين طريقه الوعر المنهك للقوى، غير عابئين بما كانوا يلاقونه من عذاب وتنكيل واضطهاد، ولا معيرين السمع لما كان يحاك حولهم، بوحي من الغاصب الدخيل، من دسّ وبهتان، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين[1]. كان الإبراهيمي خلال عشرة أعوام من رئاسة فعلية لجمعية العلماء، يقضي سحابة يومه في البناء والتعمير، ويقضي سواد ليله في التدبير .. فما من مدينة وما من قرية ، وما من مضرب من مضارب البدو، إلاّ غشيها، وبثّ فيها الروح وغرس فيها بذور النهضة، واجتثّ منها الطفيليات القاتلة[2].

وفي عبارات رائعة وصفه يوسف القرضاوي بقوله: «و قد كان الشيخ إذا تحدث يتدفق كأنه البحر الثجاج، ويتألق كأنه السراج الوهاج، وأشهد أنه شدّ الحاضرين جميعا ببيانه الناصع، وخطابه الرائع، وسعة اطلاعه على الأدب والتاريخ، واستشهاده بحكم البلغاء، وروائع الشعراء، ووقائع المؤرّخين».

هذه الشهادات تدلّ على المكانة التي تبوّأها الشيخ الإبراهيمي في حياته وبعد رحيله، مقام العالم البحر، والأديب الأريب، والخطيب اللبيب، وما حلّ بهذا المقام إلاّ بتلك الروح التي تحمل قيمًا إنسانية راقية، نابعة من ثقافته الدينية المتجذرة في وجدانه، والتي استطاع من خلالها النفاذ إلى قلوب مخاطَبيه، وقارئي مقالاته، ومتتبعي أعماله وخطْواته.

اعتمد الشيخ الإبراهيمي في إيصال هذه القِيَم لمخاطَبيه على استراتيجية توجيهية نابعة من أعماقه، كانت كفاءته التداولية عاملا مهمّا في نجاح العملية التواصلية والتأثير في المخاطَبين. وبالتالي وجد أولا تحديد مفهوم الاستراتيجية الخطابية.

مفهوم الاستراتيجية في الخطاب:

يمكننا الاكتفاء بما عرّفه عبد الرحمن العبيدان حين قال أنّ الاستراتيجية هي طرق محددة لتناول مشكلة ما أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي مجموعة عمليات تهدف إلى بلوغ غايات معينة، أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محدّدة والتحكّم بها. وتتعدد الاستراتيجيات بتعدد الظروف. ولأنّ الاستراتيجية خطّة فإنها ذات بعدين؛ أولهما تخطيطي يتحقق في المستوى الذهني، وثانيهما مادي يجسد الاستراتيجية لتتبلور فيه فعلا. ويرتكز العمل في كلا البعدين على الفاعل الرئيس فهو الذي يحقق السياق ويخطط لفعله، ليختار من الإمكانات ما يفي بما يريد فعله حقّا، ويضمن له تحقيق أهدافه[3].

فالخطاب، أيّ خطاب هو نتيجة لاستراتيجية معينة. وتوليده يتم على مراحل ثلاثة هي[4]:

1. إدراك السياق الذي يجري فيه التواصل بكلّ أبعاده المؤثرة.
2. تحديد العلاقة بين السياق والعلامة المستعملة ليتم اختيار الاستراتيجية.
3. التلفظ بالخطاب.

ولا ينتج المرسل خطابه غفلا من اعتبار السياق، كما لا يتجلّى الخطاب دون استعمال العلامات المناسبة (لغوية أو غير لغوية) ليمارس بها خطابا منظّما في ما يسمّى باستراتيجية الخطاب وهذا يعني أنّ الخطاب المنجز يكون خطابا مخطّطا له بصفة مستمرة وشعورية. من هنا يتحتّم على المرسل اختيار الاستراتيجية المناسبة التي تستطيع أن تعبّر عن قصده وتحقّق هدفه بأفضل حالة. ويقتضي من المرسل أن يمتلك كفاءة تفوق كفاءته اللغوية ليتمكن بها تحقيق ذلك، ويمكن تسمية هذه الكفاءة بالكفاءة التداولية.

الكفاءة الخطابية التداولية للشيخ الإبراهيمي:

تعدّ الملكات التي تميز الإنسان في كفاءته عن الآخر مُكوّنا فاعلا ضمن تكوين الإنسان السويّ. وننطلق من تعريف "ديك" هذه الملكات من خلال تقسيمها إلى خمس، على النحو الآتي[5]:

الملكة اللغوية: يستطيع مستعملها من خلالها أن ينتج ويؤوّل إنتاجا وتأويلا صحيحين.

الملكة المنطقية: وذلك اشتقاق معارف أخرى بواسطة قواعد استدلال تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي.

الملكة المعرفية: أي رصيد من المعارف المنطقية بإمكانه أن يستحضرها لاستعمالها في تأويل العبارات اللغوية.

الملكة الإدراكية: إدراك المحيط واشتقاق المعارف واستعمالها في إنتاج العبارات اللغوية وتأويلها.

الملكة الاجتماعية: بحيث يعرف كيف يقول ذلك المخاطب معين من موقف تواصلي معيّن، قصد تحقيق أهداف تواصلية معيّنة.

وقد امتلك الإمام الإبراهيمي هاته الكفاءات جميعها، موهبة من الله، وتأديبا من والده وعمّه وشيوخه، واجتهادا وإقبالا على العلم من نفسه، وشهد له بالكفاءة رجال كُثُرٌ، نذكر منهم:

الدكتور بوعلام بالسايح؛ حيث كتب عن الكفاءة التداولية الخطابية للإبراهيمي: «كان يتميّز بعمق التفكير، وبسحر البيان، يخلب النّاس خطيبا، ويأسرهم كاتبا. لقد ملك ناصية اللغة العربية، فكان خبيرا بأسرارها، ضالعا في أساليبها، بارعا في فنونها وآدابها، له عليها سلطة وسلطان، تطاوعه كلّما عالج موضوعا من المواضيع وتنقاد له كلّما اتخذها أداة للمحاججة والجدل. ليست طريقته في الكتابة أسلوبا يحتذى فحسب، إنّما هي مدرسة ونموذج، وشرعة في جزالة اللفظ، ومتانة العبارة، وقوّة الحجّة، فهو الساخر اللاذع إنْ رام أسلوب السخرية والهزل، ولكنّه يعرف، حين يسخر، كيف يحتفظ بطابع اللباقة، الذي يضفي على حكمه وقراره مزيدا من الجدّة والطلاوة، أمّا إذا حاد عن سُبل السياسة، وسلك سبيل الأديب الرفيع، فإنّ له سبك الألفاظ وحبك المعاني مقدرة لا تضاهي، يأتي فيهما بما يسمّيه نقّاد الأسلوب العربي "السهل الممتنع"»[6].

وعبد الرحمن شيبان، الذي خطب الحاضرين في الذكرى الأولى لوفاة الشيخ سنة 1966 قائلا: «لقد كان رحمه الله: إماما في العربية وبلاغتها، تفقّه في أسرارها، وتغذّى بآدابها، واستنار بقرآنها، وكان خطيبا مُصقّعا، يهز القلوب ببيان السحر، يعيد للأذهان ما كان للخطابة العربية من سلطان، في عهد قسّ بن ساعدة وسحبان، كان محدّثًا بارعا، لطيفا، يغمر مجالسه بالحكمة، ويجمِّلها بالنكتة، ويعطّرها بأريج ينعش الأرواح والعقول. وكان ديوانا لأيّام العرب، وآدابهم وتقاليدهم، في

أفراحهم وأحزانهم، في حربهم وسلمهم، يروي عن فهم وبصيرة، ويصدر عن حافظة واعية، وذاكرة منجدة، وكان، إلى جانب ذلك، فحْلا في الفصيح والملحون، يذكّرك بالمعرّي في لزومياته، وأبي الطيّب في حِكَمه وأمثاله. أمّا أسلوبه في الكتابة، فهو جاحظ عصره، وبديع زمانه، ممّا جعله، بحقّ، معجزة من معجزات الثقافة العربية الإسلامية، في القرن العشرين»[7].

بهذا ندرك أنّ استراتيجية الخطاب هي نتيجة لصنعة الكفاءة التداولية. وعليه يمكن تعريف استراتيجية الخطاب بأنّها عبارة عن المسلك المناسب الذي يتخذه المرسل للتلفظ بخطابه من أجل تنفيذ إرادته والتعبير عن مقاصده، التي تؤدّي لتحقيق أهدافه من خلال استعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية وفقا لما يقتضيه سياق التلفظ بعناصره المتنوعة ويستحسنه المرسل.

ومن الوسائل التي ساعدت الشيخ الإبراهيمي في قدرته الخطابية امتلاكه ناصية اللغة، باعتبارها وسيلة للتفكير، ووسيلة للتعبير والتبليغ، وسيلة للتواصل، وسيلة لحفظ التراث، وهذه وظائف عامة. واستند على وظيفة خاصة بها؛ الوظيفة الإفهامية (الندائية)؛ وهي تُعنى بالسامع، وبها تأخذ اللغة شكلها الاتصالي، كما يتضح ذلك في النداء، وفي الأمر وفي التمني.

وللاقتراب أكثر من المخاطَب وَظّف الشيخ الإبراهيمي "النداء" باعتباره وسيلة إفهام، وانطلاقا من كونه أسلوبا يفيد طلب استدعاء المتكلم للمخاطب للإقبال عليه والتنبيه إلى ما يلقى إليه من الكلام بعد هذا الاستدعاء ، ويتم هذا الاستدعاء بأداة أو حرف من الحروف التي وضعت للنداء

وللنداء جمالية بلاغية تأتي في دلالة سياق العبارات؛ فيه توجيه الأنظار إلى المنادى وتركيز الاهتمام حوله، وفيه ضربا من الإيجاز واختصارا للكثير من الكلام، فضلاً أن فيه تلوينا للكلام والتفاتا بليغا يرغب في استمالة المخاطب، ويبعث الاطمئنان في نفس السامع.

استثمار الشيخ الإبراهيمي المقاصد والسلطة في الخطاب:

المقاصد: يرتكز دور المقاصد، بوجه عام، على بلورة المعنى كما هو عند المرسل، إذ يستلزم منه مراعاة كيفيّة التعبير عن قصده، وانتخاب الاستراتيجية التي تتكفّل بنقله مع مراعاة العناصر السياقيّة الأخرى. وتكمن وظيفة اللغة هنا في تحقيق التفاعل بين طرفي الخطاب، بما يناسب السياق بمجمله، فتتّضح المقاصد بمعرفة عناصره[8].

تكتسي القصدية أهمية بالغة لكون هدف المخاطِب إيصال الفهم إلى المخاطَب، وتعتبر

المقاصد لبّ العملية التواصليّة، ووسيلة التواصل هي اللغة المشتركة في مستوياتها المختلفة وخاصة الدلالية إضافة إلى السياق الوارد فيه الخطاب، فلا وجود لأيّ تواصل دون وجود قصديّة وراء فعل التواصل. وقد فقه الشيخ الإبراهيمي هذا الأمر جيّدا فقصد بخطاباته الفئات المختلفة، ولكن بألفاظ وعبارات تناسب كلّ فئة.

السلطة: تلعب السلطة دورا رئيسا في إنتاج الخطاب وتأويله، كما أنّها تمنحه قوّته الإنجازية، لذلك، هناك من يرى أنّ الخطاب نفسه سلطة. فإذا كانت السلطة بمفهومها العام هي القوة التي تأمر وتنهى، فتطاع. والسلطة التي يتمتع بها الشيخ الإبراهيمي ليست القوّة المادية، وإنّما القوّة النابعة من السلطة الروحية التي يتمتع بها بصفته عالِمًا وإمامًا وأستاذا... سلطة مكّنته من المخاطب، فغدا بين يديه طيّعا رغبًا ورهبًا. وقد تحدّث الشيخ عن سلطة العلماء فقال: «العلماء الإسلام سلطان على الأرواح، مستمدّ من روحانية الدين الإسلامي وسهولة مدخله إلى النفوس: تخضع له العامة عن طواعية ورغبة، خضوعا فطريًّا لا تكلّف فيه، لشعورها بأنّهم المرجع في بيان الدين، وبأنّهم لسانه المعبّر حقّا عن حقائقه، والمبيّن لشرائعه، وبأنّهم حرّاسه المؤتمنون على بقائه، وبأنّهم الورثة الحقيقيون لمقام النبوّة»[9].

القِيَم الإنسانية عند الشيخ الإبراهيمي :

تشكّل القيم الإنسانية في مجموعها مبحثاً مستقلاً من مباحث التفكير الإنساني الفلسفي، وهو مبحث (القيم). ويحيلنا أصل لفظة (قيمة) إلى معنى: القدر، والمنزلة والرتبة العالية[10]، فالقيمة مرادفة للثمن؛ ذلك أن قيمة أي شيء: ثمنه وما يُقدّر به، ويمكن أن نسحب هذه المعالجة على الفعل والسلوك البشريين، فقيمة أي فعل إنساني، هي ثمنه من جهة رضا الآخرين عنه، و انسجامه وتناغمه مع مصدر القيمة، فالشيء القيّم هو مادة عالية الثمن، والفعل أو السلوك القيم هما شيئان مقدّران، ويستحقان كامل الاعتراف بإيجابيتها؛ ومن ثم الرضا عنهما في مجتمع هذا السلوك الإنساني.

القيمة، لفظة واصفة؛ و من ثم فإن دلالتها التواضعية تنشأ اعتماداً على ذلك، و مفهومها يتأتى من كونها "تطلق على كل ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته"[11] وأن الشيء القيّم هو الذي حاز "صفةً تجعل ذلك الشيء مرغوباً فيه ومطلوباً عند شخص من الأشخاص أو طائفة معينة من الناس"[12]، ولا يُفهم من هذا القول: إن القيم مقدَّرة فقط في إطار فئة أو طائفة معينة، بل إن

التقدير يطال كل القيم مهما تنوعت وتعددت، مادامت تنتمي لفئة القيم المطلقة التي تحظى بإجماع إنساني يتجاوز الاختلاف العقدي أو القومي أو العرقي، كما أنه إجماع لا يخضع لموجبات مرحلة تاريخية محددة؛ فتُقبل في مرحلة، وتنحسر وتتراجع في أخرى. فهي مطلقة؛ لأنها مستحقة للتقدير بذاتها[13]، وليست إضافية، كما توصف هذه القيم المطلقة بالقيم الأصلية تمييزاً لها عن القيم العرضية[14]؛ لأنها تتسم بالثبات والرسوخ من جهة، ومن جهة أخرى فإنها تختلف عن القيم الوسيلية التي ترتبط منزلتها بمدى قدرتها على تحقيق غاية ما. فالقيم المطلقة هي كذلك؛ "لأنها غاية في ذاتها وليست لها غاية أخرى"[15].

ويَعتبر الإبراهيمي أنّ القيم الإنسانية هي تلك التي تقوم على احترام كرامة الإنسان وحريته وحرماته، وحقوقه، وصيانة دمه وعرضه وماله وعقله ونسله، بوصفه إنسانا، وعضوًا في مجتمع. وستتناول خطاباته لمعرفة مدى قدرته وكفاءته التداولية الخطابية، من خلال القِيَم الإنسانية التالية: الحرية، والعلم، والأسرة والروابط الاجتماعية، والأخوّة الإنسانية والدينية.

أولا: قِيَم الحريّة

وحول قيمة الحرّية الإنسانية كتب الشيخ تحت عنوان "الرق في الإسلام" يستعرض فيه مفهوما واسعا شاملا لمعنى الحرية في القيم الإنسانية، انطلاقا من المبادئ الإسلامية، فكتب: إنّ الإسلام هو "دين التحرير العام"، فنرسل هذا الوصف إرسالاً بدون تحفّظ ولا استثناء، لأنّه الحق الذي قامت شواهده وتواترت بيّناته .. التحرر الذي جاء به الإسلام شامل لكلّ ما تقوم به الحياة وتصلح عليه المعاني والأشخاص، والدّين الإسلامي لا يفهم التحرير بالمعنى الضيق، وإنّما يفهمه على أنّه كلّ إطلاق من تقييد، أو تعديل لوضع منحرف، أو إنصاف لضعيف من قويّ، أو نقل شيء من غير نصابه .. حرّر الإسلام العقل وجميع القوى التابعة له في النفس البشرية، والعقل هو القوّة المميزة للمتضادات والمتنافرات التي بنى عليها هذا العالم، كإصلاح والفساد، والخير والشرّ والنفع والضرّ .. وحرّر الخلطاء بعضهم ببعض بما شرّعه من أحكام عادلة تقوم بالقسط، وترفع الحيف والظلم، ووقف بكلّ واحد عند حدّه، وحفظ له حقوقه .. وحرّر الإسلام الفقير من الغنيّ، فجعل للفقراء حقّا معلوما في أموال الأغنياء، ووجه التحرير هنا أنّ الفقير كان يسأل الغني فجعل للفقراء حقّا معلوما في أموال الأغنياء .. وحرّر الإسلام الحيوان الأعجم من الإنسان، وحرّم عليه أن يحمّله ما لا يطيق من الأحمال والأعمال، وأن يجيعه أو

يعطّشه.. وحرّر الإسلام المرأة من ظلم الرجال وتحكّمهم، فقد كانت المرأة في العالم كلّه في منزلة بين الحيوانية والإنسانية بل هي إلى الحيوانية أقرب..فجاء الإسلام فنبّه على منزلتها وشرفها وكرم جنسها، وأعطاها كلّ ما يناسب قوّتها العقلية تركيبها الجسمي وسوّى بينها وبين الرجل في التكاليف الدينية، وخاطبها بذلك استقلالا تشريفا لها، وإبرازا لشخصيتها[16].

وعلاَ صوته فنادى: أيها الإخوان .. أيها الشبان: إنّ الفرار من الظلم والتغرب في سبيل الحرّية طبيعة قديمة في النفوس الكريمة، وما و فرار ولا هي غربة، إنّما هو الحق يفرّ مغلوبا ليكرّ غالبا، ويصدر مطلوبًا ليردّ طالبًا، سنّة الله في الحرّية ص334 .. أيها الشبان! إنّ في تاريخكم لصحائف وضّاءة بحياة المغامرين في طلب الحرية أو في طلب الملك والمجدة والسيادة، فالتمسوها في الجاهلية من امرئ القيس وعروة الرحال، وخذوها في الإسلام من حياة صقر قريش وإدريس بن عبد الله وأبي عبد الله الشيعي، واطلبوا معاني البطولة والتضحية والإيثار من سير أبطالكم تجدوا في كلّ مفخرة إماما.

ثانيا: قِيَم العلم

وجّه نداء لفئة مهمّة في إحياء المجتمع؛ الشباب عامة والطلبة العلم خاصة، فنادي:

«أيها الشباب: إنّ الشباب نسب بينكم ورحمٌ وجامعةٌ، ولا مؤثّر في الشباب إلاّ الشباب، فليكن بعضكم لبعض إمامًا، ولْيُعلِّم المهتدون الضُلاّل»[17].

وفي نداء آخر: «العلم.. العلم.. أيها الشباب لا يلهيكم عنه سمسار أحزاب، ينفخ في ميزاب، ولا داعية انتخاب، في المجامع صخاب، ولا يلفتنكم عنه معلّل بسراب، ولا حاوٍ بجراب، ولا عاوٍ في خراب، يأتمّ بغراب، ولا يفتنّكم عنه منزوٍ في خنقة، ولا ملتو في زنقة، ولا جالس في ساباط، على بساط، يحاكي فيكم سنّة الله في الأسباط. فكل واحد من هؤلاء مشعوذ خلّاب وساحر كذّاب. إنكم إن أطعتم هؤلاء الغواة، وانصعتم إلى هؤلاء العوّاة، خسرتم أنفسكم، وخسركم وطنكم، وستندمون يوم يجني الزارعون ما حصدوا، ولات ساعة ندم»[18].

وخصّ طلبة العلم في الخارج بخطاب، استهله بنداء مُردف بكلمة "أبناءنا"؛ لفظ رقيق مؤثر في القلوب وخاصة في ديار الغربة حيث الوحشة والغربة، فقال: إنّكم يا أبناءنا فارقتم الأهل، وفيهم الآباء والأمهات، وفارقتم الديار التي خلعتم فيها التمائم، وفارقتم الوطن الذي له على كلّ حرّ كريم دَيْن! وفاؤه الحبّ، وكفاؤه النفع والجميل ... إنّكم يا أبناءنا مناط آمالنا، ومستودع

أمانينا، ننتظر منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصباح .. يا أبنائي إذا عرفتم واجب أنفسكم التي تحمّلت الأتعاب، وواجب آبائكم الذين غذوا وربّوا، وواجب الوطن المجدب الذي جعلكم رواده إلى القطر، إذا عرفتم هذا كلّه، فماذا أعددتم لهذه الواجبات؟ .. يا أبناءنا، إنّ الحياة قسمان: حياة علمية، وحياة عملية، وإنّ الثانية منهما تنبني على الأولى قوّة وضعف، وإنتاجا وعقما.. يا أبنائي! إنّ الزمن قد وضعكم وضعًا صيّركم جديرين بأنْ تطلبوا العلم لوجه الله، ولوجه العلم لا للوظائف ولا للشهادات.[19]

إلى صانعي النشء والشباب، وفي مقال بعنوان: "إلى أبنائنا المعلمين الأحرار"، نادى القائمين على العملية التعليمية، قائلا: أيها الأبناء البررة! ها أنتم تبوّأتم من مدارسكم ميادين الجهاد، فاحرصوا على أن يكون كلّ واحد منكم بطل ميدان.. يا أبنائي.. ها أنتم هؤلاء تربعتم من مدارسكم عروش ممالك؛ رعاياها أبناء الأمّة وأفلاذ أكبادها؛ تديرون نفوسهم على الدين وحقائقه، وألسنتهم على اللسان العربي ودقائقه، وتسكبون في آذانهم نغمات العربية، وفي أذهانهم سر العربية، احرصوا كلّ الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، ثم أحرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال، منطبقا على ما يرونه ويشاهدونه منكم من الأعمال؛ فإنّ الناشئ الصغير مرهف الحس، طلعة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم .. أي أبنائي! إنّ هذا القلب الذي أحمله يحمل من الشفقة عليكم، والرحمة بكم، والاهتمام بشؤونكم، ما تنبتُّ منه الحبال، وتنوء بحمله الجبال، وهو يرثى لحالكم من الغربة وإلحاح الأزمات ويودّ بقطع وتيه لو أُزيحت عللكم، ورفع بالسداد خللكم، ولكنّكم جنود، ومتى طمع الجندي في رفاهية العيش؟ وأسود، ومتى عاش الأسد على التدليل؟ وهو يشعر أنّ التدليل تذليل .. إنّكم – يا أبنائي – رجالُ حركة، فلا تشينوها بالسكون، وأبطال معركة، فلا يكنْ منكم إلى الهوينى ركون[20].

ولفئة أخرى من فئات العلم، التي تصنع المجتمع صناعة، وتمسك بتلابيب قلبه، وتخضع لسلطان مقامه العلمي، فئة العلماء، نادى: "أيها العلماء الخِيَرة، أيها الأبناء البررة: حيّاكم الله وبيّاكم، وأبقاكم عوامل رفع لهذا الوطن وأحياكم، وأطال أعماركم للعربية تُعلون صروحها وتنقشون في الأنفس لا في الأوراق شروحها، ولهذه الأمّة تضمّدون جروحها وتداوون قروحها، وللملّة الحنفية تحمون حماها وترمون من رماها.

ثالثا: قيَم الأسرة والروابط الاجتماعية:

ومن القيم الإنسانية التي ركّز الشيخ اهتمامه عليها، وذاد عنها، وأولاها عناية خاصة؛ الجانب الاجتماعي في قضايا الروابط الاجتماعية والأسرة والمرأة والطلاق والصداق. فنادى كلّ من يعنيهم الأمر؛ المسلمون جميع، فقال:

أيها المسلمون: إنّ عقدة الزواج عقدة مؤكدة، يحافظ عليه الأحرار، ويتلاعب بها الفجّار، وإنّ العصمة امتياز لرجالكم، ما لم تطغوا فيه وتظلموا، فإنْ طغيتم فيه وجُرْتم عن القصد، كما هي حالتكم اليوم، انتزعه منكم القضاء الإسلامي العادل لو كان، فإنْ لم يكن عاقبكم الله بعذاب الخزي.. أيها المسلمون: إنه لا أشقى من ابن المطلقة، وإن أباه يُشقيه أولًا، ويشقى به أخيرًا، فإذا ربيَ في حضن أمّه المطلقة شقي ببعده عن أبيه، وشقي أبوه بما تغرسه أمّه في نفسه من بغض له وحقد عليه. إن الأمة لا تنعم بأطفالها صغارًا، ولا تنتفع بهم كبارًا، إلا إذا نشأوا متقلبين في أحضان الآباء والأمهات، متلقّين لدروس العطف والحنان من قلبين متعاطفين، لا من قلب واحد[21].

وفي جانب اجتماعي آخر مهمّ يتعلق ببقاء المجتمع متراصا متّحدًا نادى محذرا قومه في تناص مع القرآن الكريم (يا قومي...)، فقال:

يا قوم: ها هي ذي الانتخابات البلدية على الأبواب، وهي مقدّمة لانتخابات متتابعة وحلقة من سلسلة طويلة من النيابات، وإنّ من طبيعة الانتخابات في الأمم التي لم تنضج آراؤها في الحياة، ولم يتضح منهاج الحياة لها، أنْ تشتّت الشمل المجموع وتفرّق الكتلة المتراصّة الأجزاء، فكيف بالشمل الممزق والرأي المفرّق؟ .. ونادى قادة الأحزاب فقال: يا قادة الأحزاب! إنّ في مبادئكم دسائس دخيلة من الأفكار، تؤرّث العداوة الحزبية بين الأخوة بحجّة المحافظة على المبدأ؛ فانبذوها بضرورة الاتحاد ومراعاة الظروف، وادحضوا شبهتها بحجة الوطن الصريحة .. والتفت في الأخير إلى الأمّة ككلّ بقوله: أيتّها الأمة الجزائرية! إنّ هذه الأحزاب تستمدّ قوّتها منك، وأنتَ الزاد والمدد، والعدّة والعدد؛ فاحملها – بجميع الوسائل – على الاتحاد.[22]

و في نداء آخر أطلقه الإمام غداة الاستقلال مباشرة، وهو مدرك لمتطلبات المرحلة الجديدة، منبّها لمخاطر الاستعمار المستقبلية، فنادى: «يا معشر الجزائريين، إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم» إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك»، فهو قد خرج من أرضكم ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم ولم يخرج من

ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم، فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها».

رابعا: الأخوة الإنسانية والدينية (فلسطين نموذجا):

وفي موقف إنساني لافت يتصور الشيخ الإبراهيمي، قطعة الأرض المسماة "فلسطين" تلك الحبيبة التي ليس بها عُوار، ويبكينها مناديا: يا فلسطين! إذا كان حبّ الأوطان من أثر الهواء والتراب، والمآرب التي يقضيها الشباب، فإنّ هوى المسلم لك أنّ فيك أولى القبلتين، وأنّ فيك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.. يا فلسطين! إنّ في قلب كلّ مسلم جزائري من قضيتك جروحا دامية، وفي جفن كلّ مسلم جزائري من محنتك عَبَرات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حقّك كلمة متردّدة هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير، وفي عنق كلّ مسلم جزائري لك –يا فلسطين– حقّ واجب الأداء[23].

إيه يا فلسطين!! لقد كنتِ مباركة على العرب في حاليك! في ماضيك وحاضرك! كنت في ماضيك مباركة على العرب يوم فتوحك فكمّلوا بك أجزاء جزيرتهم الطبيعية، وجمّلوا بك تاج ملكهم الطريف، وأكملوا بحرمك المقدس حرميهم.. وكنتِ مباركة عليهم في حاضرك المشهود فيما اجتمعت كلمتهم في يوم مثل ما اجتمعت في يوم تقسيمك؛ ولقد فرّقهم الاستعمار الخبيث في عهدهم الأخير، وما تنادوا للاتحاد مثل ما تنادوا إلى الاتحاد في سبيلك.. فلا زلتِ مباركة على العرب يا فلسطين! [24]

خاتمة

يشكّل العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في شخصه، مدرسة متميّزة بكلّ ما تحمله كلمة التميّز من معنى، فقد استطاع بعلمه الغزير، ولغته الواضحة، وبيانه وفصاحته، وثقافته الواسعة، أنْ يبني رؤية صحيحة بيّنةٍ، وجيلا متعلّما واعيا، وعلاقات وطيدة واسعة، شكّل من خلالها، أدبًا زاخرا يحمل قِيَمًا إنسانية راقية، بدأت جليّة من الاستراتيجية التي اعتمدها بالاقتراب من كلّ المخاطَبين، موظفا سلطته الروحية، ووضوح مقصديته، غلب عليها أسلوب النداء الذي يضفي على المتكلم لمسة إنسانية، سرعان ما يبدو أثرها على متلقيها، فتصل الرسالة، وتغدوا الكلمات التوجيهية أفعالاً إنجازيه.

وقد توضح هذا الأمر فيما عرضناه من نداءات، موجهة لكلّ الشرائح؛ كلٌّ حسب مستواه،

واستطاع بذلك أن يبسط في القيم الإنسانية أيّما بسطٍ؛ فتناول الحرّية وما تشكّله من ضرورة حياتية، والعلم، وقيم الأسرة والروابط الاجتماعية من زواج وطلاق وعلاقات أخوية، وكذا الأخوة الإنسانية والدينية على امتداد جغرافيا الأرض. وبذلك حقّ أنّ يلقّب بفارس البيان والخطيب الفنّان.

الهوامش:

[1] ينظر: أحمد توفيق المدني، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، السنة الخامسة عشرة، العدد 87، 1985، ص39.

[2] ينظر: المرجع السابق، ص44.

[3] ينظر: المرجع السابق، ص52.

[4] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ط1 ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص63.

[5] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، المرجع السابق ، ص57.

[6] بوعلام بالسايح، مجلة الثقافة، المرجع السابق، ص60.

[7] عبد الرحمن شيبان، مجلة الثقافة، المرجع السابق، ص73.

[8] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص180.

[9] ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1997، ج3، ص308.

[10] جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الجزء الثاني، 1979، ص212.

[11] جميل صليبيا، المرجع السابق، ص167.

[12] رمضان الصباغ، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، دار المطبوعات الجديدة، الطبعة الأولى، 1988، ص36.

[13] جميل صليبيا، المرجع السابق، ص213.

[14] رمضان الصباغ، المرجع السابق، ص39.

[15] وليام ليلي، المدخل إلى علم الأخلاق، ترجمة علي عبد المعطي محمد، دار المعرفة الجامعية، 1999، ص306.

[16] ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص358-360.

[17] ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص270.

[18] ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص316.

[19] ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص201-205.

[20] ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ ص262-265

[21] ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص299-300.

[22] ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص301-302

[23] ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، تصوير الفاجعة، جريدة البصائر، العدد 5، 1947.

[24] ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، وصف قرار التقسيم، جريدة البصائر، العدد 21، 1948.

The strategy of rhetoric in the service of human values Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi model

Moncef DEGUECHI *

Abstract :

the pursuit to realize the human values is a high goal, where the formation of these values requires sincere men who have high-impact competencies in the interviewers, so that the message of values is clear to those who addressed them. Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi is considered one of those who had the honor of defending human values by using public speaking.

Keywords: human values, humanitarian discourse, call strategy, Bashir Ibrahimi.

* Faculty of Arts and Languages – University of El-oued - Algeria.

توظيف الأسطورة في الإبداع الأدبي
الأصل والرمز والدلالة

بقلم
أ.د/ أحمد زغب(*)

ملخص

تتضمن الأسطورة بدايات تشكل الفكر البشري وعلاقته بالكون والحياة والمصير. فهل استثمار الأسطورة في الأعمال الإبداعية الأدبية، عودة وحنين إلى الماضي المظلم للإنسانية أو الأحلام القديمة للجماعات البشرية الأولى، تستمد منها رموزا للموضوعات الكبرى التي تشكل هواجس الإنسان: الموت، المصير، الحرية، القدر.....الخ.

نتقصى توظيف الأسطورة في العمال الأدبية: الشعر والمسرح والرواية لمحاولة طرح مقاربات متنوعة.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة- الإبداع الأدبي- الرمز- الدلالة.

مقدمة

نشأت الأسطورة عند الإنسان حين أحسّ عن طريق الحدس، أو الغريزة العارفة حسب رأي برغسون، بوجود كائنات ما ورائية وبقدرة هذه الكائنات على السيطرة على حياته والتأثير فيها، فتحول هذا الإحساس القويّ إلى أفكار وتبلورت هذه الأفكار إلى معتقدات، ولمّا كانت قدرة الإنسان البدائي على التجريد ضعيفة، لجأ إلى محاولة تشخيص تلك الأفكار أو العقائد إلى أحداث وشخصيات تفعل الأحداث فكانت بذلك ما يصطلح على تسميته بالأسطورة[1].

وهكذا فإن تعريف الأسطورة على شبه اتفاق بين الباحثين والعلماء تعتمد منطق السرد، مع أنهم يختلفون اختلافا شديدا في ماهيتها، فمنهم من يعرفها بأن تاريخ الآلهة، ومنهم من يقول إنها

(*) أستاذ الأدب الشعبي بقسم اللغة العربية وآدابها ـ كلية الآداب واللغات ـ جامعة الوادي.

حكاية مقدسة[2]، وفي قاموس الأنثروبولوجيا ورد أن الأسطورة قصة تقليدية من عالم غير موجود أي متخيل وزمن غير معروف ولمؤلف مجهول، أبطالها رجال وحيوانات وأرواح وآلهة ومخلوقات فوق طبيعية تفسر الأسطورة نشأة ومعاني المعتقدات والأعراف والظواهر الطبيعية أو أية مظاهر أخرى يعجز أفراد المجتمع عن تفسيرها.[3].

وفي تعريف آخر: الأساطير هي مجموعة الحكايات المتوارثة منذ أقدم العصور الإنسانية الحافلة بضرب من الخوارق والمعجزات، التي يختلط فيها الخيال بالواقع ويمتزج عالم الظواهر بما فيه الإنسان والحيوان والنبات والمظاهر الطبيعية بعالم ما فوق الطبيعة ؛من قوى غيبية اعتقد الإنسان الأوّل بألوهيتها، أي بقدراتها الفائقة على السيطرة على مظاهر الكون، فتعددت في نظره الآلهة تبعا لتعدد مظاهرها المختلفة[4].

أما كلود ليفي ستروس فيرى أنها حكاية خيالية تلعب الكائنات المارواثية فيها أدوار رئيسية[5]

والموضوعات الرئيسية التي تتناولها الأسطورة، هي مسائل الوجود الكبرى من قبيل خلق الكون، خلق الإنسان، الموت، ومصير الإنسان، الاختلاف بين الرجل والمرأة، والزواج... الخ. وتحتاج الحياة الاجتماعية والدينية إلى أساطير تبرّرها وتضفي عليها جوا من التقديس[6] وهكذا كان لكل شعب وكل مجتمع ميثولوجياته التي يفسر بها الظواهر الاجتماعية والكونية ولكل جماعة أعرافها ومعتقداتها المرتبطة بأساطيرها التي تبرر وتفسر تنظيم حياتها الاجتماعية السياسية والثقافية.

تتضمن الأسطورة بدايات تشكُّل الفكر البشري في علاقاته بالكون والوجود والمصير، لذلك لاحظ الباحثون تداخلا بين الأساطير الكونية في مختلف الثقافات الإنسانية ؛فالأسطورة الواحدة تنمو وتتطور وتنتقل من حضارة إلى أخرى، سواء حسب الانتشار(من ثقافة معينة إلى ثقافات مجاورة أو بعيدة) أو التطور الطبيعي للفكر الإنساني. وهكذا نجد تشابها كبيرا بين أساطير العالم في المغزى والهدف رغم تنوعها في الأسماء فعشتار هي نفسها أدونيس وهي تموز وأوزوريس...الخ.

فهل استثمار الأسطورة في الأعمال الإبداعية المعاصرة، عودة وحنين إلى أدغال الماضي المظلم للإنسانية، أو للعقل الباطن للمجتمعات الإنسانية وأحلامها، لتستمد منها رموزا للموضوعات الكبرى التي تشكل هواجس الإنسان: الموت، المصير والخوف من المجهول.القدر، الحرية...الخ، ويستنفر الأديب المعاصر تساؤلات الإنسان القديم وإجاباته الحالمة، من أجل تجاوزها وإبراز موقفه الإنساني والحضاري الراهن، أم أنها هروب من الواقع ودعوة إلى إلغاء

العقل على رأي بعض الاجتماعيين [7]، أم أنه تجربة شخصية رؤيوية عميقة تنطلق من معاناة الذات الفاعلة، المبدعة لتصب في التجارب الإنسانية عامة في نهاية المطاف؟

نتقصّى توظيف الأسطورة في الأعمال الأدبية: الشعر والرواية والمسرحية لمحاولة طرح مقاربات متنوعة لهذا التوظيف.

الرمز الأسطوري في الأدب:

الرمز علامة اصطلاحية تعبر بشكل مكثف عن معنى أو شي، غير مباشر في الواقع النفسي أو الاجتماعي[8]، والرمز الأسطوري نتاج معرفي له امتدادات في الماضي والحاضر والمستقبل وبه يحضر الماضي في وعاء الحاضر ويتكرر في المستقبل، وتستقرّ الصور البدائية في اللاوعي الجمعي أو ما يسمّيه بعض النقاد النماذج العليا أو الأوّلية، وهي رواسب نفسية لتجارب الإنسان البدائي تعبر عنها الأساطير والأحلام والتخيلات الفردية وكذا الأعمال الأدبية[9].

والموروثات الثقافية البشرية تتشكل في شكل رموز وعلامات اجتماعية وتعرض للأفراد كأنها أحلام، وتعرض للجماعات كأنها في شكل حوادث تاريخية تؤثر في أغلب أبنائها تأثيرا موحدا لأنها هي نفسها تتخذ أشكالا محددة أو أنماطا ثابتة من أنماط السلوك. والنقد الأسطوري يدرس الإنسان والموروث الثقافي البشري، ويدرس العلاقة الموجودة بين اللاشعور الجمعي وتصورات الجنس البشري البدائية وعلاقتها بالأثر الأدبي[10].

ويكشف الأديب المبدع مشاعره الباطنية وأغوار نفسه انطلاقا من الرموز الخيالية، التي يستلهمها الأديب من الأساطير. وحتى يكون كلامنا أكثر وضوحا، نضرب مثالا عن رمز أسطوري، هو عبارة عن علامة اجتماعية ، ناتجة عن أحلام الإنسان البدائي في أن يحقق أحلامه متجاوزا الواقع المادي ومعيقاته باستعمال السحر الذي تدعمه قوى غيبية، فكان من أشهر الرموز السحرية الخاتم السحري، فكثيرا ما يعجز الإنسان مصطدما بالواقع المادي، والسحر من الأحلام التي سيطرت على الإنسان الأول وكان يظن أنه بالطقوس السحرية يستطيع أن يغير الواقع فيُسقِط المطر، و يجعل الحيوانات تتوالد.....الخ فقرءوا بعض التعاويذ –كما يقول فريزر– ليحثوا الشمس على الإشراق والحيوانات على التكاثر وفواكه الأرض على النمو، وعلى مرّ الزمان تقدمت المعرفة وبدّدت كثيرا من الأحلام اللذيذة [11]، وبقي ذلك الرمز يراود الإنسان، فورد في كثير من الأساطير التي تعبّر عن تحدّى المقدس للقوى الخارقة كما وجدنا ذلك في حكاية خاتم سليمان الواردة في كثيرة من الحكايات العجيبة. لهذا كثيرا ما اصطدم الشعراء والأدباء بالواقع المرّ الذي يرون انه يجب أن يتغير على الفور، لكنهم لا يملكون القدرة على التغيير، فيستلهمون رمز

الخاتم وهو التغيير السريع، وهكذا رأينا رمز الخاتم في التراث الإنساني في عديد من الثقافات كالألمانية والفرعونية والفارسية وغيرها.

دلالة الأسطورة في الأدب:

يرى بعض الدارسين، أن الأسطورة عملية إخراج للدوافع الداخلية في شكل موضوعي، والغرض من ذلك حماية الإنسان من دوافع الخوف والقلق الداخلي، وتشبه عملية الإخراج هذه العملية التي تتم في الحلم فيما يرى علماء النفس، فالحلم يخرج ما في النفس من دوافع الخوف والرغبة في شكل صور ورموز، فإذا بالمشكلات الداخلية المعقدة تتحول من تلقاء نفسها إلى موضوع حكاية [12].

وفي هذا –كما ترى نبيلة إبراهيم– تتفق الأسطورة مع القصة الحديثة، من حيث أنها استجابة للنوازع الداخلية التي يعيشها الإنسان نتيجة إحساسه بالخوف ورغبته في التعرف على الحقيقة المؤكدة. غير أن الإنسان البدائي استطاع أن يعثر في الأسطورة على الشكل القصصي الذي ترتاح إليه نفسه، بينما نجد القاص الحديث يخوض تجربة غير واضحة المعالم ومن ثم فإن الشكل الذي يصور تجربته يتمثل في رحلة فوضوية في عالمه الداخلي[13].

ولهذا فإن الإبداع الأدبي، مفعم بالرموز المستلهَمة من الأسطورة، وكلاهما غايته التأمّل في الكون والحياة والمصير والبحث عن المعنى، أمّا مالينوفسكي فيرى أن الأسطورة لم تظهر استجابة للنوازع الداخلية أو استجابة لدافع المعرفة ولا علاقة لها بالطقس بل تنتمي إلى العالم الواقعي وتهدف إلى تحقيق نهاية عملية ؛ فهي تروَى لترسيخ عادات قبلية معينة، وتدعيم سيطرة عشيرة ما، أو نظام اجتماعي، وما إلى ذلك فهي والحالة هذه عملية في منشئها وغايتها[14].

صحيح أنه لا يمكن فصل الأسطورة عن الطقوس، فالطقوس تمثّل للأسطورة وتحيين لها، مثلما يفهم من كلام مالينوفسكي، لأننا رأينا قيمة الطقوس بالنسبة للأسطورة، فهي تحيّنها وترسّخ رسالتها ومغزاها في نفوس المؤمنين بها، إنما لا يمكن إنكار علاقة الأسطورة بالواقع وتأثيرها فيه وتأثيره فيها.لكننا يمكن أن نجمع الرأيين معا وهما التأمل الذي هو من أهم وظائف الأسطورة إلى جانب الامتداد في الواقع. وهكذا نرى أن استلهام الأسطورة ورموزها في الأعمال الأدبية، يؤدي إلى التأمل في الواقع والقضايا المعيشة، وفي النصوص الأدبية الناجحة يتحول الأثر إلى ما يشبه الأسطورة في حثه الإنسان المتلقي على التأمل في الرموز الخالدة المأثورة من عصر البدايات عندما تستخدم دلالاتها للتعبير عن شأن من شؤون الساعة.ثم تضفي عليه وهجًا وإيحاء عميقا يجعلان هذا الراهن يمتلك ما تمتلك الأسطورة من ألق وجلال ومهابة مستوحاة من

عمق العقل الباطني للمجتمعات الإنسانية.

دلالة الرمز الأسطوري في الشعر :

المعروف أن الشعر يشترك مع الأسطورة في أن كليهما يتجاوز اللغة، فالشعر يحوّل مفردات اللغة إلى صياغة جديدة، كما يختلق علاقات جديدة بين الكلمات لم تألفها اللغة، ومتى تجاوزت اللغة إلى الشعر فإنها بذلك تكون قد تجاوزت نفسها وتوقفت عن أن تصبح مجرد لغة[15]، مثلما الشأن بالنسبة للغة التواصل التي في درجة الصفر على حدّ تعبير الناقد الفرنسي رولان بارث Barthes، وإنما تكون شبكة من الرموز، والإيحاءات والأخيلة، ومتى لامست القصيدة المشاعر العميقة للإنسان وأثرت فيه تأثيرا بالغا، بحيث اعتبرها مخزونا من الأفكار والمشاعر غير مستنفد، اقتربت أكثر من الأسطورة، بل تحولت إلى ما يشبه الأسطورة من حيث تأثيرها.

الراهن السياسي وعمق المأساة العربية:

لنأت بمثال محسوس يوضح كيف يرتبط الرمز الأسطوري بالحياة الراهنة والمستقبلية، فالأسطورة تتجاوز عصرها حين توظف توظيفا فنيا فيكون لها بُعدٌ عامّ، فقد وظفها الشاعر الفلسطيني أدونيس على أساس أنها تؤدي معنى إنسانيا في الحاضر، ففي أسطورة العنقاء التي تنبعث من تحت الرماد، نلاحظ في الأبيات التالية أنه لا يكررها بل يجعلها وسيلة لإدراك واقعِهِ، عبرت عن شعوره بالمجتمع وعكست حياته الانفعالية[16].

جدّد أيها الأخضر موتي.
إن في جثتي الأخرى فصولا وبلاد.
أيها الأخضر في هذا السواد.
الأخضر في بحث المناديل عن النيل وعن مهر العروس.
الأخضر في كل البساتين التي أحرقها السلطان.
والأخضر في كل الرماد
لن أسميك انتقال الرمز من حلم إلى يوم.
أسميك الدم الطائر في هذا الزمان..
واسميك انبعاث السنبلة.

نرى كيف يوظف أسطورة طائر الفينيق أو العنقاء ليبحث عن الذات الفردية والجماعية الضائعة تحت الرماد، تحت ركام الموت، علّها تنبعث مثل طائر العنقاء.

رغم الإحساس بعمق المأساة، يرسم الشاعر الذات العربية قابلة للعودة الانبعاث من جديد

كلما اسودت الدنيا وتراكم فوقها رماد الموت، عندئذ تقترب أكثر من الانبعاث والإثبات أن الفناء محال.

فحتى الموتى يعودون إلى الحياة، فالموت عند درويش لا يعني الفناء فالشهداء يخرجون من الأشجار ويتفقدون صغارهم، يتجولون على السواحل يرصدون الحلم. ففي قصيدة مديح الظل العالي:

بيروت ليلا:

يخرج الشهداء من أشجارهم يتفقدون صغارهم.

يتجولون على السواحل يرصدون الحلم والرؤيا

يغطون السماء بفائض الألوان

يسمون الجزيرة يغسلون الماء..

ثم يطرزون حصارنا قططا ونخلا[17]

وعلى ذكر العودة والانبعاث، نجد الشاعر الفلسطيني الثائر سميح القاسم، أكثر تفاؤلا وذلك بتوظيف أسطورة يوليسيز وعودته وهو البطل الإغريقي الملحمي في حرب طروادة بعد رحلة محفوفة بالمخاطر استغرقت عشر سنوات، وربطه بالشمس والإنسان الفلسطيني المهجّر بعيدا عن أرضه:

يقول سميح القاسم:

ياعدو الشمس في الميناء زينات وتلويح بشائر.

وزغاريد وبهجة.

وهتافات وضجة.

والأناشيد الحماسية وهج في الحناجر.

وعلى الأفق شراع.

يتحدى الريح واللج ويجتاز المخاطر.

إنها عودة يوليسيز من بحر الضياع.

عودة الشمس وإنساني المهاجر.

ولعينيه وعينيها يمينا لن أساوم.

وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم....سأقاوم.

نرى إضاءة الرمز الأسطوري لفكرة العودة، رسخ فيها الإحساس بالخلود، ولفها بجوّ من

السحر والغموض، بحيث صارت ذات تأثير قوي تبعث الإيمان في نفوس المحبطين بعد الهزائم والمآسي التي تحاول تحويل الإنسان إلى رماد، فالرمز الأسطوري يجعل الإنسان الفلسطيني معادلا موضوعيا للشمس التي يغطيها السحاب فترة من الزمن لكنها تعود حتما لتنعش الحياة من جديد.

توظيف الأسطورة في المسرح:

وإذا كنا قد رأينا أنّ توظيف الأسطورة في الشعر، يستلهم عنصرا من عناصرها، ليشير به إلى فكرة راسخة في الوجدان الجمعي وبذلك يضفي عليها جلالا وغموضا وسحرا ويجعلها أكثر تأثيرا على المتلقين، فإن توظيف الأسطورة في المسرح يختلف إلى حد كبير وإن كان الهدف واحدا وهو جعل العنصر الأسطوري يمتد إلى الواقع الاجتماعي فيعالج الراهن من المواقف والأحداث، ففي المسرح يعمد الكاتب إلى الأسطورة فيوظف بعض المشاهد ويقتبس بعض الشخصيات التي تقوم بالأدوار، ثم يجري تعديلا على النص المسرحي التراثي ليتلاءم مع الفكرة التي يرغب في تقديمها إلى المتلقي.

وظف كتاب كثيرون منذ عصر النهضة الأساطير، لخدمة أغراضهم من المسرح سواء بهدف التهرب من المساءلة السياسية، أو لأغراض تأثيرية محضة، من أقدم الكتاب علي أحمد باكثير وبخاصة مسرحيته إيزيس وأوزوريس، وتوفيق الحكيم ومسرحياته المتنوعة مثل الملك أوديب ، ومسرحية إيزيس، إلى الكاتب المعاصر عبد العزيز حمودة ومسرحيته الشهيرة :''الناس في طيبة''، ونجد عشرات المسرحيات في البلاد العربية توظف الأساطير سواء الإغريقية أو الفرعونية أو البابلية كأسطورة جلجامش.

وقد حظيت تلك المسرحيات بعدد من الدراسات الأكاديمية، ولاسيما في موضوعنا هذا وهو توظيف الأسطورة وأثرها على العمل المسرحي.من هذه الدراسات أطروحة دكتوراه للكتاب أحمد شمس الدين الحجّاجي، ونهاد إبراهيم وعادل أمين وغيرهم كثير.

غير أننا ههنا نريد – في هذه العجالة – أن نشير إلى الفرق بين توظيف الأسطورة في المسرح وتوظيفها في الأشكال الأدبية الأخرى، ونوضح التعديل الذي يجريه الكاتب من أجل أن يمرر رسالته، وما هو فحوى الرسالة، وما أضافته العناصر الأسطورية إليها.

السلطة والقدر والإرادة الحرة:

فتوفيق الحكيم، وهو مؤسس المسرح الذهني، يقول عن نفسه إن أبطاله عبارة عن أفكار لذلك تبقى بعيدة عن الخشبة وموقعها اللائق هو الورق والمطبعة، ومسرحيات الحكيم تدعو

للقراءة والتذوق أكثر مما تدعو للفرجة.

وظف توفيق الحكيم مسرحية أوديب الملك التي صاغها المسرحي اليوناني سوفوكليس، للتعبير عن صراع الإنسان مع قدره، من أهم التعديلات التي اختلف بها الحكيم عن مسرحية سوفوكليس، انه جعل عظمة أوديب تنبع من فضائله البشرية لا من كونه نصف إله يصارع بقية الآلهة، فأوديب بريء وله فضائل بشرية، يقول أوديب إن السماء لا تظلم، ويقول عن نفسه إنه لم يستطع أن يبصر يد الإله، كما أن اختلاف سبب فقء أوديب لعينيه بين سوفوكل والحكيم فالحكيم يجعلها حزنا على زوجته وأمّه جوكاستا يقول لأمه لن أبكيك إلا بدموع من دم[18].

أما في مسرحية إيزيس، فقد رمز بأشلاء أوزوريس المبعثرة إلى تمزق الأمة وضرورة جمعها والتوحيد بين أوصالها، وجمع أبنائها على قائد واحد موحّد[19].

أما عبد العزيز حمودة أضاف لأسطورة إيزيس وأوزوريس تعديلات تتمثل في جعل أزوريس يمتثل لرغبة أخيه ست في قتله اعترافا بفشله في حكم طيبة، وأن سياسته القائمة على الترحال من بلد إلى آخر يعلّم الناس المحبة والخير، لا تصلح لحكم الأمم، لأنها أوصلت البلاد إلى حالة من الجدب والقحط والجفاف. بينما النص الأصلي للأسطورة يقول إن خدعة دبرت لأوزوريس، ليدخل في الصندوق ثم يطبق عليه الغطاء ثم يصبّ عليه القصدير المذاب ليرمى في البحر، فقد تنازل أزوريس عن حياته طواعية، رغبة في التغيير لصالح شعبه[20].. وهي الفكرة التي أرادها الكاتب المسرحي عبد العزيز حمودة لينقل رسالة سياسية إلى الحكّام، المتمسكين بالسلطة مهما جرّت من الوبال على شعوبهم.

توظيف الأسطورة في الرواية العربية:

التفت الروائيون العرب إلى الأسطورة ووظفوها في رواياتهم، من أولئكم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحليم بركات، إبراهيم الكوني والطاهر وطار، عبد الحميد بن هدوقة، جمال الغيطاني وغيرهم كثير.

وأسباب مراودة الروائيين العرب للأسطورة لا تختلف كثير عن الشعراء والمسرحيين ؛فالكل يسعى لتحقيق هدفين رئيسيين: أولهما سياسي وهو اتخاذ الأسطورة قناعا وقائيا يحميهم من المساءلة أمام السلطة السياسية المستبدة حين يرغبون في القدح في الأنظمة يتخذونها وقاء ويضعون مسافة مجازية بينهم وبين الواقع السياسي الذي يتناولونه بالنقد.

وثانيهما سبب فني وهو التحرر من سلطة البلاغة التقليدية[21].ومن الطبيعي أن هؤلاء الروائيين، لا يحاكون الأسطورة الأصلية إنما يغيرون فيها ويعملون فيها تعديلات لكي يشحنوا

رموزها بدلالات جديدة، حتى تتحول الأسطورة إلى أسطورة أدبية، وهم بذلك يتناولون القضايا الإنسانية الكبرى التي شغلت الإنسان منذ وجوده على هذا الكوكب؛مثل الموت والحياة والمصير، والحرية والعدالة والثورة والسلام....الخ.

الإخوة الأعداء: علاقة دموية

ومن الأساطير المعروفة في الثقافات الإنسانية عموما والثقافة الدينية على وجه الخصوص أسطورة هابيل وقابيل حسب النصوص الدينية الإسلامية [1]، أو قابين حسب أسفار العهد القديم، وإن وجدت آثار هذه القصة بروايات مختلفة لدى بعض الشعوب البدائية حسب جيمس فريزر في كتابه الفولكلور في العهد القديم[22].

يضفي إبراهيم الكوني على شخصية قابيل أوصافا لم تكن معروفة في أسفار العهد القديم ولا الكتب الدينية التالية لها ولا في أساطير الشعوب البدائية، فقابيل ليس راعي غنم شرير يقتل أخاه بمبرر واه، إنما هو شخص كله نحس، ماتت أمه يوم ولادته وماتت خالته التي تبنته هي وزوجها عطشا، ومات أو غرق أو أصيب كل من صنع معه خيرا. ثم إنه أرضعته غزالة عطفت عليه خوفا من أن يموت عطشا في الصحراء، فقتلها وأكل لحمها.

"حافظ إبراهيم الكوني على اسم الشخصية الأسطورية وأورده بصيغته الإسلامية، بدل الصيغة التوراتية (قابين) والتسمية مظهر من مظاهر استلهام الأسطورة، سواء اكتفى الأديب بذلك أم تجاوزه إلى أحداث الأسطورة، ولاحظنا اختفاء اسم هابيل الذي عادة ما يكون معطوفا على قابيل..، فقد جعله ضمن دائرة المسكوت عنه ليكون نصّا صامتا، لذا بدا لنا هابيل في شخصية الراعي أسوف تارة وفي شخصية الغزالة تارة أخرى، خاصة وان قابيل مارس عليها فعل القتل.

قتل قابيل أخاه هابيل (الإنسان) أسوف الراعي ليس لأنه قدم قربانا كما تقول الأسطورة ؛بل لأنه يريد فرض سيطرته على مملكة الرعي والصيد وإن اضطره الأمر إلى قتل الآخر، فكان أن قتل قابيل الراعي العجوز هابيل، إنه الوجه الآخر للمستعمر الأجنبي الذي جاء غازيا ومستكشفا.

إن هذه العلاقة الدموية بين الإخوة الأعداء هي إحدى جزئيات الأسطورة الأصلية التي استعارها الكوني ليؤثث بها نصه الروائي مضيفا عليها من عنديات ما يجعلها أسطورة أدبية حسب

[1]- لم يرد ذكر اسمي قابيل وهابيل في القرآن، وقد ورد هذان الاسمان في البداية والنهاية للحافظ بن كثير، على عكس العهد القديم فقد ذكرهما قاين وهابيل، ينظر سفر التكوين الإصحاح 04.

مواصفات ريمون ريسون"[23].

خاتمة

ومجمل القول إن العناصر الأسطورية تشير إلى أوليات الفكر البشري، ودهشة الإنسان الأول حول المسائل الكبرى التي عالجها ووجد لها حلولا ارتاحت لها نفسه واقتنع بها، بل أكثر من ذلك شخصها وحرك أحداثها، وشحنها بشخصيات إلهية أو أنصاف آلهة وحولها إلى سرد موضوعي بعد أن كانت إحساسا داخليا، ثم فكرا مجردا ومعتقدا، وهذا السرد تطور في سرد فني شعري استقر في الثقافات الإنسانية بأشكال متنوعة، ومنه جاء توظيفه في الأعمال الأدبية من شعر ورواية ومسرحية، وفق ما يريد المبدع إرساله من رسائل إلى المتلقين، ورأينا أن المبدع يستوعب الفكرة والرمز ويعيد إنتاجها، لتضفي على فنه مسحة جمالية فيها الغموض والسحر والإيحاءات المحركة للأخيلة والمشاعر.

ـ الهوامش:

[1]– ينظر : فراس السواح : دين الإنسان ص52

[2] -Mercea Eliade ;Aspects du mythe imp idées Gaillimard Paris.1963p16

[3]– مصطفى شاكر سليم، قاموس الأنثروبولوجيا

[4]– أنس داوود، الأسطورة في الشعر العربي، نقلا عن : محمد علي الصباح القصص الشعبي في مؤلفات سلام الراسي ص33

[5]– كلود ليفي ستروس : معنى الأسطورة.

[6] – مصطفى شاكر سليم : المرجع السابق ص659

[7]– ينظر مثلا : خليل أحمد خليل مضمون الأسطورة في الفكر العربي

[8]– سمير حجازي :معجم المصطلحات اللغوية والأدبية ص211

[9]– ميجان الرويلي وسعد البازعي :دليل الناقد الأدبي ص337.

[10]– جميل حمداوي : الاتجاه الأسطوري في النقد الأدبي الحديث الجمعية الدولية للمترجمين العرب.مجلة واتا.

[11]– جيمس فريزر : الغصن الذهبي ترجمة جبرا إبراهيم جبراص15

[12]– أوتو نانك الأسطورة وميلاد البطل : نقلا عن نبيلة إبراهيم :أشكال التعبير في الأدب الشعبي ص11

[13] – نبيلة إبراهيم : أشكال التعبير في الأدب الشعبي ص11

[14]– مالينوفسكي السحر، والعلم والدين، نقلا عن فراس السواح مغامرة العقل الأولى ص15

[15]– مجدي الجزيري التنوع البشري وكلود ليفي ستروس دار الوفاء الإسكندرية ص129

[16] – محمود فؤاد سلطان: الرموز التاريخية والدينية والأسطورية، في شعر محمود درويش

[17]–ديوان محمود درويش ج2ص45

[18]– توفيق الحكيم : الملك أوديب.مكتبة مصر دار مصر للطباعة.دت.ص161

[19]– سمير الحلبي:توفيق الحكيم ملامح رائد موقع إسلام أون لاين

[20]– ثامر محمد فايز مصطفى :توظيف الأسطورة في المسرح المصري المعاصر.رسالة دكتوراه جامعة القاهرة 2013.ص.ص 32.33

[21]– مديحة عتيق : توظيف الأسطورة في رواية نزيف الحجر لإبراهيم الكوني، مجلة الرافد الأدبية تصدر عن ديوان الثقافة والإعلام حكومة الشارقة 2005.

[22]–جيمس فريزر : الفولكلور في العهد القديم ترجمة نبيلة إبراهيم ص73 وما يليها

[23]– مديحة عتيق المرجع السابق.

قائمة المصادر والمراجع:

– المصادر:

1- القرآن الكريم، برواية الإمام ورش عن نافع.
2- الكتاب المقدس دار الشرق الأوسط للكتاب المقدس.
3- ديوان محمود درويش.
4- توفيق الحكيم، الملك أوديب مكتبة مصر دار مصر للطباعة د.ت

– المراجع:

- جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم ترجمة نبيلة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972.
- جيمس فريزر، الغصن الذهبي ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس.2008.
- كلود ليفي ستراوس معنى الأسطورة، ترجمة شاكر عبد الحميد.دار الشؤون الثقافية العامة دمشق 1986.
- فراس السواح دين الإنسان، دار علاء الدين، دمشق 2002.
- ثامر محمد فايز مصطفى، توظيف الأسطورة في المسرح المصري المعاصر د. جامعة القاهرة 2013.
- نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي.دار نهضة مصر القاهرة.د.ت
- محمود فؤاد سلطان الرموز التاريخية والأسطورية في شعر محمود درويش، مجلة جامعة الأقصى، سلسلة العلوم الإنسانية، مجلد14 عدد1.
- مديحة عتيق توظيف الأسطورة في رواية نزيف الحجر لإبراهيم الكوني، مجلة الرافد يلأدبية تصدر عن دائرة الثقافة والإعلام حكومة الشارقة 2005.
- مجدي الجزيري، التنوع البشري وكلود ليفي ستروس، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية 2002.
- ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي ط3 بيروت2003
- سمير حجازي معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، دار الراتب الجامعية بيروت لبنان.د.ت
- مصطفى شاكر سليم، قاموس الأنثروبولوجيا.جامعة الكويت1981

باللغة الفرنسية:

Mercia Eliade, Aspects du mythe.imp Guaillimard.Paris1963.

The use of myth in literary creativity Origin, symbol and significance

Pr. Ahmed ZGHEB*

Abstract:

Legend includes the beginnings of the formation of human thought and its relation to the universe, life and destiny. Is the exploitation of myth in creative literary works is a return to the dark past of humanity or the old dreams of the first human groups, which derive symbols of the major themes that constitute the concerns of man: death, destiny, freedom, fate ..... etc.

Keywords: Myth - Literary Creativity - Symbol - Significance.

* Faculty of Arts and Letters - University of El-oued -Algeria.

القوى الخَفِيّة ومصادر الإلهام الشّعري
قراءة لنفسيّة الشّاعر العربيّ القديم

بقلم
د/ علي كرباع(*)

ملخص

يتناول هذا المقال قضية القوى الخفية في الشّعر العربي، ومصادر الإلهام الشّعري، أو ما يسمى بشياطين الشّعر، والتّطرق إلى العمليّة الإبداعيّة ودواعيها، من خلال علاقتها بالعلم الخفي (الجن)، وحديث الشّعراء عنهم وعن شياطينهم، وما مدى التأثر بهم واعتقادهم بهذه القوى الخفية، وأثر ذلك على نفسيتهم وترجمة ذلك في النصوص.

الكلمات المفتاحية: الشعر– القوى الخفية– الإلهام– العرب القدامى.

مقدمة

لقد تطرّق النقاد إلى قضيّة مهمّة أرست دعائم العمليّة الإبداعيّة لدى الشّعراء؛ ألا وهي قضيّة شياطين الشّعر أو الجنّ، وأثرهم على الشّعراء وما نقلوه من أشعار على ألسنتهم.

إنّ إيمان الشّعراء بهذه القضيّة ليس وليد صدفة، لأنّه قائم على معتقدات كان العرب في الجاهلية يؤمنون بها، فقد رَوَت بعض الكتب أنَّ هناك قبائل قد عبدت الجنّ، ظانّين أنّ هناك أرواحا تَحُلُّ بها، أو تسير معهم. وما ذكرها الشّعراء إلا لاعتقادهم بوجود قِوى خفِيَّة يزعمون أنّها تُعِينهم على قول الشّعر، وتُجريه على ألسنتهم.

وقد روى القرشيّ عدة روايات منقولة أو بالأحرى منسوبة إلى الجنّ، وجَعَلَها في الفصل الرَّابع من مقدمته، ابتدأها بما رَوَتْه الجنّ على الشّعراء أو ما أوْحَتْه لهم. حيث قال:"وعلمتُ أنّه جانّ فقلت: أيّها الشّيخ إنّك لأسوأ منّي صُنعا! فقال: بل أنت أظْلم وألْأم.... ثم قلتُ دهشا:

(*) أستاذ محاضر "ب" بقسم اللغة العربية وآدابها ـ كلية الآداب واللغات ـ جامعة الوادي..

أتَرْوي من أشعار العرب شيئا؟. فقال نعم أروي، أقول قولا فائقا مبرزا فقلت: فارو من قولك ما أحببت فأنشأ يقول:

طاف الخيال علينا ليلة الوادي *** من آل سلمى و لم يُلمم بميعاد

إنّي اهتديت إلى من طال ليلهم *** في سبْسَبٍ ذات دكداك و أعقاد "(1).

وفي هذا الكلام نرى القرشيّ قد نقل هذه القصّة دليلا على أنّ الجنّ – أو الشّياطين – كانت تحفظ الشّعر العربيّ وتَرْوِيه، وهذا ظنّا منهم بأنّ للشّعراء شياطين، وربما ارتبط الشّعر بهؤلاء "فقالوا بأنّ لكل شاعر شيطانا يُلْهِمه الشّعر، إذ يزعم الشّعراء، أنّ الشّياطين تُلْقِي الشِّعر على أفواهِهم وتُلَقِّنُهم إيَّاه، و تُعينهم عليه، ويَدَّعون أنّ لكلّ فَحْل منهم شيطانا يقول الشّعر على لسانه فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود "(2).

وإنّ هذا المعتقد لم يأت من فراغ بل هو ما دار في مُخَيِّلتِهم، وعلى غراره نسجوا القصص والحكايات، فلا يُستبعد أنْ يكون هذا عن طريق الشّعوذة واستخدام الجنّ التي من خلالها يَأتون بأشياء خارقة للعادة، وهذا ما يجعل النّاس تهابهم، ويظنُّون أنّها من عالم آخر لما يَأتون به من أخبار وعبقريات، لا تقوم بها طبيعة الإنسان.

وإنّ هذه القضيّة التي تتناقلها الكتب الدّارسة للأدب الجاهلي ليست قضيّة خياليّة، إذ أن الشّعراء ذاتهم ذكروا ذلك في أشعارهم، أو نُسِب إليهم الشاعر جنيّ. فالعرب تزعم أنّ كل شاعر يستوحي ذلك الإبداع من طرفهم و يستعين بهم.

وقد نقل القرشيّ أسماء الشّعراء وأصحابهم ومن ذلك ما رواه مظعون بن مظعون في حديثه مع الجنيّ قال له:"لقد سمعتُ بهذا الشّعر منذ زمان طويل، قال للأعشى؟ قال: نعم، قال فأنا صاحبه، قلت فما اسمك؟ قال: مِسْعل السَّكران بن جندل، فعرفت أنّه من الجنّ فبتُّ ليلة الله أعلم بها، ثم قلت له من أشعر العرب؟ قال: أرو قول لافظ بن لاحظ و هنات وهبيد وهادر ابن ماهر، قال أجل! أما لافظ فصاحب امرؤ القيس، و أما هبيد فصاحب عبيد بن الأبرص وبشر، و أما هادر فصاحب زياد الذبياني و هو الذي استنبغه فسُميّ النّابغة "(3).

وقد أورد الجاحظ في كتابه الحيوان قصيدة يَذكر فيها الحكم بن عمرو البهراني قصة العرب مع الجنّ، وكيف كانوا يعتقدون فيها إذ يقول:"

وتزوَّجتُ في الشّبيبة غولا *** بغزال وصِدْقيَّ زقُّ خمر

سادة الجنّ ليس فيها من الجـ *** نّ سوى تاجر وآخر مُكر

وأرى فيهم شمائل إنس *** غير أن النِّجار صورة عفر "(4).

ومما يُنقل عن الشّعراء ولقاءاتهم بهؤلاء الجن، "فقد روى الآلوسيّ أنّ الأعشى خرج يريد قيس بن معد يكرب بحضرموت، فضلَّ الطَّريق في أوائل أرض اليمن، وأصابه مطر، فوقعت عينُه على خباء من شعر فقصده، وإذا بشيخ على باب الخباء، فسلَّم عليه، وأدخل ناقته خباء آخر، وحطَّ رحله وجلس فسأله عن اسمه والمكان الذي يقصده.... ثم أنشده قوله:

ودِّع هريرة إنَّ الرّكب مرتحل *** وهل تطيق وداعا أيها الرجل؟

فلمّا رأى الشّيخ ما نزل به –أيْ الأعشى– قال: ليُفْرج روعك يا أبا بصير أنا صاحبك "مِسْحل بن أثاثة الذي ألقي على لسانك الشّعر، فسكنت نفسه ورجعت إليه، وسكن المطر فدلَّه الشيخ على الطريق "(5).

وقد روى صاحب الجمهرة في هذا الباب عدة قصص للشّعراء كيف كان شياطينهم تلهمهم الشّعر أو يذكرونه على ألسنتهم، فذكر قصة عن امرئ القيس، "فقلت:أتروي من أشعار العرب شيئا، فقال: نعم فأنشدني كالمستهزئ قول امرؤ القيس في مطلع معلقته.

قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل *** بسقط اللواء بين الدخول فحوْمل.

فلما فرغ قلت: لو أنّ امرأ القيس يُنشر لرَدَعَك... قال: أنا والله منحته ما أعجبك "(6).

ففي هذه القصّة يتجلى لنا أنّ الفحول خاصة كان شعرهم نقلا على ألسنة الجنّ، أوما أوحته لهم، وأن صاحبه لكأنه ينتظر منه الإبداع والإلهام، لأنّهم رمز للموهبة الإبداعيّة التّي سيطرت على نفسيَّته، وقد نُقل عن بعض الشّعراء قوله لشاعر آخر:" أنا أقول كل ساعة قصيدة وأنت تعرضها في كلّ شهر فلما ذلك؟ فقال: لأنّي لا أقبل من شيطاني مثل الذي تقبله من شيطانك، فالشّيطان رمز الإبداع الذي يتفاءل به الشاعر "(7).

وإنّ هذا الاعتقاد من طرف أهل الجاهليّة كان مرتبطا بإيمانهم بالسّحر والكهنة، "وكانوا يزعمون أنّ الشّياطين تنزل على الشّعراء كما تنزل على الكُهَّان، وزعموا أنّ الأعشى كان له شيطانا ينفث في وعيه الشّعر يُسمّى مِسْحلا "(8).

فالعمليّة الإبداعيّة هاته في نظرتهم هي وليدة قوة خفيّة، وأرواح تساعد الشّاعر، بل إنّ الشَّياطين يختلفون من شاعر إلى آخر في إلهامهم، حتى في جنسهم بين الذّكر والأنثى إذ يقول أبو نجيم:"

إنّي وكل شاعر من البشر *** شيطانه أنثى وشيطاني ذكر "(9).

فهذه العقليّة العربيّة التي جعلت الشّياطين أصنافا، فهم سبب قوة الشّعر ورصانته، ومن خلال هذا البيت كأن أبو نجيم يخبر أنّ شعره بهذه القوة والمتانة أنّ شيطانه ذكر، وهي علامة العِزَّة والفخر، وأما غيره من الشّعراء فلا يصلوا إلى مكانته لأنّ شياطينهم إناث، وهذا فيه شيء من السّخرية والاستهزاء بمن ضعُف شعره.

وكما أسلفنا ذكره أن هذه الاعتقادات هي من طرف الكهنة، لأنهم أخذوا هذا المعتقد منهم، "وهي أقدم فيهم من الشّعر، وكان لكل كاهن جنيّ فذهب الشّعراء هذا المذهب، وسمُّوا شياطينهم أوسمّاهم الرّواة"(10).

فلا غريب أنّ هؤلاء الشّعراء في أشعارهم يذكرون أصحابهم من الجنّ، كما بوَّب صاحب الجمهرة أنّ الجنّ كانت تقول الشّعر وتنقله، وتزعم بلا وجودها لما قال الشّاعر شعرا أبدا "فهادر صاحب زياد الذّبياني وهو أشعر الجنّ وأضنّهم بشعره، فالعجب منه كيف سَيَّس لأخي ذبيان بما سَيس، ولقد علّم بُنَيَّة لي قصيدة له من فيه إلى أذنيْها "(11) فإن الشّعر وأصحابه من الجنّ لهم قوة خارقة، "لو كان رأي قوم نوح فيه كرأي هادرما أصابهم الغرق والطوفان"(12).

وإنّ هذا الاعتقاد كان سببا في نسبة الكثير من الشّعر إلى الجنّ، فأنطقوها واستغلُّوها استغلالا لاحدّ له، فسلبوا منها ألسنتها وقالوا على ألسنتها الشّعر، فعالم الخُرافة والأساطير هذا، وليد فراغ روحي لدى الفرد الجاهليّ الذي يملأ نفسه باعتقادات وينسُبها لقوى خارجيّة أو عالم غيْبيّ.

وإنّ هذا القضية لم يقتصر على الشاعر الجاهليّ فحسب بل نجدها حتى عند شعراء الإسلام الذين أقرُّوا ذلك، ولما نقلوه عن المتقدّمين، "أتى رجل إلى الفرزدق فقال: إنّي قلت شعرا فأنظره فأنشده قوله:

ومنهم عمر المحمود نائله *** كأنما رأسه طين الخواتم.

قال: فضحك الفرزدق ثم قال: يا ابن أخي إنّ للشّعر شيطانيْن يدعى أحدهما الهوبر والآخر الهوجل، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره، ومن انفرد به الهوجل فسُد شعره "(13).

ونلمس حقيقة هذه القصة أن الفرزدق يُقِرُّ بذلك، وإما استهزاء بالقائل لأنه ضحك منه، أوإيهامه بما كانت تعتقد العرب في جاهليّتها، ففي إجابته نقد بتلطُّف دون إحراج.

وكان شعراء الجاهليّة يعتقدون أن شعرهم من أحرف نارية يلتقفونها من أفواه الشّياطين "حيث يكون كما وصفوا الجنيّ بأنّ فمه يتأجّج نارا فذلك السّاقط المغمور، من أجل هذا كان يجنح الشّعراء إلى اعتقاد أنّ شعرهم أحرف نارية، تلقي بها الجنّ على ألسنتهم"(14).

وفي هذا المقام سنعرّج عن بعض الشّعراء الذين ذكروا شياطينهم في أشعارهم، ونستفتح بامرئ القيس الذي قدّمه القرشيّ في طبقة السّموط، إذ يقول:"

أنا الشّاعر الموهوب حولي توابعي *** من الجنّ تروي ما أقول وتَعْرِض"(15).

ففي هذا البيت يُقِرُّ الشّاعر بوجود الجنّ التي توحي إليه، وهي توابع له، فهي تروي له الشّعر فيختار أحسنه، ويقول في موضع آخر:"

تخيّرني الجنّ أشعارها *** فما شئت من شعرهن اصْطفيْت "(16).

فالشّاعر يحكي على نفسه أنّه المتذوِّقُ المبدع، وإنّ الشّياطين هي التي تعرض عليه شعرها، فما كان حسنا عنده قَبِله، وما كان سيئا رفضه، فالشّيطان الذي صحب امرأ القيس لافظ بن لاحظ، له دلالة نفسية عنده، فالدلالة اللّغوية للفعل لَفَظَ تدلُّ على الرَّمي بشدّة وقوة، فكأن الشّاعر يرمي الشّعر من فمه كما يرمي البحر الشيء إلى الساحل....ولاحظ تدلّ على النّظر بغضب من طرف العين "(17).

أما الأعشى فيُعدُّ من الشُّعراء الذين ذكر أصحابهم في أشعارهم وهو مِسحل، إذ يقول:"

دعوت خليلي مسحلا ودعوا له ***جُهْنام جذعا للهجين المذمّم "(18).

فالشّاعر قد دعا صاحبه للرَّد على خصمه الذَّميم، فقد دعا خليله، "فهو يدعو صديقه مسحلا في معرض هجائه عمر بن عبد الله بن المنذر، ويذكر شيطان خصمه جُهنام "(19).

وفي هذا المعرض للرَّد أشاد الشّاعر بصاحبه إذ فداه ودافع عنه بقوة. وفي نفس القصيدة إذ يقول:

حباني أخي الجنيّ نفسي فداؤه *** بأفيَح جيّاش العشيّات خضرم

فهذه الأبيات تحدد العلاقة بين مسحل والأعشى، ليست تعبر عن علاقة الأعشى الفنيّة بمسحل، وإنما تُعبر أيضا عن علاقة عاطفية تقوم بينهما "(20).

ويقول في موضع آخر:"

وما كنت شاعر ولكن حسبتني *** إذا مسحل سَدَى لِيَ القول أنطق"(21).

الشَّاعر في هذا البيت يُعَبِر على شدة العلاقة بينه وبين صاحبه، ويمكن القول أنهما شيء واحد ظاهره الأعشى وباطنه مسحل. فليست العلاقة بين تلميذ ومعلم، إنّما هي صورة واحدة. وروى صاحب الجمهرة قصة عن حزام بن أرطأة عن أبي عبيدة عن شيخ من البصرة فقلت من أشعر الناس؟ فقال الذي يقول:

وما ذرفت عيناك إلا لِتَضُرَ بِي *** بسهميك في أعشار قلب مُقتَّل

فعرفت أنه يريد امرأ القيس، قلت ثم من؟ قال الذي يقول:

تبردُ بَرْدَ رداء العرو *** س في الصّيف رقرقتَ فيه العبيرا

وتسخن ليلة لا يستطيع *** نباحا بها الكلب إلا هريرا.

يريد الأعشى. قلت ثم من؟ قال الذي يقول:

تطرد القُر بحر صادق *** وعَكِيك الصيف إن جاء بُقر.

فعرفت أنه يريد طرفة [22].

فهذه الرّواية التي جاء بها القرشيّ تُجسِّد لنا مدى إيمان الجاهلِّيين بهذه الأساطير، وكيف كانت الجنّ تروي الأشعار، وتفضِّل بعضها على بعض، فتجعل هذا أشعر من ذاك، وهذا أفضل من غيره.

وإنّ هذا التّعلُّق بالجنّ وتأثيرها على نفس الجاهلي لما رأوا من شعرائهم تعظيمهم، وذكرهم، فهم الوسيلة والقوة الخفيّة التي تمُدُّهم بذاك المدح والهجاء والحماسة.

فهذه العقيدة الفاسدة تجعلهم يقدِّسون كل خفي من الشياطين والآلهة والجن، " فهم يستعينون بها على حياتهم، فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم، ومن ثَم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم "[23].

وها هو حسّان بن ثابت يُبرِّء نفسه من سرقة الشّعراء، ويزعم أنّ له صاحبا من الجنّ يلهمه الشّعر ويفتخر به إذ يقول:"

لا أسرق الشّعراء ما نطقوا *** بل إنّ شعرهم لا يوافق شعري

إنّي أبى لي ذلكم حسبي *** ومقالة كمقاطع الصّـخر

وأخي من الجن البصير إذا *** حال الكلام بأحسن الجر "[24].

وجاء عمرو بن كلثوم عندما حملت به أمه وبعد ولادته بسنة قالت: أتاني في ذلك الآتي من اللّيل فأشار إلى الصّبي وقال:"

إنّي زعيم لك أم عمرو *** بماجد الجد كريم النّجر

أشجع من ذي كبد هزبر*** وقاص أقران شديد الأسر

يسودهم في خمسة وعشر "[25].

في هذه الأبيات تزعم والدته أنّها قد أتاها جنيّ وأخبرها بولد وبسيادته لقومه في الخامسة عشر

من عمره، فهذه البشارة بمولد زعيم وحتى سيكون سيدا لدليل قاطع على أنّ الإيمان بالجنّ ومحاورتهم، والإخبار بالمستقبل مُتَخمِّر في عقليّة الفرد الجاهليّ.

ونجد في شعر تأبط شرا أنّه كان بليل فأتاه سّراة من الجنّ فخاطبهم وحدثوه قائلا:

أتوا ناري فقلت مَنونُ انتم؟*** فقالوا الجنّ فقلت عموا ظلاما"(26).

يسألهم عن هَوِّيتهم ومن هم.

وإنّ ظهور هذا الحوار بين الجنّ والبشر يُعَبِّر على العلاقة الوطيدة بين الشّعراء والجنّ وإنّها لصورة خياليّة، تصوِّر ما يراه أو ما يعتقده الجاهلّيين بالليل من إتيان الجنّ إلى النار.

وإن من الأمور التي تؤكد على النّظر البعيد لدى الجنّ عندهم، ظنُّهم أنّ لها القدرة على جعل الإنسان شاعرا كما في قصيدة عبيد بن الأبرص، والتي يحكي أنّه كانت له غنيمة يرعاها مع أخته فلما ورد الماء مُنعا فناما تحت الشجرة، فرآهما رجل من بني مالك فأساء الظن بهما، فسمعه عبيد بن الأبرص، فرفع يده إلى السماء وابتهل، ثم نام فأتاه صاحبه الجنيّ فأوحى إليه فقام وهو يقول:

أبني الزّنِيَّة ما غركم *** لكم الويل بسربال حجر

ثم أصبح يقول الشّعر بعدها، وكان شاعر بني أسد غير مدافع ولا منازع.(27)

فالجنّ لها علاقة بفحول الشّعراء فقط، الذين لهم الباع الأكبر في الشّعر، "ولم تكن الجنّ لكل الشّعراء بل يبدوا أنها اقتصرت على الفحول فقط "(28).

وإن قول الجنّ للشّعر يُذكر في القصص والأساطير القديمة، ويُعتقد أنّ أبا الجنّ إبليس هو أوّل من قال الشّعر وذلك في محاجاته لأبي البشر آدم عليه السلام:"

تنحَّ عن الجنان وساكنيها *** ففي الفردوس ضاق بك الفسيح

وكنت بها وزوجك في رخاء *** وقلبك من أذى الدّنيا مريح

فما برحتَ مُكايَدتي ومَكْري *** إلى أن فاتك الثّمن الرّبيح "(29).

فهذه الأبيات التي نُسِبَت لإبليس في تَشَفِّيه من آدم وإغوائه، حيث أخرجه من الجنّة. وإن كانت هذه الأبيات ليست مثبتة ومحل يقين، "وإن كانت أشعارهم محلا للشّك، إلا أنّها تُبيِّن قدرة إبليس على نظم الشّعر،.... وإن كان ما ينسب إليه من شعر يتّسم بالضّعف "(30).

القرشي في الجزء من الجمهرة قصائد تناولت هذه النقطة وإن كنّا نعتقد أن أهل الجاهلية يرون فيها – الجن – أحد مصادر الإلهام بل تعتبر دعما أساسيا للعمليّة الإبداعيّة.

وهناك ذكر لبعض العوامل التي يرون فيها الخلوة والالتقاء بالجنّ، فذكروا العزلة والابتعاد

عن الناس.

كقول امرئ القيس:

تضيء الظّلام بالعشاء كأنّها *** منارة مُمسي راهب متبتّل[31]

فالخلوة والابتعاد عن الناس دليل عن التّفرغ، فجاءت علاقتها بالظلام والصّحاري وأماكن البعد، " ويؤكّد اعتقاد العرب أنّ الجنّ والقوى الغيْبيَّة تحُل بالأشجار، وبإمكانها أن تُلْحِق الضّرر والأذى بهم، وإنّهم كانوا إذا ركب أحدهم مفازة، وخاف على نفسه من طوارق الليل، عمد إلى واد ذي شجر فأناخ راحلته في قرارته، وعقلها وخطَّ عليها خطًّا ثم قال:"

وإنّك للجنان في الأرض سيد *** ومثلك في الظّلام الصعالكا" [32].

فهنا نرى أنّ العامل النّفسي لدى الشاعر الجاهلي يلعب دورا كبيرا في العملية الإبداعيّة، وهذا من خلال الإيمان بتلك المغَيَّبات.وقد ربط بعض الشّعراء أن الحدَّة والقوة والسّرعة لهذا العالم الذي يصَوَّرُ فيه أنَّه سببٌ في تجاوز الحالات الرَّاهنة، وإن كان بعضهم قد ربطوها بغيرها كما ذكرنا علاقتها بالصحراء والليل.

فها هو لبيد يعطيهم صفة أخرى ألا وهي الثّبات والقوة عند الخصومات والشّدائد، حيث يقول:"

غلب تَّشذُّر بالدخول كأنها *** جنُّ البِدي رواسيا أقدامُها "[33].

يقول الزّوزني في شرحه لهذا البيت:"هم رجال غلاظ الأعناق كالأسود، أي خلقوا خلقة الأسود، يُهدد بعضهم بعضا بسبب الأحقاد التي بينهم، ثم شبَّههم بجنّ هذا الموضع ثباتهم في الخصام والجدال "[34].

فهؤلاء القوم تبيَّن لهم الجن مواطن القوة والشّدة، ولذا نراهم في مواضع المدح والرفعة يتشبَّهون بها، ونرى لها فيه أوفر نصيب، بل هي مصدر إلهامهم، وتغلُّبِهم على غيرهم. وما تمدّهم به من وحي.

يتَّضح مما سبق أنّ للجنّ علاقة كبيرة بالخلوة والليل والظّلام، ونجد عمرو بن كلثوم زاد من ربطها وعلاقتها ببعض الحيوانات التي لها صلة وطيدة بهذا الليل الحالك.

وذا البُرَّة الذي حُدِّثتُ عنه *** به نُحمى ونحمي المحجرينا [35].

وذو البرّة الذي ذكره عمرو بن كلثوم هو الذي يقال لهً برة القنفذً وهو كعب بن زهير... وقد أورد الألوسيّ حكاية تدل على ارتباط القنفذ بالجن[36]، فمن خلال هذا فلا ندري لعل

العرب قد ربطته بهذا الحيوان لأنه يعَبِّر عن المنعة والرّهبة والإحاطة بنفسه وحمايتها، وإلا فما هو إلا حيوان ضعيف. لكن ما السّر في علاقته بالجن عندهم؟.

ويمكن تفسير اعتقادهم بأن هذا الحيوان بفضل التّنقّل بالليل في الخفاء، فأشْبه بشكل خفاء الجنّ في تواجده وتأثيره.

ونجد عمرو بن كلثوم قد جاءت كلمة الجنّ متعلّقة بحيوان آخر ألا وهو الكلب، فجاء في الجمهرة:

وقد هرّت كلاب الحي منّا *** وشذّبها قتادة من يلينا

والمعنى:" إنا قد غلبنا كل أحد حتى هرّت كلاب الحي. ويُرْوى: وقد هرّت كلاب الجن، هرت منا [نبحت وأنكرتنا]"(37).

وجاء في رسالة الجن في الشعر العربي."

وقد هرّت كلاب الجن منا *** وشذَبْنا قتادة من يلينا

هرّت:نبحت، شذبنا:أزلنا الشوك والأغصان الزائدة، القتادة:شجرة ذات شوك.

من خلال إطلاق العرب على الشّعراء، كلاب الجنّ، وما ذاك إلا لارتباط الشّاعر بشيطانه ولأن الكلب من الصور التي يتشكل بها الجن، ولأن الكلب يتبع صاحبه، كما يتبع الشيطان الشاعر"(38) فذُكِرت بلفظة الحي وبلفظة الجن، لكننا لا نستبعد ذلك عنهم، فالكلاب لها علاقة بالجنّ وخاصة الكلاب السّوداء، والشاعر في هذا الموضع يصوّر قوة قومه ويستهزئ بأعدائه، ولما فيه من عزة النّفس والافتخار.

ولم يكتف الشّعراء بذكر اسم الجن، فجاء في أشعارهم ذكر أنواعهم، وهذا لما كانوا يعتقدونه أنّه سبب في تقديم المساعدة. فذكرواً الغولً وهو أحد أنواع الجن.

وجاء في لسان العرب:"والغول، بالضم السّعلاة، والجمع أغوال وغيلان، والغول شيطان يأكل الناس، والغول: ساحرة الجنّ، والجمع غيلان، وقال أبو الوفاء الأعرابي: الغول الذّكر من الجن، فسئل عن الأنثى فقال: هي السّعلاة "(39).

فالغول عظّمته العرب لتحوُّله وتشكُّله، وسيطرته على مخيِّلة الإنسان، أما في الاصطلاح، فالغول من أهم أنواع الجن التي سيطرت على عقليّة الإنسان الجاهلي خاصّة، وهو اسم لكل شيء من الجن يعرض للسّفار، ويتلوّن في ضروب الصور والثياب ذكرا كان أم أنثى.(40)

فهذه الصورة التي يرى فيها الشاعر الجاهلي أن الجن ومن أنواعها الغول قد أثرت على نفسيّته

أعظم تأثير.

ونجد المُتنخل بن عويمر الهذلي يقول:"

وخرق تعْزِفُ الجنان فيه *** بعيد الجوف أغْبَرَ ذي انخراط "(41).

والعزيف: صوت الجن بالليل، فالشّاعر يعتبر الصّحراء القاحلة قفارا يُسمع صوت الجن بها كأنها في جوف بئر.

والصّحراء عند الجاهليّين هي موضع الخوف والهمّ، وهي المسكن الرئيسيّ للجنّ والغيلان والشّياطين، ولهذا تُسْمع أصواتها وعزيفها، ولا يكون ذلك بزعمهم في الأماكن التي يكون بها القوم قد نزلوا.

ويعرض الأعشى صوتا آخر للجن:"

وبلدة مثل ظهر التّرس موحشة *** للجن بالليل في حافاتها زجل "(42).

فهذا المعتقد عندهم قد بُني على أوهام وتخيُّلات، فهم يزعمون أن أصوات الجنّ بالليل معلومة وخاصة في الفلاة.

وأما في الحديث عن الغول خاصّة يقول كعب بن زهير:"

فما تدوم على حال تكون بها *** كما تلوَّن في أثوابها الغول "(43).

فهذه النّظرة التي يجسّدها كعب بن زهير في هذا البيت هي حقيقة الإيمان الصّادق لما يدور في ذهن الشّاعر العربي، من قضايا التّحوّل وجعلها بهذه الصورة.

فالغول والجنّ عندهم هي مصدر للانتباه ودغدغة بعض الأحاسيس. وإن كان كعب قد عاصر صدر الإسلام ويعلم أنّ الجنّ كما حكت عنه الآيات القرآنيّة من شكلها وتأثيرها على الإنسان.

وقد صوّرها الشّاعر حسب ما يراه الفرد العربي، أكثر مما يراه المسلم، فهي مصدر قلقه وتوتّره وسعيه إلى إيجاد وسيلة يتخلّص بها من همومه وهواجسه.

وقد صّور الشّاعر في موضع آخر الحرب بالغول لما تُلحقه بالإنسان من الويلات ولاختلاف نتائجها.

والحرب غول أو كشبه الغول *** تُدَقّ بالرّايات والطّبول.

"وهذا ما كشفه كعب بن زهير بتصوير المرأة بالغول في تقلُّبها وتلوّنها، ولم يجد الشعراء أفضل من قرن الحرب والمرأة بالغول بهدف التّعبيرعمّا تحمله نفوسهم من مشاعر الاشمئزاز والنّفور من

هذه الأمور "(44).

ونجد أحيحة بن الجلاح وهو يصوّر الدّهر وحالاته وتقلُّباته في مطلع قصيدته في المذهّبات:

"صحوتُ عن الصّبا والدّهر غول *** ونفس المرء آونة قَتُول" (45).

فالدّهر عند الشّاعر هو ذاك الشّبح الذي تهابه النفوس، بل سبب خوفها ودعوتها إلى الرّهبة. فهو يريد أن يربط بين سرعة الجنّ في التّقلب والزّمن في تحولاته بهذه الحالة. ليؤثّر ذلك جليا في نفسيته، ولما يعيش فيه من هواجس والتفكير في الغَيْبِيَّات، إذ يقول أيضا: "

وما يدري الفقير متى غناه *** وما يدري الغني متى يعيل "(46).

ويشترك كعب بن زهير مع مُذَهّبة أبي قيس بن الأسلت إذ يقول: "

أنكرتُه حتى توسّمتُه *** والحرب غول ذات أوجاع "(47).

ففي هذا البيت يصوِّر الشَّاعر الحرب وبشاعتها فهي كالغول في تقلُّبها ولا تعود على صاحبها بخير قط، فهو يتوسمها ويقرأ في طياتها المرارة. "فوظيفة الشاعر تكسير الحواجز بين المادة والعقل، وبين العالم الخارجيّ والدّاخلي، فهو يصوِّر ما تلحقه الحرب بالإنسان من آلام ومصائب بالغول "(48).

وإنّ صورة الجنّ والغول لم تكن مختلفة عند العرب سواء في الجاهليّة أوفي الإسلام بل حتى العصر الأموي الذي رسى فيه الإسلام دعائم الخلافة الموروثة، بعدما كانت شورى، فنجد الرّاعي وهو يمدح الخليفة عبد الملك بن مروان ويُبَيِّن لحالة الولّاة وطريقة حُكمهم.

وما أتوا به من خوارق وأشياء جديدة إذ يقول في ملحمته: "

إنّ السّعاة عصوْك يوم أمرتَهم *** وأتوا دواهي لو علِمْت وغولا "(49).

فهذه الصورة التي هي في العصر الأموي وعلى مدى انتشار الإسلام وبيان القوّة الإلهية والقدرة الرّبانيّة التي تتصرف في الكون، إلا أن حالة الدّهاء والانتقال والتحول لم يجدوا ما يصورنها به إلا هذه القوى الخفيّة ألا وهي الجنّ الغول.

وتبقى صورة الجنّ عند الشّاعر العربي عالقة بذهنه، فكل صورة لم تكن على الحالة العادية فهي وليدة فعل خفي من قوة خفيّة يفَسِّرها العقل بالجنون أو الجن، فالأفعال الغريبة أو التّصرفات الطّارئة لا تفسير لها إلا بهذا العالم، بل لم يكتفوا بربط الصُّور هذه بها حتى توصّل هذا عندهم في تفسير بعض الظّواهر الطبيعيّة فيقول ذو الرمة في ملحمته: "

غدا كأن به جنًّا تَذَاء به *** من كل أقطاره يخشى ويرتقب "(50).

فبعد أن وصف طلوع الفجر وذهاب اللّيل وظهور السّماء بعد أن اختفى السّحاب وإنجاب، فصوّر حالة الثّوْر بعد هذا" ويريد غدا الثّور كأن به جنونا، يقال به جِنْ أو جنون تأتيه من كل وجه "(51).

ومن خلال عرضنا لهذه الأمثلة والتي يتّضح فيها اهتمام القرشيّ بهذه القضية، التي تُعدّ من صميم العمليّة الإبداعيّة في الشّعر العربي. وما كان يُراوِد الشّعراء في هذا العالم الخفي والغيْبي، إلا أنّها تتجلى إشارة القرشي للجن في موضع إلهام الشّعراء، وبيان أحوالهم وما أضفوه في قول الشّعر.

لم يربط المؤلف بين ما ذكره في المقدمة وفي القصائد المختارة لعلاقة الشّعراء بالجن ومشاركتهم في المسيرة الشّعريّة بين إلهام ودفاع، جمال أدب...

تصوِّر القصائد الجنّ والغيلان في هذه الأبيات حالة الفرد العربي وحياته ونظرته لهذا العالم الغيبي.

ومهما يكن فإن هناك علاقة وطيدة بين الشّعراء والجنّ، وهذا ما جعلهم يوظفونها في أشعارهم وتناولونها في قصائدهم

الهوامش:

1 – أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق على محمد البجاوي، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، (د ط)، 1981.، ص 44.

2 – حليمة خالد رشيد صالح، الجن في الشعر الجاهلي، مذكرة ماجستير بجامعة النجاح، نابلس، 2005، ص 140.

3 – القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 47.

4– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1967، ج6ص80.83

5– ينظر حليمة خالد رشيد، الجن في الشعر الجاهلي، ص 146– 147.

6 – القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 51.

7– حليمة خالد رشيد، الجن في الشعر الجاهلي، ص 149.

8 – شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط24، 2003، ص 197.

9– الجاحظ، الحيوان، ج 06، ص 229.

10 – مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2000، ج 03، ص 43.

11 – القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 51.

12 – المصدر نفسه، ص 52 .

13– المصدر نفسه، ص 63.

14- الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج 03، ص 43.
15- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط 5، 2009، ص 325.
16 - المصدر نفسه، ص 322.
17 - حليمة خالد رشيد، الجن في الشعر العربي، ص 144- 145.
18- الأعشى الكبير ميمون بن قيس، الديوان، تحقيق محمد حسين، مذكرة ماجستير، إشراف طه حسين، 1940، ص 125.
19 - حليمة خالد رشيد، الجن في الشعر العربي، ص 141.
20 - المرجع نفسه، ص 142.
21- الأعشى، الديوان، ص 221.
22-ينظر القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص53.
23- شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص 196.
24- حسان بن ثابت الأنصاري، الديوان شرحه وكتب هوامشه وقدم له الأستاذ عبد المهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1994، ص 106.
25 - عمرو بن كلثوم، الديوان جمعه وحققه وشرحه، أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، لبنان، ط1، 1991. ص 122.
26 - تأبط شرا، الديوان، اعتنى به عبد الرحمان المصطفاوي، دار المعرفة، لبنان، ط 1، 2003، ص 67.
27 -ينظر عبيد بن الأبرص، الديوان شرح أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، لبنان، ط 1، 1994: ص 128.
28- حليمة خلد رشيد، الجن في الشعر الجاهلي، ص 149.
29 - القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 31.
30- حليمة خلد رشيد، الجن في الشعر الجاهلي، ص 152.
31 -ينظر القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 130.
32- حليمة خالد رشيد، الجن في الشعر العربي، ص 226.
33-القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 246.
34- الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص 162.
35- ينظر القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 289.
36-ينظر حليمة خالد رشيد، الجن في الشعر العربي، ص 170.
37 - القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 282.
38- حليمة خالد رشيد، الجن في الشعر العربي، ص 175.
39 - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د ط) (د ت)، ج 11، ص 506 -512.
40- ينظر حليمة خالد رشيد، الجن في الشعر العربي، ص 95.
41- القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 487.
42 - أحمد الأمين الشنقيطي، المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار النصر للطباعة والنشر، (د ط) (د ت)،

ص 152.

43 – القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 633.

44 – حليمة خالد رشيد، الجن في الشعر العربي، ص 279.

45 – القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 517.

46– المصدر نفسه، ص518.

47– المصدر نفسه، ص 522.

48– حليمة خالد رشيد، الجن في الشعر العربي، ص 251.

49– القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 736.

50 – المصدر نفسه، ص 768.

51 – ذو الرمة، الديوان شرح الخطيب التبريزي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1996، ص 44.

Hidden power and sources of poetic inspiration reading of the psychology of the ancient Arab poet

Ali KERBAA*

Abstract:

This article deals with the issue of hidden power in Arabic poetry, and the sources of poetry inspiration, or so-called demons of poetry, by addressing the creative process and its reasons, through its relationship to the hidden science (Jinn), and the talk of poets about them and their demons.

Keywords: Poetry - Hidden Powers - Inspiration - Old Arabs.

* Faculty of Arts and Letters - University of El-oued -Algeria.

الاختيار الأسلوبي وشعرية النص

بقلم
د/ مسعود وقاد(*)

ملخص

تحاول هذه المداخلة التركيز على أحد أبرز محدّدات الأسلوب وهو الاختيار، أو ما دأب النقّاد على تناوله تحت صيغة (الأسلوب بوصفه اختيارا)، وقد وجّهت الدراسات النقدية اهتمامها إلى الأسلوب بعدما فرضت اللغة نفسها حاملا أكيدا – لا يتنازع فيه اثنان– لشعرية النص.

الكلمات المفتاحية: الأسلوب، الأسلوبية، البنية، الأدبية، الشعرية، الصوتي، التركيبي، الدلالي، المعجمي، المحدّدات.

مقدمة

منذ أن أعلن الشكلانيون الروس أنّ الأدب لغة داخل اللغة، وأنّه ذلك الاستخدام الخاص للغة، أو كما وصفه رومان جاكوبسون «انتهاك متعمّد لسنن اللغة العادية»[1]– راحت الدراسات النقدية تتبنّى هذا الطرح وتعمّقه، فقد حدّد البنيويّون الأدب بذلك التماسك اللغوي المسؤول عن إنتاج نظام النصّ، وحدّده الأسلوبيون بذلك التفرّد الأسلوبي الذي يسمح به نظام اللغة، ذلك أنّ الأدب –بمنظورها– هو جثّة اللغة لأنّ الأديب مُجابَهٌ دائما بكابوس الوقوع في هوة اللغة المتداولة التي تتوقّف غايتها عند إبلاغ الفكرة. ومن ثمّة فهو – أثناء عملية الكتابة – في معركة حامية الوطيس مع اللغة.

(*) أستاذ محاضر "أ" بقسم اللغة العربية وآدابها ـ كلية الآداب واللغات ـ جامعة الوادي.

ولا تُسفر نتيجة معركة الأديب مع اللغة عن أكثر من أحد الخيارين ؛ فإمّا أن تنتصر اللغة فيسقط الأديب في هوة الخطاب التقريري الجاف، وإمّا أن ينتصر الأديب على اللغة فتتكوّم جثّتها نصّا أدبيا تتحقّق من خلاله ما دعاها رولان بارت بالكتابة في درجة الصفر التي تنطلق «من العدم حيث يبدو الفكر متعاليا – لحسن الحظّ– على ديكور الكلمات»[2].أي الكتابة الحيادية التي لا يعبأ فيها الأديب بنقل رسالة فكرية إلى المتلقّي، وإنّما هدفه الأسمى هو إنجاز صياغة أدبية تتعالى عن المألوف الذي اعتاده الناس في اللغة التداولية، وتتباهى خلالها اللغة بطاقاتها الصوتية والتركيبية والمعجمية والدلالية، والتي بناء عليها يتبلور الأسلوب بوصفه مجموعة من الخيارات التي يؤثرها الكاتب على غيرها. فالأسلوب « يكمن في الاختيار الواعي لأدوات التعبير» [3]، بما في ذلك « طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير»[4]، ومن ثمّة يمكن الجزم بأنّ مواضع اعتزاز اللغة بمقوّماتها في النصّ الأدبي خاصّة هي مواضع الاختيار الأسلوبي، وهذه المواضع الأخيرة هي المسؤولة عن إنتاج شعرية النص، فلا يمكن أن يوصف نصّ بالأدبية ما لم يكن متضمّنا لبعض أشكال الفرادة في أسلوبه، ومن أجل ذلك ردّ الناقد الفرنسي (ميشال ريفاتير) المقولة الشهيرة لـ(بوفون) القائلة بأن الأسلوب هو الرجل ذاته، وقال بأنّ الأسلوب هو النصّ، حيث إنّ «مفهوم النصّ عنده يرتبط بأدبيته، والأدبية ترتبط بالفرادة، والفرادة أسلوب، والأسلوب هو النصّ »[5].

وبما أنّ كثيرا من الدراسات ترى أنّ «الأسلوب يمكن تعريفه بأنّه اختيار، أو انتقاء يقوم به المنشئ لسماتٍ لغوية معيّنة لغرض التعبير عن موقف معيّن»[6]، فإنّ بالإمكان الخلوصَ بطريقة دائرية إلى أنّ النص الأدبي في نهاية الأمر هو محض اختيار، وما لم يحدث اختيار على مستوى الأسلوب في النصّ فإنّ كونه نصّا أدبيّا قد يتطلّب اجتهادا كبيرا من الدارس لإثباته. بل إنّ وظيفة الأسلوبية ذاتها تنهض «على أساس دراسة الاختيار، وكلّ جملة جاءت إلى الوجود كتعبير إنّما جاءت نتيجة لاختيار لتركيبها، واختيار لكلماتها، واختيار لتوجّهها. والأسلوبي يسعى لاستكشاف كافّة أسباب الاختيار في الجملة المدروسة»[7]. وليس الشاعر «شاعرا لما فكّر فيه أو أحسّه ولكنّه شاعر لما يقوله من شعر، ليس خلاّقَ أفكار بل كلمات، فعبقريته تكمن كلّها في إبداعه اللغوي»[8].

وبذلك ارتبط الاختيار بمفهوم الأسلوب، واعتُبر حدّا فاصلا بين الأدبيّ وغير الأدبيّ في النصّ، وبين الجماليّ وغير الجماليّ فيه، وكان «الأسلوب ذاته اختيارا، أي اختيار الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها وينقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميّز بنفسه »[9].

ولقد فطن النقّاد العرب القدامى لأهمّية الاختيار الذي يمارسه المبدع لأجل إلباس نصّه سمة أسلوبية تتماشى والمقاييس الشعرية السائدة، ومن ذلك قولهم: (لكلّ مقام مقال)، وقولهم (مراعاة المقال لمقتضى الحال) وهي عبارات تدلّ على أنّ موقف المبدع يحدّد طبيعة اختياره، فإذا خاطب الناس فعليه أن يخاطبهم بأسلوب يلائم مكانتهم ومنزلتهم وثقافتهم[10].

وممّا يُروى من حسن اختيار الشعراء لأساليب الخطاب المناسبة بيتا بشّار بن برد المشهوران في جارته العجوز[11]:

رَبَابَـةُ رَبَّـةُ الْبَيْتِ تَصُبُّ الْخَلَّ فِي الزَّيْتِ

لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

إذْ على الرغم من أنّ الشاعر مقتدر إلا أنّه استطاع أن يشقّ طريقا شعريا آخر يعتمد على شعرية تقريرية تقوم على بساطة الفكرة وذلك بتكييف المقال لمقتضى الحال.

ومن النماذج التي يظهر فيها إخفاق الشعراء في اختيار ما يناسب من الكلِم قول ذي الرّمّة لعبد الملك بن مروان:

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ مُنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلًى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ؟

وكانت عين عبد الملك مصابة فهي تدمع دائما فظنّ أنّه يعرّض به، فقال له: وما سؤالك عن هذا يا جاهل؟

ثم أمر بإخراجه من القصر[12].

وتكشف هذه النماذج عن الدور البارز الذي ينهض به اختيار الألفاظ والعبارات في تحميل الأسلوب بسمات التفرّد التي تجلب انتباه المتلقّي نحو النصّ.

ولقد أجمعت الدراسات الأسلوبية المعاصرة على أنّ سمات التفرّد أو فرادة الأسلوب التي تمثّل

ضالّة الدارس الأسلوبي هي نتيجة حتمية لعملية الاختيار التي يقوم بها المبدع، ورأت أنّ هذا الاختيار يمكن أن يطال الأسلوب في مستوياته الأربعة؛ الصوتي، والتركيبي، والمعجمي، والدلالي.

ومن النماذج التي يمكن الوقوف عليها لإبراز دور الاختيار على المستوى الصوتي البيت الشعري الشهير الذي غدا مثلا للتعقيد وتنافر الأصوات وهو منسوب إلى الجن[13]:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وفيه لم يوفّق الشاعر في انتقاء ألفاظ متناسبة، فحُجبت شعرية البيت عن المتلقّي، والسبب هو التنافر الصوتي الحاصل من تقارب مخارج الحروف، حتّى إنّ الإمام الباقلاّني في (إعجاز القرآن) « يشير إلى أنّهم قالوا: هو من شعر الجنّ، حروفه متنافرة لا يمكن إنشاده إلا بتتعتع فيه»[14]. وقد كان أمام الشاعر كثير من الخيارات الأسلوبية الكفيلة بالارتقاء بشعرية هذا البيت، وفي مقدّمتها الخيارات اللغوية .

بينما يجمع النقّاد والشعراء على استحسان البنية الصوتية لمطلع قصيدة البحتري التي وصف بها معركة أنطاكية، في قوله[15]:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسِي وَتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبْسِ

ويتعيّن سبب استجادة الأدباء لكلِم هذا البيت في ما ارتأوه من انسجام صوتي كبير فيها، حيث وفّق الشاعر في تصيّد أصوات السين والألفاظ المتناسبة التي لا يظهر فيما بينها أيّ تنافر رغم تراكم البناء الصوتي المتشاكل.

ومن الشواهد التي تتردّد في الدرس البلاغي القديم، ونوردها نموذجا لسوء الاختيار على المستوى التركيبي قول الشاعر عباس بن ناصع من قصيدة أنشدها أدباء قرطبة[16]:

تَجَافَ عَنِ الدُّنْيَا فَمَا لِمُعَجِّزٍ وَلاَ حَازِمٍ إِلاَّ الَّذِي خُطَّ بِالْقَلَمْ

لكنّ الشاعر الأندلسيّ يحيى الغزال اعترضه قائلا: « وما الذي يصنع (مفعّل) مع (فاعل) ؟ – يقصد (معجّز) مع (حازم) – فقال له : ماذا تقول أنت؟ فقال الغزال: أقول:

تَجَافَ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَ لِعَاجِزٍ وَلاَ حَازِمٍ إِلاَّ الَّذِي خُطَّ بِالْقَلَمْ

فاهتزّ عبّاس وقال: والله لقد طلبها عمُّك –يقصد نفسه– ليالي فما وجدها»[17].

ودور الاختيار في هذا الشاهد يتجلّى من خلال الإتيان باللفظة وما يناسبها من حيث بناؤها الصرفي؛ فلفظة عاجز تنسجم مع لفظة حازم، لكن معجّز في الصيغة الأولى تتنافر وكلمة حازم وهو ما جعل الوظيفة الشعرية تتراجع فيه.

وفي المقابل حظيت أبيات لأبي تمّام الطائي بثناء النقّاد بسبب من توفيق الشاعر في حسن اختيار مركّبها الاسمي، يقول[18]:

أَتَصْعَصَعَتْ عَبَرَاتُ عَيْنَيْكَ أَنْ دَعَتْ وُرْقَاءُ حِينَ تَصَعْصَعَ الْإِظْلاَمُ

هُنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ

وعلى الرغم من أنّ الأثر الجمالي لظاهرة التجنيس بين الحَمام والحِمام واضح جليّ إلاّ أنّ ذلك ليس العامل الوحيد في خطّ شعرية البيت، وإنّما نلحظ أيضا ظاهرة تركيبية أخرى لا يقلّ أثرها التركيبيّ في بنية البيت جماليّة عن الأثر الصوتي، تتمثّل في « استقراء الأسماء بحثا عمّا يشدّ نظامها من منطق خفيّ يتجسّم فيه المنطق الذي يربط الأشياء والظواهر في الوجود متى كان لها منطق ينتظمها؛ فالاسم وسْمٌ آهِل بكثير من المعتقدات»[19].

أمّا الاختيار على المستوى الدلالي فنمثّل له بهذه الأبيات التي تُستهلّ استهلالا صادما بسبب ارتباطها دلاليا بمحذوف تدلّ عليه لفظة (كَذَا) واستغناء الشاعر أبي تمّام عن ذكره في قصيدة رثى بها محمد بن حميد الطائي[20]:

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدِحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

تُوُفِّيَتِ الْآمَالُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفْرُ

تُستهلّ هذه الأبيات بما يوحي بعظيم الفاجعة، وهول المصاب. ولعلّ أوّل ما يلفت الانتباه في هذا الاستهلال هو أنّ البيت الأول كان مدخلا يفاجئ السامع، فقد رُوي في الأثر أنّ هذا البيت قد أثار دهشة النقاد العرب القدماء، قال الصولي: «حدّثني أحمد بن

موسى قال: أخبرني أبو الغمر الأنصاري عن عمرو بن أبي قطينة قال: رأيت أبا تمام في النوم فقلت له: لمَ ابتدأت بقولك : كذا فليجلّ الخطب... فقال لي: ترك الناس بيتا قبل هذا. إنّما قلت :

حَرَامٌ لِعَيْنٍ أَنْ يَجِفَّ لَهَا شَفْرُ وَأَنْ تُطْعَمَ التَّغْمِيضَ مَا امْتَنَعَ الدَّهْرُ.

كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ... »[21].

ومع أن طابع التعصّب لشعر أبي تمام بارز في هذا الرأي إلاّ أنّه يبرّر مدى الدهشة التي استقبل بها النقاد هذا البيت. فهو يُستهلّ استهلالا صادما. حيث أنّ لفظة (كذا) تحمل المتلقّي على التساؤل منذ البداية عمّا يسبقها.

ويبدو أنّ عنصر المبالغة والتهويل الدلالي الناتج عن هيمنة النشاط الذهني الذي يمارسه الشاعر هو عنصر تنبني عليه شعرية الكثير من قصائد أبي تمّام؛ ففي قوله من قصيدة مدح بها المعتضد بالله يزداد هذا الدور اتّضاحا:[22]

إِلَى قُطْبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَوْ بِفَضْلِهِ مَدَحْتُ بَنِي الدُّنْيَا كَفَتْهُمْ فَضَائِلُهْ

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوَ انَّهُ ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَـــمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهْ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّـهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَـا فَلْيَتَّـقِ اللَّـــهَ سَائِلُهْ

يستنفد الشاعر من خلال البيت الأوّل كامل الطاقة الدلالية الممكنة لرسم صورة مثالية لمِلك فاضل، فيجعل فضائل هذا الممدوح كافية لتمثيل فضائل بني الدنيا جميعا لو أنّه أراد مدحهم. وهذه الشحنة الدلالية المتشكّلة بالانتقال من الجزء إلى الكل تولّد في نفس المتلقّي شحنة شعرية مبنية على الاندهاش من حدوث ما لم يكن متوقّعا.

ويسترسل الشاعر في تفصيل سمة الجود التي تمثّل حافز الإبداع لديه. فينقلها عبر صورة فنية نابضة، حيث إنّ هذا الممدوح جواد إلى درجة أنّ أنامله التي اعتادت أن تُبسَط للجود ستتمرّد عن طاعته إن هو أرادها أن تُمسِك عن العطاء.

لكنّ صورة الجود في البيت الثالث ترتكز أساسا على البعد الدلالي، حيث أنّه لا يتفجّر

من كون هذا الممدوح مستعدّا للجود بروحه لو أنّها كانت في كفّه لحظة السؤال، ولكنّه يتفجّر من قوله (فلْيتّقِ الله سائلُه) التي تُبرز عامل التناقض من خلال صيغتين هما: صيغة الغائب ممثّلة بصورة الممدوح في جلال جوده وتفانيه في سبيله، وصيغة المخاطب التي توجّه بها الشاعر نحو السائل المحتاج إلى سخاء الأمير وعطفه، راجيا منه أن يكفّ عن سؤاله حتى لا يتسبب في هلاكه. حيث تتفتّق الصورة عن عامل التجاذب في حالة تصوير جود الأمير، وعامل التنافر فيما يمكن أن ينتهي إليه هذا الجود. أي بين إمكانية بذله روحه سخاء إن لم يكن في كفّه غيرها، وبين النهي الذي بادر إليه الشاعر مشفقا على الأمير (فلْيتّقِ الله سائلُه).

ومثله ما نُلفيه – ممثّلا للاختيار على المستوى المعجمي- في تعليق لأبي تمّام على بيت شعري سمع أحدا ينشده[23]:

وَرَدَّ الْبِيضَ وَالْبِيضَ إِلَى الْأَغْمَادِ وَالْحُجُبِ

« فطرب طربا شديدا وعلّق قائلا: أحسنَ والله، لوددتُ أنّ لي هذا البيتَ بثلاثِ قصائدَ من شعري يتخيّرها» [24].

إنّ تفجير الطاقات المعجمية للغة من خلال حسن انتقاء الشاعر لقاموسه الشعري هو الذي حمل أبا تمّام –أكثر شعراء العربية تأثيرا في رسم معالم الشعرية العربية – على استرخاص أجود ثلاثِ قصائدَ من شعره مقابل بيت شعري هيّن من مجزوء الوافر. فلا شكّ أنّ لفظة (البيض) الثانية التي تعني (النساء) هي المسؤولة عن الدفقة الشعرية الغامرة في البيت، في مقابل لفظة (البيض) التي تعني (السيوف)، وهذا التقابل المتجانس في الكلم مع اختلاف في الدلالة هو ما حمل أبا تمّام على هذا الانفعال. ولا يُعتقد أنّه كان يطرب هذا الطرب كلّه لو أرسى اختيار الشاعر على كلمة (الشُّقر) الدالّة على النساء أيضا بدلا من كلمة البيض، حيث إنّ صفة التجانس ستتلاشى عن البيت بهذه الصيغة:

وَرَدَّ الْبِيضَ وَالشُّقْرَ إِلَى الْأَغْمَادِ وَالْحُجُبِ

ونختم أخيرا بهذا البيت للحطيئة من قصيدة يلتمس فيها العفو من أمير المؤمنين عمرَ

بن الخطّاب بعد أن سجنه[25]:

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاخٍ بِذِي مَرَخٍ زُغْبِ الْحَوَاصِلِ لاَ مَاءٌ وَلاَ شَجَرُ

إنّ أوّل ما يستوقفنا في هذا البيت اعتماد الشاعر على الاستفهام كخيار أسلوبي للخطاب مع أنّه في مقام التبليغ عن الحالة المزرية التي يعيشها أبناؤه أثناء غيابه عنهم، فهو أحوج للأسلوب الخبري، لكنّه يؤثر أسلوب الاستفهام الذي يخرج لغرض تعظيم الأمر لأمير المؤمنين كي يعطف عليه ويأمر بإطلاق سراحه.

كما يعدّ اختيار الشاعر للفظة (أفراخ) من جملة بدائل معجمية عديدة من الوسائل التي أضفت تفرّدا في أسلوب البيت الشعري؛ فقد أعرض الشاعر عن سلسلة من الوحدات اللغوية المناسبة دلالة وإيقاعا لهذا الموضع من مثل (أولاد، أبناء، أطفال ...) لكنّ هذه البدائل لا تتضمّن الحمولة الإيحائية التي تتضمّنها كلمة (أفراخ) فهي تنهض برسالة المعنى اللغوي من جهة، وتعمّق المعنى الشعري بإبراز صفة الضعف والحاجة الماسّة إلى الرعاية من جهة ثانية.

وممّا يزيد في تعميق المعنى الشعري، فيضفي – من ثمّة – صفة التفرّد على الأسلوب أكثر، دخول العنصر اللغوي الواصف (زغب الحواصل) الذي كثّف شعرية البيت وارتفع به إلى مستوًى أدبيٍّ راقٍ، حيث إنّ الأفراخ ذات الزغَب في حواصلها هي كناية عن ضعفها وحاجتها إلى الرعاية لأنّها غضّة . وقد انتقى الشاعر هذه الصفة لأجل استدرار عطف أمير المؤمنين بصورة عاجلة، ولم تكن الوظيفة الشعرية لتبرز لو أنّ البيت ورد بهذه الصورة:

مَاذَا تَقُولُ لِأَوْلاَدٍ بِذِي مَرَخٍ وَهُمْ ضِعَافٌ فَلاَ مَاءٌ وَلاَ شَجَرُ

وبذلك نخلص إلى أنّ الاختيار يقف فارقا بين ما هو شعري وما هو غير شعري، إذ يخرج بالعبارة عن حيادها الشعري الذي هو لغة التداول اليومي إلى لغة تتحرّر فيها الدوالّ من هيمنة المدلولات، وبهذه الوظيفة عُدّ الأسلوب اختيارا.

ـ الهوامش:

1) – الله الغذّامي: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ط4، القاهرة، 1998، ص25.

2) – رولان بارت : الكتابة في درجة الصفر، ترجمة محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، 2009، ص10.

3) – بيير جيرو: الأسلوب والأسلوبية، ترجمة منذر العياشي، مركز الإنماء القومي، بيروت، (د ط)، (دت)، ص7.

4) – أحمد الشايب: الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط6، 1966،م ص44.

5) – منذر العياشي : الأسلوبية موقف من الخطاب، مجلّة الموقف الأدبي، عدد:237، سنة 1991، بغداد، ص111.

6) – نفسه، ص112.

7) – عبد الله الغذّامي: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، ص20.

8) – صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980، ص315.

9) – إبراهيم عبد الله أحمد الجواد : الاتّجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، الاقلام الهادفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1996، ص40.

10) – ينظر: يوسف أبو العدوس: الأسلوبية النظرية والتطبيق، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2007، ص160.

11) – أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج3، دار الفكر، بيروت، ط2، (د ت)، ص156.

12) – ينظر: يوسف أبو العدوس: الأسلوبية النظرية والتطبيق، ص40.

13) – يروي ابن كثير أن الجن قد عدت على حرب بن أمية فقتلوه وقبره أصحابه حيث لا جار ولا دار وفي ذلك يقول الجان:(وقبر حرب) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1997، ص 286.

14) – أحمد طاهر حسنين: الأسلوبية العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2000، ص44.

15) – البحتري: الديوان، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت ط2، 2002، ص66.

16) – ينظر: عبد الرحمان بن محمد القعود: شعرية الشعر،، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت، ط1، 2007، ص35.

17) – نفسه، ص36.

18) – أبو تمام: الديوان، ج3، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1983. ص98.

19) – حسين الواد: اللغة الشعر في ديوان أبي تمّام، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2005، ص95.

20) – أبو تمام: الديوان، ج1، ص79.

21) – حسين الواد : اللغة الشعر في ديوان أبي تمام، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2005. ص12.

22) – – أبو تمام: الديوان، ج3، ص28-29.

23) – ينظر: عبد الرحمان بن محمد القعود: شعرية الشعر، ص35.

24) – نفسه، ص34.

25) – نفسه، ص34.

Style as a choice and Poetic of the text

Dr. Mesaoud WAGAD*

Abstract

This article attempts to focus one of the most important determinants of style, namely, the choice which critics used in the "style as a choice" formula. Contemporary critical studies have drawn attention to the style after language was imposed itself as a upholding for the poetic of the text.

Key words:

Register- stylistic- form- poetic- voice- signification- lexical.

* Faculty of Arts and Languages – University of El-oued - Algeria.

جماليات اللّغة السّينمائيّة

بقلم
د/ نجيب بخـوش(*)

ملخص

أكّد روّاد الدراسات والبحوث الأولى في جماليات السينما على أصالة السينما واستقلاليتها كأحد الفنون التعبيرية الجديدة، كونها لديها نفس خصائص وقواعد اللغة العادية التي تعتمدها في خطابها السينماتوغرافي. هذا الأخير الذي يهدف من خلال أدواته المبتكرة إلى التعبير بطريقة صحيحة ودالة عن الأفكار من خلال متتاليات للصور المتحركة التي تشكّل في النهاية فيلمًا.

الكلمات المفتاحية: اللغة- السينما- الفنون- الجمال.

مقدّمة

عرفت السينما بعد ظهورها منذ العرض الأول الذي قدّمه الأخوان "لويس وأوغست لوميير Louis et Auguste Lumière" سنة **1895** في باريس، تطوّرات كبيرة تقنيًّا وفنيًّا جعل الاهتمام بها يتزايد، فكانت مادة لدراسات وبحوث عديدة، بدأت في السّنوات القليلة التي أعقبت ظهورها مباشرة، حاول من خلالها الدارسون الكشف عن سر القوة التأثيرية لهذا الفن الجديد في جمهور مشاهديها، ممّا جعل توجّه جلّ هذه الدراسات يركّز على خصائص الأدوات والقواعد التعبيرية التي يعتمدها المخرجون في تقديم أفلامهم، والمضامين التي تعكسها، الأمر الذي جعل التساؤل يُطرَح حول مدى قدرة السينما على امتلاك لغة خاصة بها تساهم في تشكيل رسالتها المباشرة وغير المباشرة، وتبلغ أهدافها الدلالية والجمالية في مخاطبة جمهورها.

1- ماهية اللغة السينمائية :

تشكّل الصورة الأداة الأساسية المعتمدة داخل الفيلم السينمائي ومادته الفيلمية الأولية، ولكنها الأكثر تعقيدا أيضا، لأن تكوينها يتميز، بالفعل، بازدواج عميق: فهي نتاج نشاط

(*) أستاذ محاضر "ب" بقسم العلوم الإنسانية ـ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ جامعة بسكرة.
bnadjib23@yahoo.fr

أوتوماتيكي لآلة تقنية قادرة على إعادة إنتاج الواقع الذي يتقدّم إليها بدقة وموضوعية. غير أنها في نفس الوقت، نشاط موجه في الاتجاه المحدد والمرغوب فيه من طرف المخرج، فالفيلم شبكة مبنية للعديد من القوانين: منها ما هو خاص بالسينما، ومنها ما هو غير خاص بالسينما، وهنا تمّ طرح التساؤل حول ماهية اللغة السينمائية، وما مدى امتلاك هذه الأخيرة لخصائص "اللغة" ؟ وهل تستلزم شروطًا لتوفرها فقط كما هي في حد ذاتها، أم تتدخل فيها قدرة وسلطة المخرج في بناء المعنى والدلالة ثم قدرة وسلطة المُشاهِد- المتلقي في إعادة إنتاج ذلك؟ (1)

فمنذ بداية تاريخ السينما تمّت مقارنة السينما باللغة الطبيعية، حيث ساد الاعتقاد بأنها لغة تمتلك قواعدها ونحوها وصرفها، وهي في ذلك تقوم على الكتابة السينمائية باعتبارها كتابة لها بناء و"نحو" وتركيب وأسلوبية وبلاغة وتلفظ، وفي هذا تقترب هذه الكتابة، من خلال نظامها اللغوي التعبيري وسائر أنظمتها الإشارية، من اللغة الشعرية، خاصة على مستوى تمفصل الصورة بالمعنى البياني والبلاغي على أساس التمييز، في الوصف والتحليل والقراءة النقدية أو المقاربة التفكيكية لمتواليات الفيلم ومقاطعه ووحداته، بين الصورة بالمعنى الحرفي "l'image" والصورة بالمعنى المجازي "la figure"، وحينئذ قد تتحوّل بعض الصور أو اللقطات إلى مجازات واستعارات وكنايات كالتي نجدها في الشعر واللغة أصلاً، وهنا ينبغي أن نضيف إلى خصائص الاقتصاد والكثافة والإيحاء والانزياح خصائص الخطاب والملفوظ، وقبلهما وبعدهما، خصائص "النص"، ويمكن تميز القواعد والقوانين التي تتحكّم في اللغة السينمائية على النحو التالي:(2)

أ – القوانين الخالصة: وهي المتعلقة بحِرَفية السينما، وتتمثّل في حركات الكاميرا المتنقلة (travelling) والاستعراضية (panoramique)، واللقطات المتنوعة (عامة، متوسطة، قريبة، أمريكية..)، التركيب(المونتاج)، الخدع السينمائية، الإيقاع (التبطيء، التسريع)، أدوات الربط والانتقالات (الوصل، التلاشي)..إلخ.

ب – القوانين غير الخالصة: وتدخل في زمرتها مجموعة من المكونات المأخوذة من حقول أخرى كالموسيقى، الحوار، الديكور، الملابس..إلخ

استنادًا إلى ذلك يمكن القول أن السّينما لغة صور لها مفرداتها وبديعها وبيانها وقواعد نحوها، وسبق "لبودفكين Poudovkine" أن عرّف تشابه مفردات السينما بمفردات اللغة الطبيعية كالتالي: "إن المونتاج هو اللّغة التي يتحدّث بها المخرج إلى جمهوره، واللّقطة تمثّل الكلمة ومجموعة اللقطات تمثل الجملة، والمشهد يتألّف من الصور، كما تتألّف الجملة من الكلمات"، فاللّغة في السينما مثل كل أنواع الحديث لفظية وغير لفظية، هي بالدرجة الأولى رمزية، فهي تتألف من نظام معقّد للعلامات

يتم بشكلٍ واعٍ أو غير واعٍ حلّ رموزه أثناء المرور بالتجربة الفيلمية.(3)

2-بدايات البحث في جماليات اللغة السينمائية :

تعود بداية الدّراسات الجمالية في اللغة السينمائية إلى سلسلة من الكتابات النقدية شملت آراء فلاسفة ومخرجين وكتاب سيناريو حول الفيلم السينمائي اعتنت بصفة خاصة بشكل ومضمون هذا الفن الجديد، ففي فرنسا صدرت مقالات بداية من سنة **1911** للإيطالي "ريشيوتو كانودوRicciotto Canudo "، وفي بولندا بداية من سنة **1913** لـ:"كارول إيرزيكوفسكي Karol Irzykowski"، وفي ألمانيا صدر في نفس السنة عدد من الكتبِ من تأليف: "ه.لانكا H.Lenka و"ه.هافكرH.Hafker "و" إ.ألتنلوه E.Altenoh "، كما صدرت دراسة سنة **1915** للشاعر الأمريكي " فاشال ليندساي Vachel Lindsay "بعنوان" فن الفيلم Art of Film ". (4)

كما صدرت في فرنسا أيضًا بداية من **1912** مجموعة من المقالات حول جماليات السينما بأقلام صحفيين ونقاد أهمهم: "لويس ديلوك Louis Delluc" و" ل.موسيناك L.Moussinac" و"جيل دولوز"Gilles Deleuze و"جيرمان دولاكGermaine Dulac"، و"جون ابستاين Jean Epstein"، لتشكّل سنة **1917** سلسلة متتابعة تحمل عنوان فن الفيلم السينمائي تهتم بنشر جماليات الفن السينمائي بين الجماهير الفرنسية والأوروبية. (5)

وارتقت الجمالية السينمائية مع حركة التطور السينمائي وتياراتها الجديدة التي استوعبت أسس علم الجمال السينمائي وتقييمه عمليا في أفلامها بما قدّمته من لغة سينمائية جميلة في كوادر فيلمية منتقاة، دون الإخلال بالموضوع أو القصة السينمائية، كما أضافت رؤى جديدة للخطاب السينمائي ميّزته عمّا سبقه، وهو ما سجّله روّاد السينما الطليعية الإيطالي" ر.كانودو R.Canudo" والألماني "ه.ريخترH.Richter " والمجري" موهوي نوج لاسلو M.N.Laszlo " والروس "ليف كوليتشوف Lev Kulesov " و"دزيغا فيرتوفDziga Vertov" و" ايزنشتين Einstein "و "بودوفكين Poudovkine" من خلال التركيز على آليات التعبير السينمائي. (6)

3-تطوّر الدراسات الخاصة بجماليات اللّغة السينمائية :

حدث في منتصف سنوات الستينيات تحوّل كبير في طبيعة القضايا الجمالية واللغوية السينمائية التي خضعت للدراسة والتحليل من قبل منظرين جدد جاؤوا إلى حقل السينما من حقول معرفية أخرى مثل علم اللغة والبنيوية والسيميولوجيا، وكان الهولندي "جان ماري بيترس Jan Marie Peters" من أوائل السيميائيين الذين بحثوا في هذه الإشكالية، حيث تقف دراسته الأولى التأسيسية "بنية اللغة السينمائية" التي نشرت عام **1961** على رأس قائمة البحوث الجديدة المهمّة، وقد عرّف السيميولوجيون خاصة أنه رغم أنّ اللّغة والفيلم ينتميان، من جهة، إلى نظم الاتصال،

فهما يختلفان، من جهة أخرى، في أن الفيلم ليس له نظام لغة، ولعلّ هذه المقارنة توضّح ما عناه" كريستيان ميتز Christian Metz"، حينما اعتبر الفيلم لسانًا بدون لغة، أو حينما عقّب على ذلك "امبيرتو ايكوUmberto Eco"، وعدّ الفيلم بمنزلة كلام لا يستند على لغة. (7)

هذا الأمر دعا بـ "دولوزDeleuze " إلى التأكيد على البعد الفلسفي للسينما من خلال إشارته إلى أن "نظرية السّينما هي ليست نظرية حول السّينما وإنّما حول المفاهيم التي تثيرها السّينما"، حيث تساءل عن إمكانية اعتبار السينما فنًّا كباقي الفنون أم أنّها فنيّة على طريقتها. (8)

أما الفرنسي "جان ميتري Jean Mitry " فأشار في مؤلّفه "جماليات وسيكولوجية السّينما Esthétique et psychologie du cinéma"، إلى أن السّينما أيضاً لغة، رغم أنه كان يراها في البداية مجرّد تسجيل لعرض بصري يعيد من خلاله إعادة إنتاجها للواقع، لكنّها في النهاية أنتجت أدواتها التعبيرية التي جعلت منها لغة لها نظامها العلاماتي (بالتعبير السوسيري)، وهي بهذا تشابه اللّغة اللفظية طالما أنها تشاركها في خاصية إيصال المعنى إلى المتلقي. (9)

4-اللّغة السّينمائية وإنتاج المعنى في الفيلم السينمائي :

لا تشير اللّغة السينمائية فقط إلى مهمة تحويل النص إلى تعبير بصري، بل هي اشتغال على إنتاج المعنى بالدرجة الأولى، وصنع الدلالة، من خلال زاوية الرؤية واللون والتقطيع والتقديم والتأخير والإبطاء والإرجاء والتقريب، بالإضافة إلى المؤثرات البصرية والصوتية التي تتعاضد لتشكيل المعنى، اعتماداً على الصورة باعتبارها البنية الأساسية لتلك اللغة، ليس كعلامة بصرية فقط، وإنما كأيقونة وشيفرة ودال ومرجعية، بمعنى أن اللغة المكتوبة وهي تنتقل من حاضنها اللساني تتضاعف دلالاتها ضمن فضائها السيميولوجي، بحيث تتصعّد الصورة المبسّطة غير القابلة للتجزئة من حدّ الإبصار إلى مستوى الرؤية، أي تشكيل خطاب بصري بقواعد تركيبية، تحوّلها إلى كتلة مختزنة بالدلالات. (10)

ويتوقّف معنى الصورة السينمائية على الصور السابقة لها في الشريط، فتوالي هذه الصور يخلق واقعًا جديدًا، وهو ما جعل "لينهارت Leinhart" قياسًا على تجربة "بودفكين" يركّز على ضرورة إدراج مدة لكل صورة تتضمن تقاسيم الوجه، فالمدة القصيرة تلائم الابتسامة،

والمتوسطة تلائم الوجه اللاّمبالي، بينما تناسب الطويلة التعبير عن الأسى. (11)

ويمكن الاستدلال على عملية إنتاج المعنى في الفيلم السينمائي من خلال بعدين : (12)

أ- البعد الأول : يتعلق بمضمون الفيلم السينمائي :

-المضمون السّردي : يتعلق أساسًا بما تحمله المتتالية وتحكيه، ثم درجة أهميتها بالنسبة للشريط ككل، وكأنها تمثّل فقرة داخل نص.

– المضمون الدّلالي: يتمحور حول كل ما يمكن مشاهدته من ديكور، وملابس، وإكسسوارات، وأيضًا حول ما يسمع من خلال الحوار والمنطوق والموسيقى.

– المضمون الإيحائي: الذي يستقي معناه مما يستنتج من خلال ما تنتجه وضعية الممثّل الرئيسي، وعلاقته وسلطته بالنسبة لباقي الممثلين أمام الكاميرا.

– المضمون الرمزي: يتجلّى من خلال كيفية التعرف على بعض الرموز الثقافية والتاريخية الصومعة مثلاً كمرجع ديني وعمراني، والتمييز فيما بينها.

ب– البعد الثاني : يتعلق بشكل الفيلم السينمائي:

. التقطيع المشهدي: ونعني به تحديد المشاهد وترتيبها مع النظر إلى سلم اللقطات (من خلال المونتاج)، وكيفية الربط بين الأولى وبين والثانية (من خلال الانتقالات)، وينصب الاهتمام في هذه المرحلة على البنية الشكلية للقطات ثم عددها.

. تركيب الصورة: وكذا وضعها داخل الكادر والذي يهتم أساسا بتنظيم العناصر المرئية داخل إطار الشاشة، أي هل ستكون في المركز أم في الهوامش أو خارج إطار الصورة.

. موضع الكاميرا وزاوية النظر: يعكسان مستوى التقاط اللقطة أي على مستوى النظر حسب قامة الشخص، وكذلك كيفية التقاطها : من زاوية موضوعية أو محايدة أم من زاوية ذاتية؟

. حركات كل من الممثل والكاميرا داخل الفضاء: ونقصد بها مدى ثبات الكاميرا أو متابعتها للموضوع المستهدف، ثم مدى الأهمية والمدة الزمنية التي سيحظى بها كل من الديكور والفضاء خلال التصوير، من دون إغفال الاتجاهات التي سيتخذها الممثل بها في ذلك الأشياء المتحركة.

. رمزية الألوان ونوعية الإضاءة: وتلعبان نصيبهما الهام في خلق أجواء اللقطات، وتسترعي هاته القضايا اهتماما خاصا عندما نريد الوقوف مثلا على مصادر الإضاءة،أي هل هي بارزة أم خفية، ثم هل هي مركّزة أم موزعة على أكثر من مكان لخلق تضاد بين الظل والضوء بغية تحقيق مشاعر وأحاسيس معينة.

. التوقيت والإيقاع: ونقصد به المدة الزمنية التي ستستغرقها اللقطات وكذا الطرق التي سيعالج بها المخرج منظوره للزمن سواء من خلال أنواع الحذف،أو الفلاش باك، كما نقف عند تناوب اللقطات بين القصيرة وبين الطويلة، ثم التناوب بين المشاهد الداخلية والخارجية التي يكون الهدف منها أحيانا خلق نوع من البطء أو السرعة في السرد.

. الصوت:حيث ننتبه لترتيبه وتركيبته داخل الشريط الصوتي، ومدى حضور عناصره المكوّنة من مؤثرات صوتية وموسيقى وحوار.

والصورة بهذا المعنى وحدة بنيوية لها منطقها الداخلي، فهي تتحرك على أبعاد تتجاوز المرئي

إلى الحسّي بكل تجلياته الصوتية والحركية، بحيث تتحول كل صورة إلى رمز، وهي لا تعمل بمفردها، بل ضمن متوالية من اللقطات تنتظم في وحدة كبرى تتآلف فيها الألوان والأصوات والأضواء والظلال والإيقاع داخل ما يُعرف بالتكوين، الذي يولّد بالضرورة الأثر الدرامي، والذي يمتد إلى الأثر الشعوري التفاعلي عند المُشاهِد، وهي المهمة التي تنشدها اللغة السينمائية من خلال استثارة مكامن التعاطف والدهشة والغضب والرقة عند المُشاهِد. (13)

5-مستويات التعبير في الفيلم السّينمائي :

يقوم التّعبير السينمائي على مقاربة قوانين اشتغال خطابه من حيث هو "قصة" (سرد، حكي)، ومن حيث هو "نص" (له بداية ونهاية، له انغلاق ثم انفتاح على مستوى المشاهدة ثم التأويل)، ثم من حيث هو "ملفوظ"، أي "قول" متعلّق بمتكلّم واحد هو المخرج أو بعدة متكلّمين كالشخصيات مثلاً، كما هو مرهون أيضًا بسياق ثقافي وجمالي وإيديولوجي، وهو في هذا يعتمد بناء نماذج تصورية وصفية تساهم فيها اللسانيات بكل مدارسها واتجاهاتها المتلاحقة، خاصة اللسانيات البنيوية واللسانيات الوظيفية واللسانيات التوليدية واللسانيات التداولية، إلى جانب مساهمة لسانيات الخطاب ولسانيات النص اللتين تنحدران، في مجمل فرضياتهما، من اللسانيات البنيوية، ومعهما لسانيات التلفظ، وذلك من خلال مفاهيم الدال والمدلول والّتدال والدلالة والإبداعية والإيحاء والإنجاز والنحوية والمقصدية، وكّلها مفاهيم تنبّأت بها، نسبيًّا، لسانيات " فرديناند دي سوسير Ferdinand Desaussure " ومن جاء بعده، وتلقفتها ثم أحكمت صياغتها اللسانيات التوليدية، على يد" نعوم شومسكي Noam Chomsky "، غير أن هذه اللسانيات المذكورة تبقى قاصرة متى لم تشفع بسرديات الخطاب السينمائي التي من شأنها أن تضيء جوانب المحكي في هذا الفيلم أو ذاك. (14)

وعلى الرّغم من أن اللقّطة لا تشابه الكلمة والمشهد لا يشابه الجملة، كون الفيلم أصلاً لا يمتلك- مثل اللغة- نظاماً خاصاً يجعل منه لغة، فالكلمات هي رموز اصطلاحية ينوب فيها الدّال عن المدلول على أساس المواضعة والاعتباط، أما الصور فهي علامات أيقونية، تقوم على أساس مشابهة ما تدل عليه، وكما تملك الكلمة علاقة غير مباشرة بما تدل عليه، تملك الصورة علاقة أيقونية مباشرة بما تدل عليه وتصوّره، فقوة اللغة في استعمال علامات يتباين فيها الدال والمدلول، بينما قوة الفيلم تكمن في استعمال علامات يتطابق فيها الدال والمدلول. (15)

وعلى أساس هذه الإشكالية جرت – تاريخيّاً– مساعٍ عديدة لمحاولة البرهنة على وجود "تمفصل(تقطيع) مزدوج" في التعبير السينمائي، يتناظر مع وجوده في اللغة، فطبّقه "رولان بارت RolandBarthes " من خلال المستويين "التعييني "Dénotation و"التضميني Connotation "

على العمليات الدلالية في الفيلم السينمائي، ويحدث التضمين عندما تغدو نفس العلامة، الناتجة عن علاقة سابقة بين الدّال والمدلول، دالاً على مدلول جديد، وهذا يعني أن التعبير في السينما يمكن أن يتحوّل بدوره، عبر حضور العلامة الأيقونية، إلى تضمين، إلى دال، يبتكر كل مرة مدلوله، ولعلّ هذا ما دفع "كريستيان ميتز" إلى التأكيد على أن قدرة الفيلم في التعبير عن معنى، لا تكون وفقًا لأفكار مسبقة أو مستعارة، إنّما عبر تنظيم عناصره في الزمان والمكان، وهو ما جعله يقول إن: "الكاتب يستعمل اللّغة، أمّا السّينمائي فإنه يبتكرها"، ويستنتج "ميتز" بعدها أن: "السّينما فن حين تصبح لغة"، وهنا وضع "ميتز" أمامنا جوابين: الأول الذي تبيّنه "الواقعة" التاريخية، وهو أن السّينما تطوّرت، بالدرجة الأولى، إلى سينما سردية تروي حكايات، والثاني يتعلّق بتتابع الصور واقترابه، كمعنى، من العبارة الملفوظة، مما قاد إلى اعتبار اللّقطة المنفردة كعبارة سردية صغرى. (16)

وإذ نتحدّث عن الصورة، فإننا نُعيّن فيها مستوى خاصاً من اللّغة، يقارب هذا المستوى طبيعة اللّغة – خارج الفيلم – كلّما كان نسقاً إشاريّاً أكثر منه حواريّاً، يرتكز في فاعليته الصورية على العلاقات والعلامات الإيقونية (الإيحاءات والحركات) بشكلٍ يمنحه طاقة إيحائية وشحنة عاطفية انفعالية تحفّز المتلقي على مراقبة التمثيل المحترف لحيوية الكلمة المُشفَّرة (وفقاً لرأي" يوري لوتمانYury Lutman ")، فيكون أنسب –حسبه– لبحث سيميولوجية الفيلم ودلالاته التّوسع في قراءة متنه الجمالي. (17)

ويميّز "ميتزMetz" هنا بين من يتحكّم في الفيلم، وبين من يشاهده، وهما عبارتان غير مترادفتين، حيث تحيل الأولى على زاوية نظر المؤلّف وتحيل الثانية على زاوية نظر الشخصية، وعلى هذا الأساس يقترح التقابل بين التّماهي السّينمائي الأول وبين التّماهي الثانوي، وبين التّماهي الأساسي للكاميرا ومختلف مستويات التّماهي مع الشخصية، فعندما تقتصر الكاميرا على مرافقة شخصية تسير، بواسطة حركة بانورامية ماسحة أو تنقلية ملاحقة لحركتها، فإن التّماهي مع الكاميرا لا يلعب دورًا قصصيًّا معيّنًا، كما لا تملك الكاميرا من زاوية نظر سردية أيّ موقعٍ واردٍ، أمّا إذا كانت حركة الكاميرا خلافًا لذلك متبوعة بلقطة لامرأة تدير وجهها فإن المُشاهِد يتماهى مع زاوية نظر الشخصية وهو ما يعرف بزاوية نظر داخلية، وهذا ما يختلف تمامًا عن الحركة التنقلية الذاتية. (18)

6–دلالات الزمان والمكان في اللّغة السّينمائية :

ينبغي في دراسة الزمان في السّينما التمييز بين التاريخ والمدة، فبالنسبة للتاريخ يمكن أن يُوَضّح ذلك من خلال اللجوء إلى العناوين التفسيرية التي توضع في بداية الفيلم، أو عبر الإشارة إلى

حدث تاريخي يكون موعده محدّدًا بدقة، أو من خلال دلالة اللباس المستخدم الذي قد يعكس حقبة زمنية معينة.[19]

أمّا التعبير عن المدّة فيكون من خلال التركيز على سير الزمان أو إبراز انقضائه، باستخدام أدوات فنية من خلال المونتاج عبر التركيز على اللحظات التي لا يدور فيها شيء عملي بل التي تكون مدتها مفعمة بالحياة بالاعتماد على لقطات طويلة وقليلة العدد.[20]

وتعتبر دراسة "جيل دولوز" المتميّزة حول السينما في جزأيها : السّينما –الحركة (1983)، والسّينما – الزمان (1985) نتاجًا لهيمنة كل ما هو سمعي بصري على العصر، حيث سيركّز من خلالها على العلاقة بين ثنائيتين مهمتين وهما: الزمان والفكر والسينما والفلسفة.[21]

فاللّقطة هنا –حسب دولوزDeleuze– هي بمثابة الصورة –الحركة التي تسمح بإبراز التقطيع المتحرّك لديمومة الزمان التي تتبدّل باستمرار، وبذلك تبرز الصورة –الحركة كأول تميّز يمكننا القيام به داخل مجموعة الصور والعلامات، حيث يمكن أن تتحدّد هذه الصورة وفق ثلاث مستويات:" الصورة –الإدراكimage-perception "، و" الصورة–الإحساس image-affection "، و" الصورة–الفعل image-action "، ويمكن ربط هذه المستويات بسلّم اللّقطات، فاللّقطات العامة تلائم الصورة – الإدراك، واللّقطات المتوسطة تلائم الصورة –الفعل بينما تناسب اللّقطات الكبيرة الصورة –الإحساس، وينتج من التحليل السّابق ملاحظتين هامتين :

*الملاحظة الأولى: هي أن السّينما لا تنتج سوى صورة غير مباشرة للزمان، إذ يبدو الحاضر هو الشكل الوحيد الذي تقدّم به الصورة السينمائية، سواء أعطي الامتياز إلى الصورة –الحركة في ذاتها(اللقطات) أو إلى تركيباتها (المونتاج).

* الملاحظة الثانية: هي أن التجسيد الداخلي للإدراكات الممتدّة بالأفعال انطلاقًا من الأحاسيس تشكّل خطاطة حسيّة حركيّة، فالسينما لا تتوقّف عن إظهار شخصيّات تصدر عنها ردود أفعال، بعد إدراكهم لمواقف أحسّوا بها، وعليه يمكن القول بأن السّينما البارزة في أفلام الحركة بأنها سرديّة ناتجة على أساس هذه الخطاطة الحسيّة الحركيّة.[22]

أمّا المكان فتعالجه السّينما بطريقتين : فهي إمّا أن تكتفي بأن تعيد بناءه، وتجعلنا نجول فيه بحركات الكاميرا، أو فهي تحقّقه بخلق أبعاد مكانية إجمالية وتركيبية يدركها المُشاهِد من تراكب وتتابع أماكن جزئية، قد لا تكون لها أي علاقة مادية فيما بينها، وهنا يمكن استحضار تجربة " ليف كوليتشوف" في تركيب اللقطات من خلال ما كان يدعوه بِ" الجغرافيا الخلاّقة" في عملية الإخراج للفيلم السينمائي.[23]

إن شيوع الاختيار المكاني باقتطاع الأجزاء المكانية والخطوط المرئية للحدث ومتابعة تدفق

الأفكار وتبدل مشاعر البطل وأحاسيسه، واعتماد المنطق النسبي في علاقة المكان بالزمان تعتبر أساس جمالية المونتاج السينمائي، فاللقطة القريبة مثلا (close up) ليست لها معايير مكانية فحسب، وإنما هي تمثل مرحلة يتم التوصل إليها أو تجاوزها في التطور الزماني للفيلم.(24)

هذه الواقعيّة السّينماتوغرافية في تأليفها بين عنصري الزمان والمكان، لا تتطوّر إلاّ من خلال تناظرها وتقابلها مع أنواع أخرى من التمثيلات، وليس مع الواقع ذاته، كون الاعتقاد بموضوعية وحياد الكاميرا أمر قد تجاوزته السينما لصالح ضروريات تقنية وجمالية يُوظَّف فيها الزمان والمكان لأغراض فيلمية مختلفة.(25)

7-البعد السّردي والشّعري في اللّغة السّينمائية:

يمكن مقابلة ما تؤدّيه اللّغة السّينمائية بشكل تناظري مع لغة الرواية، أي ككتابة مقابل كتابة، الصورة مقابل الكلمة مثلاً، وما يتداعي عن ذلك من سرد وحوارات، حيث يمكن مماهاة العناصر اللغوية بما يقابلها من مكونات بصرية، إلا أن ذلك التقابل سرعان ما ينزاح عندما يتعلّق الأمر بالسّينماتوغرافي، حيث تدخل العملية في طور تعبيري مغاير تتأكّد فيه وظيفة وجماليات المونتاج، وإذا كانت السينما مزيجًا تركيبيًّا لسردين، أي من الكلمة والصورة، فإن الكلامي يتناقص بالضرورة قبالة البصري مقارنة بالنص الأدبي، بمقتضى آليات التقطيع والتحليل والبناء البصري المؤكد على الأبعاد السيميولوجية.(26)

لا تقتصر قراءة وتحليل الفيلم السّينمائي على الجانب التقني والوصفي والتحليلي، وإنما يتعدّى ذلك إلى الجانب السردي، وقديمًا كان يتم التعليق على الأفلام الصّامتة عبر تنميق الكلام، حيث كانت تنصهر داخل الفيلم طريقة خاصة للسرد، من خلال تناوب الصور والكلمات، الذي يخلق نوعًا من الحركة المستمرة من حيث الانتباه والإدراك، كما أنتجت السينما الناطقة نوعًا من التدفق السمعي البصري من خلال اقتران السرد عبر الصورة بالصوت متمثّلاً في الحوار والضجيج والموسيقى كبنيات تتكامل فيما بينها لتحافظ على سلامة وسلاسة الحكي الفيلمي، حيث يقولّ "أندري بازانAndrés Bazin" في هذا الصّدد: " يمكن أن ينكشف الجانب الجمالي الضّمني للفيلم السّينمائي انطلاقًا من تقنية سرد خاصة" ".(27)

إنّ مقاربة السّرد الفيلمي تستوجب بالضرورة مقاربة مفهوم السرد، باعتباره محور المنهج النّقدي في السّينما، ويمكن تمييز اتجاهين في علم السردية "Récitologie" هما :

أ- سيميوطيقا السرد، ويمثّلهاّ ألجرداس غريماس.Algirdas Julien Grémas "

ب - السرديات، ويمثّلها "جيرار جينيت GERARD Genette "

ومن هذا المنطلق كان اهتمام سيميوطيقا السرد بالمحتوى (المدلول)، أمراً ذا أهمية، خاصة أنّ

المعنى أو المدلول يتميز بالثبات، ممّا يسمح باستنباط الظاهرة السردية ودراستها على مستوى الثبات، علاوة على كون المحتوى أعمّ وأشمل من التعبير الدال الذي يتخذه الاتجاه الآخر منهجاً في التحليل والدراسة.

أمّا أنصار "السّرديات" فلهم رأي آخر، رأي يقترب من المعالجة الفنية والجمالية للأثر الفنّي، إنّه الاهتمام «بالدال» كنوع من أنواع البحث عن التحول وعدم الركون إلى الثبات، يقول "جيرار جينيت Genette ": "إنّ الخاصية الأساسية للسّردي توجد في الصّيغة وليس في محتوى المضامين، إذ لا وجود للمحتويات الحكائية، فهناك تسلسل أفعال أو أحداث قابلة لأن تجسّد من خلال أي صيغة تمثيلية"، وهنا يمكن الإشارة إلى الاختلاف بين السرد والحكي هو اختلاف في الوسيلة، أو النهج المعتمد في تحقيق كل نظام، فالحكي يمكن أن نجده في الصورة والحركة والإيقاع... أمّا السرد فهو أخص منه لأنّه يتصل فقط بالنسق اللفظي أو اللّغة.. إنّ الحكي حديث الصلة بالخبر، لذلك نجده يتضمّن ما يوحى إليه بالمحتوى من خلال حضور المادة الحكائية أو القابلة أن تحكى، أمّا السّرد فيتعلّق بطريقة تقديم الحكي.(28)

والسّرد عند "كريستيان ميتزC.Metz" هو "مجموع الوقائع والأحداث التي تُرتَّب في نظامٍ أو توالٍ لسلسلة من المَشاهِد"، وعلى الرّغم من اختلاف الوسائل التعبيرية بين الرواية والفيلم، إذ المَشاهِد السّردية الروائية تتكون نتيجة التوهّم والتماهي بين النص وقارئه، وهي ترتبط بنوع القراءة وكفاءتها وفعاليتها، فيما تتكوّن المَشاهِد السّردية السّينمائية على سبيل التجميع البصري لمجموعة من المعطيات المرئية، ومن هنا فيمكن القول أن محتوى التعبير واحد، وأن هناك أرضًا مشتركة بين الاثنين تعتمد بالأساس على عنصر الزمان.

وعليه يمكن مقاربة السّرد في السّينما من خلال الأنساق التالية: (29)

1-نسق التتابع: وفيه تقدم مكوّنات الحدث الفيلمي وفق نظام منطقي يراعى فيه الترتيب الزمني، وهو النسق المهيمن على الأفلام المقتبسة من الروايات التقليدية وبخاصة روايات القرن التاسع عشر الكلاسيكية.

2-نسق التداخل: وفيه تتداخل مكوّنات المتن فيما بينها، وذلك بسبب الوقفات والارتدادات والقفزات، وتقع على عاتق المتلقي إعادة ترتيب مكوّنات المادة الحكائية وتنظيمها وفق سياقات معينة.

3-نسق التوازي: وفيه تجزّأ مكوّنات المتن السّردي إلى أكثر من محور، بحيث تتوافق زمنيًّا، وان اختلفت في المكان، وتقدّم متوازية، بما يفضي أخيرًا إلى اندماجها العضوي.

4-النسق الدائري: وفيه تنطلق مكوّنات المتن الحكائي من نقطة نهاية أحداث الحكاية ثم تعرض ما سبقّها، لتنتهي من جديد عند نفس نقطة البداية، وفيه يكون اتجاه الزمن انحداريا، ولا

نجد تفسيرًا لما يُعرَض إلاّ بالعودة إلى الماضي، وغالبًا ما تعتمد روايات السيرة مثل هذا النسق.

5–نسق التكرار: وفيه تتكرر مكوّنات المتن الحكائي في الرواية والفيلم أكثر من مرة، تبعا لتعدّد الرؤى وزوايا النظر، ولهذا فان المتن يُعَاد إنتاجه في كل مرة بما يتفق مع المنظور الذي يقدمه.

وتمثّل الواقعية الشّعرية إحدى الأساليب الفنية في معالجة الواقع في السّينما، ومن خلال أدوات المخرج الفنية توظف سماتها الأسلوبية لتحقيق أثراء جمالي تعبيري، إذ تتكشّف للمتلقي من خلالها الأفكار والمعاني والدلالات التي تدفعه للتأمل بقضايا واقع الحياة اليومية.

وسيكون هذا الأمر ممكنًا من خلال الاعتماد على الخاصيّة الشّعرية في الفيلم السّينمائي وكان "دزيغا فيرتوفDZIGA VERTOV" مثل "ايزنشتاينSergei EISENSTEIN" و"بودوفكين Vsevolod PUDOVKIN" يؤمن بأن أساس الفن السّينمائي هو المونتاج بالنظر لتأثّره بالقطع المتقابل المعقّد وفقًا للمضمون الذي قام به "غريفيثّ في فيلمه "التعصب"، فالمونتاج باستطاعته توحيد العناصر التي تبدو غير مرتبطة في الواقع، ولهذا فإن اللّقطات يجب أن تربط بصورة شاعريّة وليست منطقيّة، "فالفنان السّينمائي مثله مثل الشاعر في مزجه للصور".(30)

إن مفهوم الشّعرية –هنا – يتحوّل إلى لحظة من لحظات تمفصل الفيلم السّينمائي في استعماله للصورة من خلال لقطة واحدة أو عدة لقطات متتالية، استعمالاً مجازيًّا، وبالتّالي، من خلال حياد هذه اللقطات عن نظام الكتابة النّمطي الخطّي المتبّع، وتلجأ إلى خرق هذا النظام عن طريق الإتيان بلقطة أو لقطات مكثّفة تعمّق رسالة الفيلم من خلال إلقاء الضوء على حدث ما، أو إضاءة بعض أبعاد الشخصيات، والأمر هنا يتعلّق بانزياح – كما في الدّراسات اللسانية البلاغية في الأدب عامة ولغة الشعر خاصة– أي حدوث نوع من الاستبدالية على مستوى التركيب في "جملة" الفيلم الكبرى. (31)

وعليه فالشّعرية، هنا، تدعو المُشاهِد المتلقي، من خلال أفق الانتظار والتوقّع، لينخرط، بكل ما يملك من استعداد وقدرات عقليّة ونفسيّة سلوكيّة واجتماعيّة وثقافيّة وفنيّة وإيديولوجيّة أيضًا، في استنتاج الدلالة الثانوية في طيات الخطاب السينمائي من خلال ما يقترحه من مجازات واستعارات وكنايات، شأنه في ذلك شأن الخطاب الشعري، عبر مستويات الكثافة والإيحاء التي تتميّز بها اللغة الشعرية، عادة، باعتبارها لغة ثانية كما يقول بذلك يوري لوتمان " لغة تقدم هذه المجازات والاستعارات والكنايات نيئة طازجة تتجاوز المتن الفيلمي إلى ذاكرته ورمزياته ومتخيّلاته، بدءًا من ملصق الفيلم وعنوانه وموضوعاته الكبرى والصغرى وانتهاء بأطروحته ورؤيته للعالم من إبدالات واردة تحتكم إليها اللغة الشعرية ثم السينمائية في التواصل والتفاعل والتلقي المحتسب على غرار لغات أخرى". (32)

8- المتلقي والإدراك الجمالي للغة الفيلم السينمائي :

تعتبر الأيديولوجية من أهم متطلّبات التعبير الفيلمي، حيث يشير الفيلسوف الفرنسي "جون بول سارتر Jean Paul Sartre" إلى أن" أنكل عمل فنّي لابدّ من احتوائه على موقف أو فكر اجتماعي معين، ممّا قد يزيد من القدرة على الفهم، وعليه فلكلّ سينما مرجعيّاتها الفكرية المحدّدة التي يستوجب الكشف عنها"، فالصورة لا تحاكي الواقع ولكنها تتجاوزه، وتؤوّله وتفتح باب التفسيرات علي مصراعيه حتى يصبح المُشاهِد في حيرة من الصورة السينمائية التي يتلقّاها، وفي إطار ذلك، تتّسمم الجماليات البصرية بتشكيلات ايديولوجية كثيرة لبعدها عن الواقع تمامًا، فهذه الثنائية ستدهش المُشاهِد حيث تربط مخيّلته البصرية بين تفاصيل الواقع المملّ، وبين قدرة السينما على محاكاته، ثم القدرة على تجاوزه إلى مراحل أعلى ليذوب الجمال السينمائي مع جمال الواقع في جماليات جديدة متكاملة تنشأ من هذه الثنائية. (33)

ويَشغُل المُشاهِد المتلقي دورًا مهمّاً في التجربة الجمالية مناصفة مع أهمية العمل الفني في هذه التجربة إذ لا تتحقّق شروط التجربة الجمالية أو الوعي الجمالي بدون متلقٍّ يتأمل فيه ويحاوره ويتفاعل معه، فتكون بذلك ردّة فعله تجاه العمل الفني إيجابيةً أو سلبية مرآة لمدى نجاح العمل أو فشله، والتي ترتبط إلى حدٍّ ما بقدرة المتلقي على وعي الجمال المرتبط بخلفيته الفنية والثقافية بشكل عام وقدرته الذوقية لأشكال الجمال في الفن عموماً والصورة البصرية خصوصاً، وهذا ما أكّده "ناثان نوبلر Nathan knobler" في كتابه "حوار الرؤيا The Visual Dialogue"، إذ يعدّ المتلقي جزءاً لا يتجزّأ من العمل الفني، فالمُشاهِد يبدأ من حيث ينتهي الفنان، وإذا كان المعنى يبدأ بالعمل الفني نفسه، فهو أيضاً يتوقّف على حالة المُشاهِد المزاجية وخلفيته الثقافية تمامًا كما يعتمد على مقدرته في النفاذ ببصيرته في العمل الذي أمامه (34)، وعلى أساس ذلك، فبمقدور أيّ مُشاهِد تحليل خطاب الفيلم، كلّ حسب مستواه المعرفي وحساسيته الذوقية، وبمقدوره إجراء المقارنات ما بين الفيلم والرواية، ولكنه يحتاج إلى معرفة عميقة بعض الشيء بخصائص التركيب السينمائي. (35)

إنّ لشكل الصورة البصرية وظيفة إرشاد المُشاهِد لعناصر مختارة معيّنة يركّز انتباهه عليها، فتتكوّن تلك العلاقة بين المتلقي والعمل الفني السينمائي، فعلى التكوين المعتمد في الصورة السينمائية أن يخفّف تعقيد العمل المُشاهِد حسب قدراته، ويجب عرض العناصر بوضوح يكفي لاختزالها في الذاكرة واستبقائها فيها، أي يجب أن تحاور الصورة قدرات المتلقي فيخلق حالة بصرية تكون هي موضوع استجابة المتلقي الجمالية أو رد فعله، وتصبح الصورة البصرية حينها في مقام اللغة فيميّز المتلقي الرموز ليفهم الصورة، وتكون الاستجابة الجمالية نتيجة طبيعية للنزعات الذاتية الممتزجة بالقدرات المدركة (36)، فالتجربة الجمالية في الأساس هي نتاج التواصل بين العمل

السينمائي والمُشاهِد، وهذا لا يحصل إلاّ إذا تهيّأت الظروف لحدوثه المتمثّلة في استعداد المُشاهِد وقابليّته على تحسّس وإدراك معالم هذه التجربة التي تساعد على خلق حالة من المتعة الجمالية لديه.

الخاتمة

إنّ التطور الذي عرفته السينما في تقديمها للواقع، ونجاحها في التعبير عن مكنونات الإنسان ورغباته، جعلها تكتسب مع مرور الوقت تجربة تدعّمها في كل مرة بأدوات جديدة تبتكرها عبر الاندماج والتمازج مع مستويات تعبيرية وتمثيلية أخرى، جعل لغتها تمتلك هي أيضًا بيانها وبديعها، بحيث لا تهدف إلى التعبير البصري المباشر فقط، وإنّما إلى محاولة سبرٍ واستنطاقٍ لأعماق هذا الفن لكن ببعدٍ جمالي واعٍ وهادفٍ يجعل المُشاهِد المتلقي لمضامينها يحقّق متعته البصرية والنفسية، ويشبعهما معًا بالاعتماد على أفق توقعاته من السينما.

ـ الهوامش:

---

[1]– بشير قمري: دراسات في السينما، منشورات الزمن، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص 87

[2]–عمار محمود : مقدمة في شرح عناصر الصورة السينمائية www.eyeoncinema.net

[3]– لوي دي جانتي : نظرية السينما (سلسلة فهم السينما)، ترجمة :جعفر علي، منشورات عيون، الدار البيضاء، المغرب، 1993، ص 43

[4]– حسن العمراني : الفلسفة والسينما،(مجلة ثقافة ونقد) www.aljabriabed.net

[5]– هاني أبو الحسن سلام: جماليات الإخراج بين المسرح والسينما، دار الوفاء، مصر،2008،ص 119

[6]–المرجع نفسه، ص 120

[7]– عمار محمود : مرجع سبق ذكره.

[8]– برغسون،دولوز،غودار (وآخرون):حوار الفلسفة والسينما، ترجمة:عز الدين الخطابي، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص31

[9] -Jaques Aumont-Alain Bergala (et autres) : Esthétique du film, 3éme édition, collection Armand colin Cinéma,paris,2014,p123

[10]– محمد العباس: اللغة السينمائية وإنتاج المعنى،www.thaqafat.com

[11]– برغسون،دولوز،غودار (وآخرون):مرجع سبق ذكره، ص65

[12]– محمد رضا: أسس النقد للسينمائي (رؤى وأفكار) www.cinema.al-rasid.com

[13]– محمد العباس: مرجع سبق ذكره.

[14]– بشير قمري : مرجع سبق ذكره، ص 88

[15]– عمار محمود : مرجع سبق ذكره.

[16]– المرجع نفسه

[17]– أحمد ثامر جهاد: حول جمالية الفيلم السينمائي www.ahewar.org

[18]–عبد الرزاق الزاهر: الأنواع الفيلمية وزاوية النظر (ج1)، مطبعة Direct Print، المغرب، 2013، ص 157

[19]– مارسيل مارتان: اللغة السينمائية والكتابة بالصورة (ترجمة :فريد المزاوي)،منشورات المؤسسة العامة

للسينما،سوريا،2009،ص 198
20- المرجع نفسه، ص 199
21- برغسون،دولوز،غودار (وآخرون): مرجع سبق ذكره، ص102
22- المرجع نفسه، ص 102 22
23- مارسيل مارتان : مرجع سبق ذكره،ص 218
24- عقيل مهدي يوسف: جاذبية الصورة السينمائية "دراسة في جماليات السينما"، دار الكتاب الجديد، 2001، ليبيا، ص27
25- ibid,p95 (et autres) : Jaques Aumont- Alain Bergala
26- محمد العباس: مرجع سبق ذكره.
27 - محمد اشويكة : الصورة السينمائية (التقنية والقراءة)، المطبعة والوراقة لوطنية، الرباط،2005، ص98
28- فايزة يخلف:الصورة الفيلمية وإشكالية السرد السينمائي(الوهم الجميل وحقيقة الواقع) www.arrafid.ae
29- ليث عبد الكريم الربيعي : لغة السرد في الفيلم المعاصر www.ahewar.org
30- لوي دي جانتي: الفيلم التسجيلي (سلسلة فهم السينما)، ترجمة :جعفر علي، منشورات عيون، المغرب، 1990، ص31
31- بشير قمري: مرجع سبق ذكره، ص89
32-المرجع نفسه،ص 92
33- عمار محمود : مرجع سبق ذكره.
34- صالح أحمد الفهداوي، ميسون عنبر :الوعي الجمالي والصورة البصرية، ar.wikipedia.org
35- محمد العباس: مرجع سبق ذكره.
36- صالح أحمد الفهداوي، ميسون عنبر: مرجع سبق ذكره.

The aesthetics of cinematic language

Dr. Nadjib BEKHOUCHE*

Abstract:

The pioneers of the first studies and research in the aesthetics of cinema emphasized the originality of cinema and its independence as one of the new expressive arts, because it has the same characteristics and rules of ordinary language that it adopts in its cinematographic discourse which aims, through its innovative tools, to express correctly and functionally the ideas through sequences of animated images which ultimately form a film.

Keywords: Language - Cinema - Arts - Beauty.

* Faculty of Social and Human Sciences - University of Biskra – Algéria.

أشكال الكتابة الأدبية في الجزائر العثمانية

بقلم
د/ يوسف العايب(*)

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى التعريف بالتراث الأدبي الجزائري في فترة من فتراته التي عرفت اضطرابات سياسية واجتماعية كثيرة وهي فترة الاحتلال العثماني، بالحديث عن انعكاساتها وأثرها في الحياة الثقافية والأدبية في الجزائر، لترصد من خلال ذلك ملامح الظاهرة الأدبية التي تجلّت في غمرة تلك الأحداث والمؤثرات الداخلية والخارجية التي كان لها دور عظم أو صغر في انتشار بعض أشكال الكتابة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني وانحسار بعضها الآخر، فضلا عن التعريف ببعض أعلامها ممن كان لهم إسهام واضح في إثراء خزانة الأدب الجزائري خلال هذه الحقبة الزمنية من تاريخنا .

الكلمات المفتاحية: الأدب الجزائري- العهد العثماني.

مقدمة

لم يكن التدخل العثماني في بلاد المغرب العربي أواخر القرن الخامس عشر مدبرا ولم يكن ضمن مخططات الدولة العثمانية ، فقد دفعت إليه تلك الظروف والأوضاع الأمنية التي سادت سواحل الشمال من البحر الأبيض المتوسط، فبعد الغزوات والاعتداءات المتكررة للأسبان على تلك السواحل وقعت الموانئ الجزائرية ومدنها الساحلية تحت السيطرة الأسبانية، ما دفع سكانها للاستنجاد بالدولة العثمانية " بعدما وقفوا على ضعف الدولة الزيانية وعدم قدرتها على حمايتهم وحماية ممتلكاتهم من الاعتداءات الأسبانية المتكررة فضلا عن ذلك الصراع الداخلي الذي كان يدور بين سلاطينها، وهو دفع الدولة العثمانية للاستجابة لندائهم والانخراط في

(*) أستاذ محاضر "أ" بقسم اللغة العربية وآدابها ـ كلية الآداب واللغات ـ جامعة الوادي.
youcef-laib@univ-eloued.dz

صفوفهم بقيادة الأخوين بربروس(خير الدين وعروج) اللذين كان لهما الأثر البارز في بث الأمن والطمأنينة في نفوس أبناء الجزائر الذين انصهروا تحت لواء الدولة العثمانية القوية "[1]

وقد أدت الأوضاع الحاصلة في شمال البحر الأبيض المتوسط إلى انقسام المعسكر الغربي إلى معسكرين: معسكر شرقي تحت سلطة الدولة العثمانية في مقابل المعسكر الذي تقوده أسبانيا . وقد استطاعت الدولة العثمانية التي كانت نتاج الحضارة الإسلامية بدمشق وبغداد والقاهرة التصدي لذلك المدّ المسيحي الذي قادته أسبانيا آنذاك، ولعبت دورا كبيرا في حماية الدول التي انضوت تحت لوائها والذود عن العالم الإسلامي والذي كانت الجزائر واحدة منه .

كان وجود العثمانيين في الجزائر –إذا – عسكريا ولم يربطهم بالجزائر وشعبها سوى الدين الإسلامي والجهاد من أجله ضد العدو المسيحي المشترك، وقد عرفوا "أنهم غرباء في الجزائر فلم يكونوا يتكلمون لغة السكان، ولا يعرفون تقاليدهم ولا طرق معيشتهم ولم يلدوا على أرضهم أو يمارسوا حرفهم أو يختلطوا بجيل منهم في مدرسة أو شارع أو منزل، وليس لهم في الجزائر ذكريات طفولة أو شباب "[2] .وهو عامل لم يشجع على إيجاد إحساس أدبي فني مشترك رغم وجود ذلك الإحساس الروحي المشترك متمثلا في رباط الدين والدفاع عنه. ذلك أنهم وفضلا عما تقدم " كانوا يفتقرون إلى أشياء أساسية لكي يشجعوا الأدب والعلم والفن في الجزائر، وأول ذلك اللغة... ولا نعرف أن الحكام العثمانيين كانوا يتقنون اللغة العربية العامية فما بالعربية الأدبية، فكيف نتوقع منهم تشجيع إنتاج بلغة لا يعرفونها ولا يتذوقونها"[3]. ومع ذلك فإن الوجود العثماني في الجزائر لم يحارب أبدا مقومات الأمة الجزائرية بل دعّمها وجعل منها عاملا قويا في التصدي لكل خطر صليبي أجنبي .

ورغم تردي الأوضاع الجزائرية في جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العهد العثماني، ورغم ما قيل من موقف الأتراك من الثقافة سواء في بلادهم أو في البلدان التي وقعت تحت طائلة سيطرتهم كالجزائر، ورغم ما نسب إليهم من "حب المال والبربرية والجهل والاهتمام بالأمور العسكرية دون المدنية ونحو ذلك من الاتهامات التي تجردهم من الحضارة والثقافة "[4]. ورغم ما اعترى وجودهم على أرض الجزائر من آثار سلبية في مختلف القطاعات، إلا أن الجانب الثقافي " كان في منأى عن هذا الانعكاس، إذ تبوّأ مكانة جعلته أحسن حالا مما كانت عليه باقي الميادين فقد تميز ببروز الطرق الصوفية وبناء الزوايا والكتاتيب القرآنية وذلك بغرض الحفاظ على تماسك المجتمع من الناحية الروحية والثقافية "[5].

ويجد المتتبع للشأن الثقافي في الجزائر في العهد العثماني تراثا أدبيا وفنيا وعلميا في مستوى طيب يستحق العناية والدرس، وهو نتاج متنوع يخرج عن نطاق الحكم لأنه لم يجد التبني ولا التشجيع من طرف الحكام العثمانيين .تناول فيه أصحابه شتى الأغراض المتداولة في الكتابة آنذاك[6] خاصة الأدبية منها التي كانت مصادر التأثير فيها من خارج الجزائر لأن معظم العلماء قد تكوّن في سنوات النضج في المعاهد الإسلامية لدول الجوار ودول المشرق العربي، ولذلك كله لا نجد المصدر العثماني من بين مصادر التأثير فيها في حين نجده واضحا وجليا " في الموسيقى والعمارة والصياغة ونحوها ...فرغم وجود الموسيقى المحلية والأندلسية، فإن العثمانيين قد أدخلوا آلاتهم الموسيقية ونغماتهم وذوقهم في الطرب، وكثرت المقاهي والحفلات الشعبية والرسمية التي تعزف فيها أنواع الموسيقى... وقد وقف العلماء والأدباء مواقف مختلة من عزف الموسيقى فبعضهم كان يرفضها على أساس ديني، وبعضهم يحبذها على أساس إنساني واجتماعي، وبعضهم يفصل في ذلك فيقبل الموسيقى إذا كانت على اجتماع صوفي توقظ حواس الخير، ويرفضها إذا كانت على اجتماع الخنا واللهو ونحوها ...[7] " .

وقبل أن نتعرف إلى الحياة الأدبية في الجزائر وأشكال الكتابة الأدبية حريّ بنا أن نعرج على العوامل المؤثرة في الحياة الثقافية آنذاك والتي كان لها دور عظم أو صغر لا يستهان به ولا يمكن إغفاله من قبل الدارس في رصد الظاهرة الثقافية وحدودها وأشكالها وطبيعتها في الجزائر خلال الاحتلال العثماني .

وقبل ذلك ينبغي أن نشير بداية إلى أن الوضع الثقافي في الجزائر عموما طغى عليه التشرذم والركود لفترات طويلة، ولم يتهيأ له مناخا ملائما للنشاط والتطور "ولعل ذلك راجع إلى طبيعة النظام التركي ذاته الذي لم يفرض لغة واحدة، وأبقى على تلك الفوضى اللغوية بعامياتها البربرية والعربية وبتقسيم مناطق النفوذ بين العربية والتركية بحيث كانت الأولى لغة الدين والتعليم وكانت الثانية لغة الإدارة في معظم الأحيان"[8]، ولم يعرف العهد العثماني في الجزائر شأنه شأن باقي الدول العربية حركات تجديد فكرية أو نهضة علمية، ولم ينحصر الإنتاج سوى على بعض الموضوعات الدينية والتعليمية وقليل من الشعر[9]، وإن كان هناك إسهام يذكر في هذا المجال وفي استمرار عجلة الكتابة والتأليف في الجزائر فبتأثير من بعض المؤسسات والمراكز الثقافية التي يمكن أن نحدد أدوارها وطبيعتها ونلخص أهدافها في الآتي:

1-المدارس والمعاهد العليا:

خلت الجزائر العثمانية من مؤسسة للتعليم العالي تعكس نشاط واتجاه العلماء وتحفظ قدرا من أساليب اللغة والذوق الأدبي العام، ولم يكن لها جامعة إسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة، غير أن دروس جوامعها الكبيرة كانت تضاهي أو تفوق أحيانا دروس جامعات ومعاهد الشرق لتنوع الدراسات فيها وتردد الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي [10] .

أما المدارس فقد كثرت في الجزائر حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن أو في القرى وهو ما جعل الكثير ممن زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرتها وانتشار التعليم بين السكان [11]. وقد كانت وظيفتها على قدر كبير من الأهمية فهي تثقف وتربي الأطفال على قواعد الإسلام، وتقوم بتحفيظ القرآن الذي هو أساس الثقافة الإسلامية وتعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة والمعارف التي تعينه على شق طريقه في المجتمع بعد خروجه منها رغم أنها لم تساير العصر ولا حاجاته الاجتماعية [12]، وكانت هذه المدارس تموّل عن طريق الأوقاف التي يحبسها أصحاب النفوس الخيرة التي ترجوا الخير، وتسعى إلى وهب ربع عقاراتها لبناء المدارس وغيرها من المشاريع التي تدعم التعليم بشتى أشكاله [13] .

2- الكتّاب:

من أكثر مراكز التعليم انتشارا في العهد العثماني في الجزائر " وهو عبارة عن حجرة أو حجرتين مجاورة للمسجد أو حتى بعيدة عنه أو غرفة في منزل، وقد خصصت لتعليم القرآن والقراءة والكتابة "[14]، بالإضافة إلى بعض مبادئ الفقه وبلغ عددها نحو عشرة آلاف كتاب يضم الواحد منها ما بين 20و30 تلميذا [15] .

3 -المساجد والزوايا:

خصصت الأوقاف بعض أموالها لبناء المساجد والزوايا ولم تؤد هذه المراكز وظائف تعبدية دينية فقط بل تعليمية أيضا، كما كانت " ملجأ أو مسكنا للطلبة والغرباء ومراكز لتلقين الأذكار واستقبال المريدين "[16]. وقد كانت العناية بالمساجد ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم إبان الاحتلال العثماني إذ لا تجد قرية أو حيّا بدون مسجد، وكان المسجد ملتقى العبّاد ومجمع الأعيان ومنشّط الحياة العلمية والاجتماعية، وحوله كانت تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب، فهو قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة.[17]

وقد ساهم انتشار الطرق الصوفية في بناء الزوايا وانتشارها، وكان لها دور واضح في النشاط

الديني والعلمي، وبالإضافة إلى كونها معاهد لتعليم الشباب وتنوير العامة فقد كانت كذلك مبيتا للطلبة ومساكن للغرباء والفقراء ومراكز لتدريب الأتباع على الثورة ضد السلطة لاسيما في أواخر العهد العثماني، وملجأ يأتي إليه الهاربون من العقاب ممن يعتقدون في حصانة حمى الزاوية والضريح.[18]

4-المكتبات:

راج في الجزائر عدد كبير من المكتبات قبل مجيء العثمانيين إليها والتي حافظ عليها أبناؤها خلال الاحتلال العثماني. وكانت الجزائر خلال هذا العهد في طليعة البلدان كثيرة الكتب والمكتبات، وقد شهد بذلك خصوم العثمانيين ذاتهم كالفرنسيين الذين حكموا بأن العثمانيين لم يقوموا بأي عمل لتنشيط الحياة الروحية والفكرية في الجزائر[19]. وكانت تلك الكتب تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ أو تجلب من الخارج لاسيما من بلاد الأندلس ومصر واستانبول والحجاز، كما جلب الجزائريون بعض المخطوطات من الدولة العثمانية وبلاد المغرب، إضافة إلى طائفة أخرى من الكتب جلبها العثمانيون معهم إلى الجزائر كالقضاة والعلماء الذين اصطحبوا معهم مكتباتهم ووثائقهم وأوراقهم ككتب الفقه الحنفي وصحيح البخاري وكتب الأدعية والأذكار الصادرة عن الطرق الصوفية المنسوخة بالخط الأندلسي الذي سبق الخطوط الأخرى في المغرب العربي.[20]

ويمكن تقسيم المكتبات في الجزائر إلى عامة وخاصة، فأما العامة فهي تلك المكتبات الملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس التي كانت مفتوحة للطلبة خصوصا ولجميع القراء المسلمين، وأما المكتبات الخاصة فكثيرة وليس من السهل حصرها واشتهرت بها بعض العائلات دون غيرها لطول عهدها بالنفوذ كمكتبة عائلة الفكون بقسنطينة التي كانت مضرب المثل بعد الاحتلال الفرنسي، وهي المكتبة المعروفة باسم حمودة الفكون الذي كان موجودا عند دخول الفرنسيين قسنطينة، ولم تخرج محتويات المكتبات في هذا العهد عن الطابع الديني، فكثرتها كانت من كتب التفاسير والقراءات والأحاديث النبوية وشروحاتها والفقه وأصول التوحيد..الخ.[21] أما مجالات العلم الأخرى كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والحساب والطب والفلك فكانت قليلة قياسا إلى سابقاتها.

وقد ضمت تلك المكتبات بين رفوفها أيضا الكثير من المخطوطات النفيسة في شتى المعارف والعلوم، غير أن مصيرها لم يكن آمنا فقد ضاع منها الكثير نتيجة الإهمال والنهب والتهريب

والحروب التي وقعت بين الجزائريين والعثمانيين والتي وقعت مع الأوروبيين[22]. ومهما يكن من أمر فقد ساهمت تلك المكتبات مساهمة فعالة في نشر الثقافة والعلم، وشكلت معينا للطلبة وجمهور العلماء لصقل معارفهم وتنمية مهاراتهم الفكرية والعقلية.

وكخلاصة لما سبق يمكن القول أن الحياة الثقافية في الجزائر إبان الاحتلال العثماني كانت منفصلة عن سيطرة الدولة وسطوة الحكام العثمانيين إذ لم يكن لهؤلاء دور يذكر في تنشيط الساحة الفكرية والثقافية، ولم يكن لهم اهتمام بهذا المجال الحيوي في حياة الفرد والأمة، إلا أن ذلك لم يمنع الجزائريين من محاولات النهوض بواقعهم الثقافي من خلال ما وقفنا عليه من اهتمام بالمساجد والزوايا والكتاتيب التي سعت إلى تلقين العامة مبادئ العلوم الدينية والإنسانية، ومن اهتمام بالمكتبات العامة والخاصة من خلال إثرائها بالكتب والمخطوطات التي يحتاج إليها طلبة العلم والحفاظ عليها خدمة للعلم والدين، وسعيا للنهوض بالواقع السيئ المفروض عليهم من طرف الاحتلال العثماني .

ويعثر المتتبع للحركة الثقافية والأدبية في الجزائر آنذاك على بعض الكتابات على تفاوت فيما بينها كما وكيفا للأسباب التي أتينا على ذكرها . وإذا أمكن لنا أن نرصد مظاهر وتجليات ذلك النشاط الإبداعي والكتابة الأدبية في ذلك العهد فسيكون ذلك على النحو الآتي:

أوّلا-الشعر:

المتتبع للحركة الشعرية في العهد العثماني ولبواعث الشعر وأغراضه يجد أنها كانت على قدر من النشاط والازدهار لا يستهان به، فقد سمحت تلك الظروف السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية التي عاشتها البلاد إبان العهد العثماني على تفتح قرائح الشعراء وعلى نمو مواهبهم، فراحوا ينظمون الشعر بكثرة لافتة فتعددت بواعثه وتعددت تبعا لذلك أغراضه واتسعت موضوعاته، فبالإضافة إلى الموضوعات العادية المعروفة التي تندرج في سياق الوصف والرثاء والهجاء والغزل والمدح وغيرها كتب الشعراء في موضوعات الدين والسياسة والاجتماعيات والذات الإنسانية، كما نظموا في شعر التصوف الفلسفي والمولديات ومدائح النبي ﷺ وسادت نزعة الزهد والتشاؤم في أشعار الكثير منهم، "وقبل كل شيء نذكر أن دواوين الشعراء الجزائريين ما تزال في طي الكتمان، ولا نعرف أن واحدا منها مما يعود إلى العهد العثماني قد جمع وحقق...وكل ما نعرفه أن هذا الشاعر أو ذاك هو بعض الأبيات أو القصائد المثبتة عرضا في أحد المصادر التاريخية أو الفقهية المتفرقة في الوثائق العامة ..."[23]

ولم تكن بواعث الشعر الجيد في هذا العصر كثيرة وانحصرت فقط في البواعث الدينية التي دفعت بالشعراء إلى الإفصاح عن مشاعرهم في المواسم الدينية المعروفة كالحج والمولد النبوي الشريف، كما كان النزاع الجزائري الأسباني باعثا لكثير من الشعراء إلى نظم الشعر داعين من خلاله للجهاد وتمجيد النصر والبطولة، وهو باعث ديني سياسي، وقد شغل بعض الكتاب في هذا العصر قضية شائكة متمثلة في علاقة الشعر الفصيح بالملحون وعلاقة الشعر بالحياة والدين عموما، حيث أعاب أحمد سحنون على بعض الشعراء غلبة العجمة على ألسنتهم ولجوئهم للشعر الملحون أداة للمدح والهجاء والغزل وغيرها من الأغراض التي طرقها الشعر الفصيح.[24]

وبالعودة للحديث عن الشعر وأغراضه في هذا العصر نجد أن المدح كان من أهم الأغراض التي طرقها الشعراء في هذا العصر خصوصا وقد ذكرنا آنفا أن من أهم بواعث الشعر في هذا العصر هو الباعث الديني . وهو ما يفسر أيضا ارتباط هذا الأخير بالدين، فكان في الأغلب الأعم شعرا دينيا يتغنى بمناقب الرسول ﷺ والتشوق لزيارة قبره، والأماكن المقدسة المرتبطة بحياته ومدح الأولياء والصالحين ونحو ذلك . وقد أكثر بعضهم في النظم في هذا الغرض حتى إن عبد الكريم الفكون نظم ديوانا في مدح الرسول ﷺ ضمّنه سيرته العطرة . ولابن عمار كثير من القصائد المديحية التي نظمها في المناسبات الدينية المتعلقة بالمولد النبوي الشريف وليلة القدر من بينها ما كتبه عن حلول شهر ربيع الأول حين تاقت نفسه للحج قائلا في مستهلها:

يا نسيما بات من زهر الربا يقتفي الركبان
احملـــن مني سلامـــا طيبا لأهيل البان[25]

كما ارتبط المديح النبوي في هذا العصر بالمولديات وبالأدب الصوفي حيث ترفع المولدية لملك أو خليفة أو وال، وعادة ما يستهلها الشاعر بمدح الرسول ﷺ ويليه مدح الملك أو الخليفة نظير خدمته للدين. ثم تختتم في الغالب بالدعاء للرسول الكريم، وترتبط المولديات بمناسبة المولد النبوي الشريف لتكون مدحا وثناء ودعاء ومن أمثلتها ما نظمه ابن عمار في موشحة يقول فيها:

يا رسول الله يا هادي السبيـــل من لأوطاري
يا شفيع الخلق يا غوث الدخيل من لأوزاري
كن شفيعـــا لمسيء أذنبـــا عند ذي الإحسان
احضر الوزن إذا مـا نصبـــا للورى الميزان
يا إله العـــرش يا محي العظام حطّ أوزاري

وهب اللّهم لي حسن الختام عند إحضاري

حيث رأى الشاعر في النبي ﷺ الشفاعة والمقام الرفيع، فتوسل به إلى الله مضمنا إياها إلحاحه ومناجاته وإقراره بذنوبه علّها تلقى القبول . كما كان لبعض الشعراء قليل من الشعر نظموه في الإشادة بمناقب رجال الدولة الجزائرية إبان العهد العثماني ضمّنوه الكثير من عبارات المدح والثناء، من ذلك ما كتبه ابن ساسي البوني في مدح الباي " محمد بكداش الذي أضفى عليه صفات العدل والسماحة والنسب الرفيع والطباع الحسنة والحافظ لمنزلة العلماء ورجال الدين، فيقول:[26]

محمد اسمه " بكداش " خوجة له لقبان من خير الفحام

فقيه لوذعـــي المعـــيّ جميل الوجه يلقى بابتسا

ذكيّ الفهـــم ذو نسب شريف لطه ينتمي خير الأنام

سخيّ عـــارف بالله حقـــا لأهل العلم يخضع ذو انسجام

أراد وصيّـــة مني ونصحـــا أنا أولى بمن يبري سقامي

هل المعوجّ يرجع مستقيمـــا ؟ وهل يروي عطاشا ذو أورام

ويمكن القول أن المديح قد شكل جزء كبيرا من الشعر الجزائري في هذه الفترة سعى من خلاله الشعراء إلى الرفع من شأن الممدوح بحسن الثناء والتنويه بالخصال، وقد كان في الآن ذاته تمجيدا لقيم إنسانية وفضائل أخلاقية تتجلى من خلال صورة الممدوح .

كما شغل الوصف في الشعر الجزائري حيزا لا يستهان به"فأبناء العصر العثماني من الشعراء كأسلافهم لم يقصّروا في هذا الفن، وإن لم يبلغوا شأوهم فكانوا أقل إنتاجا وفيضا من السابقين"[27] حيث وصف الشعراء الطبيعة، وكان وصف الحبيبة طريقا إلى وصف الطبيعة عندهم والعكس، كما وصفوا المنشآت العمرانية على قلتها في هذا العصر، فقد حظيت المنشآت التي أقامها محمد الكبير وصالح باي بتنويه من الشعراء الذين اعتبروا المدارس والمساجد ونحوها دليلا على اهتمام الولاة بالشعب والصالح العام، كما أشادوا بالجامع الكبير بمعسكر الذي بناه محمد الكبير وبالمدرسة المحمدية الملحقة به [28].

وقد كانوا مبدعين في وصفهم، ودلّ ذلك عن مدى تمكنهم من صياغة الألفاظ مثلما كشف عن ذوقهم الرفيع وإحساسهم المرهف الذي يتحسس الجمال في كل مكان وزمان[29]، ولم يقتصر وصفهم على الطبيعة والمنشآت المدنية والعمرانية فحسب بل تعداها ليشمل الجيوش والمعارك.

وهذا النوع من الشعر هو أشبه بالشعر السياسي الذي يصف المعارك ويتغنى بعدّة الجيش وعتاده وبانتصاراته وبطولاته وتضحياته.

ولا نبرح غرض الوصف حتى نمثل له ببعض الأبيات التي تبرز انشغال الشعراء به والاهتمام بهذا الغرض الشعري .

يقول أحمد القوجيلي واصفا الربيع بما فيه من تناغم بين عناصر الطبيعة الخلابة وبما فيه من حركة: [30]

أهـــدى الربيع سواكب القطـر فكسا الربوع عمائم الزهر
وجرى النسيم ورقّ فانعطفت منه الغصون بحافة النهر
فتعـــانقت وتمـايلت طربـــا وتلفّعت بمروطها الخضر
فـــاحمـــرّ خـدّ من خجـــل فلذا الأقاح ضاحك الثغر

وقياسا إلى المدح والوصف فقد شغلت الأغراض الشعرية الأخرى مكانة ثانوية كالغزل الذي كان قليلا في هذه الفترة من تاريخ الجزائر . ولعلّ ذلك راجع إلى أن الشعراء في الجزائر "كانوا لا يتحدثون عن المرأة بعينها حين يتغزلون، وإنما يصفون المرأة من الوجهة المجرّدة، فكانت صورهم الشعرية إما مأخوذة من الماضي وإما غير منطبقة على الواقع وإمّا خيالية قلّ من يحسّ بها" [31]، فضلا عن أسباب أخرى لعلّ أهمها غياب المرأة في المجتمع الجزائري وقلة نشاطها، وهو ما أدّى بدوره إلى خشونة في الطبائع والألفاظ وانعدام للذوق والمشاعر الرقيقة، وكذا افتقار هذا النوع من الشعر للحرارة وصدق العاطفة عند الجزائريين عامة وإلى الواقعية في كثير من الأحيان، إذ عمد بعضهم إلى الغزل بالمذكر، ويضاف إلى كل ذلك ندرة مجالس اللهو التي من شأنها أن توقظ المشاعر وتوحي بالقول للشعراء[32] . وقد كان بعضهم يتغزل ولا يبوح، يتعفف وهو غير عفيف . ومع ذلك فقد لاحظنا أن كثيرا من قصائد هؤلاء كانت كثيرا ما تستفتح بمقدمات غزلية على طريقة القدامى من الشعراء .ومن أمثلة هذا الغرض من الشعر في هذه الفترة ما كتبه القاضي محمد القوجيلي في قصيدة مستقلة جاء فيها قوله:[33]

الحب صعب والرقيـــب أعـــانـــه والدمع باح بذا الهوى وأبانه
والحب يستدعي القلوب إلى ذا الهوى فتجيبه منقـــادة ولهـــانـــة
والصبّ يطمـــع في وصـــال حبيبه بعد التذلل لا يملّ إهانـــة
حتى ليقنعـــه المـــرور صبـــابـــة يستنشق الأطلال كالريحانة

بجسمـــي المضني فتـــاة غـــازلـــت قلب الكئيب بأعين فتـــانـة
صـــالت بسلطـان الجمال عن النهى وقضت بسلب العاشقين ديانة
لا تعجبـوا من حكمهـا في عبدهـا حكم الملوك فإنهـا سلطانـة

وكما الغزل وعلى خلاف المدح والوصف جاء غرض الرثاء قليلا في ثنايا شعر الجزائريين في العهد العثماني، إذ لا يعثر الدارس على قصيدة تندرج ضمن ما يسمى بالرثاء السياسي، " ذلك أن جميع المراثي على قلتها لا تخرج عن بكاء بعض الشيوخ ورجال الدين فكأن نهاية الحاكم كانت تعتبر بشرى للأمة وليست نكبة قد حلّت بها".[34]

ولا شكّ أن الرثاء يكون أصدقا إذا قيل في أحد الشيوخ أو الأصدقاء والأقارب، ومع ذلك لا نجد منه إلا القليل ومنه ما كتبه مصطفى الرماصي القلعي لشيخه عمرو التراري بن أحمد المشرفي في قصيدة من 150 بيتا استهلها بقوله:[35]

خليلي عوجا بي على طلل عفا معالمـــه قـد غيّـرت ومعـاهده
وأسفت عليه السافيات بعيدنا دقاق الحصل فانحط منها أجالده

وإلى جانب نظمهم في الأغراض التقليدية الشعرية المعروفة فقد كتب الشعراء في السياسة وفي الاجتماعيات . والملاحظ أن هذا الشعر لم يرتبط بالسياسة في الجزائر خلال العهد العثماني إلا في بعض المناسبات المحدودة التي يمكن حصرها في الجهاد ضد الأجانب وخصوصا الأسبان، ومدح بعض الأمراء طمعا في المال وإبداء الموقف من الأتراك مدحا أو ذما [36]، وقد ساعد على ذلك أن الأمراء لم يكونوا ممن يتذوقون الشعر فلم يشجعوا عليه، ومما كتبه هؤلاء في شعر الجهاد والتحريض عليه إنما كان مستمدا من ذكريات سقوط الأندلس وأثره على المسلمين، وكذا تهديدات الأسبان باحتلال المغرب العربي وردّ غاراتهم وطردهم من الموانئ والمدن الساحلية التي نزلوا بها كالجزائر وشرشال ومستغانم ووهران. وقد قيل الكثير من هذا الشعر، فقد مدح الشاعر عبد الرحمان بن موسى حسن بن خير الدين باشا مهنئا إياه بالنصر بعد فتح حصن مرسى وهران فقال: [37]

هنيئا لك باشا الجزائر والمغرب بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب

كما مدح الشعراء بعض الأفراد من العثمانيين في الجزائر وأثنوا عليهم وفيهم من مدح الأتراك عموما ونوّه بفضلهم على الإسلام وجهادهم في سبيله ومدح الوجود العثماني في الجزائر الذي وحّد البلاد في عهدهم وقضى على الفتن الداخلية، وهو أمر يدلّ على أن بعض الشعراء الجزائريين

كانوا يتعاطفون مع الوجود العثماني وينظرون إليه نظرة إيجابية[38] .وقد كان هذا الشعر على قلته غنيا بالتجارب الشعرية غير أن شعراءه لم يلقوا العناية والتشجيع فظلت طموحاتهم محدودة محدودية اهتمام ملوك الدولة العثمانية وأمرائها بالشعر وتذوّقه.

وإذا كان هذا هو حظ الشعر السياسي فإن حظ الشعر الاجتماعي كان أقل نظما وإقبالا، "ولا غرابة في ذلك فإن المجتمع على العموم مجتمع منقبض قاس على نفسه تقل فيه الطرف والنكت والشعر وقد عرفنا أن المرأة كانت في المقام الثاني وكانت مشاركتها قليلة في الظاهر، فلم تدخل في ميدان الشعر الاجتماعي لا منتجة ولا موضوعا."[39] ويدخل في هذا النوع من الشعر شعر اللهو الاجتماعي أو استخدام الألغاز عن طريق الشعر تخفيفا من أعباء الحياة واختبارا للذكاء وتنشيطا للذهن.

ثانيا- النثر:

المقصود بالنثر هاهنا: النثر الفني أو الأدبي الذي يشمل المقالة والرسالة ...وغيرها من الأنواع التي تندرج ضمن هذا النوع من الكتابة، وقبل الخوض فيها لا بد من الإشارة إلى أن معرقلات نمو اللغة وانتشارها وانتشار الأدب في هذا العصر كانت أقوى من المشجعات فالولاة لا يفقهون اللغة ولا يتذوقون الأدب، وهو الذي أثرت فيه عوامل عديدة من بينها انتشار ظاهرة الصوفية واضطراب الحياة الاجتماعية، وعدم استقرار الحياة السياسية....

وبالعودة إلى أشكال الكتابة النثرية في هذا العصر فإنها تتعدد وتختلف وتتنوع من مقامة إلى رسالة إلى خطابة ...إلخ، وقد كان حظ الأدب الجزائري في العهد العثماني غني ببعض أشكالها كالرسائل والتقاريظ. وشهد إلى جانب ذلك ندرة في بعضها كالخطابة والقصص إضافة إلى ضياع الكثير من النتاجات الأدبية التي طالها التلف تارة والتهريب تارة أخرى، ومع ذلك فقد عرف تاريخ الجزائر الثقافي والأدبي في هذه الفترة كوكبة من الأدباء والكتاب تجلت إبداعاتهم في كثير مما ذكرنا من تلك الفنون النثرية نذكر منهم أحمد بن عمار، أحمد المقري، محمد بن ميمون، وعبد الكريم الفكون، وفيما سيأتي إطلالة على أبرز وأهم أشكال الكتابة النثرية في هذا العصر

أ-الرسالة:

تكون الرسالة مكتوبة كما قد تكون مشافهة على نحو ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم [40]

وقد عرف مدلول الرسالة في العصر الجاهلي مدلولا خاصا ارتبط برواية الخبر والإبلاغ الشفوي مما جعله يقترن بفعل التبليغ وما اشتق عنه. وقد ارتبط فعل التبليغ بالرسل والأنبياء الذين حملوا

رسالات رب العالمين إلى الناس أجمعين، ثم تطور مدلول الرسالة ليدل على الكتابة بداية من العصر الإسلامي لتزدهر في عصور الخلافة الإسلامية خاصة في العصر العباسي حين لقيت كل أشكال الكتابة الدعم والتشجيع من طرف الخلفاء، وتنوعت بين ديوانية وإخوانية واتسمت إلى جانب ذلك بجودة الصياغة وجمال الأسلوب. وقد استطاعت الرسائل في كل عصر من عصور العربية أن تجد لها مكانا مرموقا، وكانت كذلك في الجزائر في العصر العثماني إذ نجد العديد من الرسائل الإخوانية والديوانية التي كتبها أدباء الجزائر، وهي تكثر عند بعضهم وتندر عند البعض الآخر، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة كل كاتب وحجم علاقاته الإنسانية والاجتماعية، وقد حفظت لنا بعض الوثائق نماذج من تلك الرسائل بنوعيها ووقفنا من خلالها على طائفة متميزة من كتابها، " وممن اشتهر بين معاصريه بكثرة مراسلاته مع غيره نذكر أحمد المقري وعبد الكريم الفكون وأحمد بن عمار ، وثلة أخرى من العلماء الذين كانوا فقهاء أكثر منهم أدباء كعيسى الثعالبي وسعيد قدورة. " وقد كان هؤلاء الأدباء يتبادلون الرسائل في أغراض كثيرة كالتهنئة والاعتذار والتوصية عن قريب أو صديق أو أي غرض اجتماعي آخر، وكانوا عادة ما يضمنون رسائلهم بيتا أو أبياتا من الشعر وكثيرا ما جامل بعضهم بعضا فاكتفى بالثناء والإطراء على النقد وإظهار الحق "[41].

أما الرسالة الديوانية فقد كانت قليلة قياسا إلى الرسالة الإخوانية ولعل ذلك راجع إلى سيطرة اللغة التركية في الإدارة الجزائرية " وهي إذ تظهر لا يراعى فيها الإجادة بقدر ما يراعى فيها التوصيل والفائدة، وكانت أحيانا تأتي متكلفة ركيكة لأن أصحابها كانوا يحاولون ما ليس من شأنهم...."[42]

ومن هذه الرسائل ماكان يتبادله يوسف باشا مع محمد ساسي البوني أو من محمد بكداش إلى أحمد البوني، وجميعها كانت تغرق في السجع والمحسنات البديعية وتضمّ أبياتا من الشعر أو آيات من القرآن الكريم وتطيل في التقديم وتختم بالدعاء للمرسل إليه ونحو ذلك من الأساليب المعروفة في عصور الضعف.

ب- الخطابة:

تعد الخطابة من الفنون البارزة في النثر العربي فقد وجدت منذ القديم، وشملت ميادين وأغراض عديدة وتناولت موضوعات مختلفة سياسية واجتماعية ودينية ... وقد عرف الأدب الجزائري هذا النوع من النثر شأنه شأن كل الآداب العربية على مرّ العصور والأزمان بلغة عربية فصيحة يحذقها الساسة والمواطنون على حدّ سواء . ولكن بمجيء العثمانيين انحصر مجال الخطابة

وقلت رقعة انتشارها وضاقت موضوعاتها وأصبحت خطابة دينية فقط محصورة في المساجد .ذلك أن رجال الحكم وساسة البلاد كما أسلفنا الذكر كانوا لا يفقهون اللغة وبعيدون عن أهلها مع ما يحسّون به من غربة في البلاد التي يعيشون فيها، ولم يألفوا عادات أهلها وطباعهم حيث " كان الباشوات والبايات يتوارون عن الناس فلا يحدّثونهم ولا يخرجون إليهم، فقد يبقى الحاكم ما يبقى فلا يعرف الناس وجهه ولا شكله ولا يسمعون له صوتا ولا يخرج إلا غازيا أو إلى قبره". [43]

ولذلك كله لم يبق أمام الخطابة سوى المجال الديني الذي يأتي على رأسه صلاة الجمعة وصلاة العيدين، وقد عرف الأدب الجزائري عددا من الخطباء نذكر منهم سعيد قدورة وسعيد المقري وأحمد المقري وعبد الكريم الفكون ومصطفى بن عبد الله البوني غير أن ما يأسف له الدارس هو ضياع خطبهم التي لم تنل حظ التدوين " إذ لا نعرف من الخطب المدونة سوى مصدرين حتى الآن: الأول خطبة أو مجموعة خطب منسوبة لأحمد المقري، والثاني مجموعة خطب لعبد الكريم الفكون "[44].

وقد اشتهر مصطفى بن عبد الله البوني بحذق الخطابة وإتقانها، حتى زعم من حظر إليه أنه لا يوجد أفضل منه في ذلك من الجزائر إلى مكة .فقد كتب في شأنه ابن ميمون " يبتدع الخطب جارية الفقر ...له في الخطب الساعد المشتد والإلقاء الذي تميل إليه الهوادي وتمتد، والسكينة التي تحذق إليها الأبصار فلا ترتد ...لم أر أحق منه في طريقة الوعظ والخطابة والإمامة، ولا رأيت من شيوخنا من يتقدم أمامه..."[45]

ج-المقامة:

لا تقل المقامة شأنا عن الرسالة والخطابة في الأدب العربي القديم إذ تعد فنا أدبيا له أهميته ووظيفته خاصة أنها ارتبطت بغايات تعليمية وبتلقين صيغ التعبير، وبأنها حديث أدبي بليغ يهدف إلى تعليم الناشئة فنون القول وأساليب اللغة .

وترتبط المقامة بدلالتها الاجتماعية من حيث كونها: "تصوّر موقفا من المواقف هو موقف التهاجي والمخاصمة والمناظرة الذي يكون للكلمة فيه الدور الذي لا يجحد والأثر الذي لا ينكر"[46] ، وقد ظهر هذا الفن في العصر العباسي على يد بديع الزمان الهمذاني في القرن 4هـ، وظهرت في الجزائر امتدادا لذلك التأثر بكتابات وأساليب أدباء المشرق العربي، والذي بدا واضحا في كثير من أعمال أدباء المغرب العربي . وقد تجلى ذلك في مقامات ابن رشيق القيرواني والسرقسطي والوهراني. ولكنها في الجزائر كانت ضعيفة شكلا ومضمونا، إذ طغت عليها سمة

العصر. ومن الكتاب الذين تناولوا هذا الفن أحمد البوني في كتابه "إعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار"[47] وموضوعها علاقة العلماء بالسلطة والشكوى من وشايات أهل العصر، وقد كتبها سنة 1106هـ[48] وفيها كثير من الإغراب والتهويل. وما يلاحظ عليها أنها كانت أقرب إلى روح الخطابة منها إلى روح المقامة.

ويعد محمد بن ميمون أبرز من أجاد في فن المقامة في الأدب الجزائري في كتابه "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية" حين اتخذ من أساليب فن المقامة أداة لكتابة سيرة الباشا محمد بكداش، وقد جمعها في ست عشر (16) مقامة، وكل مقامة تشكل فصلا من فصول سيرة الباشا وأعماله بدءًا بـ: نبذة عن أخلاقه في المقامة الأولى وانتهاء بـ: في إياب خليفة سيدنا نصرة للجزائر سالما غانما في المقامة السادسة عشر. وقد جاءت في قسمين رئيسيين: ركز في الأول على الباشا وصفاته ووزرائه وقضاته وفي الثاني على أعماله وإنجازاته في فترة حكمه.

وقد كانت هذه المقامة أقرب إلى التاريخ منها إلى الأدب رغم ما عرف به ابن ميمون من حذق ومهارة أدبية، "فقد كان مجبرا وهو يتناول شخصيات تاريخية وأحداثا واقعية أن يكتب التاريخ لا الأدب وأن يسجل الوقائع لا الخيالات".[49]

د-الوصف النثري:

هو لون آخر من ألوان النثر الذي وجد في العصر العثماني وعرفه الأدباء الجزائريون، ويندرج ضمن هذا النوع من النثر وصف ظواهر الطبيعة والقصور والمباني والمدارس وغيرها من المنشآت المدنية وكذا وصف الخيل وسائر الحيوانات ووصف ما يعتمل بالذات الإنسانية إزاء بعض المواقف النفسية.

ولا يندرج ضمن هذا الوصف وصف المرأة لأن ذلك غالبا ما يكون عن طريق الشعر لا النثر، وقد مرّ معنا ذلك عند حديثنا عن الشعر وقد قيلت أشعار كثيرة في وصف الآثار والأبنية في الجزائر العثمانية، ولكن النثر لم يسجل ذلك إلا قليلا لأن تلك المنشآت كانت تثير الشاعرية أكثر مما تثير قدرة الكاتب على الوصف كقصر الباي الحاج أحمد ومنشآت صالح باي التي تثير الدهشة والإعجاب برشاقة وقوة ونصاعة هندساتها، وما يحيط بها من حدائق وساحات وحمامات وفوارات[50].

ويعثر الدارس في هذا الإطار على قطعة وصفية لابن عمار يصف فيها قصر ابن عبد اللطيف بالعاصمة الذي لا يزال موجودا إلى اليوم حين دعاه الوزير أحمد بن عبد اللطيف إلى سهرة مع أعيان

البلاد مدح فيها الكاتب آل عبد اللطيف بالعلم والثروة والجاه والوزارة من مثل قوله: " فا حتللنا قصرا وما أدراك من قصر تقابل الوصف أوصافه بالحبس والقصر، وتعبث محاسنه بالزهراء والزاهرة، وتشرف شرفاته على النجوم الزاهرة، وتلهو مقصوراته بقصور العراق ودمشق " [51] . ويعد وصف ابن عمار لهذا القصر من أقوى ما كتب الرجل في الأدب وقد بدت معالم الزمن في وصفه له متأرجحة بين مرحلتين: الماضي ثم الحاضر، استخدم الماضي ليبين كيف كانت حالة القصر في القديم أما الحاضر فتجلى في وصفه لهذا القصر العجيب على صورته الحالية[52] .

ه-التقاريظ والإنجازات والعقود:

هي الأخرى من أشكال النثر التي عرفها الجزائريون في العهد العثماني .فأما التقاريظ فكانت في موضوعات فقهية وأدبية سيطرت عليها الروح الإخوانية وأبرزت ثقافة الكاتب الأدبية واللغوية الذي مزج فيها بين النثر والشعر. ومن أمثالها تقريظ أحمد بن عمار لكتاب " الدّرر على المختصر " الذي كتبه ابن حمادوش في المنطق[53] . وأما الإجازات فهي ما يتناول السند وسرد أسماء الشيوخ ومواد الدراسة، وقد كانت صياغتها أقرب إلى الأسلوب الأدبي لأن أصحابها كانوا من الأدباء المهرة، وبذلك كانت الإجازة قطعة أدبية من حيث أسلوبها ومن أمثلتها إجازة محمد الزجاي لأحمد بن محمد الشريف المعروف بـ " ابن سحنون " التي استهلها الكاتب بالدعاء ثم ثناها بالحديث عن ابن سحنون ومصادر علمه وثقافته ثم ذكر بعض الشخصيات التي كان لها دور في تكوين شخصية أحمد بن سحنون ونبوغها في قوله: "وقد كان قرأ أكثر على صحيح الإمام أبي عبد الله محمد إسماعيل البخاري درسا، وقرأ أوائل كبرى الشيخ السنوسي ومعظم جمع الجوامع, بل معظم شرحه لجلال الدين المحلي وكل جوهرة الأخضري"[54] .

وفضلا عن ذلك فقد تفنن الكتاب في ذلك العهد في كتابه العقود لاسيما عقود الزواج منها مظهرين براعة لغوية وأسلوبية في ذلك، لأن بعض القضاة كانوا أدباء بطبعهم يحذقون اللغة ويتذوّقون الأدب، فكانوا يمزجون ثقافتهم الفقهية والقانونية بثقافتهم اللغوية والأدبية، فقدّموا إلينا نماذج من العقود يغلب عليها الطابع الأدبي أكثر من غيره[55]. وفي رحلة ابن حمادوش نصوص لعقود زواج مختلفة منها الفقهي التقليدي ومنها الأدبي الاجتماعي، وفيها الذي كتب لبكر، والذي كتب لثيّب ومنه القصير والمطوّل ، وكلّها تصلح نماذج تعين على دراسة الحياة الاجتماعية للعصر وللبيئة رغم ما فيها من تكلّف وتصنّع، وما يغلب عليها من طول للجمل واستعمال للسجع الثقيل ورتابة الإضافات [56] .وصفوة ما يقال أن تلك الإجازات والتقاريظ

والعقود شكّلت ميدانا فسيحا أظهر من خلاله الكتاب مقدرتهم وبراعتهم الأدبية في الكتابة .

تلكم باختصار كانت إطلالة على أهم أشكال الكتابة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، حـاول البحث من خلالها أن يقف عند التنوع الذي شهدته الكتابة الأدبية في تلك الفترة وأهم المؤثرات الاجتماعية والسياسية التي رافقتها وكان لها دور عظم أو صغر في انتشـار بعض أنواعهـا وانحسار بعضها الآخر فضـلا عن التعريف ببعض أعلامها ممن كان لهم إسهام واضح في الحياة الثقافية والأدبية الجزائرية خلال تلك الحقبة.

ـ الهوامش:

[1] –دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب الجزائري القديم، جامعة بسكرة، 2015، ص7.

[2] –أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، ص190

[3] –نفسه، ص194

[4] –نفسه، ص185

[5] – دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص284

[6] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص195

[7]– نفسه، ص196

[8] – أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج5، دار البصائر، الجزائر، دط، 2007، ص9

[9] – دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص9

[10] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص273

[11] – نفسه، ص274

[12] –نفسه، ص279

[13]– دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص21

[14] – مؤيد محمود حمد المشهداني و م.م سموان رشيد رمضان، أوضاع الجزائر خلال العهد العثماني 1518–1830، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكرت، مج5، ع16، نيسان 2013، ص435

[15] – نفسه، ص435 .

[16] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص245

[17] – نفسه، ص246

[18] – نفسه، ص268

[19] – نفسه ص285

[20] –نوال سقاي، الأوضاع الاجتماعية والثقافية في مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية، جامعة بوزريعة، ص44

[21] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص296–297

[22] –محاضرات في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، ص166.

[23] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، ص239

[24] –نفسه، ص242

[25] –نفسه، ص247

[26] –محمد بن ميمون، التحفة المرضية ص133/134 نقلا عن دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص55

[27] –سامي يوسف أبو زيد، الأدب العثماني، نقلا عن دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص120

[28] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص282

[29] – دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص128

[30] –ابن علي، أشعار جزائرية، ص150 نقلا عن دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص125

[31] –أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص291

[32] –نفسه، ص290

[33] –ابن علي أشعار جزائرية، نقلا عن دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص106

[34] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص278

[35] –نفسه، ص279

[36] نفسه، ص254

[37] –نفسه، ص255

[38] – نفسه، ص262

[39] – نفسه، ص267.

[40] –معلقة زهير بن أبي سلمى، المعلقات العشر وأخبار شعرائها، أحمد الأمين الشنقيطي، دار النصر للطباعة والنشر، دط، دت، ص91

[41] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص195

[42] – نفسه، ص196

[43] – نفسه، ص203

[44] – نفسه، ص205

[45] – ابن ميمون، التحفة المرضية، مخطوط باريس، ص156، 157 نقلا عن أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص205

[46] –عبد المنعم عبد الحميد، النموذج الإنساني في المقامة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، 1994، ص19.

[47] – دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص209

[48] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص209

[49] – نفسه، ص 209

[50] – نفسه، ص 209

[51] – نفسه، ص 200

[52] – دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 268

[53] – أبو القاسم سعد الله ،ج، ص 183

[54] – ابن سحنون ، الثغر الجماني ،ص 230 ، نقلا عن دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 279

[55] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص183

[56] – نفسه، ص188.

Forms of literary writing in Ottoman Algeria

D.r Youcef EL-AIB*

Abstract:

This study aims to represent the Algerian literary heritage during the Ottoman Occupation- a period of multiple political and social divergences which were reflected through their impacts on the culture and literature of Algeria at that time. The study highlights the characteristics of the literature that existed during the Ottoman era and which had a role in shaping the writing in Algeria at that time. Besides, it represents some of the scholars who participated in enriching the Algerian literature of that time of our History.

Keywords: Algerian literature - Ottoman era.

* Faculty of Arts and Languages – University of El-oued - Algeria.

مجلة البحوث والدراسات

العدد (24) ـ السنة (14) ـ رمضان 1438 هـ ـ يونيو (جوان) 2017 م

قسم البحوث باللغات الأجنبية

ترتيب الصفحات من اليسار إلى اليمين

صفحة بيضاء

قياس الكفاءة التواصلية بواسطة نموذج بكمان وبالمر

بقلم
د. محمد نوة
أستاذ محاضر "ب" بقسم الآداب واللغة الانجليزية
كلية الآداب واللغات. جامعة الوادي

الملخـــص

تهدف اختبارات اللغة الانجليزية حسب نموذج بكمان وبالمر (Bachman & Palmer, 1996) إلى قياس مستوى الكفاءة اللغوية للممتحنين وكذا مدى تمكنهم من استعمال هذه الكفاءة في سياقات مماثلة لمجالات دراستهم. ولكي تعكس النتائج المحتصل عليها في هذه الاختبارات المستوى الفعلي للممتحنين يقترح العالمان نموذجا يصف ماهية وكيفية عملية القياس والتقييم في المجال اللغوي. تحدد المرحلة الأولى من هذا النموذج الكفاءات الفرعية المستهدفة بالقياس وتبيّن مرحلته الثانية طرق وكفيات قياس تلك الكفاءات. تبين هذه الورقة أن استعمال نموذج بكمان وبالمر (Bachman & Palmer, 1996) لقياس الكفاءة التواصلية يؤدي إلى بناء اختبارات ذات مستوى عال من الصحة والصدقية.

الكلمات المفتاحية: التقييم – القياس – الكفاءة التواصلية – الاختبارات

Messick, S. (1995).*Validity of psychological assessment: Validation of inferences from persons' responses and performances as scientific inquiry into score meaning.American Psychologist*, 50 (9)741-749

Moller, A. (1981).Reaction to the Morrow paper. In J. C. Alderson & A. Hughes (Eds.), *Issues in Language testing: ELT documents 111* (pp. 39-45). London: The British Council

Nunan, D. (1993). Task-based syllabus design: selecting, grading and sequencingtasks. In G. Crookes & S. Gass (eds), *Tasks in a Pedagogical Context:Integrating theory and practice*(pp. 55–68) .Clevedon: Multilingual Matters.

Read, J. (2000). *Assessing vocabulary*. Cambridge: Cambridge University Press.

Savignon, S, J. (2002).*Interpreting communicative language teaching: Contexts and concerns in teacher education.*Yale: Yale University Press

Savignon, S.J. 1983: *Communicative competence: theory and classroom practice.* Reading, MA: Addison-Wesley.

Shohamy, E. (2008). Introduction to volume 7: Language testing and assessment.In E. Shohamy & N. H. Hornberger (Eds.), *Encyclopedia of language and education: Volume 7.Language testing and assessment* (2nd ed. pp. xiii-xxii).New York: Springer Science & Business Media.

Urbina, S. (2004). *Essentials of Psychological Testing.*Hoboken, N J: John Wiley & Sons, Inc.

Weigle, S, C. (2002). *Assessing writing*. Cambridge: Cambridge University Press

Reference List

Alderson, J. C. (2000). *Assessing Reading*. Cambridge: Cambridge University Press.

Alderson, J. C., Clapham, C., & Wall, D. (1995).*Language testing construction and evaluation*. Cambridge: Cambridge University Press.

Bachman, L. F. (1991). What does language testing have to offer? *TESOL Quarterly*, 25 (4), 671-704. From http://www.jstor.org.www.sndl1.arn.dz/stable/pdfplus/3587082.pdf

Bachman, L. F. (2007). What is the construct? The dialectic of abilities and contexts in defining constructs in language assessment. In J. Fox, M. Wesche, & D. Bayliss (Eds.), *What are we measuring? Language testing reconsidered* (pp.41-71) Ottawa,Canada: University of Ottawa Press.

Bachman, L. F., & Palmer, A. S. (1996).*Language testing in practice*.Oxford: Oxford University Press.

Buck, G. (2001). *Assessing listening*. Cambridge: Cambridge University Press; UCLES.

Canale, M., & Swain, M. (1980). Theoretical bases of communicative approaches to second language teaching and testing. *Applied Linguistics*, 1(1), 1–47.From http://applij.oxfordjournals.org/content/I/1/1.full.pdf+html

Chapelle, C. A. (1998). Construct definition and validity inquiry in SLA research. In L. F. Bachman & A. D. Cohen (Eds.), *Second language acquisition and language testinginterfaces* (pp. 32–70). Cambridge: CUP.

Douglas, D. (2000). *Assessing Languages for Specific Purposes*. Cambridge: Cambridge University Press.

Fulcher, G., & Davidson, F. (2007). *Language testing and Assessment.An advanced resource book*. London: Routledge.

Halliday, M. A. K. (1973). *Explorations in the Functions of Language*.London: Edward Arnold.

Halliday, M.A.K. (2004) *An introduction to functional grammar* (3rded). Oxford: Oxford University Press

Hymes, D. (1972). On communicative competence. In J. Pride & J. Holmes (Eds.), *Sociolinguistics* (pp. 269–293). Harmandsworth, UK: Penguin.

Lado, R. (1961). *Language testing: The construction and use of foreign language tests: A teacher's book*.New York: McGraw Hill.

Luoma, S. (2004).*Assessing speaking*. Cambridge: Cambridge University Press.

McNamara, T. (1996).*Measuring second language performance*. Harlow, Essex: Pearson Education.

McNamara, T.,& Roever, C. (2006).*Language Testing: The social dimension*.Oxford: Blackwell Publishing.

5.2.2. Characteristics of the Test Rubric

The test rubric "includes those characteristics of the test that provide the structure for particular test tasks and that indicate how test takers are to proceed in accomplishing the tasks" (Bachman & Palmer, 1996, p. 50). These characteristics include the structure (how the text is organized), instructions telling what to do, the duration of the test and its different sections, and how the responses are to be scored.

5.2.3. Characteristics of the Input

The input can be seen as "the data that learners are to work on: it may be linguistic (e.g. a radio broadcast), non-linguistic (e.g. a set of photographs), or 'hybrid' (e.g. a road map) "(Nunan, 1993, p. 59). The input is defined with respect to format and language. Bachman and Palmer describe seven characteristics for the input, which include the channel, form, language, length, type, degree of speededness, and vehicle.

5.2.4. Characteristics the Expected Response

The expected response refers to the answers to test tasks that test developers attempt to elicit by administering tests to examinees. In this context, language testers distinguish between expected responses and actual responses. Due to the ambiguity of questions or the lack of understanding on the part of test takers, the latter can respond in a way, that it is not expected (Bachman, 1990; Bachman & Palmer, 1996).

5.2.5. Relationship between Input and response

This feature describes how the characteristics of the input and the expected response are related to each other in that the type of answers provided by test takers can modify the test input. For example, interview questions can be modified depending on the interviewee's responses. This relationship can be determined in terms of three aspects: reactivity, scope, and directness of relationship (Lumoa, 2004, Weigle, 2002).

Conclusion

Assessing communicative language ability in Bachman and Palmer's model is implemented by administering tests to test takers for the purpose of measuring the extent of their language competence, and the degree to which they can use this competence in real-life target contexts. To implement this process, the authors propose a model delineating the constructs to be measured, and a method telling how these constructs can be measured. Bachman and Palmer's model builds upon two constituents: language knowledge and strategic competence. The former includes grammatical, textual, functional, and sociolinguistic types of knowledge. However, the latter describes the role of the mental strategies in relating utterances or sentences to the external context. Concerning the test method, it provides a description to the characteristics of test takers and test tasks for the purpose of minimizing their effect on test validity.

characteristics enables test developers to provide uniform testing contexts for all test takers. In this perspective, Bachman and Palmer (1996) identify five aspects of test tasks, which include the setting, the rubric, the input, the expected response, and the relationship between the input and response (see Table 2).

5.2.1. Characteristics of the Setting

Characteristics of the setting, which describes, "the physical circumstances under which either language use or testing takes place" (Bachman & Palmer, 1996, p. 49) include the physical condition, the participants, and time of task. The first feature describes the physical setting. The participants include test takers, proctors, and security personnel. However, the time of task examines the "degree to which the time of testing influences the test takers' ability to perform at their best" (p. 48).

Table 2: Test Task Characteristics

Characteristics of the setting	**Physical characteristics**	Participants Time of task
Characteristics of the test rubrics	**Instructions**	Time allotment Language (native, target) Channel (aural, visual) Specification of procedures and tasks
	Structure	Number of part/task salience of part/tasks sequence of part/tasks Relative importance of part/tasks Number of tasks/items per part
	Time Allotment **Scoring Method**	Criteria for correctness Procedures for scoring the responses Explicitness of criteria and procedures
Characteristics of the input	**Format**	Channel (aural, visual), Form (language, non-language, both) Language (native, target, both) Length Type (selected, limited production, extended production) Degree of speededness
	Language of Input	Language characteristics/organizational characteristics **Grammatical**(vocabulary/phonology syntax/ graphology) **Textual** (cohesion/rhetorical conversational/organization **Pragmatic characteristics:** **Functional:** ideational/manipulative heuristic/ imaginative **Sociolinguistic:** dialect/variety register, naturalness/cultural References and figurative language. **Topical Characteristics**
Characteristics of the expected response	**Format**	Channel (aural, visual), Form (language, non-language, both) Language (native, target, both) Length Type (selected, limited production, extended production) Degree of speededness
		Language characteristics/organizational characteristics **Grammatical**(vocabulary/phonology syntax/ graphology) **Textual** (cohesion/rhetorical conversational/organization **Pragmatic characteristics:** **Functional:** ideational/manipulative heuristic/ imaginative **Sociolinguistic:** dialect/variety register, naturalness/cultural References and figurative language. **Topical Characteristics**
Relationship between Input and Response	**Reactivity** **Scope of relationship** **Directness of relationship**	(reciprocal, non-reciprocal and adaptive) (broad, narrow) (direct, indirect)

Organized from Bachman & Palmer, 1996, pp. 50-51.

scores obtained in a given testing situation and the purposes for which these scores are intended to be used, "we need to provide evidence that the test scores reflect the area (s) of language abilities we want to measure, and very little else [and] in order to provide such evidence, we must define the construct we want to measure" (Bachman & Palmer, 1996, p. 21) in a way that it would reflect only these abilities.

4.2. Types of Constructs

Three types of constructs can be identified in the literature of language assessment: ability-based, performance-based, and interaction-based (Bachman, 2007; Bachman & Palmer, 1996; Chapelle, 1998; Purpura, 2004). The first type of constructs delineates what people can have in terms of language competence. For example, it examines the extent of their stored language knowledge. The second type describes what language tasks that learners can do with this knowledge. The third type examinesthe interaction that occurs between learners' internal competencies and the external context by means of strategic competence (Chapelle, 1998; Douglas, 2000).

5. Test Method Characteristics

Language testing builds upon two parts: the 'what' and the 'how'. The former describes the constructs that we intend to measure and the latter outlines the method through which we can measure these constructs (Buck, 2001; Read, 2000; McNamara & Rover, 2006; Shohamy, 2008). The 'how' or the test method describes the characteristics of the persons for whom we intend to administer the test, as well as the characteristics of test tasks with which we attempt to gather information about these persons' language competencies.

5.1. Describing Test Takers' Characteristics

Test takers' characteristics such as personal attributes, topical knowledge, affective schemata, and levels of language ability refer to the factors that do not form a part of the language ability to be measured, but which do have their impact on the interpretations we plan to make on learners' scores. The identification of these factors tends to minimize their effect on test performance on the one hand, and to strengthen the quality of validity on the other. Personal attributes include age, gender, social strata, and native language. Topical knowledge refers to test takers' familiarity or prior knowledge of the test subject matter. Concerning affective schemata, these can be described as the "emotional correlates of topical knowledge [which]…provide the basis on which language users assess…the characteristics of the language use task and its setting in terms of past emotional experiences in similar contexts" (Bachman & Palmer, 1996, p. 65).

5.2. Test Task Characteristics

Test takers usually perform on tests "differently under differing environmental conditions" (Bachman, 1990, p. 118). The author sketches four aspects for the testing environment. These include test takers' familiarity to the place and equipment, the personnel involved in the testing process, the time of testing, and the physical conditions (Bachman & Palmer, 1996). Describing test

3.2. Strategic Competence

As we have mentioned in the introduction, Bachman and Palmer's model is composed of two constituents: language knowledge and strategic competence (see para 3.1.). The latter can be conceived of as a "set of metacognitive components or strategies, which can be thought of as higher order executive processes that provide a cognitive management functions in language use, as well as in other cognitive activities" (Bachman and Palmer, 1996, p. 70). These strategies have two main roles. They enable the different language competencies to interact internally in order to create language. At the same time, they can serve as a mediator between these competencies and the external discourse.

3.2.1. Phases of Strategic Competence

Bachman and Palmer (1996) identify three phases through which these strategies can operate: goal setting, assessment, and planning. In the goal-setting phase, test takers decide what goal(s) they are going achieve; identify and select a task; and finally decide whether to complete doing that task. In the second phase, they assess the test task characteristics, their own language, and background knowledge in order to determine what relevant areas of knowledge are appropriate for the testing situation. In the third phase, they select the relevant components of language knowledge and incorporate them in their final responses.

4. The Constructs to be measured

As we have mentioned previously, applied linguists define models of communicative language ability as the frameworks, which attempt to describe the scope of what it means to know and to use a language in real contextual situations (Bachman & Palmer, 1996; Canale & Swain, 1980; Hymes, 1990).In their turn, these models are made up constructs "which are [their] principle components and the relationship between these constructs" (Alderson, Clapham & Wall, 1995, p. 17). If we examine Bachman and Palmers' model (1996), for instance, we can see that it is composed of numerous constructs: grammatical, textual, functional, and sociolinguistic types of knowledge. Each of which constitutes a construct that can be measured as a separate universe, or in relation to the other constructs.

4.1. Definition of Constructs

Measurement specialists define language constructs as psychological concepts, which underlie our linguistic behavior (Messick, 1995; Urbina, 2004). Unlike physical traits, such as color, height, length, which can be observed and explicitly measured, psychological concepts need to be inferred and operationalized so that they can be delimited and tested. For example, if we want to measure learners' reading comprehension, we can administer tests, which gather information about their capacity of skimming, scanning, or deducing implicit ideas and information (Alderson, 2000; Alderson, Clapham & Wall, 1995). Consequently, if we want to provide valid interpretations for the

3.1.1.1. Organizational Knowledge

Organizational knowledge covers "those abilities involved in controlling the formal structure of language for producing or recognizing grammatically correct sentences, comprehending their propositional content, and ordering them to form texts" (Bachman, 1990, p 78). Organizational knowledge is, in its turn, split into grammatical knowledge and textual knowledge. The former is concerned with the knowledge of vocabulary, syntax, phonology, and graphology, and with the organization of words into utterances and sentences. The latter focuses on the organization of utterances to form texts (Savignon, 2002).

3.1.1.2. Pragmatic Knowledge

Pragmatic knowledge "concentrates on the relationship between the forms of language (utterances, sentences, texts) on the one hand and the user's communicative goals and the setting of language use on the other" (Luoma, 2004, p. 99 [explanation in original]). This knowledge is made up of two competencies: functional or illocutionary knowledge and sociolinguistic knowledge. The first is concerned with the functional knowledge of language use; while sociolinguistic knowledge investigates the appropriateness of these functions to the contextual features.

3.1.1.2.1. Functional Knowledge

Bachman and Palmer's conceptualization of this knowledge is consistent with Halliday (1973, 2004) who delineates four types of functions of language use: ideational, manipulative, heuristic, and imaginative. Ideational functions are those utterances that express our experience of the world around us. However, the ones that are used to affect the world around us are specified as manipulative. Utterances that extend individuals' knowledge of the world around them have a heuristic function. The imaginative function "enables people to create or extend our own environment for humorous or esthetic purposes. Examples are telling jokes…creating metaphors… attending plays or films and reading literary works such as novels, short stories, or poetry for enjoyment" (Bachman, 1990, p. 94).

3.1.1.2.2. Sociolinguistic Knowledge

According to Bachman (1990) this competency comprises "the sensitivity to, or control of the conventions of language use that are determined by the features of the specific language use context; it enables us to perform language functions in ways that are appropriate to that context" (94). Bachman and Palmer (1996) identify four components of sociolinguistic knowledge: sensitivity to differences in dialect or variety, sensitivity to differences in register, sensitivity to naturalness and ability to interpret cultural references and figures of speech (Bachman, 1990; Purpura, 2004 Weigle, 2000).

implementing the components of language competence in contextualized communicative language use" (Bachman, 1990, p. 84).

3.1.1. Language Knowledge

Before providing a definition to language knowledge, let us first explain what we mean with the term knowledge. The latter can be defined as a "set of informational structures that are built up through experience and stored in long-term memory. These structures include knowledge of facts that are stored in concepts, images, networks, production-like structures, propositions, schemata and representations (Pressley, 1995)" (Purpura, 2004, p. 86). Concerning language knowledge, this can be thought of as the long-term domain of information that is stored in participants' memories and available for spontaneous use by means of strategic competence in producing and comprehending discourse (Bachman & Palmer, 1996). As Table 1 implies, language knowledge encompasses two broad competencies: organizational knowledge and pragmatic knowledge, each of which demarcates a wide spectrum of language aspects.

Table 1. Areas of Language Knowledge

Language Knowledge		
Organizational knowledge	How utterances or sentences and texts are organized	
Areas of organizational knowledge	Grammatical **knowledge**	(How individual utterances or sentences are organized) Knowledge of vocabulary syntax/phonology/graphology
	Textual **knowledge**	(How sentences/utterances organized to form texts) Knowledge of cohesion/ Knowledge of rhetorical or conversational organization
Pragmatic Knowledge	How utterances or texts are related to the communicative goals of the language user and to the features of the language use setting	
Areas of Pragmatic knowledge	Functional Knowledge	How utterances or sentences and texts are related to the communicative goals of the language user
		Ideational knowledge
		manipulative knowledge
		instrumental, knowledge
		imaginative knowledge
	Sociolinguistic knowledge	How utterances or sentences and texts are related to the features of the language use setting
		Knowledge of dialects/ varieties
		Knowledge of registers
		Knowledge of natural and idiomatic expressions
		Knowledge of cultural references and figures of speech

Organized from Bachman and Palmer, 1996, pp.66-8 , 71

Bachman (1991) identifies four features that can be specified to communicative tests. These include "information gap, task dependency, integration of task and content within a given discourse domain, [and the measurement of] a much broader range of language abilities" (p. 678). The first feature requires participants to incorporate 'multiple sources of input'. The input of a writing task can, for instance, be based on both printed texts, and listening tasks. The second feature 'task dependency' means that doing tasks in one section depends on the content of previous sections. The third aspect concerns the incorporation of content and tasks within a given discourse domain. Four, these tests "attempt to measure a much broader range of language abilities-including knowledge of cohesion, functions, and sociolinguistic appropriateness-than did earlier tests, which tended to focus on the formal aspects of language " (678).

3. Models of Communicative Language Ability (CLA)

Every test has a model of language ability behind it (Alderson, Clapham & Wall, 1995; Lado, 1961; Purpura, 2004). The latter refer to some "abstract theoretical descriptions of what it means to be able to communicate in a second language" (Fulcher & Davidson, 2007, p.36). On their part, models are made up of constructs, which delineate and specify the constituents that are intended to be measured (McNamara, 1996). We can, for instance, mention Hymes' (1972) model which addresses four sectors: grammaticality, feasibility of utterances, appropriateness, and occurrence (whether these utterances are really used by the speech community); Canale and Swain's (1980) three componential framework comprising grammatical, sociolinguistic, and strategic competencies; and last but not least, Bachman's (1990) three constituent model covering language competence,strategic competence and psychophysiological mechanisms. McNamara (1996) delineates three dimensions for CLA models "(1) what it means to know a language (a model of knowledge); (2) underlying factors relating to the ability to use language (a model of performance); [and] (3) how we understand specific instances of language use (actual language use)" (p. 48, [enumeration added]).

3.1. Bachman and Palmer's Model of Language Ability

Building upon Hymes (1972), Savignon (1983), Widdowson (1984), Candlin (1986) and Bachman (1990, 1991), Bachman and Palmer (1996) propose a model of communicative language ability (CLA) consisting two constituents: language knowledge and metacognitive strategies (Alderson, 2000; McNamara & Rover, 2006). Language knowledge is further subdivided into two competencies: organizational knowledge and discourse knowledge. Organizational knowledge is, in its turn, split into grammatical knowledge and textual knowledge. On its part, pragmatic knowledge is made up of two competencies: illocutionary (functional) knowledge and sociolinguistic knowledge. The second component of Bachman and Palmer' CLA refers to metacognitive strategies. These are mental processes responsible "for

1. Definition of Communicative Language Ability

Communicative language ability (CLA) has continually been defined with respect to two competencies: competence for grammar and competence for use (Hymes, 1972). In his seminal article 'On Communicative Competence', Hymes (1972) points out that when children acquire their mother tongue or learn a foreign language, they not only learn how to constitute and understand correct grammatical sentences, but also learn how to use these sentences in appropriateness with the social context they occur in. According to him, it is the interaction between these competencies that enables language users "to accomplish a repertoire of speech acts, to take part in speech events, and to evaluate their accomplishment by others" (p. 60).

On their part, Canale and Swain (1980) distinguish between communicative competence and communicative performance. They refer to the former as "the relationship and interaction between grammatical competence, or knowledge of the rules of grammar, and sociolinguistic competence, or knowledge of the rules of language use" (p.6). However, the latter concerns "the realization of these competencies and their interaction in the actual production and comprehension of utterances"(p.6). In the same way, Widdowson (1983) defines CLA as "the ability to produce and understand *utterances* by using the resources of the grammar in association with features of context to make meaning or as the ability to exploit a knowledge of the conventions of a language and its use for the creation of linguistic Behavior " (pp. 8, 9 [italics in original]). In summary, CLA encompasses competence or knowledge of language and "the capacity for implementing, or executing that competence in appropriate, contextualized communicative language use" (Bachman, 1990, p. 84).

2. Communicative Language Testing

Moller (1981) provides a comprehensive definition to communicative language testing (CLT). He considers it as the process of giving tests to examinees for the purpose of collecting information about their ability of using the resources of their knowledge of language such as phonology, semantics, and syntax in communicating idea to others speakers/listeners or readers. The ultimate objective of this process, according to the author, is to measure the quality of the message content, as well as the quality of its transmission and reception. In this perspective, Moller defines CLT as the:

2.1. Characteristics of Communicative Language Tests

assessment of the ability to use one or more of the of the phonological, syntactic and semantic systems of the language (1) so as to communicate ideas and information to another speaker/ reader in such a way that the intended meaning of the message communicated is received and understood, and (2) so as to receive and understand the meaning of a message communicated by another speaker/writer that the speaker/writer intended to convey. This assessment will involve judging the quality of the message and the quality of the expression and of its transmission, and the quality of its reception in its transmission (p. 40).

Assessing Communicative Language Ability by means of Bachman and Palmer's Model

Mohammed NAOUA *

Abstract

Assessing communicative language ability refers to the process of collecting data by means of tests in order to make inferences about test takers' levels of language knowledge, and to measure the extent to which they can use this knowledge in contextual target situations. According to Bachman and Palmer (1996), this process requires the outline of frameworks delimiting the constructs to be tested and the development of methods describing how these constructs can be measured. The main aim of this article is to introduce Bachman and Palmer's (1996) conceptualization of language assessment, which can be used as a basis for developing valid and reliable tests.

Keywords : Assessment – measurement – communicative competence – Tests

Introduction

Assessing communicative language ability can be defined as the process of collecting data by means of tests in order to quantify the linguistic mental traits of test takers, or to examine the degree to which they can use language in real target domains beyond the test itself (Bachman, 1990; Bachman & Palmer, 1996; Canale & Swain, 1980; Savignon, 1983, 2002). Since language use requires the interaction of many aspects which make up the language knowledge that is stored in people' minds with the external context, language testers emphasize that test design no matter how narrow the scope it intends to measure, it should be informed with a broad description of the ability to be tested. To put this into practice, Bachman and Palmer (1996) propose an operational framework delimiting and describing the abilities that test developers intend to test, and explaining how these abilities can be measured.

* Faculty of Arts and Languages – University of El-oued - Algeria.
mohamed.naoua@gmail.com

صفحة بيضاء

صفحة بيضاء

Revue des Recherches et des Etudes

Périodique académique, semi annuelle, savante, international, émis par l 'université d 'El-oued.

1112-4958